

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190126

UNIVERSAL
LIBRARY

المكتبة الأميرية . بمصر

عَلَاءُ الْعَرَبِ

كتاب اجتماعي تاريخي اقتصادي أدبي

فيه كلام على مدينة : فرنسا ، وانكلترا ، والمانيا ، وإيطاليا ، وإسبانيا ، وسويسرا ،
والبلجيك ، وهولاندا ، والنمسا ، والمجر ، والبلقان ، واليونان ، والامانة ، ومصر ، والشام
ومقالات في علائق الشرق بالغرب ، والغرب بالشرق ، منذ الزمن الاطول ، ولا سيما صلات
الغرب مع العالم الاسلامي ، والعربي منه خاصة . في جنوبي ايطاليا وفرنسا والاندلس .

تأليف

محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي العربي

— الجزء الاول —

الطبعة الثانية

١٣٤١ هـ المطبعة الرحمانية — عصر ١٩٢٣ م

غرائب الغرب

الطبعة الثانية

حقوقها محفوظة للمكتبة الاهلية - بمصر

زين للوف يشين زمال الفاربه يوسن بكل قعيم واهلكه
حتى هاشم قعيم وينا، عم سفا قعيم دوتا قعيم، وكن
المرء لو قديم باره فانظر دوا قعيم التي تشربها
١١، كمالك مانه الالوت من الحادرج در قيراد دلا من
يحيى يرحم ضعيف الماري وشمها اريه شي ليكا نهم وشمها على نظر
هذه الما حنف وان ديات التي لا تقدر يمن واكلوسه المحبوبة
تقتر هن الما من الفركات ليد العيز مني نرا ميا
لقد هي المحبوبة مكن، الودقة لا تظن لانه من اطرافها

بشریفة لا

مقدمة الكتاب

هذه فصول ومقالات بل آهات وتأوهات كتبتها في وصف معالم الغرب وما لقيته فيه وقد زرته ثلاث مرات الاولى في شتاء سنة ١٣٢٧ (١٩٠٩ و ٨) والثانية في شتاء سنة ١٩١٣ - ١٩١٤ م والثالثة في سنة ١٣٤٠ (١٩٢١ - ١٩٢٢) وأنا على مثل اليقين بأنها لا تحمل في مطاويها من تلك المدنية الساحرة الا بقدر ما تصل اليه يد عابر سبيل ويتفطن له فكر النزيل والدخيل وقد اُبقيت ما كتبتة في حينه بحاله لم ادخل عليه أدنى تعديل ليقف القارئ على ما كتب برمته راجياً من كرمه تعالى أن ينفع بها قراء العربية ومنه أستمد العون والتيسير نعم المولى ونعم النصير .

محمد كرد علي

دمشق ١٩ صفر سنة ١٣٤١ و ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٢

الرحلة الاولى

الرحيل من دمشق الى لبنان

١

كان من أعظم أمانى النفس منذ بضع سنين . ان أرحل الى أوروبا رحلة علمية أقضى فيها ردياً من الدهر . لتوفر على دراسة حضارة الغرب في منبعها ، واستطلاع طالع المعاهد ، التي منها نشأ المخترعون والمكتشفون . والفلاسفة المزهرون . والعلماء العاملون . والساسة المستعمرون . والقادة الغارون ، والتجار والصناع والزراع والماليون . وهم على التحقيق مادة تلك المدنية وهيولائها وكانت الأحوال تعوق هذا القصد عن اتمامه ، وتحول دون البغية المنشودة الى أن قدر الله فأقام والى سورية السابق تلك القضية الملفقة على جريدة المقتبس واحضال انتقاماً لنفسه لا قفال المطبعة وتوقيف الجريدة والمجلة قبل صدور حكم المحكمة علي فقلت الآن حان وقت الرحلة في طلب العلم تتفرغ لتحقيق ما في الخاطر ، ريثما يتبين الحق من الباطل ، والحال من العاقل ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم

في الهزيع الأخير من ليل الثلاثين من رمضان (١٣٢٧ هـ ١٩٠٨ م) ركبنا من دمشق عربة مع صديقين عزيزين : قاصدين قرية القابون وفي ظاهرها وقفنا لحظات الى أن وصلت فرسى ووصل صديق لي آخر راكباً فرسه فركبنا وعاد ذاك الحبيبان الى المدينة . وكان بدأ في تلك الساعة الأشرار في الأفق ، والسكون لم يبرح مستحوذاً على الارياض والرياض ، ولم نكن نسمع من بعيد غير فقعقة أجراس الطحانين والمكارين ، وصياح الديكة أو عواء الكلاب ، وما كدت أعلو متن مطيتي حتى ترمى الى مسمى صوت مؤذن القابون ينادى

« هلموا الى طاعة الله يرحمنا ويرحمكم الله » فقلت : كلمة حق لو جرى العمل بالطاعة وما يلزم لها ، لرحموا ولكنها حمل جميلة تقال ، ومما ان شريفة لا يعمل بها وعادات ألقت بمعزل عما فيها من الأسرار النافعة في صلاح المعاش والمعاد

التفت الى الغوطة الدمشقية التفاتة أخيرة وهي أحب بقعة الى قلبي في الارض وقد كثر في أفقها شفق الفجر فذكرت طرفا من أيامها البيض والسود . ذكرت الغوطة المحبوبة ، وذكرت مطامع البشر . وانحطاط أخلاقهم وعقولهم ، فقاد ذلك الى التفكير في شقاء الانسان بالانسان . وموت بعض لحياة كل ، وافتقار مئات لا غناء أفراد ، وشقاء ربوات ، لسعادة عشرات . وتعب فريق ، لراحة أمة ، فتعثل لى عجيب صنع المولى في خلقه ، سبحانه لا يبقى العالم على حال ، هو المعز المذل . القابض الباسط ، المغنى المفقير . يقلب الارض ومن عليها ولا يرثها الا عباده الصالحون .

سارت بنا مطيتانا . فاجتزنا قرية برزة ومعربا ، ولم تشرق الشمس الا وقد قطعنا أراضى معربا وأشرفنا على اكمتها فالتفتنا الى ما وراءها وقد تجلبت لنا بعض بقاع الغوطة والمرج من خلف الجبال . فألقينا عليها نظرة الوداع ، وأغذنا السير الى بسيمة . ومنها الى دير مقرن فكفير الزيت فدير قانون فكفر العواميد ، وفي هذه القرية بتنا ليلة عيد الفطر .

ولم أشهد هذا الوادى وكنت مررت به راكباً منذ ستة عشر عاما شيئاً من التغير والارتقاء المحسوس ، فالفلاح فيه لا يزال ينتظر موسم الفاكهة . ان سلعت أشجاره من لفحات الجليد . يرتاش تلك السنة ويعتاش ، برمانه وجوزه . وتفاحه وكثره . وتينه وعنبه . والا فيضطر فى الاكثر الى الاستدانة على الموسم المقبل ، وان كان على شىء من القوة والجلد . يرحل الى بعض الكور المجاورة كقرى وادى المعجم أو الغوطة يعمل فيها أشهر الصيف ليأتي فى الشتاء بمثونة تكفيه من الحنطة فى كنهه وكانونه .

وذلك لان هذا الوادى منذ قرية دمر حتى سوق وادى بردى لا يغل من

الحبوب ما يسد عوز سكانه بعض السنة ، لغلبة اليبوسة على جروده وجباله ،
لأن أكثر تربته صخرية ، تحتاج للعمل الكثير على الطرق الزراعية الحديثة ،
تأتي أكلها . أما الأشجار وبعض الخضر والبقول التي ينتفع بها الفلاح هنا ،
فالفضل لنهر بردى في اروائها ، يأخذ من مائه في مجارى عليها بقدر حاجته
وأكثر .

ولقد أخذت أثمان الفواكه تأتي أصحابها بأرباح أكثر من السنين السابقة
خصوصاً منذ تم استثمار السكك الحديدية في سورية كسكة بيروت - دمشق -
حوران وسكة دمشق - حيفا - المدينة وسكة دمشق - حلب - يرهجك
(البيرة) فأصبحت ثمارهم تصدر الى الجهات القاصية ، وكانوا يقدمون أكثرها
في سنى الخير علفاً للدواب ، أو يلقونها في الطريق ، لان العطلة في نقلها من محلها
الى دمشق أو بيروت مثلاً على الدواب لا تقوم باجرة المكار ودابته .

نعم لم أر ارتقاء محسوساً في حالة فلاح وادى بردى (البيلية) وأنى يتم له
ارتقاء . وليس له طريق يسلك . غير ما حفرتة أقدام المارة ، وحوافر الدواب
والماشية . وجرفته السيول ورياح منذ قرون . فالطرق المعبدة المطروقة
لا أثر لها في هذا الوادى ، ولعل ذلك ناشئ من كونه حديث عهد بالحكومة
المنظمة ، فقد كانت معظم قراه من قبل تابعة لاقضية بعيدة أما الآن بعد ان
غدا من مركز قضاء الزبداني على بضع ساعات . فقد بات يرجى أن تنظم لاهل
قضاء الزبداني طرق غير طريق السكة الحديدية تصل بين قراهم وبين دمشق حاضرة
الولاية ، ليتيسر للناس الغدو والرواح ، من أيسر السبل ، وما إخال ذلك متعذراً
على الحاكم اذا حث أهل كل قرية أن يقرموا بأنفسهم ، لتمهيد طريقهم ، أيام
انقطاعهم عن العمل ، كفصل الشتاء مثلاً لما يعرفون من الفوائد التي تنجم لهم
عنها ، أو يعلمونها بواسطة الموظفين الأمناء ، وان كانت هذه الطريقة لا تخلو
من محظور لأنها تؤدي الى السخرة ، والسخرة ممنوعة بنص القانون الأساسى
وتمهيد الطرق وبث الأمن من جملة الفروض العينية على كل حكومة .

وبعد فانه لا وجود في وادي بردى لسائر المرافق التي يتمتع بها الفلاح في البلاد المتقدمة ، وذلك لان الحكومة الاستبدادية الماضية لم يهتما من الفلاح الا أن تأخذ منه لا ان تهنيء له سبيل الاخذ . فكان قصاراها تكثير الجباية ، وتوفير الضرائب ، وأخذ من تريده للخدمة العسكرية ، أما امتاع الاهلين بالوسائل الصحية ، وتعليمهم الطرق الزراعية القريبة المأخذ . وفتح سبل المواصلات ، ورفع علم الامن ، وتعليمهم الضروري من القراءة والكتابة ، فكانت أموراً لا تعرفها لافي وادي بردى فقط بل في جميع أودية البلاد العثمانية وسهولها وجبالها .

ومن أغرب ما رأيناه في وادي بردى ، ان بعض قراها تحفر القبور لموتاهها أمام الدور ، فترى حي الاحياء مع حي الاموات ، وما أدرى هل يأتون ذلك بالقصد حرصاً على رفات موتاهم من ان تسطو عليها الوحوش الكاسرة في مدافنها اذا لحدودها بعيدة عن العمران ولو بضع خطوات ، أو انهم يؤثرون دفن الموتى أمام أعينهم لذكروا كل شارقة وبارقة مصير الانسان الى دار البقاء ويذهبوا في دار الفناء ، فلا يهتمون بأسباب الهناء والصفاء .

ومما عمت به البلوى في الفلاحين . إنك ترى القاذورات أيضاً تعمى العيون ونخنق الانفاس ، فترى روث البهائم وغائط الآدميين ، وسط الدور وخلفها وقدامها وعن ايمانها وشمائلها . ولولا بقية من عادة النظافة والتطهر ورثها المسلمون بالتسلسل عن آباؤهم وشيء من جودة الهواء في الجملة في القرى لما بقيت باقية لسكان هذا الاقليم ومن حوله .

ركبت صبيحة العيد ورفيتي قاصدين سوق وادي بردى واعلها سميت كذلك لسوق كانت تقام فيها فيما مضى للبيع والشراء على العادة في أسواقنا الباقية حتى الآن فيقال مثلاً سوق الاحد وسوق الجمعة وسوق الخليل وسوق الحمير، ولهذه الاسواق أمثال في أوربا . وبالقرب من السوق تضيق فوهة الوادي وينقطع العمران ليخرج منه الى منفسح وادي الزبداني . وجبال السوق لا تخلو من

نواويس قديمة على نحو ما تجد منها في جبال الشام مخفورة في الغالب في القمم والآكام . ومن السوق انتهى بنا نفس السير الى قرية عيتا الفخار من أعمال البقاع العزيز ، وهي القرية التي اشتهرت منذ عهد بعيد بفخارها الذي تطبخه أكثر بيوتها في تنانير خاصة وتبيعه في المدن الداخلية من أعمال دمشق

وقد شعرنا بتغير المشاهد منذ أطلعنا على عيتا . ورأينا بيوت القرميد التي بنيت بالحجر النحيت على المثال الذي نشاهده في أكثر بيوت سورية وعلمنا ان سبب ما شاهدناه من جمال المساكن في عيتا ، تلك الاموال التي جلبها بعض سكانها من هجرتهم الى اميركا ، وأحبوا حتى من لا تحذتهم أنفسهم بالسكنى ثانية في عيتا أن يظهروا غناهم بإنشاء الدور المنظمة ليصح عليهم المثل العربي « أبت الدراهم الا أن تخرج أعناقها » « ان الغنى طويل الذيل مياس » أو الاثر المشهور « ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » وليس كالببوت ثم عن يسار وتدل على سعة . وبعد عيتا مررنا بكامد اللوز فجب جنين فلا لا فبعول من وادي البقاع وفي هذه القرية بتنا عند رجل من أهلها أنزلنا عنده وأكرمنا ولم يعرفنا . ومع حرصه على معرفتنا اكتفيننا من التعريف بالتعريض . وفي المعارض مندوحة عن الكذب .

وقد سرت الى هذه القرية والى جميع قرى البقاع عدوى الهجرة وتناول الاغتراب السكان على اختلاف نحلهم ، ومن حديث كثير من البقاعيين تبين ان أهل كل قرية في الغالب يؤثرون في بلاد المهجر اقلها خاصاً لهم ينزلونه أو مملكة يوجهون وجهتهم اليها فيقصد . مثلاً أهل قرية كذا ولاية كذا من شمالي اميركا وأهل القرية الفلانية يقصدون جمهوريات الجنوب وآخرين ينزلون كندا وغيرهم اوستراليا وفريق السنيغال وبعض الترنسفال . فكان بدوى الانتقال تسرى اليهم بالعشرة ، فلا يحب المواطن الا أن يقلد مواطنه في مآتيه ومنازعه ، بل في شقائه وسعادته . وقد أذكرنا هذا بحال العرب في الفتح وبعده فكان القيسيون ينزلون بلد كذا واليانيون اقليم كذا ثم لما امتدت الفتوحات وفتحوا الاندلس

كان جند الشام يختار بقعة غير التي اختارها جند حمص ولذلك كان الجند يدعون كل بلد ينزلونه باسم بلدهم الأول كما يحاول بعض مهاجرة السوريين الآن مثل ذلك في لولايات المتحدة .

وفي اليوم الثالث قصدنا مشجرة فررنا بجسرها المخرب الممتد على نهر الليطاني وأنجدنا قاصدين جزين أول حدود لبنان الى الجنوب ، ومشجرة أقصى بلد طاصر بالزراعة والصناعة في البقاع الغربي وهي مشهورة الى الآن بدبغ الجلود للأحذية اشتهار مدينة زحلة أو أكثر ، والمسافة بين مشجرة من أعمال ولاية سورية وجزين من متصرفية لبنان ثلاث ساعات تعلو قمة عالية ، ثم تنحدر في واد عميق ومع ان قضاء البقاع من أعمار أقضية ولاية سورية بزراعته لخصب تربته ، وتوفر المياه الدافقة عليه من سفوح لبنان الغربي ولبنان الشرقي ، ومتاخته لجبل لبنان الذي يحتاج لكل ما تنبته أرض البقاع من الحبوب والثمار . ومع كثرة الأعيان الذين يملكون فيه المزارع والأراضي الواسعة ومنهم من أنشأ فيه حقولا نموذجية حقيقية وصرفوا عليها الاموال الطائلة واستخدموا لها أحدث الطرق الزراعية كالاراضي التي عمرها نجيب بك سرسق في عميق ودير طحنيش وأقامها الآباء اليسوعيون في تعنابل — مع كل هذا العمران المستبحر ، وماتأخذه النافعة من أموال الاهلين كل سنة باسم الطرق والمعابر لا ترى في القضاء طريقاً مسلوكة اللهم الا طريق الشام القديم الذي تركته شركة الديليجانس لما أنشئ خط بيروت الحديدي . وقيل لنا ان الحكومة صح عزمها مؤخراً على انشاء طريق عجلات بين المعلقة مركز القضاء وبين مشجرة في غربه وان هذا الطريق وصل أو كاد الى قرية عيتنيت ولعله يكون جسماً لا اسماً كما كثر الطرق التي أنشأتها النافعة في الولايات فكانت لفظاً بلا معنى واسماً بلا مسمى لم ينشأ عنها الا التعجيل في سلب نعمة الفلاح وخراب بيته باسم العمران وخدمة الاوطان .

وصف لبنان الطبيعى

٢

كنت فى لبنان أشبه بأبى زيد السروجى أو أبى الفتح الاسكندرى احتاج الى راوية مثل الحارث بن همام أو عيسى بن هشام يروى كل منهما لمثل الحريرى أو بديع الزمان تلك المظاهر التى اضطرت الى الظهور فيها لانبجوا من مخالب عدو ممازق أو جاسوس مخادع وليتيسر لى درس حالة البلاد بدون حجاب .

فقد قيل : اكتم ذهابك ومذهبك وذهبك ، ولكن هذه القاعدة لا يرضاها منك اللبنانيون الاذكياء ، فتجدهم يحرصون كل الحرص على استطلاع طلع كل مصطفى بينهم . أو سائح فى جبالهم . والوقوف على مقصده . ومبلغ ثروته . والدين الذى يدين به . وربما كان سؤلهم عن الاخير قبل كل شئ . لان عامتهم متدينون جداً فهم يسرون اذا شعروا انهم يتعارفون الى رجل يشاكلهم فى المعتقد . وأتى لمن قضى عليه شدة اخلاصه فى خدمة وطنه ودولته ، أن يصرح لهم بهويته . وهو مشرد طريد . محكوم عليه بالجناية حكما قره قوشياً

ودعنى رفيقى غداة وصلنا الى جزين وعاد الى الفيحاء وبقيت وحدى لارفيق لى الا كتابى وفرسى . فانقلبت لساعى من جزين قاصداً دير القمر . فاجتزت اليها بتاتر وعماطور والمختارة وغيرها ، والطريق بين هذه القرى القديمة عامرة من وراء الغاية تمشى فيه وسط أشجار الزيتون وهى غابات غيباء فى الشوف كما ان أشجار الصنوبر كذلك فى قضاء المتن ، ودير القمر هو مركز الجبل القديم وصلت اليه قبيل الغروب وقد بدت القصة بأبنيتها الشاهقة كالمروس فى حليها وعكست شمس الاصيل على زجاج نوافذها وسطوحها فاختلطت الحمرة بالصفرة بالخضرة بالزرقة فكان من أجمل منظر تقع عليه عين انسان وأهل الدير كمعظم سكان الجبل موصوفون بالرفقة وحسن العشرة يتحببون الى الغريب كيف كانت

حاله ، وفي هذه القصبة الى اليوم جامع قديم من القرن العاشر بناء أحد أمراء لبنان ولا يزال الدير يوزن بحرصون على سلامته فيتعهدونه بالعمارة وان لم يكن له من يقيم فيه الصلاة

وقصبة الدير بكثرة سكانها ، وتوفر مرافق الحياة فيها ، أشبه بالمدن منها بالقرى ، وهي مشهورة بتجارة الحنطة تحمل اليها من حوران فتوزع في الاطراف وليس دير القمر وحيداً في نوعه باكتظاظ الاقدام فيه فمدينة زحلة لا يقل سكانها عن خمسة وعشرين ألف نسمة وأوصل بعضهم تقوسها الى خمسة وثلاثين وتكثر النفوس في حماتا ورأس المتن وبرمانا وبيت مري وبعبدات وبيت شباب وبكفيا وبسكنتا وبعبداء والشوير وحصرون والشويفات وحدث الجبة وبعقلين ومجد المعوش وعالية ومعلقة الدامور وجزين وجبيل واهمج وتنورين وعمشيت وغزير وجونية وكفرذبيان والبترون واهدن والهرمل وأميون وزغرتا وكوسبا وفي غير ذلك من القصبات التي يعد فيها النفوس بالألوف والمئات

والقرى والمزارع متصلة خصوصاً في المحال التي ترتفع كثيراً عن سطح البحر ولا يتعذر العيش فيها في الشتاء لكثرة ثاجها وبردها وجليدها وأعاصيرها وما أشبه لبنان وقراه ومزارعه لا تقل عن تسعمائة وست وخمسين قرية^(١) الا بقصر نخم جميل ! واسع الارعاء . محفوف من أطرافه بالرياحين والأزاهير العطرية ، وغرفته الكثيرة تلك الدساكر والضيايح ، لا يكاد المتجول يمل من مقصورة ، حتى ينتقل الى أخرى ، وما أسرع وصوله اليها من تلك الطرق المعبدة ، وهذا القصر مزدانة أفنيته وأروقته بأقصى ما تخلص به يد الصانع من بدائع الزينة ويد المخلوق لم تقصر كثيراً في تعهده

معنى لبنان الأبيض ، وهو اسم عبراني سمي به لتعم قمه بالثاج في الشتاء والربيع وبعض الصيف . وقد ورد ذكره في الشعر القديم ، فقال النابغة الذبياني :

(١) دليل لبنان لابراهيم الاسود

حتى غدامثل نصل السيف منصلتاً يقرأ الاماعز من لبنان والا كما
وقال أحمد بن الحسين بن حيدرة المعروف بابن الخراساني الطرابلسي من
المحدثين :

دعوني لقاً في الحرب أطفو وأرسب ولا تنسبوني فالقواضب تنسب
وان جهلت جهال قومي فضائي فقد عرفت فضلي معد ويعرب
ولا تعبوني إذ خرجت مغاضباً فمن بعض ما بي ساحل الشام يغضب
وكيف التذاذي ماء دجلة معرقاً وأمواه لبنان ألد وأعذب
فألى وللأيام لا در درها تشرق بي طورا وطورا تغرب
وأنشد المتنبي في مدح أبي هرون بن عبد العزيز الأوارجي من قصيدة :
بني وبين أبي علي مثله شم الجبال ومثلهن رجاء
وعقاب لبنان وكيف بقطعها وهو الشتاء وصيفهن شتاء

وقال البحتري :

وتعمدت أن تظل ركابي بين لبنان طلعا والسنير
مشرقات على دمشق وقداء رض منها بياض تلك القصور

وقال الجغرافي اليزه ركلو من المتأخرين يصف لبنان : اذا ما القبت يبصرك
من البحر . الى سلسلة لبنان المستطيلة . رأيت من هذا الجبل منظرأ مهيباً فيلوح
لك أزرق أو ورديا في الصيف وشمسلا في الشتاء والريبع بجلباب ثلجه القضي
واذا تصاعدت الأنخرة في الجو ألبيت قمة الشاخنة ثوبا شفافا هوائياً ، غاية
في اللطف . بيدأن جمال هذا المنظر ، لا يخلو من سطوة الشدة ، فتري ذاك
الجبار يتمطى بضلوعه الشديدة وينطح برأسه الشامخ لا يقوم في وجهه قائم
على ان النظر الى محاسن هذا الجبل عن كشب هي دون جماله عن بعد فتري ظهره
على طول ١٥٠ كيلو متراً . أقهب أجرد لا تكسوه الخضرة ، أوديته متشابهة
ومشارفه كأنها قلت على قالب واحد

وقال الألب لا منس : أن لبنان أشبه بجدار عظيم من الصخور وجهته من

الجنوب الغربي الى الشمال الشرقى وفي الجهة الشرقية تراه ينقطع بفتة . أما من جهة الغرب فهو يتفرع فروعا متعددة على هيئات شتى من آكام وبطون وسهول وربى متسلسلة يدخل بعضها في بعض . واذا استثنيت هذه التفرعات الثانوية والتجعدات غير المنتسقة . تحققت أن سلسلة لبنان العظمى قد وضعها الخالق على صورة نظامية ، وجانب كبير من البساطة ، ولذلك فلما ترى في لبنان تلك المناظر المتباينة التي تقربها العين ، وإنما يقع البصر على حاجز كبير في حدود الأفق . يتواصل على خط مستقيم لا تكاد قممه العليا تمتاز عن بقية أقسامه

ووصف شكله أيضاً فقال : ومن تفرع الجبل من الجنوب الى الشمال وجده يتزايد علواً وكذلك يتسع عرضاً . ولو تأمل الناظر من علو الجو عرض لبنان بين صيدا ومشغرة لوجده يزيد عن ٢٩ كيلو متراً وهو يبلغ بين بيروت وقب الياس ٣١ كيلو متراً ، ومعظم انساعه بين طرابلس والهرمل ٤٦ كيلو متراً . فيكون لبنان على كل ذا شكل مربع منفرج عن زاويتي العلويتين اهـ

قدروا مساحة لبنان بثلاثة آلاف وخمسمائة كيلو متر مربع يحده جنوبا صيدا وأعمالها وشمالا طرابلس وكورتها . وشرقا ولاية سورية وغربا البحر المتوسط ومدينة بيروت ، هذا هو حده الجديد وهو المعروف بلبنان الغربي والاصل في التسمية ، ويطلقون اسم لبنان الشرقي على وادى التيم وجبل الشيخ (حرمون) أى على قضاءى حاصبيا وراشيا وما اليهما والبقاع فاصل بين اللبنانيين وحدته القدماء فقالوا : انه جبل مطل على حمص يحبىء من العرج الذى بين مكة والمدينة حتى يتصل بالشام فما كان بفلسطين فهو جبل الحمل وما كان بالاردن فهو جبل الجليل وبدمشق سنير وبحلب وحماة وحمص لبنان ، ويتصل بانطاكية والمصيصة فيسمى هناك اللكام ثم يمتد الى ملطية وميساط وقاليقلا الى بحر الخزر فيسمى هناك القبق قال وفي لبنان سبعون لسانا لا يعرف كل قوم لسان الاخرين الا بترجمان (؟) وفيه من جميع الفواكه والزرع من غير ان يزرعه أحد وفيه يكون الابدال من الصالحين ، وقال القلقشندي ثم يمتد لبنان الى الشمال ويجاور

دمشق واذا صار في شمالها سمي جبل سنير .

وعلى ذكر الصالحين نقول أن لبنان مشهور منذ القديم بانقطاع الناس الى العبادة فيه قال ابن جبير في كلامه على العلم والمتعلمين في الشام في القرن السادس للهجرة ما نصه : وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للاتفراد ، يلتزم ان أحب ضيعة من الضياع ، فيكون فيها طيب العيش ، ناعم البال وينهل الخبز عليه من أهل الضيعة . ويلتزم الامامة أو التعليم أو ماشاء ، ومتى سئم المقام خرج الى ضيعة أخرى ، أو يصعد الى جبل لبنان أو الى جبل الجودي فيلقى بها المريدين المنقطعين الى الله عز وجل فيقيم معهم ما شاء ، وينصرف الى حيث شاء ، ومن العجب ان النصارى المجاورين لجبل لبنان اذا رأوا به أحد المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا اليهم ، ويقولون هؤلاء ممن انقطع الى الله عز وجل فيجب مشاركتهم ، وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا فيه أنواع الفواكه ، وفيه المياه المطردة ، والظلال الوارفة ، وقل ما يخلو من التبتل والعبادة وقال ابن بطوطة في القرن الثامن : أن جبل لبنان من أخصب جبال الدنيا فيه أصناف الفواكه ولا يخلو من المنقطعين الى الله تعالى والزهاد والصالحين ، وهو شهير بذلك . ورأيت فيه جماعة من الصالحين قد انقطعوا الى الله تعالى ممن لم يشتهر اسمه .

قلنا : ولذلك نرى المعروف اليوم بالاحصاء ان في لبنان نحو ألفي راهب وراهبة لهم ١١٨ ديراً ما عدا الكنائس والبيع والصوامع التي لا تخلو قرية عن واحدة أو عدة منها ولا يقل دخل الرهبنة والاديار فيه عن مئة وخمسين ألف ليرة في السنة كما أكد بعض العارفين ، وهو نحو ثلث ايراد لبنان وفيه المحابس التي ينقطع فيها الى النسك بعض الرهبان فيقيمون في مغارة أو مكان منفرد يتعبدون في الخلاء ، زرت أحدهم في مديرية القاطع فرأيت متوفراً على كرم له هناك حتى جاد وأخصب يعمل فيه بيده ولا يكاد يأكل منه متى نضج ويصرف مشطراً من وقته في النسك والصلاة ، ولو قام كل امرئ بالواجب عليه فسمي

للمعاش سعى هذا الحبيس وعبد الله وخافه لارتفعت الشرور من البشر وقل
احتياجنا للحكومات وقوانينها ، وهذه المحابس ^(١) قديمة في لبنان ترد الى عهد
هيلاريون الناسك أو قبله وفي عدلون بين صيداء وصور على مقربة من صرند
عند الجسر صخر عال حفر فيه نحو مائتي كهف اتخذها الرهبان مساكن لهم

وبالنظر لتوسط لبنان من سورية كان نافعا بعمرانه لها بطبيعته فكان
علو قمه — وأعلاها ظهر القضيبي علوه ٣٠٦٣ متراً ثم في الوسط جبل صنين
وعلوه ٢٨٠٦ متراً وأعلى نقطة في جبل الشيخ ٢٨٦٠ متراً — وتكثر ضبابه
وكثرة أشجاره وقربه من البحر كلها داعية الى كثرة الثلوج والامطار فيه فيتكون
من عصاراتها ومسايلها أنهار ذات شأن عظيم في عمران الشام ، فمن سفوح لبنان
تنبعس أعظم أنهار سورية فنهر العاصي الذي يروى أراضي وادي حمص وحماة
وانطاكية ينبع من الهرمل في شمالي لبنان ونهر الليطاني الذي يروى بلاد
صيداء وصور وتنتفع به بعض بلاد البقاع ينبع من لبنان ونهر طرابلس المسمى
بنهر أبي علي ويعرف قديماً بقاديشا يخرج من سفح لبنان ونهر الكلب ويروت
الذنان يسقيان مدينة بيروت وضاحيتها ينبعان من السفح الغربي من لبنان
ونهر البردوني الذي يسقي زحلة وبعض البقاع هو لبناني المنبع أيضاً ، ومن
لبنان الشرق ينبع الأردن « الشريعة » كما ينبع من غرب لبنان الغربي
نهر ابراهيم

فالبنان في قاعدته لسورية أشبه بمجبال الالب في سويسرا أو بنيل مصر من
حيث امتداد المنافع ، وللألب والنيل المثل الأعلى ، وفي لبنان عدة ينابيع
منها نبع الأربعين ونبع صنين وبقليع واللبن والعسل والباروك وعين زحلنا وقد
زرت هاتين الأخيرتين

وصلنا الى الباروك في زهاء ساعتين من دير القمر مارين بيت الدين مركز
مصرفية لبنان الصيني وكفرنبرخ وبعض المزارع وقرية الباووك في واد منفرج

قليلا تنبع عينها على قيد غلوة منها ، أما المصطافون فيها فيختارون في الغالب النزول بالقرب من رأس العين في نزل هناك أو خيام لهم يضربونها وسط الحراج المبتوثة على آكام الباروك وجبالها . فتوفر لهم بذلك الى جودة الماء التي ما بعدها جودة فيما أظن : طيب الهواء ونسيم الأرز والصنوبر العليل الليل ، ومن الباروك الى عين زحلتا ساعة على الراكب ، وفي هذه القرية فنادق حسنة لكثرة ورود المصطافين اليها للتمتع بنبع الصفا وقاع الريم اللذين ينبعان في ظاهرها ولتسريح عيونهم بجمال موقعها . وخصب واديها وحراجة الغبياء ، وعين الباروك وعين زحلتا على مساماة واحدة في العلو . وماؤها يكاد يكون متشابهاً والطريق من عين زحلتا الى عين صوفر مارا بطريق السكة الحديدية نحو ساعتين ونصف في العربة أو على الراكب وهذه العيون يذفع بها كلها في سقى الحدائق في القرى البعيدة والقريبة

ومن صوفر قصدت حماتا وقرنايل فصليما فعبدات فبحنس فبكفيا فبيت شباب فالشاوية فالفريكة . وهنا قضيت مع صديق الابرامين أفندي ريماني الكاتب الشاعر المفكر الشهير أياما رائقة ريثما ركبت البحر من بيروت قاصدا القطر المصري فأوروبا . هذا وقد كان سبق لي منذ سنين أن زرت بعض قرى كسروان والبترون وزحلة فأكون هذه المرة بما خبرته من حال هذه الاقضية الثلاثة الاخرى وهي جزين والشوف والمتن خليقا بأن أتكلم على الجبل خصوصا ولم ينقصني منه الا قضاء الكورة فقط

نبذة في تاريخ لبنان

٣

لم يخرج لبنان في دور من أدواره عن كونه معقلا حصينا كل من سادته يكون في الأعم من حالاته الى الشدة والمضاء يتعب من يسودهم وقد يتعب به

جيرانه من أهل البلدان الأخرى . ولقد كان تاريخه السياسي كتاريخ معظم المقاطعات السورية استقلالاً وخضوعاً للغريب ولكن أيام الاستقلال أكثر من غيرها في غيره من أقاليم الشام

والغالب أن قاصيته خضعت للفينيقيين كما خضعت سواحله واستولت عليه حكومة الايتوريين العربية وأهالي جيدور حوران في عهد الروم . والايثوريون شعب شديد الشكيمة مولع بالحروب انكفاً من الجيدور واللجاء بلاده ونزل البقاع فأنشأ له مدينة شاليسيس أو عين جر (عنجر) جعلها عاصمة وأخذ يشن الغارات على لبنان ويتقدم الى الامام حتى تيسر له ان تسور قمه وأخضعه لسلطانه ثم انحدر الى سواحل الشام وجعل مدينة طرابلس مركزاً ثانياً^(١) وأكثر من كانوا يتأذون من بأس الايتوريين سكان جبيل وبيروت فلم يكونوا يملكون معهم لا تقسم طولاً ولا حولاً .

نعم خضع هذا الجبل للفاثيين واستولى على زمامه المردة وهم قوم من نصارى الفرس أتى بهم الروم ليدفعوا عن لبنان غزوات الايتوريين فنزل المردة^(٢) في الشمال أوائل القرن الأول للهجرة ثم جاء التنوخيون ونزلوا جنوبيه وتوالى عليه الامراء المعنيون فال عساف التركمان ومن سلالة المعنيين الامير نجر الدين الذي عهد اليه السلطان سليم فاتح سورية ومصر بولاية الشام ثم الشهابيون ومن أمراءهم الأمير بشير الماطي الثاني ومن أمراء لبنان جان بولاد (جنبلاط) الذي حكم الشام سنتين في القرن العاشر فيما ذكر .

وروى التاريخ أن سكان كسروان أخذوا في القرن السادس وأوائل القرن السابع للهجرة يطيلون أيدي اعتدائهم على أبناء السبيل فيخطفون المسلمين ويبيعونهم من الأعداء فكان عشاكر المسلمين معهم بين عدوين هم في جبال صنين أو الظننين كما سماهم أبو الفداء وجيوش التتار التي انهالت على هذه البلاد

(١) تسريح الابصار (٢) هذه اللفظة فارسية ومعنى مرد الرجل

كسيل العرم ان نجا المسلم من التترى لا ينجو من الكسرواني (سنة ٦٩٩)
ولذا سار شيخ الاسلام ابن تيمية سنة ٧٠٤ لنصح أولئك العصاة فما لم ينجع
النصح فيهم قاتلتهم الجيوش الشامية قتالا هائلا بزمامة جمال الدين اقوش
الافرم نائب دمشق . والغالب أن سكان كسروان كانوا اذذاك خليطاً من النصيرية
والموارنة وغيرهم كما كان سكان ساحل كسروان من اليعاقبة

وما زال نواب الشام^(١) الاشرف بن خليل قلاوون والناصر محمد بن قلاوون
يخاربون نصيرية في كسروان حتى اخرجوهم وجعلوا بلادهم قوماً من التركمان
في بعض النواحي وبقي كثير من المتأولة معهم كما فعل صلاح الدين يوسف لما
استخلص ساحل لبنان . ولا سيما جبيل وأعمالها من أيدي الافرنج سنة ٥٨٣
فرتب^(٢) في جبيل قوماً من الاكراد لحفظها فبقيت على ذلك الى سنة ٥٩٣ فباعها
الاكراد الذين كانوا بها ورحلوا عنها ثم حادت تلك السواحل فاستولى عليها الافرنج
بعد صلاح الدين لان الكسروانيين كانوا نصراء الصليبيين يمدونهم بالذخائر
والرجال .

ولذلك أمر حسام الدين لاجين نائب دمشق بأن تخرب بلادهم فخربت على
عهده وعهد غيره من حكامها ولا سيما على عهد الافرم كما تقدم اذ قضى بقطع
كرومهم وتخریب بيوتهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وتفرقوا في البلاد أيدي سباً .
ولما انتشر التركمان بكسروان سنة ٦٠٦ تداركهم^(٣) بثلاثمائة فارس وجعلوا
دركهم من حدود انطلياس الى مغارة الأسد على حدود معاملة طرابلس فكانوا
يمنعون من يستنكرونه أن يتعدى دربند نهر الكلب الا بورقة طريق من
المتولى أو من أمراء الغرب كما كانوا يفعلون بقطية^(٤) على درب مصر وجعلوا
التركمان ثلاثة ابدال كل بدل يقيم في الدرك شهراً لحفظ المواني والدروب . وفي
سنة ٦٨٦ صدر منشور من ملك الامراء لاجين نائب الشام عن الملك المنصور

(١) تاريخ بيروت لصالح بن يحيى (٢) معجم البلدان لياقوت (٣) تاريخ بيروت (٤) قرية
في طريق مصر وسط الرمل كانت الهجاز بين مصر والشام وقد مرت بها وأما منهزم من وجه
حكومة سورية في ربيع سنة ١٣٣٠ هـ

قلاوون الى جمال الدين وزين الدين بن على انه اذا بلغهما توجه المقر الشمسى سنقر المنصورى بالعساكر الى جهة كسروان والجردان يتوجها اليه بجموعهما وأسرتيهما وان من سبي امرأة منهم كانت له جارية أو صبياً كان له مملوكا ومن أحضر منهم رأساً فله دينار وان سنقر توجه لاستئصال شأفتهم ونهب أموالهم وسبي ذراريهم . وهذه الفقرات على شدتها لم تصدر عن أمراء الشام الا بعد ان طفق كائن صبرهم من تمرد الكسروانيين .

واختلف العلماء فى أصول سكان لبنان والاراجح انهم خليط من الفينيقيين والآراميين والروم والعرب مزجتهم بودقة واحدة ففقدوا مزيجاً واحداً كما هو حال معظم البلاد ، فانك ترى كثيرين من أسرات لبنان المشهورة نزحت من بلاد حلب وحماة وحمص وحموران فى الداخلية ولا سيما فى القرون الخمسة الاخيرة . ذكر المؤرخون ان معاوية نقل الى طرابلس وجبيل وبيروت وصيداء قوما من الفرس يسكنونها . وذكروا أيضاً ان أبا جعفر المنصور العباسي لما قدم دمشق من بغداد قدم عليه من بلاد المعرة الامير ارسلان وأخوه الامير منذر بجماعة من عشيرتهما فطابت نفس الخليفة بهما فأمرهما أن يسكنا فى جبال بيروت الخالية من السكان وأنعم عليهما بمقاطعات معلومة فسكنوا وبعضهم فى كسروان وأخذوا يشنون الغارات على مجاوريههم ، وفى بعضها أحرقت قرى من كسروان السفلى ، وتقوى الامراء الارسلانيون بعشائرهم وعمرؤا العماثر فى الشويفات وجوارها أما الموارنة فكان أول منشأهم فى شمالي سورية فى الاغلب ينتسبون الى قدس لهم اسمه مارون وهم طائفة كاثوليكية لا يكادون يختلفون عن الكشلكة فى أمر جوهرى فى المعتقدات جاؤا شمالي لبنان أولاً ومازالوا يمتدون ويطردون سكان الجبال الاصليين أو ينصرونهم ويدمجونهم فى جملتهم حتى بلغوا الجنوب واحتفظ الدروز ببلادهم بما فيهم من الشدة والاباء

وزعم بعضهم ان الموارنة لم يسكنوا كسروان قبل القرن السادس عشر للميلاد لانه لا يوجد بين اديار كسروان اليوم دير واحد يسبق عهده القرن السابع

عشر وان جبيل والبترون كانتا على الحياد مع الصليبيين فلم تنحازا اليهم ولا للمسلمين أصحاب البلاد الا ان هذا لم يمنع من الرواية الثانية من ممالأة الموارنة للصليبيين ودلائهم على الطرق ونجدتهم^(١) لهم وثباتهم معهم على العهد الى النهاية حتى خرجوا من سورية سنة ١٣٠٢ م ومن أجل هذا اضطر حكام البلاد أن يحرقوا ويقتلوا ويسبوا بعض القرى القريبة من طرابلس مثل اهدن وبقوفا وحصرون وكفر سارون والحدث

وما برح لبنان ينقسم بين أمراء المقاطعات يحكمونه على النحو الذي كانت عليه صورة الحكم في البلاد العثمانية قبل تنظيم الولايات . يقوى اليمانيون تارة والقيسيون أخرى والناس معهم في أمر مريج ومن التحزبات القيسية واليمانية ما وقع في الربع الأول من القرن السادس عشر للميلاد بين الأمير نحر الدين المعنى القيسى وجمال الدين الارسلاني اليمنى . قال المقرئى وعشير الشام فرقتان قيس ويمن لا يتفقان قط وفي كل قليل يثور بعضهم على بعض .

ونشأ حزب آخر وهو الحزب اليزبكى نسبة الى يzbek جد الشيخ عبدالسلام العماد زعيمه والجنبلاتى نسبة الى الشيخ على جنبلات زعيمه الآخر وذلك سنة ١٧٢٩ - ١٧٥٤ وامتد في لبنان ولم يزل له أثر كما نشأت أحزاب أخرى كالمعلوفى والمكارمى ومثل هذه الأحزاب قد لا تخلو من حدوث فتن تهرق فيها الدماء وتكثر الأيامى والاماء كما فعل الحماديون وأحرقوا بلاد جبيل والبترون فخربت جميعها ونزح سكانها الى بلاد ابن معن وكانت العداوة بين بنى سيفا وبنى معن سبباً في تخریب الجبل أيضاً .

ومن الوقائع التى يتمت فيها الأبطال تلك الواقعة التى جرت فى القرن العاشر عقيب أن نهب بعض أمراء لبنان الصرة الساطانية من جون عكا بينا كانت محمولة الى الاستانة فجمع ابراهيم باشا صهر السلطان مراد بن السلطان سليم العشاكر من مصر وقبرص ودمشق وحلب وقدم بها الى مرج عرجوش قرب زحلة وأمسك

(١) تاريخ البطريك الدويهي وتاريخ المعاطعة الكسروانية لاعتونى

طريق البحر والبقاع على الدروز فقتل نحو ستمائة منهم وأسر بعض الامراء .
وما زالت حال الجبل في اقبال وادبار تقع اليوم فتنة العاقورة وغداً وقعة
مرحلاتا وبعده وقعة أرض خلدة ثم فتنة برج العلول وبعد ذلك وقعة عين دارة
حتى أقامت له الدولة سنة ١٨٤٢ عمر باشا النمسوى والياً فلم تطل مدته حتى منحت
الدولة للجبل امتيازات وقسمته في السنة التالية الى مقاطعات . وتعرف الأولى^(١)
بقائم مقامية النصارى وهى الشمالية تمتد من نهر البارد فى عكا الى طريق دمشق مع
بعض قرى ساحل بيروت تولاها الامير حيدر اسماعيل اللعى وتعرف الثانية
بقائم مقامية الدروز وهى الجنوبية تمتد من طريق الشام الى منتهى جبل الريحان
فى الشمال مع قرى اقليم التفاح وبعض قرى ساحل بيروت وتولى شؤونها الامير احمد
عباس الارسلاني أما قصبة دير القمر فكان يتولى شؤونها رجل من قبل والى
ايالة صيداء وكانت قائم مقامية النصارى مؤلفة من المتن وكسروان والبترون
والكورة وزحلة وقائم مقامية الدروز تشمل قضاءى الشوف وجزين وقسمان
غربى البقاع وبعض قرى مديرية الساحل الداخلة اليوم فى قضاء المتن وفرض
على لبنان فى كل سنة ثلاثة آلاف وخمسمائة كيس

ودام الحال على ذلك الى سنة ١٨٦٠ وقد اشتعلت جذوة تلك الفتنة المشؤومة
بين الدروز والنصارى فى لبنان فنحت الدولة هذا الجبل استقلالاً ادارياً بأن
جعلته متصرفية يتولى شؤونها حاكم مسيحي تبعث به الدولة كل خمس سنين
أو تجدد انتخابه بمصادقة الدول . وجعل مال لبنان سبعة آلاف أو ثلاثة ملايين
ونصف مليون قرش وضعت على الاعناق .

ولحكومة لبنان موارد أخرى سنوية منها نحو أربعة ملايين قرش من
بدلات حاصلات الاراضى الاميرية ورسوم المحاكم والمقاولات والعربات
والمجلات وتعديل بثلاثة عشر ألف ليرة ولا تتناول الدولة الآن شيئاً من مال
الجبل ولا تعطيه وكانت منذ سنين تدفع اليه العجز فى ميزانيته وفى لبنان ألف

جندى لبناني بادارة أميرالاي لبناني وفي بيت الدين فرقة من الجند العثماني المحافظ وعليها أميرالاي بادارة حكومة لبنان .

وتحاول حكومة الجبل الآن أن تزيد الضرائب قليلا ليتيسر لها القيام ببعض الاصلاحات والتوسعة على موظفيها كما وسع عليهم في سائر البلاد العثمانية بعد الدستور الا أن معظم الاهلين يقاومونها وفاتهم أن الليرة منذ خمسين سنة لا تعاد لها اليوم الا الثلاث ليرات أو أكثر لوفرة الذهب وغلاء الاسعار وهم يعتبرون أن هذا العمل اخلال بشروط امتيازاتهم ويخافون أن يتدرج الامر الى العبث بقانونهم فيختل نظامه مع الزمن من أجل هذا أبى اللبنانيون أن يبعثوا الى مجلس الامة العثمانية بنواب منهم يمثلونهم وما نظن وطنيتهم تحول بينهم في الانتخاب القادم وبين ارسال نواب عنهم حتى يشتركوا وسائر اخوانهم العثمانيين في الغنم والفرم فليس من الانصاف أن يبقى جبلهم بدعوى قلة خصبه على الحياد وهو في وسط البلاد ويحسب جزءاً متما من أجزاء السلطنة العثمانية كيف تقلبت الحال وتعددت المظاهر والاشكال .

غابات لبنان



ليس في لبنان أرض تبلغ مساحتها مائة كيلو متر مربع بل غاية ما فيه من الاراضي منحدرات ومنعرجات وأودية ضيقة ومسابل صغيرة وفيها جعل القدماء زروعهم وأشجارهم وأكثر الاراضي مما يصلح للشجر أكثر مما يصلح للبقول والغلات شأن جبال الأرض في الأكثر وليس في الايدي نص قديم يشير الى أصناف زراعة لبنان منذ عرف التاريخ غير ما نقلناه في نبذة سالفة عن مؤلفي العرب من ان فيه أصناف الفواكه والزروع وأكثرها مما ينبت بنفسه وهو

كلام مجمل لا يشبع ولا يقنع . واذ كانت طبيعة أرض لبنان لم تتغير منذ عشرات من القرون كانت الزروع التي لا تناسبها أرضه ضعيفة فيه أو تكاد تكون معدومة . ولكن لم تخل أرض لبنان في زمان من أزمانها من الزيتون والتين والكرم والخروب والجوز واللوز والتفاح والصنوبر والتوت من الأشجار المثمرة والزان والسنديان والسرو والارز من الأشجار غير المثمرة .

وقد أكرر القدماء والمحدثون من الكلام خاصة على تاريخ الارز لورود ذكره في الكتاب المقدس مرات ولان من خشبه بنى قصر داود وهيكل سليمان والهيكل الثاني الذي جدد في أيام زربابل وسقف الهيكل المجدد في عهد هيرودوس وقبة القبر المقدس وسقف الكنيسة في بيت لحم . وقالوا انه ثبت أن ملوك الاشوريين والبابليين استعملوا في قصورهم خشب الارز وان المصريين ادخلوا من خشبه في بناء هياكلهم وقصورهم كما فعل الفرس وان الاسكندر المقدوني وضع من خشب الارز في السد الذي أقامه بين الجزيرة والشاطئ حيث كانت مدينة صور وكذلك ملوك السلوقيين في سورية ادخلوا خشب الارز في بناء دورهم .

وكل هذه الاخشاب قطعت من لبنان أو من الجبال المجاورة له وكانت تحمل في الغالب إلى طرابلس وصيدا وصور حيث كانت دور الصناعات وقد أنشأ بعض ملوك الاسلام أساطيل من خشب الارز وقالوا ان بيروت^(١) كانت دار صناعة دمشق (مسلحتها أو ترسانتها أو ورشتها) وبها عمر معاوية المراكب وجهاز فيها الجيش إلى قبرص ومعهم أم حرام وأسمها العميصاء وقيل انه عمر من الارز ألفاً وتسعمائة سفينة وبعد سنين جهاز أسطولا أضخم من الارز نفسه وتبعه غيره من ملوك الاسلام في اختيار الاخشاب للسفن من غابات لبنان وما برح كثيرون من المتدينين بالنصرانية يتبركون بشجر الارز ويحملون من غصونه قطعاً ينقلونها من قارة إلى قارة ومن مملكة إلى أخرى وهو عطر لرائحة إذا وضع في النار ويحسن في المشم اذا مسسته ييدك ولونه أصفر فاقع مشرب بخطوط حمراء

لا تعبت به الارضة ولا يفعل فيه السوس ولذلك كاد ينقرض لكثرة حرص السوريين وغيرهم على استعماله في أبنيتهم وقصورهم ويبيعهم وهياكلهم وتمائيلهم ونصبهم .
والغالب أن الحكومة السالفة القديمة في لبنان كانت تحتكر أربعة أشكال من الشجر تستثمرها لحزبها وهي السرو والعرعر والارز والصنوبر وتسمح بقطع غيرها واحتطابه أو غرس غيره محله . وقد بدأ النقص في هذه الاشجار ولا سيما الارز منها منذ خمسة قرون لان اللبنانيين احتاجوا إلى الاحتطاب وأخذوا يكثرون من زراعة التوت والكرم خصوصاً وقد جرت عادة بعض حكام لبنان اذا غضبوا على أحد أن يقطعوا أشجاره ويخربوا داره والى اليوم لا يزال من الامثال العامة السائرة في الجبل « الله يقطع رزقه » أى ما يملك من شجر و « الله يخرب رزقه » أى بيته — قاله في الدواني

مثال ذلك أن الامير أحمد المعنى طرد المشايخ الحماديين المتأولة لما كثرت بغيتهم في كسروان ففروا الى بلاد بعلبك فاحرق قراهم في القرن الحادى عشر وقطع أشجارهم وقد رسم مرة يدمر — كما في تاريخ بيروت — نائب الشام لشهاب الدين ابن زين الدين صالح من أمراء الغرب في لبنان وكان في دمشق أن يركب على خيل البريد ويتوجه الى قرية عين زحلنا من شوف صيداء ليكشف عما فيها من أشجار التوت النافع لعمل النشاب فلم يجده موافقاً وربما أحب عدم تصديق أهل البلاد بقطعه ونقله ومنذ ذاك العهد اجتهد أهل الشوف في قطع شجر التوت وتعطيل نشوئه واستئصاله لئلا تصدعهم الدولة من جهته . قلنا ومثل ذلك ما شاهدناه في أيامنا من أن بعض أهل القرى البعيدة عن مراكز الحكومة في الولايات العثمانية قد يسخون بقطع أشجارهم فراراً من ظلم ملتزمى الاعشار واشتطاطهم في تقاضى العشور عليها اضعافاً مضاعفة

ولم يبرح شجر الارز موجوداً في عدة أماكن من لبنان على كثرة ما انتابه من البوائق فبالقرب من 'معاصر الفخار على مقربة من بيت الدين غابة منه فيها نحو ٢٥٠ شجرة يسمونها الابهل وأخرى فوق قرية الباروك غير ملتفة وضعيفة

النمو لكثرة الامطار والثلوج والعواصف في تلك الارحاء وثالثة فوق قرية عين زحلنا وكان أحرق أكثرها لاستخراج القطران منه وقطع بعضها أيام حادثة سنة ستين لتجدد بخصبه بعض بيوت المنكووين ورابعة بين افقا والعاقورة في جرد جبيل من بلاد كسروان وخامسة بين قرية تنورين وبشري صغيرة الشجر وعدد شجيراتنا نحو عشرة آلاف وسادسة بالقرب من بشري على علو ١٩٢٥ مترا عن سطح البحر وهي مقصد السياح وفيها أضخم أشجار الارز ويبلغ عددها ٣٩٧ وقيل ٦٨٠ شجرة منها ١٢ كبرى وأكبرها شجرتان دائرة جذع كل منهما نحو خمسة عشر متراً وارتفاع اطولها خمسة وعشرون متراً وقدرها عمرها بثلاثة آلاف سنة . ولا أثر الآن في سورية لشجر الارز إلا في أعالي سير ببلاد الضنية^(١) في وادي النجاص فيه كثير من شجر الارز على ارتفاع ١٩٠٠ متر عن سطح البحر وبين سير ونبع السكر وفي الغابة الواقعة خلف وادي جهنم ويسمى عند أهله تنوب

ولو توفرت همة ابن الجبل اليوم على غرس شجر الارز أو أى كان من شجر الاحتطاب في الاماكن الخالية ولا سيما في القمم والقنن لما أتت عشرات من السنين إلا وقد زادت ثروة الجبل زيادة محمودة وكان مع طول الزمن لابن لبنان من أشجاره مورد آخر غير التوت والزيتون مثلاً لان شجر الارز لا يوجد في الغالب إلا في مثل هذا العلو من الجبل بل من جبال سورية التي تشبه لبنان بطبيعتها وموقعها .

واذا زاد عدد الغابات في سورية زيادة كبرى وتوفرت عناية ولايات بيروت وسورية وحلب ومتصرفيتي القدس والزور بتكثير الغابات في الاماكن الخالية ولا سيما في المحال التي يعرف انها كانت غابات غيباء نافعة يتحول مناخ سورية وتكثر فيها الامطار بعد سنين ولا تعود تخشى اليبوسة وهلاك الزرع والضرع كما يحدث بعض السنين فيتأذى بذلك العرب الرحالة في باديتهم كما يتضرر ابن

المعمورة بهم ويصبح منهم بين نكبتين سماوية بقلة الامطار وارضية بسطو
ابن البادية على مابقى لابن القرى من رزق
وليت حكومة لبنان تبدأ فتفرض على كل لبناني ان يفرس عشر شجرات
من أصناف الشجر عله تقتدى بها سائر حكومات بلاد الشام بعد ذلك فلا
يأتى علينا جيل الا وتصبح سورية غنية بغاباتها كفى سويسرا أو أكثر
والاشجار فى بلادنا أكثر نمواً مما هى فى أوروبا لما عرف من اعتدال الفصول
ولطف الجو ولقد جربت حكومة الجزائر ففرست الغابات منذ زهاء خمسين سنة
فكانت النتيجة ان أكثر اليوم تهطل الامطار فيها على طريقة منظمة وسيكثر
خيرها كلما زادت أشجارها وعمانا تقتدى فى سورية بهذا المثال

الهجرة من لبنان

٥

منذ أمن السكان فى لبنان على أرزاقهم وانقطعت شأفة أرباب المقاطعات
الذين طالما اشتطوا فى مطالبهم وبطلت أو كادت السلطة الافراية الذوقية وقلت
الأوبئة والزلازل التى كانت تحصد العمران والسكان حصداً كالزلازل الذى طود
لبنان مرات سنة ١٧٥٩ م وخرب القرى وأهلك الناس والطاعون الذى حدث
سنة ١٧٨٩ وعم لبنان كله واستمر المونان ثلاثين سنة - منذ خفت العوارض
الطبيعية والارضية أخذ كل فرد يحسن من حاله فنمت النفوس باستتباب أسباب
الراحة وأخذ المرسلون وغيرهم من رجال الدين منذ زهاء مئة سنة ينشئون أبناء
الجبل على المنازع الدينية ويلقنونهم شيئاً من اللغات الافرنجية والعلوم العصرية
كما ان الموارنة ما زالت لهم علائق مع الكرسي البابوى فى رومية يختلف اليه
أخبارهم منذ قرون وربما انتفع الجبل من هذه الصلة والعائد

ثم ان طبيعة الجبل تقتضى التحسين والتنظيم ، والمسيحيون على الجملة يميلون الى الرفاهية ، ويقدرّون طعم الحياة قدرها ، ولم يكد يدخل القرن الثالث عشر للهجرة فى دور العدم ، ويطلع القرن الرابع عشر ، حتى دخل جبل لبنان فى طور جديد ، فكثرت طرق عجلاته ، حتى أصبح لديه منها الآن نحو ألف كيلومتر تجمع بين قراه ومزارعه كالشبكة المحكمة . وتهى سبل التنقل على المصطافين فى ربوعه . وأكثر هذه الطرق فى قضاء المتن ، لانه ظهر لبنان ونقطته الوسطى ، ومقصد المصطافين ، من البيروتين والشاميين والمصريين وغيرهم . وفيه الآن سبعون كيلومتراً من الخطوط الحديدية منها خمسون من طريق بيروت ودمشق وعشرون من ترامواى شمالى لبنان ،

وفى هذا الجبل ٢٥ مدرسة داخلية كبرى وصغرى و١٤ مدرسة اكليركية و ٨ مستشفيات و ٢٠٦ من الحراج والغابات و ١٤٧ من معامل الحرير و ٨١٩٧ من الدوايب وبلغت حاصلاته من الفيالج (الشرائق) سنة ١٩٠٦ — ٢٠٢٧٠٣٠ أوقية ومن الزيت ٢٥٤٨٨ أقة وثمان مائة وخمسون ألفاً من الحرير الذى يخرج منه نحو ثمانية ملايين فرنك فى السنة وكثر سكانه حتى عدلوا ان فى كل كيلومتر مربع ٦١ نفساً ولا يفوق الجبل فى ذلك غير ولاية الاستانة وجزيرة سيسام (ساموس) . وسكانه الآن زهاء أربع مائة وثلاثون ألف نسمة منهم ٢٥٠ ألفاً من الموارنة و ١٦٠ ألفاً من الروم و ٣٦ ألفاً من الكاثوليك و ٥٥ ألفاً من الدروز و ٣٣ ألفاً من المسلمين (سنة وشيعة) و ١٥٠٠ من البروتستانت والباقون ارمن واسرائيليون وكلدان ولاتين وفيه خمسمائة من أهل الوبى يعيشون فى مضاربهم خارج القرى وأكثرهم فقراء يستوكفون الاكف وقد أحصى غليلموس الصورى فى تاريخ الصليبيين عدد الموارنة فى عصره فكانوا أربعين ألفاً وما زال عددهم يربو على عدد وفياتهم وان هاجر كثيرون بعد ذلك الى قبرص ورودس والقدس ومالطة ولا يبعد أن تكون اللغة العربية انتشرت فى جزيرة مالطة بواسطتهم .

ولا يسعنا وقد وصلنا من بحثنا فى شؤون الجبل الى هذا الحد الا أن نرسل

جملة في شغف اللبنانيين بالهجرة الى أميركا وغيرها من البلاد التي توهم ابن سورية ان المال فيها ملقى على الشوارع لا يحتاج الا لمن يمد يده ليتناوله مع أن أولئك المهاجرين لو صرفوا في بلادهم نصف ما يصرفون من الوقت والقوة في بلاد المهجر على طول السنة وحسبوا ما صرفوه في ذهابهم وإيابهم وقدروا عدد من هلكوا منهم لرأوا ان المعدل واحد والفرق قليل لا يساوي هذا النصب .

والذي ظهر من قرائن الاحوال ان ابن لبنان كان أول فلاح سوري هاجر الى أميركا أو جراً سائر السوريين على الهجرة مجذوباً بما اشتهر عن القارة الاميركية من الفنى ولكثرة علائق لبنان مع الغرب قبل حادثة سنة ١٨٦٠ وبمعدنها ولان ابن لبنان أكثر أهل جبال سورية تعلماً ونوراً وأوفرهم نشاطاً ومضاءً وشمماً وادلاً لا بل ان مجموع القارئین والكاتبين فيه أوفر من مجموع القارئین والكاتبين في مجموع مدن الشام

وأول من دخل أميركا ^(١) من السوريين الخوري الياس بن القسيس حنا الموصلی الكلداني من سنة ١٦٦٨ — ١٦٨٣ وأول من دخل أميركا الشمالية في القرن الماضي الخوري فلايانوس الكفوري سافر اليها سنة ١٨٤٨ وأخذ معه ناصيف الشدودي وأول من دخل الجنوبية المطران باسيليوس حجار سنة ١٨٧٤ وكانت غايتهم جمع الاحسان وأول من دخل أميركا الشمالية للتجارة تجار من بيت لحم حملوا مصنوعاتهم الخشبية المرصعة بالصدف الى معرض فيلادلفيا سنة ١٨٧٦ ثم طادوا الى بلادهم بثروة وافرة فاقتنى أثرهم غيرهم واتصل ذلك بشمالى لبنان وامتد في كل سورية ثم كثرت الجالية السورية في العالم الجديد وأستراليا وجزر البحر المحيط بل وفي افريقية شرقها وغربها وشمالها وجنوبها وقدّر بعضهم ان ثلث المهاجرين يسكن أميركا وثلثهم يرجع الى وطنه والثلث الآخر يموت ، ونظن ان الثلث الاخير مبالغ فيه وان كان عدد الهالكين في المهجر غير قليل . وأحصى عدد السوريين المهاجرين الى سنة ١٩٠٦ فكانوا مائتين وخمسين ألفاً منهم ستون ألفاً في الولايات المتحدة وخمسون ألفاً في جمهوريات

أميركا الجنوبية وخمسة وعشرون ألفاً في أميركا الوسطى وعشرة آلاف في أستراليا وبعض الجزائر والباقيون في إفريقيا والهند والفلبين وكوبا ومصر وعدد اللبنانيين منهم ستون ألفاً نصفهم ذكور ونصفهم إناث وربما كان الذكور أكثر

كثرت الهجرة منذ نحو عشرين سنة وذهب بعض سكان لبنان بأقدامهم وذكائهم المعهود فنزلوا في دار الهجرة بلاذاً محتاجين إلى أيدٍ عاملة وتقوس لا تعرف التعب فأنشأوا يعملون ويذخرون ويقترون على أنفسهم في النفقة على خلاف عادة معظم المهاجرين إلى أميركا من أهل أوربا مثلاً فأب من قدرت له السلامة منهم ولم يكن له رأس مال في هجرته غير صحته بمئات من الليرات فكان أول همه أن يعمر له داراً قوراء بالحجر النحيت والقرميد على المثال الذي رآه في بيوت المهاجر وكثر تقليد الناس بعضهم بعضاً ومنهم من اشترى له أرضاً في بلده وطلق الآخر يتجر بما جناه من ذاك الرأس المال القليل . أما الأفراد الذين اغتنوا فعدت ثروتهم بالآلاف فقد استوطنوا البلاد التي هاجروها جرياً على مثل العامى « في المطرح الذي فيه ترزق الصق » وهم إن كانت تحدتهم أنفسهم بالرجوع لا يهنأ لهم بال متى عادوا إذ يتجلى لهم الفرق الكبير بين نيويورك وشيكاغو وسان فرانسيسكو وبونس ايرس وسان باولو مثلاً وبين عشقوت وبسكنتا وعمشيت وعرنة ومرونة أما أولادهم فينطبعون بطابع البلاد التي ولدوا فيها وأكثرهم لا يتعلمون اللغة العربية ولذلك لا يرجى البتة أن يعودوا إلى موطن آبائهم وهذا القسم ممن خسرتهم البلاد حقيقة والذي يزيد في الحسرة عليهم إن بعضهم ذهب برأس مال من بلاده ولو طفيف وبعضهم على جانب من الأخلاق والمعرفة لم يعمدوا إلى الطرق السافلة في تحصيل الثروة .

تفتت الهجرة لبنان وأضرته وعندى أن المضار أكثر من المنافع إذ لا يظهر إلى العيان في الغالب إلا الحسن . فقد يذهب ألف مهاجر مثلاً إلى بلد كذا ولا ينجح منهم إلا واحد أو اثنان فيأخذ الناس يتحدثون في أمرها وينسون أولئك المئات الذين يعملون أربع عشرة ساعة كل يوم في أشق الأعمال ولا يكادون

بعد مرور سنين يوفون أجرة الطريق التي استنفوها من أحد المرايين في بلدهم أو باعوا في الحصول عليها أرضاً لهم ورثوها من آبائهم خل عنك من هلكوا بالأمرض وغيرها وهكذا الحال في مجموع حالة لبنان من حيث منافع الهجرة ومضارها :

فان من نظر في الأمور نظراً سطحياً وشاهد تلك البيوت البديعة في قراه ومزارعه التي عمرت بمال آتى به المهاجرون من غير أرض لبنان وسمع بأن فلانا أصبح يملك كذا وكذا من الليرات وان بلد كذا يدخل اليه كل شهر من تحاويل أميركا ما يقدر بكذا من الذهب — من شاهد ذلك وسمعه لا يعم أن تعروه هزة الفرح لبلاده وربما اعتقد أن الحال اذا دام على هذا المنوال وأموال أميركا تتسرب الى بلادنا نصبح بعد بضع سنين أغنى من الاميركان وننقل شطراً عظيماً مما عندهم من الذهب الوهاج وهذا منتهى السعادة البشرية .

ليست السعادة بكثرة المال . السعادة شئ غير ما يتوهمه من همهم انشاء البيوت وتزيينها من الظاهر وفي باطنها الشقاء والحسرة . قالت لي عجوز في صليبا وقد سألتها أين رجالكم : « ذهبوا الى أميركا وتركونا هنا نحرس لهم البيوت التي عمروها لتسرح فيها الفيران عادوا ليجمعوا كمية أكبر من المال لان ما جمعه لم يكفهم لاتمام هذه الدور على ما يحبون وفرشها ونقشها ثم ان حالة البلاد لم تعجبهم بعد ان شاهدوا مشاهد أميركا . » وقول هذه العجوز الذي أحزنني مغزاه ولا تزال الأذن تردد صدهاء قد سمعت مثله من كثيرين من أهل لبنان رجال ونساء .

أي حسرة أعظم من ان تتوقع أم في كل أسبوع قدوم ابنها وقد تمضي الشهور ولا تتناول كتاباً منه أو زوجة تنتظر بعلمها منذ سنين هي موأولادها وهو لا يكاد يبعث لهم بنفقتهم فتضطر تلك المرأة المسكينة ان تعمل ليلاً ونهارها لتطم أولادها من كدها وما هي بمفلحة ، وأي بلوى أكبر من ان تدخل القرية وتجد فيها عشرات من البنات عوانس ينتظرن عروساً لان شبان الضيعة هاجروا

وأكثرهم لا يريد ان يتزوج وبعضهم تزوج من امرأة اميركية وزهد في اسرته وقريته لانه تمدن بزعمه ولا يليق به ان يتزوج الا من متمدنة . ومن شاهد البنات العوانس في لبنان يدرك سر تعدد الزوجات في مثل هذه الحال ويسجل بأن أقل سيئة من سيئات الهجرة انقطاع الاهلين عن التناسل ولولا ذلك لكثرت نفوس لبنان كثرة تذكر لطيب هوائه ومائه وتوفر أسباب الراحة فيه .

وان دعوى من يدعون ان لبنان لولا الهجرة لا يصبح خرابا مردودة من وجوه أحدها انهم يعتقدون ان تلك الاموال التي دخلت لبنان وهي تستخدم فيه الآن بفوائد طفيفة هي غنى لبنان وما الثروة في الحقيقة الا العمل ليس الا . فقد رأينا اسبانيا على عهد شارل كان يتسرب المال الى صناديقها بالبدر والسبائك من أقطار المعمور لان هذا الملك كان يعتقد ان كثرة النقود والذهب في بلاد كاف وحده في غناها ولكن لم تكن بضعة عقود من السنين حتى أمست اسبانيا أفقر بلاد أوروبا لان أهلها انقطعوا عن تعهد تربتها والاخذ بحظ من الصناعات اللازمة لهم والعلوم الرافعة من شأنهم .

ان انصراف وجهة اللبنانيين وغيرهم من السوريين الى نزول أميركا وافريقية للاغتناء من خيراتها بسرعة على أمل العودة الى مسقط رؤوسهم متى امتلأت أكياسهم وجيوبهم وعبابهم قد حال دون تعهد أرضهم واستثمار صناعاتهم في لبنان من الخيرات الطبيعية ما يكفي أهله اذا زادوا ضعف ما هم الآن ، ومهما بلغت العناية اليوم بزراعته لا يزال فيه فضل للعمل وميدان واسع للجد ولا يشعر بذلك الا أرباب الاملاك . مثال ذلك ان « كدنة » الفلاحة كانت تساوى منذ سنوات قليلة خمسة وعشرين قرشا فأصبحت اليوم تساوى ستين على حين ان غلات التوت مثلا لم تزد على تلك النسبة وذلك لقلة ايدى العاملين وارتفاع اسعار الحبوب وغيره من مقومات المعاش في البلاد ولان المهاجر اللبناني الذي كان فلاحا حراثا الى عشرين او ثلاثين جلدأ من اجداده اذا هاجر وقضى في هجرته ثلاث سنين ثم آب الى بلاده تكبر نفسه فلا يعود

زاد هذا العدد ونحن نرى أن سويسرا وإيطاليا تربح كل منهما من موسم السياح كل سنة ما لا يقل عن خمسة عشر مليون ليرة وإذا زادت عناية حكومة لبنان وأهله بالمصطافين في قم لبنان لا يعم أن يجلب إليه أناساً من المصطافين من أهل أوروبا نفسها خصوصاً إذا رأى السياح أن النفقة في الجبل أقل مما في جبال الالب وأنها لا تبلغ مع أجور النقل في البحر والبر المبلغ الذي يصرفونه في بلاد الاصطيف .

وبعد فانا لا نقتأ نكرر القول بأن من الاتقع لابن لبنان أن يوجه بعد الآن وجهته الى الداخلية ليعتاش ويرتاش وانه اذا استفاد المهاجر منا الى أميركا من حيث ارتقاؤه في اقتباس بعض أصول التمدن في الملبس والمأكل والمسكن فان الأتقع له اليوم أن يستعمر بلاده نفسها وهي تحتاج الى أضعاف أضعافهم . وسوف يعلمون أن هذه النصيحة صادرة عن اخلاص لا يراد منها الاتقع لبنان خاصة وسورية عامة ، فان ما يقاسيه اللبناني من ألم الغربة والمهانة في الأحياء واحتقار الغربي له مهما بالغ من مكانته جدير بأن لا ينسيه بلاده والعيش بين أهله وجيرته . وقدّر أحد العارفين منذ ثلاث سنين ان ما حمله اللبنانيون المهاجرون الى لبنان يبلغ خمسمائة ألف ليرة أي على معدل خمس ليرات لكل مهاجر فلو فرضنا أن هذا القدر قليل وعدلناه نحن بمليون ليرة هل كان هذا المبلغ يعادل ما فقد من الرجال وخسرته البلاد من قواها المعنوية والادبية .

مالة مصر

٦

هبطت مصر وعهدى بها ليس ببعيد غبت عنها أربعة عشر شهراً ، وكنت صرفت فيها أربع سنين أيام الحكم الاستبدادي في المملكة العثمانية فلم أرا اليوم وأنا طار سبيل أن أمكث فيها أقل من أربعة عشر يوماً قضيتها في مشاهدة من

خلفتهم فيها من الاصدقاء الكثيرين . والقاهرة من البلاد العربية كباريز من البلاد الافرنجية حوت مافي العواصم من ضروب الرقي والانحطاط مما تنفقه على غيرها طوعا أو كرها ويأتى الناس من القاصية فيأخذونه عنها ويهتمون بتقليده وتأيينه .

أن من ينظر الى مصر نظراً سطحياً يأسف لها كثيراً ويعدها كنزاً ضائعاً ودماً ضيعه أهله . ومن يعن النظر في مواردها ومصادرها ويدرس مساعيها ومقاصدها ويقيس النتائج بالمقدمات والماضى بما هو آت يدرك ان المستقبل المخبوء لمصر في حياتها الاجتماعية والسياسية لا يقل عما أحرزته في حاضرها من المنافع المادية والادبية اذا ظلت عناية أهلها متوفرة على التعليم والتربية وهم يتفنون سنة عن أخرى في تلقف ما ينفعهم من أنواع المعارف لقيام ببناء مجدهم الجديد على أحسن نظام .

ليس في أقطار الشرق ولا في أقطار الغرب بلد عرف تاريخه كما عرف تاريخ مصر ولا بلد مثله أبقي على آثاره الخالدة واحتفظ بترائه القديم فنفع العلم والعالم بما ادخره . فقد قال لنا التاريخ ان عهد بعض سلاسل فراعنتها كان عهد ارتقاء ومدنية وان مدنيتهم لا تقل من وجوه عن المدنية الرومانية واليونانية والفارسية فكانت دولة فاتحة غازية مستعمرة كما كانت دولة فاضلة متحضرة . وانه جاء زمن طويل على مدينة الاسكندرية أيام الروم كانت تفيض العلم النافع على العالم أجمع بمدرستها كما كانت تفيض العلم مدرسة بغداد ومدرسة قرطبة أيام الخلفاء وكما تفيض كليات أوروبا وأميركا على آسيا وافريقية اليوم

أتى على مصر دور انحطاط بعد دولة الفاطميين اشتغلت فيه بنفسها وكان حظها من المعارف حظ سائر بلاد الاسلام وان كانت لها الميزة أبداً في هذا الباب على الاقطار المجاورة فقد كانت على عهد الايوبيين والجرالكسة والمماليك على انحطاطها مورداً تستقى منه البلاد الاخرى وكانت العلوم الاسلامية والادبية خاصة مما يحمل من أزهارها إلى شمالي افريقية وداخليتها وبلاد العرب والترك

وسورية وغيرها ، ولما جاء نابليون الاول ثم محمد على الكبير دخلت فيها بواسطة علماء من الفرنسيين روح الحضارة الغربية وأسلوب التعاليم الاوربية وأخذت حكومتها ترسل بالبعثات العلمية بل بالبعوث السلمية إلى أوروبا ليدرس النشء في كلياتها ثم يعودوا إلى مصرهم فينفعوها بما علمهم الله والبشر الراقى

وما برحت هذه الارساليات تكثر ومصر الحديثة تتكون على المناحي الغربية حتى جاء الخديوى اسماعيل وأسرف في مالها اسراف جنون وجهل حتى اضطرت إلى الاستدانة من المالىين الاوروبيين وأكثرهم انكليز وفرنسيين ولما حدثت الفتنة العرابية وجدت انكلترا مدخلا لها بحجة أن أرباب الاموال يوجسون خيفة على أموالهم ورأت من فرنسا غفلة أو تغافلا فعملت وحدها على اطفاء الفتنة فصدمت عليها كلمة نابليون في قوله وقد أخرجته انكلترا من مصر بعد احتلاله لها بضع سنين في القرن الماضى انها لم تخرجنا منها إلا لتأخذها لنفسها في المستقبل دخلت انكلترا مصر لاطفاء الفتنة أولا ثم للمحافظة على ترعة السويس التي أصبحت أكثر اسهمها لجماعة من أبنائها . والترعة كما هو المعلوم طريق الهند الاقرب ومادة حياة دولة البحار . ومن حافظ على سلامته ومادة حياته يعذر

ولقد كان ميدان الاصلاح فسيحاً أمام المحتلين لتوفر الاسباب الطبيعية لمصر وأن بلاداً لا ينقطع مأؤها ولا تغيب شمسها ولا تتعب تربتها ولا تتعاصى على الانسان طبيعتها لا قرب البلاد الى معالجة الاصلاح في مجاهلها ومعالمها .

ولما استتب الامن في انحاء القطر أقبل أرباب الاموال من الغربيين وغيرهم يتجرون ويزارعون ويؤسسون المشاريع العمرانية ، فكانت تلك الحركة نافعة في نهضة القطر الاخيرة نهضة اقتصادية كبرى حسدتها عليها بلاد كثيرة .

تهياً لمصر والحق يقال من رجال الاحتلال أناس عملوا باخلاص لتحسين زراعتها وريها وتنظيمها لينتفع من ذلك البريطانيون والمصريون معاً . وكان عميدهم الاكبر لورد كرومر الذى أدار دفة السياسة المصرية أربعاً وعشرين سنة أرخى في خلالها عنان الحرية الفكرية والاجتماعية فهاجر الى مصر كثيرون من

المشاركة . عمل هذا وغيره من الاعمال النافعة ولكنه كان يحاول أن يسف بالمصريين عند حد الاشتغال بالزراعة ثم بالوظائف القليلة التي لا تسمح الحال الا باعطائها للمصريين وما عدا ذلك من الارتقاء العقلي والسياسي . فقد كان اللورد يقول لهم كل سنة تصريحاً وتلويحاً في تقاريره السنوية ، انكم لا استعداد لكم معاشر المصريين لغير ذلك من الاعمال فهل نسيتم ماضيكم أيام كنتم تساقون إلى السخرة سوقاً وتستعبدون استعباد العبيد والارقاء أيام الحكومات الماضية المدمرة فاحمدوا الله على أن أنجاكم مما كنتم فيه فخالكم الآن أحسن من ماضيكم مئة مرة فعليكم أن تقنعوا بما حزنتموه .

ولكن نبهاء مصر لم يفهم معنى هذه السياسة وكان الفضل الا كبر للجرائد في تنبيه شعور الامة المصرية إلى أن وراء ما هم متمتعون به الآن مطلباً اسماً وأتفع فقاموا يسعون إليه سعيهم وهم على اختلاف في الطرق الموصلة اليه لا يختلفون في كون بلوغه لا يتأتى إلا من طريق التعليم والتربية

فبذل أهل الاقتدار المالي ما سمحت به نفوسهم من انشاء الكتاتيب في الارياف والمدن حتى أسفرت النتيجة بعد بضع سنين عن تكثير سواد القارئ والكاتبين ثم رأوا أن الامة لا ترقى إلا اذا كان فيها أفراد يحسنون تعليم الامة بلغتها ما يلزمها من المعارف المادية والاقتصادية والاجتماعية فسعوا إلى اقناع الحكومة بجعل التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية باللغة العربية وكانت أكثره بالانكليزية من قبل ثم رأوا أنه اذا لم يكن لهم من أبنائهم من يعلم العلم العالي سبب ارتقاء الامم لا يكون العلم الا عقيماً ناقصاً فأنشأوا لذلك المدرسة الجامعة المصرية ، وهم اليوم ينظمونها لتكون بعد سنين على مثال الجامعات الاوربية تدرس علوم الجامعات الافرنجية باللغة العربية وهي أول جامعة من هذا النوع لامة لا يقل الناطقون بها عن ستين مليوناً من البشر .

نعم ان الجامعة المصرية اليوم وما دخل من الاصلاح على الازهر ومدرسة القضاء الشرعي ومدرسة دار العلوم ومدرسة الحقوق ومدرسة الطب ومدرسة

الهندسة والزراعة وسائر المدارس الاميرية والخصوصية هي التي تتألف منها اليوم طبقات رجال مصر الحديثة ولا بد لهذا الامر من آخر ولمساعيتهم الحسنة من نتيجة اذا سلك القوم سبيل التؤدة وطبقوا أعمالهم على قانون العقل الصحيح واستفادوا بتجارب الامم السالفة وانصاع العامة للخاصة ، ولم يبق المجال للغوغاء وحدهم وبذلك تصبح أسباب القوة المادية والمعنوية في بلادهم على مستوى ما هي عليه عند الامم الحية حقيقة لا مجازاً

لا جرم أن المصريين بما فيهم من الذكاء وما ورثوه من حضارتهم القديمة وتيسر لهم من الرقي المادى هم بمجموعهم أرقى من مجموع الشرقيين خل عنك اليابانيين وفيهم اليوم من العقلاء المفكرين العالمين والباحثين من ليسوا دون أبناء طبقتهم في الغرب وربما فاق الاثراك المصريين في الامور السياسية والحربية ولا يعاب على مصر الافتور همسة أبناءها في منتصف الطريق في الاغلب ، وهذا الخلق يكاد يكون عاماً في القطر لا يقوى في التغلب عليه الا التربية العملية وحبذا يوم نرى فيه مصر تقبل على تعلم العلوم الطبيعية والكيمياء والميكانيك والمعادن اقبالها على تعلم الحقوق مثلاً فقد نرى من ناشئتهم زهاء خمسمائة طالب في كليات أوروبا وأميركا والقسم الاعظم منهم يدرسون الحقوق ليترشحوا منها الى الوظائف لانه وقر في النفوس ان فن المحاماة أكثر عائدة على صاحبه من غيره من الفنون خصوصاً وهو متوقف بمد العلم النظرى على طلاقة لسان وفضل بيان والمصريون أكثر العرب حظاً من تينك المزييتين .

أصبحت مصر بمجموعها اليوم قطعة من أوروبا كما قال الخديوى اسماعيل ولكن أحبابها يريدون لها أن تكون كاوربا في صفاتها العالية وحضارتها الراقية حتى لا تخرج أملاً كها بطيش الطائشين من أبناءها إلى أيدي الغريب فيعود المصري بعد بضع سنين والعياذ بالله كالغريب في بلده وما أصعبها من حالة

ان مسألة الراهة التي تحقق على أمة لاتهم بقدر ماتهم في الحقيقة مسألة الاملاك إذ أنه مهما بلغ من حيف أمة فاتحة أو مستعمرة لاتحدثها نفسها أن تنزع من

المالك ملكه إلا برضاه . ومصر التي تتأذى اليوم بوطأة الروم والطللياني والانكليزي وغيره لا تنتقل بعض أملاكها منها إلا برضاً وللك الوارثين والمصرفين الذين لا يعرفون دخلهم من خرجهم ولا دينهم من دنياهم هذه هي الفئة الضالة المضلة في هذا القطر المحبوب ومنها يخشى على مستقبله . فبقلة عقول المستهترين أصبحت نحو تسعة أعشار الاطيان والاملاك في مصر للغرباء وعليها مائتان وخمسون مليون جنيه من الديون منها نحو مئة مليون دين الحكومة ولا نعرف متى توفيه والباقي على عنق الفلاح الصغير والمزارع الكبير .

إن ما نخشاه على مصر هو الاسراف الزائد وتقليد الغربي على العمياء ولو كان لاهل وادى النيل شيء من الامساك المحمود والاقتصاد المعقول لكانت حال مصر السعيدة أرقى مما هي اليوم . ومن حاز الثروة وقانون الحكمة يدبرها والحنكة قائدها ورأبها وانتظر الفرص التي لا يزال الدهر يخبأوها للأفراد كما لا يبخل بها على الامم لا بد أن يتمتع يوماً بالسعادة السياسية والاجتماعية التي هي منتهى آمال كل أمة حية في هذا الوجود

مرسيليا

٧

في الساعة الرابعة بعد الظهر أقلمت بنا من الاسكندرية الباخرة ايكواتور (خط الاستواء) احدى بواخر شركة الميساجرى ماريتيم الفرنسية فبلغنا ثغر مرسيليا أكبر موانئ فرنسا على البحر المتوسط والمحيط والمناش في اليوم السادس الساعة الخامسة بعد الظهر ولم نر في طريقنا شيئاً يستحق الذكر سوى بعض سواحل ايطاليا وفرنسا وقد تجلت عن بعد وكان نظراً يختلف اليها بقدر بعدنا أو قربنا منها ودام البحر رهواً حتى اذا خرجنا من مضيق مسينا أصبحنا واصبحت

سفینتنا على کبرها وطولها وعرضها العوبة العواصف والتيار يتقاذفنا من كل مكان حتى لم يبق راكب في درجات السفينة الاربع الا وقد أخذ الدوار أو کاد ولم نملك حواسنا الا عند بلوغنا ساحل السلامة .

وقوة هذه الباخرة ٢٩٨٧ حصاناً ومحمولها ٣٨٤٨ طناً وتقطع في الساعة اثني عشر ميلاً وهي احدى بواخر الشركة التي تغدو وتروح بين موانئ البحر الابيض والبحر الاسود والبحر الاحمر وبحر الادرياتيك ولهذه الشركة التي جعلت رأس مالها خمسة وأربعين مليون فرنك تسع عشرة باخرة من مثل هذه خصت سيرها بالبحرين الأولين في الأغلب . ومن موانئنا التي تقف عليها بواخر الميساجرى ماريتيم خانيا وسلانيك والاستانة وجناق قلعة وازمير ومدانيا وفاتي ولارنكا ومرسين والاسكندرونة واللاذقية وطرابلس الشام وبيروت ويافا وحيفا ورودرس والاسكندرية وطرابلس الغرب وصمصون وطربزون وبور سعيد والسويس ولولا أمثال هذه البواخر الفرنسية والنمسية والروسية والایطالية والانكليزية والالمانية والرومانية لما بقيت لنا تجارة تصدر من بلادنا وترد اليها ولتعذر التنقل الا في السواحل على ظهور الجمال والبغال والحمر أو في المركبات وبعض القطارات القليلة التي تربط أجزاء مملكتنا بعضها ببعض .

ولشركة الميساجرى أيضاً اثنتان وعشرون باخرة تمخر العباب الى الهند الصينية وتوابعها وخمس بواخر لخط الكوشنشين وست بواخر لخط اوستراليا وكليدونيا ^(١) الجديدة وخمس بواخر في المحيط الاطلانتيكى (الظلمات) وسبع اختصت بالبحر المحيط الهندي وذلك ما عدا السفن الصغرى التي جعلتها في بعض الموانئ الكبرى . وأشغال الشركة متوسطة مع ان حكومة فرنسا تدفع

(١) لما صدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب تناولتها أقلام العلماء والأدباء بالتقريظ والنقد فنحن نشكر المقرئين وزيد في الشكر لحضرات الناقدین أمثال العلامة الدكتور يعقوب صروف في مجلة المقتطف والاستاذ الاب لويس شيخوف في مجلة المشرق والمستشرق السيوكانيان هوار في المجلة الآسيوية Journal Asiatique والمستشرق لويز ماسنيون في مجلة العالم الاسلامي Revue du Monde Musulman فأنهم أملاوا ما أوحى به عليهم الواسع فاستفدنا منه ووضعناه في المكان اللائق به من هذه الطبعة الثانية جزاهم الله عن التحقيق خيراً

اليها اعانة مالية كل سنة لقاء نقلها البريد بين الشرق والغرب وخدمة الجمهورية فيما يلزمها .

ويقول الذين سافروا مرات بين بلادنا وبلاد الغرب أن البواخر الألمانية والانكليزية والطلديانية تفوق بانتظامها وحسن خدمتها البواخر الفرنسية وأن الراكب يجد راحته في تلك أكثر من هذه مع أن الأجور واحدة ، ولذلك اضطرت هذه الشركة وغيرها الى تخفيض الأجور في الصيف الى نحو النصف لركاب الدرجة الاولى والثانية والثالثة ، وأخذت تحسم خمسين في المئة لكل شخص ثالث كان مع شخصين يدفعان القيمة المقررة ، فاذا كانوا أربعة فأكثر تحسم للرابع فما بعده خمسة وسبعين في المئة ، ولذلك يسهل السفر في الصيف لاعتدال أجوره .

ومن التسهيلات التي قامت بها هذه الشركة ان اتفقت مع شركات البواخر الانكليزية والاميركية وشركات السكك الحديدية على ان تنقل الركاب الى الموانئ التي تختلف اليها بواخرها ، وتلك الشركات تنقلهم على بواخرها بحيث يطوفون العالم ويمجتازون من نصف الكرة الغربية الى النصف الشرقي والأجرة في ذلك معتدلة فيسلك الراكب ان أحب أحد الطرق التي يجتازها في قطع البحور والبرور فالطريق الأولى عن موانئ الصين واليابان وكندا ماراً بفانكوفر وهو يكلف في الدرجة الاولى ٣٢٨٨ فرنكا والطريق الثانية أستراليا وفانكوفر ويكلف في الدرجة الأولى أيضاً ٣٥٧٥ والطريق الثالثة الى أستراليا فمضيق توريس فاليابان ففانكوفر وأجرتها ٤٢٥٧ في الدرجة الاولى والطريق الرابعة عن طريق الصين واليابان وسان فرانسيسكو وتكلف ٣٢٨٨ فرنكا والطريق الخامسة الى أستراليا ومضيق توريس واليابان وسان فرانسيسكو وتكلف ٤٢٥٧ فرنكا في الاولى فيركب الراكب من مرسيليا الى هونغ كونغ على بواخر شركة الميساجري عن طريق السويس وجيبوتي أو عدن وكولومبو وسنغافور وسايغون ومن هونغ كونغ الى شنغاي الى كوبى فيوكوهاما على بواخر الشركة أو على

بواخر شركة الباسيفيك الكندية بحسب ما يختار الراكب ومن يوكوهاما الى فانكوفر على باخر الشركة الكندية ، ومن هنا يركب القطار الى كيبك ومونتريال وهاليفاكس وسان جون أو نيويورك ومن نيويورك الى ليفربول أو سوسامتون على احدى البواخر الانكليزية أو الاميركية أو النمسية أو من نيويورك الى الهافر على باخر التراسلانتيك . ومن الهافر بالسكة الحديدية الى باريز .

هذه هي المسافات التي يقطعها من يريد الطواف حول الارض ولو قال قائل هذا لا حد أجدادنا الاقدمين ، وذكر له اننى أريد السير للنزهة على هذه الخطة لنسب اليه الجنون وقال : ان ذلك لن يكون ولكن اذا عرف سر الاسفار في هذه الاعصار يقول : سبحان من سخر لنا قطع البحار بالبخار . يفعل ما يشاء ويختار .

وبعد فلم يتسع لي الوقت لادرس جميع معالم المدينة في مرسيليا لانى لم أصرف فيها إلا ثلاثة أيام قضيت أكثرها في الراحة من وعناء السفر الذى طال علينا احدى عشرة ساعة زيادة على المعتاد لما صادفته البخرة في طريقها من الانواء ولطاريء طراً على آلتها في عرض البحر فأصلحتها ولولا ذلك لقطعت باخرتنا المسافة بين الاسكندرية ومرسيليا في خمسة أيام بلياليها لا تقف قرب اليابسة . ومن البواخر الانكليزية ما يقطع المسافة بين بورسعيد ومرسيليا في أربعة أيام وهذه البواخر خاصة بالبريد الانكليزى تنقله من أستراليا والهند الى الجزائر البريطانية في خمسة وثلاثين يوماً لا تكاد تستريح في طريقها إلا بقدر ما تحمل زاداً ووقوداً وركاباً والمسافة المعتادة بين أستراليا وانكلترا لا تجتازها الشركات المعتادة في أقل من سبعين يوماً .

قامت مرسيليا في منقطع وادى الرون الجميل ، فكانت جملة الجمال الفرنسى بما فيها من الجبال والسهول ، وما أحرزته من مجد قديم وغنى حديث ، وأن محيطها الذى لا تقل مساحته عن مئة كيلو متر مربع لاحتلى من العافية في بدن

«سليم ، أو النضارة في حدود الجوارى - كما يقول بديع الزمان - اسنفر الله بل كاد يكون أجل من الحور الذى تقرأوه في عيون المرسيليات الدعج . ولعل جمال العيون في النساء هنا التى فاقت عيون البدويات الرعايب ، انتقلت اليهن من أجدادهن العرب ، فقد قال ميشله المؤرخ ، أن أصل سكان مضائق الرون مختلط كثيراً ففيه العنصر السلتي واليوناني والعربي وخليط من الطليان والغالب أن سكان جنوبي أوربا يوصف نساؤهم بدعج العيون وسواد الشعور كما يوصف الشماليات بزرقه العيون وشقرة الشعور .

وإلى اليوم يكثر في مرسيليا الغرباء ولا سيما الطليان ففيها ٥٥٠ ألفا من السكان خمسهم من الطليان ويدهم كثير من الصناعات والمعامل وهم عشر الاجانب في فرنسا وكان في مقاطعة مرسيليا سنة ١٩٠٦ : ٧٦٦٥٠٠ ساكن منهم ١٢٣٥٠٠ أجنب وفيها ٨١٧ مدرسة وفي مقاطعتها ٧١٧ كيلومتراً من الخطوط الحديدية و ١٦٣ كيلومتراً من الترام و ٢٨٤ من الطرق الاهلية و ٣٦٨٣ كيلومتراً من طرق المعجلات الموصلة بين أقاليمها

وأهم صناعاتها عمل الاقمشة وتحضير الاطعمة والمأكولات وصنع القرميد والصابون خل عنك تجارتها الهائلة وزراعتها التي لا تختلف في الرقى عن زراعة عامة البلاد الفرنسية وفيها دور صناعة للاساطيل والبواخر التجارية ولا سيما دار صناعة الميساجرى ماريتيم

قال من كتبوا عن مرسيليا من المؤرخين أن تاريخها من أقدم التواريخ وهى أول ميناء بحرية لفرنسا يرد عهد انشائها إلى القرن السادس قبل المسيح وفي مقاطعتها اليوم ٤٩ ألف منزل منقسمة بين ألفى شارع وطريق ومعظم آثارها ومصانعها حديثة النشأة من عهد السلالة الملكية الثانية ومن أحسن متزهاتها الكورنيش الذى انتهى سنة ١٨٦٣ وكان عدد السفن التى دخلت مرفأها البالغ سطحه ٣٠٠ هكتار سنة ١٩٠٧ - ١٦٣٣٠ وعدد الركاب ٥٥٠ ألفاً وقدروا ما يدخل اليها ويخرج منها في اليوم بسبعة وأربعين باخرة وبارجة وناهيك به من عدد .

ويطبع فيها وينشر ١٤٦ جريدة ومجلة . وجريدة البتي مارسيليه (المرسيلي الصغير) أوسعها انتشاراً تطبع ١٨٠ ألفاً كل يوم وهو في حجم الماتين والايكودي باري كما يطبع البتي باريزيان (الباريزي الصغير) الذي يصدر في باريز مليوناً ومائتي ألف نسخة في اليوم والثاني أكثر جرائد فرنسا انتشاراً . فكان لهذه الاسماء الصغيرة من حسن التوفيق مالا يحالف الاعمال التي تبدأ باللقاب الضخمة والاسماء الفخمة .

زرت ادارة البتي مارسيليه فرأيت النظام مستحكما في كل ما يتعلق بها وهي اليوم في السنة الثالثة والاربعين من عمرها وأقدم منها بل أقدم جرائد مرسيليا « الشيفافوردي مارسيل » أنشئت سنة ١٨٢٧ وهي من الجرائد الجدية المعتبرة الا انها اقل انتشاراً . وهذه الجريدة تباع في مقاطعة الرون وما إليها مثلاً فلو فرضنا أن ما يطبع من جرائد مرسيليا ومجلاتها يبلغ كل يوم مليوني نسخة لصاب كل فرد في مقاطعتها جريدتان ونصف على أقل تعديل هذا عدا الجرائد الباريزية وغيرها التي ترد على مرسيليا وتباع في شوارعها بالالوف أيضاً

ومن الاسف العظيم أننا لو أحصينا عدد ما يصدر من جميع الجرائد والمجلات العربية والتركية والفارسية في البلاد المصرية والعثمانية والايرانية لايبلغ بكميته قدر ما تطبع كل يوم جريدة البتي مارسيليه احدى جرائد ولايات فرنسا . وعلى هذه النسبة قس ولا تخف درجة ارتقاء وارتقاء الفرنسيين وسجل علينا بالفقر المدقع في كل شيء ولا سيما في الامور العقلية

ليون



ماذا يصف القلم من مدنية الفرنسيين وكل فرع من فروعها المدهشة لو
تعاورته الاقلام الكثيرة وتوفرت على البحث فيه العقول الكبيرة لما كانت
الا الى جانب القصور نعم لو جاء في عصرنا الرحالة ابن حوقل ، وشاهد مدنية
فرنسا فقط لحوقل واسترجع . وقال : هذه حضارة ليس لنا في وصفها مطمع ولو
أتى المسعودي بقلمه وعنه لعجز عن الوصف والتسطير ولو جئ ، بابن بطوطة لآب
من رحلته الطويلة لا يحسن املاء ما رأى وسمع ، ولو قام ابن جبير لاعترف
بقصور ذرعه ، وعدم تقاذ طبعه . وقال ان هذا الا حلم وخيال ، ونحن لانسجل
في رحلتنا الا ما تقع عليه أبصارنا ، ويتراى الى آذاننا ، وتمسه أيدينا .

وبعد فماذا يصف القلم في ليون أجمالها الطبيعي أم الصناعي ، معاملها
الحريية أم مدارسها وكليتها ، أم انتظام شوارعها ودورها وقصورها وحدائقها
أم غناها ومتاحفها وعادياتها وكنائسها ومصانعها ومعارفها ومكاتبها ، ومخازنها
وحوانيتها وتماثيلها وأنصابها ، وخطوطها الحديدية والكهربائية ، وجسورها
الحديدية والحجرية ، وأرصفتها البديعة وساحاتها وحدائقها ، ونهرها العظيمين
الرون والسون الذين يقطعانها شطرين ، ويزيدان في بهجتها ما تقربه العين .

ماذا نذكر من ليون ثاني مدينة في فرنسا وقد شبهوها بموسكو الروسية
في كونها عاصمة دين كما هي عاصمة صناعة وعمل . وعلى جسر ليون الصليبيون
في القرون الوسطى ذاهبين الى المشرق لا تقاذ البيت المقدس من أيدي المسلمين
نعم مماذا نعدد من ليون وبدائع صنع الانسان فيها وما ضمت من معاهد قديمة
وحديثة ، ومشاهد بهيجة ، وبالله ما أعجب معرض نموذج الآ نسجة الذي حوى
أربعمائة ألف نموذج ، ليس لها نظير في العالم وعرضت على أنظار أهل البلاد

والسائحين ، ينتفعون بالنظر اليها ، ويستدلون بها على تقن يد الانسان في كسوة الابدان .

لئن حرمت ليون من ميناء بحرية لتصريف مصنوعاتها بسرعة ، فان البخار البرى عوض عليها هذا الحرمان فزاد في عظمتها التجارية ففي كل يوم يمر في محطات سككها الحديدية ١٤٠ قطاراً جائية ذاهبة من أنحاء شتى ولا سيما من الشمال الى الجنوب . والمسافة بين باريز ومرسيليا ٨٥٠ كيلو متراً ليس فيها شبر واحد لا أثر للعمران فيه يقطعها القطار بالسير السريع في ١٤ ساعة ، وليون على مقربة من نصف الطريق بين باريز عاصمة البلاد ومرسيليا ثمرها ، والحكومة اليوم شارعة بمد خط حديدى ثالث لتسيير القطارات لان الخطين الموجودين لا يتأتى أن يجرى عليهما في كل بضع دقائق أكثر من قطار واحد مخافة أن يحدث اصطدام بين القطارات وسيكلف الخط الجديد بين باريز ومرسيليا مئات الملايين من الفرنكات . وكل ذلك حتى لا يتأخر راكب ولا بضاعة ، وتأخذ كل جهة حظها من العمران .

لم تقف ليون عند حد الاعمال الصناعية والتجارية والمالية ، بأن كانت هي التى أسست مصرف الكريدى ليونيه مثلاً من أعظم مصارف العالم بل لها حظ كبير من النهضة العلمية ، وأثر راسخ في الحضارة الفرنسية ، وناهيك بكليتها التى تحوى فروع العلم . ولا سيما الطبيعى والحقوق والطب والتجارة يختلف اليها ٢٥٠٠ طالب منهم الاجانب ، وفيهم نحو خمسين مصرياً أكثرهم يدرسون الحقوق وقليل منهم الطب وأقل في التجارة ، والمصريون حديث عهدم بنزول ليون للتخرج في كليتها وقد كثروا ورودهم عليها بعد ان ترك المسيو لامبر أحد أساتذة مدرسة الحقوق في القاهرة منصبه ، فعينته حكومته في كلية ليون أستاذاً فكان من أثر محبته للمصريين ومحبة المصريين له ان جذب عشرات منهم للتعليم في كليتها وهو يشرف عليهم اشراف الاب على أولاده . وكانت مصر تعتمد في تنشئة أولادها من قبل على كليات الولايات

الفرنسوية ، ولا سيما كلية موندليه وذلك على عهد الخديوى اسماعيل لانه كان يعتقد ان أهل موندليه أقل معاداة للملوك وأبعد الفرنساويين عن التطرف .

قضيت فى ليون يومين لزيارة معالمها ومشاهدة صديقى محمد لطفى افندى جمعة الكاتب الخطيب الفيور فرأيت فيها غاية الرقى الاجتماعى والتكافل الانشائى والذوق الفرنسوى وفى مثل مدينة ليون من قواعد البلاد تعرف حقيقة الفرنسيس لما يشاهده السائح فيها من السكون والانقطاع الى الاعمال الشريفة فلا يسمعون كالكثر سكان العواصم فى الاغلب للسكاسب الدنيئة أو يرضون بأن يكونوا حالة على الحكومة يأخذون رزقهم من خزائنها بالتوظيف والاستخدام

ويأما أبهج ساحة بللكور يوم الأحد والرجال والنساء والاولاد غادون رائحون فيها لا تقرأ فى وجوههم غير الادب ولا فى حركاتهم إلا التربية البيتية العالية ، والتشبع بالنظام المدنى المعقول ، حتى إذا جن الليل يختلف القوم إلى دور التمثيل ، وأما كن اللهو والطرب ، وسماع الخطب والمحاضرات ، وهكذا ليلهم كنهارهم عمل وراحة واستفادة وافادة أخذوا بحظ وافر من دنياهم ، ولم ينسوا تعهد آدابهم . فليون بلد طيب أمين يسكنه المهذبون العاملون .

ولقد كنت كلما وقع نظرى فى ليون على شارع عظيم أو بناء جسيم تحدثنى النفس بسورية فأقول متى يأتى يكون فيها مثل ما فى ليون على الاقل . ولو أن عمران ليون وحدها وهى احدى مدن فرنسا وما فيها من قوة مادية وأدبية وزعت على سورية من عرش مصر الى الفرات ومن البحر المتوسط الى أقصى بادية الشام وحدود نجد والحجاز لغدت سورية وهى واسعة جداً بمساحتها من حيث عمرانها أرقى مدن المعمور ولكن الرزق لا يأتى بالتمنى والوجود لا ينتفع به إلا من يحسنون استخدام ما فيه من القوى والعناصر

نحية باريز

٩

سلام عليك مرضعة الحكمة ، وريبة الرخاء والنعمة ، وروح الانقلابات الاجتماعية والسياسية ، ومحبة المدنية الاصلية في الاقطار الغربية والشرقية ، ومعلمة العالم كيف يكون الخلاص من الظالمين وأنى يضرب على أيدي الرؤساء والنبلاء والمالكين ، أنت هذبت طبائع البشر حتى غدوا يشعرون باللطف والذوق وفائدة العلم والعمل ، انت كنت في مقدمة العواصم التي انبعث منها تمجيد العقل بل تأليهه . فقضيت بالتقدم له على كل شيء في الوجود ، وبالف في اكرام رجال العقول من أبنائك

سلام عليك يا عشيقة الابداع والاختراع ، وسابقة الاقران في مضمار الانتفاع ، بما حوت الرباع والبقاع . استخدمت القوى المادية فاجدت استخداما واستثمرت القوى العقلية ، فابدعت في استثمارها ، وأحييت حضارات الامم السالفة وأنشأت لك حضارة لا يزال يحسدك عليها أسبق الشعوب الى الترقى مهما تقلبت بك الحال ، ويجدون في أوضاعك مالم يسجدونه في أوضاعهم من المرونة والجمال

سلام عليك يا واضعة حقوق الانسان ، وملقحة الازهان بالتناغم بحب الاوطان ، والداعية الى ثل عروش الجبارين والمخربين . أنت لم ترهبك تقاليد أبطال القرون الوسطى ، ولا بطش الباطشين من المحافظين عليها ، ولم تعلق مسائك على القضاء والقدر ، بل أخذت بالاسباب والمسببات فقتلت من أراد قتلك ، ووضعت من لم يهرمه رفعك ، وكنت للناهضين من الناس خير مثال .

سلام عليك يا معهد المعارف والصناعات بما انشأته من مجامعك العلمية ، ومدارسك الجامعة والكلية ، ومجالسك العامة والخاصة ، وجمعياتك وتقابلاتك لخدمة المدنية والانسانية ، ودور تمثيلك ومعاهد أنسك وممالكك ، ومتاحفك

وحداتك ومكاتبك ومعارضك ، وكل ما أبدعته أفكار أبنائك وأيديهم ، ودل على مجد طريف وتالد ، وتاريخ على جبين الدهر خالد
سلام عليك ياملقنة الخلق معنى الاخاء والحرية والمساواة ، ليتعاشروا بالمعروف ويقوم نظام اجتماعهم على تبادل المنافع ، حتى لا يبقى تمييز في الحقوق والواجبات ، بين المختلفين في الموالد والديانات ، وقطعت التفاضل الا بالاعمال الصالحة والاحلام الراجعة .

سلام عليك يامتشعبة بأفكار الحكماء ارتضيتها منهم قانوناً تجرّين عليه لسعادتك ، ولئن حاد بعض أبنائك بعض الشيء عنها ، فذلك لان سياسة المنافع والمصالح ، قد تخالف ناموس الحق والعمل الصالح ، ولان نظام بقاء الانسب لا قلب له ، والتنازع في جهاد الحياة كثيراً ما يدعو الانسان الى ركوب ما تحظره الشرائع الوضعية والسمائية ولا سيما في هذه العصور التي يفصل فيها كل عمل على قارب الماديات ، وما ذلك الا ليقر البشر بعجزهم ويعلموا أن الكمال الآن محال ، ولعله لا يفوتهم في مستقبل القرون والاجيال .

السلام على هذه العاصمة التي أحسنت الى الشرق فيما مضى فعلته حتى استمد منها النور ، فان قلنا معاشر الشرقيين ولا سيما سكان الشرق الاقرب أنا نأخذ عن المدنية الغربية ، فانما نعني المدنية الفرنسية ، وبعبارة أصح المدنية التي تنبعث أشعتها من باريز ، ومن طريقها وبلغتها وأسلوبها تيسر لنا ان نستطلع طلع سائر مدنيات الأرض .

سلام عليك علّمت وعلمت فما أحسن العلم والعمل اذا اجتماعا ، وما أحلى الاخلاص والشعور بالواجب .

سلام عليك سننت للغرب سنة التضامن والتكافل ، من العطف على البائسين والمساكين ، والرفق بالضعفاء والعاجزين ، والأخذ بأيدي المقهورين والعاثرين ، والانتصار للمظلومين من الآدميين ، خصوصاً اذا كانوا من طينة أوربية .

سلام عليك أنت العاصمة التي تركت القصور الفخمة التي عمرت بدماء الامة
مباحة للناس يدخلونها ، وكانت بثورة المظالم والمفارم ، ومنبعث الشهوات
والاهواء ، ولطالما جارت جوانبها بالدعاء ، الى السماء ، من حيف الكبراء أيام
كان يوقع أحد ملوكها وهو على سرير نومه توقيماً واحداً يترك من القدم مئة
ألف أسرة في هذه البلاد تبیت جائعة عريانة ، ليعمر بما يجمع قصرأ له ، أو يدفعه
لمحبوبته صبرة واحدة ، فلما أضناك الظلم والعنت ، قتت تجعلين من تلك القصور
الفاسقة ، متاحف عامة ، ومن دور الظلم والظلمات ، مجالس عدل وعلم ونور .
سلام عليك خلدت أعمال من خلفوا لك هذه المدنية ، وأقتت تماثيلهم
ونصبهم موقع الاحترام والاعظام ، وتوفرت على تكرير أسمائهم على المسامع كل
يوم ألوف الالوف من المرات ، لتجعلهم مهمازاً لمن يأتي بعدهم من الابناء
والاحفاد .

سلام عليك يا بلد ديكارت وكونت وفولتير وديدرو وسيمون ومونتسكيو
وهوغو وباسكال ورنان ومثات أضراهم ممن بذلوا حياتهم في حسن خدمتك ،
فلم تنس افضالهم عليك بعد مماتهم .
أنت ان خجلت من ذكرى الحروب الصليبية ، وديوان التفتيش الدينى ،
ومذبحة القديس برتلاوس ، ومقتل الفيلسوف فيفانى ، وجنون نابليون وغير
ذلك من الاعمال البربرية في عصور الظلمة ، فان سكانك يفاخرون ، وحق لهم
الفخر ، بأنهم احفاد ثورة سنة ١٧٨٩ قاموا من الاعمال المشكورة في عصور
النور ، ما ينسى الماضى الا أقله ، ان الحسنات يذهبن الليثات .

السلام عليك باريز أجمل عواصم العالم ، وأغنى البلاد بيدائعها الطبيعية
والصناعية ، وأجمعها لمرافق الراحة والرفاهية ، لست أنت اليوم عاصمة مئة
مليون من البشر : أربعون في أرضك وستون في المستعمرات بل أنت بما فيك
من المزايا عاصمة معظم الخافقين ، لاسباب هنائك وصفائك ، ونعيمك ونعمائك ،
وتفردك من بين العواصم بسلامة الذوق ، وسلامة الأبداع ، ووفرة العلماء

والباحثين ، والكاتبين والشاعرين والقصصيين . فكل شيء في باريز مبذول حتى لتعافه النفوس من أقصى ما يتصور الفكر من الفضيلة الى آخر ما يجول في خاطر أو يحوم حوله خيال

فباريز ولا مرء جنة أرضية جمع فيها موجدوها — أستغفر الله — مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

باريز بعد الغروب

١٠

ان فاخرت باريز بمعارضها التي أقامتها في أوقات مختلفة لتلفت اليها الأنظار ، وتستفيد الفخار والنضار ، فان لها كل ليلة معارض لا تختلف عن السابقة الا في كون البقعة التي تقوم عليها هذه أوسع مجالا ، وأكثر جمالا .

يصرف الباريزيون أو معظمهم نهارهم في الاستعداد لليلهم ، وكثيرون لا يعملون الا في الليل ويصرفون النهار في جمع قواهم ، وإدخال أحسن ما عندهم لما بعد الشفق ، فهم لا يجعلون الليل لباساً والنهار معاشاً كما هي عادة معظم الأمم . بل ان الحركة عندهم تبدأ قبيل الظهر بطيئة ، ولا تزال تنمو حتى تغيب الشمس ، وتطلع بدلا شمس واقمار .

تري المدينة في النهار عابسة مظلمة على كثرة جاداتها الكبرى وشوارعها المغروسة على جانبيها بالأشجار غالباً وطرقها وأزقتها وساحاتها العامة ، وفي هذه الأماكن تشهد مجالى الحسن والاحسان ، وما تفننت في ابداعه العوامل ، وتلطفت في روائه الأفكار والانايل .

على تلك الأرضة تناجى النفس رب النجوى قائلة : اللهم هل خلقت باريز من معدن اللطف والظرف ، لتكون مثالا من جنة أرضية فخصت أهلها بالاستمتاع

بنعمة الجمال ، حتى لكأنك شطرته شطرين شطر وقته على الباريزات ، وشطر وزعته على سائر بنات حواء .

ان امتاز الفرنسيين بالابداع في الصناعات فقد امتازوا أيضاً بنضرة الوجوه . والى باريز تحمل هذه الامة ولا سيما في فصل الشتاء أفضل ما عندها من مجالى الكمال والجمال ، أيام تكون أم هذه القرى مقصد السائحين والمتجربين ، والطلابين والعالمين والسياسيين والمخاطبين وتغص دواوينها واداراتها وتلتئم مجالسها العلمية والسياسية والاجتماعية .

ويزيد الوجوه بهجة في باريز تقن القوم في الازياء ، وتغاليهم في التبرج والزينة ، تغالياً مهما تقدم عند غيرهم لا يزالون مصدره ومورده ، وأساذته وسدنته . ومظاهر الازياء تتجلى في باريز بعد الغروب على الجادات والشوارع والطرق والساحات ، وفي المركبات والسيارات وحوافل الخيل والكهرباء والسكك الحديدية فوق الارض وتحتها ، وفي دور التمثيل ومسارح اللهو والطرب ومحال الفرج ، والحانات والقهوات والمطاعم والفنادق ، ويزيدها فتنة للناظرين ما اعتاده الباريزات الا من عصم ربي : من ابداء زينتهن لغير المحارم أكثر من ابدائها لبعولتهن وذوى قرباهن ، ورنين أصواتهن في الكلام رنيناً تحسبه من مزامير داود : وتستطيعه أكثر من تغريد العندليب ، وهناك الفتنة بعينها ، والفتنة أشد من القتل ، ونعوذ به تعالى من فتنة القلب وفتنة العين

ولعل هذه المجالى في الحرية المفرطة ، حملت الكثير من الغرباء على نزول باريز ، ليشهدوا فيها مالا يشهدونه في غيرها ، وتربح منهم الليرات بالملايين والكرات ، عملاً بما قاله أحد ملوك بروسيا وقد قيل له : ليس من اللائق ان تضرب ضريبة على محال الاطمئنان في الشوارع فقال : « الربح لراثة له » وأرسلها مثلاً ولذلك يقول الافرنج أيضاً « الغاية تبرر الوسطة » فما دامت الغاية الكسب ، فلا بأس من الاحتيال لنيله ، ومن أجل هذا تظهر باريز بعد الغروب أقصى الفضيلة وأقصى الرذيلة ، والناس معها وما يختارون

بعد الغروب تعمر في باريز اندية الخطابة والمحاضرة والعلم ، وتلقى فيها من

القوائد ما يبلغ الازدهان عفواً صفواً ، ويفيض معين البيان ، ويبدو حذق يد الانسان ، ويسعى العالم الى تعليم الجاهل ، في ساعة ماتعب في احضاره الايام والأعوام فمائدة الخطب والمحاضرات معروضة ، ودروس الفضائل عامة مورودة بعد الغروب يعمل معظم الكاتبين كتبهم ، والشاعرين اشعارهم ، والمؤلفين مؤلفاتهم ، والمخترعين اختراعاتهم ، والصانعين صناعاتهم ، كأن الافكار لا تنطلق من عقالها ، والأيدى لا تحذق أعمالها ، الا عند ما ترقد عيون البشر ، أو كأن الزهرة ربة الجمال ، لا تحب أن تمل على من هم أحوج الناس الى طلعتها ، الامن الليل ككوكب الزهرة لا يبدو في مطلع الافلاك الا مع الدجى . ولذا يحرص أهل باريز أن يجعلوها بعد غروب الشمس ، مجمع الانس وريحانة النفس .

وكان الباريزيين ، وهم العارفون بتقسيم الاعمال ، عز عليهم أن تمضى ساعة في بلدهم ينقطع فيها العاملون عن أعمالهم ، فخصوا النهار ببعض الصناعات والتجار ، والعملة والعاملات ، والليل بالمفكرين والمفكرات ، والمؤنسين والمؤنسات ، والمغنين والمغنيات ، والممثلين والممثلات ، حتى لا تنقطع حركة ، ولا يقف دولاب عمل ، وكان بذلك الحظ الاوفر للغرباء ، فلا يدخل على الغريب ملل من تغير المشاهد ، ولا يفتأ من الفجر الى الفجر ، ان أحب يستمتع بالمشاهد العجيبة ويتعلم ويأنس ويتنزه .

يقول الباريزيون : ان بلدهم مبارك على الغريب أكثر منه عليهم ، وانهم مضطرون أن يواصلوا السير بالسرى ، ويكدحوا الليل والنهار . ولكن هذا قول من ملك شيئاً فزهد فيه ، والروح تروح الى التنقل ، أما الشرقي الذي يرى أهل باريز ويغبطهم على أكثر ما دبروه لراحتهم ورفاهيتهم ، فانه يعجب لمن يساكنهم زمناً ، كيف ترضى نفسه أن يختار عن باريز بلداً ، كما يعجب لاهلها كيف لا يأسفون على مفارقة الحياة أضعاف أضعاف ما يأسف غيرهم عليها ، ومن قال بأن دواهي الراحة تطيل حبال الآجال ، يستعظم على أهل باريز لم لم يصمروا أكثر من عامة الخلق ، وعندهم النعيم المقيم ، والخير العميم .

تاريخ عمران باريز

١١

لعل باريز كانت في الاصل احدى تلك الضياع التي كان الغاليون ينشئونها
ن جزر الانهار الكبرى أيام كان يسهل عليهم أن ينشئوا جسوراً يتخذونها مجازاً
لى طرق مهمة وأول ذكر ورد لها ولسكانها في التاريخ كان سنة ٥٣ ق . م فدا
لقصر ساكنها باريزيا كما دما المدينة لوتيتيا وضم اليها سنة ٥٣ نواب الامم
لخاضعة .

مضى زمن لم يمتد فيه عمران المدينة خارج الجزيرة الاصلية ، ثم استفاض
عمرانها على الشاطئ الشمالى على عهد الامبراطور كونستانس كلود الذى أنشأ فيها
قصرأ تسمى ببقاياها اليوم بقصر الترم وسكن فيه حولين لما نادى به جنده قيصرأ
وكانت الجزيرة محاطة بمتاريس وفيها قصر تفصل فيه الامور البلدية ومذبح على
اسم جوبيتر اقامه الملاحون الذين كانوا يغدون ويروحون فى تجارة نهر السين وفى
سنة ٢٥٠ غدت لوتيس مركز اسقفية وعلى ذاك العهد أطلق عليها اسم باريزى
وهو اسم الشعب الذى يسكنها وكانت عاصمة بلاده .

فتحت باريز أبوابها للفرنك سنة ٤٩٧ فدخل قصر الترم كاوفيس ثم ماتت
القديسة جنيفاف حامية باريز ووقف العمران على عهد الاسرة الكارولنجيين
بل تراجع فنقل الامبراطور شارلمان عاصمة ملكه الى اكس لاشبل ، وما كان
يقيم فى باريز الا نادراً .

وكانت القرى فى شمالى المدينة وجنوبها تؤسس تحت حماية الاديار وكثيراً
ما كانت تخرب بأيدي أشقياء من السكان أو بغارات النورماندين ، وفى سنتى
٨٨٥ — ٨٨٦ جاء النورمانديون وعددهم ثلاثون ألفاً وعسكروا أمام جزيرة

المدينة وحاصروها ثلاثة عشر شهراً ، وبهذا الحصار افتتحت باريز أيام سعادتها وأصبحت كما قالوا رأس فرنسا وقلبها .

وفي القرن الحادى عشر والثانى عشر امتد عمران هذه القاعدة وأنشئت فيها أديار وبيع ومستشفيات ومدارس وأقيم لها فى أيام لويس السادس عمدة ينظر فى شئونها وأمور ضبطها وربطها وبدأ فيها العمران المادى . وعلى عهد فيليب أغسطس وهو أهم دور من أدوار عمران هذه العاصمة كثرت الكنائس الكبرى وأسست الأديار والمدارس ودور المرضى والأسواق والمجارى وأحواض المياه والفساقى والمرافى وفى سنة ١١٨٥ أخذوا يبلطون شوارع المدينة للمرة الاولى وفى سنة ١٢٠٤ أنشئ قصر اللوفر وبعد ذلك جمعت مدارس باريز وكان عدد طلبتها عشرين ألفاً وجعلت منها مدرسة جامعة أطلق عليه اسم الابنة الكبرى للملوك (الشوربون) وأخذ سكان المدينة ينمون حتى بلغ عددهم سنة ١٣٢٣ — ٢٧٥ ألفاً وصرفت العناية منذ زمن شارل الخامس الى لويس الثالث عشر ، فى تزيين مدينة باريز وتطهيرها وأنشئت فيها فنادق جميلة

ولقد كانت القرون الوسطى على باريز كما كانت على فرنسا قرون مصائب واضطراب فاستباح الانكليز سنة ١٤٢٠ حى باريز وحاولت الفتاة جان دارك على غير طائل أن تطردهم عنها فذهب سعيها عبثاً ومنذ سنة ١٤٠٨ الى ١٤٢٠ أكثر الارمنياكيون والبورغونيون من ذبح سكان باريز التى احتلها الانكليز من سنة ١٤٢٠ الى ١٤٣٦ وجاء طاعون جارف على الأثر أهلك الكثير من سكانها . ومع هذا لا تزداد عروس الغرب الا عمرانا .

وفى سنة ١٥٢٣ وضع الحجر الأول فى أساس دائرة المجلس البلدى الذى هو مفخر من مفاخر البناء فى هذه العاصمة كما أسس قصر التويلرى المشهور على أيام شارل التاسع وعادت باريز فأصبحت ميداناً لقتل من دانوا بالمذهب البرتستانى من أهلها وانتشرت الفتن الدينية زمناً ، وأصبح القول الفصيل فيها للمتعصبين والجامدين .

وفي خلال ذلك اشتد فيها القحط فأهلك من سكانها ثلاثة عشر ألفاً وكثرت
الفتن على الملك وقتل بعض ملوكها وبدأ عهد لويس الثالث عشر بالارتقاء المادى
والعقل فجعلت باريس سنة ١٦٢٢ مقر رئيس أساقفة وكانت أسقفية صغرى وفي
سنة ١٦٢٠ أنشئت مطبعة الأمة وسنة ١٦٢٦ أنشئت حديقة النباتات وسنة
١٦٣٥ أسس المجمع العلمى وأنشئت بعض الشوارع والساحات وغرست بالأشجار
وكثرت الحارات والأحياء الجديدة واتصل العمران بالقرى المجاورة حتى تضاعفت
مساحة المدينة وعلى عهد لويس الرابع عشر أخذوا يضيئون الشوارع بمصابيح
يجعلون فيها شموعاً وذلك فى الليالى غير القمرء .

ولقد نشط هذا الملك البحث فى التاريخ والصناعات والعلوم بإنشاء المجمع
الأثرية والصناعات النفيسة والعلوم وبتخصيصه للناس أن يختلفوا الى المكتبة
وكانت من قبل خاصة بالملوك فقط . وكان عهد الوزير كولبر عهد عمران هذه
العاصمة الذى لم يسبق له نظير وزاد سكانها حتى بلغوا نحو ٥٦٠ ألفاً وعلى عهد
لويس الخامس عشر ، طبعوا أسماء الشوارع على صفائح من توتياء ، وجعلوها
فى رأس كل شارع ، واستعاضوا عن مصابيح الشموع القديمة بمصابيح
الزيت .

ولما جاءت ثورة سنة ١٧٨٩ كثر عمران باريس اذ أعقبت تخلص الاراضى
من الكنائس والبيع لتنشأ فيها الشوارع والجادات وكثرت الابنية العامة والخاصة
والمعاهد العلمية والصناعية والحدائق العامة والمدارس الكبرى ولئن كان من
الثورات التى حدثت بعد ولا سيما فتنه سنة ١٨٤٨ ما نشأ عنه بعض الاضرار
على العمران الا أن الهمم كانت أعظم للتعمير منها للتخريب وقد جاء عشرون ألفاً
من الألمان واحتلوا سنة ١٨٧١ بعض أحياء المدينة عقيب الحرب التى فشل فيها
الفرنسيس فى موقعة سدان وطاد الألمان من حيث أتوا بعد ثلاثة أيام .

وكان عهد عصابات الكومون بعد ذلك من أشأم أيام الخراب على عمران
باريس فتقوض بها ٢٣٨ داراً خاصة وعامة وقتل سبعة آلاف جندى وقتل وجرح

خمسمائة ضابط وقدرت الخسائر بثمانمائة وستين مليوناً من الفرنكات وكثر بعد ذلك العمران باستتباب أسباب الراحة وكان من المعارض الخمسة التي أقامتها باريز ولا سيما معرض سنة ١٨٨٩ الذي أقيم تذكراً لمرور مئة سنة على الثورة الفرنسية الأولى أعظم مظهر من مظاهر الصناعة عند الفرنسيين وأول دليل على ارتقائهم التدريجي الذي لم يقف قط عن الجرى .

المحاليات في عمارة باريز

١٢

باريز واقعة في الدرجة ٤٩°٥٠'٤٨ من العرض يشقها نهر السين الى قسمين غير متساويين من الشرق والجنوب الشرق ويتخللها في وسطها عدة آكام وجبال مهادتها حتى غدت كأنها بعض أجزاءها منها ما يبلغ ارتفاعه ١٠١ متر ومنها ١٢٨ ومنها ١٣٦ ومنها أقل من ذلك ، وتبلغ مساحتها ٧٨٠٢ هكتار ومحيطها ٣٦ كيلو متراً .

وطولها من الشرق الى الغرب نحو ١٢ كيلو متراً ، وعرضها من الشمال الى الجنوب نحو تسعة كيلو مترات وطول طرقها العامة ٨٨٨٠٠٠ متر فيكون مجموع مساحتها السطحية ١٥٣٢ هكتاراً ولها ٧٠ باباً او منفذاً منها ٥٧ باباً و ٩ طرق للسكة الحديدية وطريقان لجرى السين وطريقان لترعة سان ديني واورك وعدد سكانها بحسب الاحصاء الاخير ٢٧٦٣٣٩٣ وباريز بالنسبة لحجمها أكثر المدن ازدهاماً اذا قيست بالمدين الاوربية ومعدل الزواج فيها كل سنة ٢٥ ألفاً والولادات ٦٥٠٠٠ والوفيات ٥٠٠٠٠

وتقسم من حيث أمورها الادارية الى عشرين قسماً لكل واحد منها عمدة وثلاثة أو خمسة مساعدون وباريز ٢٣٤٥ زقاقاً و ٨٢ جادة كبرى و ١١٥ شارعاً

و ١٦٦ ساحة و ٤٠٦ طرق غير نافذة و ٤٦٨ ممشى و ١٥٤ قرية و ٤٩ مصيفاً و ٧١ مجرى عام و ٤٢ رصيفاً و ٣١ جسراً و ٤٨٠٠٠ بيت وتمتد الطرق المغروسة بالأشجار وفيها ٨٧٠٠٠ شجرة على طول ٢٧٠٣٦٣ متراً وفيها ٨١٠٣ مقاعد لجلوس الناس في الطرق والشوارع والساحات والحدائق .

تضاء باريس في الليل بنحو ٥٢٣١٣ ضوء غاز و ١٥٧٥ مصباحاً كهربائياً وقوة القوى الكهربائية فيها للشركات الخاصة والعامة في باريس ٢٠٣٠٠٠٠٠٠ مصباح كل واحد ذو عشر شمعات . ويجرى ماء الشفة الى مدينة باريس في قساطل من عدة ينابيع صافية نافعة خلافاً لما يدعيه بعض المتجرين بالخمور من أن ماءها مضر بالصحة حتى ينفقوا خمورهم ومعدل ما يجرى منه اليها ٣١٠٠٠٠٠ متر مكعب يأتي الى ٨٤ ألف محل من البيوت الخاصة و ٧٤٣٣ مضخة للحريق و ١١١٠٦٩٥ محلاً لشرب المارة ويجرى اليها ماء للاستعمال غير صالح للشرب وهو للصناعات وغيرها يجري في ٦٤٦٠٠ آلة عامة

في باريس ١٦٠٠٠ عربة بالخيول وأكثرها بحصان واحد والمركبة ذات الحصانين هي في الاكثر عربات خاصة بالاعيان وأرباب الفنادق وفيها ١٣٠٠٠ أوتوموبيل كبير تنقل زهاء ٣٠ مليوناً من الناس في السنة و ١١٩ خطاً من خطوط الحوافل (أومنيبوس) والترامواي وفيها ٢٥٠ عجلة أومنيبوس و ١٩٠٠ مركبة كهربائية تنقل في السنة مالا يقل عن ٣٠٠ مليون راكب وعشرة آلاف مركبة خاصة و ١٢٠٠٠ سيارة (أوتوموبيل) وقد كان في فرنسا في السنة الماضية ٤٤٧٦٧ أوتوموبيل و ٤٠٠٠٠ مركبة نقل ولا تدخل فيها الكميونات وفي باريس ١٦٠ ألفاً من الدراجات و ١٠٦٠٠٠ راكب نهريّة تحمل نحو ٢٣ مليون راكب في السنة وسككها الحديدية المحدقة بها تحمل ٣١ مليوناً ويركب من الست محطات الكبرى فيها زهاء ٧٧ مليون راكب ومثلهم يأتون اليها

ويلزم لباريس في السنة ٢٩٢ مليون كيلو من الخبز و ١٥٩ مليون كيلو من اللحم و ٣٦ مليون كيلو من السمك و ٦٦٩ مليون بيضة و ٣١ مليون كيلو من الطير

والصيد ٦ ملايين هكتولتر من الخمر و ٦٩٢٠٠٠ من الجمعة و ١٢٠٠٠٠ هكتولتر من سائر المشروبات الروحية

وفيها ٣٠ ألف فندق و حانة و قهوة و مطعم يعيش منها مئة ألف نسمة و لتجارة الأطعمة ٢٤٥٠٠ محل يعيش منها ٩٠ ألف شخص و لتجارة الفرش و الأثاث ٣٢٠٠ محل و عدد البيوت و المخازن التي تباع الامتعة و الثياب و الازياء ٩٥٠٠ محل فيها ٧٢ ألف عامل و عاملة و عدد محال الاطعمة و معاملها ٧٥ ألفاً فيها ٤٣ ألف مستخدم و خمسمائة ألف عامل و عاملة فيكون مجموع من يعيشون من هذه المحال نحو مليون نسمة

وأكبر وسائل النقل و أسرعها في مدينة باريز السكة الحديدية الكهربية تحت الأرض التي يسمونها المتروبوليتين و هي تدل على عظمة العقل و آخر ما وصل اليه الانسان من التفنن و ليس لهذا الخط نظير في سعتة و جدته في برلين و لا في لندرا افتتح الخط الاول منه سنة ١٩٠٠ وله الآن ستة خطوط منها ما طوله عشرة كيلومترات و منها أكثر و أقل الى السبعة عشر كيلومتراً تربط أجزاء المدينة بعضها ببعض و ينتقل الراكب ان أحب من فرع الى فرع آخر بدون زيادة أجرة و قد تم الخط الرابع منه هذه الآونة و هو يسير تحت نهر السين و يكلف كل كيلومتر من هذا الخط ثلاثة ملايين فرنك و هو سريع نظيف رخيص يدفع الراكب في الدرجة الاولى ٢٥ سنتياً و في الدرجة الثانية ١٥ و قد نقلت هذه السكة الحديدية سنة ١٩٠٩ : ٢٥٤٤٥٩٩٢٠ راكباً و كان عدد من أقلتهم في السنة التي قبلها ٢٢٩٠٧٠٠٠٠٠٠٠٠ و كانت أرباحها سنة ١٩٠٨ نحو أربعين مليار فرنك فأصبحت في السنة التالية زهاء أربعة و أربعين ملياراً و هم يعملون أبدأً على تهويته على طريقة لانتخليه من الهواء النقي و يذرون فيه المواد المضادة للتعفن و قد يتأذى بالركوب فيه بعض ضعاف المزاج و لكن ذلك من كثرة الازدحام فيه لا من شيء آخر

علم المشرقيات

١٣

لا يتأتى لغريب عن أمة أن يعرفها حق المعرفة الا اذا درس لغتها وتاريخها وآدابها . واللغة مفتاح باب كل معرفة ومقدمة بين يدي كل عمل . ولذلك كان من الراغبين في درس أحوال الشرق من أهل أوروبا أن يدرسوا لغاته ليحيطوا خبراً بأهله وكان للغة العربية المقام الاول بين تلك اللغات لأنها لغة أمة ذات حضارة باهرة ودين دان به أهل الاقطار المعتدلة من صميم الشرق . فتوفروا على أحكام العربية وتنافسوا في تعلمها حتى نبغ منهم أناس لم يقلوا في فهم أسرارها عن خلص أبنائها الذين نشؤوا في حجرها وأحكموا ملكة نظمها ونثرها وكان لفرنسا من بين ممالك الغرب يد طولى في هذا المضمار . وكل مملكة من ممالك أوروبا وأميركا لا تخلو من أفراد من أهلها أنفسهم يعانون حل معضلات لغة العرب وينسلون الى تلقفها من كل حذب

ولقد دعوا تعلم هذه اللغات وما ينبغى لها علم المشرقيات أو الاستشراق والمشتغلين بها علماء المشرقيات أو المستشرقين وقديماً كان العارفون من أهل هذا الشأن من الفرنسيين أكثر من غيرهم وقد أصبحوا اليوم وأكثرهم من الألمان . والألمان أمهر الغربيين في النطق باللسان العربي وأكثرهم نبوغاً فيه وعند الألمان من علماء المشرقيات بقدر ما عند الفرنسيين والنمساويين والمجريين واليطاليين والهولانديين والانكليز والروس والاسبانيين والبرتغاليين والاميركيين والبلجيكيين كثرة عدد وحسن معرفة ولا عجب فالألمان نبغوا في كل شأن من شؤون الحياة والعلم والصناعة ودرس العربية كان له النصيب الاوفر من عنايتهم اشتهرت في فرنسا الجمعية الآسيوية ومدرسة اللغات الشرقية الحية وقد درست احوالها وزرعتها غير مامرة وهاءنذا الخص للقارىء ما عرفته عن الجمعية

الآسياوية بواسطة صديقي المسيو لوسين بوتا أحد الاعضاء العاملين العالمين في الجمعية المشار اليها فقد كتب الي ماتعريبه : ان فكر تأسيس جمعية علمية تعنى بدراسة الشرق قد جرى البحث فيه منذ أواسط القرن الثامن عشر ولكنه لم يتم الا بعد زمن طويل . فقد أنشئت الجمعيات الاولى للباحثين في المشرقيات خارج أوروبا مثل جمعية العلوم والفنون في باتافيا (١٧٧٨) والجمعية الآسياوية في البنغال (١٧٨٤) والجمعية الآسياوية في بومباي (١٨٠٥) ومنذ ذلك العهد أنشئت في أوروبا وأميركا عدة جمعيات للمستشرقين ولكن أقدمها عهداً الجمعية الآسياوية في باريز أسست سنة ١٨٢٢

وعلى ذلك العهد رأى جماعة من مستشرقى الفرنسيين ان الحاجة ماسة الى أن يجتمعوا أو يجمعوا مواد الدروس المختلفة الضرورية لهم وان يصدروا مجلة تكون لسان حالهم وقائمة أعمالهم . وكان المسيو دي لاستي أنشط هؤلاء العلماء وبفضله أسست الجمعية الآسياوية التي ناب في رئاستها ما يقرب من ثلاثين سنة ، وكان الرئيس اذذاك سلفستردى سامي أحد أعضاء المجمع العلمي وأستاذ مدرسة فرنسا ومدرسة اللغات الشرقية وهو أعظم من خدم اللغة العربية في فرنسا وربما كان أعظم مستشرق نبغ وتقع من الفرنسيين وكان من مؤسسي الجمعية أيضاً كوسان دي برسفال وكارسين دي قامى ورموسا .

فبدأت الجمعية أعمالها لأول تأسيسها بنشر المجلة الآسياوية التي اختصت بالبحث في لغات الشرق وتاريخه وعلومه وآثاره ولا تزال الى اليوم نموذج العلم الراقى وسيدة المجلات الاختصاصية في فرنسا .

وأنشأت الجمعية خزانة كتب جمعت فيها كل ما وصلت يدها اليه من الكتب والمخطوطات والرسوم وغيرها مما يفيد العلماء من أعضائها وجمعت أيضاً مجموعات من النقود القديمة والتحف البديعة . ونشرت مصنفات في تاريخ الشرق وأصول لغاته وفلسفته وأديانه وطبعت على نفقتها عدة مصنفات وساعدت كثيرين بمساعدات أدبية ومادية على نشر الكتب النافعة وكان نشر المخطوطات وترجمتها من أهم

الاعمال التي تعنى بها ، وخصت جلساتها في سماع المراسلات والمناقشات العلمية النافعة كما عنيت بمراسلة العلماء الأجانب على الدوام والانتفاع بأرائهم وأعمالهم .

واذ قد ظهرت منافع الجمعية الآسيوية سنة ١٨٢٨ عادت بعد ان ضعف أمرها بضع سنين الى مكائنها الأولى ولم تلبث ان قويت عن ذي قبل وانتشرت كلماتها فرأسها امثال سلفستر دى ساسى ثم جوبرورينو وموهل وكارسان دى تامى ورنيه ورنان وباربيه دى مينار وسينار ، ومن جملة رؤسائها الثانويين كوسين دى برسفال وبارتنى سان هيلير ودفرني وبوريه دى كورتيل وماسبرو وربنس دوفال وبين أمناء سرها ايل ريمورا وجايمس ودار مستثير وشافان

تنقلت الجمعية منذ تأسيسها في عدة أماكن ومنذ سنة ١٨٨٣ اتخذت لها مقراً في بناء ملاصق للمجمع العلمى وذلك بفضل رئيسها اذ ذاك رنان الفيلسوف المعروف ونالت من الحكومة الفرنسية عدة معونات رسمية ومنحت الجمعية مكتبة الأمانة الكبرى عدة كتب ومخطوطات وغيرها من النفائس ، ولا سيما المخطوطات التي أتت بها من الهند والمجموعة التبتية وكتب الديانة البوذية .

وماعدا المجلة الآسيوية التي تصدرها الجمعية في نحو مائتي صفحة كل شهرين ويتألف منها مجلدان كل سنة فقد نشرت على نفقتها ٢١ مصنفاً تتألف من نحو ٤٠ مجلداً وبعض هذه المصنفات طويلة الذيل مثل مروج الذهب للمسعودي نشرته بنصه العربي وترجمته الى الفرنسية وهو في تسع مجلدات ، ونشرت رحلة ابن بطوطة في أربع مجلدات وكتاب الماهافاستوفى ثلاث مجلدات

وهذه الجمعية تمنح كل سنة معونات لبعض المؤلفين في الموضوعات العلمية واعضاؤها اليوم ٢٥٠ عضواً منهم ٢٦ من الأجانب وهي تبعث بمجلتها الى نحو مئة جمعية علمية ومدرسة جامعة او مجلة دورية والى ثمانين مكتبة من مكاتب العالم على يد نظارة المعارف الفرنسية والمجلة ١٣٠ مشتركاً ليسوا من الداخلين في الجمعية ، وقد بلغت وارداتها سنة ١٩٠٨ : ٢٥٦٣١ فرنكا و ٦٦ سنتيماً ، وفي

مكتبتها نحو اثني عشر ألف مجلد من الكتب و ١٥٠٠ صفحة و ٢٠٠ كتاب مخطوط
وفيهما مجموعة من النقود القديمة اهـ

هذا اجمال حال الجمعية الآسيوية وفيها من الاعضاء من لا فائدة منهم ولا
رابطة بينهم وبين الغرض الذي رُمى اليه الا انهم يؤدون الراتب السنوي المضروب
عليهم ويتناولون المجلة مقابل ذلك وكثير منهم لا يعرفون من احوال الشرق
ولغاته واصول سكانه اكثر مما نعرف نحن عن الصين والتبت

أما مدرسة اللغات الشرقية الحية وهي التي تقرئ مبادئ اللغات الشرقية
وهي مخرج لاعضاء هذه الجمعية وغيرهم ممن يتولون القنصليات والترجمة
والسفارة عن حكومتهم في بلاد الشرق فاسمها فيما أرى أكثر من تفهها ومادامت
فرنسا تراعى الخواطر في توسيد وظائف التدريس لغير الأكفاء فان تعليم اللغات
الشرقية يبقى صوريا لا حقيقياً . وهيئات ان ينشأ لفرنسا وهي على هذه الحال
أمثال المستشرقين الاول من أبنائها الذين باهت بهم الامم مادامت سوق الشفاعات
رائجة عندها .

درس من - مرنيك

١٤

بينما كنت مأخوذاً بما أشاهده من مظاهر عظمة الأمة الفرنسية واقراً
مثالاً مجسماً من الارتقاء الغربي ولا أفرغ ليلي ولا نهاري من زيارة المعاهد العلمية
وحضور الدروس الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وأغوص في مكاتب باريس
ولا سيما مكتبة الأمة ومكتبة السوربون وبينما تكاثرت علي المواد وأنا لا أعرف
بأى لسان أعبر ولا بأي قلم أحبر وبينما أنا أفكر في بلادى وما يجب علي أن
أكتب لها مما تأثرت به عواطفى وأخذ بمجامع قلبى حمل الي البريد من سلانيك

كراسة باللغة الافرنسية من قلم صموئيل سام أفندي ليني رئيس تحرير جريدة
سلانيك الفرنسية وهي محاضرة ألقاها في نادي الاتحاد الرياضي في ذلك الثغر
أواخر الشهر الماضي عقيب عودته مع جماعة العثمانيين الذين ذهبوا لزيارة بلاد
النمسا والمجر منذ مدة فرأيت أن أخلصها للقراء ليعلموا أن تأثير العثمانيين واحد
عند زيارتهم الديار الاوربية وان ابن سورية اذا أقامه ماشاهده في غربى أوروبا
وأقعه بما فيها من آثار العمل والجهد فان ابن مكدونيه لا ينقص عنه تأثيراً في
ماشاهده من أواسط أوروبا وشعور أبناء الوطن واحد . قال الكاتب السلانيكي
في ستة وعشرين يوماً ساح مائتان وخمسون رجلاً من أهالى الاستانة
وسلانيك وأزمير وغيرها من مدن الداخلية سياحة كبرى قطعوا فيها ٤٥٠٠
كيلو متر في السكك الحديدية و ١٥٠٠ في البواخر والمجلات والسيارات وعلى
الأرجل فوقنا في خمس وعشرين مدينة كبرى وصغرى وزرنا نحو ١٥٠ داراً
صناعية ومعهداً علمياً أو مدرسياً وفنياً وإدارياً ومتحفاً وغيره وحضرنا مئة
دعوة وغيرها اقامتها لنا ١٥ جمعية و ٢٥ غرفة تجارة وحكومة النمسا والمجر فلم يبق
من تلك الرحلة التى تذكرنا السائحين جول فرن وماين ريديالا أن نذكر شيئاً من
ذلك الحلم الذى مر علينا فى رحلتنا وتثبت من تلك الاشباح لنحسن الانتفاع
بها فى مادياتنا وتكون لنا علماً ودرساً نافعاً ولقد كانت غايتنا من رحلتنا اقتصادية
لندرس دور الصناعات والاموضاع التجارية والمدرسية والادارية عن أمم ولكن
المسائل الاقتصادية والاجتماعية كما قال البارون هلموتسكى فيما خطبنا به لها
مساس كلى بالمسائل السياسية وبينها روابط ولوازم ولا سبيل الى البحث فى
الاولى مع اغفال الثانية .

ولقد كنا تقضى بالعجب من كل مايقع نظرنا عليه حتى كنا نتساءل عما
اذا كان ماتقع عليه أنظارنا من مدهش الاعمال هو من صنع أيدي البشر وهم
الذين قاموا بهذه المعجائب وبحق مقاله النائب الدكتور رضا توفيق رئيس جماعتنا
السائحين عند ماغادر النمسا ان أغنى اللغات عاجزة عن بيان الشعور الذى تتأثر به

كلنا كما ينبغي لما لقيناه من الحفاوة الخارقة للعادة مدة مقامنا في بلد بلغ هذه الدرجة من الرقي . نعم لقد تجلت لنا بلاد النمسا والمجر مملكة دخل اليها التجديد من كل أطرافها وتناول كل فرع من فروع أعمالها الخاصة والعامة . وكثيراً ما اتفق لنا ان زرنا معهدين أو ثلاثة في فرع من فروع الصناعة وفي أقاليم مختلفة فكنا نجد في كل منها ماعداً أساليب العمل التي يقضى بوجودها العلم أعمالاً كمالية تابعة وتحسينات خاصة ومحلية تدل على الاقدام الدائى وقوة ارادة شخصية وحب في البحث وكلها ظواهر محسوسة لعمل عام ونشوء متواصل كنا نشهد ذلك في كل الفروع الصناعية والفنية والمدرسية والانسانية . ولكثرة عنايتنا بالسؤال عن معاهد الاحسان ومعونة العملة تراءى لنا ان النمسا في مقدمة الأمم في هذا الباب ومن ذلك ان ٤٢٠٠ من العملة العاجزين يعيشون في لايزر بالقرب من فينالا على قدر الكفاية فقط بل يعيشون كما يعيش الملوك وماننس لا نفس ملجأ المرضى العصبيين في شنهوف وفيه ٣٦٠٠ عامل يعاملون كما لو كانوا في قصور ملكية وهم موزعون على ٦٤ بناية في مسافة من الأرض تتجاوز مساحة مدينة سلانيك وقد صرفت عليها حكومة النمسا السفلى ستين مليون كورون فقط لا غير .

وبينا كان رفقاءى في رحلتى يدهشون من زيارة المعامل والمصانع ودور الصناعات على اختلاف أنواعها في بلاد المجر والنمسا ومورافيا وبوهيميا وستيريا وغيرها كان يلتفت نظرى خاصة منظر اتفقوا على تسميته باسم مملكة هابسبورغ فان هذه المملكة هي في الحقيقة رقعة شطرنج فيها غرائب الفسيفساء من العناصر المختلفة والوطنيات غير المتجانسة ولكن هذه الجماعات على اختلاف أصولها ، قد اجتمعت ليكون مجموعها مثال جمال ولطف وتنوع وما كانت وحدة هذا المزيج الا نتيجة نظام الحكومة المركزية وحسن مآثاها وبعد نظرها فرأت أن تترك لكل قوم استقلالاً ادارياً كان غاية الغايات في ابداعه ، وبذلك توفت

الصدّات الهائلة ولم يحدث حتى الآن ما يكدر صفو الراحة . وهذا الرأى في توسيع سلطة الاقاليم لم يكن منه الوحدة الجوهرية فقط لما فيه من احترام القوميات بل نتج منه ارتقاء خارق للعادة في جميع فروع العمل ، وذلك ان كل قطر له من نفسه غنى طبيعى غزير ، ورجال نوابغ أذكاء هم خيرة رجاله ، فاستطاعوا الانتفاع بما حوت بقاعهم وكان من ذلك ان استمتع كل جماعة بما لهم من الحقوق فنشأت المنافسة بين العناصر المختلفة وأخذت كل واحدة منها تضاعف عنايتها وتكثر من جهادها ، فأوجدوا بذلك مجموعة من بدائع الاعمال متنوعة الاساليب تمت في عامة فروع الجهاد الانساني ، وكان ذلك من أهم المشاهد وأجلها التى وقع نظرنا عليها فى رحلتنا وأحسن معلم لنا معاشر العثمانيين .

تألّفت مملكة هابسبورغ من زواج أمراء بعضهم من بعض على حين كانت الانقسامات الداخلية سبباً لضعف تلك المملكة ولطالما طحنتها مطامع جيرانها ، واعتداؤهم . ولكن لما عازمت الحكومة ان تمنح العناصر المختلة التى يتكون منها جسم المملكة دستوراً قائماً على المبادئ الحرة فى مراعاة الحق العام الحديث بدأ نهوضها وارتقاؤها الى الامام .

فعلى نواب العثمانيين فى مجلسنا النيابى أن ينظروا فى أمر العناصر العثمانية ، ويحلوها كما حلّتها النمسا والمجر التى كانت فى حالة أشبه بحالتنا اليوم منذ نصف قرن . فاحسنت حلها على ما يجب فهى سابقتنا فى هذا الباب وما علينا الا أن نأخذ عنها وبذلك نأمن العثرات ولا نسير على غير هدى .

وهنا ألّفت الى رفاقي فى الرحلة الذين دخل عليهم اليأس من ارتقائنا مما شاهدوه من الشوط البعيد الذى قطعه جيراننا فأقول لهم ان ما شاهدناه عندهم ليس الا ثمرة عمل عظيم وجهاد منظم وارادة قوية وأساس راسخ وإذا أحببنا أن نبلغ بأمّتنا مبلغهم فما علينا الا أن نمد نحن يد مساعدتنا للدستور ونستخدم جميع القوى الحية فى الامة وأن تعمل الحكومة عملاً فعالاً لما فيه انهاض الشعب كما على الشعب أن يعمل لمعاودة الحكومة الصالحة ، وبالجملة أن يعمل كلاهما بل

يعمل الكل للواحد والواحد للكل ويعرف كل الواجب عاينه ونكران النفس والمفاداة .

نهوض العثمانيين موقوف على التعليم ولا نتجح الا اذا حذونا على الاقل حذو البلاد التي كانت تابعة لنا بالامس كمالك البلقان مثلاً وأرسلنا من شبانتنا من يتعلمون العلوم الكاملة في كليات الغرب ، فمن أعظم نجاح تلك الامارات انها ما زالت منذ زهاء ربع قرن ترسل بشبانتها الى كليات العلم حتى لا تكاد تدخل كلية في أوروبا الا وتجد منهم كثيرين وهؤلاء هم الذين استلموا زمام الاعمال في بلادهم وتفخوا فيها بن ارواحهم ولسنا نضطر الى الاجانب لتعليم أولادنا في بلادهم بل يجب ان نجلب رجال الصناعات والعلم منهم يؤسسون في بلادنا مدارس ودور صناعات كما نحن في حاجة الى رؤوس أموال الاجانب لاستخدامها في أعمالنا ومشاريعنا وأن نكون في سياستنا الاقتصادية كما قال ارنست لافيس المؤرخ الفرنسي في تعريف السياسة انها علم خديعة غيرك من الناس ، وأنت تظهر بأنك تحملهم على الاعتقاد بأننا لم ندرك بأنهم خدعونا أو انهم يحاولون خداعنا .

دار معونة العلماء

١٥

هي الدار التي أنشأتها الآنسة دوسن شقيقة العقيلة تير امرأة تير العالم المؤرخ أول رئيس للجمهورية الثالثة فقد تقع هذا الرجل فرنسا بحياته فأجبت امرأته ان تخلد ذكره بعد مماته فأوصت بمال يصرف على تأسيس دار تؤوى خمسة عشر رجلاً من شبان العلماء يكفون فيها مؤونة الحياة المادية ويتفرغون للبحث والدرس ليكونوا صلة بين الكليات التي تخرجوا فيها والجامع العلمية التي

يراد اجلاسهم في قاعاتها ، ماتت العقيلة تير على حين فجأة فنفذت وصيتها شقيقتها ووقفت مالاً بلغ ريعه مئة وخمسين الف فرنك

إن من يزور هذه الدار المباركة ويطلع على أعمالها ورجالها يوقن كل الايقان بالمثل الا فرنجي القائل بأن « فرنسا تبتكرع وألمانيا تعمل » الفرنسيس يبتكرون في كل شئ ، وهذه الدار هي من مبتكراتهم وما أظن لها مثيلاً عند الألمان والانكليز والاميركان سادة العالم في العلم وقادة الابداع والاختراع

زرت هذه الدار مرتين وتشرفت بالتعرف الى مديرها أحد كبار فلاسفة فرنسا وعلمائهم المعاصرين المسيو اميل بوترو - ومشاهير الفلاسفة المعاصرين من الفرنسيس اليوم هم بوترو وفوليه وريبو وبرجسون . ولم أتمن في حياتي ان أكون فرنسوى الاصل والجنس الا لما رأيت هذه الدار وعلمت انها لا تقبل في حجرها الا الفرنسيين ، تمنيت أن أعيش فيها المدة المحددة لكل طالب اتفرغ لدرس ابحاث تجول في الصدر ويعوق الزمان والمكان الآن عن اتمامها

هذه الدار سميت باسم تير La Fondation Chiers والأولى ان تسمى دار معونة العلماء لانها ليست مدرسة كالمدارس ولا كلية كالكليات ولا مدرسة اكيريكية كالمدارس الدينية بل هي دار يقبل فيها كل سنة خمسة ^(١) من شبان العلماء من نابغى الكليات يحملون شهادة « الليسانس » أو « الدكتورا » في الآداب أو العلوم أو ممن نالوا جائزة من جوائز المجمع العلمى في الابحاث التى تجرى فيها المسابقة بين ارباب الافكار والاقلام تحت نظارة المجمع العلمية الخمسة في باريز فيقضون ثلاث سنين في هذا المعهد ينصرفون فيها الى الفن الذى يريدون الاختصاص فيه فيبحثون بأنفسهم لا تقسمهم تحت رعاية مدير المعهد فيلسوف فرنسا المسيو اميل بوترو الذى يعيش واياهم في المعهد كما يعيش الأب مع بنيه ويمدهم بأرائه ويهديهم الى اقرب الطرق للانتفاع بمعارفهم ، ووضع مؤلف او مؤلفات نافعة في الفنون التى هي احب من غيرها الى قلوبهم ولا يلشرونها الا اذا نظر هو

(١) اعتمدنا في هذه المقالة على ما كتبه المسيو اميل بوترو بشأن معهد تير العلمى في مجلة الافكار الحديثة والمجلة الدولية الالمانية وغيرهما من الفهارس والقوائم .

فيها واقربهم عليها ، وای عالم لا يجب ان ينتفع في عمله برأى عالم كالمسيو بوترو بلغ السبعين او كاد من عمره وهو يفني ليلاليه وايامه في العلم والفلسفة يشترط فيما يدخل دار معونة العلماء ان يكون ممتازاً بعقله واخلاقه ويفضل من يرتضي اساتذته اخلاقه ونبوغه ، ويشهدون فيه شهادة حسنة ، وان يكون دون السادسة والعشرين من عمره غير متزوج ، وقد قضى الخدمة العسكرية ، ويعطيه المعهد ستين ليرة في السنة لنفقاته الخاصة ، وثلاثين ليرة ليسبح بها سياحة علمية وتعطيه غرفتين فسيحتين فيهما أسباب الراحة والرفاهية احداهما للنوم والثانية لعمله بحيث يكون الشبان العلماء الخمسة عشر وهو عدد الموجود منهم في المعهد أبداً موسعاً عليهم لا يطلب منهم الا أن يؤلفوا ويبحثوا البحوث العلمية تنفعهم وتنفع أمتهم وبلادهم ويقسم عدد من كانوا فيها سنة ١٩٠٨ ١٩٠٩ من شبان العلماء الى رياضيين ومؤرخين ومتشرع في السياسة والاجتماع وعالم في اليونانيات وحقوقيين وفلاسوفين ومؤرخ وموسيقار وعالمين في الجرمانيات ومؤرخ في الآداب الفرنسية وجغرافي وقد انشئ هذا المعهد في سنة ١٨٩٣ فيكون عدد من اعانهم على الاختصاص في العلم حتى الآن ٨٠ عالماً وكلهم وضعوا المؤلفات الممتعة النافعة للعلم عامة ولبلادهم خاصة وقد بلغت واردات هذا المعهد مئة وخمسين ألف فرنك في السنة يتناول منها المدير عشرة آلاف فرنك .

قام معهد تير العلمى في أجمل حى من أحياء باريز في حى الأشراف والنبلاء بالقرب من غابة بولونيا الغناء غربى مدينة باريز في الحى الذى تؤجر الدار فيه اليوم بثلاثمائة ألف فرنك مساهمة وسط حديقة أنيقة تحيط بها الحدائق في مكان يجمع الى الإسكون المطلوب للعلماء والمؤلفين ولا يبعد عن سائر أحياء العاصمة وما يلزم لهم من المواد المفرقة في مكاتب باريز المختلفة ودور العلم والمستودعات والمجامع والمتاحف وغيرها بحيث هم بعيدون قريبون عن الحركة العلمية والسياسية والاجتماعية وليس في المعهد مكتبة كبرى لانها على اتساع مساحتها لا يتسع

صدرها لكل ما يلزم المؤلفين فيها من المواد بل فيها فقط كتب الفهارس والمعاجم والمراجعة والامهات التي لا غنية لكل عالم عنها وما عدا ذلك فمكاتب باريز وعلماؤها ودور سجلاتها ومتاحفها على قيد غلوة من سكان هذه الرحبة الشريفة يأخذون منها مارافهم كل ساعة .

وليست هذه الوسائط هي كل ما في معهد تير من المعونات لعلماؤها بل ان لهم بفضل الشيخ الرئيس مديرهم الحكيم الكبير أهم الاسباب التي تربطهم بعلماء العالم ومجامعه وكلياته فهم كسكان الجنان توفرت لهم كل الوسائط فلم يبق عليهم الا أن يقطعوا من ثمار محبوبتها كل قريب ودان

يعيش هؤلاء العلماء عيشة مشتركة فيتناولون طعامهم معاً ويلعبون ويتزهدون معاً ويبحثون عن العلوم التي يمتنون بها معاً ويظلون هكذا يعيشون عيشة الاتراب العاملين على ما تعلموا في طفوليتهم في المدارس والكليات ويستفيد بعضهم من بعض في العلوم المختلفة ويماون بعضهم بعضاً معاونة الاخوان وترفهون رفاهية لا يتمتع بها الا عقلاء الاغنياء

قام هذا المعهد المفيد تحت رعاية العلماء من أهل الجمع العلمي وحقت فيه مؤسسته العقيلة تير وشقيقتهما مارممة النظار على ذاك المعهد أمثال جول سيمون ومنيه وبارتلمى سان هيلير فكان تير الذي عد من نوابغ القرن التاسع عشر الذين خدوا بلادهم خدمة تذكروا على الدهر فتشكر نافعاً لامته في حياته بعقله وفي مماته بماله فتى يصل الشرق ياترى الى هذه الدرجة في العقل والاحسان ومتى يكون علماؤه من أهل السعة واليسار الى هذا الحد ليحسنوا الانتفاع بأموالهم كما أحسنوها بعلومهم

ان شبان العلماء في هذه الدار بعد ان تعلموا ورأوا العلماء كيف يعملون محتاجون لهضم ما تعلموه أن يعانون لينشأ منهم أفراد متفردون في العلم فيتحولون بهذه الوساطة من تلامذة الى أساتذة اكفاء أن يكفوا أنفسهم وأن يوجدوا ويخترعوا وهذا موقف على أن يستجمعوا قواهم ويتمتعوا بحريتهم وأوقاتهم على

ما يشاءون فالعمل كما قال أميل بوترو هو السرور على شرط أن لا يكون صاحبه مستعبداً فيه لاحد ولا لمؤثر بل يقوم به مدفوعاً فقط بعامل نتائجه الطبيعية وهي الابداع والابداع ، وما التربية الا أن تخرج كل انسان على ما ينفع فيه ، ويتيسر له النبوغ في فروعـه ، التربية هي تخريج المرء أولاً في مجموع المبادئ العامة التي هي وقف خلفه لنا أسلافنا بتجاربيهم ومموا ذلك العقل ثم تخريجه ثانياً في ان يكون مخصصاً متفرداً في علم واحد يكون فيه على بصيرة على نحو ما يتطلب ذلك العلم الحاضر والمجتمع الحديث ثم ينشأ ثالثاً ممن دخل في هذين الطورين في التربية فيلسوف يدرك قيم الأمور ويعرف الصلات المتبادلة فيما ينصرف اليه العالمون على اختلاف معارفهم ويبحث في ان يوفق توفيقاً حسناً بين الحياة الخاصة والحياة العامة . وكل هذا لا يفهم مغزاه شرقنا التعس الآن .

تأخى الغربيين

١٦

كل فكر ومذهب في الوجود نتيجة الدعوة اليه وتحبيبه الى النفوس . عرف الغربيون هذه القاعدة فجزوا عليها في دشير من اصمالم وكان من ثمرات الدعوات السياسية والدينية تأليف الوحدة السويسرية والالمانية والأميركية وتوحيد كلمة الجزائر البريطانية وانتشار المذاهب الاجتماعية والاشتراكية والفوضوية وكثرة من يدينون بالمذاهب البرتستانتيية والفاسفية .

وقد قام هذا الشهر في فرنسا جماعة ممن يفكرون لخيرها رأوا ان بلادهم تنتفع كثيراً من تحسين صلاتها مع اميركا فألفوا جمعية دعوها « جمعية فرنسا اميركا » مؤلفة من علماء وسياسيين وقواد واجتماعيين ومعلمين وفي رأسها المسيو جبرائيل هانوتو أحد أعضاء المجمع العلمي وصاحب التأليف الكثيرة في التاريخ

والسياسة ووزير خارجية فرنسا الأسبق ، وقد أنشأوا لبث هذه الدعوة مجلة شهرية باسم جمعيتهم تدعو الى هذا الغرض استفتحتها رئيس الجمعية بمقالة في الغرض الذي يرمون اليه وكتب في المجلة الأسبوعية مقالة طويلة الدليل في هذا الشأن فرأيت ان الخص للمشاركة لباب هاتين المقالتين دلالة على ما يأتيه المغاربة من الأتعمال النافعة لمستقبلهم لننسى على أنفسنا نومنا عن النظر في مستقبلنا .

قال هانوتو - ان النجاح معقود بناصية من يعمل في الوقت اللازم ، ولو وجهنا وجهتنا منذ سنة ١٨٦٠ الى أميركا الشمالية والجنوبية لما احتجنا اليوم الى دعوة أمتنا لتعريفها بما نعرفها به . هبت علينا الزعاع السياسية والاقتصادية منذ ذاك الحين واذا قد سكنت الآن وجب علينا ان نعمل عملا يحمل في مطاويه احسن الفوائد

تبدلت الارض غير الارض في خمسين سنة حتى صح ان تقول ان قارتي آسيا وافريقية كانهما اكتشفتا حديثاً فكثرت مواصلاتهما وحملت اليهما المدنية والحضارة وجرى تعليمهما واستعمارهما وكان لفرنسا من هذا التحول الغريب حصة موفورة ، فقد غير دلبس بفتحها ترعة السويس شكل الارض كما ان جولفري بموافقة على السياسة الاستعمارية قد حاز لنا قسماً كافياً من قسمة الاراضي الجديدة .

وبينا كان الشرق يستدعينا غدا الغرب ينكرنا ، ويستغنى عنا ، فان مسألة باناما المشثومة . التي جاءت بعد مسألة المكسيك قد اثرت في علاقاتنا مع أميركا الشمالية والجزيرية واستغرقت التدابير الاوربية الكبرى التي اضطررنا الى مجاراتها فكرنا وقوتنا المادية . وانحطت بحريتنا التجارية فضعفت بضعفها أسبابنا في العمل واحتفظنا بأساليبنا القديمة التجارية فسبقتنا شعوب أكثر منا فتاء وأكثر مضاء وأقل مطالب

نعم تقدمنا وتأثلنا ولكننا لم نبرح كما كنا في قوتنا على عهد نابليون على حين كانت أميركا بثروتها وقوتها وعظمتها تتقدم تقدماً لا يوصف فقد كان سكان

الولايات المتحدة سنة ١٨٧٠ - ٣٦ مليوناً أى ما يقرب من سكان فرنسا على التقريب فأصبحوا سنة ١٨٩٠ - ٦٣ مليوناً وهامهم يتجاوزون اليوم الثمانين مليوناً . وفى كندا اليوم زهاء ٦ ملايين من السكان وفى الجمهوريات الوسطى والمكسيك ٢٢ مليوناً وأصبحت أميركا الجنوبية ٤٥ مليوناً وكان فيها سنة ١٨٩٠ - ٣٥ مليوناً

وكان مجموع تجارة الولايات المتحدة سنة ١٨٧٠ خمسة مليارات ونصف فرنك فأصبحت اليوم زهاء ١٦ ملياراً وكان مجموع تجارة كندا سنة ١٨٧٨ - ٧٥٠٧٩ مليوناً فأصبحت سنة ١٩٠٥ - ١٩٠٦ مليارين ونصفاً . ومجموع تجارة أميركا الوسطى والمكسيك مليارين ونصف وجمهوريات الجنوب أكثر من أربعة مليارات منها ملياران ونصف للبرازيل ومليار للجمهورية الفضية .

وعلى الجملة فقد بلغ مجموع ما هناك من نفوس ١٦٠ مليوناً من البشر ومجموع التجارة أكثر من ٢٥ مليار فرنك وأحدثت أميركا حركة كبرى فى العالم بدخولها مضمار الاتجار فأثرت فى فرنسا تأثيراً غير قليل وكانت هذه الى ذاك التاريخ قريبة بتجارتها من انكلترا أى لها المقام الثانى فى التجارة فأصبحت اليوم فى الدرجة الرابعة بعد انكلترا والولايات المتحدة والمانيا . أى اننا فقدنا ما كان لنا من المكانة قديماً فنحن اليوم نريد أن نستعيد منزلتنا الاولى أو ان نغتنم الوقت الضائع فالمسألة ليست متعذرة ولكن تقتضى لها الارادة والتفكر والعمل على طريقة منظمة والعودة الى تقاليدنا والانتفاع من اسبابنا

أما الولايات المتحدة بما لها من المركز الذى أحاط بطرفى البحرين المحيطين فهي المهيمنة على أعمال العالم فان عدلت الحالة بين اليابان وروسيا فلا يبعد ان يجيئ زمن تتداخل فيه فى السياسة الاوروبية واذ الفرنسيين فى كندا ليلفرن مليونين ونصفاً ومثل هذا العدد من الفرنسيين منتشرة فى جمهوريات الولايات المتحدة ولا سيما فى الجنوب واللغة الفرنسية فى هايتى هى اللغة الرسمية فاذا حسبنا المستعمرات الفرنسية فى كويان وجزائر الانتيل يصبح عدد الفرنسيين ومن

يتكلمون باللغة الفرنسية من الاميركان ليس بقليل
وان مالنا من الايادي في أميركا ولاسيا وقد قرن فيها اسم لافاييت الفرنسي
باسم واشنطنون الاميركي الذين ساعدا على استقلال الولايات المتحدة وماوضعناه
فيها من أموالنا وقننا به في جمهوريات الجنوب من البعثات العلمية والعسكرية
والمشايخ الاقتصادية والمالية كل ذلك يدعونا بلسان الحال الى أن نصل الحاضر
بالغابر وان لم تكن سلسلة الصلات قد قطعت كل القطع

والناس مهما تقلبت بهم الحال لا يزالون يذكرون لفرنسا بيض أياديها على
المدنية واذا نسوها فانهم لا ينسون باريز التي تنشر أنوارها على العالم واليها يحج
الألوف من الاميركيين كل سنة للتنزه والارتياض والاستفادة وكلما كثرت
الرفاهية في ديارهم تدعوهم الدواحي الى نزول باريز وما في أراضى فرنسا من
المصايف والضواحي ككوت دازور فان مجموع الاميركيين الذين يختلفون كل
سنة الى ديارنا لا يقلون عن مليون سائح . فعقد الصلابة بين فرنسا وأميركا فيها
كل ما نحتاجه من الاسباب القوية فان كانت أميركا الشمالية تدعونا اليها بما فيها من
القوة والعظمة فاميركا الجنوبية تناديننا اليها القرابة لان عناصرها لاتينية وترتبطها
لاتينية فمن كندا الى مضيق ماجلان مارين بالمكسيك والجمهوريات الوسطى ترى
الدم اللاتيني ممزوجا في شرايين العناصر الجديدة وعلى أميركا الجنوبية يصح إطلاق
المثل القائل « هذا دم لاماء »

ومثل هذه الجمعيات تقعتنا في القارات والاقطار الأخرى فقد كانت جمعية
« أفريقية الفرنسية » أعظم معاون للحكومة في أعمالها الاستعمارية وجمعية
« آسيا الفرنسية » أخذت على عاتقها مثل هذه المهمة « جمعية مراكش »
تعمل على نشر الافكار الفرنسية في الغرب الاقصى فنحن بجمعيتنا هذه لا نأخذ
الى أميركا من معارفنا بقدر ما نأخذ عنها . فلا نرمي الى الدخول فيها ونشر كلمتنا
بين أبنائها بل نود أن نعاونها ونحالفها نريد أن نتعلم عليها ونحن أبناء المدنية
القديمة درساً في النشاط والمضاء فان كان لمدننا القديمة كنائسها وبيعتها فلمدن

الحديثة معاملها ومصانعها فنحن تقنع بامتصاص التاريخ أما هم فينشقون ارج المستقبل

قام في واشنطنون مثل عملنا هذا يرمى الى التقرب بين جميع العناصر في العالم الجديد سموه مكتب الجمهوريات الاميركية انشأته الولايات المتحدة بمعونة الحكومات الاخرى ومنحه المستر كارنجي مبلغاً جسيماً من المال وهو يفتح قاعات لالقاء المحاضرات والاجتماع ومكاتب لاختذ المواد والتعليمات وخزانه كتب ومجلات كبرى وينشر مجلة للدعوة الى هذا الغرض وذلك على صورة رسمية كما أن اسبانيا أنشأت مثل ذلك للتوفيق بين اسبانيا وأميركا وبمثل ذلك قامت البرتغال للتوفيق بينها وبين البرازيل . وفي ألمانيا اتحدت الكليات وأعمال الرجال على جلب أبناء الاميركان وتلقينهم التربية الجرمانية أما شعار جمعيتنا فهو أن نحجب فرنسا الى نفوس أميركا ونعرفهم بها ونحجب أميركا الى نفوس الفرنسيين ونعرفهم بها

ولا بأس هنا بذكر شيء من تلك العظمة الاميركية التي أدهشت العالمين المدني والوحشي . فان مدائن نيويورك وشيكاغو وسان لوي وسان فرانسيسكو قد امتارت بغناها في زراعتها ومعادنها وصناعاتها وأعمالها التجارية الخارقة للعادة فقد كان في الثمانى والاربعين ولاية ومقاطعة كولومبيا والارض الهندية والاسكا وجزائر هاواي ومنها تتألف الولايات المتحدة ٥٧٣٩٦٨٧ مزرعة سنة ١٩٠٠ ومعدل سعة كل واحدة منها ١٤٦ فداناً (آكر) وثمنها ٢٠ ملياراً ونصف مليار دولار أى ١٠٦ مليارات من الفرنكات وكان مجموع محاصيل هذه المزارع سنة ١٩٠٨ — ٨ مليارات دولار منها ٢٦٦٨ مليون مكىال من الذرة و٦٦٤ من الحنطة و٨٠٧ من القرطمان و٣١ من الجاودار و١٦٦ مليوناً من الشعير و١٣ مليون باله قطن و٧٠ مليون طن من العلف و٧١٨ مليون ليبرة من التبغ و٢٧٨ مليون مكىال من البطاطا و١٣٥ مليون ليبرة من الصوف النقي

وكانت مساحة الغابات الاهلية ١٦٨ مليون فدان تغل كل سنة ٦٦٦ مليون

دولار دى عنك الصيد فى بحار أميركا وأنهارها وهو يباع بعشرات الملايين من الدولارات .

وبلغ سنة ١٩٠٥ مجموع مافى الولايات المتحدة من المعامل ٢١٦ ألف معمل رأس مالها ١٢٦٨٦ مليون دولار يعمل فيها ٥٤٧٠٠٠٠ يتقاضون أجوراً يبلغ مقدارها ٢٦١١ مليون ريال وتبتاع بثمانية مليارات ونصف من المواد الأولية وتبيع بما قيمته خمسة عشر ملياراً . وفى سنة ١٩٠٨ أعطت الحكومة ١٦٣ ألف رخصة لإنشاء محال وأما كن قيمتها ٥٤٦ مليون ريال

وبلغ طول الخطوط الحديدية فى هذه الولايات سنة ١٩٠٧ = ٢٣٧ ألف ميل أى ٣٨١ ألف كيلومتر لها ٥٥٦٣٨٨ قاطرة و ٢٠١٢٦٠٠ مركبة فيها من المستخدمين ١٦٧٢٠٠٠ يقبضون ١٠٧٢ مليون دولار مشاهرات وبلغ عدد من نقلتهم تلك الخطوط من الركاب ٨٧٤ مليوناً وثقل البضائع ١٧٩٦ مليون طن وثقل الطنات الالقية (الالف ١٦٠٨ أمتار) ٢٣٦ ملياراً ورأس مال شركات السكك الحديدية ١٦ ملياراً دولار وصافي ريعها أربعة فى المئة . وفيها أبعادا هذه السكك الحديدية ٣٨٨١٢ ميلاً من الخطوط الكهربائية . وبلغت صادرات الولايات المتحدة سنة ١٩٠٨ = ١١٩٤ مليون دولار والواردات ١٨٦٠ ومجموع تجارة أميركا الخارجية ٣٣١٥ مليوناً

وكل هذه القوة الاقتصادية ليست بشيء لولم تكن الاخلاق أساس عظمتها الاقتصادية وقد أخذ مقام المفكرين والعالمين يعظم فى أميركا كما عظمت منزلة رجال المال والاعمال والصناعة والتجارة . وكثير من سكان المدن يعنون بالموضوعات الأدبية والفنية والعلمية وأصبحت بعض المدن مثل بوسطن التى هى مقر الحركة العقلية منذ زمن طويل ميدان الآداب والعلوم . وإن كثيراً من الاسر لينزلون مدينة واشنطن عاصمة الولايات المتحدة فى سياستها ويعيشون فيها بعيدين عن اضطرابات نيويورك وسان لوي وشيكاغو . وليس للاميركان مثل فرنسا بلاد يغترفون منها مادة علم ولا يجدون بلداً مثل فرنسا تلقاهم بقبول

حسن وتوفير الارادات على حبيبهم . وفرنسا تتعلم كذلك من نشاط رجالهم فكما أن طلابهم يجدون في بلادنا مايتعلمونه كذلك أولادنا يستفيدون من تعلمهم في كليات أميركا فينشأون بين شبان يشعرون منذ صغرهم باستقلال الفكر وأنهم حاملون تبعة أعمالهم ان خيراً فخير وان شراً فشر .

لما وصل النقل الى هذا الحد وقف القلم فذكرت شيئاً من حال الشرق . ذكرت حال العثمانيين والایرانيين وأنهم وان كانوا من أمم مختلفة لجامعتهم الكبرى وهي الاسلام لا تقول بجنس ولا عنصر فلو كنا وكانوا على شيء من العلم الحقيقي اما كنا ندعو الى انشاء جمعية عثمانية ايرانية كما ينشئ هانوتو اليوم جمعية فرنسية أميركية

ولكن ضعف عقول رجالنا ورجالهم وتعصبنا وتعصبهم وجهلنا وجهلهم لا تلبث أن تنفجر برا كينها اذ ذاك ويتذرع بعضهم بالسياسة يتوكانون على عكازها لينافروا بين القلوب ويفرقوا بين أبناء الاب الواحد وهناك تدخل الدول ذوات الشأن والغايات في البلادين وينفخن في أبواق الشقاق مستعينات ببعضنا على البعض الآخر . وان العاقل ليربط على قلبه بيده عند ما يفكر في عاقبة سعي الجهلاء لابقاء سوء التفاهم بين العثماني والعثماني فكيف يتمنى هذه الأمنية البعيدة اليوم من ربط العثماني بالایراني . فاللهم علمنا علماً نحسن به التفاهم حتى يتآخى الشرقيون كما يتآخى الغربيون

محاضرتنا في نهضة العربية

١٧

في باريز ثلاث جمعيات شرقية الأولى جمعية شبان الاتراك العثمانيين والثانية جمعية الجامعة الاسلامية والثالثة جمعية الاخاء المصرية . اتخذت كل جمعية لها نادياً وأخذت تعمل على ما فيه غايتها وقد كلفتنا جمعية الاخاء المصرية ان نلقى عليها

محاضرة في نهضة اللغة العربية في المئة سنة الأخيرة فألقينا عليهم المحاضرة الآتية
في نادهم في قهوة فولتير أمام دار تمثيل الاوديون :

سادتي الاخوان

سألتوني سعدت بكم أوطانكم ان أحدثكم بطرف من تاريخ نهضة اللغة
العربية في المئة سنة الأخيرة وما منكم الا من أستفيد منه وأتشف بالآخذ
عنه . أأنتم من أهل الفئة الفاضلة في وطنكم يتوقع منكم أن تنيروا آفاق جهله
بأنوار معارفكم وان تعمروا أكناف معالمة ومجاهله بما تلقفتموه في هذه العاصمة
السعيدة من تجارب نافعة وتلقفتموه من علم صحيح وآداب رافعة . فاني لي وأنا
نازل بينكم متعلماً لا معلماً ان أفوه في حضرتكم بكلام وقد اعتادت آذانكم سماع
مصامع الخطباء وتقرير جهابذة الباحثين والعلماء وما حالي وحالكم لو أنصفتكم
وأنصفت نفسي الا حال من يحمل التمر الى هجر أو المسك الى أرض الترك أستغفر
الله بل ان حال من يلقي محاضرة على جمعية الاخاء المصرية في باريز أعجب وأغرب
اخواني : تعلمون قرت بكم عيون مصر أنه أتت على اللغة العربية أدوار
وأطوار وعرض لها ما يعرض لكل كائن في الوجود من ضعف وقوة وعزة وذلة
وان اتس أيام ضعفها كانت في القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر للهجرة
وهو عهد الفتور في جسم الامة الاسلامية عامة والامة العربية خاصة . ثلاثة
قرون بل أكثر مضت في مرض مستحكم كانت تكفي لموت هذه اللغة الشريفة
التي نعقد اليوم على أمثالكم خناصرها وترجو بمساعيدكم أن يكون مستقبلها خيراً
من حاضرها وغابرها بيد ان لغة يفرض على زهاء مائتي مليون من المسلمين أن
يتعلموها ليفهموا بها كتابهم العزيز يستحيل عليها الاضمحلال مادام في الأرض
مسلم يوحد الله .

لا بد لكل حركة من سبب . وسبب ما عرا العربية من الضعف في تلك القرون
انقطاع الملوك عن الأخذ بيدها فأصبحت الأمور العلمية صورية ينظر فيها الى
الاشكال لا الى الحقائق واقتصر الناس على فروع الفقه والكلام والتوحيد

وعدوا ماعداها من العلوم فضولا لاغناء فيه وساعد على انتشار هذا الرأي السخيف ما أصاب البلاد من ضعف الاحكام وفساد النظام ولا علم حيث يفقد الامن وفي النادر أن يهتم جاهل بتعليم أو يربي من لم يترب

وكان قدرة المولى تعلقت بان هذه اللغة التي نشأ لها الضعف من أبنائها ان تأتيا الصحة على أيدي غيرهم . وربما يعجب بعضهم الآن اذا قلنا له ان مبدأ نهوض اللغة العربية كان في مصر أيام محمد علي وقد صحت عزيمته على خدمتها مسوقاً بنابل من سلامة فطرته ودلالة بعض مستشاريه من أهل العلم من الفرنسيين فكان من أعماله الجليلة ما خلده له الفخر على الدهر وجعله من حيث خدمته للغة والعلم لامن حيث منازعه السياسية من أعاجيب الحكماء في الشرق . والشرق أبو المعجزات والكرامات .

ليس من يجهل أن محمد علي كان امياً أو يقرب من درجة الامية . مات ولم يحسن التكلم بالعربية العامية لأنه كان أرناؤدياً ولم يخط سطرأ واحداً لأنه تعلم في الكهولة مبادئ طقيفة من حسن الخط والقراءة فقط . ومع هذا فقد غنى بما لم يعن به أحد من الملوك المتأخرين وشرع منذ استقام له امر مصر يختار الاذكياء من أبنائها ممن قروا الدروس الوسطى فيبث بهم على تفقة الحكومة الى أوروبا ليخصوا في العلوم التي أولعوا بها حتى اذا عاد أحدهم وأتم تحصيله يحبسه عنده في قلعة الجبل ويخرج له كتاباً بالفرنسية في الفن الذي أتقنه ويوعز إليه بأن لا يخرج من القلعة قبل أن يترجمه بالعربية ويأمر له بأسباب الراحة والمعينات على الترجمة والتأليف فاذا ما انتهى الطالب من عمله يعرضه على أمير البلاد وهذا يدفعه بالطبع للعارفين من الناس أو إلى لجنة كانت معروفة إذ ذاك بلجنة الامتحان فبعد ان تنظر فيه ترخص بطبعه في المطبعة الاميرية ويفدق الامير على المترجم أنواع الهبات ويشرع في ترقية في المراتب ان كان ممن استعدوا للادارة أو الجندية أو البحرية وإذا كان من الاساتذة يوسد اليه التدريس في بيوت العلم موسعاً عليه في الرزق ليتخرج به ابناء مصر . وهو عمل يذكرنا بما كان

يأتيه المأمون العباسي من الانعام على المترجمين ولكن ما يصدر عن المأمون وهو أعلم خليفة في الاسلام لا يستكثر منه وعصره عصر شباب هذه الامة بقدر ما يستكثر ماتم على يد محمد على الامي الالباني وعصره عصر شيخوخة الاسلام والمسلمين .

قال لي صديقي الدكتور عثمان باشا غالب أحد حسنة مصر الذين نبغوا بفضل الطريقة التي اختطها محمد علي لمن يجيء بعده وشاهد تلك الحركة العلمية في ابائها ثم شاهدها في انحطاطها وهو يشهدا الآن في تجدها . لقد ظلت نهضتنا العلمية سائرة أحسن سير الى سنة ١٨٨٢ فما بعدها وبدأ انقطاعها سنة ١٨٨٧ وقد قام بعدها رجل من أبناء مصر نفسها وهو علي باشا مبارك ناظر المعارف فسمى وربما كان بدون قصد سيء منه لاحلال اللغة الانكليزية محل اللغة العربية في المدارس الاميرية زاعماً بأن الواجب على المصريين مخاطبة المحتلين بلغتهم وهذا لا يتأتى الا اذا اتقن المصريون لغة البريطانيين فبدأت نظارة المعارف في أيامه وبعدها تسلب وظائف التدريس من المصريين وتعطيها لآبناء انكلترا وقطعت الارساليات العلمية الى أوربا حتى لم يكد يبقى اليوم من أولئك المدرسين المصريين غير شيوخ قلائل اذا عادوا الى منابر التعليم لا يسدون حاجة مصر وأخذت المعارف في عهد المبارك تطهر المدارس بأمثال دنلوب وارتين من كل ما ينفع اللغة أو كان من آثار النهضة الأولى حتى لقد كانت تطرح الكتب المترجمة اكداساً في مستودعاتها كما يطرح القذى والنوى لتسجل العار على من عقوا لغتهم وأمهم كما عق اخوة يوسف ابن أبيهم على حين كان علي مبارك من جهة ثانية يؤسس دار العلوم ويؤلف التأليف التي تخدم العربية مثل الخطط وعلم الدين وغيرها من مصنفاته

قال غالب باشا كان أكثر أساتذة المدارس التي أنشئت في مصر على عهد نهضتها الأولى من الفرنسيين المستعربين يكتب الامتاز درسه بالفرنسية والمترجم معه ينقله الى العربية فيلقى على الطلبة بلغتهم دام ذلك منذ سنة ١٨٣٠

الى سنة ١٨٥٤ وقد كتب فيها الاستاذ بروجر بك الفرنسوى رئيس مدرسة الطب والولادة والصيدلة والمستشفيات المصرية الى خديوي مصر فى عهده يقول له فى تقريره السنوى أن الوقت قد حان لأن تكون وظائف التدريس كلها بيد المصريين إذ قد أصبح فيهم الكفاة الآن وان مهمة فرنسا فى تربية أبناء مصر فى هذه الفروع العلمية قد انتهت أو كادت .

نعم فى ذلك العهد تم للعربية ما تريد من تعريب المصنفات العلمية والأدبية على اختلاف أنواعها وعادت فاضحت لغة علم بعد أن انقطع سند العلوم منها قرونا وأحيا أولئك المصريون أمثال الطهطاوى والرشيدي والشبامى والهياوى والنحراوى وحماد وبهجت والفلكى وندى والنبراوى والبقلى ألفاظاً من لغتنا كانت فى حكم الدارس هجرت منذ كان العرب يترجمون وينقلون على عهد الدولة العباسية فى بغداد والاموية فى قرطبة والفاطمية فى مصر وأضافوا الى تلك الألفاظ ما حدث بعد عهد الحضارة العربية من المستحدثات العصرية والمصطلحات الفنية وعربوها على الطريقة التى سلك عليها أجدادنا العربون غالباً حتى أن الاتراك والفرس لما شرعوا يعلمون العلوم فى البلاد العثمانية والى ايرانية باللغتين التركية والفارسية لم يجدوا أمامهم كنزاً حاضراً ينتفع به فى الحال مثل تلك المعربات المصرية الحديثة فى الهندسة والطب والعلوم والاجتماع والفلسفة والتاريخ والجغرافية وغيرها فنقلوا المصطلحات العربية برمتها وأدججوها فى تضاعيف لغتهم

كان الطلبة الذين أرسلهم محمد علي الى التخرج فى أوروبا وتلامذتهم وتلامذة تلامذتهم مدة نصف قرن حملة لواء العلم لافى القطر المصرى فقط بل فى البلاد العربية كافة وأصبحت مصر ببيض أيادهم من هذه البلاد بمثابة باريز من الممالك اللاتينية تفيض عليها النور وتهز أعصابها للارتقاء حتى بلغت الكتب التى ترجمت فى فنون مختلفة من الافرنجية زهاء ألفى مجلد . والأثر الاكبر فيها للشيخ رفاعة الطهطاوى شيخ من ألف وترجم فى عهده بما خلفه من قلمه أو عرب فى قلم الترجمة

برئاسته وما بثه من المبادئ في مدرسة اللغات ومجلته روضة المدارس . وكلها أعمال مهمة تدل على نفس طويل وفضل جزيل . خل عنك تلك الجرائد والمجلات التي صدرت في تلك الاثناء ومنها جريدة وادي النيل لابي السعود ومجلة يعسوب الطب لكلوت بك .

ورب معترض يقول أى علاقة لتعلم العلوم الجديدة ونقلها الى العربية بحياة اللغة التي يراد منها آدابها المنشورة والمنظومة ليس الا . والجواب انه لا أدب لمن خلت لغته من أمثال هذه المعارف . فكما أن للعلوم ارتباطاً كلياً ببعضها بعض هكذا للغة دخل عظيم في سلاسة آدابها بما تأخذه عن غيرها بل ان لغة مهما حوت من أنواع البديع والمعاني والبيان لاتعد من اللغات الحية ان لم تكن لغة علم قبل كل شيء

وهنا مسألة مهمة لا أحب أن أمر بها وأنا منطلق لان لها علاقة كبرى بموضوع النهضة الادبية وهي انا اذا تدبرنا تاريخ محمد علي وحسناته على العلوم والمعارف لانتب أن نشبهه من ملوك الافرنج بالامبراطور شارلمان ملك فرنسا وجرمانيا الفرية وشارلمان كما لا يعزب عن علمكم كان من أعظم ملوك دهره وله صلة بملوك المسلمين وهو الذي أتقذ اليه الرشيد العباسي رسولا من قبله سنة ٨٠١م يحمل اليه هدايا فاخرة ومفاتيح القبر المقدس وهذا الذي كان يحمي الملتجئين اليه من أمراء المسلمين الهارين من الخلفاء في قرطبة . كان شارلمان لأول أمره أمياً تعلم الكتابة البسيطة على كبر مثل محمد علي الا أن تنشيط التجارة والصناعة والآداب كان مغروساً فيه بالفطرة فجعل قصره معهد المستنيرين والمتعلمين الذين كان يستعين بهم على نشر المعارف بما أنشأه من المدارس بإشارة الكوين المشهور أستاذه وأمين سره وبأذر الجرائيم الأولى من المعارف في هذه الارض الفرنسية وبمساعيه أنشئت المدارس في اكس لاشبل عاصمة البلاد اذ ذاك وتور واورليان وليون واستنسخت الكتب الوافرة لينتفع بها الطلاب ومن العجيب أنه حدث لنهضة شارلمان ما حدث لنهضة محمد علي حذو القذة

بالقذرة وذلك أنه لما مضى لسبيله عادت تلك الحركة العقلية فركدت ريجها جملة واحدة لأن من خلفوه على سرير الامبراطورية لم يكونوا على قدمه ولا رزقوا سعة عقله وصفاء طبعه ولأن الاعمال العظيمة في البلاد المنحطة قد تقوم بالفرد أكثر من قيامها بالافراد وعلى العكس منها في البلاد الراقية . أتت خمسون سنة على فرنسا بعد وفاة شارلمان مات في خلالها التعليم أو كاد ولم تدب روح التجديد فيها الا بانتباه عقول الامة وعلى يد أناس من أبنائها كما قامت مصر منذ نحو عشر سنين تجدد حياة آدابها بيدها بعد محمد علي بنحو خمسين سنة متكة في مهمتها على نفسها لاعلى الحكومة وبذلك جاز لنا الاستنباط بان كل اصلاح يقوم بالامة في هذا الوجود يكون الامل في بقاءه أكثر مما يقوم بيد الحكومة ولا سيما في الدول الاستبدادية التي تجد فيها تميزاً بين الامة والحكومة . والحكومات قد تعرض لها عوارض تنسى معها الترغيب في العلم ومنها الى اليوم من يفضل الجهل على العلم . ولهذه المسألة نظائر كثيرة في تاريخ الامة العربية فقد رأيناها تسعد وترقى في برهة قليلة على يد فرد عظيم عاقل من ملوكها وشاهدناها تشقى وتنحط بفرد آخر لا يرجع الى عقل ولا الى نقل .

كان الادب العربي قبل دور النهضة الاخيرة عبارة عن سجع كسجع الكهان طول بلا طول ولا طائل وجل باردة سمجة وشعر ركيك أكثره في الاماديج والاهاجى وان ارتقى الشاعر انتقى لسانه في وصف الخلد والخلال وذات النطاق والخلخال من ربات الحجال أو الذكران من الرجال وما أظنكم أعز الله بكم دولة الادب الا قد وقع لكم شيء كثير من أمثال هذه الركاكات والسخافات فضر بتم بها عرض الحائط وحمدتم الله على أن خلقكم في زمن قام فيه من الكتاب أمثال^(١) محمد عبده وعشرات غيرهم لا تحضرني الآن أسماؤهم من شيوخنا وكهولنا

(١) حذفنا في هذه الطبعة ما كنا أثبتناه من أسماء الكتاب والشعراء والخطباء في الطبعة الاولى

وشباننا . وقام من الشعراء محمود سامي^١ وغيرهم ممن هم عمدة العربية في نهضتها
الاخيرة عملوا لخيرها في مصر والشام والعراق وتونس أعمالا وخلف أكثرهم من
مآثر فضله ما يطرس المتأدبون عليه وينسجون على منواله .

وبينا كانت اللغة العربية تزهر في مصر في الامارة العلوية عز على الشام
أن تكون دون شقيقتها في هذه الخدمة الشريفة فنشأت لهذه اللغة حياة جديدة
في سورية لا بواسطة الحكومة كما في مصر بل بواسطة الافراد والجمعيات وذلك
في أواسط القرن الماضي وكانت مدينة بيروت وهي ثغر لبنان وسورية موطن
تلك الشعلة وقد جاءها أنار من مرسلتي الفرنسيين والاميركان وأنشأوا فيها
مدارس جعلوا لغتها الاولى اللغة العربية وأتقنها كثيرون من أهل لبنان فحمد
مسعاهم وكانت اليد الطولى في تنشيط لغة قريش للدكتورين كرنيليوس فاندريك
ويوحنا ورتبات وهما من أعظم مؤسسي الكلية الاميركية الانجيلية في بيروت تعنا
العربية وأتقناها وألفا بها التآليف العلمية النافعة والاول اميركي والثاني أرمني
ودرسا بها مع أقرانهما العلوم الطبيعية والرياضية والطبية ومن غيرهما عليها أن عمدة
المدرسة لما عمدت أن تجعل لغة التعليم في الكلية اللغة الانكليزية بدل العربية
قاوما ما وسعتهما المقاومة ولما أخفقا استقالا من وظيفتهما لأنهما أبت مروعتهما
الا أن يحضرا النصح للبلاد وللفتها . والدكتور كرنيليوس فاندريك لاميركاني
في سورية بفضلته على اللغة العربية وما عرب لها من كتب العلم أشبه بالشيخ
رفاعة الطهطاوي في مصر ووجه العجب في فاندريك أعظم لأنه أميركي الجنس
والمنشاء غار على لغة العرب أكثر من أهلها ومن الغضاضة على مصر والشام
أنهما لم تعرفا لها حقهما على ما يجب وكان على القطرين أن يرفعا لها تمثالين كما
رفعت باريز لهوغو وروسو أو كما رفعت مصر لمحمد علي وإبراهيم . والعلماء ان
لم يكونوا أحق بالرعاية من رجال السياسة في بلادنا فلا أقل من أن يكونوا
على مستواهم .

ولقد كان من أعظم من خدموا الآداب العربية في بيروت على ذلك الدور

أيضاً بطرس البستاني وأسرته بما نشره من دائرة المعارف العربية وغيرها من الكتب والجرائد وبثه في مدرسته الوطنية من أصول العلم وفروعه وكذلك يوسف الاسير و ابراهيم الاحدب و ناصيف اليازجي وأسرته وغيرهم فهؤلاء كلهم توفروا على التعليم وتخرج بهم مئات من الطلبة الذين انتشروا بعد في أقطار الشام ومصر وأميركا وكان منهم الكتاب والصحافيون والمحامون والخطباء . ولم تحرم الاستانة — والعواصم مرزوقة منذ خلقها الله — من نزول عالم بالعربية فيها اتخذها مباءة علمه ومثابة درسه وبجته وأعنى به أحمد فارس الشدياق الذي اقترح علي صديقي سيد أفندي كامل من رجال الجامعة المصرية أن أتوسع في الكلام عليه .

أصل هذا الرجل من لبنان من أسرة مشيحية خرج من بلاده مغاضباً فقضى زمناً طويلاً في مصر وتونس ومالطة وفرنسا وانكلترا وتعلم في خلال ذلك الانكليزية والافرنسية ثم دان بالاسلام وألف بعض الكتب ومنها اللقيف في كل معنى طريف طبع في مالطة سنة ١٨٣٩ ومن كتبه في أوربا كتاب الساق على الساق في ماهو الفارياق أو ايام وشهور واعوام في عجم العرب والاعجام طبعه في هذه العاصمة سنة ١٢٧٠ هـ . وضمنه ترجمة حياته وشؤوننا وشجوننا على اسلوب يجمع بين الجد والفكاهة تقدر ان تعدده من الانشاء المعروف عند الافرنج بالامورستيك (الجد في الهزل) أو الرياليست (الحقيقي) الذي حدث في عهد فلور او الناتوراليست (الطبيعي) الذي تم على يد زولا وانك لتدهش من قدرته فيه على التعبير ورشافته في التصوير ومتانته في التحرير والتعبير فكان اللغة التي كان من جملة محووظات احمد فارس فيها قاموس الفيروز ابادي الذي ألف كتاباً مهما في تقده وسماه الجاسوس على القاموس - كانت نصب عينه يأخذ منها كل ساعة ما يشاء ويستحضر في دقيقة ما يصعب الاتيان به في ساعة ويتفنن ما شاء بيانه وتبياناه . ولفظ الفارياق مقتطع من أول اسمه « فارس » وآخر اسم أسرته « الشدياق » وقد حمل في كتابه علي رؤساء الدين حملة منكرة لأن بعضهم قتلوا أخاه ظلماً وتمصّباً

جعلوه في بناء لهم وبنوا فوقه لأنه دان بالمذهب البرتستانی (١)
هبط أحمد فارس مدينة الاستانة بعد ان خبر حال اوربا خيرة زائدة وانشأ
جريدة الجوائب التي طار صيتها في الآفاق ورزق الخطوة بعلمه فكان ملوك
الاطراف يهادونه ويمنحونه المنايح ومن كان يساعده خديوى مصر وبابى تونس
وملك بهوبال في الهند حسن صديق خان الذى طبعت له مطبعة الجوائب معظم
تأليفه العربية وكان هذا الملك أعلم الملوك المتأخرين بل أشبه بابى الفداء صاحب
حماء في جمعه حكم الناس الى معالجة التأليف وهو بلا نزاع نابغة المعجم والعرب
في فهم اسرار الكتاب والسنة

ولقد كانت جريدة الجوائب مثال الانشاء العربي البحت سارت جميع صحفنا
التي اسست بعدها على نسقها وقل ان نشأت لنا جريدة في صحتها وديانيتها العربية
اللهم الا أن تكون جريدة العروة الوثقى للشيخين جمال الدين الافغانى ومحمد
عبدو ومصباح الشرق لابراهيم بك المويلحى والبرهان للشيخ حمزة فتح الله
وذلك لان جريدته كانت كهاته اسبوعية وله فيها مشاعدون في الاقطار كان
يهاديهم ويهادى علماء عصره حتى كثر أحبابه من العلماء في شمالى أفريقية وغربي
آسيا ووسطها وهو الذى يتولى النظر في كل ما ينشر فينمقه ويزوقه وناهيك
بكلام تصقله الاتامل الفارسية . فاحمد فارس هذا لو انصفنا هو واضع اساس
الصحافة العربية وباعث روح الحياة في آدابنا بما خلفه من آثاره . ومن اراد
أن يطلع على شىء من كتاباته في جوائبه فعليه بالرجوع الى كنز الرغائب في منتخبات
الجوائب وهو مطبوع متداول وان أحب الاطلاع على الجوائب برمتها في حجمها
ووضعها فليرجع اليها في خزائن الكتب في أوربا ومصر والاستانة

ولم يقف عمل أحمد فارس عند حد نشر جوائبه وكتبه ومنها كتاب سر
الليال ورحلة له الى أوربا جديده محضه وكتاب نحو اللغة الانكليزية وديوان شعره
وغيرها بل نشر طائفة من كتب الأدب واللغة والشعر ككتب الثعالبي والتوحيدى

(١) هنا قرئت نموذجات من شعر أحمد فارس ونثره من كتابه الفاريقي

والطفرائي والبديع وغيرهم من أئمة الأدب نشرها على أحسن اسلوب راق في طول البلاد وعرضها بأثمان بخسة فعمت بها الفائدة وأنشأ طلاب الآداب يتحدثونها في اسلوبها . وما برحت مطبوعات الجوائب الى اليوم يتنافس فيها المتنافسون ويدخرها غلاة الكتب لينتفع بها الاحفاد والبنون على ممر الدهور والقرون .

ابتلي أحمد فارس بناس حسدوه وأى عالم خلا من حساد وطفقوا يشنعون عليه ويزيفون شعره وينقدون جريدته وكتبه ولكن تلك المناقشات اللغوية الادبية بينه وبينهم بل بين حزبه وحزبهم لم تزد فارسنا الاجرأة على الجرى في مضماره وقبولاً بين العالمين بمصنفاته وآثاره فكان بنقده بعض كتاب العربية أشبه بسانت بوف في نقده كتاب عصره من الفرنسيين فاستفاد أرباب الاقلام من تلك المحاورات كما استفادوا بعد مما دار بين التقدم والمقتطف والبيان والضياء والمشرق وبذلك أخذ من يعانون صناعة القلم يتأنون قايلًا فيما يكتبونه وأخذت تخف اغلاط الكتّابين والشاعرين وتسلم عبارة التأليف كلما نقل الناقلون عن اللغات الافرنجية ونحا المؤلفون مناحى قدماء الكتاب في ترك التكلف والتعسف حتى صبح لنا أن نقول اليوم أن أسلوب الكتابة العربية لا ينقص عن اللغات الافرنجية الراقية بإيجازه واندماجه وتقطيعه وفيه بلاغة قدماء المنشئين وسلاسة المعاصرين وأفكارهم .

نعم عادت للغة العربية ولا سيما في الثلاثين سنة الاخيرة نضرتها الاولى في القرن الرابع والخامس والسادس للهجرة وخلصنا من ذاك السجع المتكلف الذي أتانا به العماد الكاتب الاصفهاني من فارس — وفارس مورد بدع كثيرة في الاسلام منها الزندقة والزندقة ثم الباطنية ومنها الموسيقى والعود المطرب — ونقله الى العربية فاجاد في أكثره الا أن من جاءوا بعده قد أفسدوا به علينا لغتنا لأنهم لم يتقنوه

واني لا أزال أذكر ما كنت أكثر من مطالعته واستظهاره أيام ولوعي بالادب

من مقامات الحريري ورسائل الخوارزمي ورسائل الصابي وتاريخ اليميني للعتبي
ومقامات الزمخشري ومقامات الاصفهاني وقلائد العقيان وذيله مطمح الانفس
للفتاح بن خاقان وخطب ابن نباتة وفاكهة الخلفاء لابن عربشاه وخزاة الأدب
لابن حجة والريحانة للخفاجي وغيرها من الكتب التي كنت أطرب لتلاوتها
ولا أكاد أفارقها في خلوتي وجلوتي . ولما كتب لي الاطلاع على الآداب الفرنسية
والتركية وانشأت أبحث عن كتب كتبت بلا تكلف وتعمل ككتابات الجاحظ
وابن المقفع وعبد الحميد الكاتب وسهل بن هرون وأبي حيان التوحيدي
وابن مسكويه والراغب الاصفهاني والغزالي والماوردي والطبري والمسعودي
والصاحب وابن العميد وابن خلدون وابن الخطيب وغيرهم من جهابذة المنشئين
غدوت أعجب من نفسي كيف أضاعت وقتها في تلقف تلك الاسفار المسجعة وفي
اللغة مثل نهج البلاغة والبيان والتبيين والذريعة والاحياء وغيرها مما لا يتسع
المجال لتعداده وهو في الحقيقة ونفس الامر مادة أدب كما هو مادة علم لا تبلى على
الدهر جذتها ولا تخلق ديباجتها كما كنت أعجب من أقبالي أيام الطلب على تلاوة
شعر ابن النبيه وابن معنوق والصفي الحلي وابن منجك وابن مليك والجندی من
شعراء المتأخرين وعند العرب من أهل هذا الشأن أمثال أبي تمام وأبي الطيب
وأبي عباد وأبي نواس والشريف الرضي وابن حمديس الصقلي وأبي فراس
الهمداني .

يرجع الفضل الاكبر في انتشار دواوين الأدب والتاريخ واللغة من كتبنا
لعلماء المشاركة من الغربيين أمثال دوزي ودساي ووستنفيلد وعشرات غيرهم
من أهل أوربا ولبعض ما نشره اليسوعيون في مطبعتهم المتقنة في بيروت
وما نشرته الجمعيات الكثيرة التي ألفت في أوقات مختلفة في مصر لاهياء
الكتب العربية وآخرها تلك الجمعية التي طبعت لنا المخصص لابن سيده أحسن
كتاب غني بطبعه في شرقنا ولما طبعته المطبعة الاميرية ومطبعة الجوائب
ومطابع الجرائد في مصر والشام وتونس . كل هذه الاعمال أعانت العربية

على تحسين آدابها وترقيتها . ولا ننسى غيرة أولئك الذين نسجوا في منظومهم
ومنشورهم على مناحى الاوربيين من حيث قلة الكلفة ومجارية الطبع ومحاكاة
الطبيعة ووصف عواطف النفس بايجاز واعجاز وأولئك الذين وقفوا أنفسهم
منذ عشرات من السنين يعربون لنا كل يوم في جرائدهم ومجلاتهم أفكار
الغريبيين في سياستهم وعلومهم واجتماعهم فكونوا مجتمعنا الادبي على ما ترونه
وجددوا للغة شبابها بحيث أمنا بفضلهم عليها من العفاء وأصبحنا نرجو لها دوام
النماء والارتقاء .

أنا لا أقدم لكم مثالا من أمثلة ارتقاء لغتنا أكثر من أن أحيلكم على
مراجعة مجموعة من جرائدنا العربية قبل ثلاثين سنة مثل الجنان والجنة في سورية
والفلاح والمحروسة في مصر وان ترجعوا إلى كتابة الدواوين في مصر في منتصف
القرن الماضي مثلاً وترجعوا إليها اليوم وان كانت الى الآن عشيقة الركافة
بعض الشيء . قابلوا المنشورات التي تصدر اليوم في الوقائع الرسمية في مصر وما
كان يصدر من أمثالها منذ مئة سنة مما أورد الجبرتي في تاريخه نموذجاً
صالحاً منه بنصه وفصه . عارضوا بين لغة القضاء اليوم وما تفيض به ألسن
المحاميين وأعلامهم في مصر من التفنن في أساليب الدفاع والتأثير الخطابي وبين
ما كان للغة من نوعها مما ذكر صاحب كتاب المحاماة طرفاً صالحاً منه يتجلى
لكم كيف ارتقت لغة القضاء . استمعوا للخطباء اليوم ممن درسوا الدروس
النظامية وتشبعوا بالعلوم العصرية وقالموها باكثر ما يحفظه خطباء الجوامع
أو يقرأونه من السجعات في دواوين الخطب القديمة . تدبروا لغة التمثيل اليوم
وان كنا فيه دون سائر فروع الآداب تأخراً وأسألوا كيف كانت منذ البدء
حايطة الضعف والسماجة اقرأوا المحاضرات التي تتلى اليوم في نادي المدارس
العليا ونادي دار العلوم في مصر الحالية من التعقيد والغلط الحالية بالرشاقة
والبيان وقابلوها بالخطب التي كانت تتلى زمن الثورة العرابية وبعدها مثلاً
تدركون كيف وفقنا الله إلى قيام بناء آدابنا على هذا الاسلوب الرائق والابداع
في الاداء والالقاء .

أليس مما يعد من نهوض اللغة ما نراه من أحكام ملكتها في طلبة دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي فقد رأينا طلبة احداثاً تخرجوا من دار العلوم فكانوا والله أعرف بالعربية وفنونها من أكثر من اشتهروا في قرون الانحطاط الاخير على غير حق اما من تمحض منهم للتدريس والنفع فهم مفخر من مفاخر العربية في هذا العصر استحسنت فيهم ملكة البيان استحكامها من العرب العرباء وأحاطوا بعلوم الوقت احاطة نبهاء الغربيين .

واليكم أيضاً مثالا صغيراً اذكره لكم دليلاً على ما أتت به بعض مدارس مصر في حياة اللغة فقد شاهدت في وادي النيل بعض العمدة ممن لم يدرسوا غير الدروس الثانوية يكتبون كتابة صحيحة في الجملة تسقط فيها على روح البيان والتلطف في التعبير مما لا تتلوه في عسلطات المحشين والمهمشين والشارحين من الفقهاء والنحويين المتأخرين وما ذلك إلا بفضل المدارس المنظمة وما تلقيه الجرائد على مسامع الناس وأنظارهم كل يوم من فصيح العربية وشواردها وتتفنن فيه من أساليب التعليم . نعم ان مطالعة الجرائد والمجلات أعانت على انتشار الآداب وادخلت الغيرة على التعلم في تقوس ارباب الاستعداد

ولذا رأينا البلاد العربية التي لم تنشأ فيها مدارس لتعليم العربية على الاصول الحديثة ولم يولع أهلها بمطالعة الجرائد لقلة انتشارها بينهم مازال أهلها إلى اليوم يكتبون لغة سقيمة ويتكلمون بلغة سقيمة ومن هذه البلاد مراکش فان مدينة فاس منذ القديم ماخلت من أفراد يعانون الآداب على الأصول القديمة ولكنهم في الجملة خير من أهل الجزائر الذين لا تكاد تجد فيهم فرداً يعد في الطبقة الثانية في كتابنا فيما علمت وما ذلك الا لأن اللغة العربية لم تقم لها في بلاد الجزائر في دور من الادوار سوق نافقة ولان حكومتها تحاول منذ القديم أن تجعل أهلها فرنسيساً في لغتهم وأفكارهم ومنازعتهم

ولئن ضعفت في تونس تلك الروح الشريفة التي بثها فيها خير الدين باشا التونسي وأشياعه فان الآمال قويت الآن بارتقاء ملكة العربية لانتباه التوانسة

الاذكياء من الخلدونيين وغيرهم . أما طرابلس الغرب وبرقة والصحراء والسودان فهي من أخوات الجزائر في ضعف ملكة البيان وقلة الجرائد فيها بل عدمها ولكن هناك في صحراء مراکش بلد غريب في تلقف ملكة العربية وأعنى به شنقيط بلد الشيخ محمد محمود الشنقيطى الحافظ المشهور في عصرنا . وطريقة أهلها طريقة الأقدمين في التلقى والاستظهار وقد شوهدت في شنقيط بعض البنات الشنقيطيات الى اليوم يحفظن كامل المبرد مع الفهم وأظن من يحسن فهم هذا الكتاب قلائل حتى في شيوخ الأزهر .

أما سورية فقد كاد ينحصر الفضل في أحياء ملكة العربية الجديدة ببعض المدن وبقيت الأخرى غريبة عن تلك الحركة مثل فلسطين وبلاد حلب وداخلية ولاية سورية ومثلها الحجاز واليمن ونجد وحضر موت ومسقط وعمان وزنجبار والجزيرة والعراق الا أن ذلك لم يحل دون نبوغ بعض أفراد شاركوا أتم المشاركة في حياة العربية ونعنى بهم بعض أولئك العراقيين اثنوا بغير الذين ألفوا وكتبوا ولم يعقهم الحجز على الافكار الذى دام في البلاد العثمانية الى يوم ٢٣ تموز ١٩٠٨ ولذلك لا نغالي اذا قلنا أن ثلاثة أرباع ماتم للعربية من الارتقاء في القرن الاخير يرجع الفضل فيه لمصر والرابع الآخر يوزع على سورية والعراق وتونس . ومن الاسف أننا لانزال نرى بعض الجرائد في الولايات العربية تصدر باللغتين التركية والعربية ولكن القسم العربى منها يكاد يكون أشبه بالمالطية والكرشونية منه بالعربية الحجازية فتسقط فيها من الاغلاط في التركيب والتأليف والالفاظ والوضع ما تسأل الله معه السلامة وأقل من ذلك غلطاً تلك الجرائد التى صدرت مؤخراً في طرابلس الغرب وبعض مدن سورية الصغرى وبغداد والبصرة والموصل وأحسن منها جرائد مهاجرى سورية في أميركا الشمالية والجنوبية وهى لاتقل عن ثلاثين جريدة وفيها الجيد الرشيق . ومع هذا فان الآمال قويت بأن لا ينتصف هذا القرن الرابع عشر للهجرة الا وتكون ملكة الآداب عمت البلاد التى ينطق فيها بالضاد بل بالضاد والحاء والخاء والعين والفاء والثاء والذال

ومن كلية باريز اختراع أمبير اختراعاته التي لولاها لما اخترع التلغراف اللاسلكي والسلكي والتلفون ولم تتم عجائب الكهرباء الصناعية . وفي كلية باريز أحدث باستور انقلابه العظيم في علم الحياة الذي جعله المحسن الى الانسانية في العالم أجمع . وفي كلية باريز حقق برتلو الطريقة الصناعية في المواد العضوية فنشأت منها الكيمياء الحديثة . وفي كلية باريز اختراع كوري وقرينته الراديو واهتزت في أيديها ذراته . وفي معامل كلية باريز أوقد موسان للمرة الاولى التنور الكهربائي كما اخترع غيره التصوير الشمسي بالالوان

كانت هذه الكلية كما قلنا أعظم كليات القرون الوسطى فجعلوها سنة ١٨٩٦ كلية تليق بعظمتها الماضية بحيث لم تفقد مكانتها العلمية وفيها اليوم زهاء ثلاثمائة أستاذ يفيضون كما أفاض أسلافهم على العالم من علومهم ولا سيما على أميركا الجنوبية ربوهميا والبلاد المصرية والعثمانية وكانت هذه الدار رسول السلام بين الأتنام ومعلمة الناس كيف يكون التجانس الروحي والاخاء العام ، ولكم كان أساتذتها يسبحون في بث ما علمهم الله في البلاد التي يقل فيها العالمون ولكم أنشئت في حجر هذه الدار جمعيات تريد التقريب بين الشعوب وتعليم الجاهل منهم ولكم رنت في غرفها وقاعاتها أصوات الخطباء من علماء الأرض أتوها يحملون اليها نتائج أبحاثهم ودروسهم ، فان كانت كلية باريز أم كليات براغ والامستاتة ومصر وغيرها من كليات البلاد اللاتينية وأميركا اللاتينية فهي تفاخر بأنها أم كليات انكلترا وايكوسيا .

ويؤخذ من احصاء سنة ١٩٠٧ - ١٩٠٨ انه كان في هذه الكلية ١٧٣٠٣ طلاب منهم ٣٣٦١ من الاجانب فتيان وفتيات ، ومن هؤلاء ٩٢٦ يدرسون الحقوق و ٥٢٠ يدرسون الطب و ٧٧٣ العلوم و ١٠٦٢ الآداب .

ولم تقصر كليات الولايات ، وعددها اثنتان وعشرون كلية في بث روح التكافل الاخلاقي والعقلي فأنشأت كلية تولوز جمعية اجتماع الطلاب الفرنسيين في اسبانيا وأنشأت كلية بوردو مدرسة الدروس الاسبانية العالية في مدريد

وانشأت كلية كرنوبل المجمع العلمي في فلورنسة وكلية نانسي وهي على الحدود الألمانية تعلم قاصديها احترام فرنسا وخدمتها للعلم ، وهكذا الحال في كلية مونبليه وليل وليون فكليات فرنسا تعلم في السنة سبعة آلاف طالب وهو عدد ليس بقليل يدل على تفردھا في هذا الشأن من بين أكثر الممالك الراقية هذه شذرة صغيرة في وصف كلية باريز التي ما زالت الحكومة الفرنسية تنفق عليها النفقات الطائلة والمحسنون لا ينفكون عن اعطائها المنائح الكبيرة فقد وهبها كارنيجي المحسن الاميركي كثيراً كما ان بعض الروسيين منحوها مالا جزيلا والفرنسيين يعطونها عن سعة . فحيا الله يوما تقام لكل قطر من أقطار البلاد العربية كلية مثل هذه تدرس أبنائها علوم البشر بلغتهم وتكون مجتمعا بالوطنية الصحيحة كما تكونها كليات الممالك الصغرى في الغرب ، كالبلجيكا وهولاندة والدانيمرك والسويد ونروج وسويسرا والمجر وبولونيا وفنلندا والبرتغال .

مرائي باريز ومناصفها

١٩

يطول بناتفس الكلام اذا أردنا الافاضة في كل فرع من فروع العمران بباريز وكلها مما يحتاج الى صفحات كبيرة وربما مل القارىء قبل أن يمل الكاتب . ولقد عنيت مدة مقامي في هذه العاصمة أن لا أضيع ساعة من وقتي الا في البحث عن جمعية أو انسان وزيارة معهد فيه نموذج من ارتقاء العقول ووفرة العلم وحذق الايدي وبسطة العيش وفضل الرفاهية ومما جعلته لاوقات الفراغ غشيان الحديث والمتاحف ودور التمثيل والسماع في باريز حدائق كثيرة عامة ومنها الصغير الخاص بمحي أوشارع صغير

ويسمونها « سكار » وهى كلمة انكليزية معناها ساحة مربعة أو حديقة يحيط بها حاجز من قضبان حديد وتكون فى ميدان عام وعددها ٣٦ حديقة تتنى كل حاضرة من حواضر البلاد العثمانية أن يكون لها من نوعها واحدة فقط بانتظامها وحسن تعهدها . أما الحدائق الكبرى فعدها تسع تصرف فى كل واحدة الساعات وأنت تسرح طرفك فيما خصتها به يد الصانع وأيدى البشر من مجالى الظرف والجمال .

زرت منها حديقة الحيوانات وحديقة كلونى وحديقة لو كسمبورغ وعجبت لمن يزور هذه الحدائق مرات لم لا يكون عارفاً بالنبات والحيوان وتاريخ مشاهير فرنسا أحسن معرفة فمثل هذه الحدائق التى يتنزه فيها المتنزهون هى فى الحقيقة مدارس عملية يدرس فيها المتنزه كبيراً كان أو صغيراً ما ينبغى له من هذه العلوم درساً عملياً لا يحتاج فيه الا الى انتباه فكر قليل حتى اذا أسعده الحظ ونظر فى المدرسة أو خارجها فى كتب هذه العلوم يصبح وهو مطبق العلم على العمل . ولقد رأيت فى حديقتى الحيوان والنبات أشياء كنت أقرأها ولا أعرف أعيانها ولما وقع النظر عليها تبينت فضل عرضها وأن العلم النظرى اذا لم يشفعه علم عملى يبقى كالسيف فى غمده أو البندقية فى معماها أو الكهرباء قبل توليدها وليس فى البلاد العثمانية أو المصرية ما يشبه هذه الحدائق اللهم الا أن تكون حديقة الجزيرة والجزيرة والقناطر الخيرية فى مصر وحديقة الامة وغيرها فى الاستانة ولكن أين الثريا من يد المتناول وما ينظمه الباريزيون لا تقسم وينظمه الانكليز أو الطليان والنمسيون لنا ، وما حك جسمك مثل ظفرك .

وانك لترى فى بعض الحدائق العامة تماثيل مشاهير رجال فرنسا فى السياسة والعلم مجسمة من رخام مجزع أو حديد مصنع كأن ساحات باريز وشوارعها العظمى لم تستوعب وحدها كبار رجالهم حتى هرعوا الى الحدائق يضعون فيها التماثيل والنصب لمن أحسنوا للأمة أو سادوها زمناً وأصبح لهم فى تاريخها ذكر يردد ، فى ساحات باريز وشوارعها ٦٨ شهيداً Monument ، لمشاهير علمائهم

ورجال سياستهم ومنهم أوغست كونت والفرد دي موسى وشاركو وكورنيل ودانتون وغامبتاوكي دي موباسان وجول سيمون ولافايت وواشنطن ولافوازيه وباستور وفيكتور هوغو وغيرهم وفيها ٦٨ تمثالا اثنان منها لاسكندر دumas الابن والأب . وواحد لبازاك وبوفون وبرانجيه وشارلمان وكلود برنار وكوندورسه ودانتى وديدرو وغاريبالدى وحورج ساند وجان جاك روسو ، وجان دارك ولامارتين ومارات وموليير وباسكال وشاكسبير وفولتير وتمثال الحرية والقانون والجمهورية .

هذا داخل العاصمة أما خارجها فلها من غابتى فنسين وبولونيا أعظم فسحة وزهرة وغابة فنسين فى شرقى باريز على بضعة كيلو مترات من نقطة دائرتها ومساحتها ٩٢٧ هكتارا وفيها من أنواع الراحة وتنويع المناظر المفيدة ما هو العجب العجيب وأعجب منها غابة بولونيا فى غربى باريز ومساحتها ٨٧٣ هكتاراً زرتها ثلاث مرات وان كانت فى الشتاء ليست مثلها فى الصيف على انها ما خلت من الأنيس والجلس وكان أحد تلك الأيام يوم عيد رأس السنة والسماء مصحبة والشمس طالعة مريضة صحيحة والعيون المراض الصحاح خرجت من كناسها تستنشق الهواء النقى ، وهناك منظر من بحيرات بولونيا وطرقها لا أدرى كيف يصوره الشاعر اذا كان الوقت ربيعاً أو صيفاً أو خريفاً ، ولو كنت شاعراً لحبرت فى وصفه القصيد وان زرتها فى الفصل الميت كما يقول الفرنسي

أما المتاحف الباريزية فهى أيضاً قصور زهرة وحدائق صفاء وعددها ٣١ متحفاً يحتوى كل منها على أقصى ما يتصوره العقل من ارتقاء البشر فى الصناعات والفنون على اختلاف الاعصار زرت بعضها وقضيت أوقاتاً طويلة فى متحف اللوفر العظيم بالقرب من نهر السين ومتحف فرسال على ثلاثة أرباع الساعة من باريز . أما متحف اللوفر فهو من أجمل قصور العالم وأوسعها عرف سنة ١٢٠٤ على عهد فيليب أغسطس وما زالت أيدى الملوك تتعاوره بالأصلاح أو التدمير

حتى اذا كان عهد فرنسيس الاول أصبح اللوفر متحفاً يقسم اليوم الى سبعة متاحف في متحف بحسب أصول آثارها وزمنها وطبيعتها وهي متحف التصوير ومتحف الرسوم ومتحف النقش ومتحف النحت القديم ومتحف النحت في القرون الوسطى وعلى عهد النهضة ومتحف النحت الحديث ومتحف العاديات الآسيوية ومتحف العاديات المصرية ومتحف العاديات الافريقية ومتحف العاديات النصرانية ومتحف الفخار والاواني الخزفية القديمة ومتحف الفلز والحلي والرخام القديم ومتحف عاديات القرون الوسطى والنهضة والقرون الحديثة ، ومتحف تير ومتحف البحرية ومتحف الشرق الاقصى .

وكل متحف تصرف فيه الساعات الطويلة ولا تستوفى النظر ، فتأخذك الدهشة من رؤية المكان ورؤية المكين وتقضي بالمعجب من كل ما يقع عليه بصرك اذ تتمثل لك عظمة الانسان وتقننه فيما تصنعه يده وعينه وذوقه .

أما متحف فرسال فهو في مدينة فرسال . وكانت في القرن الحادى عشر لليلاد قرية فاصبحت بعناية لويز الثالث عشر مدينة صغرى لانه أقام فيها قصراً للراحة أثناء الصيد وأراد لويز الرابع عشر أن يجعل فرسال مركز حكومة فرنسا فأنشأ فيها ابنية ومصانع عظيمة وكذلك فعل لويز الخامس عشر حتى أصبح عدد سكانها ثمانين ألفاً على عهد الثورة ، وهكذا اذا أراد الملوك أن يعمرُوا بلداً أحيوه واذا شاءوا أن يخربوه أماتوه . واشتغل في اقامة قصر فرسال الذى جعل المتحف فيه اليوم ثلاثون ألف رجل وستة آلاف دابة في اليوم مدة سنين طويلة . وقد فتحت أبواب المتحف سنة ١٨٣٧ وفيه اليوم ٥٦٠٠ أثر تاريخى .

أما مجموعة الصور البديعة التى فيه فعددها ٢٤٠٠ صورة ليس لها نظير فى العالم ومن يعمن النظر فيها كثيراً يخرج من المتحف وقد درس تاريخ فرنسا ووقائعها الحربية بالعمل والنظر

ومن جملة ما حواه أسلحة بيوت الشرف التى اشترك فرد أو أفراد منها

في الحروب الصليبية . ومنها أبواب مستشفى فرسان رودس الذي أهداه السلطان محمود العثماني سنة ١٨٣٦ الى لويز فيليب صاحب فرنسا . وفيه صور كثير من مشاهير الشرق كأنك تراهم عياناً وفيه صورة تمثل القائد كبر الفرنسي وسليمان الحلبي يقتله في حديقته في القاهرة زمن الاحتلال الفرنسي في مصر

أطلت الروية في كل هذا وانعمت النظر في النفقات الطائلة التي أتقت على هذه القصور المزخرفة والمصانع العظيمة فأعطيت بعدها الحق لمن قاموا بالثورات الفرنسية يريدون ازال الملوك عن عروشهم وفصم عرى السلطة الفردية لتنقل الى أيدي الأمة . نعم ان أقل نظرة الى هذه القصور يستغرب معها المرء كيف لم تحدث تلك الثورات قبل حدوثها بزمن طويل ولكن الحوادث كالحبالى لا تلد الا بعد اتمام مدة الحمل أو كالتمر لا ينضج قبل ابابه

ولم أتمكن يوم زيارتي لفرسالة من رؤية كل حداثتها ومرافقها لنزول الحاج بكثرة ولكنى على الجملة أخذت منها صورة اجمالية كافية . شأني في كل ما برته من المعاهد ورأيت من المشاهد فلم يتيسر لي أن ألقى عليه سوى نظرة واحدة لضيق الوقت وكثرة ما يجب أن يدرس من آثار هذه الحضارة الغربية الغربية وبعد كل هذا صرت أرى الاشتراكين على حق فيما يطالبون به المجتمعات الحديثة في الغرب وهم يرون مئات الفدادين من الارض تجعل حداث قد لا يختلف اليها الا أفراد في حين يهلك مئات الالوف من المحاويج والفقراء ولا من يرحم ضعفهم المادى والصحى أو يرى لبكائهم وتُسبَلُ على النظر هذه التحف والعاديات التي لا تقدر بثمن وحكومة الجمهورية تقترض مئات الملايين من الفرنكات لسد العجز في ميزانيتها . وهكذا نظام المجتمع الغربي ولعل عقول أهله المفكرة تحرر في الاجيال المقبلة الفقير من فقره أو تقوى على الأقل على تعديل هذا النظام الجائر الذى يسلب من كثيرين السبد واللبد ليعمر به قصر البلد ويلعب في حداثته وساحاته الوالد والوالدة والولد

مطاب باريز ومكتباتها

٢٠

لولم يكن في باريز الا مكتبة الامة التي حوت في قصرها الفخيم زهاء ثلاثة ملايين كتاب مطبوع ومئة ألف كتاب مخطوط ومليونين ونصف مليون صورة مختومة وألوفاً من الايقونات والانواط القديمة وغير ذلك من التحف والآثار ومجاميع الصحف والمجلات لكفهاها جالباً للسائحين ولافتاً لانظار أهل العالمين من العالمين .

مكتبة أسست منذ نحو ستة قرون وملوك فرنسا وعلماءها وأشرافها يتبارون في أن يجعلوا في كل فرع من فروع العلم واللغات صنوف المخطوطات والمطبوعات حتى اذا جاء القرن العشرون أصبحت مكتبة الامة أكبر مكاتب العالم وأهمها بندرة كتبها ومخطوطاتها ففيها من نادر المخطوطات والمطبوعات العربية ألوف

اختلفت اليها غير ما مرة ولم أتمكن من مطالعة كل ما أريد لضيق الوقت وضخامة الفهارس وكثرة المؤلفين والناقلين في قاعات المطالعة . وبلغني أن الكتب التي اهديت الى مكتبة الامة في العهد الاخير لم يتيسر ادخالها في قوائم الكتب على كثرة موظفي المكتبة وكادت مطبعة الامة الاميرية تعجز عن طبع فهارس هذه الخزائن ولا غرو فان ما رأيته منها مطبوعاً الى عهد ليس يبعد يبلغ وحده مكتبة برأسها ويقضى فيه المرء الساعات ولا يستطيع أن يستوفي النظر الاجمالي

ولو صرف طالب العلم عمره كله يبحث في مخطوطات مكتبة الامة ويستعين بمطبوعاتها لما تيسر له أن يأتي الا على قسم ضئيل جداً مما حوته في بطنها من معارف البشر ولا تعد المكتبة الخديوية في مصر ومكاتب الاستانة التي تتجاوز

الاربعين مكتبة ومكتبة المجلس البلدى فى الاسكندرية ومكاتب دمشق وبيروت وحلب وبغداد والمدينة ومكة وغيرها من بلاد الشرق الادنى اذا جمعت كلها فى صعيد واحد جعلت لها فهارس وقوائم منظمة الا جزءاً صغيراً من ذلك الجسم الكبير . وعلى تلك النسبة قس المطالعين والمراجعين فى مكتبة الامة بالنسبة لامثالهم فى البلاد العثمانية والمصرية فتراهم عند الساعة الرابعة بعد الظهر يخرجون رجالا ونساء شيوخاً وعجائز شباناً وشابات كالقطيع الكبير لا يقل عددهم عن خمسمائة وربما جاوز الالف أحياناً وتجد فيهم الغرباء من أمم أوربا وآسيا وأميركا وأفريقية ممن تجمع بينهم كلمة العلم الجامعة وكلهم يتنافسون فى البحث والدرس ويستخرجون من ركاز تلك الكنوز ما يصوغونه عقوداً ثمينة وتعاويز محلاة تقى البشر شر الجهل والخرافة

ولعله يخطر ببال بعضهم ان هذه المكتبة هى كل ما فى فرنسا من خزائن كتب صرف الفرنسيين فيها قوامهم وجمعوا لها من أقطار الارض كل غال ونفيس على عادة الافرنج فى التغالى بفخامة مصانعهم وضم شتيت متفرقهم وحرصهم على الاجتماع للانتفاع ولكن فى باريز وحدها من المكاتب العامة ما لو جمع أيضاً لكان منه مكتبة كمكتبة الامة بكثرة أسفارها الا أن هذه تفوقها بالنوادير من المخطوطات

ولباريز عشر مكاتب أخرى فى كل واحدة منها عشرات الألوف من المخطوطات والمطبوعات دع خزائن كتب الجمعيات والمدارس والكليات والجامع فان لكل واحدة منها ما يقتضى للمطالع من أسفار المراجعة وغيرها . أما خزائن كتب الافراد فهذه لا يحيط بها الا علام الغيوب أو من يدعى أنه يعرف ما حوت باريز من علم وأدب وذهب ونشب

ويقول العارفون أن قواعد بلاد الانكليز السكسونيين كالمانيا وانكلترا والولايات المتحدة تحسن استخدام أسفارها أكثر من الجنس التوتونى اللاتينى كالفرنسيين والاطليان والاسبان وغيرهم اذ ثبت أن تلك الاعم العظمى الراقبة

أكثر احساناً للانتفاع من قواها الطبيعية والصناعية على أسلوب حديث لم يخطر ببال الفرنسيين الذين جروا في أوضاعهم وترتيب مصانعهم وتنظيم شؤونهم على تقاليد لم قديمة وان عرف عنهم أنهم أسبق الأمم الى التجديد ولكن تجديدهم في أمور دون أخرى .

والانتفاع من الكتب أيضاً لم يخرج عن هذا النظام حتى قالوا ان نقاس المخطوطات والمطبوعات الموجودة في مكتبة الامة في عاصمة الفرنسيين أو نقلت الى ليبسيك أو مونيخ أو برلين أو فيينا أو اكسفورد أو مانشستر أو لندرا أو نيويورك أو شيكاغو لا تنفع بها وتيسر سبيل الوصول اليها لانها تكون هناك فهرسة مبوبة على طريقة فيها روح القرون الوسطى وقد جعلت هنا على أسلوب قريب المأخذ سهل التناول خال من القيود التي تقيد المطالع والمراجع . فان كانت فرنسا في مقدمة شعوب الارض من وجوه كثيرة ولا سيما في الامور الدوقية وبدائع الصناعات والاصلاحات الدستورية والانسانية فقد فاقها غيرها من الممالك المجاورة من حيث الفنون والاقتصاد والاجتماع فعرفوا كيف يطبقون أنفسهم على الذوق المعصرى

مثال ذلك صناعة الوراقة أو بيع الكتب فانا نجد المانيا أرقى من فرنسا فيها مع كثرة تقنن الفرنسيين فيما يدل على سلامة الذوق حتى أن ليبسيك في المانيا تباع وحدها من الكتب قدر ما تصدر فرنسا كلها ومن الغريب أن الكتبية الالمان في نفس باريز تجدهم أمهر في تصريف كتبهم فيبيعون كمية أوفر من كتبية الباريزيين

جاء في كتاب « المانيا الحديثة » أن المانيا أعظم البلاد اصداراً للكتب فقد كانت أوائل القرن الماضي لا تخرج في السنة سوى ٣٩٠٠ كتاب فاصدرت سنة ١٩٠٥ - ٢٨٨٨٦ كتاباً في حين أن فرنسا التي هي في الدرجة الثانية بكتبها لم تصدر سنة ١٩٠٤ سوى ١٢١٣٩ كتاباً فاذا قدر انه يطبع في كل كتاب في المانيا ألف نسخة فيصيب كل شخص فيها على أقل تعديل مجلد

واحد فصناعة الكتب في المازيا رابحة جدا . وقد كان عدد المحال التي تتعاطى تجارتها سنة ١٩٠٥-١٩٠٢ محلا تصدر الى الخارج فقط ما قيمته ٢٩٠ مليون مارك

زرت في جملة المكتبة الذين زرتهم أو ابتعت منهم بعض الكتب مكتبة هاشيت المشهورة في جادة سان جرمان وهي ثلاثة طوابق وفيها نحو ألف وخمسة مائة موظف ومستخدم وتطبع فيها بضع جرائد ومجلات كما تطبع الكتب المدرسية والادبية والتقاويم السنوية المشهورة في العالم وهي مؤسسة منذ نحو ثلاثة أرباع قرن ويعد هاشيت من أعظم كتيبة العالم ان لم يكن أعظمهم ومع هذا يقول العارفون أن مكتبته على حالتها الحاضرة لو كانت لجماعة من الالمان أو الاميركان لادهشوا العالم بنظامهم وأرباحهم . فكان دم الفرنسي الذي غلى زمناً قد برد اليوم وأصبح الدم الجديد غيره الآن يغلى فيدهش بجرارته . ومن مكاتب باريز المشهورة مكتبة فلاماريون ولمكتبته فروع كثيرة في مدينة باريز وبلاد فرنسا وهذه المكتبة فيما رأيت أقرب الى التجديد منها الى الجمود على القديم

مجامع باريز العلمية

٢١

على الشاطئ الايسر من نهر السين مقابل قصر اللوفر الفخم قام قصر عظيم عمر في النصف الثاني من القرن السابع عشر بمال أوصى به السياسي مازارين الذي جمع بطمعه وجشعه ثروة لا تقل عن خمسين مليون فرنك على عادة عظماء القرون الوسطى . وأراد أن تنفق بعده في الخيرات وحسن الاثر ومن جملة خيراته هذا القصر الذي أوصى له بمليون فرنك فضة وخمسة وأربعين ألف ليرة دخلاً سنوياً ليكون منه مدرسة عالية يتعلم فيها ستون طالباً من أبناء الولايات الاربع التي

أضيفت الى فرنسا بموجب معاهدة البيرنيه وروسيلون

وهذا القصر هو الذى نقل اليه مجمع فرنسا العلمى سنة ١٨٠٦ ذاك المجمع الذى أسس سنة ١٧٩٥ فكان مفخراً من مفاخر الفرنسيين وحق لهم ان يفاخروا به وهو مجلس أو ديوان مؤلف من خمسة مجامع فالأول المجمع العلمى الفرنسى المعروف بالاكادemy أسسه ريشليو سنة ١٦٣٥ وهو يشتغل خاصة بتأليف معجم اللغة الفرنسية وادخال المفردات الجديدة ونبد القديمة أو اصلاحها وأعضاؤه أربعون رجلاً ويقال لهم المخلدون على سبيل الدعاية لأنهم اذا خلا موضع واحد بالموت ينتخب سائر الأعضاء فى الحال من يخلفه والمجمع الثانى مجمع الصناعات النفيسة أسسه مازارين سنة ١٦٤٨ باسم مجمع التصوير والنقش والمجمع الثالث مجمع الخطوط والآداب أنشأه الوزير كولبر سنة ١٦٦٤ ومجمع العلوم أسسه كولبر أيضاً سنة ١٦٦٦ ومجمع العلوم الاخلاقية والسياسية أنشئ سنة ١٨٣٢ وجميع هذه المجامع ينتخب أعضاؤها بعضهم بعضاً مدى العمر وينظرون فى العلوم الآنف بيانها ويعطون جوائز للمحسنين من المؤلفين والعاملين وبعضها لا يستهان به ، وفى باريز مجامع علمية كثيرة غير هذه منها مجمع باستور العلمى مكتشف الميكروب والمجمع الكيماوى ومجمع فتيان العميان ومجمع الزراعة ومجمع البحار ومجمع العيون ومجمع الصم البكم ولكل منها أنظمة وقوانين وأعمال يطول شرحها واكتفى فقط بوصف جلسة عامة حضرتها^(١) من جلسات مجمع العلوم الاخلاقية والسياسية

فى اليوم الرابع من كانون الأول سنة ١٩٠٩ عقد هذا المجمع جلسته السنوية تحت قبة المجمع وهى القبة التى تجتمع فيها المجامع الخمسة المعدة فيما تقدم اجتماعها

(١) هنا أرى من الواجب على أن أشكر اصدقاء العالم المسيو الفرد لثاتليه استاذ علم الاجتماع الاسلامى فى كوليج دى فرانس ومدير مجلة العالم الاسلامى ومجلة السجلات المراكشية ومجلة الافكار الحديثة لتفضله بتعريبى الى كثير من اصدقاءه من رجال العلم والادب والسياسة فى باريز وبهم نبسرى ان اطلع من مدينة هذه الامة فى شهرين ما يتعذر على غيرى ان يراه الا فى شهور واشكر خاصة امين سره الكاتب المسيو لوسين مورى الناقد الادبى فى المجلة الزرقاء واحد كتاب هذه العاصمة الجيدى الذى تفضل واصناع من وفته كثيراً ليقدمنى الى معارفه ومعارف الميول لثاتليه المشار اليه

السنوى وقدر الجمع بأربعمائة نسمة رجال ونساء . جلسوا على مقاعد من الخمل على ترتيب بديع بحيث يسمع كل واحد منهم ويرى وكان أكثر أعضاء هذا المجمع بلباسهم الرسمي فجلس على كرسى الرئاسة المسيورى ستورم وتلا كما هي عادة هذا المجمع منذ القديم أو منذ انشائه قائمة بأعمال المجمع منذ اثنى عشر شهراً وصفق الحضور لمن نالوا جوائز على كتب ألوهها ، وأعمال قاموا بها لخدمة الانسانية وتعليم البائسات واطعام الجائعات واليتامى والعمى وبين من نالوا الجوائز أربع عقائل عدا من اثنى الرئيس على أياديهن البيضاء كالام ارنستين التى أنشأت معملاً وملجأ في مدينة روان والعقيلة بيكوين التى أنشأت في باريز ملجأ ستمته معمل الجهاز والآنسة دى رشمون التى أنشأت في مدينة كرنيل منذ أربع وعشرين سنة ملجأ للبنات تأوى اليه أربعمائة ابنة من بنات العملة وأتفقت ليه ثروتها ، ومن المعاهد التى أخذ هذا المجمع النظر فيه معهد كارنو وهو الذى منحته العقيلة كارنو امرأة أحد رؤساء الجمهورية رأس مال يأتى بثمانية عشر ألف فرنك دخلاً سنوياً وقضت بأن تقسم الى ٩٠ امانة كل واحدة بمائتى فرنك توزع كل سنة يوم ٢٤ حزيران وهو يوم مقتل كارنو على تسعين امرأة من نساء العملة ممن لهن أولاد ، ومن جملة الجوائز التى منحها المجمع للمؤلفين جائزة الاجادة لمن ألف كتاب « افريقية للاوربيين » وكتاب « أوروبا والمملكة العثمانية » .

ثم قرأ المسيودى نوفيل أمين سر المجمع الجديد ترجمة حياة صديقه وسافره فى هذه الوظيفة جورج بيكوقاثر فى السامعين وأبكاهم ، وتقنن ما شاء وشاء البيان فى وصف حسنات المتوفى واقتداره . وكانت الخطب يتلوها أولئك الشيوخ فى الورق بنعمة تأخذ بمجامع القلوب ويطرب لها العاملون العاملون طربهم بنغمات الاونار وتغريد الاطيار فى الاسحار .

وهكذا انصرف القوم ونصفهم من النساء يرددون محامد أعضاء المجمع أما أنا فتمثلت لى أرواح أولئك العلماء العاملين الذين سنوا لمعاصرينا اخلافهم سنن

الارتقاء وخدمة العلم والحق والفضيلة والآداب والفنون ، وحديثي النفس
ببلادنا الشرقية وقلت هل يكتب لها في المستقبل تأليف مثل هذه المجامع فنعمل
فرادى ومجتمعين كالغربيين أو نظل كما نحن لا نعمل فرادى ولا مجتمعين ونكتفى
بالتفاخر بأجدادنا نجعله عدتنا في شدتنا ومثالتنا في نهضتنا ، ونحن عن اقتصاص
آثارهم غافلون .

كنائس باريز ومعاييرها

٢٢

من المعاهد التي يقضى على من يزور باريز أن يختلف إليها ولو مرة يبعثها
وكنائسها فانها من الاماكن التي يقرأ فيها انموذجا من انموذجات البناء في القرون
الوسطى ، ويطلع فيها على فلسفة الفرنسيين الروحية خصوصا والمأثور عنهم
في الشرق أنهم أمة لا تقيم لغير العقل وزناً تجردت من العواطف الدينية حتى لم
يبق فيها سوى المعجاز من النساء يختلفن الى المعابد للآابة الى الله وتقديس يسوع
وأمه عليهما السلام .

يبدأن من تعمق في البحث عن حال الفرنسيين الروحية يتجلى له أن جمهوراً
عظيماً لم يبرح متشبثاً بدينه متشبهاً بصحة يقينه ، ولا سيما في القرى والبلدان
الصغرى فاعلمت الخاصة والطبقة العليا عندهم نزعو كل نحلة حتى لم يعودوا
يعرفون غير المادة ديناً وأغلب الطبقة الوسطى يغلب عليها التدين ، أما العامة
في المدن فكالسائمة لا تعرف غير الاكل والشرب واللهو واللذائذ وأكثر أهل
طبقتهم في القرى متعصبون لدينهم والسواد الاعظم من النساء متدينات .
وتساوى متدينهم والمنحل من كل دين منهم أو الخاصة والعامة بالتظاهر في مراعاة
الشعائر الدينية ولا تختل هذه القاعدة قليلاً إلا في المدن والحواضر ، ولا أثر

للتعليم الدينى فى المدارس الاميرية وهو على أشده فى مدارس الرهبانات وغيرها من المدارس الخاصة على ان نزعة التعصب التى عرفت بها فرنسا منذ صبأت عن الوثنية لتنتحل النصرانية فى القرن الثالث للمسيح ما برحت لها فى نفوس أبنائها حتى فى هذا القرن العشرين آثار راسخة وان عبثت حكومتهم بقانون الحرية الشخصية غير مأمرة ودمرت بيوت الرهبان والنسك وجردت الكنائس والبيع والمدارس الاكليركية من كل ما يدخل فى حوزتها .

يحتفل الفرنسيس يوم ١٤ تموز بعيد الجمهورية احتفالاً يقدسونه ويمجدونه وفى ذاك اليوم تشهد فى كل أرض فيها بضعة منهم أو رفع لهم فيها علم نموذجاً من وطنيتهم وكيف يرى جمهورهم بالجمهورية حياته ولكن احتفال هذه الأمة بأعيادها الدينية لا يقل عن احتفالها ذاك اليوم . وأعيادها كثيرة هى صورة من صورتها فى القرون الوسطى بل فى القرون الحديثة قبل أن تنادى فرنسا بتأليه العقل وتعلن الحكومة عائناً نزعتها ربة الدين .

نعم ان زائر كنائس باريز تتجلى له فلسفة القوم النفسية . ومما زرته من كنائس باريز كنيسة نوتردام والمادلين وعدد الكنائس الباريزية سبعون كنيسة أسقفية للكاتوليك ماعدا بيع الروم والبرتستانت ومعابد اليهود الأربعة وما عدا المصليات والبيع الصغرى ونوتردام هى من أعظم الكنائس ، وهى أجمل انموذجات البنايات القديمة تجمي بمكانتها بعد كنيسة مدن شارتر وريمس وأمين وبورج وتفوقها بآثارها التاريخية وكفى بانها أنشئت فى أوائل النصف الثانى من القرن الثانى عشر ولم تزل تتعاورها الأيدى بالنقش والتزيين والترخيم والتعريق حتى يوم الناس هذا وفيها من بدائع ما صنعت الأيدى وتقننت فيه العقول ما يدهش ويههر .

زرتها قبيل صلاة المساء مع صديقى عثمان غالب باشا . ووقفنا نستمع لوعظ الواعظ على جمهور المصلين وأكثرهم من النساء ، يعظهن واصفاً لهن غرور الحياة الدنيا بالقياس مع الآخرة ومنهن من تفرويق عينها بالدموع أو تجهش بالبكاء

خصوصاً عند ما يذم بلسان بليغ غرور أهل باريز . فهو داخل الكنيسة يقوم بالواجب ليدعو الناس الى الزهادة ويحجب اليهم العبادة ووراء سور الكنيسة تجري كل ساعة شؤون وأعمال دنيوية هائلة كلها ما كانت تقوم لو عمل الناس بمثل هذه المواظ وآثروا الباقية على الفانية .

ان ما رأيته من انتظام البيع الباريزية ، وتقن البازين في ابداعها وتقانيهم في توفير قسطها من الجمال دلتى بلسان حاله على ان مدنية القرون الوسطى قامت باسم الدين ولذلك جاءت المعابد أجل مصانع تلك القرون ، وكان أكثرها الى الزوال لو لم تتدارك في القرون الحديثة يلسم من انارة العقول بالفلسفة والعلم المادي أما مدنية هذا العصر فلا أدل عليها الا بما ينفع الناس في دنياهم كالسكك الحديدية والبوارج والبواخر والمرافىء والمعامل والشكن والمستشفيات والمدارس والكلليات ودور البائسين والحقول الانموزجية والمتاحف وحير الوحوش والمكاتب ودور التمثيل

فهل يأتي على البشر عصر يترى يكون فيه ما ينم عن مدنيته غير ما ذكرنا قديماً في الدين واليوم في الدنيا ويخف تكالبهم على مظاهر هذا العالم وينسون بتاتاً تعظيم ما خلفته عصور الدين من المصانع والعبادات ، التي انتقلت الى أكثرهم بالعادة أو يمزجون القديم بالحديث فيكون شأنهم غير شأنهم الآن في تصور ماضيهم وحاضرهم ، هذه أسئلة ليس غير الزمان كفيلاً بالاجابة عنها والله أعلم بمصير عباده.

قصور باريز وسراياتها

٢٣

من القصور العامة وأملاك الحكومة في هذه الحاضرة : مصرف فرنسا وقصر الايزه حيث يقيم رئيس الجمهورية وقصر الانفاليد والتويلرى وقصر

العدلية وقصر ساحة المريخ وقصر التروكاديرو والقصر الملكي ، وفيه دائرة شورى الدولة ومحكمة التجارة والبانتيون مدفن العظماء وقصر مجلس النواب وقصر مجلس الشيوخ وقصر المجلس البلدى .

ونتكلم هنا على القصور الثلاثة الاخيرة فقد كتبت لى زيارة مجلس نواب الامة الفرنسية ومجلس أعيانها خلال انعقاد المجلسين ، فلم أسر بمشهد أجمل ولا أنعم وقلما تمثل لى معنى النيابة عن الامة الا ذاك اليوم ، ومجلسا النواب والاعيان همامفخر من مفاخر هذه الامة ونموذج تقدمها ودليل أخلاقها السياسية ففى مجلس الامة الحركة والمضاء وفى مجلس الشيوخ التؤدة والروية فالاول يقيم فى قصر البوربون والثاني فى قصر اللوكسمبورغ وكلا القصرين من أجمل قصور الحكومة فى هذه العاصمة العظيمة ، وعدد النواب خمسمائة تغلب عليهم هممة الشباب وعدد الاعيان ثلثمائة تقرأ فى وجوههم المغضنة وشعورهم البيضاء سعة العقل والتجارب الكثيرة

وما أنس لا أنس يوم كانت المناقشة فى مجلس النواب فى وضع ضريبة على العملة وقد تدفقت أقوال بلابل المجلس على المنبر وما فيهم الا الاجتماعى والاقتصادى والاخلاقى والسياسى والاداري

وان ماتلى فى تلك الجلسة فقط من الخطب وجرى الحوار فيه بين الاعضاء لو جمع فى كتاب برأسه لجاء منه أحسن كتاب اجتماعى اقتصادى عن فرنسا ومن أراد أن يعرف ماهو البيان الحقيقى والعلم الذى تشربته أجزاء النفس فليزر مجلس النواب الفرنسوى فى فصل اجتماعه يشهد ارتقاء الغرب ويدرك سر الشورى . أما المجلس البلدى فهو معيار العمران وييده أسعاد باريز وأشقاؤها يزار كما تزار أكثر المعاهد الكبرى فى باريز بطلب من الزائر يقدمه الى أمين سر المعهد فيرسل هذا اليه ورقة يعين له فيها الميعاد الذى يأتى فيه

يدخل الزائر هذا القصر المدهش فيتجسم فى نظره الذوق الفرنسوى وعظمة هذه الامة لكثرة مايقع عليه نظره من الردهات والقاعات والغرف وكلها مزدانة

بنقوش وصور ورسوم من أجل ماخطته أنامل النقاشين والمصورين وتدل كلها على الذوق والمعاني اللطيفة والاشارات الحسنة .

فمن رسم يمثل الغناء والعشرة وآخر يمثل الزهور والثمار وغيره يصور أغاني شواطئ السين وآخر يمثل التجارة والصناعة فالأشهر الجمهورية ومناظر كثيرة لأجل قصور باريز ومعاهدها وأصقاعها وهناك صور رسمت على الحيطان والسقوف في القاعات التي تستقبل بها مدينة باريز في العادة من يزورها من ملوك الأرض وأمرائها ومنها ما يمثل أفراح الحياة وآخر يمثل العمل ومغيب الشمس والرقاد والحلم وغيرها يريك الطبيعة الملهمة المرية فالرياضات الطبيعية فالرياضات العقلية وآخر يمثل الطبيعة والكيمياء والفلسفة والنجوم وفيها ما يمثل المساء في باريز والخيال والولادة فيها والجهاد والنهضة والشعر والفلسفة والتاريخ والعلم والفنون والسلام واليقظة وذكرى عيد وطنى وعيد الخلاء في ضاحية باريز . وبعضها يمثل أبولون وعرائس الشعر والتصوير والأدب والموسيقى والنقش والهندسة ومنها رمز القصائد الغنائية والانعام والكدر والتأمل ومن التماثيل ما يرسم التمثيل بالأيماء والقصص الهزلية والموسيقى والرقص والالعب ومنها ما يصور الحصاد وقطف العنب والغناء والصيد وتعاطي الشراب ومنها الموسيقى على اختلاف العصور والطيوب والعطور ومدينة باريز تدعو العالم الى أفراحها والزهور والرقص في كل عصر من أعصار التاريخ وصور تمثل أهم أقاليم فرنسا مثل الفلاندر وبيكارديا والجزائر وليون ولانكدوك وغاسكونيا والبروفانس وكوسين وبري وشامبانيا وبرتانيا وبورغونيا ووافرن والاورين ونورمانديا وكونتية نيس . ومن صورها ما يمثل الصيف ومنها الشتاء ومنها ما يمثل آسيا وأوروبا وأميركا وأفريقية ومنها ما يصور تأليه العلوم وهو رمز لعلم الاحداث الجوية والكهربائية وتعليم العلم وتمجيد العلم وأربع أيقونات تمثل علم الطبيعة والنبات في شخص أراغو وامبر وكوفيه ولافوازيه . ومنها رمز الى ساعات الليل والنهار ومشاهد الافراح والاعياد

وفي ردهة الادب صور ترسم لك عرائس الشعر والالهام والتفكر وتاريخ
الكتابة وأعظم الاعمال الادبية وأربع أيقونات لاربعة أدباء وهم مولير وديكارت
وفيكاتور هوغو وميشله ثم صور الفلسفة والشعر والفصاحة والتاريخ وهناك
رمز بديع يشير الى أن التاريخ يجمع دروس الماضي والفلسفة تحرر الافكار
من قيودها وعلى مقربة من ذلك رسمان اثنان نأمان وهما يمثلان الادب

وفي سقف ردهة الفنون صور كثيرة منها ما يمثل تغلب الفنون وخيال
الكمال والحقيقة والرقص والفنون والنقش والموسيقى والهندسة والرسم وغير
ذلك من رسوم الوقائع الكبرى التاريخية والصور والتماثيل التي تشير كل واحدة
منها الى معنى من المعاني وفائدة من الفوائد وكلها من حفر أو رسم أو نقش
أعظم رجال هذا الشأن في العالم ولا سيما من أهل فرنسا جعلت هناك نموذجاً مما
خصوا به من المزايا وسعة العلم وبعد النظر وحسن الذوق

وعلى الجملة فإن الشرق الذي يزور قصر المجلس البلدي في باريز تصغر
بلاده في عينه ويكاد ييأس من ارتقاؤها ونهضة أبنائها
أما أعمال هذا المجلس الذي تبلغ ميزانيته مئات الملايين فلا أقول فيها
الا انها عظيمة جداً ويكفي أن المجلس طلب من الحكومة هذه الايام ان تسمح
له بعقد قرض قدره تسعمائة مليون فرنك ليظهر بعض أحياء باريز فازنت لانه
ثبت أن بعض الامراض تكثر في حي دون آخر فالواجب العناية بها حتى لا تسطو
يد الفناء عليها أما أنا فلم أر على كثرة تجوالي راكباً ومشياً في شوارع باريز
وأحيائها موضعاً تجد تلك النفس انه محتاج للاصلاح بعد لكثرة ما ترى كل شيء
في مكانه وأن مدينة باريز تنفق على أضواء الكهرباء والغاز الذي تنير به
شوارع هذه المدينة السعيدة كل ليلة ما يبلغ مقدار ميزانية بلدية دمشق طول
السنة فتأمل

تاريخ الحضارة الفرنسية

٢٤

بسطنا القول في الفصول السالفة في كل ما يهم عن معرفة باريس وهانحن أولاء
نتوخى في هذا الفصل أن نلم بطرف من عمران فرنسا بأسرها وأثرها في الحضارة
منذ قامت للعلم والعمل سوق رائجة معتمدين فيما ننقل على معجم لاروس الجديد
وما هذه النبذة الا احتذاء لما ورد في الفصل الفرنسي بتصرف كثير وزيادات
فرنسا مملكة عظمى في أوروبا الغربية يحدها المحيط الاطلانطيقي وبحر الشمال
أو المانش من الغرب ومن الجنوب جبال البيرنيه والبحر المتوسط ومن الشرق
جبال الالب والجورا والفوج ويفصل بينها وبين البلجيك والمانيا خط اتفق عايه
من الشمال الشرقي والشمال ومجموع مساحتها ٥٣٦،٤٠٨ كيلو مترات مربعة وسكانها
نحو أربعين مليوناً أي نحو أربعة أضعاف ونصف مساحة سورية ومساحة سورية
١١٥،٠٠٠ كيلو متر مربع والفرنسيين كجميع سكان أوروبا اخلاط من العناصر
مزجتهم بودة واحدة فجاء منهم شعب ذو قوة عقلية حقيقية واختلفت صناتهم
وميوهم لمذاهب المعاش وأن فرنسا لغنية بزراعتها أكثر من غناها بمناجها
ومع هذا فهي تعد من أغنى البلاد وزراعتها أرقى زراعة في الارض ويندر
في أرضها الذهب والفضة والزئبق والنحاس والزنك والرصاص والقصدير
والزرنينخ والنيكل والانتيموان والكبريت ولكن عندها ما يلزمها من الحديد
والفحم الحجري .

وانك لتدهش اذا عرفت أن جزئين من ثلاثة عشر جزءاً من أرضها تزرع
وتشجر وفيها نحو عشرة ملايين هكتار من الغابات والعوسج ولها في تربية
المواشي والحيوانات يد طولى وتجد المعامل الكبرى قائمة في الضواحي الغنية
بالفحم الحجري والحديد والمحاصيل الزراعية القابلة للتحويل وقد امتاز كل إقليم

بصناعة وباريز هي ملكة المدن الصناعية في فرنسا لانها محط الخطوط الحديدية ومنتهى المواصلات

امتازت الجنوب بصناعاتها لكثرة النعم الحجرى وكثرة السكان وفيها صناعات اشتهرت شهرة الشمس والقمر كما امتاز اقليم الآردن بالجوخ واعمال الحديد والالواح الحجرية وامتاز اقليم شامبانيا ونورمانديا بالجوخ واعمال الحياكة والنسيج واقليم فرانش كونتيه بعمل الساعات وليون وسان اتين بالمنسوجات الحريرية وامتازت المقاطعات المجاورة لها بتربية الحرير والفزل وامتازت البلاد الوسطى بالفخار والخزف والصينى والكاشانى وفي ضواحي انكولم على الينابيع ذات المياه الشفافة معامل الورق ولمرسيليا الميزة بصابونها ولاقليم البروفانس بزهوره العطرة التى تستعمل فى الطيب وعلى الجملة فان صناعات فرنسا من انفس ماتصنع صنع الايدى فى العالم ولاسيا فى منسوجاتها الحريرية وصناعة الجوهريه والبلور والوانى الصينيه الدقيقة وكلها مما جعل فرنسا فى مقدمة ممالك أوروبا .

تقسم فرنسا من حيث امورها الادارية الى ٨٧ ايلة وهذه تقسم الى ٣٦٢ ولاية و ٢٨٩٩ كورة و ٣٦١٧ مديرية ولها مجاس نواب ومجلس شيوخ ينتخب أعضاء الاول كل اربع سنين وأعضاء الثانى كل تسع وهذا المجلسان هما اللذان ينتخبان رئيس الجمهورية لسبع سنين والقوة الاجرائية بيد الوزارة وهى المسؤلة أمام القوة التشريعية وتقسم هذه البلاد من حيث المعارف والاديان والبحرية والبرية الى مناطق كثيرة تخالف ترتيب الايلات وكلها لسان واحد وتربية تكاد تكون واحدة ونظامها واحد

ومن نظر الى تاريخ فرنسا السياسى والاجتماعى يتجلى له انها هى بلاد غاليا المستقلة وهى عبارة عن ولاية رومانية على عهد مملكة الرومان افتتح الرومانيون منذ سنة ١٢٥ قبل المسيح البلاد الواقعة على شواطئ البحر المتوسط ثم افتتح قيصر البقية سنة ٥٨ - ٥١ ق . م ولم تكن اذ ذاك الا خليطاً من العناصر

والقبائل لا وحدة بينها ولا جامعة تجمعها ففي الشمال قبائل جرمانية وفي الوسط سلتية وفي الجنوب الغربي ايرية وفي الجنوب الشرقى ليكورية وفي الولايات الرومانية مدن يونانية ومستعمرات ايطالية يتكلمون بنحو عشر لغات مختلفة ولم تكن لهم وحدة سياسية ولا رئيس اعلى بل كانوا عبارة عن نحو مئة من الشعوب لهم اوضاع مختلفة ويحكم على معظمهم مجلس شيوخ ومن هذه الشعوب من يعيش على حال انفراد ومنها متحدة بينها على التساوى ومنها من يشترك مع غيره ويترك الزعامة لمن يراه احق بها

وكانت المدن قليلة جداً في بلاد غاليا وغاية ما كان فيها ملاجىء لاوقات الغارات وهي مراكز الاسواق والزيارات فبلاد غاليا كانت بلاداً زراعية وسكانها ثلاث طبقات الاشراف والمحاربون ومنهم ينتخب اعضاء مجلس الشيوخ والملوك والفرسان وعامة الشعب كانوا فدادين تقرب حالهم من العبودية ولم يكن يملك الاراضى احد ثم أصبحت ملكاً للأسرات الشريفة أما الحراثون فهم من توابع الارض ويحجبهم بعدهم العبيد ويعدل من حال الاشراف طبقة الدرويد وهم الكهنة والاطباء والمنجمون والقضاة ولا سيما في أواسط البلاد

ولما استقام أمر الرومانيين اقاموا زعيماً عاماً على البلاد ممتعاً بالسلطة المطلقة متصرفاً بالقوة الحربية والمدنية والدينية ونعني به الامبراطور وهو زعيم الحرب والمشرع المطلق والقانون الحى والرئيس الروحي والرب ثم امتزجت البلاد بالعادات الرومانية واللغة الرومانية بما أتتها من جيوش الرومان وتحرفت لغة الفاتحين فأصبحت اللغة اللاتينية المحلية وغدت كل لغة غالية مقاطعة ~~واللغة~~ برأسها زعيم واخذت التجارة والصناعة ترتقى ولولا انه كان من حق المالك أن يبيع الارض بفلاحها وهو الحاكم المتحكم في حياتهم ومماتهم لركن الفلاحون الى الفرار

ولما أخذت النصرانية بالانتشار كانت قاصرة على المدن ولم تتعدا الى الارياك الا بعد زمن وكان من فوائد انتشارها انها اعلنت بان الاحرار والعبيد

سواء أمام الله ، هذه هي الفائدة الاخلاقية أما الفائدة السياسية والاجتماعية فقد نشأ منها تأليف طبقة رجال الدين بنظامهم الذي اخذوه عن نظام الحكومة ولم يخض الا زمن قليل حتى اصبحت الكنيسة حكومة وسط حكومة تجبى اموال امن الناس ويغدق المؤمنون واحياناً الامبراطرة عليها من المال ماتكونت منه ثروة طائلة وتعنى املاكهم من الخراج كما يعنى خدمتها من المحاكمة مع الشعب بل كثيراً ما يحاكم الشعب نفسه في الكنيسة ولطالما كان الاسقف في ابرشيته خصماً للحاكم السياسى ورقبياً عتيداً عليه .

ولما سقطت المملكة الرومانية تجزأت غالباً الى عدة ممالك بربرية كالفرنك والبورغوند والفيزغوت وعادت كلمة البلاد الى الانتشار بعد الاجتماع ولم يكن ملوك الفرنك يدركون معنى الوحدة كسائر الملوك البرابرة ولا يقيمون للحكومة وزناً ولئن كانوا يلبسون الثياب الارجوانية ويضعون التيجان على رؤوسهم كامبراطور الرومان الا انهم لم يكن لهم جيش دائم وليست لهم طريقة منظمة في الجباية كما أن اللغات في البلاد تعددت وكلها لهجات من أصل روماني تمازجها لهجات بربرية وعادت سلطة الاشراف وسلطة رجال الدين تقوى حتى لم يعد يعترف السواد الاعظم من الناس بالزعامة عليه السلام ومنهم يطلبون الانصاف ولهم يدفعون الجزية والخراج وخربت المدن وهاجر رؤساء الجيش والاديار الى الحقول وضعفت الصناعة والتجارة باختلال الامن في البلاد وكاد الفلاح يكون عبداً لسيده كما في سابق الاعصار وفي المين الذي أقسم سنة ٨٤٢ في ستراسبورغ ظهرت لأول مرة لغة اشتقت من اللاتينية المستعملة عند الفلاحين ومنها نشأت اللغة الافرنسية وفي معاهدة فردون سنة ٨٤٣ اعترف بوجود مملكة فرنسا وعاصمتها باريز

وما زالت الملوك تتوالى عليها وتختلف في المبادئ والاطوار حتى قبيل نهاية القرن الثامن وقد حسنت فيه حال الفلاح الفرنسي وزاد عدد المالكين من ابناء القرى زيادة مهمة وارتقت الصناعة والتجارة على ما كان يقف في سبيلها من القيود الكثيرة واللائحة المتنوعة وارتقت الادبيات وتحررت من قيودها

القديمة واخذت الفلسفة تبحث في التسامح الدينى والحرية السياسية واصلاح القوانين الجنائية وتمايز الطبقات الاجتماعية وعارض مونتسكيو نظرية ان الملك ملهم من الله وحقه الهى على سكان الارض بنظرية الحكم الملكى النيابى ووضع روسو نظرية العهد الاجتماعى

نهت مجالس النواب فى مكافحتها سيطرة الملوك (سنة ١٧٨٨) افكار وكلاء الشعب فبدأت الامة ترفع صوتها وكان الملوك يخفونهم ولا يرون لها حقاً فى مطالبها بحق واتفق ان وقعت البلاد فى عسر مالى فاجتمع وكلاء الامة ينظرون فى حل ما اصابهم فنشأت بعد حين الثورة الاولى (١٧٨٩) واعلن لويز الرابع ان الامة كلها للملك ولكن جاء فى قانون حقوق الانسان والوطنى ان مبدأ كل سلطة ينبعث من الامة بجوهره فما من جماعة ولا من شخص يستطيع ان يحكم حكماً لا يكون صادراً عنها بالفعل وهكذا مات حق الملوك الالهى المزعوم واثت الثورة على اعشار رجال الدين والاقطاعات والسخرات والاحكام التى يحكمها ارباب الاقطاع وساوت بين الناس فى الواجبات والضرائب وقضت على قليل الكفاءة من ارباب الغنى أن توسد اليه الوظائف الكنائسية والحرية بدون استحقاق وجمت الحرية الشخصية وحرية الضمير وحرية التكلم والكتابة وحرية المسكن وتساوى كل وطنى من أكبر كبير الى أصغر صغير فى الخدمة العسكرية ودفع الضرائب كل بحسب طاقته وثروته

هذا موجز الاساس الذى قام عليه بناء النظام الجمهورى ثم عراه قليل من التعديل بتقلب انواع الحكومات وقيام بعض الادعاء بالملك الى عهد الجمهورية الثالثة بعد حرب السبعين مع المانيا وعندها استقرت الحال على ما تراها الى اليوم أما نشأة الآداب والعلوم فلكل منها تاريخ ويقال على الجملة أن اللغة الفرنسية هى بنت اللغة اللاتينية تكونت على صورة غريبة الى أن وصلت فى عشرين قرناً الى حالتها الحاضرة وكانت ادبياتهم دينية لاول أمرها وبعضها شعري ونثرى واكثرها خرافى ولم تخلص اللغة من القيود العائقة الا فى القرن

السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر . وتاريخ العلم ونشؤه فيها طويل كتاريخ الادب ويقال على الجملة فيه ان مرسيليا كانت مدة قرون منبعث العلم الوحيد في بلاد غاليا واشتهرت مدرستها كما اشتهرت كليات آثينا وكلية الاسكندرية وكان بيتياس احد ابنائها الذي ولد نحو سنة ٨٣٠ قبل المسيح لا يقل عن أعظم الفلكيين في القديم وكانت بيوت العلم تفتح على العهد الروماني في البلاد المهمة والتعليم فيها عبارة عن مبادئ عممية من الحساب والمساحة والبناء ثم جاء دور الانحطاط التام فأصيب الغرب بغارات البربر ولم تخرج فرنسا من ظلماتها الفكرية الا بعد ثمانية قرون بفضل العرب وبينما كان التمدن الاسلامي بالغاً أوجه كانت العلوم منحطة كل انحطاط في أرض فرنسا . ولم ينتشر الطب والصيدلة في فرنسا الا بمساعي اطباء اليهود الذين طردهم المسلمون من آسيا الصغرى في القرن الحادي عشر فاعتصموا باسبانيا أولا ثم باقليم لانكدوك حيث أسسوا عدة مدارس ومن جعلتها مدرسة مونييه وهذا كان مبدأ انتشار العلم في هذه الارض . فمن العرب أخذ الفرنسيون فيما مضى حضارتهم ونحن العرب اليوم نأخذ عنها وندهش بحضارتهم فسبحان المعز المذل القابض الباسط

الصحافة الباريزية

٢٥

نشأت الصحافة هنا في مبدأ امرها بنشر اخبار الملوك والوزارات والموظفين والحروب والدول ثم ارتقت بارتقاء المدارك الى ان صارت تلم بمعظم الموضوعات التي تهتم القراء وتعلمهم ، وعلى عهد الثورة اشتد ولوع الناس بالاطلاع على الحديث والآراء السياسية والى هذا العهد ظل الصحافي وراء منضدته يكتب ليفيد مثل الاستاذ على منبره والواعظ في معبده لا يقصد الا تثقيف عقل وتربية نفس ولما تكالبت النفوس على المال واتسع للصحافة المجال بكثرة المواصلات

والبرقيات وأخذت التجارة ترقى دخلت الصحافة في طور جديد فبعد أن كانت هي خادمة للتجارة أصبحت هي بنفسها تجارة لا يقصد منها إلا الربح وأول من أنزل أجور اشتراكها أميل جيراردين مؤسس جريدة لا بريس سنة ١٨٣٦ من ٨٠ أو ٦٦ فرنكا قيمة الاشتراك بالجرائد الكبرى إلى ٤٠ فرنكا وهي قيمة زهيدة لا تعادل النفقات انزلها ليكثر قراؤها وإذا كثر قراء جريدة أقبل الناس عليها باعلاناتهم ومنشوراتهم فاستطاعت بعض الصحف أن تعيش مستقلة عن معونة الافراد والحكومة والاحزاب

ولكن هذا الاستقلال وان لم يكتب لها كلها إلا أن سعيها وراء الاعلانات وخدمة الشركات والبيوت المالية قيدها أكثر من قبل بل أخرجها عن المقصد منها حتى صارت العشرون الجريدة الكبرى الباريزية اليوم عبارة عن سمسار لا يهمه إلا أن يقبض العمالة من البائع والشارى وغدت الجريدة من مقالاتها الافتتاحية إلى أنبائها البرقية فرفرف قصصها وتقارير الكتب والحوادث الداخلية والخارجية والانباء المنوعة والمقالات الادبية والاقتصادية والسياسية والاعلانات والمنشورات وغير ذلك مما تخوض الصحف عبا به مثل أخبار دور التمثيل والرياضات البدنية والسباق لا ينشر منها اسم ولا سطر إلا قبل أن يذهب صاحبه الذي يهمه وينقد أمين صندوق الجريدة مبلغاً معلوماً عنه وعند ذلك ينشر له من الافكار والمحامد ما يشاء وتشاء الاهواء

فان كتبياً أو طابعاً لا يقدر أن ينشر كتاباً طبعه إلا إذا انتقده كاتب أو طالم كبير وهذا اذا فرض انه رضى بان يخدمه بالهجان يسأله مدير الجريدة عن ربح الادارة من ذلك . فتقالة في تقرير كتاب قد تكلف الطابع الفنى فرنك يأخذ نصفها كاتبها الموقعة باسمه والنصف الآخر مدير الجريدة ومثل ذلك يتناولون من المصورين^(١) والموسيقين والممثلين والراقصات والعقيلات والآنسات

(١) اعتمدنا في معظم هذه المقالة على ما جاء في كتاب « كيف تقرأ الجرائد » الذى صدر حديثاً في باريز لمؤلفه جورج فونسكريف George Fonsegrive ; Comment lire les journaux

والاعاظم والاصاغر لاتدون اسماءهم بالطبع قبل أن يرشوا ادارة الجريدة بمال ترتضيه وكل ما تراه من أخبار الدعوات والرياضات والمآدب ووصف الازياء مع بائعات الزهور والجوهرين والخيافات والخياطين يدفعه أرباب المأدبة وتجار هذه الاصناف بل ان أخبار الاعراس والافراح وأخبار المناعي والاموات لاتكتب إلا لمن تؤخذ منه أجرتها والاعمال الادبية مهما بلغ من مكانتها لاتذكر بكلمة قبل أن يدفع صاحبها جمالة لهاء ذكر اسمه

وهناك المليون وأرباب التجارة يريدون أن يعشوا بحالة الاسواق ويعرفون أن السياسة تؤثر كثيراً في أعمالهم فيعمدون الى ابتياع الجرائد لتكتب في السياسة على هواهم فيرفعون الاسعار يوم يريدون الرفع ويخفضونها كذلك بمالهم بواسطة هذه الجريدة من التأثير في الافكار العامة ومنهم من يبتاع من الجرائد كلامها كما يبتاع منها سكوتها فدار اللعب في أمانة موناكو تدفع مشاهرات الى جميع الصحف الكبرى لتسكت عما يحدث فيها من ضروب الانتحار والخراب والتفجائع التي تنشأ من المقامرة كما تدفع مبالغ جسيمة أيضاً في أوقات معينة لتأخذ الصحف في حمد مرافق مونتكارلو ونزلها ودور تمثيلها وسواحلها وصفاء العيش فيها

وان أعظم علماء الاقتصاد لاتنشر له مقالة في موضوع مالي قبل أن يوافق عليها المصرف الذي ابتاع من الجريدة روحها المالية ليصرفها كما يشاء وبعد حادثة بناما التي ظهرت فيها رشاوى الصحف الافرنسية لم يعد يقدر الانسان أن يقرأ سطوراً في شأن مالي في جرائدهم إلا ويشك فيه

وهكذا أصبحت الصحافة الباريزية مقيدة في صورة حرة مطلقة ففي وسعها أن تضرب في كل ما تريد وتنزع كل أساس وتهاجم كل موضوع وتغتلب كل امرئ وتم عن كل عمل وتفتات على كل فرد ولا يحظر عليها الا شيء واحد وهو أن تكشف الغطاء عن الاسرار المالية فاذا فعلت يحكم على الكاتب والناشر والجريدة بأشد عقوبات العطل والضرر وكذلك إذا دلت على الطرق الاحتيالية التي يعيش بها المحل الملافي منذ سنين

وعلى ذلك فالجرائد هنا يجب أن لا تقرأ إلا بحذر شديد حتى مقالات الكيمياء أو التاريخ فانها لا تنشرها الا ولها منها ما رُب تظهر بعد أعمدة من نفس العدد أو في عدد تال ، وخف كل الخوف من الصحف التي تخدم الاحزاب حهاراً فان هذه تقاب الحقائق الناصعة وتجسم الحوادث أو تضعفها بحسب هواها وتستعمل من السفسة ما يضحك ويبيكي

فكان الصحف الباريزية جعلت لقلب الحقائق لا تقدر أن تسقط فيها على حقيقة خالصة من الشوائب فهي تزيد الى ضعف البشر الطبيعي وغلطهم وخطأهم أموراً تأتيها بذاتها بالقصد لتحريف الحق وتشويهه فمنها ما يخضع للحكومة في كل ما يكتب ومنها ما يخضع للاحزاب وكلهم خاضعون لزينهم وكثير منهم يقولون كل ما يريدون على شرط أن يحسن المرء دفع المطلوب منه . فقد قيل أن الرياء تكريم الرذيلة للفضيلة والصحف الفرنسية تكرم الحقيقة من هذا النوع أي أنها هي الرذيلة .

هذا ما اقتبسته من فكر الكاتب الفرنسي في هذا الباب وصاحب الدار أدري بالذي فيه وقد أجمع العقلاء الذين لقيتهم من أهل العلم والمطبوعات وغيرهم على أن الصحافة الفرنسية كلها ترأى وتلفق في أحاديثها وتكذب في رواياتها ماعدا جريدة «الامانته» أي الانسانية وهي لجوريس أحد زعماء الاشتراكيين تعيش من وارداتها الشرعية ولا تسف لتناول رشوة من أحد وان الصحافة الانكليزية أشرف غاية وأنبأ قصداً وأكثر مادة وأوسع مصادر أما أنا فعلت هذا التصريح من أصدقائي الفرنسيين بأن انكتر هي أرقى الام بأخلاقها والاخلاق هي معيار الام والجرائد مرآتها

ومن الصحف الباريزية ما يصدر صباحاً وأكثرها جرائد لا تهتم بالمسائل السياسية بل بالامور المالية والحركة الادبية كدور التمثيل والخطب وغيرها أما جرائد المساء فأكثرها يهتم بالسياسة فالطان والديبا من الجرائد المسائية والجورنال والماتين والبتي باريزين والبتي جورنال من الجرائد الصباحية والجرائد طبقتان قسم لعامة القراء وهي التي ينادى عليها المنادون في الشوارع

بأعلى أصواتهم وتباع في كل مكان فيقرأها البواب والحوذي والمساح والكساح
وسائق الاتوموبيل والشرطي والمرزوق وبعض التجار وذلك كأكثر الجرائد
الصباحية وقسم للطبقة العالية وأبحاثها لهم بالطبع مثل الطان والديبا والغولوا
والفيغارو وهذه لا ينادى عليها وتباع بثمان أغلى فالطان يبتاع عددها بثلاثة
فلوس أو خمسة عشر سائياً في حين تباع تلك الجرائد العامة بفلس واحد وهي
أكبر حجماً وأوسع مادة من هذه ولكن شتان بين مادة ومادة وحجم وحجم .
وجريدة الطان هي الجريدة الوحيدة التي تعني كثيراً بأخبار هذا الشرق
الادنى خاصة والسياسة الشرقية عامة وهي جريدة وزارية تقدر كل وزارة
تأتي وهذه بالطبع تعطى أخباراً وربما امتدتها بمعونة مالية وهي لاتذيل المقالات
السياسية والاخبارية باسماء كتابها على عادة معظم الجرائد السياسية وبذلك قد
يقع لها أن تؤيد اليوم في مقالاتها الاولى فكراً مخصوصاً ثم يجيء كاتب آخر
من الغد في نفس ذاك المكان من الجريدة فيضعف ذاك الرأي بعينه وينتقده
واعرف الجرائد بالشرق على التحقيق هي هذه وربما كانت جريدة الايكودى بارى
من جرائد الصباح أكثر منها مادة برقية اخبارية بدون تعليق على الحوادث
ومقالات الطان عن السياسة الشرقية تتناقل لأنها أقرب الى الثقة والتعقل من
غيرها ومع هذا تؤخذ بكل حذر شأننا مع عامة الصحف الافرنجية التي تقول
الحق ولكن إذا صادف هوى لها وهيئات أن تقوله بدون عوض . ولقد كنت
أظن جريدة الديبا وحدها ترتشى من السلطان عبد الحميد المخلوع ولكن عمت
هنا أن الطان أيضاً على ما فيها من الغمز واللمز بالدولة كانت لاتستكف من
قبض الخمسة آلاف ليرة من أمواله أن ذاك السلطان لتكتب على هواه يوماً لعلم
المخلوع بمكانة أقوالها في الاندية السياسية

وأنواع الجرائد هنا كثيرة ومنها اليومى الذى لا يكتب إلا في موضوع
واحد مثل جريدة « كوميديا » وهي تبحث في دور التمثيل والقصص التمثيلية
والفاجعات وغيرها ومنها جرائد للسباق مثل جريدة « الاوتو » وهي لنشر

أخبار سباق الحوافل « الاتومويل » وغيرها من أنواع السباق ومن جرائدهم ما هو خاص بتأجير الاملاك والعقارات ومنها الخصاص بطلاب الزواج وطلباته ومنها للازياء وأخرى للمطور والطوب ومنها للاخبار الخلاعية ولكنها مقصورة على طبقة خاصة تطبع مرأ وتوزع كذلك واذا رآها الشرطة صادروها وأنزلوا العقوبة الشديدة بكاتبها وبائعها ومشتريها

أما تنظيم ادارات الجرائد الكبرى فهو الغاية ولا سيما الامهات منها مثل « الماتين » وهي في أعظم جادة وبنائها أجل بناية وآلاتها الطابعة أحسن الآلات فيها اثنتا عشرة تطبع الواحدة مئة ألف نسخة في الساعة زرتها مع زهاء سبعين رجلا وامرأة رأيتهم سبقوني الى زيارتها فما رأيت نظاماً أتم ولا استعداداً استوفى من الكمال أوفى القسم ومن أحسن ما قرأته مما كتب فوق غرف المحررين « خلق المحرر ليكتب فلا تشغله فيما لا يعنيه » وزرت أيضاً إدارة البتي باريزين وهي دونها في الاستعداد وإن لم تكن دونها في الانتشار والنفاذ

الطباعة الباريزية

٢٦

المعنامرات في الفصول السالفة إلى تمن الباريزين في الامور الدوقية والطباعة من جملة فنون الذوق وان كانت تتوقف على علم وفضل وتجربة ، وأجور الطبع هنا غالية لغلاء الاسعار وأجور الدور والمنازل فالعامل الجيد لا يرزق أقل من نصف ليرة وأقل عامل لا يرزق أقل من أربعة فرنكات في يومه ولذلك ترى بعض أرباب المجلات وغيرهم من المؤلفين والطابعين يطبعون مجلاتهم وكتبهم في مطابع الولايات لرخص أجورها وجودة طبعها الذي لا يختلف عن المطابع الباريزية في شيء

ومن جملة المطابع العظمى التى زرتها مطبعة الامة أى مطبعة الحكومة التى أسسها لويز الثالث عشر سنة ١٦٤٠ ثم نقلت الى قصر الكردينال روهان من أجل القصور الباريزية القديمة المعروف بيت اساقفة سراسبورغ وقد أنشئت لها بناية هائلة فى شارع الكنفاسيون لضيق هذا المكان على سعته البالغ سطحها عشرة آلاف متر مربع

تدخل من الباب فرى فى فناء الدار تماثيل غوتنبرغ مخترع الطباعة والمتفضل على الانسانية معمولاً من البرونز فلا تمالك من الدماء له وذكر بيض ايديه على العالم ثم يأخذك الدليل فى الوقت الذى تعينه لك ادارة المطبعة ويطوف بك قاعات مسابك الحروف وفيها حروف فى ثمانين لغة واللغة العربية فى مقدمة لغات الشرق رأيناهم فى بعض الغرف كتبوا بيتاً من الشعر العربى ليمرن الاستاذ العملة على تعلم هذه اللغة فيحسنوا تنضيد حروفها بفهم

ثم طاف بنا الدليل قاعات التنضيد والتجليد والطبع والطى فرأينا كل شىء قد جعل فى مكانه اللائق به والعملة والعاملات يعملون فى مكان واحد كتفاً الى كتف وقد يتولى الاعمال الشاقة الرجال من دون النساء . وعدد العاملين والعاملات فى المطبعة يناهز الالف والخمسمائة وفيها ما يربو على ستين آلة طباعة على آخر طرز منها خمس آلات من المعروف بالروتاتيف وعلى مثلها تطبع جميع الجرائد الكبرى فى الغرب اليوم . وتنفق الحكومة على هذه المطبعة نحو تسعة ملايين فرنك مساهمة وفيها تطبع الجريدة الرسمية ومطبوعات الحكومة والنظارات ومناشيرها وفهارسها وأوامرها فالاستعداد فيها تام لكل ما تطلب الحكومة طبعه وليس فى وقتها متسع لطبع مطبوعات الافراد وناهيك بمطبعة حوت من الادوات ما يلزمها من سبك الحروف حتى التجايد وناهيك بكثرة أشغال حكومة الجمهورية التى تقع ميزانيتها وحدها فى ثلاثة آلاف صفحة كبيرة يطلب طبعها فى وقت قصير وهذا لا يتيسر الا بمطبعة متقنة جداً

ولهذه المطبعة معامل للتصوير الشمسى وطبع الصور والطبع المحفور والجوف .

والحفر على الخشب والحفر على النقش والحفر النائي على النحاس والزنك والطبع الملون وطبع الحجر والتصفيح والطبع المنحس وغير ذلك من التفنن في الطباعة . وتسمح المطبعة باطارة الطابعين بعض الحروف الغريبة من اللغات الاجنبية ولا تطبع من الكتب الا ما كان بلغة غريبة لا يوجد من حروفها في كل مطبعة وذلك لمحض خدمة المعارف والفنون

هذه جملة ما يقال في مطبعة الامة ولو جمعت مطابع مصر كلها مادانتها بالمكانة وكذلك لو جمعت مطابع الاستانة واضفت اليها مطابع الولايات العثمانية برمتها والمطبعة التي تنفق عليها الحكومة نحو أربع مائة وخمسين الف ليرة في السنة يستحيل على حكومة كالحكومة العثمانية والمصرية ان تقوم بمثلها وهي لا تنفق على المعارف كلها نحو هذا القدر من المال أو أكثر منه بقليل فنأمل

مدرسة فرنسا

٢٧

من المعاهد التي استغرقت شطراً كبيراً من وقتي في باريز دروس مدرسة فرنسا (كولييج دي فرانس) سهولة التلقى فيها في كل علم يخطر في البال ولأن هذه المدرسة ذكرتني بمدارس الاسلام أيام حضارتنا ، وقد جعلوا العلم مباحاً لكل طالب يلقنونه اياه بلا عوض

في شارع المدارس بالقرب من كلية السوربون قام ببناء عظيم أسسه فرنسيس الاول ملك فرنسا حوالي سنة ١٥٣٠ وجعل فيه درسين الأول لتعلم اللغة الرومية والثاني للعبراية وسمى المدرسة مدرسة الملك فرأت الكلية اذ ذاك ان قد استهين بها فأوعزت الى مدرسة اللاهوت ان تهتم بمدرسي مدرسة الملك بأنهما يدعوان الى الزندقة فحال الملك دون صدور الحكم عليهما وأضاف الى المدرسة

درساً في الفصاحة اللاتينية ليخلص وجماعته من تهمة الالحاد ، وما زال عدد الدروس يزيد على عهد كل الملوك حتى أضاف إليها هنري الثالث درس العربية ونابوليون الأول درس التركية ولم يبرح بناؤها ودروسها عرضة للقلب والابدال حتى على عهد الجمهورية الثالثة

ولقد أصبحت هذه السنة الدروس التي تلقى على النار مجاناً ٤٩ درساً يصح أن يقال فيها انها مجموع علوم البشر يتولى تدريسها أعظم أساتذة هذه البلاد وعلمائها ممن اشتهروا بفن أو علم أو لغة وصرفوا في البحث فيه شطراً مهماً من حياتهم ولم أر في هذه المدرسة أستاذاً ثقل سنه عن سستين الا بعض معاونين ممن يتجاوزون الأربعين ، وينتخبهم المجمع العلمي أو المجامع العلمية الخمسة ، وأساتذة المدرسة ويقبض الأستاذ عشرة آلاف فرنك في السنة ولا تتجاوز مدة الدروس ستة أشهر يتلو في خلالها درسين في كل أسبوع فقط

أما العلوم التي تلقى على جمهور المستمعين فهي (١) علم الأثقال التحليلي والسموى (٢) العلوم الرياضية (٣) علم الطبيعة والرياضة (٤) الطبيعة العامة والتجريبية (٥) الكيمياء المعدنية (٦) الكيمياء العضوية (٧) الطب (٨) علم الحياة العامة (٩) تاريخ الأجسام الغير العضوية الطبيعي (١٠) علم تكوين الجنين (١١) التشريح العام (١٢) علم النفس التجريبي (١٣) تاريخ العلوم العام (١٤) تاريخ تشريع المقابلة (١٥) الاقتصاد السياسي (١٦) الجغرافيا والتاريخ والاحصاء الاقتصادي (١٧) تاريخ العمل (١٨) جغرافية فرنسا التاريخية (١٩) تاريخ الأديان (٢٠) الفلسفة الاجتماعية (٢١) علم الاجتماع الاسلامي (٢٢) علم الجمال وتاريخ الفنون (٢٣) علم الكتابات والعبادات الرومانية (٢٤) الكتابات والعادات اليونانية (٢٥) الكتابات والعادات السامية (٢٦) الآثار المصرية وأصول لغاتها (٢٧) الآثار الاشورية وأصول لغاتها (٢٨) الآداب العبرانية والكلدانية والسريانية وأصول لغاتها (٢٩) الآداب العربية واللغة العربية (٣٠) النقود القديمة ونقود القرون الوسطى (٣١) آداب اللغات الصينية والتترية والمنشوية

ولغاتها (٣٢) آداب اللغة السنسكريتية (٣٣) آداب اللغة اليونانية (٣٤) فقه اللغة اليونانية (٣٥) تاريخ آداب اللاتينية (٣٦) التاريخ الوطنى والعاديات الوطنية (٣٧) الفلسفة الحديثة (٣٨) اللغة الفرنسية وآدابها فى القرون الوسطى (٣٩) اللغة الفرنسية الحديثة وآدابها (٤٠) أصول اللغات الجرمانية وآدابها (٤١) لغات أوروبا الجنوبية وآدابها (٤٢) اللغات والآداب السلتيّة (٤٣) اللغة السلافية وآدابها (٤٤) علم النحو المقابل (٤٥) العادات الأميركية (٤٦) الرياضات (٤٧) تاريخ فن الموسيقى (٤٨) التاريخ العام والطريقة التاريخية (٤٩) أصول اللغات الهندية والصينية وتاريخها .

هذه العلوم التى تدرس فى مدرسة فرنسا ولا يستغرق الدرس منها ساعة يتلو فى خلالها الأستاذ زبدة علمه وبمحته ولا يكثر المستمعون الا فى بعض الدروس التى رزق أساتذتها فضل بيان وطلاقة لسان وأكثر الحضور غرباء أى غير فرنسيين وفيهم كثير من الفتيات طالبات العلم ممن قصدن فرنسا من ألمانيا وانكلترا وروسيا والنمسا وإيطاليا وبلغاريا ورومانيا والصرب والسويد واسبانيا وأميركا ليفتحن من مدارس باريس ويحكمن اغتها الجميلة . فكان أهل هذه العاصمة زهدن فى حضور هذه الدروس المجانية وأزهد الناس فى الرجل أهله وجيرانه ، وان دروساً يعد من جملة أساتذتها لفاسور وبول لوروا بوليو الاقتصاديين وماسبرو وغانو الاثريين وجوليان ومونو المؤرخين وبرجنون وريبو الفيلسوفين وغيرهم من الأئمة الأعلام لحرية بأن يستفيد منها كل طالب ويفتخر من درر بحورها عاشق العلم

وأن هذا المعهد ليولي فرنسا شرفاً ليس وراءه غاية ويدل على تقانها فى نشر المعارف والأخذ بأيدي القائمين عليها وينادى بلسان الحال والمقال على توالى العصور والأجيال ان فرنسا اذا هرمت فى سياستها وأخلاقها فهى على الدهر فتية فى جمال علمها وجدة حكمتها .

التجارة الباريزية

٢٨

لم يكتف الفرنسيون بل الغريبيون بما بلغوه من أسباب الراحة والرفاهية بل تراهم يعملون ليلهم ونهارهم لثلا يسبق بلد بلداً آخر أو مملكة مملكة أخرى كأن المنافسة التي هي من اعظم عوامل الارتقاء قد تجسست في صدر الكبير والصغير من الافرنج فكان من آثارها ما يبهشنا من تلك الحضارة الراقية والسعادة الشاملة

رأيت روح الاجتماع مستحكمة في أعمال الاوربيين فلا يكاد يأتي زمن قليل حتى تصبح جميع مشاريعهم وأعمالهم شركات وجمعيات ليخفى عمل الفرد ويظهر عمل الجماعة ويتراجع ضعف الواحد أمام قوة المجموع فقد ظهرت لتلك الامم نتائج الاشتراك جماعة ظهوراً لا ينكره الا من يكابر حسه ويفش نفسه فانشأ من كانوا الى الاتفراد في متاجرهم ينضمون بعضهم الى بعض ومن عاشوا بالوحدة يربحون ويخسرون فلا يدري بهم أحد عدلوا عن سالف طريقةهم واقتدى المتأخر بالمتقدم أو العناصر اللاتينية والسلافية بالعناصر الانكليزية السكسونية مثال ذلك مدينة باريز مهد الحضارة اللاتينية فانك تجد معظم مشاريعها ومتاجرها ومصانعها لشركات ومشاريع الافراد ومتاجرهم ضعيفة ضئيلة لا تكاد تحيا حتى تموت وكلها آيلة طوعاً أو كرهاً الى الاندماج في سلك الاشتراك مع الجماعة ، دخلت كثيراً من مخازن باريز فكنت أشهد على قلة المامى بفن التجارة روح الجماعة مرفرفة عليها وتعدد القوى زائدة في نماها وحسن الذوق وسلامة الابداع تتخلل أرجاءها وتزيد بهاءها .

باريز أعظم بلد تصرف فيه السوق المالية والتجارية والصناعية من فرنسا ورؤوس أموالها مقدمة جميع متاجرها ولا تفوقها في ذلك إلا لندرا ، وقد

بلغ عدد مافى باريز من البيوت المسالية والمصارف وشركات الضمان فقط زهاء
الذى محل توشك أن تكون كلها لشركات وأعظم متاجر باريز بل فرنسا تجارة
الاطعمة المحضرة والامتعة والثياب والازياء وكلها مهمة جداً لا بكثرة عددها
بل بمكانتها ونخامتها وانتظام أعمالها

زرت بعض هذه المخازن من مثل لابل جاردنيير والبرنتان والبون مارشه
واللوفر ولافايت ودوفايل وكل واحد منها يبتاع بما حوى قطراً واسعاً من
أقطار الشرق ويحتاج وصفه إلى الكلام ساعات على شرط أن يكون المتكلم
عارفاً بالتجارة وما يتصرف أو يتوقف عليها وتتوقف عليه وكل مخزن يعد
مستخدموه وموظفوه بالمئات فى مخزن دوفايل وهو لفرش الدور والقصور
وما يلزم لها من الاثاث والخرثي والرياش والاولاني والسرر والصناديق والمقاعد
والمتكآت والكراسى وأدوات الطبخ وكل ما يتصرف تحت أنواع الزينة والتبرج
والبدخ والرفاهية ما يأخذ بمجامع القلب ويعد من أغرب غرائب الغرب . ولا
يقدر المرء أن يطوف هذا المخزن في أقل من ثلاث ساعات إذا أحب أن يلقى
نظرة واحدة على ما فيه من التحف والأمتعة الثمينة وهو قصر نفيم جداً لم
أر أجمل من نقوشه البديعة وبنائه العظيم سوى متحف اللوفر ومتحف فرسال
ودار المجلس البلدى الباريزى وفى مخزن دوفايل محل للتمثيل ومحل للموسيقى
ومحل لالعباب السينما وغراف يختلف إليها الزائرون باجور معتدلة جداً والغرض
منها أن يمشوا ببعض مخازن ذلك المحل الكبير فيكون مرورهم بها والقاء أنظارهم
عليها بمثابة اعلان عما فيها من الاعلاق النفيسة وببركة الاعلان يشتري من لم يكن
تحدثه نفسه بالشراء

ومن الغريب أن هذا المكان الذى لا يشبه فى الفخامة الا أرقى قصور
الملوك والامم كما قلنا آخذ الآن فى توسعة مخازنه لانها ضاقت به على سعتها
وما أدري ما هو رأس ماله ولا مقدار أرباحه وعدد مستخدميه وغاية ما رأيت
أن مصرفه أشبه بمصرف كبير بل هو فى سعته وكثرة مستخدميه أشبه بمصرف

الكريدى ليونيه في القاهرة لافى باريز فانه هناك العجب العجيب بعينه
وقرأت في احصاء أخير ان مخزن لافايت أحب أن يزيد رأس ماله فقرر
مساومه أن يزيدوه اثنين وعشرين مايوناً ونصف مليون من الفرنكات ، فاذا
كان مخزن واحد زاد رأس ماله في جلسة نحو مليون ليرة عثمانية فكم يكون
أصل رأس المال .

ومما هو حرى بالنظر في المسائل الاقتصادية ان أهل باريز على شدة كرههم
للألمان يتعاونون في بلدهم البضائع الألمانية لخص أسعارها والتفنن في ابداعها
حتى كادت بضائع الألمان تأتي على بضائع فرنسامع جودة هذه ومتانتها وأصبحت
بذلك معظم البيوت التجارية لأناس أو لشركات من الألمان وغيرهم ومثل ذلك
قل على ما قرأته في احدى المجلات عن تجارة لندرا أو تجارة نيويورك فان القسم
المهم منها بيد الألمان يصرفون على الانكليز والأأميركان سلمهم وحكومة انكلترا
وأأميركا مع شدة حرصهما على مصلحة قومهما التجارية لم تستطعا بالتعاريف
الجرمكية ولا بغيرها أن تقيا سداً منيعاً دون تسرب البضائع الألمانية اليهم .
ولكن ألمانيا أو العنصر الجرمانى ومن لف لفه تحارب هذه الحرب التجارية
بسيف العلم والمعارف وسدود الدول لا تقوى على صد هجتها المعقولة .

ذكر الاحصائيون أن مدارس ألمانيا تخرج كل سنة أربعين ألف طالب
وييدهم الشهادات التجارية فأين يذهب هؤلاء الرجال بعد ؟ وهل لهم الا أن
يصرفوا متاجرهم في مشرق الشمس ومطلعها بالطرق الاقتصادية المدهشة ، فكم
رجل تخرج من البلاد المصرية العثمانية ياترى حتى الآن في المعارف التجارية
وكم طالب أتقن اللغة الألمانية منا حتى أصبح يكتب فيها ويترجم منها واليها كما
يكتب الفرنسية أو الانكليزية ويترجم بها ومنها .

قال لي أحد علماء الألمان أتدرى بأى شى غلبنا الفرنسيين في حرب السبعين
قلت لا أعلم قال غلبناهم لأننا كنا طرفين بما عندهم أما هم فلم يكونوا يعرفون

ما عندنا وأنا أقول ان اقتصارنا معاصر العثمانيين والمصريين والسوريين خاصة على تعلم اللغة الفرنسية في الأثر هو من الاحتكار الضار فيجب أن نعرف أو بعضنا لغة أمة كبرى تريد أن تحارب العالم حربا اقتصادية حتى لا يكون مثلنا مثل الفرنسيين مع جيرانهم الألمان قبل حرب السبعين جهلوا ما عندهم فحسروا في ماديّاتهم ومعنويّاتهم .

نعم نتوفر على الأثر من أوروبا كل ما تمتاز به مملكة من ممالكها فنحول وجهتنا بعد الآن الى جرمانيا لتعلم علومها واقتصادها ومتاجرها وبريتها ونأخذ عن فرنسا الزراعة والحقوق وعن انكلترا السياسة والعلوم والبحرية وعن إيطاليا الصنائع النفيسة ونجعل للغة الألمانية والإيطالية حظاً من عنايتنا حتى لا نكون حكرة مضرّة لحكومة خاصة من حكومات الغرب فنحن كما نريد في السياسة أن نعامل الدول كلهن بوثام يجب أن نأخذ عن كل دولة راقية أحسن ما عندها حتى لا نكون من الجامدين على أمة بعينها والجامدون في مسائل الدين كالجامدين في مسائل الدنيا لا يخلو حالهم من ضرر على المجتمع .

الاعلان أساس التجارة

٢٩

تقدم في الفصل السالف أن البيوت التجارية في باريز تباع ما تباع ببركة الاعلان عن نفسها وهنا مجال لان أفصل ذاك الكلام المجل فاقول : كل من زار مدينة أوربية أو أميركية من أبناء هذا الشرق الاقرب يأخذه العجب من وفرة الاعلانات وتقنهم في نشرها والفرنسيين في الاعلانات مقلدون لا مجتهدون قلدوا الأميركيين والانكليز وهؤلاء ينفقون عليها نفقات لا تكاد تصدق فقد ذكروا أن معمل الموازين ^(١) فيربانك وشركاؤه الذي كان ينفق

(١) المقتبس م ٢ ص ٢١٦

على الاعلانات نحو ثلاثة آلاف فرنك مساهمة أخذ اليوم ينفق نحو ثلاثة ملايين ونصف فرنك وقد كان خصص أحد معامل الصابون ثلاثين ألف ريال للاعلان عن مصنوعاته وهو اليوم يصرف ألف ريال في اليوم وتخصص المعامل الكبرى التي تباع بالمفرق في مدينة نيويورك وحدها زهاء أربعة ملايين ريال في السنة لنشر اعلاناتها في الصحف وفي مدينة شيكاغو يستخدمون البريد لنقل قوائم باعلاناتهم وقد اتفق أحد أصحاب المخازن لارسال طبعة واحدة من الاعلانات بطريق البريد ٦٤٠ ألف ريال وليس من محل في أميركا الا يصرف خمسة في المئة من أرباحه على الاعلانات وقد أنفق أحدهم ٧٥٠ ألف ريال للاعلان عن موسى له فباع ستة ملايين موسى وكذلك فعل توما بيشام بحبوه فصرف للاعلان عنها مليوني جنيه

فاشتهار أسم المعمل أو صاحبه من القطب الشمالى إلى القطب الجنوبى وترداده في أفواه أرقى الامم وأوحشها موقوف على كثرة التفنن في الاعلان عنه والبذل في هذا السبيل عن سعة حتى قال كارنجي أعظم أغنياء الاميركان : اذا أردت أن تباع قبعة بريال فانك تستطيع أن تباعها بريالين إذا وضعت اسمك عليها وذلك لانك تفهم الناس بان لأسمك بعض القيمة

وذكروا^(١) أن شركة ولن مى الاميركية وهى شركة معامل أصواف مؤلفة من ٢٧ معمل رأس مالها ٦٩٠ مليون ريال وكانت مجموع أرباحها سنة ١٩٠٢ ١٨٧٥٠٠٠٠٠ على حين بلغ مجموع المنسوجات الصوفية المصنوعة في الولايات المتحدة كلها ملياراً و٤٨٥ مليون ريال فبيدها جزء من ثمانية أجزاء من عمل الصوف ذكروا انها توصلت بفضل التفنن في الاعلان عن نفسها إلى أن كادت تلهم جزءاً عظيماً آخر من أرباح الشركات الاخرى ان لم تكن التهمتها حتى الآن

والطرق إلى ذلك مختلفة فمن ضروب الاعلانات الاعلان في الجرائد والمجلات على اختلاف أنواعها ووضع صفائح منحسة في الصفحة السابعة أو الثامنة اى

(١) كتاب الاعلان الراج المقول لارين

الآخيرة وإعلانات في شبك ودس الإعلانات في أخبار الجرائد وبين أخبار الرياضات والسباق ودور التمثيل والازياء وإدماجها في المقالات وتعليقها على حيطان الدور وفي شوارع المدن والقرى وعلى طول السكك الحديدية وفي أماكن النزهة والمناظر التي يسرح فيها النظر وفي عجلات الحوافل والترامواي والسكك الحديدية تحت الأرض وفوق الأرض وستور دور التمثيل والتصور وجميع الأماكن العمومية حتى المراحض وترسم الإعلانات على القرطاس الذي يضعه الكاتب تحت يده وعلى المقطع والسكاكين وعلبة عيدان الكبريت والدواة والبارومتر وكتب التقاويم وورق النشاف وبطاقات البريد وتجعل من الورق الملون والمقوى والزجاج والخزف والخشب والمعدن وغيرها. وتبدو في المساء بالوان مختلفة مقطعة بادية بالكهرباء وغيرها مما يطول ذكره

ومن غريب تفننهم في الإعلانات أن مخزن أدوات نحاسية وحديدية في ليفربول أخذ يعلن في جرائدها بأنه يقدم مفتاحاً بلائمن لكل من يضع مفتاح باب أو خزانته بهذه الوساطة كان يأتيه المضيع فينصح له المحل بأن يبتاع قفلاً كاملاً ويغير القفل القديم حتى لا يقع المفتاح في يد لص وربما هانت عليه السرقة فبعض الناس يبتاعون وبعضهم يكتفون بأخذ مفتاح بلائمن ولكن النصيح يفعل في أكثرهم. واخترع أحد البدالين من بائعي المأكولات المحضرة في لندرا طريقة للإعلان عن محله بأن اغتم فرصة حضور جوق تمثيل فابتاع مئات من الكراسي لمستخدمي محله أدخلهم على ثقته فتحدث القوم بذلك وذكرته الجرائد فحصل المقصود للمحل بالإعلان عن نفسه. ومن غريب تفننهم أن أحد مخازن القبعات في بلتيمنور في أميركا أعلن في الجرائد أنه يريد أن يعرف أحد النساء المحكوم عليهن بالقتل فاهتدى إليها وأعطاهها مئة ريال على أن تقول قبل ضرب عنقها هذه الجملة: « كل ما أستطيع أن أقوله الآن هو أن محل المستر بلانك يعمل أحسن القبعات بريالين » ثم قطع عنقها واغتنى صاحب المعمل.

والأمثلة على ذلك كثيرة ويكفي القاء النظر على أي حائط أو مجلة أو جريدة

لتعرف مبلغ تفنن الغربيين في الاعلان والاساليب في الكتابة التي يختارونها والصور المتنوعة ومنها المضحك وغيرها الجدى وبعضها لطيف وآخر بشع ومنها السياسى والادبي والعلمى وقد جعل الانكليز السكسونيون للاعلانات قواعد حتى صارت علما من العلوم لا يبرز فيه إلا من حسن ذوقه وعرف النقش والرسم والتصوير والطباعة وكان ملماً بالاقتصاد السياسى وعلم النفس ومحيطا بعالم المالية والصناعة والتجارة والجرائد والمجلات وكان ذاهبة بالتفنن والادب والخطابة حاسباً كاتباً مقنماً يعرف التفنن في المسائل الحاضرة أويحسن علم الحال

ولا تعيش معظم الجرائد والمجلات الكبرى إلا باجور اعلاناتها حتى أن أجرة صفحة واحدة مرة واحدة في جريدة « لادى هوم جورنال » بلغت ألف جنيه ويؤخذ من احصاء صدر سنة ١٩٠٠ أن في الولايات المتحدة ١٨٢٢٦ جريدة ومجلة بلغ مجموع ما يطبع من اعدادها من كل نسخة ٣٣٤ر٢٩٩ر١١٤ ومجموع ما تطبعه في السنة ٧٤٩ر١٤٨ر١٦٨ر٨٠ وبلغ مجموع ايرادات تلك السنة ٢٥٠،٩٤٨،٨٧٨ فرنكا منها ٦٣٥،٣٠٥،٤٧٩ فرنكا من اجر الاعلانات أى ٥٤،٥ في المئة من مجموع دخلها وتطبع بعض الجرائد نسخاً خاصة بنشر الاعلانات فقط وتوزعها على مشتركها ومن الجرائد ما يطبع غير الاعلانات وتوزع مجاناً : ويصرف أحد بيوت الشباب في فيلادلفيا نصف مليون فرنك في السنة أجرة صفحة واحدة من احدى الجرائد الكبرى في تلك المدينة اسمها لوكورد ويصرف مخزن آخر يريد منافسته مليون فرنك على أربع جرائد . ومن كتاب الاعلانات من يوزق ألف ليرة في السنة

ومن الاعلان الغريب أن بعض التجار ليس لهم بيوت ولا مخازن بل هم يطبعون اعلانات وينشرونها في قوائم خاصة وعلى صفحات الصحف والكتب والرسائل فيرسل الطالبون بالبريد يطلبون منهم ما يشاؤون من بضائع ومأكولات وهم يرسلونها إليهم بالبريد أيضاً وهذه الطريقة اخترعت في الولايات المتحدة لان ثلاثة أرباع سكانها يعيشون في القرى والمزارع بعيدين عن مراكز التجارة

وأشغالهم لا تسمح لهم بالاختلاف إلى المدن لا بتبائع ما يشاؤون وبهذه الوسيلة يوفرون عليهم غناء التعب والمساومة ويصلهم ما يشتهون وهم في أعمالهم وناهيك بما في هذه الطريقة من تبادل الثقة بين التاجر والشارى وفي شيكاغو وحدها تباع مثل هذه المحال التجارية في السنة بما قيمته ملياران وخمسمائة مليون فرنك وأن ثلاثة محال منها لتأخذ وحدها كل يوم خمسة وعشرين ألف رسالة في طلب ما يلزم أصحابها . وقد حسبوا أن عشرة ملايين أي ثمن أهالى الولايات المتحدة يتناغون حاجياتهم على هذه الكيفية

وان لأحد هذه المحال التجارية في شيكاغو زبناً يبالغون مليوناً في نسمة يتناول منهم في السنة أربعة ملايين رسالة وهذه الرسائل لا تفتح واحدة واحدة بل تجعل كل ستين منها في آلة تفتح كلها بلحظة ثم ترسل إلى مئات من البنات تجعل كل قسم مع قسمه وكل طالب مع ما يضارعه وتجعل في لولب كهربائية لا تقل عن خمسة عشر ألف لولب وترسل في أسرع ما يمكن إلى البيوت التي تقدم للحل طلباته وهي لا تقل عن ٧٧ ألف نوع فتأتي كلها على جناح البرق بحيث يكون العمل ما أمكن مستغنياً عن الأيدي الكثيرة على أن محلاً واحداً من هذه المحال التجارية التي تباع بالمراسلة عنده من المستخدمين ٦٢٠٠ مستخدم ولم يكن صاحبه قبل ربع قرن يملك ليرة واحدة وثروته تعد اليوم بملايين الأيرات والناس يطلبون إلى محله وإلى غيره من المحال التي على شاكلته كل ما يخطر ببالهم ومنهم من يطلبون أو يطلبن الزواج بواسطته

وعلى الجملة فانك لا ترى في ديار الغرب محلاً تجارياً أو معملاً أو مشغلاً بالفنون الجميلة بل ولا طاماً ولا كاتباً ولا صانعاً إلا وينفق جزءاً من ماله على الاعلانات ليربح المئة مئات وللإعلان يد طولى في طامة الأعمال الصناعية والزراعية والعلمية ولولاه ما رأينا المخازن الكبرى والمعامل الكبرى والجرائد الكبرى فعسى أن يقتدي الشرق بأخيه الغرب في هذا السبيل فيعلن خصوصاً عن أصقاعه الجميلة لجذب السياح إليها ويربح منهم مئات الألوف من الأيرات كما فعلت سويسرا

واغتنت بعد فقرها بكثرة تشويق العالم الى زيارة ربوعها وكما فعلت فرنسا وايطاليا والمانيا وغيرها من أصقاع أوربا وأميركا مثل مدينة دالاس في ولاية التكساس في الولايات المتحدة فان أهلها كانوا سنة ١٨٨٠ عشرة آلاف نسمة فازمع بعضهم أن يؤسسوا نادياً سموه نادي المئة والخمسين ألفاً أي مدينتهم ستكون سنة ١٩١٠ مئة وخمسين ألف نسمة وما برحوا يتذرعون إلى ذلك بكل حيلة حتى بلغ عددهم سنة ١٩٠٤ ٨٣ ألفاً وتوصلوا الى أن قال الرئيس روزفلت في خطاب له أن شمالى التكساس هو حديقة الرب ومدينة دالاس تطالب وبحق لها ذلك أن تكون نقطة دائرة هذه الحديقة

نعم إن الاعلان أساس من أسس الثروة اليوم بل هو سبب من الاسباب المعقولة المشروعة وأثره في الاعلان عن الاشخاص ظاهر وكم من نابه اشتهر بتحدث الناس في أمره ومن آخر خمل ذكره لانه لم يعرف كيف يتوصل إلى الشهرة فعاش ومات ولم يدربه أحد فاللهم اجعل الشرقيين من النابيين بحق لا الخاملين المجهولين

دور التمثيل والانس والاجتماع في باريس

٣٠

ان ما شهدته من التمثيل العربي المنحط جداً في الديار المصرية والشامية زهدنى في التمثيل على أنواعه فصرت لا أختلف الى دار تمثيل الا متكارها وذلك في المدة الطويلة لقلة غنائه واتقطاع الرغبة فيه وأعلل ذلك بأن التمثيل لم يعمه العرب أيام حضارتهم بل لم يكن لهم ما يشبهه في قرطبة ولا في بغداد ولا في دمشق ولا في القاهرة أيام عزتها ولذلك قلما مال أبناء العرب اليه ميل الغربيين له وقدروا منزاياه حق قدرها .

ولما حلت باريز كان من أوائل المسائل التي توخيت دراستها حالة التمثيل في الغرب والسر في توفر أهله عليه وخدمتهم له كما يخدم الشعر والموسيقى والخطابة بل جعلوا هذه الفنون خادمة للتمثيل ، وأصبح عندهم من ضروريات الحياة كالطعام والشراب لا حياة بدونهما وكذلك التمثيل لا حياة روحية بدون الاختلاف الى دوره ولو مرة في الشهر ان لم يكن مرة أو مرتين في الأسبوع .

والتمثيل في باريز من أعظم ملامهيا وقل ان تجتمع لعاصمة ما اجتمع لها من ضروبه ولشدة عناية الحكومة به تنفق من مالها كل سنة أربعة دور تمثيل مبلغاً تستعين به على تحسين حالها فتمنح الأوبرا ثمانمائة ألف فرنك والتياترو والفرنسوية ٢٤٠ ألف فرنك مع الدار وتعطى الاوبرا كوميك ٣٠٠ ألف وتعطى الاوديون ١٠٠ ألف فرنك وفي باريز ٥٣ دار تمثيل كبرى ذهبت الى أشهرها مثل الاوبرا والتياترو والفرنسوية والاوديون والشاتليه وساره برنارد والفودفيل وغيرها

وكنت كلما ألفت اصطلاحاتهم في أحاديثهم وحركاتهم وسكناتهم ومظاهرهم ورقصهم وغنائهم يتبين لي سر تفالي الغريين بالتمثيل وانه حقيقة مدرسة تهذيب وفضيلة عملية ودار سلوى وارتياح أرواح فلا عجب اذا عدوه من أكبر العوامل في نهوضهم وتثقيف مجتمعاتهم ، وشغفوا بفصوله ولا شغف الشرقي بفصوله وحرص الفرد منهم على ساعاته حرصه على عزيز أوقاته

أما دور التمثيل فهي قصور نفخة هندسوها على ضخامتها بحيث لا يحرم الحضور على اختلاف درجاتهم من سماع ما يقال على مسارحها ورؤية ما يمرض فيها من المشاهد والمناظر . وكفى بأن دار الاوبرا كلف بناؤها ثلاثين مليون فرنك وذرعها أحد عشر ألف متر ، وأقل دار تمثيل تساوى عشرات الألوف وبعضها مئات الألوف من الليرات وان مما يهيج جوق الموسيقى في الأوبرا وقد حزرته بمئاتي شخص وجوق الممثلات والراقصات والممثلين على المسرح وماأظن جهرته تقل عن خمسمائة .

واذا عرفت أن الاوبرا تدفع لأحد ممثليها ٢٢٠٠ فرنك كل ليلة أى ١٢٨

ألفاً عن ٦٤ ليلة في السنة وتدفع لغيره من الممثلين رواتب تختلف بين ٨٥ ألفاً الى ٣٠ ألفاً ، وعن كل ليلة يغني فيها كاروزو عشرة آلاف فرنك وتتناول بعض الممثلات أربعة آلاف فرنك في الشهر جاز لنا أن نستقل اعانة الحكومة للاوبرا ونحكم على كثرة دخلها وخرجها

ولقد كنت أتمثل نفسي في حضرة أعظم فصحاء الأرض وعلماء الاجتماع والنفس ساعة تنتهي الى مسمى أصوات الممثلين والممثلات ، وتنفتق ألسنتهم بكلمات الحكمة والادب ، ويشخصون الفضيلة في أبهى مظاهرها كأنك تراها فلا أتمالك من توفير الممثلين والممثلات واكبار فائدة التمثيل المدارس لتنشئة الصغار في وقت معين من السن ودور التمثيل مدارس دائمة للصغار والكبار تلقنهم من أيسر السبل حكمة وآداباً وتلقنهم عبرة مفيدة وفكاهة رشيدة

حضرت رواية « مثل الاوراق » في الاوديون ورواية « الباريكاد » لبول بورجه في التودفيل ورواية « جان دارك » في تياترو ساره برنارد ، ورواية الجندي الصغير في الشاتليه فكان يخيل لي وأنا أسمع وأرى أن الامر واقعي ، وأن هذه المشاهد حدثت الآن وقد اجتمع جمال الصوت الى جمال الوجوه الى جمال الكلام الى جمال الهندام الى جمال المكان الى جمال النظار ، وأقل هذا مما يستهوى النفس فلا تدري أي شيء ترى ولا أي فائدة تعي

وما أظن أكبر متنطع لو حضر التمثيل في مثل هذه الدور العظمي يستطيع أن يعيب شيئاً مما يشهد ، وأي عين لا تقع على ساره برنارد أشهر ممثلة فرنسوية وهي في الخامسة والستين من عمرها تمثل دور جان دارك وهي في التاسعة عشرة فتظهر كأنها هي بصوتها وحركتها ونضرة وجهها ولا ترتاح وتعجب وأي أذن تسمع الحكمة في رواية الباريكاد يقولها أحد الممثلين بصوت رخيم « ان الطبقات الاجتماعية كالام يضيع حقها في حفظ ما لم تقو على الدفاع عنه » ولا يفكر طويلاً .

ولقد رأيت في دور التمثيل حتى ما يوصم منها بأن فيه شيئاً من الخلاعة مثل

« مولن روج » أن الأدب يغلب على السامعين والناظرين . وأن قاعات الاسراحة بين الفصول ليسير فيها الخرد العين كاسيات عاريات معطرات متبرجات ولا ترى الا من يفض الطرف حياء وأدبا . والغالب أن النساء يلبسن لليلالي التمثيل أجمل ثيابهن وازيائن كأنهن في بيوتهن وبين صويحباتهن وأصحابهن ، وقلما تراهن في الشوارع الا مكتسيات من اللباس بما خف محمله وقل ثمنه

أما سائر أماكن الطرب كمحال السماع والموسيقى والمراقص العامة فكثيرة جدا في باريز وأحسنها ما كان على جوانب الجواد العظمى أو بالقرب منها ويكون فيها المرء بحسب مبلغه من التهذيب ، وموسيقى الافرنج وعزفهم وزفهم يستحسنها الشرقي مع طول الالفة لها والالسة بها . ومن لم يعرف عندهم ولو أحد هذه الأنواع الثلاثة استغربوا أمره وعدوه محروما من لذائذ الدنيا ساقطاً من رسوم الهيئة الاجتماعية ، ولكل قوم عاداته وأخلاقه يحرص عليها كثيراً ولا يرى فيها حرجاً ولا زكيراً سنة الله في الدين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

من باريز الى الامستان

٣١

قضيت شهرين اثنين في هذه العاصمة طفت المعاهد ورأيت المشاهد وعرفت العامل الجاهد وتبينت العالم المجاهد وطعمت الجشب والشهى من الطعام ووصلت السير بالسرى وعمل الليل بعمل النهار ، ورأيت العملة في حاناتهم ومطاعمهم وواكلت الاغنياء في مقاصفهم وشاركتهم في نعيمهم واختلطت بطبقاتهم أسمع عباراتهم ولم أستنكف من غشيان كل مكان أرجع منه بفائدة مستظلاً طلع خلق جارياً من الاختبار فيه على عرق فكانت عيني تمل النظر وأذنى تسام السماع

وذهني يتأفف من التفكير وقلي يتخوف كثرة الوعي . ومع ما صرفته من الوقت والقوة خرجت من هذه المدينة وفي النفس منها أشياء لم أتمكن من درس معالمها ومجاهلها ولا سيما أما كن الرياضات البدنية واللعب على اختلاف ضروبه وزيارة مجارى العاصمة تحت الأرض وسراديبها والاعتبار بقبورها ومدافنها وهي مزينة كقصور الاحياء ومقطعة الى طرق ومناطق .

وفي يوم بدأ نهر السين بفيضانه المشئوم الذي طغى على السدود والسكرور فدكها وبثقها وأودى بالاموال الجسيمة من ناطق وصامت ركبت القطار وقت الظهر الى الحدود الالمانية فكان نهر الموز والمارت هائجين حتى طفت مياههما على السهول والاوودية ولم يصل القطار الى نانسي على الحدود ، ويبلغ ستاسبورغ في أرض الألمان وقاعدة الاكزاس الا وقد انقابت تلك الأمطار ثلوجا وذاك الهدير سكوتاً ، ولون تلك المياه السكدرية بلون الثلج الأبيض الناصع وبلغنا مونيخ عاصمة مملكة بافيرا الالمانية صباح الغد ، فوقف القطار زهاء ساعتين فرأيت أن لأضيع الفرصة فأخذت أطوف المدينة ولكن كانت الثلوج غمرتها فلم أر منها الا واجهات الابنية ورؤوسها وهنا تمثل لي النقص وأحسست بالعجز وشعرت بالغربة وأنا التفت عن يميني وشمالى فلا أسمع الا الالمانية التي لا أعرف منها أكثر مما أعرف من الكردية وقد تركت بعض رفاق لي في القطار ومنهم بولونيون يتكلمون بالفرنسية تطيب نفسي بمحادثتهم ومفاكهتهم حتى اذا عدت آخذ مكانى من القطار اجتاز بنا بعد قليل في أرض النمسا وهكذا حتى وصلنا مساء اليوم الثانى الى فيينا عاصمة النمسا .

وعلى ذكر اللغة لا بأس بأن أقول أنى يوم دخلت فرنسا لم أشهد وحشة ولم أشعر بغربة لمعرفى بلسان أهلها واطلاعى على تاريخهم وعاداتهم فكنت كأنى داخل ولاية من الولايات العثمانية التركية أو قطراً من الاقطار العربية في غربى آسيا أو شمالى أفريقية ولما انتقلت من ستراسبورغ شعرت بتغير العادات واللهجات وأيقنت بأن الغريب الذى يزور بلداً لا يعرف لغة أهله كالاصم والاعمى وهذا

ماعاقى فى الاكثر عن زيارة انكلترا والمانيا خلال هذه الرحلة مع شغفى بمحاضرة هاتين الامتين لانى استصعب أن أرى غيرى بعيون غير عيني وآذان غير أذنى قضيت فى فينا يومين استرحت فيهما من وعشاء السفر واطلعت على بعض معاهدها الا أن الثلوج التى بلغت نحو ذراع طاقتنى عن اتمام الزيارة فركبت ثالث يوم بعد الظهر القطار قاصداً بلاد المجر فاجتزنا عاصمتها بودابست فى الليل ووقف القطار فيها ساعة لم أتمكن فى خلالها حتى ولا من رؤية المحطة وعدنا الى قطارنا حتى نخطينا من الغد أرض الامبراطورية الى أرض البلقان ولم يكد القطار يجتاز نهر الطونة حتى تمثل أمام خيالى تاريخ هذه البلاد ، وبيننا كنت أذكر وقائع العثمانيين فى سلاسترا والبروج المعروفة ببرج العرب ، وأذكر تلك الدماء العزيرة التى أهرقت على ضفاف الطونة لفتح هذه البلاد ركبت معنا من أول محطة فى بلاد الصرب فتأتان صريبتان فى الخامسة عشرة من عمرهما عليهما سياء الحشمة والادب فسألت الرفيقة رفيقتها أن تغنى شيئاً فالتفتت اليها ، وكان معنا رفيق بلغارى يعرف التركية فاستأذن فى ذلك فقلت له لا بأس فاندفعت الفتاة تغنى بنغمة على ايقاع غريب فاضت له تقسى بالدموع خصوصاً وقد جاءها الغناء وهى تفكر فيما أصابنا فى هذه الديار من الشقاء . فعجب رفيقى البلغارى وقال لعلك فهمت هذا النشيد الوطنى الصربى قلت لم أفهم ، وإنما تأثرت من النغمة ومن أمور أخرى فسألنى ما هى فلم يسعنى الا أن بحث له بذات تقسى ، ولما ذكرت له كيف تقدموا هم وتأخرنا من بلاد هواؤها عثمانى وسماؤها عثمانى ، وأكثر عاداتها عثمانية عذرنى على شعورى بما فيه من فضل أدب .

ووقف القطار ساعتين فى بلغراد عاصمة الصرب فاغتذمت الوقت لزيارتها وهى نظيفة لطيفة صغيرة حرة بأن تكون قاعدة لتلك المملكة التى يقطعها القطار طولا بأقل من عشر ساعات وزرت من الغد صوفيا عاصمة بلغاريا وهى أجمل وأضخم منظمة على مثال المدن الاوربية ويغلب الادب أهلها وكثير منهم يعرفون التركية ، وقد وقفنا عليها نحو ست ساعات تمكنت أثناءها من درس معالمها

وحداتها ومنتزهاتها وبعض قصورها وهي أقرب الى أن تكون مدينة شرقية منها الى أن تكون مدينة غربية ويقال انها ترتبى سنة عن سنة ارتقاء بحسدها عليه حتى الاوريون الراقون وعجبت لما سمعت بعض الالفاظ التركية يستعملونها مع اللغة البلغارية حتى الآن كأنهم تركوها عضوا أثريا يذكرونهم بأيام حكم الاتراك عليهم .

وعند الظهر سار بنا القطار يقطع بلاد البلغار ووصلنا إلى جسر مصطفى باشا في ولاية أدرنه أول التخوم العثمانية عند العشاء وهناك جاءنا رجال شرطتنا يدممون ويرقون ويرعدون يحكمون على هذا بالجزاء النقدي ويعفون عن ذاك ويطلبون من هذا جوازاً ومن الثاني أن ينبشوا صوانه وهميانه ومن الثالث أن يفتشوا صندوقه ويراقبوا كتبه والخلاصة تغيرت معنا الحال من الاعلى إلى الادنى حتى بلغنا بلادنا فرأينا الانحطاط بادياً عليها في كل شئ وادارتها هي تلك الادارة الاستبدادية بعينها لم يعدل الدستور من شدتها ومازلنا على ذلك حتى بلغنا صباح الغد الاستانة عاصمة سلطنتنا العثمانية

عاصمة السلطنة العثمانية

٣٢

صقع جميل ، وسواحل بدیعة ، ومناظر رائقة ، وسما صافية ، ورفاهية مفرطة ، وأنس دائم ، فمن المضيق الى الخليج ، الى جزر البحر ، الى منتزهات منقطعة القرين ، الى غابات ملتفة ، وجبال مكسوة ، وعيون خرازة ، وكل ذلك بهجة النفس والخطار وهذه هي الاستانة وأحيائها وضاحتها .

— أما عمرانها فصورة مكبرة من عمران الولايات لانظام ولا شوارع منظمة ولا طرق معبدة ولا راحة للراكب والمسائر ولا للمقيم والنازل وغاية ما فيها

من مصانع وآثار قصور السلاطين والجوامع الكبيرة الزاهية التي أنشأوها منذ عهد محمد الفاتح إلى يومنا هذا وبعض تكن ومدارس عالية حديثة لا شأن لها من حيث فن البناء

والاستانة من حيث قوتها المادية ضعيفة ضئيلة ، نصف أهلها أتراك يبلغون نحو ستمائة ألف والنصف الآخر أروام وأرمن وأكراد وأرناؤد وعرب وغيرهم من العناصر العثمانية ويغلب على الأتراك الاتكال لأنهم مازالوا حتى بعد الحرية يعتقدون من أنفسهم الغناء والسؤدد ، أكثر من بقية العناصر ويتوهمون أنهم العنصر الحاكم ولذلك قلما ترى بينهم تاجراً معترفاً أو زارعاً كبيراً أو مالياً دراية يعيشون كلهم إلا المرتزقة والباعة عالة على الأمة لا يعرفون غير تقلد الوظائف الادارية والعلمية والقلمية والعسكرية

فالاستانة من هذه الوجهة مدينة الاتكال المجسم يعيش أهلها كالحملة الطفيلية على عنق الولايات ، ولكم خربت ولاية أو لواء أو قضاء ليحمر بها احدهم مصيفاً له على ضفاف الخليج أو في جزيرة الامراء ويقتنى من الجوارى والسراري والعبيد بقدر ما تطيب له نفسه .

ولا اهل الاستانة فضل أدب ولين جانب عرفوا به منذ القديم فترى الواحد منهم يعامل ملك باقصى اللطف والظرف حتى يرضيك وفي باطنه على الاغلب يسر لك غير ذلك وهذا الخلق عام في عمال النظارات والادارات الكبرى ولولا ذلك ما انصرفت وجوه أرباب الاشغال من سكان الولايات الى الاستانة يقصدونها لكشف ظلامه ونيل رتبة ومرتبة وراتب .

صرفت في هذه العاصمة عشرين يوماً قابلت في خلالها كثيراً من أهل العلم والسياسة وكنت اتكأه في الاختلاف إلى المعاهد والناس إذ سئمت نفسي كل ذلك بعد باريز التي رأيت فيها من كل شيء أحسنه ومن العالم أرقام ولطالما اسودت عاصمة بلادى في عيني ووددت على الاقل لو كتب لى ان ازورها قبل الرحيل الى الغرب وامتناع النظر والحواس بمحضارته البهجة حتى لا ارى

الانحطاط بعد الرقي ولا الظلام بعد النور .

ومن جملة المعاهد التي هي جملة مقصدي وغاية مناي من زيارة الاستانة مجلسنا النيابي زرتة خمس مرات وأعضاؤه نحو مائتين وخمسين نائباً من جميع عناصر الدولة وأصقاعها تجد فيهم ذا العمامة البيضاء او الخضراء كما تشهد فيهم لابس الكوفية والعقال وثلاثة أرباعهم من لابسى الطرايش ولقد سمعت من أرباب العمام مناقشات راقية لم أكد أسمعها الا من النواب الذين صرفوا شطراً من أعمارهم في أوربا يتعلمون ويتمرنون ويدير حركة المجلس من النواب اليوم نحو عشر أعضائه شأن مجالس العالم كلها فان أرباب العقول الراقية والمضاء الكبير قلائل في كل طائفة . خصوصاً ومجلسنا مابرح مطلقاً ويرجى أن يكون في الانتخابات المقبلة أرقى مما هو الآن

رأيت النظام قليلاً في المجلس يبدأ قبل الظهر بالنظر في قانون كذا وبعد الظهر يتناقش في غيره قبل أن يكمله ومن الغد يتناقش في مسألة أخرى وينسى القانون أو اللائحة الاولى وذلك لانهم وسدوا رئاسته لرئيس اشهر بخدمته الحرية والشهرة قد تكذب . وكم وسدوا النظارات في هذا العهد الدستوري الجديد الى أناس اشتهروا بعلمهم وعقلهم في الدور السالف حتى اذا جاء الآن دور العمل ابانوا عن ضعف في المدارك وخور في العزائم وبضاعة مزجاة من العلم والعمل ونفس شريرة تعد قتل عنصر من العناصر قتلاً معنوياً لغاية بعيدة الحصول أسهل من تناول الكاس أو السلام على الناس

وكل أولياء الامر اذا حدثتهم في نقصنا والسعي لاصلاحنا شاركونك في حديثك وربما تظاهروا باكثر من غيرتك وحملوا أشد من حملتك فاذا أتت نوبتهم ليعملوا تراهم يقرون القديم على قدمه ان لم نقل يزيدون الحال أعضالا واشكالا . فهم فلاسفة قول لاعملة عمل وجريذتهم في أساليب لهم يتقنونها لا في ظلامه يرفعونها وولاية يرفعونها واصلاح يدخلونه .

ولا اغالى اذا قلت ان عمال الاستانة الآن صورة من صور العهد الحميدى

الا انهم يدعون الحرية وهم مضطرون الى الاسراع بمصالح العباد باقل مراوغة ومطاوله مما كانوا عليه في العهد الماضي أما الاصلاح الحقيقى فاذن من سيقومون به لهذه البلاد العزيزة لم يخلقوا بعد ونحن نكتفى من الحاليين أن يحتفظوا فقط بالحالة الحاضرة ريثما يتخرج جيل جديد يربى على أدب النفس وأدب الدرس وينشأ بعيداً عن أخلاق الحكومة الاستبدادية المطلقة التى غرست مبادئها الساقطة فى القلب واللحم والدم والعظم

المتحف السلطاني^(١)

٣٣

دخلنا هذه الدائرة الفخمة من بابها الغربى الكائن بجوار نظارة العدلية ومررنا أمام دار الضرب العامرة وبعدها دخلنا من باب آخر ينتهى إلى ساحة كبيرة بنى على أطرافها رواق ذو قباب أشبه بينيان التكايا ثم دخلنا من باب ثالث فاستقبلنا بهو كبير يسمونه غرفة العرض كان يجلس فيه الوزراء والامراء للمذاكرة والمشاورة وفى صدره مصطبة كبيرة يصعد إليها من درجة واحدة كان يجلس فيها السلطان متوارياً عن الاعين

ثم خرجنا من هذه الغرفة وصعدنا الى قصر شامخ يصعد إليه بسلم من رخام جدرانه مزينة بالقيشاني بناه السلطان مراد الرابع بعد رجوعه من بغداد على طرز قصر هرون الرشيد ومماه (قصر بغداد) وهو قصر مبنى على الطرز الشرقى بشكل مثنى منتظم تحيط به من الخارج ردهة ضيقة ذات منافذ تطل على الخمائل والبحيرات وتشرف على بحر مرمرة وقسم من البوسفور وأحياء

(١) لم تيسر لنا زيارة هذا المتحف فهدنا الى صديقنا شاكركم الحنبلى أن يزوره عنا فيكتب لنا هذا الفصل في وصفه فقل وأنا أشكره لفضله وعنايته .

القسطنطينية وضواحيها وبجانب هذا القصر دائرة (الخرقه الشريفة) وفيها الرءاء النبوى وبقية المخلفات والآثار النبوية

وخرجنا بعدئذ من هذا القصر ودخلنا قصرا آخر فيه غرفة كبيرة طولها نحو عشرين ذراعاً وعرضها نحو ثلاثة عشر ذراعاً يقال انها من بناء السلطان مصطفى الرابع ، وفي الجهة القبالية من هذا القصر قصر آخر بناه السلطان عبد المجيد ، ويسمونه (سلطان مجيد كوشكى) مبنى على الطرز الايطالى وهذا القصر أجمل قصر رأيناه هناك ومما يجدر بالذكر فى هذا القصر صفاء بلور النوافذ حتى أنك تظن النافذة مفتوحة لا بلور فيها لشدة صفائه وعلى جانب هذا القصر حجرة صغيرة بناها السلطان عبد المجيد لتبديل لباسه قبل دخوله دائرة الخرقه الشريفة ثم انتهينا إلى دائرة المتحف السلطاني وهى بيت القصيد فى هذه الزيارة وهنا لا يتمالك الانسان من الدهشة عند ما يشاهد تلك الآثار النفيسة والمصنوعات الثمينة النادرة التى لا تقدر لها قيمة لقيمتها التاريخية دخلنا هذه الدائرة وهى مؤلفة من ثلاث غرف تحتية وثلاث أخرى فوقية وأول شيء وقع نظرنا عليه تحت كسرى الذى غنمه السلطان سليم الاول من الشاه اسماعيل الصفوى فى حرب (جالديران) الشهيرة وقد نصب فى وسط المتحف يوحى إلى الرأى بعظمة الدولة العثمانية ومجدها السالف ويصور للناظر السلطان سليم الاول ممتطياً جواده مستلماً سيفه يقود جيشه الباسل إلى بلاد الاكاسرة ويشتبك مع صاحب المعجم فى حرب عوان فيهزم جيشه ويستولى على عرشه وخزائنه .

هذا التخت على هيئة مستديرة قائم على أربعة أعمدة يصعد إليه بدرجة واحدة وكله مرصع بالياقوت والزمرد مما يبهى الناظر

شاهدنا فى هذا المتحف سيف قسطنطين بالثوغوس آخر قياصرة الروم وهو سيف مرصع بالماس أخذ من جملة الغنائم يوم فتح القسطنطينية . وشاهدنا مهد السلطان محمود الثانى وهو على شكل السرر التى تصنع فى دمشق من الخشب

مرصعة بالصدف وهذا مرصع بالاحجار الكريمة . وفي المتحف ثلاث قطع من الزمرد الاولى بقدر جوزة الهند وزنها ثمانمائة درهم والثانية على شكل مستطيل وزنها ستمائة درهم والثالثة بينهما في القطع والوزن وهناك أوان من النجف بعضها مرصع وبدون ترصيع وساعات وأوان من العاج وبواطى من الصينى ودروع وطبرات ومخافر وبنادق قديمة مرصعة بما لا يكاد يحصى وخواتم من الماس بعضها فضة بقدر الجوزة . وإلى جانبها دُويّ قديمة ذهبية وقاقم ومحاريب وسبعحات ومراوح مرصعة وفي جملة هذه المراوح ثلاث تعد من نوادر المصنوعات الواحدة قبضتها مرصعة بالماس والاخرى مرصعة بالياقوت والماس فى وسطها ياقوتة بقدر الجوزة والثالثة مرصعة بالاحجار الكريمة وعليها رسم الكرة الارضية

ومما امتعنا به النظر صورة شخص طوله عشرة سنتيمترات صدره وبطنه لؤلؤة واحدة ورجلاه فيروزتان وبالقرب منه صندوق وعليه فيل من الذهب مرصع بالاحجار الثمينة ، رأينا أغطية مناضد من الاطلس والديباج بعضها مرصع باللؤلؤ فقط والبعض الآخر مرصع باللؤلؤ والزمرد والياقوت بنقش بديع يأخذ بالعقول وهنا قلب من الماس حجرة الوسطى بقدر البيضة ويقال ان هذه الحجرة هى رابع حجرة فى الدنيا من حيث الحجم والوزن وقد امتعنا الطرف برسم السلطان عبدالعزيز مجسما معمولا من النحاس الاصفر ممتطيا جواده بقطعة كبيرة طبيعية وآخرين صغيرين ورأينا رسم اسكندر الثاني قيصر الروس ورسم غليوم الاول طاهل الالمان ومما رأيناه ثلاث آلات للمنظومة الشمسية مصنوعة من النحاس الاصفر تدور فيها الارض والسيارات حول الشمس بحركة دولا ب يدار باليد كل ذلك بل أكثره موضوع فى خزائن من البلور لآتمسه الايدي رأينا مسميات لانعرف أسماءها مما يحار لها العقل ويدهش لها الفكر وانى لنا بان المعتر يقف فى هذه الخزينة ويصف ما فيها من الحلى والحلل والجواهر الثمينة والمصنوعات الفاخرة النادرة بمنظومات تحكي ترصيع الجواهر المكنوزة فى هذا الكنز الكبير ليس شئ أصعب على الكاتب من أن يرى أشياء لم يألف مشاهدتها ولا يعرف لها

اسماً فهو اذا أراد وصفها عصته الالفاظ وضائق به التعابير ، رأينا في هذا المتحف شيئاً كثيراً كله من النادر الغريب الذى لا يوجد الا في خزائن الملوك ولو أردنا أن نصف كل مارأيناه لطلال بنا البحث واحتجنا الى سفر كبير ولكن نكتفى بذكر الآثار التاريخية الثمينة بالنظر لما لها من المكانة العلمية والقيمة الادبية .

فمن ذلك درع مرصعة بالماس والياقوت مع سيف مرصع أيضاً مكتوب عليهما هذه العبارة « هذه الدرع غنمها السلطان مراد الرابع لما فتح بغداد في اليوم الثامن عشر لسنة ألف وثمانى وأربعين هجرية » وتحت معمول من الباغ مرصع بالفيروز والزمرد وهو تحت السلطان أحمد الثالث كان يجلس عليه يوم عرفة وفي وسطه فراش من الاطلس ، مرصع باللاآى بنقوش لطيفة يصعد اليه بثلاث درجات صغيرة وخزانة من الكهرباء الملون المعرق اهدتها فيكتوريا ملكة الانكليز للسلطان عبد العزيز ومكتب (قنصل) كبير مرصع بالماس والياقوت وسائر الاحجار الكريمة اهدتها كاترينة قيصرية الروس للوزير الاعظم محمد باشا البلطه جى يوم وقعة (بيروت) الشهيرة وهذا المكتب من أئمن ما شاهدناه في هذه الخزينة لما فيه من الاحجار الكريمة وحلل ملوك بنى عثمان وعمائمهم موضوعة كلها على قوالب مخصوصة على شكل انسان بالهيئة التى كانت عليها ومكتوب على كل منها اسم صاحبها وسيف السلطان الغورى عزيز مصر وخاتم السلطان عبد العزيز الذى نزع من أصبعه يوم استشاده ، ووسامات مختلفة أهداها ملوك أوربا للسلطين العثمانيين وغير ذلك من الآثار البديعة التاريخية .

وفي الجملة فان هذه الخزينة هى أعظم خزينة على وجه الأرض لانها جمعت بين خزائن الأكامرة وخزائن القياصرة وملوك الاسلام وكانت في الدور القديم تجمع فيها الأموال الزائدة عن نفقات الدولة وتدخر لاوقات الحروب ، وتسمى (أيج خزينة) أى الخزينة الداخلية يروى أن السلطان مصطفى الثالث كان جمع فيها مبالغ طائلة صرفها كلها في الحرب الروسية ويقدر ما صرفه في ذلك الوقت

بأثنى عشر مليون ليرة على حساب هذا الزمان .

أما بناء الدائرة فليس من الابنية الفخمة المزينة بل هو بسيط جداً على طرز التسكيا وليس فيه ما يستحق الذكر سوى ما ذكرناه آنفاً من القصور الحديثة التي بناها ملوك بني عثمان بعد الفتح وانما هي تمتاز بجمال موقعها وحسن مناظرها ومكانتها التاريخية فالواقف في فنائها أو في أحد قصورها يتمتع طرفه بتلك المناظر البهيجة ويسرح فكره في غارها وحاضرها ويهتز طرباً وتتجلى له عظمة آل عثمان وسلطانهم ، ويرى الفاتح يسوق أسطوله على اليابسة على صورة لم يسبق لها نظير ، ويمتدح القسطنطينية ويملك قصر القياصرة وخزائنها كما افتتح أجبداده بلاد الأكرسة وقوضوا عروشهم ويكون نم الأمير الذي امتدحه الرسول وجيشه نم الجيش .

وفي الحقيقة أن هذا البناء اللطيف من أجل ما يتصوره الفكر ، وألطف ما تشعر به النفوس فهو يحتاج الى قريحة شاعر مطبوع أو قلم كاتب مجيد يصف ما تشعر به النفس من المعاني الشعرية في جانب هذه المناظر البهيجة والآثار التاريخية ، هذا ولا يسعني هنا إلا أن أثنى الثناء الطيب على ناظر المتحف حافظ محمد رفيق بك لما أبداه من الجمالة والملاطفة في زيارتنا هذه ، كما اني أشكر للأستاذ الزهراوي وعبد العزيز افندي قولجه لي عنايتهما في هذه الزيارة التي هي من أسمى الزيارات التاريخية .

المتحف العثماني^(١)

٣٤

ليس بين معاهد الاستانة وقصورها معهد توفرت فيه شروط التجديد ،

(١) اعتدنا على كتاب « مروة » مليون عثمانى به مخصوص رهنما أثر وخيد »

ودخلته الروح الغربية مثل المتحف العثماني فهو المعهد الوحيد الذي قلدنا فيه الأوربيين وأحسننا التقليد يستفيد به زائره تاريخ الصناعة ، ولا غرو فقد ضم عادات الأم القديمة كالرومانيين واليونانيين والفينيقيين والأشوريين والبابليين والمصريين والحثيين والبيزنطيين المتأخرين من نواويس وتمثيل وإوان وآثار حجرية وخزفية وبلورية ، وكلها شاهدة على الدهر بما كانت عليه حضارات الشعوب التي انقرضت فأصبحت بلادها من جملة ولايات هذه السلطنة العثمانية أيد الله أركانها .

ومن أجل ما يشاهد فيه مسلتان عثروا على الأولى في صامسون والأخرى في ازنيق واسد وجد في هاليكارناس (قصبة بودروم) ويرد تاريخه الى أربعة قرون ق . م وبجانبه ناووس روماني استخرج من دراج في ولاية إشقودرة ومن ألطف عادات هذه الدار النواويس التي عثر عليها في صيداء وهي عبارة عن ستة وعشرين ناووساً ادعى بعضهم أن أحدها هو ناووس اسكندر المقدوني لأن الاسكندر توفي في العراق وجيء به الى سورية على ان روايات المؤرخين مختلفة في مدفنه ، ومن النواويس ناووس دفن فيه تابنيت ابن اشمونازار ملك صيداء وعليه كتابة بالخط الفينيقي ، وناووس الاسكندر من أغرب ما نقش النقاشون تحسداً عليه وعلى كثير من الآثار الموضوعة في قاعات متحفنا أهل العادات والآثار ويبدلون لنا لو أردنا في الحصول عليها مئات الألوف من النصار ونواويس المتحف البريطاني والوفرليست بأعظم منها .

ومن عادات المتحف ناووس معروف باسم « صدراب » أحد ولاية فارس فيه رسوم الصيد والقتل والحرب واللعب والسباق ووضيمة جنازة ، ومنه يستدل على ما وصلت اليه هذه الصناعة من تلوين الرخام في ابونيا في الساحل الغربي من بلاد الاناضول من الارتقاء في القرن الخامس ق . م وهناك تمثال ثماني عشرة امرأة من أعجب ما نقش النقاشون جعلن على أشكال متنوعة بعضهن قائمات وبعضهن قاعدات وهن يذرفن دموع الحزن واللهفة ، وبالقرب منهن ١٩

قطعة من نواويس رومانية عثر عليها في جبل لبنان وحصص ويروت .
ومن النواويس البديعة ناووس اسمه ناووس ليكيا أى البلاد المعروفة اليوم
بسواحل اضاالية من أعمال قونية وهو رومى الصنعة محلى الأسلوب ، وعلى
مقربة منه تمثالان من الخنزف المنقوش لأبى الهول عثر عليهما في مدينة اورله
أو ميناء قلازومن من أزمير

قلنا ان الناووس المعروف بناووس الاسكندر هو من أبدع ما صنعت
الأبدى ، ولذلك زاره ألوف من علماء أوربا وأميركا يعجبون بصنعه ، وفيه
كثير من الرسوم والخطوط النفيسة الملونة ومن الصور المزبورة ، عليها وقائع
الاسكندر المشهورة ، ومن كتاباته ما كتب بالخط الهيروغلىفى المصرى ، ومنها
بالخط الفينيقى .

ومن الرسوم الموجودة في ناحية قريبة ما يرجح انه رسم الحرب التى نشبت
بين الاسكندر فى ايسوس أو اربيل وبين دارا ملك الفرس سنة ٣٣٣ ق.م
ومما يقع نظرك عليه فى القاعة الرابعة بعض عاديات حيثية مثل اسود وجدت
في زنجيرلى وقصورها وتمثال يمثل أحدملوك الحيثيين وقاعدة تمثالين لأبى الهول
وتمثال من الحجر الاسود اسمه « أسد مرعش » كتبت عليه كتابات حيثية وهو
أشهر أثر عثر عليه من آثار هذه الأمة حتى الآن

والحيثيون أمم مختلفة كانت فى القرن الخامس عشر قبل المسيح تنزل فى جبال
الأكراد فى سورية وقبادوكيا وقسم عظيم من بلاد الأناضول حتى مجرى نهر
قزل ايرمق وكديز وأصولهم كثيرة متباينة بل ان البلاد التى كانوا مستولين عليها
هى كما يقول المحققون فى شمالى سورية أى فى المنطقة الممتدة من فرع الفرات
الأكبر الى جبال طوروس ، وقد أنشأوا على الفرات قلعة قارغاميش المعروفة
الآن بجربلس وأخذوا يهددون مدينة نينوى القديمة (الموصل) الى أواخر
القرن الثامن ق . م وبلغوا منتهى مجدهم بين القرن العاشر والثامن ق . م وقد
استولى على هذه القلعة صاراغون ملك اشور سنة ٧١٢ وباستيلائه عليها عي

اسم الحثيين من عالم الوجود على أن تاريخ هذه الأمة مع ما بلغت من الحضارة بين الأمم القديمة لم يؤثر عنها بالذات شيء يدل على عظمتها لأن خطها لم ينحل حتى الآن ويرجى أن يكتشف كما اكتشف الخط المصري القديم بواسطة حجر وجد في رشيد كتب بالخط المصري مترجماً الى اليونانية

ومن العاديات المهمة في المتحف الاواني الزجاجية والخزفية وأحسن الزجاج ما جاء من سورية وقد كتب على كل قطعة منها اسم البلد الذي عثر فيه عليها . ومعلوم أن تاريخ وجود الزجاج قديم يتعذر معرفته وهناك قطع من الفينفساء عثروا عليها في استانكوى أو جزيرة كوس من جزائر البحر الرومى ويرد تاريخها الى الدور اليوناني وآثار معبد اشمرن في صيداء من آثار الفينيقيين الخزفية وآثار سوكة وآياثلوغ ونامورد من أعمال أزمير وغيرها من بلاد الاناضول وأكثرها يوناني . وفي قاعة أخرى أوان وجدت بالقرب من صور وويج في ولاية مناستر في بعض المدافن وأوان في ليندوس (رودس) وغيرها يرد تاريخها إلى أدوار مختلفة يونانية ورومانية ومنها ما عثر عليه في لابسكى من أعمال كليبولى

ومن الآثار المهمة في القاعة الحادية عشرة عاديات أرض فلسطين ومنها ما عثروا عليه في جوار القدس ويرجع تاريخه إلى القرن الثامن ق م وما عثر عليه في بحيرة حمص في الجزيرة التي حفر فيها من القدور والاسرجة وقد اعتبروا القسم الاعظم منها من عهد الزمن النحاسى . وفيه قطعتان من المرمر وجدتاهما بالقرب من المسجد الاقصى وعليهما كتابات بالرومية تحظر على الغرباء أن يتخطوا معبد سليمان والا فيعاقبون بالموت . وهناك حجر كلسى عثروا عليه في القدس مكتوب عليه كتابة فينيقية وفيه ذكر جر الماء تحت الارض في قناة حفرت في الصخور من نبع جيحون الى سور القدس حتى تصل إلى نبع عين سلوان وينسبونه الى الملك حزقيا أحد من ورد ذكرهم في سفر الملوك من التوراة وليست العاديات المصرية كثيرة في المتحف ومنها صور أبي الهول وفي

ثلاث قاعات الآثار الكلدانية والبابلية والاشورية وأكثرها ألواح وأوان وأكواب وعظام كتبت بالخط المسماري .

ومنها ناووس من الخزف يرد إلى عهد بابل أي إلى نحو ٦٠٠ سنة ق . م ومنها مسلة من الحجر من مخلفات نابونيد ملك بابل كسرهما سنخريب في وقائعه مع السيتين . ومن العاديات ما وقع في خرابة نيفر في الشمال الشرقى من الديوانية من أعمال بغداد ومنها ما وجد في تلو من أعمال البصرة ومنها ما عثروا عليه في سيارا أوابي الحبة من أعمال الجزيرة

وقد خصوا القاعة السابعة عشرة بالآثار التدمرية والحيرية ومن الآثار التدمرية ما يستدل منه على أن صنعها من بدائع صنائعهم وإن كانت تشبه الصناعات اليونانية لأن مملكة تدمر وإن كانت يهودية لم يبق فيها أثر لهم لأن الاشوريين قرضوا عماراتها ثم ارتقت على عهد أورليانوس أوائل ظهور النصرانية ودخلت في حوزة المملكة اليونانية على عهد الاسكندر واستعملت اللغة الرومية ولا سيما في الرسميات وإن كانت لغتها الارامية أو السريانية ، أما الآثار الحيرية فهي آثار أهل سبأ ومعين في الجوف وعاصمة سبأ مأرب وأهل معين كانوا نازلين في قصبة العلى في جوار مدائن صالح ومملكة حير البمانية إنما نشأت بعد هلاك مدينة سبأ ومعين واستدلوا من ذلك على أن الخط الحيرى يشبه الفينيقي ولكن دخله قلب وابدال كثير

ومن العاديات آثار قبرص منها تمثالان للمعبودين هر كول وآفرو ديت وأوان خزفية ونذور ، ومنها حلى اشورية وفينيقية وحلى وجواهر واقراط وأساور وقلائد وجدت في مدينة ترواده أي في محل اسمه الآن حصارلق من أعمال لواء بينا شمالي جون أدرميد وكان اسمه في القديم ايدا وهو بين جبل قار وهلسبون أي بين جناق قلعة وبحر الارخبيل وكانت هذه عاصمة قديمة مشهورة ومنها ما وجدوه في ترال من أزمير وليبة من طرابلس الغرب وبرقة وغيرها في طرسوس وبآخر في برغمة وفي نابلس

هذه جملة أشرنا بها الى ما حواه المتحف وله قسم آخر اسلامي جعلوه في قصر الصيني أمام البناء الجديد كما قسمت مصر عادياتها إلى متحفين متحف الآثار المصرية واليونانية القديمة والمتحف العربي ، وقصر الصيني هذا مما أمر بإنشائه السلطان محمد الفاتح ولكن لم يبق عليه من آثار أيامه الا أثر ضئيل جداً مثل الآثار التي يحويها وبعض عاديات وأكثرها من قرون الانحطاط أي القرون الخمسة الاخيرة ومنها بعض الصيني الذي كان يعمل في دمشق ورودرس وأزنيق وكوتاهية وبعض الكاشاني المكتب بالكوفي ومنها ما عثر عليه في مصر وقونية ودمشق وبورصة وكان يعمل فيها كما تعمل الطنافس البديعة في معامل دمشق وتوقاد واصفهان وغيرها

ومن عاديات قصر الصيني درفتان من صنع قره مان وقونية ومنها دكات وققام وطنافس ومصاييح وخطوط صدرت عن بعض الملوك العثمانيين وهنبر من صنع الرثا (أورفة) وأوان خزفية وجدت في الرقة من أعمال حلب وجلود كتب من صنع مهرة المجلدين من العرب والفرس والترك واصونة وخزائن وبعض آثار حجرية يقال أنها أموية عثر عليها في القدس وبعض نقوش حيوانات رسمت على الزجاج من الادوار التركمانية والارتقية وملوك بني آرتق من مماليك ملكشاه ابن ألب ارسلان السلجوقي حكموا جهات ماردين وديار بكر وحلب الى سنة ٨١١ هـ وانقرضت دولتهم بعد حكم ٣٣٤ سنة الى غير ذلك من العاديات والآثار ومما عرضه عود طرب أو طنبورة وهي من صنع عصور الظلمة أيضاً

وبالجملة فان العاديات القديمة التي جعلت في البناء الجديد كلها حسنة ومنفيدة لو لم يكن الكسر والانهطيم يغاب عاينها لما قاسته من أهاويل الدهر أما العاديات التركية والعربية الاخيرة فتافهة على الأكثر . وفي الاستانة محل قرب جامع السلطان أحمد عرضوا فيه صور الانكشارية مجسمة من الجبس صنع النساوهم يلبسون البستهم المعروفه وجالسون على مراتبهم وعاداتهم لا بأس بزيارتها لما فيها من الفائدة التاريخية

خطابنا^(١) في التربية الادرية

٣٥

سادتي الاخوان الاعزة :

أوعز الى أعضاء هذا المنتدى الكريم أن أحدثكم بما رأيت في رحلتي الأخيرة إلى أوربا فلم تسعني مخالفتهم لأن الطلاب أعزة وتبادل الافكار معهم من أشرف المطالب ولكن الموضوع كبير لا يتسع وقتي الآن للاحاطة باطرافه كله ولا أوقات الحضور الكرام إلى وعيه وسماعه ولذلك اقتصر منه في هذه الليلة على الإشارة إلى طرف مما تأثرت به نفسي في درس معالم الحضارة الادرية في أماكنها واستطلاع طلعمها بالعمل بعد الاشتغال بدراستها بالنظر مدة . ولذا استميج عفوكم اذا لحظتم في أقوالى شيئاً مما لم يعتد بكم سماعه فأنا أقص عليكم شعورى ولا حرج على الشاعرين كما لا حرج على الشعراء

أول ما يقع عليه نظر الداخل الى أرض أورية ذاك الانتظام الغريب فى مرافق الحياة ومظاهر القوة فيسقط لأول وهلة على نموذج صالح من استبحار العمران هناك بل يتجسم فى عينه وذهنه ما سمعت اليه ولا تزال تسمى تلك الامم الراقية من الاخذ بأسباب الراحة والبسطة من طريق التكامل العلمى والنشوء الاجتماعى والعمل

ولا يزال هذا النموذج من العمران يعظم فى نظر السائح كلما طاف المعاهد وزار المشاهد وجال فى القرى والديساكر والخواضر والقواعد . وكل فرع من فروع هذا الارتقاء المعجيب يحتاج الناظر فى وصفه إلى غجلد برأسه حتى يتجلى للسامع بعض التجلى وما راء كمن سمعا

(١) القيناه فى المنتدى الادبى لى الاستانة وهو مجمع الناشئة العربية من طلاب المدارس العالية

ماذا أذكر لكم أيها الاخوان من حال أوروبا ومدنية الغرب الراقية التي بلغها بقوة العقل وتطبيق العلم على العمل؟ أأحدثكم بصناعاتها التي تبهر النفس؟ أو باتساع متاجرها التي لا يحصيها العد؟ أو بارتقاء زراعتها التي تنادى بلسان حالها ومقالها بأنه لم يبق بعد ما بلغته غاية؟ أم اذكر لكم حال الجامعات العلمية والسياسية والجمعيات الاجتماعية والنقابات التجارية والصناعية أم المدارس الجامعة والكلية والثانوية والابتدائية أم المتاحف والمعارض والمكاتب والمجالس والمصارف ودور التمثيل ومحال الطرب والانس؟

كل هذه المشاهد كنت اختلف إليها في أوقاتها واجتمع برجال العلم والادب والسياسة منذ الصباح الى ما بعد منتصف الليل وتقضى تتأثر بتغير المشاهد بحيث تملك على مشاعري فلا استطيع التفريق في الحسنات كأني ابتليت بداء الاستحسان لا تقع عيني على شيء ولا تسمع أذني بشيء ولا يتصور ذهني أقل شيء الا واخذ به جملة وتفرق النفس في استحسانه وتحار في وصفه ولقد كنت عزمت ان ادون في مفكرتي ما يعرض لي من المظاهر والمناظر ويتردد في صدري من الافكار والخواطر واحضره من المحاضرات والخطب والدروس النوادر ولما كثرت على الموضوعات كل القلم من التقييد وقلت إنك يا هذا تكتفي متى عدت لتحدث قومك بما رأيته من تسجيل ما يعلق في ذهنك وبعضه مما فيه الغناء والكفاية

نعم تركت التقييد على خلاف عادتي فصدق في قول الشاعر

تكاثر الطلاب على خراش فما يدرى خراش ما يصيد

لولا أن اليأس من أعظم الامراض في الافراد والجماعات لطاوعت النفس وقنطت من نهضة هذا الشرق لمجاعة الغرب ولولا اني اعتقد بأن النجاح مقدور لكل مخلوق يعمل وأن الاجسام تتكون من الذرات وان من الجزئيات تنشأ الكليات لسجلت بأن قيام الشرق العثماني وهو على نهضته المتناقطة البطيئة التي نشهدها أمر متعذر الا بعد قرون ان هكتبت له الحياة

ولكن امانى مثال الدولة اليابانية مملكة الشمس المشرقة رأيتها جارت أكبر الدول الأوربية في ثلاثين سنة وفاقته من كانت تعمل منذ ثلثمائة سنة من الدول الغربية فبلغت درجة عالية من الحضارة .

نعم أن اليأس يجب أن لا يتطرق إلينا ، وإن كنا وبالأسف تحت وصاية الغرب اليوم في كل شأن من شؤون حياتنا السياسية والاجتماعية والعلمية والتجارية يصرفون علينا كل ما يريدون من ضروب المعارف ويربحون بعقولهم منا أنواع الأرباح والمكاسب ويستثمرون شرقنا بكل ما لديهم من ذرائع العلوم والفنون ونحن معهم باهتون شاخصون شأن عبد مع سيده أوجاهل مع عالم

حضرت دروساً كثيرة في الكوليج دي فرانس وهي المدرسة العظمى التي تضم في صدرها زهاء أربعين عالماً من كبار علماء فرنسا يقرأ كل واحد منهم درسين اثنين في كل أسبوع في العلم الذي أخصى فيه وتقرده به طول عمره وتكون دروسهم عامة يحضرها كل من أراد فتدل على كرم الفرنسيين في العلم وحضرت دروساً في مدارس أخرى ووفقت الى سماع خطب ومحاضرات كثيرة فلم أر في أكثرها الا تعصباً على الشرق وغمطاً لحقوقه .

أذكر لكم على سبيل المثال محاضرتين دعيت اليهما لتعلموا منهما مقدار ما يعده الغرب للشرق ومبلغ حكم أبنائه علينا ولكم بعدها أن تقيسوا حاضرهم محاضرنا وغابرهم بغابرنا وتضحكون بعدها أو تبكون .

فالمحاضرة الأولى كانت في قاعة السوربون الكبرى أي كلية باريز ، وهي المكان الذي جرت العادة أن يكون معهد العاملين للعلم من الفرنسيين فأقامت جمعية آسيا الفرنسية والجمعية الجغرافية حفلة للاحتفاء بأعضاء بعثة بليو الى التركستان الصينية وكنشو بحضور جماعة من أعضاء المجمع الفرنسي ولم يكن الحضور أقل من ألف وخمسمائة مستمع ومستمعة والمسيو بليو هو في الثامنة والعشرين من عمره طلق اللسان آية في البيان وهو أستاذ اللغة الصينية في المدرسة الفرنسية في الشرق الأقصى ، شرح في محاضراته مالاقيه في رحلته التي بدأت

في ١٥ حزيران سنة ١٩٠٦ وانتهت في الصيف الماضي وأتى على ما وفق اليه من الاكتشافات الأثرية والكتابية وغيرها في آسيا الوسطى مما حفظ لفرنسا شهرتها القديمة في البحث عن الآثار وقال ان التعصب انتشر هناك بانتشار الاسلام في القرن الحادى عشر للمسيح فكان من ذلك التعصب ان اتى على الآثار بجملتها وقد قرع الشرقين عامة والمسلمين منهم خاصة أنواع التقرير ، أما رحلته فهي كسائر الرحلات العلمية التي يرحلها الغربيون الى آسيا وأفريقية فيكونون مقدمة الفتح والاستعمار وقديما كان الشاعر يقول « السيف أصدق انباء من الكتب » فاذا أرادت أمة أن تفتح بلد أخرى ترسل اليها السيوف والبنادق ثم تمهد البلاد بالمعارف أما اليوم فيرسل الغرب رجال العلم يرادون البلاد أولا ، ثم يرسلون مدافعهم وبنادقهم وآلات تدميرهم والأمثلة على ذلك كثيرة .

وقد ادعى بليو صاحب البعثة ، والغالب انه على حق فيما ادعاه أن ما وفق الى جلبه من الآثار قد أغنى مكتبة الأمة في باريس بألوف من المخطوطات الصينية ومنها شيء في تاريخ الصين كما أغنى متحف اللوفر الشهير بتماثيل ورسوم ونقوش فأصبحت باريس بذلك عاصمة الدروس الصينية في أوروبا ويحق لها أن تفاخر بأن مجموعة ما عندها الآن من الآثار الصينية ليس لها مثيل في الغرب حتى ولا في الصين نفسها قال وغاية البعثة في التركستان الصينية ، ولا سيما في مقاطعات ، قاشار وارومشى البحث عن بقايا التمدن البوذي الذي سبق التمدن الاسلامي الى هناك ، وانه رأى جميع أهل التركستان من أهل الاسلام ، واذ كان دينهم يحرم التماثيل والصور لم يظفر بكثير منها في الأماكن المطروقة اذ كانت تعبت بها أيدي المتعصبين منهم .

وقال انه رأى لسوء الحظ أن قد سبقه الى ارتياد تلك الأصقاع أناس من الألمان والانكليز واليابان والروس للغاية نفسها ولكنه وفق الى أن اكتشف بين قاشار وكوتشار في نصف الطريق في طومشونك تماثلا بوذا صغيراً بين الصناعة اليونانية والبودية حري بأن يكون صلة بين الصناعة الشرقية القديمة

والغربية وظفر في قاشار تحت أنقاض أحد المعابد في طبقة كثيفة بمخطوطات هندية فأحرز ثلثها بواسطة راهب انقطع في تلك المغاور ووصف تلك البقاع بأنه لا شجر فيها ولا عشب مع انك تمشى فيها ألوفاً من الكيلومترات اللهم الا في بعض الواحات ، وأكثر تلك الا صقاع جبال شامخة ومنحدرات كثيرة ورمال محرقة فكانت الحرارة في الصيف تصل الى الأربعين درجة ، وفي الشتاء الى الخمس والثلاثين تحت الصفر حتى كان الخبر يجمد في أيدي أعضاء البعثة متى أرادوا أن يقيدوا آثار بعثتهم وقد أخذ أحد أعضاء البعثة صورة طوبوغرافية من خط هذه الرحلة وفوائد فلكية في عدة نقاط وآب بمجموعة من الحشرات والحيوانات تغني المتحف الطبيعي وبصور كثيرة عرضت بالفانوس السحري على الحضور تلك الليلة حتى لكانهم ذهبوا بأنفسهم الى تلك الأصقاع النائية

هذه المحاضرة الأولى التي تكهرب بها جسمي وتأثرت عواطفى وسمعت بها مهانة أمتى بأذنى ، والمحاضرة الثانية ألقاها المسيو تارديو من كبار السياسيين الفرنسيين وصاحب المقالات الافتتاحية في جريدة الطان في الدولة العثمانية فهو أول اخصائي في سياسة الشرق ، ولا سيما دولتنا يقرب القلم بين أصبحه كما تشاء حكومته . حضرت خطبة له في مدرسة اللغات الشرقية الحية ، ألقاها على طلبة تلك المدرسة العالية ممن يتخرجون الآن ليذهبوا الى الشرق فيما بعد لخدمة حكومتهم ويكون منهم التراجمة والقناصل والسفراء ببيان لم أسمع من العرب ولا من المعجم أبلغ منه لم يتمم ولم يعطس ولم يكرر ، وقلما رأيت انساناً درس موضوعه وأعد له المواد التاريخية والمستندات أكثر من ذلك ولكن سياسة المنافع والمصالح كانت تلوح صراحة من خلال كلام الخطيب فكان عجبى بتعامله على هذه الدولة أكثر من عجبى بذلاقة لسانه ، فقد تكلم على علاقة فرنسا بالشرق ولا سيما بالدولة العلية منذ القديم فقال ان فرنسا صاحبة الفكر الاول في الحروب الصليبية قد أنف علىها زمن حالفت فيه الدولة العلية ايام قوتها لتستخدمها لاغراضها وقد جنى الفرنسي ثمار هذا الوفاق ثم لما مضت سنون والدولة لم ترخيراً لها

من تلك المحالفة نزع يدها من يد حليفها ثم عادت فرنسا فبعثت بأبنائها الى القريم ليحاربوا مع الانكليز والعثمانيين جيوش الروس ، لأن مصلحتها اقتضت ذلك اذ ذاك وأفاض في نشأة الامتيازات الأجنبية في البلاد المصرية والعثمانية ، وقال ان فرنسا في كل دور من أدوارها استخدمت الدولة العلية لمقاصدها وأن لها اليد الطولى في المسألة الشرقية أى استقلال بلاد البلقان واليونان ، وانها لا تقصر كل حين في بتر عضو من اعضاء هذه الدولة حتى تموت وتفتى
فيا اخوانى وياسادتى اسمع عثمانى هذا الكلام ولا تجهش نفسه بالبكاء ولا تذوب كدأ وحسرة وتسود الدنيا في عينيه ؟

هذا بعض ما يعده الغرب للشرق فماذا يعد الشرق للغرب ؟
نحن يا قوم لا نحفظ كيانتنا ولا نحفظ بلغتنا وديننا وآدابنا الا اذا قاتلنا من يريدون قتالنا بالسيف الذى يقاتلوننا به ، وأغنى به سيف العلم ، نحن يقضى علينا ان نأخذ من تلك المدنية الغربية التى تدهشنا كل ما ينفعنا لقيام مجتمعنا نأخذ عن رجال العلم منهم ونحتك بهم زمناً لنستفيد ونعرف الطرق التى يجب علينا سلوكها .

رأيت الدولة بعد انقلابنا الأخير بعثت بزمرة من الطلبة العثمانيين ليدرسوا في مدارس أوروبا ولا سيما في مدارس باريس فقدرت عددهم قليلا جدا بالنسبة لمجموع هذه الامة . واني لا خجل ان أقول لكم أن عدد الطلبة البلغاريين في روسيا والمانيا والنمسا وفرنسا والباچيك وانكلترا أكثر من عدد الطلبة العثمانيين واياكم أن تظنوا ان جميع طلبة الاجانب تبعث بهم حكوماتهم ليدرسوا على تققتها بل ان لهم الافراد شأنا عظيما في هذا الباب وكثيراً ما ينفق الطالب من مال أبيه عن سعة حتى لا يتم دروسه الا وقد أتى على آخر فلس مما عنده وهو مفتبط بما صنع لانه أحرز رأس مال كبير لا يقدر بالملايين والكرات وعاد وهو يعرف كيف يخدم أمته وبلاده

نحن مقصرون كل المقصور في ارسال ابنائنا إلى ديار الغرب يلتقطون درر

العلوم من بحار كلياتها ومدارسها والعرب في هذا المعنى أكثر العثمانيين قصوراً ولقد أحصيت جميع من يدرسون من أبناء سورية في أوروبا على نفقة الحكومة أو على نفقاتهم فلم أقدر أن أوصلهم إلى ثلاثين طالباً أكثرهم يدرسون على نفقاتهم فليت شعري أليس هذا العدد بقليل على قطر يناهز سكانه الثلاثة ملايين هذا من سورية أرقى البلاد العربية وما أظن أحداً من أبناء العراق والجزيرة والحجاز واليمن وطرابلس وبرقة وغيرها من الأقاليم العربية يدرس في مدارس أوروبا فيكون هؤلاء الثلاثون طالباً خمسة عشر مليوناً من العرب العثمانيين يصيب كل مليون نسمة طالبان وما اعظم ذلك من قصور وتقصير

نعم هو قصور ليس وراءه وراء وخودهم كاد يصدق به علينا حكم الغريب واني لا رجو ان لا تكون اقوالنا أكثر من افعالنا فان الكلام لا أثر له بقدر الفعل ، نريد معاشر العرب أن نجاري الأمم الراقية بل سائر العناصر من اخواننا العثمانيين ولا نجاريهم على الأقل في مضمار التعلم ؟

تتناهى بالوطنية وتندب حظ اللغة العربية ونحن أبناءها الذين نعقها ولا نتعلمها ، أليس مما يزعج أن يخاطب العربي أباه وامه واخاه وصديقه بغير لغته الأصلية ؟ يعمل ذلك ليطمئن على تأقف غير لغته بل لانه لا يعرف ان يتكلم ويكتب بلسان ابيه وامه وقد يكون في الأكثر ممن يفرض عليهم فرض عين تعقها ليفهم بها كتابه وشريعته

انا ان كنت عربياً واحب العرب واريد نهوضهم ايتيسر لي كل ما اريد اذا لم اخاطبهم واخطبهم واكتب لهم بلغتهم التي يفهمونها ، انا ان كنت اريد الاطلاع على مجد آبائي واجدادى أتمكن من ذلك بدون دراسة ما خلفوه من آثارهم وهل يتيسر لي هذا الا باللغة التي كتبوا بها ؟ اقول هذا وانا آسف كل الاسف على قصور العرب عن تعلم لغتهم قصوراً لا ابالي اذا قلت ان فيه العار والشنار

ايزهد سلالة العرب الا كاد في لغتهم ويتعلمها المستشرقون أكثر من

علماء العرب أنفسهم ؟ ايزهد العربي ابن العشرين في العربية ويتعلمها رجل اعجمي في الستين من عمره ، واعنى به الكنت دى سارديج الفرنسي : هذا الرجل من اهل الطبقة العالية في غناه كان والده سفيراً في طهران عن الملك لويز فيليب ملك فرنسا وقد كان هو موظفاً في السفارات وآخر وظيفة له رئاسة تراجمة سفارة فرنسا في مدريد ثم استقال وهو يسكن في الصيف في قصر له في لوزان في سويسرا وفي الشتاء في باريز وقد قام في ذهنه منذ اشهر ان يدرس اللغة العربية للاطلاع على حضارة العرب ومدنيتهم الباهرة فاتخذ له استاذاً صديقنا ووطنينا ميشيل افندي بيطار وانشأ يتخرج به فقطع شوطاً في التعلم واذ كانت الدواعي تضطره الى المقام في قصره في سويسرا اكثر من باريز وكان استاذاه لا يستطيع ان يلحق به الى سويسرا كتب اليه يلتمس منه التماس التلميذ من استاذاه ان يعث اليه بدروس عشرين يوماً حتى لا يضيع وقته مدة مقامه في سويسرا ويحرم من الاستفادة والتحصيل فاذا آب الى العاصمة يعاود ما بدأ به

هذا الرجل على أبواب الشيخوخة وهو في هذه السن يحاول أن يتعلم لغة شرقية لاعمد له بمعرفتها ، أو أن يتعلم لغة القرآن ليدرس بها مدينة أهله وشبان العرب أنفسهم يرفعون عن أن يقضوا ولو بعض أوقات فراغهم في إحكام لغتهم ، هذا هو مثال صغير من أمثلة الهم في الشرق وأمثلتها في الغرب فهل فيكم يا شباب المستقبل وقرة عيون العثمانية العربية من يمشى على أقدام الشيخ الفرنسي حتى لا يجيء علينا وقت نضطر فيه أن نأخذ لغتنا بل ديننا عن أوربا ونكون تحت وصايتها حتى في أمس الامور بنا وأعلقها بقلوبنا ؟

كل ما نراه من هم الغربيين ومثانهم هو محصول الكتاب والمدرسة فأنتم وأمثالكم شباب هذه الامة في أيدي اقتداركم أن تجددوا لها شبابها إذا وضع كل منكم نصب عينه الذهاب الى الغرب وقضاء سنين في الدرس والبحث ليري بعينه ويحكم بنفسه على قصورنا عن الغربيين وفقرنا وغناهم وشقائنا

وسعادتهم ليعلم اننى لا اعالى فيما اوردته لكم بل اننى عاجز عن الوصف والتعريف ولا يقمن في اذهانكم ان الذهاب الى اوربا بعيد المال وانه لا يتيسر الا لكبار الاغنياء ، فالعيش في معظم البلاد الاوربية ارخص من الاستانة ومصر ودمشق وبيروت والمدارس رخيصة اجورها او لا يكاد يكون لها اجور ، ومنها ما اجرة الطالب فيه مع الأكل والنوم والدرس ستون فرنكا في الشهر ومثل هذا القدر من المال لا يصعب على أحد فيما أحسب ان يعده او يستلفه على المستقبل مهما بلغ من ضيق ذات يده .

يا أبناء قومي ويا زهرات أمتي ! أليس من العار أن تكون بلادنا التي لا تعيش الا بالزراعة ولا تحيا الا بالزراعة ، خالية من عارفين بها على الأصول الحديثة فلا يكون الذين يتعلمون منا هذا الفن في أوربا سوى طالبين اثنين ، احدهما في المدرسة الزراعية في لوفان من أعمال البلجيك وهو رفيق بك يعضون من بيروت والآخر في كرنيون من أعمال باريز في مدرسة كرنيون الزراعية واسمه مصطفى افندي الكيلاني من حماة ، كلاهما من أبناء الاعيان ، ولهما ارض ومزارع فنما عملا بالاختصاص بهذا الفن الشريف المفيد ولكن أليس في أبناء سورية بل البلاد العربية أحد من أبناء الاعيان يملك اراضي وقرى غير هذين الشابين ؟ بلى ان المالكين كثر ولكن محبي الدرس قلائل ! هذا في فن الزراعة فمتى يقوم منا أناس لتعلم الكهرباء ومد الخطوط الحديدية والهندسة العملية والصناعات الحديدية واليدوية والتجارة ، وغير ذلك مما نحن فيه عيال على الأوربيين .

زرت مدرسة كرنيون الزراعية ، وهي على مسافة ساعة من باريز ، فرأيت شعارها مكتوبا بقلم غليظ في مكتبتها بما معناه : « الأرض هي الوطن ومن توفر على تحسينها يخدم وطنه » ولكن قومي غفر الله لي ولهم يحتقرون هذا الفن فيما أرى . فان كنا نختلف في البديهييات فمتى نتفق في غيرها ؟

زرت كرنيون ورأيت بها أن عبد القادر الكيلاني يلبس مشلع الزراع

ويدرس كما يدرس أبناء الاعيان في فرنسا ويجاريهم في ذكائه وأطلعني على مافي مدرسته من متاحف ومعارض واصطبلات وحظائر لتربية الماشية ، وحدائق لغرس النبات والبقول ، وغابات للنزهة والانفجاع ، وأدوات للعمل وحرث الأرض وكرثها .

رأيت كل هذا وأكبرته وقلت في نفسي لو حذا السوريون في الزراعة وتربية الماشية حذو الفرنسيين فيها وتربتهم تلائم تربتنا وأقاليمهم أشبه بأقاليمنا لا غنينا غنى يغنيننا عن الهجرة وتطلب الوظائف الاتكالية ، فقد ذكرنا الى أن خروفاً علفته ادارة المدرسة سنتين على الطريقة العلمية فبيع في أحد المعارض بسبعين ليرة ، فأين خرفاننا التي يباع الواحد منها بسبع ليرات مهما علفناها بجملنا وبساطتنا وأطعمناها السمسم المقشر أو الشيع والقيصوم والعرار والعرعر .

ولكن الآمال معقودة بأن نعلف خرفاننا على طريقهم ونستثمر تربتنا على أصولهم ونربي عقولنا على مناحيهم ونطبع دوايننا وماشيتنا بحسب سنتهم فيكون اذ ذاك أبناء عبد القادر في التوفر على زكاء التربة في تفهم لهذه الامة على مستوى جدهم الذي زكى النفوس في عصره ، وزكية التربة لا تقل عن تزكية التربة والمال واحد .

مدرسة كرنيون الزراعية هي التي أوصي أبناء الاعيان وغيرهم الى التخرج فيها لتخصب بهم تربتنا بعد اجدايها وتملأ جيوبنا بعد فراغها والمال مبدأ كل عمل وفاتحة كل ارتقاء مادي وأدبي

نحن لا نرقى الرقى المطلوب الا اذا تعلمنا العلم العملي وزهدنا قليلا في شغشة الألسن والنظريات المجردة . ومن جملة المدارس التي زرتها في فرنسا وتأثرت أيضاً بنظامها مدرسة جزيرة فرنسا في مقاطعة الواز ، زرتها بدعوة من صديقي صرمي افندي محمود أحد كتاب مصر فكانت زيارتها وزبارة مدرسة كرنيون من أسعد الايام التي قضيتها في أرض الفرنسيين واني أحب ان اقص عليكم قصة هذه المدرسة لتعرفوا الغرض منها فاقول : قام منذ عشر سنين في فرنسا رجل من رجال الصحافة اسمه اديمون ديمولانس ودرس طارق الحضارة والتعليم والتربية عند

الالمان والانكليز والاميركان وقابل بين طرائقهم واخلاقهم وعاداتهم وبين ما عند الفرنسيين منها ووضع لذلك الكتب وكتب المقالات وانشأ مجلة العلم الاجتماعى التى تدور على هذا الغرض ومن مجلة كتبه سر تقدم الانكليز السكسونيين الذى نقل الى العربية فعمت فائدته العرب كما عمت الافرنج

وقد وفق ديمولانس صاحب تلك الدعوة بان التف حوله أناس من أرباب الغيرة على ارتقاء بلادهم والاهتمام بمستقبلها فكانوا يعطونه بالملئات لقيام الغرض الذى حاول بلوغه وتربية أبناء الفرنسيين على الطريقة الانكلوسكسونية العملية فأُسست لذلك ثلاث مدارس كبرى عقيب دعوته الاولى مدرسة روش أُسست سنة ١٨٩٩ باسم جماعة من المساهمين وأخرى فى إقليم نور مانيا لجماعة من كبار الصناع منها وأخرى فى ليانكور أُسست سنة ١٩٠١ وهى التى أريد أن أحدثكم عنها

ليانكور قرية سكانها نحو ثلاثة آلاف وستمئة وهى على نحو ساعة من باريز الى الشمال فى مقاطعة الواز وفيها مافى سائر بلاد فرنسا من أنواع المرافق والرفاهية والمعامل الكبرى الصناعية والزراعة الراقية الفنية بل فيها من دور التمثيل فقط ثلاث دور وفى قصر الدوك دى لاروشفوكولد فى أرض مساحتها مائتا هكتار أى نحو ثمانمائة فدان لم يبق منها إلا دائرة حشمه أما دائرة قصره فقد أتى عليها رجال الثورة الاخيرة فدكوها وجعلوا عاليها سافلها وقد جعلت المدرسة فرسعت كل صفوفها ومرافقها ومعاملها .

فى هذه البقعة الجميلة الواسعة بل المزرعة الكبيرة والحدائق الفخمة التى حوت الغابات والمروج والحدائق والغدران والآكام والسهول يتربى رجال المستقبل على الطريقة الانكليزية وفيهم الفرنسيون وأكثرتهم من أبناء الباريزيين وعدد قليل من الاميركان والانكليز والبرتغاليين والاميركيين والمصريين . يعيشون فى هذا البيت كأنهم فى أسرة لافى مدرسة وقد رفعت عنهم أكثر القيود التى تقيد طلبة المدارس الداخلية واختصر منها على ما يحفظ به النظام والآداب من مثل الحظر على أحدهم أن يركض ويرفع صوته فى المدرسة أوفى

حجر الدروس وأن يلعب في الاماكن التي هي ممر لآخوانه وان لا يخرج من المدرسة ولا يركب في قارب الغدير بدون رخصة أولاً وأن لا يبتاع أى شى كان من المدينة بدون استئذان وان لا يدخل جرائد ولا كتباً إلا اذا وقع عليها المدير ولا يدخن وان يلبس ثياب اللعّب عند ما يخرج من غرفة المائدة وقت الظهر ولا يركب دراجته الا يومى الخميس والاحد وأن لا يعبث بمباحوت حديقة المدرسة ومكتبها وان لا يتكلم بعد أن يطفأ النور في غرف النوم مساء ولا قبل أن يستيقظ رفاقه صباحاً وما عدا ذلك فهو حر أن يلعب اللعّب الذي يختاره في الاوقات التي خصصت لذلك منذ الظهر الى حوالى الساعة الرابعة بعده .

وكل هذه القيود لا تكبر على التلميذ لانه يعرف أنه لابد منها لكل طائفة كبرى وما هذه المدرسة الا كذلك والمدرسة تقسم الى ثمانية صفوف أسسها الاستاذان الانكليزيان هوكنسن وسكوت ومديرها اليوم المسيو لبلا وهو فرنسوى لان قانون فرنسا يحظر على الاجانب انشاء مدارس باسمائهم في البلاد ، وفي المدرسة نحو عشرين معلماً ومعلمة وناظرة ورئيسة المدرسة لآنسة بارى من اقرباء اديمون ديمولانس صاحب الدعوة الى الاخذ بطريقة الانكليز السكسونيين في التربية ومن أولئك المعلمين معلمان انكليزيان واثنان المايزان

ويقسم تلامذتها بحسب أسنانهم واستعدادهم ولا يختلط الكبار بالصغار الا في بعض اوقات ساعات النهار وهذه المدرسة تعد التلامذة لنيل شهادة البكلوريا أو العالمية ولكن على غير الطريقة التي يحشى بها رأس التلميذ بالمواد النظرية وهو عن العلم العملى بمعزل . فالمدرسة تربي الارادة والعين والذوق واليد والجسم أكثر مما تربي الذهن والذاكرة

وأسماء الصفوف كصفوف سائر المدارس ويشترك جميع المعلمين في التعليم ويلاحظون الدروس أيضاً ولا يراجعون التلامذة فيما تعلموه خارج الصفوف النظامية لان النهار يكفى لذلك ويتولى الاولاد بأنفسهم أمور لعبهم وحفظ النظام العام وسائر شؤون الحياة وربما لا تروق أكثر الاولاد هذه الطريقة خصوصاً

وأكثر من فيها من أبناء الأغنياء والامراء اعتادوا أن يخلقوا وحواليهم الخدم والحشم يتولون من أمورهم ما يتقاعسون هم عن عمله ويصعرون خدودهم كبراً من القيام به .

ويقسم التلامذة بعد الصفوف والورق الى بيوت مختلفة وكل بيت يديره استاذ ويعهد الى النساء بالادارة البيتية والعناية بالمرضى وتعليم الموسيقى وتعليم الاحداث من الطلبة وهن يعشن في المدرسة نفسها ، وعلى الطلبة أن يحضروا ثلاث جلسات في الاسبوع لتعلم لعب الكوكي والكريكة بنظارة أساتذة في هذه الالعب ، وفي المدرسة دار للتمثيل كما فيها ميدان للعب السيف ، ومحل لتعلم الرقص والموسيقى ومحال دروسهم أشبه بمكتب رجل منه بقمطر تلميذ لكل واحد منضدة عليها دواة وورق نشاف يتصرف فيها كما يشاء ويرى فيها الدروس التي يدرسها بطريقة عملية أكثر منها نظرية

فيتعلم مع العلم صناعة من الصناعات التي هي أحب الى قلبه كالزراعة والنجارة والحدادة والتصوير والتجليد وصنع المقوى والفخار والجلد وغيرها ، وذلك بنظارة أساتذة هذا الشأن يدلونه على الطرق التي يسلكها ولا يعملون معه بل يدلونه على عيوب عمله ويده وعينه هما اللتان تعملان ليعتمد بذلك على نفسه ، فاذا عاد الى أهله يستطيع أن يصنع بذاته عملاً من مثل ذلك ، فلا يكون فرق بين ما عمله في المدرسة ويعمله بعد الخروج منها ويتولى أكثر شؤونه كما قلنا بنفسه حتى يسهل عليه كل جهاد في حياته فان الرياضات التي يقومون بها في البستان والحقول والرحلات في الخلاء سواء كانوا مشاة أم ركباناً على الدراجات تزيد في قواهم وقابليتهم للرياضات البدنية ولا يقل النوم عندهم عن عشر ساعات للصغار الى تسع للكبار ليستريحوا من اتعاب النهار

وتتمتاز هذه المدرسة بان يرحل تلامذتها بمراقبة اساتذتهم أو بعضهم الى البلاد المجاورة كالبليجيك وهولاندة أو غيرها من مقاطعات فرنسا البعيدة ليعتادوا الاستغناء عن الرفاهية ويحسنوا التخلص عند الحاجة من مشاكل

الاحوال التي كثيراً ما تصادف الانسان في حياته ، وذلك أيضاً ليحتملوا بصبر وحسن خلق معاكسات الوقت ونكد الأيام وتتوثق عرى المحبة بينهم ففي عيد الفصح تنقسم المدرسة الى ثلاث فرق بحسب سن التلامذة المؤلفة منهم فتذهب كل واحدة في وجهة خمسة أيام وكل من حسنت أخلاقه ودروسه يرحل به أيضاً كل ثلاثة أشهر مرة أو مرتين يوماً أو بعض يوم الى مكان بعيد ، وللمدرسة في الصيف شهران أيضاً عطلة فتكون عطلتها السنوية من حيث المجموع ثمانين يوماً وتستوفي المدرسة أجرة من كل طالب الى سن الحادية عشرة ٢٥٠٠ فرنك فاذا تجاوز هذه السن تأخذ منه ثلاثة آلاف يدخل في ذلك أكثر حاجاته ماعدا بعض الدروس كالرقص والموسيقى والرسم فانه يدفع أجرتها على حدة ، وهو مبلغ كثير بالنسبة لأهل بلادنا ، ولكنه لا يستكثر في مدرسة مثل هذه تنفق النفقات الطائلة على الاساتذة والعيشة والرحلات ويطبق فيها العلم على العمل وتربي الحواس بالعمل أكثر من تربية الذاكرة

حدثني أحد أساتذة المدرسة قال كان فكر مؤسسهاديمولانس أن تكون على الطريقة الانكليزية المحضة ولكن لم تمض مدة حتى انقابت أوضاع الدروس والرياضات الى ما يشبه الاوضاع الفرنسية لان ما توهمه ديمولانس من انه يمكن تطبيقه في بلاده قد غالى فيه كثيراً ولو كان حياً - مات منذ نحو سنتين - لرجع عن كثير مما نعاه على قومه وعد عدمه نقصاً في تربيتها وسبباً في ضعفها ، وهو قول حق شديد ، لان ما يوافق أمة لا يطبق بالحرف على أخرى وللعادة والمحيط والتقاليد دخل كبير في أوضاع الامة على ان هذه النعمة قد أفادت فرنسا وغيرها بلا شك واطلعت الشرق على ان التربية الفرنسية مع ما هي عاينه من الحسن هي في رقيها دون التربية الانكليزية السكسونية من وجوه ، وان كانت هذه دونها من وجوه ولعل بلادنا تستفيد من كل ذلك عبرة .

تقدم ان تلامذة مدرسة ليانكور هم من الفرنسيين وخليط من البرتغاليين والاميركان والانكليز والمصريين وهكذا شأن معظم المدارس في فرنسا ولا سيما

كلياتها الجامعة فلا يتعلم فيها الطلبة من الذكور فقط بل يتعلم فيها الطالبات من الاناث واني لا اذكر انى حضرت خطبة أو درساً أو مجلساً علمياً ، ولا زرت متحفاً ولا مطبعة ولا ادارة جريدة الا ورأيت الفتيات سبقننى الى تلك الامكنة ومعظمهن روسيات وانكليزيات وألمانيات وبلقانيات وبولونيات والبولونيات^(١) أكثر الفتيات الاجنبيات فى فرنسا واكثرهن عناية بتعلم اللغات الاجنبية حتى ان الواحدة منهن لتكلمك فلا تحسبها لا فرنسوية لكثرة اتقانها للغة الفرنسية واجادتها النطق بها مما لا يكاد يتيسر مثله لغربية ولا لغريب عن اللغة وهن مع هذا أكثر النساء الاوربيات تفانياً فى احكام ملكة لغتهن وحرصاً على آدابها وتلقينها .

ولقد كانت المرأة البولونية تعلم اولادها لغتهم فى الغابات والحقول عند ما كانت الحكومة الروسية تحظر عليهم الى قبل بضع سنين تعلم لغتهم لتجعلهم روساً مع الزمن فلما دالت دولة الجهل ونال البولونيون كسائر العناصر السلافية بعض حريتهم عقيب انشاء مجلس النواب كان من البولونيين ان فتحوا فى شهر واحد فى البلاد التى وقعت منذ قرن ونصف تحت سلطة الروس زهاء أربعة

(١) شارك النساء الرجال فى أوروبا فى كل عمل من أعمال الحياة وفى فرنسا شاركن الرجال فى الامور الذهنية أيضاً وثلاث ما ينشر فى فرنسا من الكتب هو من أقلام الكاتبات والشاعرات وكثيرات منهن يكتبن ويجدن كالرجال مثل مارسل تيناير مؤلفة كتاب دار الحبيشة والكونتس دى نوايل والعقيلة دي رنيه امرأة الشاعر المشهور وهى شاعرة مثله ومريم هارى صاحبة كتاب فتح البيت المقدس وعشرات أمثالهن من المشهورات . والمنافسة الادبية بين الجنسين النشط واللطيف على أتمها فى فرنسا حتى قال لى أحد كتّابهم انه سيجى . يوم على فرنسا لا يبقى لكتّابها وجه للمعاش الا أن يطيروا فى مناطيد الهواء فقط وما عدا ذلك فالنساء يتولينه بدنا . ولعل من يسبح فى أوروبا بعد عشرين سنة يشاهد ما لم نشهده الآن من الارتقاء المادى والادبى فقد ساح الشيخ رفاعه الطهطاوى فى منتصف القرن الماضى ولم يكن من مرسيليا الى باريز سكة حديدية بل كانت فيها حافلة بالدواب فاغتنبط بما رأى وساح احمد زكى باشا فى أوائل هذا القرن فركب القطارات فى أوروبا جماء . وسعدنا نحن اليوم فرأينا ما لم يكن يهتد من السيارات الهوائية والمؤلات فى العلوم والصناعات الادبية فنادا يشهد اولادنا وأحفادنا بعدنا يا ترى ؟

آلاف مدرسة يعلمون فيها العلوم العالية والدروس المنوعة بلغتهم ولم ينقصهم أساتذة ولا أعوزهم بالطبع التلامذة

فالمرأة البولونية وان عنت بتعلم اللغات الاجنبية عنها تحتفظ بلغتها ووطنيتها احتفاظاً أسأل الله أن يرزقنا نحن بعضه حتى انها اذا تزوجت من أجنبي لا تلبث أن تصبغ أولادها بصبغتها بحيث اضطر بسمر ك أن يسن في عهده قانوناً يحظر فيه على الضباط الالمان أن يتزوجوا من البولونيات اذ ثبت له أن الوطنية الالمانية كادت تضعف ويعروها الانحلال في القسم الذي أصاب مملكة بروسيا من ارث صاحب بولونيا

فياليت شعري متى يكون نساؤنا بل رجالنا في هذه المنزلة من صحة الوطنية مع الحرص على الجامعة العثمانية التي هي عدتنا في شدتنا وبدون هذه الجامعة السياسية لا يرجى لنا بقاء بعد الذي رأيناه من تكالب الغرب على الشرق فنحن ان أنصفنا لا نزرع يدنا من الجماعة لان يد الله مع الجماعة ومن رأى كيف كانت حالة سويسرا وألمانيا والولايات المتحدة قبل الوحدة السويسرية والالمانية والاميركية يدرك سر الاجتماع والتعاقد ويعرف ان المركب الكبير يستحيل أن تأتى عليه الانواء بقدر ما تضر بالصغير فقد يغرق هذا أو يستغرق في غيره ولا من يسمع به

تعلمنا أوربا وأميركا كل يوم معنى من معاني الوطنية والجامعات الجنسية ، فان كان بعض الاجتماعيين يدعون اليوم الى انشاء جامعة أوربية واحدة وبعضهم الى انشاء جامعة أميركية واحدة وبعضهم الى انشاء جامعة صفراء من اليابان والصين واحد أفلسنا نحن يا أبناء العثمانية أحرىء بأن نزيد في تكاتفنا وتكافلنا ونرفع من بيننا سوء التفاهم بسعى العقلاء منا .

طال المقال وبت أخشى عايكم الملل فهل تأذنون بأن أختمه بجملة واحدة للمقارنة بين أخلاقنا وأخلاق الغربيين وهي الأخلاق التي كانت من أعظم الوسائط في ارتقائهم كما كان تقيضها واسطة في انحطاطنا وذلك انني تبينت بالاختبار ان

الافرنج أكثر تفكراً منا في مصادر الاحوال ومواردها فهم لا يقدمون مثلنا على أمر قبل أن يوقنوا من أنفسهم الغناء فيه ، فالصانع في الغالب لا يتطال الى أن يكون سياسياً والمحامي لا يعمل في الزراعة ، وهكذا اختص أهل كل طبقة بطبقتهم وتفرّد كل عالم بما يعلم ولم يتعده فالاختصاص أو الاختصاص هو الذي كان واسطة نجاح الغرب ودعوى معرفة كل شيء هي التي كانت واسطة انحطاط الشرق .

الغربي يفتخر بأنه لا يعرف غير ما تعلمه في مدرسته وحصله من حرفته ، ولكنه تعلمه فبرز فيه وأحاط بأطرافه وصبر حتى نضج فتناول ثماره جنية ، أما نحن فنسارع في الهبوب كما نسارع الى الرقود فنهب دفعة واحدة كما نخمد كذلك الغربي يهجمه نجاح العمل من حيث هو عمل نافع لامته ولنفسه ولذلك جاءت مصانعهم ومعاهدهم بل وجميع شؤون حضارتهم نخمة خالدة وكانت مصانعنا ومعاهدنا وسائر أعمالنا مختلفة معتلة لا تدوم الا بدوام من عمل لها أول مرة فاذا ما ذهب تذهب بذهابه .

الغربي استفاد ويستفيد بتجارب غيره لان من عادته ان يحسن الانتفاع بكل شيء ، ونحن من عادتنا ان نهزأ في الاكثر بكل شيء .

الغربي يدخل الاصلاح الى داره وبيته وأمته بالتدريج بحسب سنة النشوء في عالم الكون والفساد ، ونحن نحب أن نطفر طفرة في اصلاحنا والطفرة محال لان سنن الفطرة لا تغالب ولا تعاند ، الغربي يحب النظام حتى صار ذلك طبيعة ثانية له ونحن لا يهمننا النظام ولا التنظيم ، الغربي معتدل على الاكثر في عامة أحواله ونحن أميل الى الافراط أو التفريط ، الغربي عبد الواجب ونحن قلما نقوم بفرض أو واجب فالغربي كما أحسن تقسيم الاعمال والاختصاص فيها أحسن استخدام الوقت احسانه لاستخدام عناصر الطبيعة مجده جد ولكن في أوقات الجد وهزله هزل ولكن في أوقات الهزل ونزهته نزهة ولكن في اوقات النزهة وعمله عمل محض ولكن في زمن العمل والشرق وبالإلأسف ليس كذلك .

أحسن الطبائع في الغربي خلق الاعتماد على النفس وانكار النفس فهو يعتمد على كفاءته أولاً ثم على محيطه وأمته وقد يهتم في الأكثر بمصلحة أمته اهتمامه أو أعظم بمصلحة نفسه ولذلك جاء كل غربي راقٍ أمة برأسه وأمة تتألف من أفراد هذا حال سوادهم الأعظم ينبسط ظل صمرانها ويمتد على الأرض سلطانها ، فالله أسأل ان يهب هذا الشرق المحبوب نفثة من تلك الروح العالية وهذا لا يرجى لنا الا بتكثير سواد امثالكم يا طلاب المدارس العالية ، فطلاب المدارس العالية هم ولا جرم اهل المطالب العالية فاعرفوا مقدار أنفسكم ومقدار الآمال التي تعلقها عليكم امتكم نضر الله وجوهكم وبيض بكم وجوهنا



الرحلة الثانية

دواعي الرحيل ومبرراتنا

٣٦

كل من طاف بلادنا وقابل بين حالها وحال الاقطار الراقية ، يدرك لأول وهلة اننا عيال على الغرب والغربيين في كل شيء ، وأنهم إذا قطعوا عنا أقل صادراتهم نعود أدراجنا على النحو الذي كنا عليه منذ بضعة قرون ، وهذا مما يصدق علينا في طامة شؤونا ، والعلم هو أول بضاعة يجب علينا أن نستبضعها من الغرب وهو رأس الحاجيات ، وبدونه الممات .

وما كنا نظن بعد أن أحفينا مكاتب مصر والشام لدرس موضوع « خطط الشام » اننا كلما أوغنا في تضاعيفه يتجلى كل التجلى جهنا ببلادنا ، واننا سنحتاج بعد بحث نحو خمس عشرة سنة ، إلى أن نقصد الى مكاتب أوروبا نأخذ منها ما فاتنا في أرضنا من المواد التي لم يحوها المطبوع ولا المخطوط ، مما كتب لنا الاطلاع عليه في مكاتبنا الخاصة والعامة

أي غضاضة على الشرق أن يرحل باحث في شؤونه حبا باتقان عمله الى غير أهله وبلده ، وأن يتسقط الفوائد من الغريب ، والقريب في معزل . بيد أن يوما طويلاً أمتدت لياليه السود على هذا الشرق سلبت منا بحكم تنازع البقاء وبقاء الانسب : تراث أجدادنا في هذا الوجود وجردنا من منافعنا ومرافقنا وكتب أسلافنا العرب كانت أول ما رحل عنا غير آسف اذ لم يعرف لها الاخلاف قيمتها الحقيقية ، والاسفار في كل الاعصار ، هي مفتاح فتح الامصار ، والعلة الاولى في سعادة البشر ، ونقل المدينيات من النظريات الى العمليات

هاجت الخواطر في النفس خصوصاً عند ما ذكرت أن أميراً واحداً من أمراء إيطاليا وهو البرنس ليوني كايثاني مؤلف تاريخ الاسلام الكبير هو الذي جمع بسعيه وتنشيط حكومته مكتبة له منقطعة النظير في الغرب تضم فيها كل ما يحتاجه باحث في تاريخ الاسلام والعرب وبلادهم فاستنسخ من المكاتب الخاصة والعامة في أوروبا وأميركا وآسيا وأفريقية كل مخطوط عربي فيه شيء من هذا القبيل وهالم يقدر على نقله أخذ له بالتصوير الشمسي فمن زار هذه المكتبة فكأنه زار مكاتب العالم أجمع واطلع على ما فيها من المواد التاريخية والجغرافية في هذا الباب .

شبهتني وأنا أشد الرحال قاصداً إلى رومية للبحث في مكتبة الامير الايطالي بطلاب العلم في أوروبا في القرون الوسطى وكان بعضهم من الاسرائيليين يقصدون بلاد الاندلس ليقروا على علماء العرب علومهم ويرجعوا من كتب المسلمين بيلة تروي غلة جهلهم ، فسبحلت وحوقلت ، قائلاً : ما أغرب تبدل الامم والبلاد ، وما أهنأ الغرب بما صار اليه من دواعي المنعة وأسباب العلم وما أشقانا بما فعل السفهاء منا .

يشقى رجال ويشقى آخرون بهم ويسعد الله أقواماً بأقوام
وليت شعري أيعود ذاك العهد السعيد بالعلم على العرب ويصبح أبناء اليوم يفاخرون بالقاهرة والقيروان وفاس ودمشق وبيروت وحلب وبغداد والموصل وصنعاء ومكة كما يفاخرون بفرناطة واشبيلية ولشبونة وغيرها من المدن في الاندلس وصقلية التي استعمرها العرب بالعقل والعلم وأضاعها بعد ذلك جهل ابنائهم وغرورهم أياهم الشرفى ياترى يعتقد فى نفسه الكفاءة والغناء ويقطع عن القول بأن الغربى يغمطه حقه باستباحته حماءه واكتساحه دياره الحين بعد الآخر ؟ أم يهب باحثاً عن جميع علل هذا الارتقاء عندهم والتدلى عندنا ويتعلم ما جهل مع الشكر لكل من يعلمه وينعشه من سقطته .

حكوماتنا هي السبب الرئيسى فى اظلام العقول واشتغالها بالفضول وأهل

الغرب هم الذين قوموا معوج حكوماتهم فهل ندرك جيلاً من الناس يقوم اعوجاج حكومات الشرق ونتمتع على الأقل بمعرفتنا بانفسنا ومن عرف نفسه عرف ربه

دار الدعوة والارشاد في القاهرة

٣٧

اغتنت فرصة مقامي بضعة أيام في القاهرة لفضاء بعض المشاكل أثناء شخوصي إلى إيطاليا لازور دار الدعوة والارشاد التي أنشأها صديقي السيد محمد رشيد رضا منشي المنار في السنة الماضية وكان يشوى انشاءها في الاستانة أولاً لو صادف من القابضين على زمام الامر تنشيطاً على مشروعه وغرضه الاول من انشائها ايجاد هيئة صالحة بالعمل من رجال الدين يجمعون الى معرفة الدين النقي وأسراره وحكمه المطابقة لاحوال الزمن معرفة أحوال العصر حتى تحل هذه الطبقة محل الهيئة القديمة التي كادت الامة تنزع ثقتها منها .

أنشأ هذه المدرسة الصديق الرصيف أو « جماعة الدعوة والارشاد » وهي جمعية مؤلفة من أهل الفضل والعقل والتدين « لتخريج علماء مرشدين قادرين على الدعوة الى الاسلام والدفاع عنه والارشاد الصحيح وارسالهم الى البلاد الشديدة الحاجة اليهم » و « يرسل الدعاة الى البلاد الوثنية والكتابية التي فيها حرية دينية ولا يرسلون الى بلاد الاسلام الا حيث يدعى المسلمون جهراً الى ترك دينهم والدخول في غيره مع عدم وجود علماء مرشدين يدفعون الشبهات عن الاسلام ويبينون حقيقته لاهله »

وقد جاء في النظام الاساسي لجماعة الدعوة والارشاد انه « تتكون أموال الجمعية من الاشتراكات الموقوفة والامانات والتبرعات والهدايا والوصاية والاوقاف التي توقف عليها أو ماتناله من ريع أوقاف أخرى ومن ريع رأس مالها »

و « يضاف ربع دخل الجمعية السنوى الى رأس المال للاستغلال وهذا ماعدا المبلغ الاحتياطى » وكان تبرع لهذه الجمعية بعض الاجواد من العرب وفي مقدمتهم الشيخ قاسم آل ابراهيم من كرماء جزيرة العرب بألني جنيه مباشرة ولعله يتبرع بغيرها كل سنة

فى جزيرة الروضة ^(١) المشهورة الآن بالنيل حيث قام فى جنوبها مقياس النيل المبارك بين جسر (كوبرى) عباس وجسر الملك الصالح أو بين القاهرة المعزية ومديرية الجيزة قامت اليوم دار الدعوة والارشاد فى احد مصايف أبناء شريف باشا الوزير المثرى المشهور وقد ضمت فى حجرها الى الآن صنفين عدد طلبتهما الداخلين ٣٥ والخارجيين يختلف بين ٢٠ الى ٣٠ يعلمهم عشرة معلمين منهم أناس من رجال الدين وآخرون أساتذة علوم صرف وطعام الطابة ونظافتهم ونظامهم فى قيامهم ومنامهم مالم يعمله طلبة العلوم الدينية اللهم الا أن يكون طلبة مدرسة القضاء الشرعى فى مصر لان مؤسس مدرسة الدعوة والارشاد أفراد ومؤسس مدرسة القضاء الشرعى الحكومة . والحكومة أقدر على البذل من الافراد .

ويستفاد من نظام مدرستنا هذه أنها تدرس العلوم والفنون التى تدرس عادة فى الكليات مع التربية الدينية وزيادة العناية بالعلوم الاسلامية تنشأ أقسامها بالتدريج يبدأ منها بقسم طال لتخريج الدعاة الى الاسلام والمرشدين للمسلمين بالوعظ والتدريس ولسان التدريس فيها اللسان العربى ويتحتم فيها تعلم لغة من لغات العلم الاوربية ويجوز أن تدرس فيها عدة من اللغات الشرقية والغربية ولا سيما لغات الشعوب الكبيرة من المسلمين كالتركية والفارسية والاوردية والملاوية . ومدة صنف المرشدين ثلاث سنين وكذلك صنف الدعاة ويختار

(١) هذه الجزيرة هى التى ورد ذكرها كثيراً فى شعر المصريين منذ القديم وتفرلوا بمعاسنها وللسيوطى كتاب فى تاريخها اسمه « كوكب الروضة » من جملة مخطوطات الخزانة التيمورية أو مجموعة أحمد تيمور باشا من علماء القاهرة وأعيانها

طلابه من متخرجى صنف المرشدين يمكثون ثلاث سنين أيضاً وذلك ماعدا السنة التمهيدية الاولى .

التعليم في قسم الدعاة والمرشدين من المدرسة مجاني والمدرسة تنفق على الطلاب الداخليين فيه وتكفيهم كل ما يحتاجون اليه فيها وتعطيهم أعانة شهرية بحسب الحاجة والاجتهاد والتهديب لا تقل عن ريال مصرى في الشهر وأما الطلاب الخارجيون فلا تنفق عليهم شيئاً .

ومما يشترط في قبول الطالبة الداخليين أن تثق المدرسة بأن طالب الدخول حسن السيرة وتكون سنه بين ٢٠ و ٢٥ وأن يكون حافظاً لطائفة من القرآن الكريم بحيث يسهل عليه اتمام حفظه قبل اتمام دراسة الصنف الاول وأن يكون قد حصل قدراً صالحاً من النحو والصرف والفقه وعرف القواعد الاربع من الحساب على الاقل وان يكون صحيح الاملاء حسن الخط في الجملة جيد المطالعة في الكتب العربية ومن أصل قديم في الاسلام وتتحرى المدرسة أن يكون طلابها من الاقطار المختلفة وتمرنهم على القيام بالفرائض والسنن وعلى الرياضة البدنية والتخاطب باللغة الفصحى داخل المدرسة وخارجها

واذا وفقت هذه المدرسة الى تطبيق فصل العلوم والفنون التى تدرس فيها حق التطبيق يحىء ولا شك من متخرجيها طلاب يشبهون دعاة الكتائب والارثوذكسية والبرتستانتيه في علمهم واستعدادهم خصوصاً ومن غرض المدرسة في باب تربية الاخلاق ان يعلم الطالب « الفرق بين زماننا وزمان القرون الاولى من المسلمين في الحاجة إلى سعة الثروة وتوقف حياة الامة عليها الآن وعدم توقفها في ذلك الزمن وكون الزهد الصحيح والقناعة الفضلى لا ينافيان تحصيل الثروة وعمارة الدنيا لانهما من صفات القلب وفائدتهم أن يجعل الانسان فضل ماله لنفع أمتة ومجد ملته وأنه لا ينبغي تعمد ترك تحصيل الثروة الا لعمل أنفع للامة والملة . » ويعلمون في باب انتقال الامم والدول من حال الى حال مثل قوله سبحانه « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وقوله « وتلك الايام نداولها بين الناس »

هذا ما أمكنني التقاطه مما عساه يفيد وانى لأرجو لرئيس جماعة الدعوة والارشاد محمود بك سالم أحد علماء مصر العاملين وسائر مؤازريه الفضلاء الخير في الدارين لعملهم المبرور وآمل أن يكتب البقاء لهذا العمل العظيم بهمة جامع شمله الاستاذ محمد رشيد رضا ناظر المدرسة ووكيل الجمعية وان يكون أساسه على صخر متين سده الماديات ولحمته المعنويات فيكون من ماديته مخرجا الى معنوياته والسلام

في طريق رومية

٣٨

أول ما يلاحظه المسافر من الأرض العثمانية الى الديار الاوربية ان كل ما يقع نظره عليه هو غريب عنه ليس له منه الا النظر . فسبحان من جعلنا في بلادنا وبلاد غيرنا غرباء مساكين .

ركبت هذه المرة القطار من دمشق الى بيروت وهو لشركة فرنساوية ثم أبحرت من ثغر الشام على باخرة ايطالية (تيفرا) حتى اذا بلغت الاسكندرية وارتدت الركوب منها الى نابل ميناء رومية ركبت الباخرة « البرنس هنرى » من بواخر شركة نوردتش لويد الالمانية وهكذا كنت غالة في تنقل على الفرنساوى والاطالى والالمانى ولوقصدت وجهة أخرى لكنت في ضيافة الرومى والنمساوى والانكليزى والرومانى !

حالة يأسف لها وأيم الحق كل من ينبض فيه عرق الوطنية لأنها تصغر نفسه في عينه ومن ساء ظنه بنفسه انحطت عن كل عمل . نعم يتألم الفؤاد من هذه الحركة الاقتصادية المباركة لان العثمانيين عامة والسوريين خاصة بعيدون عنها كل البعد ليس لهم علم الغربى يذكرون به ما ينهضهم من كبوتهم ولا مضأؤه ليتمثلوا به في جهاد الحياة الراقية ولا أسبابه المادية التى تبعثهم على تقليد الناهضين من شعوب العالم المتحضر في هذا العصر

نحن وباللاسف نريد أن نعيش في القرن العشرين عيش ابن القرن العاشر ونرى لسوء حظنا ان مجدنا القديم يكفى تذكره وحده ليحيينا الى الابد حياة طيبة رشيدة ونتطال الى أن تقنع العالم بل أنفسنا بأننا شعب راق بمجرد ايراد الشواهد على أيامنا الفر المحجلة في تاريخ المدينة السعيدة ولكن حضارة الغرب اليوم لا تبقى على ضعيف في قوته ومعرفته ومادته وحكومته . هي تبتلع العالم والشاهد على ذلك استصفاؤها قارة أفريقية وتوشك أن تستغرق قارة آسيا لولا بقايا شعوب مستقلة عظيمة كاليابان والصين .

مدينة أوربا هي التي حملتنا في البحر المتوسط من بيروت الى الاسكندرية في ٣٢ ساعة ومن الاسكندرية الى نابل في ٧٠ ساعة ومن نابل الى رومية في أربع ساعات على السكة الحديدية . والبخار والكهرباء هما صفوة العلم الاوربي بل المثال الحى من هذه المدينة الحية التي سيعم فضلها كل بقعة من بقاع الارض شاء أهلها أم أبوا فتحيا الامم التي تقوم بما قامت به أم الحضارة الحديثة وتموت لامحالة الامم التي لها من حكومتها أو من تقاليدها أو من ضعفها ما يعوقها عن الانبعاث والحركة .

تهتز نفس الشرقى وأى اهتزاز عند ما يدوس أرض الغرب وتتوارد الخواطر عليه والتذكارات والمؤلمات وتتنازعه عوامل المنشطات والمثبطات . هكذا كان حالى يوم أزعجنى القدر منذ أربع سنين فنزلت مارسيليا ثغر الفرنسيس وهكذا أنا اليوم وقد وافيت نابل ثغر الطليان . وليس في هذه الفرضة من جديد فان حركة المدن الساحلية والعواصم الغربية واحدة اجمالاً تكاد تتشابه لأنها قائمة بالعمل قوامها انتظام أحوال تلك الحكومات وتناغم سكانها بوطنيتهم وذهابهم بفضل العلم والنشاط وتميزهم بالذوق واللفظ

من أجل هذا كانت نابل مثالا مصغراً من حضارة الطليان ورومية وهذه هي العاصمة المثال المكبر والفرع يدل على أصله والكتاب يقرأ من عنوانه . لم يتسع لى الوقت وقد قضيت يوماً في نابل ان أزور معالمها وكنيتها وآثار بومبي

الرومانية خصوصاً وهي على مقربة منها لأننى فى صدد البحث عن تاريخ أجدادى
وبلادى لآتهمنى أولاً إلا الغاية التى أنا قاصد لها من البحث عن المخطوطات حتى
إذا كان فى الزمن متسع أزور من معاهد هذه الديار ومصانعها مانستفيد منه
عبرة لنا ولامتنا وينفعنا فى الاخذ بمذاهب الرقى ان صحت نياتنا عليه .

الى ساعة كتابة هذه السطور لم أتمكن من معرفة شيء من أحوال ايطاليا
اللهم الا ما هو معروض فى الازقة والشوارع والساحات ومحال القهوة والمتنزهات
وهذا لا يبنى عليه حكم ومع أن الطبقة الراقية تكلمك باللغة الافرنسية وكذلك
تتخاطب مع أهل الفنادق والمخازن الكبرى وبعض الاماكن العمومية فانك تجد
صعوبة فى التفاهم مع جميع طبقات القوم لجهلك لغتهم الوطنية . هذا مع تقارب
اللغتين الافرنسية والايطالية احدهما من الاخرى واللغات اللاتينية أى الافرنسية
والايطالية والاسبانية والبرتغالية متشابهة لانها من أصل واحد كما أن اللغتين
الالمانية والانكليزية متشابهتان لانهما من أصل سكسونى واللغة الروسية والرومانية
والبلغارية والصربية متشابهة لانها من أصل سلافى .

ومع أن جليستك تنقبض نفسه منك فى العادة اذا لم تكن لك معه لغة مشتركة
لا تجد فيما تسمعه فى المحال العامة ودور التمثيل والمرسقى هنا ثقلاً على سمعك من
لغة الطليان وان كنت لا تفهمها بل تبلغ نبراتهما صماخاً اذنك كأنها أوتار موسيقار
تتكلم ألحانها أكثر من ألفاظها . ولا عجب فاطاليا مهد الصناعات النفيسة بل
هى بلاد الموسيقى والشعر والتصوير والبناء عرفت بذلك منذ أوائل عهد الاسلام
وباعت من الغرب بل ومن الشرق موسيقاها وشعرها وتصويرها وهندستها وهى
بلاد النهضة منها نشأت وانتقلت الى فرنسا وأوربا كلها وطلليان الجنوب يشبهون
السوريين فى كثير من عاداتهم وملامح سحناتهم وكلما تقدمت نحو الشمال تزيد
المدنية ويفخم العمران .

وعلى ذكر الجنوب والشمال لا بأس بأن يعرف القارىء ان البلاد الاوربية
كلما قربت من سمت الشمال كانت أقرب فى الجملة الى الاخذ بأسباب الرقى والحضارة

وهذا مشاهد محسوس . فانك تجد شمال ايطاليا أرق وأحمر من جنوبها وكذلك فرنسا بل ان ألمانيا في جنوبها أحط منها في شمالها وهو سر غريب من أسرار هذا الكون ولعل الباحثين في طبائع الاقاليم بحسب القرب والبعد من خط الاستواء لا يعدمون تعليلاً لذلك . أما رومية فهي مجموعة بدائع الطليان ولا جدال لانها معدودة من أواسط ايطاليا على ما سنده

الامير كايثاني

٣٩

كان الاغنياء والأمرء في الغرب قبل أن تتقرر قواعد المدنية الحديثة وترسخ أصولها يدلون على شعوبهم بحكم التغلب وقوة المال وأرجحية القدم أما الآن فان أمثال هذه الطبقة أدركت أن كل تلك الامتيازات والاعتبارات قد ألغتها القوانين الدستورية في الامم الحرة النيابية فلم يبق من أسباب الفخر الا شخصية المرء وعلمه وعمله ولذلك لا تسمع بامثال هؤلاء الناس الا اذا أتوا عملاً ينفع المجتمع ويخدم الحضارة أو يرقى بها درجة أخرى

ومن جمع بين فضيلتي المجد القديم والمجد الحديث فقد عصامياً عظامياً الاميرليونى كايثاني من كبار الأسر القديمة في رومية التي يرد تاريخها الى زهاء ألف سنة ومنها خرج رجال خدموا أمتهم على اختلاف العصور والمنازع فكان منها الباباوات ورؤساء الدين والقواد والحكام ولقد سار سليل هذا البيت على سنة كثير من أمرء الغرب فلم تبطره الزخارف ولم يستهوه المال والمجد القديم وتنكب عن الرفاهية منذ صغره فدرس في كلية رومية الآداب وأتقن من اللغات الايطالية والافرنسية والانكليزية والالمانية واللاتينية والفارسية والعربية ولما أحرز حظاً وافراً من العلم والآداب ممت به همته وهو قبيل الخامسة

والعشرين أى منذ زهاء عشرين سنة أن يضع لامته كتابا فى التاريخ الاسلامى باقتها يغنيها عن أكثر الكتب ويرفع كثيراً من المشاكل فى تاريخ العرب الذى أدهش العالم . فجمع لذلك مكتبة ضخمة باللغة العربية وغيرها من اللغات واستنسخ وأخذ بالتصوير الشمسى كل ما عرف من تاريخ العرب من المخطوطات وكان مبعثراً فى مكاتب أوروبا وغيرها فجاءت مكتبته خير مكتبة فى الشرق والغرب فى موضوع التاريخ الاسلامى خاصة ومن رآها فكانما زار مكاتب الغرب للبحث عن آثار العرب ومدنيتهم

ولقد نشر حتى الآن من تاريخه ستة مجلدات ضخمة ولم ينجز بها أكثر من عشرين سنة من تاريخ الاسلام وهو يرجو ان يفسح الله فى أجله عشرين سنة أخرى ليكمل القرن الأول للاسلام فيقع فى خمسة وعشرين مجلداً^(١) ولا يطبع من تاريخه أكثر من مائتين وخمسين نسخة يوزعها على الجامعات العلمية فى بلاده وفى الغرب وعلى بعض أصحابه من العلماء فقط وقد جعل شعاره فيها قول الشاعر العربى :

كفاف عيش كفانى ذل مسألة وخدمة العلم حتى ينقضى عمرى
يقول كفاف عيش وثروته وثروة أليه فيما بلغنى تقدر بمئة مليون فرنك دع
ثروة حليلته الأميرة وهى غنية أيضاً ولهم المزارع الواسعة فى ضواحي رومية
إذا استثمرت حق الاستثمار على أحدث الطرق تزيد ثروتهم أضعافاً والأمر مع
هذا تفرغ الى العمل فى مزارعه ويتعهد بها كما يتعهد رياض العلم كل يوم ويصرف
على اتقان عمله الذى صرف شبابه وهما هو يصرف الآن فيه سن الكهولة
وسيصرف فيه أيضاً سن الشيخوخة بحول الله شطراً ليس بقليل من المال فعنده
ثلاثة مترجمين من اللغات المختلفة ينظر فيما يترجمون لكتابه من المواد ما عدا ما ينفقه

(١) عجيب صبر الايطاليين على تأليفهم فان المستشرق ميشل امارى قد تعلم اللغة العربية واتقنها خاصة ليكتب كتابا فى تاريخ صقلية فكتب مطولاً لم يسبق اليه عند قومه وهو المرجع اليوم فى تاريخ هذه الجزيرة الايطالية التى دانت للعرب قرنين ونصفاً وقد نشر امارى جميع ما كتبه مؤرخو العرب عن هذه الجزيرة باللغة العربية فى كتب ورسائل كثيرة

في المكتب وطبع كتابه ولكن كل ماينفقه في سنة لا يعادل ماينفقه غنى واحد من فساد أغنياء الاميركان أو الروس مثلاً في ليلة واحدة في باريز أو مونت كارلو فسبحان من أودع في كل قلب ماأشغله

طاف الأمير كثيراً من بلاد الشرق ولا سيما الهند وفارس والشام ومصر ودرس أحوالها وطابق بين ماضيها وحاضرها فاذا تكلم في تاريخنا صدر عن علم نظري وعمل . ولقد ذهب منذ ست سنين الى بلاد الشام ليرى بمينه المكان الذي كانت فيه الوقعة الفاصلة بين العرب والروم في اليرموك . وهذا قلما يتيسر الا لمن أوتي همة شماء واستسهل ركوب كل صعب في سبيل تحقيق رغائبه .

وما زال منذ بدأ في التأليف وهو يدأب وراء منضدته في مكتبته كأنه عامل بسيط فانه يبدأ في عمله كل يوم الساعة الخامسة صباحاً على الغالب ولا يزال أكثر النهار يعمل ويطالع لاتعروهمته ملل ولا ينظر في سفاسف الأمور . ولقد كان نائباً في الانتخاب الماضي في مجالس النواب فأضاع في النيابة شيئاً من وقته ولكن لم ينتخب هذه المرة فكان ذلك من حظ العلم والآداب لانه توفر بجملته على خدمتهما .

وعدم انتخابه ناشئ من أن خصومه السياسيين اتخذوا من خطة الأمير في مسألة فتح ايطاليا لطرابلس وبرقة حجة أثاروا بها الرأي العام حتى لا يعودوا الى انتخابه وذلك ان الأمير أحب أن يتكلم بلسان العالم المنصف ولم يعقه حبه لامته عن أن يقول لها وقت قامت حكومته لفتح تلك البلاد ان هذا العمل منها ضرب من ضروب اللصوصية لا يليق بأمة متمدنة وليس له مسوغ معقول قال هذا بالتلميح في المجلس وكتبه في الصحف الايطالية وغيرها بالتهريج فحنق عليه من حنق وأثاروا الخواطر من جهته وقد بذل مالا كثيراً للنيابة عن أمته قيل انه عشرون ألف ليرة ولكن خصمه بذل خمسة وثلاثين ألف ليرة ففاز عليه .

والأمير على مارزق من الشهرة العلمية لجمعه بين المجد التالد والطارف رقيق الحاشية يغلب عليه عدم التكلف ولما قابلته لأول مرة حاملاً اليه من صديقه

أحمد زكى باشا العالم المصري كتاب توصية ليقبلنى للبحث فى مكتبته اعتذر عن كونه قابلى بثياب عمله وقال ان عنده شيئاً من المخطوطات العربية أخذت بالتصوير الشمسى ولا يدرى ان كان فيها حاجتى على أنه تفضل ودلى على مظاهها وما برح اليوم بعد الآخر يشير على بالرجوع الى كتاب كذا فيه مادة لكتابى وهو يبش ويقول فى الاحايين أنه مسرور لعثورى على شذرات تهمنى كل هذا وهو لا يضيع دقيقة من وقته الثمين وناهيك بارتفاع أسعار الأوقات فى الغرب ولا سيما عند المشتغلين بالعلم والتأليف ومنهم أرباب الصحف والمجلات ومنشؤها مثلاً .

لئن امتازت الخزانة التيمورية فى مصر بانها تحوى أمهات كثيرة من مخطوطات علماء الاسلام فى علوم مختلفة وامتازت الخزانة الزكية بالقاهرة بجمعها أنفس المطبوعات العربية فى الغرب فان الخزانة الكايتانية فى رومية تحوى على الغالب أهم كتب التاريخ الاسلامى أو ماله علاقة فيه وذلك باللغات المختلفة ولا سيما العربية مما هو جدير ان يرحل اليه من الصين لامن دمشق .

وقديماً كان أمراء المسلمين وعلماءهم يفتحون خزائهم للباحثين والمؤلفين ينزلونهم على الرحب والسعة كما فتح منصور بن نوح السامانى خزانة كتبه لأبى منصور الثعالبى فألف فقه اللغة وكما فتح على بن يحيى المنجم من أهل القرن الثالث فى قرية له نفيسة بكركر من ضواحي القفص خزانة كتب عظيمة فى قصره الجليل ومماها خزانة الحكمة فأخذ الناس يقصدونها من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم والكتب مبدولة فى ذلك لهم والصيانة مشتملة عليهم والنفقة فى ذلك من مال على بن يحيى وكما وقع من غيرهما كثير أما اليوم فان هذا المعنى كاد يتفرد به علماء الغرب وأمراؤه وأصبح الشرق بلقماً حتى من كتبه وآثاره وانتقل تراثه بحكم الطبيعة الى من أحسن تمهده واستثماره سنة الله فى خلقه .

نساء الانكليز

٤٠

الانكليز أعجب أم الحضارة في أخلاقهم وعاداتهم لا يقبلون الجديد الا بشق الاتساع ولكنهم اذا قبلوه تناغوا فيه وحرصوا عليه وبرزوا على من سبقهم وسابقتهم

والغالب ان كل الحاجيات تمت أو كادت في هذه المدنية الغربية حتى قامت بعض نساء الأمم وطالبت بأشراكهن في حقوق المدنية فاصبحن ينتخبن نائبات في المجالس النيابية ويشركن الرجل في أعمال السياسة ومن الفائزات السابقات في هذا السبيل نساء فنلندا وأستراليا وزيلاندا الجديدة والنرويج .

رأى النساء الرقيقات من الانكليزيات ذلك ورأين حقوقهن مهضومة مع الرجل وغرن - والغيرة من خصائصهن - من اللاتي سبقنهن من بنات جنسهن وقمن منذ ثلاثين سنة يطالبن حكومة بريطانيا العظمى بحقوق بنات حواء وما زلن منذ عقدت العقيلتان كوب وميلنر احتجاجا في لندرا سنة ١٨٨٤ وهن على وتيرة واحدة من السعي وراء مقصدهن لم يدخل الملل على نفوسهن

خطبت اذ ذاك العقيلة ميلنر وقالت انها أزمعت أن لا تدفع الخراج الذي عليها للجابي بحيث تضطره الى أن يكسر بابها ويحجز متاعها وهكذا تقاوم الحكومة وكل سنة تزيد قسوة واملا لا . فضحكت الصحف من هذا القول اذ ذاك ومن الغد أرسل اليها من جميع أطراف انكلترا ابر للخياطة . اشارة الى أن المرأة هذا شأنها ولا يليق بها ان تخرج عن هذا الحد

ولكن المطالبات بهذا الحق ظالمن يجهن قواهن هذا وهن على عهد الملكة فيكتوريا التي سنت لاهلكات دع نساء الطبقات المختلفة من السوق سنة توفر النساء على تربية أولادهن وتدير منازلهن والقيام على أسرتهن ويوتنهن حتى

قالت في مفكرتها ان أحسن امرأة هي التي تبدو صالحة لزوجها وأولادها .
ولقد ربت ملكة انكلترا وأميرة الهند بناتها على التربية البيتية الراقية
حتى ان الأميرة أليس دي هيس درامستاد كتبت الى أمها تقول : ها قد صنعت
الفساطين اللازمة لبناتي الصغيرات في الشتاء فعملت منها سبعة ولم أطرزها فقط
بل فصاتها وخطتها وعملت أيضاً رداء من الصوف للطفل الذي ننتظر قدومه وأنا
التي أتولى حسابات الدار ولذلك ترى مستغرقة في العمل . ان أسرتنا الصغيرة
تزداد بسرعة وستقضى علينا الحال بعد بضع سنين أن نعيش باقتصاد زائد .
في مثل هذه الأمة التي ملكتها وأميراتها على هذا الطرز من حب الانصراف
الى الاعمال البيتية يقوم ربات الحجال في أقصى بلاد الشمال ويعمدن الى القشوة
في المطالبة بحقوقهن السياسية حتى لقد لجأن كما قالت جريدة الماتين من مقالة
افتتاحية الى استعمال القوة في مقاومة رجال الضبط والربط بل ان تلك الأيدي
اللطيفة التي يجب أن تكون رباتها ملكية الاخلاق بلطفها ودعتها هي التي تهمها
« التيمس » بانها تشعل الحريق في بعض بلاد الانكليز لتحمل الحكومة على
اجابة تلك المطالب وانه قد حرق في شهر تشرين الاول الماضي في بريطانيا من
الأملك ما يقدر بنحو ستة ملايين فرنك ونصف وثبت بالتحقيق أن للمطالبات
بحقوق النساء يداً في نحو عشر حرائق منها وان النساء المتحمسات لهذه الفكرة
يطلبن شيئاً من المال فلا يلبث أن يحمل اليهن فقد طلبن مرة مئة ألف جنيه وأخرى
ربع مليون جنيه وكلما طلبن مالا يأتين عفواً ويقدر ما يصرف النساء الانكليزيات
في الشهر بنصف مليون فرنك على تحقيق مطالبهن

هذه هي أعمال النساء الانكليزيات ومعظم البشر لا يوافقونهن على استعمال
القوة في مقاومة القوة ولكن هذا الثبات يدل على روح غريبة لا أثر لها في الشرق
وكيف تكون حال نساءنا مرضية وهن راضيات عن تقهرهن فرحات بجهن .
العامل لا يطلب لنساء الشرق أن يشاركن الرجال كما هن في الغرب فان تقاليدنا
وأدياننا وعاداتنا لا تنطبق مع هذا ولكن كل ما تنقيد به من قديم لا يحول بين

نسائنا وبين التعلم . وليت شعري كم مدرسة فتحت لتربية البنات في عهد الدستور في القطر السوري وكم رجل فكر أن يعلم بناته فن تدير المنزل كما يعلم في الغرب . القشور التي يتلقفها بعض بناتنا في مدارس الاميركان والفرنسيس والالمان ومدارس الحكومة لا ترقى أمة تشكو الليل والنهار من جهلها وجاءتها وتجيئها جميع المصائب من تعشيشه في صدور كبرائها فما بالك بالصغار . ان ما يراه السائح في أوروبا من مظاهر تربية المرأة ومضاهاتها الرجال في جلائل الاعمال يكيه على الشرق ولا سيما الشرق الاسلامي الذي تأتية العبر عن ايمانه وشمائله ولا يعتبر

تسعى ايطاليا اليوم لاعطاء المرأة حقها في التصرف بما لها كما تحب دون أن تكون مقيدة بارادة زوجها أو وليها كما كانت حتى الآن وفي الشمال حاز بنات نوعهن كل هذه الحقوق وهن يطالبن بحقوقهن السياسية ونحن حتى الساعة لم يفكر نساؤنا ورجالنا في شيء لانهاض المرأة من كبوتها فما أبعد الفرق بين الجنوب والشمال في تربية الرجال وربات الحجال

وبعد فانا نشاهد كل آن العجب العجاب في هذه الديار الغربية من مشاركة الرجل للمرأة في أعمال الحياة مشاركة هي على غير الطريقة التي جرى عليها الشرقي الاقرب الذي جعل المرأة في منزلة يصح أن يقال انها أقصى دركات الانحطاط وهيات ان تنجح أمة نصفها عاطل لا يعمل ولا يفكر ينظر اليه بغير العين التي يجب أن ينظر اليه بها وينزل منازل الجهل والحمول .

قلنا ان العاقل لا يطلب لبلادنا ان تكون المرأة فيها كما هي في الغرب فان هذا أشبه بمريض يحتاج الى جرعة من الدواء قدر درهم فتعطيه رطلا وبذلك تقتله لا محالة . نعم لا نريد لنسائنا الآن أن يكون لهن حق المشاركة في السياسة ولا الاختلاط بالرجال على مثل هذه الحال ولا ان يكن منقطعات الى العلم والآداب فقط بل نريد تعليمهن التعليم الابتدائي الراقى الذي يكون محوره ترقية عواطفهن الدينية والمدنية ليكون من المرأة أم تحسن التوفر على تعهد بنيتها وبيتها وتدخل

السرور على قلب بعلمها ومحارمها وان نقتطع فئة من هؤلاء المتعلمات للتعليم ليتخرج بهن البنات والصبيان على السواء وهن يكن من الدارسات العلوم العالية بالطبع

قرأت الآن في « الجورنال » مقالة افتتاحية لاحد المشتغلين بالتعليم عند الفرنسيس جاء فيها بمناسبة القانون العسكري الجديد وجعل الخدمة ثلاث سنين ان فرنسا استاقت ألفاً وستمئة معلم في سن القرعة للخدمة العسكرية وانها ستستعيض عنهم بالمعلمات يعلمن الصبيان قال الكاتب انه ساح في أوقات مختلفة في عدة بلاد كانت فيها المدرسة الابتدائية تقبل الفتيات كما تقبل الفتيان معاً على نحو ما تقبل المدارس العليا الطالبات مع الطلاب فرأى ان ذلك لا يضر بالآداب بل ينفعها فان الرجال لما كان شأنهم أن يعيشوا مع النساء فمن السخف ان يفصل بعضهم عن بعض عشراً وخمس عشرة سنة وان يعود كل جنس أن يعتبر الجنس الآخر دخيلاً وخطراً فان التعليم المشترك يفرس في الفتيان الشعور بالرجولية وفي الفتيات حياء بدون أن يكشرن عن أنيابهن . فانا نحمد في البيوت التي يكون للبنات فيها اخوة وللأخوة اخوات يحرزن صفات ليست أصلاً لغيرهم من الاولاد ونحن لانريد مدارس مختلطة بل مدارس للصبيان تسلم أزمة التعليم فيها للنساء المرأة تحب الأولاد وتعرف مراميهم فان فطرة الامومة التي تتنبه في الفتاة تحب اليها الأولاد وتعرفها بهم ويكون الأولاد في الحال على ثقة مع معلمة فتاة كانت أو عجوزاً في حين ان شبان المعلمين لا يتيسر لهم أن يحبوا الاولاد وذلك لأن المتزوج رب الأسرة ربما توسع في حبه أولاده فاحب أولاد غيره على ما يوحى اليه العقل ولكن معلماً في العشرين لم يتزوج لا يحب الاطفال بل يضربهم ولا يبالي بهم لانه يعتقد نفسه بأنه أشبه بالمرضعة وان درجته انحطت فيجب مراعاة لمصلحة التعليم والأولاد معاً ان يوسد أمر التعليم في مدارس الأطفال الى النساء بدون استثناء فان الطفل الذي يبدو شيطانياً امام معلمه يحاول أن يرضى معلمته كما هو الحال في المقاطعات المتوحشة في غربي الولايات المتحدة فيستبدل بمعلمة كل معلم

لا يحسن التصرف مع الأولاد فيعود نظام المدرسة الى أحسن مما كان
قال ان للمرأة أسراراً في اللطف والصبر والثبات الممزوج بحب وحسن النظر
يجعلها حتى المعلم الخبير فما بالك بالمتدء بالتعليم . المرأة تعلم وتقيم ألف أمر
لا يستطيع الرجل أن يفهمها ولا يحرزها . أنها رزقت جميع أسباب اللطف التي
ترافق الاحسان .

هذا ماله تعلق بموضوعنا نقلناه فتمى تنشأ لنا مدرسة في كل حاضرة من
حواضر بلاد العرب تعلم الفتيات ليكن معلمات للبنات أولاً وان أمكن للصبيان
أيضاً ورثما تم هذه الامنية يكتبني اليوم بالمتخرجات من مدارس المبشرين أو
المدارس الطائفية ويوسد اليهن تعليم البنات والبنين .

وما أظن الا القليلات من المتعلقات في بعض المدن العربية والقليل من
المتعلمين يفكرون في هذا المطاب الجليل الذي هو اهم الادواء القتالة في جسم
مجتمعنا وهيئات أن يحصل على شيء من البرء الا بتعليم البنين والبنات بل انه
بدون العناية أولاً بتعليم البنات لا تستقيم لنا مدنية وتكون تعليمها الأمور
النافعة بحسب ما تقضى به عاداتنا ومعتقداتنا فينهض المجتمع العربي بانهاض شأن
المرأة وبدون ذلك لا أمل لنا باصلاح بيوتنا

المرنية لا تشفى

٤١

أحببت أن أخدر أفكارى موقتاً عن النظر في اخبار بلادى فأخذت أطلع
بكثرة صحف هذه الديار ولا سيما باريز منها وأغنى عناية خاصة بالحوادث الداخلية
مما لا يتيسر للصحافي الشرقي كل حين فأتلو كل يوم مرات أخبار القتل والانتحار
والاعتداء والفجائع والفظائع بتفاصيلها وكلها تدل على استهانة الغربي بالحياة
جرباً علي ماورد في المثل العربي « احرص على الموت توهب لك الحياة »

لا ينكر ان من الحوادث الطارئة هنا ما يسوق اليه اختلال الشعور من الاكثار من الخمر وانحلال العقيدة باليوم الآخر ولكن منها ما يدل على شمم وعزة نفس وتوقع المجد والشهرة . وبيننا نجد ابن البادية عندنا يقتل عابر سبيل ليذهب ببندقيته أوفرسه أو كيسه أو ثوبه ترى الغربي ينتحر هو وزوجه أو ولده تخلصاً من شقاء الحياة أو تفادياً من الوقوع في فضيحة أو لسائق غضب أو غير ذلك من الاسباب ومنها التافه ولكنها كلها تدور على احتقار الغربيين للحياة .

قرأت الآن في « البتي جورنال » ان العلماء بدأوا يتحركون لفقد بعض أجناس من الحيوان كادت تضيع بسوء تدبير الانسان وظلمه وقسوته وان المجمع العلمى الباريزى قد حصر جلسته الأخيرة فى البحث عن أسباب حماية الفيل والكركدن والحوت والطيور التى تكثر فى البلاد الحارة وتصاد بلاشفقة ليتزين نساء الغرب بريشها واذا لم ينظر فى طريقة تحفظ بها انسال هذه الحيوانات تنقرض بعد بضع سنين لا محالة فيكون الناس أشبه حالا بحكاية من قتل الدجاجة اعتقاداً منه ان فى بطنها بيضة ذهب .

قال صاحب المقالة : منذ عرف العالم مازال الانسان يظلم ويطمع فى القضاء على الحيوانات ويسئ استعمال الأسباب التى جعلتها الفطرة أمامه فلاجل تقع معجل بل وربما كان جلب سرور بربرى يقتل بدون خشية أنواعا من الحيوانات النافعة التى يحدث من فقدانها اختلال فى ميزانية هذا الوجود . هو يقتل الفيل لان العاج ثمين جداً ويذبح كلب البحر لان جلده يباع بثمان غال ويصيد الجوارح والطيور لان ريشها تزدان به رؤس النساء المتبرجات الخ

وبينا أتصفح هذا وأعجب من رقة شعور القائمين بهذا الأمر وعظفهم على الحيوان وخوفهم من انقراضه مخافة أن يحدث منه خلل فى ميزانية عالم الكون والفساد ، اذا بي أرى فى الصفحة الثانية أخباراً من فجائع الطيارات وهلاك الطيارين مما يحدث مثله كل بضعة أيام فى الغرب لان مدنيته لا تشفق بل لا تقوم الا ببذل بعضهم أرواحهم فى سبيل اعلاء كلمة العلم

كان بعض رجال الرحلات من الغربيين منذ قرون يهلكون في الصحاري والقفار أو في القطبين وتجشم أخطار البحار أما اليوم فبعد ان اكتشفوا العالم الأرضي أصبحوا يريدون أن يكتشفوا العالم السماوى كانوا بالأمس يعملون في البسيطة وهم اليوم يريدون أن يسخروا الجو وما ندرى غداً ماذا يخبأ العلم والاختراع من بدائع المستحدثات التى تباع فى تحقيقها الارواح بيع السماح

كنا بالأمس نقول اذا تلونا سياحة أحد أرباب الرحلات من الغربيين ان كاتب الرحلة فى حلم يملئ من عالم الخيال ليرى أنه لقي أهوالاً من سفره ويشهر بين جيله وقبيله وزجج أن معظمها أشبه بقصة السندباد البحرى وحكاية ألف ليلة وليلة بيدان ما تقرأه اليوم بل نشاهده عياناً من أخبار الطيارين فى طيارات السماء كاد يدعونا الى تحسين الظن بأكثر ما أورده أرباب الرحلات وان هذه المدنية التى نتمتع بها ان هى الاثمرة الاستهانة بالحياة فى سبيل الأغراض الشريفة .

مدنية الغرب تقتل الحيوان لفائدة الانسان بل تقتل الانسان لفائدة الانسان وهذه التجارب التى خص الغربى بطول الروح عليها هى التى نشأت منها أكثر الاختراعات والاكتشافات الماثلة حسنها للبشر اليوم منادية بأن الأمم التى قام أبناؤها بشيء من هذه الاعمال حرية بأن تنال ذروة المجد لأن من سخر قوى الطبيعة الصعبة لمنفعته لا يعسر عليه أن يسخر الانسان للانسان .

مدنية الغرب لا ترحم أحداً ومتى رحم من لا يرحم نفسه . والغرب لا يحزن تفقد ألف أو ألوف من أبنائه قذفاً من الجو وهم يطيطون لانه موقن بأن هذه التجارب تنجلى فى النتيجة عن خير لهذا المجموع فتنرى أناساً من الشرقيين ينهبون هذا المنهج ويقلدون الغرب فى صالح أعماله فان مما ينجل الشرق أن يعمل الغرب كل هذه الأعمال المدهشة وهو قائم باهت وأن يقتل الشرق أخاه فى غرض تافه ولا يقتل نفسه فى تحقيق عمل مجيد ومجد مؤثـل

وبعض خلائق الأقوام داء كداء البطن ليس له دواء
يريد المرء ان يعطى مناه ويأبى الله الا ما يشاء

وكل شديدة نزلت بقوم سيأتى بعد شدتها رخاء
ولا يعطى الحريص غنى لحرص وقد ينمي على الجود الثراء
وبعض الداء ملتصق شفاء وداء النوك ليس له شفاء

تكريم الرجال

٤٢

عرف الغربيون حسن الانتفاع من كل شيء فصاروا إلى زمن هم في العالم
كل شيء لا قول إلا قولهم ولا مدنية إلا مدنيهم التي هي خلاصة مدنيات العالم
بأسره فيها اندمجت مدنية رومية واثينة وبابل واشور ومصر وفينيقية والاندلس
وبغداد وفارس

ان هذه المدنية التي تتمثل لنا كل يوم في صور شتى قامت بقول الرجال
وأعمال الابطال ولذلك كان الحري بالتبجيل مصدر هذا الفضل والمعول الذي كان
عليه المعول في نبت المدفون واختراع المعدوم

يكرم الغربيون رجالهم حتى ليخال الشرق انهم على شيء من المبالغة وأكثر
الأمم ايغالا في ذاك الفرنسي على ما رأيت فان رجالهم لقوا من التكريم والتنويه
مالا يكاد يراه أمثالهم في الأمم الغربية نفسها . وأن المرء ليعجب كل العجب من
تغنيهم حتى اليوم بجان دارك احدى فتيات القرون الوسطى التي بزت الرجال
بشجاعتها ودافعت عن وطنها أمام جيوش الفاتحين من الانكليز وإلى اليوم هي
المهاز الاعظم لفتيات فرنسا بل لشبانها تقام باسمها المعابد وتسمى الشوارع
وتنصب التماثيل وتؤلف القصص التمثيلية وغيرها في وصف سيرتها .

ولا بدع فان الفرنسي كما قال برزباين - أشهر رجال الصحافة الاميركية -
ورثوا عن اليونان والرومان نبوغاً كانوا به أدلة وموحين بالافكار للعالم منذ

عهد شارلمان فقد كانوا الاولين في الحركة العقلية السابقين في شجاعة القلب وشجاعة الفكر المجلين في فن الحرب وفن الهندسة وفن الجرأة الطبيعية الخارقة في انشاء السيارات والطائرات وفي عامة الاعمال التي تحتاج إلى عقول لا تخاف وتتطلب اقداماً عليها لساعتها .

قرأت أمس في « الماتين » مقالة جاء فيها أن الفرنسيين يتأهبون للاحتفال بعيد مرور مئة سنة على موت بارمانتيه (يوم ١٣ كانون الاول سنة ١٩١٣) وربما يقل في قراء العربية من يعرفون هذا الرجل ويودون الاطلاع على طرف من ترجمة حياته ليدكنوا على الاقل من هو الذي يعاد ذكره بعد أن نصبت له التماثيل وصيغت باسمه الصفايح التذكارية وأنشئت الجواد والشوارع بل أنشئت قرية باسمه في الجزائر .

بارمانتيه هو مخترع البطاطا في فرنسا أو مدخلها اليها على صورة عم استعمالها جميع طبقات الناس فخدمتهم في اقتصادهم وبيوتهم وتغذيتهم مدة القرن الماضي . كان هذا الرجل من أبناء العامة سافر من بلده مونتبيديه إلى باريز ليسابق في وظيفة صيدلي في الجيش فقبل وأرسل مرات الى ساحات القتال ومنذ سنة ١٧٩٣ حتى يوم وفاته كان يتولى أعظم الوظائف الصحية العسكرية مثل عضوفي مجلس الصحة ومفتش عام وصيدلي أول في الجيش الفرنسي وفي خلال حرب السبع سنين أخذ أسيراً وفي أسره تسنى له أن يدرك ما في البطاطا من المواد المغذية وكانت في معظم الاوقات الغذاء الوحيد له ولاصحابه الاسرى .

حملت البطاطا من أميركا الى أوروبا من سنة ١٥٨٠ الى ١٥٨٥ نقلها الاسبانيون أولاً ثم الانكليز من فرجينيا وكانت غير معروفة كثيراً في فرنسا وينظر اليها في الجملة نظر ازدراء . وما زال بارمانتيه منذ استقراره في صيدلية « الاتقاليد » بباريز يكرر في منشورات متنوعة فوائدها ويدفع اعتراض المعترضين بشدة لانهم كانوا يحملون عليه حملات منكرة قائلاً ان رأى الناس في البطاطا انها غير صالحة لغذاء الانسان ساقط لا يؤبه له وكذلك دعواهم انها تضعف الجسم وتحوى

الاخطار وعلى العكس فهي لذة للاغنياء ومعوان للفقراء وسلوى في الشدائد .
وكان هذا المحسن مدفوعاً إلى ذلك بالعامل الذي وضعه بعضهم بقوله : لا يكفي
من أراد أن يكون نافعاً لا بناء جنسه أن يقول لهم مرة واحدة مارآه وما عمله وما يجب
أن يعمل بل يجب عليه أن لا يعمل من تكرار دعوته على صور مختلفة وطرق متنوعة
اللهم الا القوة فانها لا تستحب . ولا تنفع العلوم الا اذا عمت الطبقات كلها .
هكذا كان شأن بارمانتيه حتى انتشرت البطاطا بفضل مساعيه المتواصلة واصبحت
تزرع في أرض تبلغ مساحتها مليوناً وستمائة ألف هكتار في وطنه

ولم يقتصر بارمانتيه على الدعوة الى البطاطا وتوجيهها الى الناس بل كان له أثر
محمود في الخبز والخبازة ودرس الاغذية الرئيسة عند هذه الامة وله العمل المهم
في تنظيم المستشفيات الثابتة والنقالة العسكرية والمدنية الى غير ذلك من أعماله
في تنشيط الاشغال العلمية والصحية والزراعية والصناعات الوطنية ونشر التطعيم
وطبخ الاحسية الاقتصادية هذا الى جمعيات البيطرة والاحسان والمآوى التي كان
عضواً فيها أو مديراً لأعمالها مباشرة بحيث كان كما قال فيه أحد واصفيه السابق
الى كل مكان يمكن العمل فيه كثيراً وأن يخدم بدون عوض ويجتمع لعمل الخير
ويتأتى لمن يدعو له أن يكون على ثقة من أنه باشرأكه بارمانتيه في العمل يتسلط
على وقته وقلمه وعلى ماله عند الاقتضاء

هذا هو عمل الرجل وربما يتساءل القارىء وكيف وجد من قلبه متسعاً للقيام
بكل هذه الاعمال التي تحتاج الى بضعة رجال والجواب أن بارمانتيه كان يصحو
باكراً ويجلس الى منضدة عمله في الساعة الثالثة بعد نصف الليل صباحاً . قالت
(الماتين) وما أحق مدارسنا الابتدائية أن تتخذ من هذا الولدان الشعب مثالا
يبعث الهمم على العمل فانه قد خرج من مسقط رأسه مستخدماً صغيراً في الصيدلية
لا سند له ولا مال بل ولا تعليم الا التافه القليل وتمكن بعمله المتواصل من بلوغ
المناصب العالية وجلس في الصف الاول بين المحسنين الى الانسانية

أبعد هذا نلوم الفرنسيين اذا غالوا بمحمد رجالهم ؟ وهل نشأ لنا نحن ياترى
معاشر العرب نصف رجل مثل بارمانتيه منذ بضعة قرون وكان بسيرته وعمله
حريابان محتفل به ونذكره بكل شفة ولسان ونخلد اسمه في سجلات الازمان .

صناعة الفنادق

٤٣

لعل بعضهم يعترض على هذا العنوان فيقول وهل أصبحت الفنادق والاقطار
صناعة حتى تحدثنا بها ولكن من رأى الفنادق في الغرب ولا سيما في البلاد
التي يكثر اليها اختلاف السياح كفرنسا وايطاليا وسويسرا مثاليون عليه أن
يتصور معنى الفنادق فيرى قصوراً شاهقة ذات حدائق غناء مجهزة بأجهزة قصور
الملوك أو أكثر وفيها من التحف والالطاف وبدائع الصناعات ما يلفت عقل
البلبدع الحساس الذكي

صناعة الفنادق لا تتمثل حق التمثل الا لعين من كثرت سياحاته الى الاقطار
المختلفة وهناك يدرك خطرهما كما يدرك قدر الصحف فيرى ادارة كل نزل أشبه
بديوان كبير من دواوين الدول أو مصرف عظيم أو جريدة منتشرة . واتقان تلك
الصناعة متوقف على العلم الحديث فكما تأصل في الشرق والغرب وكثر الترف
والنعم زاد رواء واتقاناً .

ان ما نراه في مصر والشام من اتقان بعض الفنادق ان هو الا جزء مما أوجده
العلم في القارة الأوربية والأميركة وفي مقدمة الأمم التي استفادت من فنادقها
وأحسننت القيام عليها الامة السويسرية حتى مى بعض الفرنسيين أهل سويسرا
« الفندقيين » تحقيراً لهم مع أن هذه الصناعة كغيرها مما لا يثلم الشرف ولا يعبث
بالبروءة شريفة في ذاتها ولا يعد التوفر عليها سبة وطاراً . وكفى السويسريين بان

أهم الفنادق في إيطاليا وغيرها هي بأيديهم يديرونها ولا يفوقهم أحد في هذا الشأن .
ليس الفندق أو النزل الحديث كما يتخيل بعضهم عبارة عن خان من الخانات متقن
بعض الشيء فإنه قد يوجد في الفنادق الحديثة من أسباب الرفاهية والنعيم مالا
يوجد مثله في قصور العظماء . الفندق الحديث هو معهد مؤلف من عدة أمور
تحتاج حسن سيرها الى عناية وملاحظة ، خذ لك فندقاً متوسط الكبر تجد فيه
بحسب طبقته ومساحته أعمال الكهرباء (مراجل ودينامو) وآلات التدفئة
والتهوية وأدوات لاستخراج الجليد وحجراً مبردة وأفراناً للخبز والحلويات وآلات
للتصعيد ومطبعة ومكتباً للبريد والبرق واصطبلات ومحال لحفظ المركبات
والسيارات وعقوداً وقد يساوى ما يحويه الفندق من المواد مئات الألوف من
الفرنكات تكفي النزل الشهرين والثلاثة ومعملاً للتصليح ومحل تجارة وحدادة
الى آخر ما هنالك مما لا مقابل له بالعربية للتعبير عنه .

وللفندق خدام يقومون على غاباته وحدائقه ومتزهاته وطرقاته وسواق تامة
أدواتهم لنقل الأمتعة والاثقال منه واليه على الخيل أو السيارات . ورجال ادارته
أكثر من رجال وزارة فمنهم المستقبلون والقائمون على اعطاء التعليمات لمن يطلبها
ومنهم العارفون بالسكك الحديدية وآخرون للمحاسبة وبعضهم للصحة وغير ذلك
فالفندق مستعمرة صغيرة ينقسم أقساماً قد يختلف عدد القائمين بأعماله من
١٠٠ الى ٣٥٠ شخصاً . ومدير الفندق سواء كان مالكة أو مديره مسؤول عن
كل ما فيه يديره ويعنى به ويمونه ويلاحظه ويسأل عن كل غلط يأتيه رجاله
العاملون بإشارته أو النازلون عنده . والقانون يسأله وحده فقط عن كل ما يحدث
ولذا لا يكون صاحب الفندق في الغرب رجلاً عادياً يكتفى منه أن يكون حسن
البزة طارفاً بالقراءة والكتابة والحساب بشوشاً مؤنساً بل هو رجل متعلم من
الدرجة الأولى يحسن ادراك ألوف من التفاصيل في ادارة تحتوى غرائب معقدة
بحيث يكون أهلاً لأن يتصرف في الحوادث اليومية التي قد تقع اضطراراً في
عمل يحوى في جلته أعمالاً صناعية وتجارية مختلفة وليست الادوات التي يقوم بها

الفندق ميكانيكية بل عقلية قد تتعارض فلا بدع اذا طلب هنا من صاحب الفندق أن يكون مهندساً نقاشاً سياسياً تاجراً بل طبيباً للأرواح والاشباح

عرفت الامم الممدنة مكانة هذه الصناعة فجعلت لها المكان الاول في حياتها الاقتصادية والتجارية والصناعية وفتحت المدارس لتعلمها كما فتحت مدارس لتدبير المنزل الذي تتوقف عليه حياة البيوت وسعادتها وغبطتها . ولقد كانت النفس تحدثني وأنا أشهد من لذادة الحياة في فنادق الغرب ومساكنه (بانسيون) وحداقة طهاها ونظافة خدامها وخداماتها بان يأتي أناس من الطبقة المستنيرة المثرية من أبناء بلادى ليروا شاهداً عيانياً محسوساً على ترقى الغرب وتدننى الشرق ويفاضلوا اذا رجعوا الى أهلهم بين حالنا وحال غيرنا وينقلوا بعض ما يمكن نقله من أسباب النظافة وحسن تحضير المآكل وتنويعها وجمال السرر وبساطتها والغرف وفرشها والمقاعد والخزائن والمفاسل والحمامات وأما كن الاطمئنان وغير ذلك من أساليب الراحة والنعيم الذى لم يظفر ببعض بعضه أغنى الاغنياء فينا اللهم الا بعض عقلاء الكبراء فى الحواضر الكبرى وخصوصاً فى مصر .

ولكم كنت أشتبه أن يأتي بضعة شبان ممن سبق لهم الخدمة أو النظر فى فنادق مصر والشام واختلطوا بالافرنج وعرفوا خصائصهم وتأقهم فى مطعمهم ومنامهم وملبسهم أن يقضوا ولوا شهراً فى الفنادق الكبرى ويحضروا ولو سنة دروس مدرسة الفنادق وتدبير المنزل فى سويسرا وأظن أن من يفتح فندقاً ويحسن النظر فيه بحيث يضاهى به أو يكاد فنادق الغرب المتوسطة ينفع نفسه وأمتة فى اقتصادياتها أكثر من ألف موظف فى الحكومة متوسط المعارف لايهمه الا رضا من سبقه فى الدرجة وانتظار آخر الشهر لقبض الراتب .

سورية بمناخها تشبه سويسرا ولكن هذه تأخذ فى السنة من المصطافين والمشتين فيها قناطير مقنطرة من الذهب وذلك لأنها عرفت من أين تؤكل الكتف فى خدمة الناس وتوفير أسباب الهناء والصفاء لهم بحيث يتأتى للمرء أن يكون فى الفندق سعيداً كما هو فى بيته وزيادة . وان اتهم بعضهم الدماشقة بالافكر ون

في غير الاكل والنوم وان هذه العادة غالبية عليهم ولكن يشفع في ذلك حالة الغرب واهتمامه بهذه الشؤون الحيوية أيضاً وان يكن الفرق بيننا وبين غيرنا اننا نكثر التفكير في ذلك وهم يجعلون له وقتاً لا يبحثون فيه بغيره والسلام

رجال الكتلنة



يجدر بنا ونحن في مهد انتشار الدين المسيحي وكل ساعة يقع نظرنا على قساوسته ورهبانه ونرى بيعه ونسمع أجراسه أن نحدث قومنا بعمل هؤلاء الرجال وتقانيهم في واجبهم

من يمر في شوارع رومية يجد الرهبان والقسوس سائرين زمراً زمراً ويمجدهم على الجملة يخلقون شواربهم ولحاهم ويلبسون لباساً أسود في الأكثر على عادتهم في الشرق ويختلف هذا اللباس فالألمان والمجريون منهم يلبسون أردية حمراء فقط والفرنسيين والانكليز يلبسونها سوداً والايكوسيون سوداً مع زنابير زرقاء وياقات سوداء والباجيكيون يلبسون سوداً فيه شيء من الحمرة والبولونيون يكتسبون السواد وغياراً أخضر والبوهميون سواداً وغياراً ممزوجاً بزرقة فاتحة واليونان والروتنيون يلبسون زرقاء وزنابير حمراء مبقعة بزرقة وقسوس أميركا الجنوبية يلبسون الاسود مع غيار أزرق وبطانة زرقاء والاميركان يلبسون لباساً أسود واسع الاكمام والاردان وغياراً احمر وأعضاء الدعوة الى الدين يلبسون أردية سوداء مع غيار وبطانة هما الى الحمرة

هذا هو الشكل الظاهر في طلاب المدارس الاكليريكية الذين يأتون من أنحاء العالم الكاثوليكي ليدرسوا ويتخرجوا بآداب دينهم ثم يعودوا الى بلادهم أو غيرها يعلمون ويرشدون . وهم قسمان قسم القسوس وهؤلاء يتعلمون في مدارسهم وبعد الدرس يذهبون الى منازلهم وقد يعيش بعضهم بين أهله وذوي قرباه فمن

هؤلاء لا يطلب الا أن يسيروا بموجب القواعد المقررة وهم أحرار فيما عدا ذلك أما الرهبان فدائرتهم أضيق لانهم يعيشون في مدرسة واحدة مع أقرانهم ويطعمون طعاماً واحداً ويكون في الاكثر طعام تقشف ولا يخرجون الا برخصة أى أن هؤلاء مقيدون كثيراً ولا قيد صفار الطلبة في المدارس الداخلية

والرهبنة أقسام منها الفرنسيسكانيون والدومنيكيون واليسوعيون والعاريون وغيرهم ولهم أنظمة وقوانين مشوا عليها منذ قرون وأفادوا النصرانية بنشرها في البلاد التي لم تدخلها ولا سيما في الصين والهند واليابان وأواسط افريقية وغيرها من البلاد النائية

وكان لليسوعيين يد طولى في هذا الشأن وهم بين الرهبان والقسوس أى أنهم يترفهون ويأكلون ما يشاؤون لكنهم يأوون الى بيت خاص خلافاً للرهبان الذين يأكلون كلاً معيناً وخلافاً للقساوسة الذين يأوون الى بيوتهم واليسوعيون أشبه بجند منظمون على نظام غريب لم يختل على كثرة ما نالهم من اضطهاد الحكومات في الازمان السالفة

قال الامير بورغزه في كتابه « ايطاليا الحديثة » : أن تأسيس طغمة اليسوعيين المشهورة هو من غرائب النظام الحقيقى فتراها جمعية مؤلفة من عناصر مختارة تخضع على الدوام لادارة الرئيس مباشرة والداخل فيها يربى على الطاعة بالتدريج والخروج المطلق عن شخصيته وارادته . ويتراءى للناظر في نظامهم أن واضعه جندى فان كل شىء فيه يشعر بالنظام . وقال أن نظام هذه الرهبة ربما جرى في وضعه اغناس لويولا مؤسس اليسوعية على قواعد بعض الجمعيات الاسلامية التي كانت مشهورة في الاندلس فبنى نظام رهبنته على طاعة لا نهاية لها فتوصل بهذه الصورة أن يؤلف جيشا يتصرف به رؤساؤه تصرفاً مطلقاً وتقضى ارادة صغيرهم في كبيرهم

ولمعظم الرهبان والقسوس أعمال علمية وغيرها يتعاطونها ويبرزون فيها فاذا انقطعوا للتدريس تخرج بهم طلاب كانوا صورة صحيحة منهم واذا أخذوا بالتأليف

قد يعدون من كبار المؤلفين ولذا ترى الناس في ايطاليا وفي غيرها كثيراً ما يفضلون أن يربى أولادهم على أيدي القسوس وان كان آباؤهم ملاحدة مارقيين من دينهم

ترى الرهبان اذا أخذوا بالزراعة والصناعة ربما سبقوا من تخرجوا فيها أعمارهم والحكومة هنا قد جعلت رواتب لقسوس الطليان كما عينت راتباً للخبز الاعظم منذ يوم أخذت حكومة الوحدة الايطالية أزمة الامر بيدها واستولت على أموال الرهبنات وكنائسهم وأوقفهم سنة ١٨٧٠ لان جميع مرافق البلاد المهمة كانت بأيديهم اذ ذاك فقيرت بعض المعاهد وجعلت بعضها مدارس ومتاحف ودواوين حكومة وثكنات للجند وغير ذلك وحظرت على أى جمعية دينية امتلاك ملك الا أن لرئيس الجمعية أن يملك ما يشاء وقد طادت الملة النصرانية فأخذت تدر المال على رجال الدين بعد الوحدة الجديدة ولذا تراهم يعيشون عيشاً حسناً وأديارهم وكنائسهم منظمة ووارداتهم دارة نامية والفضل في ذلك يرجع الى المتدينين من أغنياء الكاثوليك في العالم

قلنا أن الحكومة الايطالية عينت منذ زهاء أربعين سنة راتباً لامام الاحبار ولكنه لم يقبله بعد أن نزعته منه السلطة الزمنية وكانت بيده هي والسلطة الروحية بيد أن الحكومة وضعت المبلغ تحت أمره في المصارف وفي كل خمس سنين ترفع منه الفائدة فقط وتبقى رأس المال بحاله الذي يزيد كل سنة حتى بلغ فيما بلغني (١٨٠) مليون فرنك وحضرة البابا لا يريد أن يتناوله وهكذا هو وأسلافه وسيتعفف أخلافه عن أخذ مال ممن يرونهم غاضبين حقهم معتدين على سلطتهم ان انشقاق المانيا وانكلترا وغيرها عن الكنيسة الكاثوليكية بقيام أمثال جان هوس وكلفن ولوثيروس في أوائل القرون الحديثة وتلك اللازمة التي دخل فيها المقام البابوي اذ ذاك لم تؤثر كثيراً في سلطته على الارواح والاشباح وكذلك تغلب الحكومة الزمنية في ايطاليا على جيش البابا لم يؤثر كثيراً فبقى مقام حضرة مقدما وكذلك الكرادلة والاساقفة والقسوس والرهبان وذلك لان عمل هؤلاء

الرجال قائم على أنظمة وقواعد معينة لا تغيرها الطوارئ والزوايا ولا هذه السلاسل في مراتب الكهنوت لا يصل إليها المرید الا بالتعلم والتهذيب على الاصول المتبعة وكل ما جعلت التربية والتعليم أساسه يثبت ويم أثره ويوفق الناهضون به

ولقد لاحظنا أن الفتن الدينية التي أثارها التعصب الديني في القرون الوسطى كانت في إيطاليا أقل مما هي في فرنسا واسبانيا حتى أن الاسرائيليين في اسبانيا لما ذاقوا العذاب الاليم جلوا عن بلادهم فكان من إيطاليا أن قبلتهم وهذا ناشئ من لين أخلاق الشعب هنا ويرجع أن كل ما وقع من الاضطهادات لم يكن مما وقف الرؤساء على حقيقته

ولو رجعنا الى تراجم أكثر عظماء هذه الملة من بابوات وكرادلة ورؤساء اساقفة لوجدنا كثيرين منهم خدموا المدنية والآداب خدمة تذكر فتشكر كانوا كذلك يوم كانوا ملوكاً زمنين وروحين ويوم أمسوا روحين فقط فقد حدثنا التاريخ أن الباباليون العاشر في القرن الثالث عشر للميلاد وهو من أسرة ميديسيس المفضلة على العلم قد وسع نطاق الآداب وبث كلمة العلم حتى عد قرنه القرن الذهبي وكان يبسط جناح حمايته للمصورين والناشرين والمهندسين والادباء ويفضل عليهم وبالطبع أن من يأتي بعده في الدرجة يحاول أن يقلده في محامده . والله أعلم

العرب والطلاب

٤٥

وصل العرب الى بلاد الأمة التي هي وآرثة الرومان منذ القدم أوائل عهد فتح أفريقية وما برح العرب يطمعون في فتح جزيرة صقلية ^(١) لقربها من الشاطئ

(١) وصف ابن جبير الاندلسي في عودته من الشرق ما قاسوا من البحر قرب مسينة حتى كادوا يفرقون وقال

المقابل لأفريقية حتى تم لاسد ابن الفرات فتحها سنة ٢١٢ هـ . قال المؤرخون

أن قد وقعت الصبيحة في المدينة فخرج ملك صقلية غليام بنفسه في جملة من رجاله قال ومن العجب أن هذا الملك الرومي المذكور أبصر فقراء المسلمين يتطلعون من المركب وليس لهم شيء يؤدونه في نزولهم لأن أصحاب الزواريق أغلوا الداس في تخليصهم فسأل عنهم فأعلم بقصصهم فأمر لهم بمائة رباعى من - كته ينزلون بها وخلص جميع المسلمين عن سلام . ووصف مدينة مدينة قال أن أسواقها نافقة حافلة وأرزاقها واسعة بارغاد العيش كفيلا لا تزال بها ليلى ونهارك في أمان وإن كنت غريب الوجه واليد واللسان وقال إن مر ساءا أمين عجيب لأن المراكب الكبار تدنو فيه من البر حتى تكاد تمس وتنصرف فيها إلى البر خشبة يتصرف عليها . ووصف مدينة بربة ووصف بلارمة قاعدة جزيرة صقلية وما فيها من المساجد وسرقوسة . وقال إن شأن ملك صقلية عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتيان المجايدين وكلهم أو أكثرهم كاتم لحالك متمسك بشريعة الاسلام وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن اليهم في أحواله والمهم من أشغاله حتى أن الناظر في مطبخ من المسلمين وله جملة من المبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم . ووزراؤه وحجابه الفتيان وله منهم جملة كبيرة هم أهل دولته والمرتمون خاصته وعليهم بلوح رونق مملكتهم لأنهم متسعون في الملابس الفاخرة والمراكب الفارهة وما منهم إلا من له الماشية والخيول والاتباع قال وهو يشبه في الانفاس في نعيم الملك وترتيب قوائمه ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتقعيم أهبه الملك وإظهار زينتة مملوك المسلمين وملكه عظيم جدا وله الأطباء والنجومون وهو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم حتى أنه متى ذكر له أن طبيباً أو نجماً اجتاز ببلده أمر بأمره وأدرله أرزاق معيشته حتى يسليه عن وطنه وسنة نحو الثلاثين سنة ومن عجيب شأن المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية وعلامته على ما أعلنا به أحد خدمته المحتضين به الحمد لله حق حمده وكانت علامة أبيه الحمد لله شكر آلانعه وأما جواربه وحظاياه في قصره فإمات كل من . ومن أعجب ما حدثنا به خديمه المذكور وهو يحيى بن قتيان الطراز وهو يطرز بالذهب في طراز الملك أن الأفريقية من النصرانيات تقع في برده قعود مسلمة تعيدها الجوارى المذكورات مسلمة وهن على تكتم من ملكهن في ذلك كله وهن في فعل الخير أمور عجيبة واعلمنا أنه كان في هذه الجزيرة زلازل مرجفة ذعر لها هذا الملك فكان يتطلع في قصره فلا يسمع إلا إذا كرا لله ولرسوله من نسائه وفتياته وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته فكان يقول لهم ليذكركم كل أحد منكم معبرده ومن ندين به تسكينهم وأما فتياته الذين هم عيون دولته وأهل عماله في ملكه فهم - آمنون ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوعاً أو تاجراً أو يتصدق تقرباً إلى الله وتزلفاً ويفتك الأسرى ويربى الصغار منهم ويزوجهم ويحسن إليهم ويفعل الخير ما استطاع .

وذكر مدينة شفلودي وثرمة من جزيرة صقلية فقال في ثرمة سرنا في طريق كأنها السوق عمارة وكثرة صادر ووارد وطوائف النصرانيات يتلقوننا بالسلام علينا ويؤنسونا فرأينا من سياستهم ولين مقصدهم مع المسلمين ما يوقع الفتنة في نفوس أهل الجهل . وكانوا يكلمونه بالعربية وقال إن زى النصرانيات في مدينة صقلية زى نساء المسلمين فصبيحات اللسن ملنحات متنقيات خرجن في العيد وقد لبسن ثياب الحرير المذهب والتحفن الأحف الرائقة والتقبن بالنقب الملونة واتعلن الاخفاف المذهبة ورزن لكنائسهن أو كنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلى والاختصب والتعطير قد كرن على جهة الدعاة الأدبية قول الشاعر
إن من يدخل الكنيسة يوماً يلقى فيها جازراً وطباء

ونعوذ بالله من وصف يدخله داخل القنود وؤدى إلى أبا طيل اللهو ونعوذ به من تقييد يؤدى إلى تنفيذ أنه سبحانه هو أهل التقوى وأهل المغفرة اه

كان ابتداء حصار بلرم عاصمة صقلية في جمادى الآخرة سنة خمس عشرة ومائتين ودام الى شهر رجب سنة عشرين ومائتين وفتحت بالامان وفي سنة خمس وعشرين ومائتين استأمنت قلاع كثيرة من قلاع جزيرة صقلية منها حرسه وقلعة البلوط واللاطنوا وقلعة ماروب ومرنا وغير ذلك

وهذه القلاع مازال بعضها الى اليوم أسماء مدن تبدأ بـ « قلنا » أي قلعة فيقولون قلنا جيرونة وقلنا بلونة وقلنا لستا وكلها من تلك الحصون والقلاع بقيت أسماءها كما بقيت أسماء كثيرة عربية في لغة سكان هذه الجزيرة فيقولون مثلاً « منديلو » للمنديل وغير ذلك مما يشهد بأن العرب حكموا هذه الجزيرة قرنين ونصفاً وأثرت في أهلها مدنياتهم ولسانهم وعاداتهم كما هي عاداتهم في كل ممالكهم.

راجت حضارة العرب زمناً في صقلية ومنها تسربت الى البلاد المجاورة فكان يشرح منها شيء كثير الى الأقرب فالأقرب من البلاد ولعل تلك الحضارة راجت أيضاً في جزيرة قورسقة وأهلها يتكلمون بالاطالية أيضاً وهم اليوم تحت حكم فرنسا . وملك العرب جزائر ميورقة ومنورقة المعروفة بجزائر البالايار ويابسة « المقتبس م ٧ ص ٦١٩ » وكانوا يغزون شطوط اسبانيا وفرنسا ولا عجب بعد ذلك اذا دخلت كلمات عربية كثيرة في لغات الفرنسيين والاطليان والاسبان والبرتقال

ومن يعلم ان تلك الجزائر مما ارتفع عليه علم الاسلام وان اقريطش (كريت) وقبرص ورودس ومالطة كان حظها كذلك يعرف أن العرب كانوا رجالاً في البحر كما هم رجال في البر وانه لا سبيل الى الامن من الداخل اذا لم يحفظ الساحل بالجزائر والموانئ والفرض ولطالما كانت الحكومات تمتلك الساحل فلا تلبث أن تبسط سلطانها على الداخل .

كان الادارسة حكام تونس هم المتكلمين بغزو جزيرتي سردينيا وصقلية ففتحوا صقلية وكذلك ملوك جزائر الغرب أخذوا على عهدهم غزو منورقة

ومبورقة فاستولوا عليهما وعامل العرب الايطاليين والاسبانيين بالحسنى على نحو ما يأمر به دينهم ولما رأى الايطاليون هذه المعاملة لم يشاؤا أن يغيروا شيئاً من مصطلحاتهم حتى ان الملك رجار الذى عاد فاستولى على صقلية سنة ٤٨٥ كان يتكلم بالعربية وهو الذى أفضل كثيراً على الشريف الادريسي الجغرافى الذى وضع كرة أرضية بالفضة كانت من أطايب القرون الوسطى دهشت لها أجيال الافرنج كلهم كما دهشوا للساعة الدقاقة التى أهداها أمير المؤمنين الرشيد الى شارلمان ملك فرنسا .

قال الادريسي فى رجار هو الملك المعظم رجار المعتر بالله المقتدر بقدرته ملك صقلية وايطالية وانكبردة وقلورية أمام رومية الناصر للملة الناصرية اذ هو خير من ملك الروم بسطاً وقبضاً

ولقد كان أهل الشرق على صعوبة ركوب البحر فى أيامهم يرحلون الى بلاد ايطاليا كما يرحلون الى الاندلس فيكتبون عليها فى رحلاتهم ماتقع عليه أنظارهم وممن زار بعض ايطاليا الجغرافى ابن حوقل فقد قال ان مدينة ملف « ويقال لها الآن ملفى » تتصل بأرض نابل وهى مدينة صالحة بحال دون ملف فى كثير من الأحوال وأكثر أموال نابل من الكتان وثياب الكتان وقال انه رأى بها ثياباً لم ير فى سائر أقطار الأرض لها شبيهاً ولا يستطيعها صانع فى جميع طرز الأرض وهو ثوب يعمل مائة ذراع فى خمسة عشر الى عشرة ويباع الثوب منها بمائة وخمسين رباعى وزائد وناقص .

ووصف ابن حوقل صقلية فقال ان طولها سبعة أيام فى أربعة أيام والغالب عليها الجبال والقلاع والحصون وجميع أرضها مسكونة مزروعة وليس لها مدينة مشهورة معروفة غير المدينة المعروفة بيلرم وهى قصبة صقلية على نحر البحر من الشمال وهى خمس جادات محدودة غير متباينة يبعد مسافة وان كانت حدودها ظاهرة فمنها المدينة الكبرى التى تسمى بلم عليها سور من حجارة مانع شامخ يسكنها التجار وفيها مسجد الجامع الاكبر وكان بيعة للروم وفيه هيكل عظيم

ومدينة تعرف بالخالصة ذات سور أيضاً من حجارة وليس كالسور الأول يسكنها السلطان وأتباعه وفيها دار صناعة البحر والديوان

وبعد أن وصف أسواقها وباعثها استطرد الى كثرة مساجدها وقال ان فيها نيفاً وثلاثمائة مسجد وفي قرية البيضاء مائتا مسجد قال ولم أر مثل هذه العدة في بلد من البلدان الكبار على ضعف مساحتها ولا سمعت به وقد رأى على مقدار رمية السهم نحو عشرة مساجد يدركها البصر ومنها شيء تجاه شيء وبينها طريق قال وسألت عن ذلك فقبل لي ان القوم لشدة انتفاخ رؤوسهم كان يجب كل واحد منهم أن يكون له مسجد مقصور عليه لا يجب أن يشركه فيه غير أهله وحاشيته وربما كان اخوان منهم متلاصقة داراهما متصاقبة الحيطان فعمل كل واحد منهما مسجداً لنفسه ليكون جلوسه فيه وحده وفي جملة هذه العشرة مساجد التي ذكرتها مسجد لولده ابتناه ليتفقه فيه وغرض كل واحد منهم أن يقال مسجد فلان لا غير . قال وبها رباطات كثيرة على ساحل البحر مشحنة بالباطالين والفساق ووصف أبواب بلرمة التسعة وقال ان هذه المدينة مستطيلة ذات سوق قد أخذ من شرقيها الى غربيها يعرف بالسماط مفروش بالحجارة عامر من أوله الى آخره بضروب التجارة .

ووصف الشريف الادريسي جزيرة سردانية فقال انها كبيرة القطر كثيرة الجبال قليلة المياه وطولها مائتان وثمانون ميلا وعرضها من المغرب الى المشرق مائة وثمانون ميلا وطولها ماراً من الجنوب الى الشمال مع قليل تشريق وفيها ثلاث مدن منها الفيطنة وهي مما يلي جنوبها وهي مدينة عامرة ممدنة ومنها مدينة قالمة وهي رأس المجاز الى جزيرة قرسقة ومدينتها الثالثة تسمى قشتالة وأهل جزيرة سردانية في الاصل روم أفارقة متبربرون متوحشون من أجناس الروم وهم أهل نجدة وحرم لا يفارقون السلاح وفي جزيرة سردانية معادن الفضة الجيدة ومنها تخرج الفضة الى كثير من بلاد الروم وبين سردانية وجزيرة قرسقة مجاز طوله عشرون ميلا

ثم وصف جزيرة قرسقة وجزيرة البتة وبانوسة وقبريرة وقبرة وشكلة وبذت
برة ومونسة وبونسة واسترنجوج وجزيرة البركان وليبر وندندمة وفيكوذة واركوذة
واشتقة وجزيرة الراهب واليابسة وغيرها وقال في وصف مدينة بلرم : وبها حسن
المباني التي سارت الركبان بنشر محاسنها في بناتها ودقائق صناعاتها وبدائع مخترعاتها
وهي على قسمين قصر وربض فالقصر هو القصر القديم المشهور فخره في كل بلد
وأقليم وهو في ذاته على ثلاثة أسمطة فالسماط الاول يشتمل على قصور منيفة ومنازل
شامخة شريفة وكثير من المساجد والفنادق والحمامات وحوانيت التجار الكبار
والسماطان الباقيان فيهما أيضا قصور سامية ومبان فاخرة عالية

وذكر القزويني في عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات مدينة رومية فقال
انها مدينة رياسة الروم وعلمهم وهي في شمالي غربي القسطنطينية وبينهما مسيرة
خمسین يوما وهي في يد الفرنج ويقال لملكهم ملك المان وبها يسكن البابا الذي
تطيعه الفرنج وهو عندهم بمنزلة الامام الذي يكون واجب الطاعة ومدينة رومية
من عجائب الدنيا لمظم عمارتها وكثرة خلقها ذكر الوليد بن مسلم الدمشقي ان
استدارة رومية أربعون ميلا في كل ميل منها باب مفتوح فمن دخل من الباب
الاول يرى سوق البيطرة ثم يصعد درجا فيرى سوق الصيارفة والبزازين وذكر
ان بين يدي السوق سوق آخر على أعمدة نحاس كل عمود منها ثلاثون ذراعا وبين
هذه الأعمدة تقير من نحاس في طول السوق من أوله الى آخره فيه لسان من البحر
تجري فيه السفن فتجيء السفينة في هذه النقرة وفيه الامتعة حتى تجتاز على
السوق بين يدي التجار فتقف على تاجر تاجر فتختار منها ما تريد ثم ترجع الى البحر.
وذكر أشياء عجيبة عن كنيستها وقال ان فيها عشرة آلاف دير للرجال والنساء
وبها جامع لمن يلتمس صنوف العلم من الطب والنجوم والحكمة والهندسة وغير
ذلك قالوا انها مائة وعشرون موضعا قال وقد مثل في الكنيسة صورة كل نبي
بعث من وقت آدم الى عيسى عليه السلام وصورة مريم عليها السلام كأن الناظر
اليهم يحسبهم أحياء وحكى أن أهل رومية يخلقون لحاهم ووسط هاماتهم فستلوا

عن ذلك فقالوا لما جاءهم شمعون الصفا والحواريون دعوهم الى النصرانية فكذبوهم وحلقوا لحاهم ورؤوسهم فلما ظهر لهم صدق قولهم ندموا على ما فعلوا وحلقوا لحي أنفسهم ورؤوسهم كفارة لذلك

ومن رحل الى ايطاليا جمال الدين محمد بن سالم بن واصل قاضي القضاة بحماة وكان اماماً مبرزاً بالعلوم العقلية طارفاً بالمنطق والهندسة والاصول والفقه والهيئة والتاريخ توفي سنة ٦٩٧ ذهب هذا رسولا الى صاحب صقلية من قبل الملك الظاهر بيبرس الصالحى وذكر أنه أقام عنه وفي مدينة من مدائن البر الطويل المتصل بالاندلس من مدينة أنبولى واجتمع به مراراً ووجده متميزاً ومحباً للعلوم العقلية يحفظ عشر مقالات من كتاب اقليدس قال وبالقرب من البلد الذى كنت فيه مدينة تسمى لوحارة أهلها كلهم مسلمون من أهل جزيرة صقلية يقام فيها الجمعة ويعلن بشعار الاسلام

وفي هذا القرن كان الايطاليون هم رجال التجارة والاساطيل فى البحر المتوسط وكانت لسكان بيزه وهم من إقليم طوسكانيا تجارات واسعة فى الشام وقال ياقوت أن السعة ظاهرة عليهم وجمهوريات بيزه وجنوة والبندقية هى أكثر البلاد الايطالية فى القديم والحديث اختلاطاً بالشرق ولما كان الطليان يأتون بلاد مصر والشام وسواحل البحر المتوسط منتجعين للرزق والاتجار كانت بقية أمم أوروبا غائصة فى مفاوز الجهالة

نشر المستشرق ميشيل اماري فى مدينة فلورنسة الشروط والعقود السياسية بين ملوك بيشة (بيزه) وفلورنته (فلورنسة) أو أفلورنسا وبين ملوك المسلمين فى تونس والغرب الاقصى ومنها عقد من الملك قايتباى للفلورنتيين ذكر فى شروط البنادقة أن تجار المسلمين يبتاعون من تجار البنادقة اصنافاً من متاجرهم من جوخ وصوف وغير ذلك وآخر هذه العقود سنة عشر وتسعمائة هجرية وأولها فى منتصف القرن السادس

وهكذا عاد العرب فاستخلصوا بلادهم من الطليان فكان الاختلاط على أتمه بين الامتين ولا سيما عندما تضع الحرب أوزارها وكثيراً ما كان رسل ملوك

الاسلام يأتون ايطاليا فقد ذكروا أن ابن خلدون المؤرخ جاءها رسولا من قبل صاحب تونس وصوره الطليان اذ ذاك على الحجر وجاءها في القرن الحادى عشر الأمير نجر الدين المعنى صاحب لبنان وأقام بها عدة سنين ملتجئاً ووصف عمراتها بالضخامة وتفنن أهلها فى النقش والرسم والبناء

ولا يتسع المجال هنا الى ذكر كل من زاروا ايطاليا من العرب ومن زاروا من الطليان بلادنا الى هذا العصر . ولقد كانت اللغة الايطالية فى مصر والشام معروفة أكثر من الافرنسية والانكليزية الى منتصف القرن الماضى ثم تراجعت وخلفتها هاتان اللغتان

هذا وكان رجال الدين من كاثوليك الشرق يختلفون الى رومية منذ القديم ويتعلمون لغتها ويدرسون الدين فيها وهم أكثر من أن يحصوا وفى مقدمتهم السمعاني اللبناني المشهور واللبنانيون الموارنة على ما يظهر أشد الكاثوليك رغبة فى المهاجرة الى رومية وتاريخ رجال الكهنوت عندهم شاهدة بذلك

لذائز الغريبين

٤٦

قرأت فى الصحف الباريزية أن أمبراطور المانيا منع ضباط مملكته من رقص « التانغو » « وألوان ستب » فى الحفلات الرسمية وكذلك فعل ملك الانكليز وهما رقصتان قيل انهما من أصل أميركى فى أقصى ما يكون من الخلاعة خلافا للرقص الذى اعتاده الاورييون فى حفلاتهم الراقصة خاصة كانت أو عامة ولعل الآن بعضهم يقول وأنت الآن تحدثنا عن الرقص وأمامك محيط أوربا وكله مما يستملى القرائح مما كانت كلية للكتابة والتأمل . نعم أن البحث فى الرقص هو مما يجب البحث فيه أيضا لشرق يبحث فى مدينة الغريبين اننا بحسب عاداتنا واصطلاحنا سكان المدن العربية لا البوادرى ننكر الرقص

ونعده حطة ولكن الغربيين يرون غير رأينا فيه . يرونه من الحاجات الطبيعية لبسط النفس ولذلك لا تكاد ترى الكبير والصغير والرجل والمرأة الا ويعتادون الرقص على أنواعه من غير تكبر اللهم الا رقص التانغو وألوان ستب فان العقلاء أنكروه لانه باعث الشهوات البهيمية ومخرج للرقص عما وضع له

والرقص ^(١) في الغالب يكون على ايقاع النغمات الموسيقية على لحن متساوق وربما أشفع بغناء . فالرقص والموسيقى والغناء هي من المستحبات وربما تجوزنا وقلنا من الواجبات في بلاد الغرب لا يعد الفتي ولا الفتاة من أهل الظرف بدون الاخذ بمحظ وافر منها فكان الغربيين رجعوا في مدنيتهن الى الفطرة الاولى وذلك لاننا نرى سكان البوادي في الشرق أيضا يرقصون ويغنون ويضربون بطبل أو ينفخون بمزمار . أمور يأتونها على الفطرة وعلى حالة أولية ولكنها على كل حال تدل على أن سكان غير المدن في شرقنا أقرب الى الفطرة من المتحضرين

كانت الطبقة العالية من رجالنا أيام رقي العرب في الاندلس ومصر والعراق والجزيرة وفارس وغيرها من البلاد التي تأصلت فيها الحضارة لا تستكف من الضرب بالعود أو غيره من أدوات الطرب أو ترفع أصواتها بالغناء ولا ممن ينكر عليها ذلك ولطالما كنت ترى بينهم الفقيه والمحدث والطبيب وصاحب الوقار من القضاة والعمال

انحطت الحضارة عندنا والفنون الجميلة آخر ما تستعيده الامة الناهضة وأول ما تفقده المنحطة وما الغناء والموسيقى الا من الفنون الجميلة فارتقاء صناعة الغناء والموسيقى في أمة دليل ارتقاها فهما محركان عظيمان لارواح أبنائها ومهما زان قويان لترقية شعورهم وتحسين عواطفهم يعرفون فيهما آونات الفراغ فيدخل بهما السرور على القلوب .

(١) قال طاش كبرى في مفتاح السعادة : علم الرقص وهو علم باحث عن كيفية صدور الحركات للوزونة عن الشخص بحيث يوجب الطرب والسرور لمن يشاهدها وهذا من العلوم التي يرغب فيها أصحاب الترفه والاغنياء والامراء ومن يجري مجرى هؤلاء من أصحاب الملاهي ويطمونها الغلمان الحسان والجواري العائقات ليلتذ السمع والبصر مما بمشاهدة حسنهن واستماع نغماتهن وغنجهن حتى تكمل اللذة والحبور والفرحة والسرور وأهل الهند ماهرون في أنواع الرقص ولهم فيها بدلولي الا أن هذا العلم محرم في شريعتنا وقد قيل التلذذ بالغناء وضرب الملاهي كفر اه

تصدر هذه العجالة من بلاد هي مهد الرقص والغناء والموسيقى ، من أرض
 أين أتجهت في حواضرها وبواديها تجدها تطرب وتتغنى ، من بلد قام فيها من
 الموسيقيين القدماء أمثال روسيني وبليني ودونيزيتي ومن المحدثين أمثال فردى
 وبوتشيني وماسكانيه وليون كافاللو ومن المغنين في المحدثين بونشى وماركونى
 وكاروسو وديلوكا وباتستيني وغيرهم من المغنيات والموسيقيات ممن أعظمت
 الأمة منزلتهم واحلتهم فى منزلة علمائها وفلاسفتها ورجال نهضتها
 وكل ما تراه من الموسيقى ونسمعه من الغناء يكون على ضرب « النوتة »
 بادوار وتقاطيع مخصوصة وهو ما لم يتم حتى الآن عند العرب اللهم الا الموسيقى
 الوترية فى مصر ولما يعم استعمالها فاذا أصبحت موسيقانا وغنانا ضمن دائرة
 القانون يكون قد وضع الحجر الأول فى أساس نهضة هذه الفنون الجميلة فى
 شرقنا العربى على نحو ما جرى عليه سكان الاستانة وأفلحوا فيه من تقليد الاوربيين
 فى موسيقاهم وغنائهم .

الموسيقى والغناء هما مثال من حالة النفس ومن لا يريد أن تكون نفسه شفافة براءة
 حساسة ولكل أمة غناؤها قد تتبرم به الأمة الأخرى وتعدده منكرأ ولكنه
 يفيدها ويلذها كما ذكر ابن رندقة الاسكندري من سياح القرون الوسطى فى
 وصف أهل شلدويق (أى أهل شلزيك هولستين فى شمال ألمانيا) وقال ان
 لهم نوعا من الغناء يشبه عواء الكلاب ولو فهم معناهم لما حكم هذا الحكم الذى
 يقوله اليوم أيضا كل من لا يعرف لغة غيره ولا تأثير موسيقاه وغناؤه ومراميهما
 اللذائذ الثلاثهما من أول ما تدور عليها الحياة الغريبة اليوم ولا تضر بالوقار
 بل تعد من أدوات الظرف والكمال ولعل شرقنا يحتذى فى الموسيقى والغناء حذو
 الغرب مع تعديل تقتضيه طبيعته وعاداته واشتغال البيوت أو الاصحاب آونة
 الفراغ بضرب من ضروب الموسيقى والغناء أتفع ألف مرة من لغو الحديث
 وانتقاص بعضهم بعضا والخط من اقدار أنفسهم والسلام

نهضة ايطاليا

ايطاليا القديمة

٤٧

كنت أحب أن أسطر قبل الآن ما أعرفه وعرفته عن النهضة الايطالية الا أنني انتظرت ريثما قضيت شهراً في هذه الشبه الجزيرة ورأيتها اجمالا من جنوبها الى شمالها .

وقد اعتمدت فيما أكتب على من وقعت لي معهم صلة تعارف من خاصة الطليان أو مآقراته بأقلام الطليان بالافرنسية أو ما كتبه الفرنسيين عن الطليان وهو وان لم يكن مجموعاً صحيحاً من كل الوجوه لكنه أقرب الى الصحة من كثير من الاحكام التي يصدرها صاحبها عفو القريحة بادىء الراى

وكنت أود لو سمح لي الزمان بتعلم مبادئ من لغة الطليان ارفيقة لاخاطب العامة كما أخطب الخاصة بلغتهم نفسها واسمع تصوراتهم وألقى عليهم الأسئلة وأدرس أحوالهم بالنفس ولكن المدة التي قضيتها لا تكفى لأن يتعلم المرء القدر الكافي للتفاهم بهذه اللغة مع قربها جداً من الافرنسية ولولا الخوف من علماء أصول اللغات لقلت أن الايطالية تحريف الافرنسية أو هذه تحريف تلك .

ثبت كل الثبوت بعد الرحلة الى ايطاليا ان مسألة اللغة من أهم المعضلات الاجتماعية التي يصعب حلها الا بأن يتعلم المشتغل بالعلم والتجارة عدة لغات من اللغات الحية كما يفعل الغربيون اليوم وان العامة أيضاً لاغنية لهم عن تعلم ولو مبادئ طفيفة من لغة راقية منتشرة وان من كان يبيع منا أفكاره الصائبة بأن الموظف يستطيع أن يحكم في بلد لا يفهم لغة أهله وان التاجر يستطيع بواسطة الترجمان ان ينفق سلعة ويربح ويستفيد من كان كذلك لم تكن أفكاره أرقى من أنه اذ لم يستند فيها الى تجارب ولا الى تاريخ واجتماع .

وها نحن نتكلم على نهضة ايطاليا فنقول : قضى مركز ايطاليا الجغرافى أن تكون فى الأزمنة القديمة مركزاً عظيماً من مراكز المدنية لتوسطها بين الشرق والغرب وكانت رومية نقطة هذا الاتصال وواسطة هذا العقد منذ قام الرومان الاول وأخذوا يدوخون الأمم والشعوب لسلطانهم . ولما وضع الشعب اللاتينى أول جسر على نهر التيبر وهو نهر رومية المقدس ومن أكبر أنهر ايطاليا أصبحت رومية مطمح الانظار وصار هذا الجسر الذى كان بناؤه أقرب الى الفطرة مما يستهوى قلوب شعوب الشمال للاغارة عليه لان منه يخلص المرء الى ساحل البحر المتوسط على أيسر سبيل . ولما دفع اللاتينيون عن جسرهم غارات الأتر وسكبين واليونان أصبح مقدساً ومن ملكه كان هو الزعيم بلا مدافع .

تمثلت بالقرب من هذا النهر ثلاثة مطالب أساسية للمرء والمجتمع وهى ضمانة الحياة المادية وموافقة الحياة الأدبية والصعود الى الحياة العقلية بمعنى أن المرء يعيش ويحب ويعرف وأن يكون فى المجتمع قانون ودين وعلم .

قارب الرومان القدماء هذه المظاهر الثلاثة ولكن الحياة المادية كانت أتم عندهم لانهم محاطون باعداء ان لم يحاربوهم بالمادة يهلكون لا محالة . وكانت الحياة العقاية فى كثير من أدهارهم تامة بالنسبة لتلك الأيام ونظام الأسرة ثابت الدعائم وحب الجندي مغروسا فيهم حتى كان الوالد يقدم ولده للخدمة العسكرية فى السادسة عشرة ليعنى منها فى السادسة والأربعين وعلى قلة عدد السكان اذذاك وهو كما قال المؤرخون { ١٥٠ } ألف نسمة فى رومية وذلك قبل المسيح بخمسة قرون فى أرض ذرعها ٤٥٠ ميلاً مربعاً كان للرومان جيش مؤلف من ثلاثين الى أربعين ألف نسمة يخرجون به من فتح الى فتح .

وكان الرومان اذا فتحوا بلاداً يقبلون فى الحال ما يترأى لهم حسناً من طادات أهلها وصناعاتهم وأسلحتهم وهذا سر وضع القانون الرومانى الذى هو ابن الاوضاع الكثيرة وسليل شعوب عدة ألف فى قرون وتعاورته الايدى بالشرح والتذييل والا نقاص حتى أصبح دليل الحكمة الرومانية بل هو مجلة الحقوق الانسانية التى لا تتغير . وكانت تلك الحروب الرومانية من مجدعات حياتها وحماسها الوطنية حتى

لقد قال ليكورك الخطيب اللاتيني ليس أحسن عاملاً من الحرب في تقوية الشعب لأنها تعلمه احتقار الاخطار والاخلاص لسلامة غيره ولاسرة ووطنه

ولما تخلص الرومان من السيزيليين كاد القرطاجنيون أن يهلكوهم فظفر الرومان بهم وورثت رومية مجد قرطاجنة التي سقطت بعد الحروب البونيقية وقضت رومية على أنيبال القرطاجي الذي جاء وهددها في عقر دارها وكان فتح الرومان لمصر وكثير من أقطار آسيا ومنها الشام من أكبر دواحي قوتهم فجلبوا به ثروة وأعلاقاً نفيسة وكان من أكبر المشوقات للعسكر الذي أخذت رومية تستخدمه بالاجرة ان كان يعطى له شيء من الاتقال والغنائم لا كما كان في القديم يستأثر بها الزعيم أو رب الأسرة .

ولما جعلت رومية بلاد اليونان ولاية رومانية أخذت عنها الذوق في الفنون الجميلة وكلما كان الرومان يجلبون من كورنت وآتينة أثراً من آثار الهندسة والنقش والجواهر كانت تربي أذواقهم ولم يكتفوا بالآثار بل جلبوا معها مؤثرها من مثل الخطباء والسفسطائيين من الحكماء فأصبح للخطابة شأن مهم في الحياة العامة وصار ملعب « الفوروم » المشهور الباقية الى اليوم آثاره عكاظ الرومان يخطبون فيه ويتناقشون وأخذوا يبعثون بفتيانهم الى آتينة يتعلمون على حكماء الوقت اذ ذاك ما ينفعهم ثم هاجر كثير من العلماء الاتينيين الى رومية وأنشأوا يعلمون كل طالب وبلغت هذه النهضة أشدها على عهد الامبراطور أغسطس وسقطت بعده بقليل شأن أكثر مدنيات العصور السالفة كانت من عمل حاكم أو أمير أو بضعة حكام ثم يتناسى الأمر يزهد فيه .

جاءت أزمان أدخل فيها اليونان على الرومان أموراً أضعفت من سلطة الوالد على أولاده وتركت الحياة الجندية وأخذت الشبه والشكوك تسرى الى العقول وكثرت الموبقات بكثرة الرقاهية فكان بذلك انهيار ذاك البناء وخراب العالم الروماني فقضى على رومية وذهبت تلك المدنية كما ضعفت في النفوس آثار الوثنية وأخذ الاضطراب يدخل في نظام تلك الحضارة ويبعثرها وكثر الانتحار واليأس من

الحياة ومن لم يحبوا الانتحار يؤثرون العزلة وسرى اليأس في الطبقة الممتازة والاغنياء الى البائسين والخدمة ولما كانت الحال على ذلك والنفوس تضيق من هذه المظاهر جاءت النصرانية على انقاض المدنية الرومانية وكان لها من النساء أكبر عون على الانتشار فرأى فيها من دانوا بها عزاء لهم وسلوى . والدين وازع قوى في الدنيا والآخرة .

اضطهد القائمون بالدعوة الديزية أيضاً وقام أمثال نيرون يظلم ولا يبقى على أحد وبيننا كان يحرق المتنصرين أحياء ليضئ بهم حدائق الفاتيكان كنت ترى أولئك المتنصرين يذهبون الى الحرق باسمين لا اعتقادهم بأن في العالم الآخر حياة سامية لا ينخب من قضى في سبيلها . وكلما كانت الشدة تنال أولئك المضطهدين كنت ترى أشياعهم يكثرون .

وكان النزاع بين الامبراطورية الرومانية والدين المسيحي من أعظم مآذكره التاريخ حتى دان الامبراطور قسطنطين بالدين الجديد فكان من انتشار الدين بعد الوثنية منافع اجتماعية مهمة في البلاد خصوصاً والدين أخذ يوافق ميول المتدينين به وحاجاتهم

توطد أمر ايطاليا بعد ذلك وأخذت تقطع أشواطاً في سبيل جمع شملها وتناسى ما نالها في سبيل انتشار النصرانية التي عمت ايطاليا وبيننا الامر على ذلك كان نزارة الشمال يتجمعون ليغزوا ايطاليا للاستفادة من مادياتها وقد أهلكهم الجوع ولم يكن لرومية طاقة يدفعهم فجأوا يغشون العالم المتمدن ولكن من أولئك البرابرة من لم يلبثوا ان دانوا بالدين الجديد وتطوعوا بالدعوة اليه في القاصية بيدانهم لنقص فيهم حرفوا ما تلقنوه ولم يعملوا بتعاليمه فأبوا مظالم كثيرة حتى اضطرب الباباوات أن يجعلوا لهم سلطة مدنية فعمدوا الى القوة علماء منهم بأن سلطان الروح لا يؤثر كثيراً ان لم يكن وراءه سلطان القوة .

وهذا كان مبدأ مزج الدين بالسياسة خصوصاً على عهد شارلمان وايون الثالث وهما الملكان اللذان حاولا هذا المزج وحرصا عليه ثم كثرت البدع والاحاد

وقاومها الباباوات بالشدة وان جاء من هؤلاء أنفسهم من لم تحمد سيرتهم أحياناً
ولقد كانت إيطاليا خلال القرون الوسطى ميدان العراك بين الباباوية والامبراطورية
فنتج من ذلك تمازج بين العناصر المختلفة في الغرب ثم جاءت الحروب الصليبية
على الشرق وكان الدافع اليها دينياً ثم انتهت بالماديات وبعد سنة ألف للمسيح
حدثت حوادث غيرت معالم العالم الغربي وكانت الدواعي الى الحماسة الدينية حب
الظهور والاتيان بالفرائب ولا سيما في نفوس العامة والزعماء من الامراء ولكن
حرب المسلمين قرنين لاستعادة الارض المقدسة لم ينتج منه الا أن جمهوريات
ايطاليا أصبح لها مكاتب تجارية على شواطئ البحر المتوسط وباختلاط ايطاليا
بل أوروبا بالمدينة الشرقية البديعة عاد الى الغرب شيء من الحياة أصيبت به
الصناعة والآداب وكان أثر الحروب الصليبية في ايطاليا أثر تقاليد اليونان
المفلوطين على أمرهم في مدينة رومية .

ايطاليا في القرون الوسطى

٤٨

جاء عهدان على رومية طمحت فيهما الى ان تحكم العالم فالاول على عهد عظمة
قيصرة الرومان وقد تم لها ذلك بعض الشيء والثاني على عهد التحمس الديني
وبلوغ سلطة الباباوات حدها وكان من أثر الحروب الصليبية ورؤية القوم
للفنون القديمة البرنطية والمغربية ان تمت لهم مقدمات النهضة الاولى . ثم أن
المقاطعات تحررت من سلطة من كانوا يرهقونها من أمرها عسراً فأخذت تتنافس
في اقامة الابراج وتجب كل منها أن تكون كنيسة أوسع وأكثر بهجة وأغنى
وخطيبها أفصح ومتفنها أشهر . وأنشأت تبحث عن الرجل الذي يكون أقدر من
غيره على التغني بأمجادها في أشعاره وتعظيم أعمالها الصناعية وبدائع النقش والرسم
وبفضل هذه المباراة اغتنت المدن والقرى بالمعاهد البديعة فكنت ترى الكنائس

الكاتدرائية في كل مكان تناطح الجوزاء والقصور تسمو من الارض الى الاجواء

وانتشر في جميع شبه جزيرة ايطاليا ميل حقيقى للجهال فحدث منه ازدهار الفنون التى لم تزل تبهرنا الى اليوم فكان هذا العهد مناسبا لتكوين أعظم الرجال ليستطيعوا أن يحدثوا أعمالا غريبة باقية وكان للقديسة كاترين دي سين والقديس تومادي آكيك والقديس فرانسوا داسيز في القرنين الثالث عشر والرابع عشر أثر يذكر في السياسة والعلم فكانت هذه النهضة الايطالية الاولى متشعبة بالفكر لديني الا أنها كانت تحوى في مطاويها بذورا أنبتت بعد النهضة الثانية .

وقام على الاثر الشاعر دانتي الايطالى واضع أساس اللغة الايطالية الحديثة وأخذ ينادى في شعره ونثره بفصل السلطتين المدنية عن الدينية . ينطق في ذلك بلسان طبقة كبيرة في عصره فلم يكده يصرخ صرخاته حتى جاوبه على الاثر أرباب الافكار الحديثة ممن أخذوا ينزعون ربة الدين بل ينحون عن جوهره . وكان في هذا القرن أيضاً أناس من أرباب الفنون الجميلة يؤمنون بما يصورون ويريدون به خدمة الدين ومنهم من كانوا يصورون وينقشون حباً بالمجد والشرف والمال خصوصاً وهم يرون كم كانت أسرة ميديسيس اذ ذاك تغدق الهبات على أرباب تلك الصنائع . حتى لقد قيل أن رافايل المصور رفض أن يكون بابا وآثر العمل بالتصوير . وهذا العصر يسمونه بعصر ليون العاشر الذى كان من أكرم الباباوات وأكثرهم علماً وعصره كعصر أغسطس قام فيه أرباب الافكار الحديثة وأخذوا يشيرون من طرف خفى بتحكيم العقل فى المسائل فأصبح أهل العلم والادب مرغوباً فيهم أكثر مما يرغب فى الامراء وساعدوا اختراع الطباعة اذ ذاك فأخذوا يبثون أفكارهم فى روح القوم على صور مختلفة حتى غدا أمثال بوج وفيللف وأرتين الحاكين المتحكمين بالافكار فى عصرهم يصرفونها كما يشاؤون .

فى ذاك العهد أيضاً نشأ للطلبيان أمثال المؤلف لورانزو فالانخدم الآداب والتاريخ والخطابة والفلسفة خدما تذكر له على الدهر ومثله جيور دانوبرنوالذى

أحرق لأفكاره الفاسفية وكان طالما كاتباً مؤثراً دينياً كانت الأفكار تنمخض على هذه الصورة قامت حركة الإصلاح الدينى فى القرن السادس عشر ومنشأؤها من بيع الففرانات واستئثار الباباوات بالسلطة المركزية يريدون أن يتم كل شىء فى رومية فى الأمور الدينية والملوك يريدون من حيث السياسة أن ينزعوا هذه العبء الثقيل عنهم والتخفيف من وطأة الارتباط بالمقام البابوى والفلاسفة والأدباء يريدون أن يحرروا العقل من قيوده وكلما كان المجتمع يدخل فى طور الكمال كانت الحالة تستدعى تقسيماً أكبر فى العمل وتوجيه المناحي وجهاتها حتى إذا كثر من واحد من المتدينين جداً قد طلبوا التفريق بين السلطتين وبعد شؤوز وشجون انفصلت ألمانيا وانكلترا عن رومية .

كان العلم فى أواخر القرن السادس عشر قليلاً وقام أمثال غاليله الذى قال بدوران الشمس حول الأرض فأوذى لما نادى بأرائه العلمية وإن التجربة هى الشرط الضرورى فى تحقيق المسائل العلمية وقد طبق ليونارد بعقله العجيب هذا الأسلوب على جميع المسائل المبحوث فيها وأخذ ما كفافيل واضع فن سياسة الخداع يتشبع بها فى كتبه السياسية وكما كان الشاعر دانتى يطالب بضرورة فصل السلطة المادية عن السلطة الدينية كان العالم غاليله يثبت بأن العالم العلمى يجب أن يكون منفصلاً ومستقلاً عن الاعتقاد الدينى وهكذا لم يبرح غاليله يؤكد مع شدة احترامه للدين أن العلم والدين أمران مختلفان ليس بينهما تناقض ولا ارتباط . ويرى أن الكنيسة هى الحاكمة فى المسائل الدينية وليس لها أدنى سلطة فى المسائل العلمية وينبغى لها أن تحاذر من الحكم فى مسائل هى غريبة عنها تماماً .

رأت الكنيسة بعد عصر دانتى أن تحافظ على كيانها السياسى بالقوة وأرادت بعد غاليله أن تحافظ على كيانها العلمى بالتعليم خصوصاً بعد أن شاهدهت النتائج التى تمت على أيدي اليسوعيين باتخاذهم العلم آلة للدين واتحدت الكنيسة مع الأمراء وأخذت تلقن الناس الطاعة والخضوع فلم تحدث بعد ذلك ثورات وأمن الناس واغتبطوا ولكن ظهر بعد قرنين من انتشار الإصلاح الدينى بقيام لوثيروس

ونزع ألمانيا وانكلترا يدها من الكنيسة الكاثوليكية ان الانحطاط اخذ يبدو على الشعوب التي ظلت كاثوليكية على اختلاف في عناصرهم ومناخ بلادهم وأحوالهم الاجتماعية والسياسية وذلك لأن التعليم كان محدوداً عند هؤلاء الشعوب ومقصوداً على بعض الطبقات والعدل فيه شدة وضعف والطاعة أبداً يرغب فيها فقلت في هذه الشعوب القوة المبدعة على أن الرقاه المادى كان مضمونا لأهل إيطاليا بما أنشئ فيها من المعاهد الخيرية ولكن كل ذلك لم يخرج الشعب عن حالة التثبت والتراجع .

وعلى عهد مثل هذه الادارة ينزل ميزان العقل من كل وجه فقد أمست المصناعات والآداب والعلوم لا ترتقى الا ببطء حتى أن الشاعر كيودى المتوفى سنة ١٧١٢ من أعظم شعراء ذاك القرن كان يتغنى بمدح عصره معرضاً بالجفاء البربرى الذي كان يشاهد من خلال أعمال قبائل رومية القديمة الذين لم يكونوا يحملون الا بفتح العالم

ومن حسن الحظ أن إيطاليا لم تعد في ذاك الدور أناساً ينهضون هنا وهناك يثيرون العواطف وينادون قومهم بأن ماهم فيه باطل لا بد له من التجديد وأن هذا العالم ليس عالم الأموات . فقام بيتروميكا بالدفاع عن تورينو وقام فيليكيا يتغنى بأغانيه الحرية لينبه سكان هذه الشبه الجزيرة المتخدرة ونهض الأمير أوجين دى سافوا يحمل أمجاد الحرب والسياسة الى القاصية وأخذ بيكاريا يقيم الحجة على فظائع المحاكم وقام غيرهم بأعمال كثيرة نبهوا فيها العقول من رقادها مما أمكن .

إيطاليا في القرون الحديثة

٤٩

بينما كانت إيطاليا غارقة في هذا السبات كانت أفكار غاليله قد وصلت الى انكلترا فتلقاها الفيلسوف باكون وعادت الى إيطاليا منعكسة من طريق فرنسا

في كتابات الفيلسوف ديرو وأخذت السلطة الدينية تضعف أمام حقوق العقل وجاء انتشار دائرة المعارف (سنة ١٧٥١ - ١٧٧٢) فأحدث حركة في أهل الطبقة المستنيرة وساعد فيها أهل الطبقة الوسطى من الفرنسيين آملين أن يروا منها سلاحاً يحاربون به رجال الكهنوت والاشراف أما العامة فقد استعملوها واسطة للارهاب وقد كفت فرنسا ثلاثون سنة حتى تأتي أفكار دائرة المعارف بعملها في التخريب وذلك لأن فرنسا كانت مستعدة أكثر من كل أمة لقبولها لأن السلطة كانت فيها على أشد ما تكون ثم إن صلاتها مع الشعوب البرتستانتية كانت مستحكمة العرى أكثر من غيرها فكانت ألفاظ « الحرية » « المساواة » « والأخاء » تؤثر في السواد الأعظم من القوم فتدفعهم إلا الأعمال المخارقة في باب الرجولية ولما ظفرت جيوش الفاتحين من الفرنسيين بفتح شبه جزيرة إيطاليا سنة ١٧٩٦ كانت جالة الأفكار في فرنسا مخالفة كل المخالفة لحالتها في إيطاليا في الأولى مضاء واعتماد على النفس وفي الثانية ضعف وخضوع ولذلك كان الامراء ينهزمون من وجه الجيوش الفرنسية على صورة بشعة بل ربما ركبوا طار الفرار قبل أن تحتل بلادهم فلما استحكمت سلطة الفرنسيين في إيطاليا قلبوا كثيراً من أوضاعها باسم الحرية ووضعوا لها القانون الفرنسي وألغوا امتيازات رجال الدين والاشراف بيدان ما حدث من الاحتلال الفرنسي لإيطاليا في أوائل القرن التاسع عشر قد نبها من سباتها العميق وحدابها أن تعقد مع سائر أوروبا الممثلة علائق ولم يفهم العامة من الطلاب ما يراد بهم فكانوا يساقون كالانعام ولكن الطبقة المستنيرة ورجال الأعمال بعثت همها حالة الفرنسيين فأخذت تدرك إمكان إعادة الوطن وتألّف شمله المبدد وتبحث عن الطرق لتحقيق هذه الأمنية فلم تمض على ذلك خمسون سنة حتى أثمر جهاد أرباب الأفكار تأليف الوحدة الإيطالية الحديثة وحدة قوامها المساواة أمام القانون ومنع الحرية السياسية .

أعاد رجال السياسة في مؤتمر فيينا خريطة أوروبا إلى ما كانت عليه قبل سنة ١٧٨٩ وعاد الباباوات والملوك والدوجات والامراء إلى سابق أمجادهم تحميمهم

الحراب الأجنبية ولكن استحال الرجوع الى الحالة الأصلية لأن رجال
الشعور الخارق للعادة ومن توهلهم الجاذبية العقلية الشديدة الى أن يتحرروا
بعض الشيء من الوراثة والمحيط قد عدلوا في وجهة الافكار وجددوا ميدان
آمالهم فكان الشعراء وأساتذة الكليات والقسس والاشراف المتعدون في
مقدمة من تبدلت عقولهم بتأثير الحوادث وما تم لفرنسا من المجد قد أفهمهم معنى
الجمال الذي ينطوى في مدارج القوة . وتراجع الايمان بالحق الآلهي وعادت
الفلسفة فتأثرت بتأثيرات المجددين وضربت مقعد الكنيسة الرومانية ضربة قاسية
وتحس الأذكاء وأرباب القلوب لفكرة أن وطنهم سيستعيد بهاءه ويعود عظيماً
جيلاً فأخذوا يعملون بمضاء وحماة تدعو كل من اطالع على أعمالهم أن يمجدهم
ويحترمهم وكثر تجدد طبقات من الشعراء أخذت على عاتقها أن تنبه بلسان الشعر
وألحانه الرخيمة شعباً متناوياً منذ قرون فتناول الشاعر جيوشى سوط الهجاء
الذي سقط من يد بارني وأخذ يضرب به وتحس الشعراء بليكوها ومازوني
ونيكوليني حماسة الغيرة المفجعة . وساعدت قصائد فوسكولو وأغاني برشت
الوطنية على هذا النشور .

بيد ان الدعوة الأدبية لا تستطيع أن تعمل الا في الافكار المستنيرة ولو
قليلاً فأخذ الاشراف والطبقة الوسطى من الأحرار يدركون ضرورة نشر هذه
الحركة بين العامة فأنشأوا يدخلون التعاليم الى القرى وكان تكثير سواد القائلين
بفكر التجدد وضم الشمل في المدن قد تسهلت أسبابه بارتقاء مستوى العقل في الشعب
واستعداده لقبول الجديد ولكن بث الدعوة كانت خطرة ، ولطالما أعار بعض
الكتبيين مؤخرة حواشيهم لعقد الاجتماعات يتهاوس فيها المتهاوشون بأفكارهم
وآمالهم وأحلامهم في المستقبل ونهضة البلاد .

ثلاثة عوامل أعانت على تخمير هذه الثورة الجديدة وتنمية بذورها : قدماء
الضباط والموظفين على عهد نابليون والجمعيات السرية ورجال الشرطة . ومعظمهم
كانوا دخلوا في الجمعية الماسونية فتعلموا فيها أساليب الاجتماع ، وجمع الشمل

وحب النظام ، وبالنظر لحالة البلاد اذ ذاك لم يتأت ان تنعش من سقطتها الا بجمعية سرية وذلك لما عرا الأخلاق من الانحلال والضعف ولقلة عدد ارباب الشخصيات الراقية فكثرت الجمعيات السرية من أجل ذلك في البلاد كلها ، وكان أشياعها كثاراً أولاً في الكليات ودخل فيها أبناء الطبقة الوسطى وكثير من أبناء الاسر الكبرى وجماع الاسرائيليين ، وكان أكثر الداخلين مدفوعين الى ذلك بعامل المنفعة الشخصية الممكنة وكلهم يرمون الى جمع ثمن الوطن .

كان للاسرائيليين في هذه الحركة الكعب المعلى فانهم وان كانوا في ايطاليا أقل جيناً من حيث مادياتهم خيلاً لما كانوا عليه في سائر أوربا لكنهم كانوا خاضعين لقانون يحرمهم من الوصول الى المناصب التي يؤهلهم اليها ذكاؤهم وثباتهم المتواصل على العمل ، ولقد علمهم احتقار الناس لهم فضائل تجرد منها ظالموهم ، فكانوا محقرين وسذجاً في الصورة الظاهرة ويتذكرون أحياناً شيئاً من الخير نالهم ولكنهم لا ينسون على الدوام العار وهم على ثباتهم وحسابهم للعواقب قد أصبحوا متضامنين بدواي مقاومتهم للعدو المشترك يكتمون أمرهم ويسرون ما يجول في قلوبهم وهم قد أثروا أثراً مهماً فكانت منهم قوة لا تعاد لها قوة لمقاومة نظام سياسي تكرهه نفوسهم .

فلم يكونوا يعتقدون ان في وحدة ايطاليا قلب الأوضاع التي طالما قاسوا منها الامرين بل كانوا يرون فيها صورة من صور الانتقام من انكلترا المسيحية في رومية الباباوات ولذا يمكن أن يقال في ذاك العهد ان جميع الماسونين في ايطاليا ان لم يكونوا كلهم اسرائيليين فان جميع الاسرائيليين كانوا ماسوناً واذ كانت القوانين والعادات تبعدهم عن الحياة العسكرية فقدوا الشجاعة التي تورثها صناعة حمل السلاح فكانت معاونة الاسرائيليين ما عدا بعض الشواذ مالية أكثر منها شخصية وعظمت معاونتهم المالية في هذا السبيل حتى ان الحكومة الموقفة في ميلان بالنظر لما ادره عليها الاسرائيليون من المال بعد مغادرة النمساويين للبلاد قد شكرتهم على اعانتهم الكريمة في سبيل الحرية .

وما كان القسيسون غرباء عن هذه الحركة فإن أول من صاح « ايطاليا واحدة وحررة » كان قسافات في هذا السبيل وآخر من قضى في هذا المقصد هو قسيس أيضاً كان في صحابة اسرائيلي ، وكان هذا شأن جميع المستنيرين من عامة طبقات ايطاليا يريدون أن يحيا وطنهم ولا يبقوه أرض الاموات ، وما صادفته هذه الدعوة من العواطف في طبقة رجال الدين لا يعجب منها اذا علم أن البابا بيوس السابع كتب الى الكونت بورو بمناسبة أعضاء جمعية الكاربوناري الثورية « انهم يحبون ايطاليا وانا أحبها مثلهم » وكذلك كان الأشراف الذين لم تكن لهم مناصب تشغلهم في الحكومة وأقصاهم الملوك عن قريبتهم فانهم شاركوا في الحركة الجديدة حق المشاركة .

قلنا الكاربوناري وهي جمعية اشتقت من الجمعية الماسونية وأعضاؤها من الجنود والضباط على عهد نابليون فقامت منذ سنة ١٨٢٠ بثورات عسكرية في مملكة نابولي أولاً ثم في معظم أمارات ايطاليا ، ولكن قلة عدد اعضائها وفقدان المرددين لأعمالها غادرت حركاتها قاصرة . ولما قام مازيني الكاتب الذي كان يؤثر لانه كان متأثراً يرمى الى انهاض ايطاليا وجد أنصاراً وأعواناً وان كان العيب الوحيد انه كان يتعجل قطف الثمرة قبل نضوجها ، ويضيق المجال اذا اردنا احصاء من دعوا الى هذه الوحدة ومنهم الراهب فنسانزو جيورتي الذي اغضب الكنيسة بعمله ، فقضى آخر ايام حياته شريداً في باريز لانه قال بضرورة فصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية ومنافع ذلك للسياسة والاخلاق

وكانت نيران الثورة تشتعل تارة وتخمد اخرى فيظن ان البلاد عادت الى حالتها من الامن والطمأنينة ، ثم لا تلبث فوهة البركان ان تقذف حممها ، وقد انفجرت لآخر مرة يوم قامت فرنسا وقلبت الملكية ونادت بالجمهورية وأخذت تهتز أعصاب أوروبا فتحركت ايطاليا من أقصاها الى أقصاها كأنها متأثرة بمجرى كهربائي فقامت قيام الرجل الواحد من بلاد الألب الى صقلية أي من الشمال الى الجنوب وظهر ان الملوك تظاهروا بالاشتراك بالحركة والبابا كذلك وان شئت فقل

انه كان أكثر من غيره وتنازل الأمراء عن سلطتهم المطلقة ومنحوا دساتير لشعوبهم والكل يريدون أولاً طرد النمساويين من البلاد التي كانوا احتلوها ولقد تمثلت الثورة العامة في سنة ١٨٤٨ في جميع الطبقة الوسطى المناهضة السلطة المطلقة فصادفت أولاً عطفاً من البابا وغيره فلما تحقق مقاصدها مزقت الدساتير المعطاة وأعيدت البلاد الى نظامها السابق فلم يثبت من ولايات الشبه الجزيرة سوى البيمون وكان لها فقط جيش يحسن الكر والفرو له نظام بزعامه الملك الجديد فيكتور عمانوئيل الثاني وما كانت المهمة التي انتدب اليها هذا الملك بالأمر السهل بل كانت تحتاج الى سلاح ماض وطرق مواصلات منظمة ومعارف منتشرة وضم شمل أحرار الطليان وتهدة خواطر الكاثوليك وهم كثر متحمسون في إقليم البيمون واقناع أوروبا التي لا تصدق أوهى معادية لهذا الفكر واتخاذ أنصار من حكومات أوروبا ليفتوا في عضد العدو العظيم . كل هذا ولا مال لتلك المملكة الصغرى وهي مدينة بمليارين من الفرنكات هذا المركز من أخرج المراكز وحل مشاكله يجب له نابغة من الرجال وهذا الرجل الذي تهيأ له هو « كافور »

قام هذا السياسي العظيم وعرف بما خص به من حسن الانتفاع أن يستخدم أمثال غاريبالدي ومازيني للمقصد الذي يرمى اليه في حين كانا يريدان المناداة بالجمهورية لا بالملكية . ومن دهاء هذا الرجل انه بعث من إقليم البيمون جنداً الى حرب القريم يعاون الدول الأوربية التي عاونت الدولة العلية اذ ذاك فعد العالم عمله خرقاً في الرأي على أمة صغيرة فقيرة مثقلة بالديون ولكن هذه المناداة هيأت لاطاليا بل لمملكة البيمون مركزاً بين الدول وصار لها الحق أن تبعث بمن يمثلها في مؤتمر باريز . ولا عجب فالأعمال بمقاصدها ونتائجها أتم هذا النابغة كل ما كان يظن انه مستحيل ولا يعرف اليوم ماذا كانت حال ايطاليا لولا قيام هذا الرجل . وقد جبر بدهائه ما بدر من الضعف في الجمعيات السرية الثورية التي اندمجت في جمعية « جيوفاني ايطاليا » لأن عملها لم يؤد الا الى فظائع فقام كافور يربط بحكمته القلوب حول عرش صاحب بيمون وغدت أمرة سافوا محط رحال

الآمال وساعد أن كان الأمبراطور نابوليون الثالث الفرنسي من أعضاء جمعية الكاربوناري منذ صباه فاضطر الى مساعدة إيطاليا ولما أيقن الملك فيكتور عمانوئيل بمعاودة الجيش الفرنسي نهض بالعمل بصورة أنغم وأعظم وأعلن الحرب على النمسا وقد قال لوزرائه عند ما وقع على اعلان الحرب اني سأكون بعد عشرة أشهر ملك إيطاليا أو المسيو سافوا .

ظفرت الجيوش الفرنسية في مونتبللو وبالسترو وماجنتا وسولفيرينو ، وبموجب معاهدة زورنيخ تركت لومبارديا لمملكة البيمون وقامت طوسقانة رويدا رويدا على دوجها الكبير وأعلنت انضمامها الى البيمون ، ونزل غاريبالدي الى صقلية وتأخى مع سكانها وكانوا مربوطين بعهود الاخاء من قبل مع جمعية مازيني السرية ثم اجتاز المضيق ودخل ظافراً الى نابل وكاد يزحف على رومية ليفتحها وبعد أيام أعلنت جزيرتا صقلية وسار دانية انضمامهما الى الوحدة الإيطالية وفي ١٨ شباط ١٨٦١ اجتمع البرلمان في تورينو ونادى بالملك فيكتور عمانوئيل الثاني ملكاً على إيطاليا وتوفي كافور بعد بضعة أسابيع كأنه انتظر حتى أتم عمله المجيد مخلفاً لقومه شعاره « الكنيسة الحرة في المملكة الحرة »

وبقيت البندقية ورومية فقط لم تفتح فقام اخلاف كافور ، وعقدوا محالفة مع بروسيا فأخذوا البندقية وسمح استدعاء الجنود الفرنسيين من إيطاليا سنة ١٨٧٠ للجيش الايطالى أن يدخل ظافراً الى رومية مقاتلاً جيش البابا الذى قاوم بعض المقاومة ولكن ما حيلته أمام هذا التيار العظيم وارادة الامة في نزع السلطة المدنية من يد صاحب السلطة الدينية فخصرت سلطة البابا بعد ذلك في دائرة معينة لا تتعدى حد السلطة الروحية .

إيطاليا بعد الوحدة

٥٠

هاقد ألقينا نظرة مجملة على ماضي إيطاليا وأصول مدنيّتها واجمادها ودرس الماضي عون على فهم الحاضر ولقد ترك كل دور دخلت فيه البلاد طابعاً في صورة إيطاليا الحديثة كما أثرت فيها المؤثرات الجوية والجغرافية والعنصرية ولم تقو التربية الا على تغيير قایل فيها، ونشأت مؤثرات أخرى تقعت في نهوضها كل النفع وهي سرعة المواصلات وكثرة التنقل والصلات المتواصلة مع الامم الأخرى وغير ذلك، وبعد ان صرفت إيطاليا كل جهادها الماضي الى سنة ١٨٧٠ في تكوين الوحدة الايطالية والغاء امتيازات الاشراف ورجال الدين وتأسيس ملكية ديموقراطية وجب عليها ان تنظم هذه القوة، فاخترت القانون الاساسى الذي كان معمولاً به في اقليم البيمون مع بعض تعديل أخذته عن القانون الفرنساوى .

ولقد حق على القاعين بهذه الوحدة من أهل الطبقة الوسطى وأبناء اشراف من الدرجة الثانية والاسرائيليين والماسونيين والبيمونيتيين وكل من وجدوا مصلحتهم في قيام هذه الوحدة أن يرعوها فلم يجدوا أمامهم الا العامة يتقوون بهم فأنشأوا لهم مسائل الاشتراكية والنقابات الصناعية واعدتهم فيها بوعود خلافة أقلها ان الجمهور يعيش بدون ان يعمل، وكل ذلك لمناهضة الاشراف، ورجال الكهنوت ففقدت طبقة الاشراف كل موازنة ولم تبق لها تلك المكانة المعروفة لها قديماً . اما رجال الدين فاحتفظوا بجزء كزهم وذلك لانهم يمثلون شيئاً لا يبرح حياً في نفوس الشعب ولان لهم قانون يضم شملهم .

التفتت الحكومة بعد الوحدة الى تنظيم الجيش وكان الفكر الحربى مفقوداً من معظم طبقات الشعب فما برحت تزيد فيه وكان عدده على عهد اوائل الوحدة

مئة ألف نسمة فأصبح الآن خمسمائة ألف جندي منظم مدرب حين السلم وثلاثة ملايين وخمسمائة ألف جندي زمن الحرب يدخل فيهم البوليس . وكل ايطالي بلغ سن العشرين يدخل الجندية فيخدم فيها ثلاث سنين ويكاد السكر لا يعرف في الجيش والضباط يقومون على تدريب الجند باخلاص ويلقنونهم الفضائل الحربية ولذلك نرى مجلس النواب الايطالي يمنح ميزانية الحربية وهي ٣٦٤ مليون فرنك كل سنة بدون أن ينظر فيها ثقة منه بأنها تصرف في سبيلها على أبناء الامة ، ومما يعمل لنفع الجند أنهم أنشأوا بالقرب من بعض الثكن في البلاد دروساً زراعية عملية يتعلم فيها العسكر مدة خدمتهم ما ينفعهم مع التعليم العسكري اذا رجعوا الى قراهم من العمليات الزراعية

أما البحرية وميزانيتها ١٨٦ مليوناً فيمكن أن يقال على الجملة أن ايطاليا لما تكونت لم يكن فيها أثر للقوة البحرية فأخذت منذ سنة ١٨٧٣ تنظم بل توجد بحريتها ليكون لها شأن في البحر المتوسط والبحر الادرياتيكي ورجال البحرية الذين يتخرجون في مدرسة ليفورنه يبدون كل اخلاص في تخريج الجند البحري وهكذا تعمل ايطاليا على تحسين بريتها وبحريتها لتستطيع بذلك أن تجد مورداً لامتها التي يكثر نسلها وتريد أن تجد لها مرتزقاً في الارض ولا سيما بعد أن طلبت بعض الحكومات التي تكثر مهاجرة الطليان الى أرضها أن يحمي العملة من غير الطليان الحماية الكافية التي تخولهم عدم منافسة العامل الايطالي . وأن ايطاليا لمضطرة بحكم الطبيعة أن تكون أمة بحرية من الدرجة الاولى لان شطوطها على البحر المتوسط تبلغ ٦٠٠٠ كيلومتر على حين ليس لفرنسا سوى ستمائة وتناسل السكان والخوف من اغلاق أبواب اميركا ذات يوم في وجه المهاجر الايطالي دعا ايطاليا أن تفكر في فتح طرابلس وبرقة حيث يجدأ بناؤها ولا سيما في الجنوب مناخاً يشبه مناخ بلادهم ويكونون على مقربة من أرضهم ومساقط رؤوسهم مما دعاهم الى الغارة على شمالي افريقية ذكرى أن أجدادهم الرومان فتحوا

تلك البلاد واستعمروها أيام عزمهم وقد كلفت هذه الحرب ٩٢٧ مليون فرنك
ربما كان الايطاليون من أكثر الامم الاوربية حبا للهجرة وذلك لان بعض
الجنوب من بلادهم فقير بزراعتهم ولانك لا تجد في ايطاليا طبقة وسطى على
الاغلب فاما فقير معدم يولد له كل سنة ولا يجد في أرضه من المواد الاقتصادية
ما يقوم بعيشه أو غنى كبير وهم قلائل ولذلك لم يبق أمام الطليان غير الهجرة فقد
كان عددهم سنة ١٨٦١ أى بعد الوحدة بقليل ٢١ مليوناً وهم اليوم ٣٥ مليوناً
بحسب الاحصاء الاخير دع الطليان المنبشرين في اقطار العالم ، وعدد من يسكنون
في كل كيلو متر مربع ١٢٢ سا كنأى أكثر من معدل السكان في المانيا وفرنسا
ولا يفوق ايطاليا في كثرة عدد السكان بالنسبة لمساحة الارض من الممالك الاوربية
الا البلجيك وانكلترا وبلاد القاع (هولاندة)

واكثر المهاجرين يهاجرون هجرة مؤقتة وقلائل منهم من يهاجرون هجرة
قطعية بل ان من المهاجرين من يقضون الشتاء في اميركا ويأتون في الصيف
يحصدون ارضهم ويقطفون ثمرات أشجارهم ولولا النقد الذى يحمله اولئك
المهاجرون من اميركا يضعونه في المصارف وصناديق التوفير لبطلت حركة ايطاليا
الاقتصادية لان النقد قليل فيها حتى تضطر الحكومة بل الامة ان تجرى أكثر
معاملتها بالورق ولا تكاد تجد الذهب الا نادراً ، وقد بلغ من هاجروا ايطاليا
من ابنائها في الشهور التسعة الاولى من هذه السنة ٢٢٥ ٣٣٥ مهاجراً ولا
يقل عدد المهاجرين من سنة عن خمسمائة الف ومنهم من يهاجرون الى البلاد
المجاورة ولا سيما جنوبى فرنسا ومنهم الى امريكا

والعامل الايطالى قنوع للغاية يقتصد جانباً من اجرتهم ومنهم من يعودون
برؤوس اموال الى بلادهم المتعلقون بحبها فالعامل الايطالى يقبض دولاراً ونصفاً
في الولايات المتحدة فيصرف النصف دولار ويقتصد الباقي حتى اذا عاد الى قريته
تحدثه نفسه ان يبتاع له ارضاً يبني فيها كنه ولذلك ارتفعت اسعار الاراضى في القرى
أكثر من ارتفاعها في المدن الكبرى ولا سيما بعد ان انشئت جمعيات ومكاتب

للمهاجرين ومنها ما اسسته الحكومة ومنها ما اسسه الافراد لتسهيل الهجرة ووقاية المهاجر من التلاعب به وليس لاطاليا من المستعمرات ماعدا طرابلس وبرقة غير الاريتره وبنادر والصومال الايطالية وهي مجاورة فيها لفرنسا وانكلترا. وايطاليا جاءت الى عالم الاستعمار بعد وحدتها وقد تقاسمت اوربامغانم افريقية وآسيا وتوزعت ممالكها بينها

احتاجت ايطاليا بعد وحدتها ، وتأليف هذا الجيش الضخم والبحرية القوية الى موارد كثيرة فالتفت فلم تر أحسن مورداً من الزراعة ، وثلك الايطاليين يعملون بها في أرض مزروعة تقدر بنحو عشرين مليون هكتار تخرج سنوياً مئة مليون هكتولتر من الحبوب حنطة وذرة وأرزاً وأربعين مليون هكتولتر من الخمر وعشرة ملايين قنطار من الزيت والثمار . دع أعمال الألبان وتربية الحيوانات والحرير الخام وغيرها من الموارد التي تعد من جملة الزراعة ويبلغ مجموع قيمتها نحو خمسة مليارات فرنك كل سنة وزراعة الشمال راقية على الطرز الحديث وقد أدهشنا ما رأيناه من بدائعها في ضواحي فلورنسه وضواحي بولونيا وذلك لأن اقليم طوسقانة وطاضمته فلورنسة عامر منذ القديم وهو مقر أمجاد الطليان وكذلك حال العمران من سفوح جبال الالب الى طوسقانة فان أرضها حداثق غناء وهذه البلاد الشمالية تختلط كثيراً بالأأم الراقية المجاورة لها مثل السويسريين والفرنسويين أما سكان الجنوب ولا سيما في صقلية وساردنيا وغيرها من الاقاليم الجنوبية فان المناخ مؤثر في أخلاق أهلها وليس عندهم نشاط سكان الشمال ولا معارفهم ، وسكان الجنوب أشبه بالأأم الشرقية النازلة على شواطئ البحر المتوسط .

وصناعة ايطاليا وتجارها راقية على نسبة زراعتها فقد كان لهذه المملكة سنة ١٨٦٠ - ٢١٩٨ كيلومترا من الخطوط الحديدية فبلغت سنة ١٩٠٩ - ١٨٠٠٠ كيلومتر يضاف اليها خمسة آلاف كيلومتر من التراموايات والاتوبوس وكانت الطرق العادية على عهد الوحدة ٤٨ ألف كيلومتر فتجاوزت اليوم ١٤٠

ألفاً وكان لايطاليا سنة ١٨٦٢ - ٥٧ سفينة بخارية تجارية تحمل ١٠٢٢٨ رطلًا و ٩٣٥٦ سفينة شراعية تحمل ٦١٣٩٩٦ رطلًا فأصبح لها سنة ١٩٠٨ - ٦٢٦ سفينة بخارية محمولها ٥٦٦٧٣٨ و ٤٧٠١ سفينة شراعية محمولها ٤٥٣٣٢٤ رطلًا وبلغ عدد السفن الايطالية التي خرجت ودخلت في الموانئ الطليانية ١٩٠٥٥٥ سنة ١٨٦١ فبلغت في سنة ١٩٠٩ - ٢٤٦٢٤٦ وكان اذ ذاك عدد الداخل والخارج الى الموانئ الطليانية من بواخر الأجناب ٢٣٨٣٦ رطلًا فبلغ في العهد الاخير ١٧٤٣٤ واشتركت في ذلك جميع موانئ ايطاليا وفي مقدمتها جنوة ثم تجي و نابل وليفورنة والبندقية و بلمة وكان لايطاليا عام ١٨٦٠ - ٨٠٠٠ كيلومتر من الاسلاك البرقية ولها الآن ٥٤ ألف كيلومتر ، تضاف اليها الاسلاك البحرية والتلغرافات اللاسلكية مع ما لها من الخطوط التلفونية ولم يكن البريد بالشئ الذي يذكر في بعض أصقاع ايطاليا على عهد الوحدة فبلغ وارده في سنة ١٨٨٦ - ١٦ مليوناً وفي سنة ١٩٠٠ بلغ ١٠٧ ملايين فرنك

وكانت الصناعة أيام الوحدة غير موجودة الا في اقليم البيرون ولومبارديا فعمت الآن أقاليم ايطاليا كلها ولا سيما في الثلاثين سنة الأخيرة فقد كان سنة ١٨٨٩ معمل واحد للسكر في جميع ايطاليا فأصبح لها ٣٢ معملاً وارتقت صناعة حياكة الصوف والقطن والحري والحديد والعربات والسيارات ارتقاء هائلاً ، ووجدت الكهرباء في ايطاليا محيطاً حسناً للغاية بالنظر لما خصت به هذه البلاد من الأنهار السريعة في جريتها ، ومن هذه القوى النافعة تخدم الصناعة أجل خدمة ، وربما أوصلت الكهرباء الى مسافات متناهية ، ولا تسئل عن معامل الأساحة وبناء السفن مثل معمل انسالدو في مقاطعة جنوة وغيره كثير . واذا ضم ما يرد ايطاليا من صناعتها الى ما تأتيها به زراعتها بلغ مجموع تلك الثروة ٧٥ ملياراً من الفرنكات يصيب كل فرد ٢٢٠٠ فرنك ويستدل على الرفاهية والغنى مما يودعه الاهلون في صناديق التوفير فقد بلغ ما أودع في الصناديق العادية مليارين ونصف مليار من الفرنكات يضاف اليها ما أودع في صناديق التوفير

في البريد وهو ١٧٠٠ مليون هذا عدا ما يضعه الناس في المصارف وجميعيات التعاون مما يعد جزءاً عظيماً من ثروة الأمة . وما كانت البيوت المالية تعرف في إيطاليا الا في اقليم البيمون قبل الوحدة الإيطالية ، وقد كثر عددها اليوم ، وهي من الدرجة الأولى بين المصارف مثل بنك إيطاليا وبنك نابل وبنك صقلية وبنك رومية وغيرها وكلها تشتغل بزهاء مليارين من الفرنكات ماعدا أموالها الاحتياطية النقدية التي تبلغ ملياراً ونصفاً

وفي إيطاليا مصارف زراعية ومصارف عقارية ، وشركات تجارية مساهمة ، وشركات صناعية تعاونية وغيرها وعددها يكثر كل سنة كثرة هائلة . وقد بلغت ميزانية الحكومة من كل ذلك مليارين ومائتين وستة عشر مليون فرنك في سنة ١٩١١ في قسم النفقات ، ومليارين وثلثمائة وأربعين ملايين في قسم الواردات ولقد أصيبت إيطاليا بأزمة سياسية شديدة سنة ١٨٩٠ أثرت في مالياتها كل التأثير فكان شأن المضاربين على الأرضى للبناء في المدن الكبرى شأنهم في مصر منذ بضع سنين فقدوا ثرواتهم الا قليلاً بسقوط أسعار تلك الأرضى وذلك لان بعض المدن الإيطالية أرادت أن تجدد أبنيتها على الطرز الحديث ، فأخذت طائفة كبيرة من أبناء الاسرات القديمة ومنهم من يعتقد بأنه الكفاءة في كل شيء يتعاونون من تلك الأرضى والأبنية القديمة للهدم فكان بها خرابهم وخراب كثير من أرباب رؤس الأموال الصغيرة ومن المصارف وبسبب هذه الأزمة عرض الوزير كريسبي الإيطالى على البرنس بسمارك الألمانى أن تكون ألمانيا وإيطاليا يداً واحدة فأحست فرنسا بالامر من الغد فلم تر أحسن من اخفاق مسمى إيطاليا واشغالها بقطع الموارد المالية عنها ، وكانت إيطاليا اذ ذاك لا تعتمد في اقتراضها وتجارها الا على البيوت المالية والتجارية في باريز ، فأخذ هؤلاء يرفعون ثقتهم من إيطاليا ويشحون عليها بالمال فحدثت تلك الأزمة التي منشأها في الحقيقة من أناس ما خلقوا مالين ولم يستعدوا لمعانة الشئون المالية بالعمل وعلى العكس كان من قانون الوراثة والمحيط ان هياً الاسرائيليين ليعملوا

أعمالاً عظيمة في إيطاليا وللاسرائيليين اختصاص بالشؤون المالية ولا نجاح الا
بالاخصاء . فانهم اقتصروا بالتجارة ومعانة المال فنشأت لهم مهارة لا نظير لها
وقد بقيت سلطة الأب على أولاده محترمة عندهم بخلاف القوانين الحديثة
الاجتماعية التي قللتها عند غيرهم وترى النظام في بيوتهم التجارية والصناعية أتم
مما هو عند غيرهم والاعتصابات قليلة وأعمالهم ناجحة أكثر مما عداهم لأنهم
يحسنون الانتفاع من القوى والأشياء أكثر من كل الطوائف ، ومنشأ ذلك
كونهم كانوا مضطهدين فأحرزوا ببطء صفات يولدها الاضطهاد فيمن يؤخذون
به . وهذه الصفات هي قوة المقاومة والشعور بالتضامن واللين والمرونة
في أسباب الحياة .

وعلاوة على ما للاسرائيليين في إيطاليا من النفوذ العظيم الاقتصادي قد كان
لهم في المسائل السياسية مكانة لا تنطبق مع قلة عددهم ولكن لها ما يشفع بها
بما قاموا به من معاونة إيطاليا في وحدتها بالمال وما أبدوه من الصفات الحسنة
التي أبانوا عنها في تقديم ادارة المسائل العامة ، وطالما كان منهم رؤساء الوزارة
والولاة فأظهروا من البراعة في الأمور السياسية ما يحق لهم أن يفاخروا به بل ان
حاكم رومية نفسها هو اليوم اسراييلي ، وكذلك أكثر الولايات التسع والستين
الايطالية فان ولايتها من أبناء اسراييل . لا يأتون ما يمس عواطف الاكثريّة من
الكاثوليك بل كثيراً ما كان نوابهم ووزراؤهم في جانب المحافظين اذا أريد وضع
قوانين واحداث أمور جديدة من شأنها إثارة الرأي العام مما دل ان الاسراييلي
في إيطاليا خلافا لما هو عليه في سائر الممالك ايطالي أولاً ثم اسراييلي وفي غير
هذه الديار اسراييلي قبل كل شيء . وفي المظهرين تفاوت عظيم كما لا يخفى .

ايطاليا وعلمها وفنونها

٥١

كان علينا وقد وصل بنا البحث الى هذا الحد أن نتكلم على ما امتازت به ايطاليا من دون سائر بلاد أوربا من التفنن في الفنون الجميلة والتبريز في مضمارها على جميع أمم الغرب مهما قالوا بانحطاطها عندهم بالنسبة للقرن السادس عشر والسابع عشر وذلك مثل الكلام على التصوير والنقش والهندسة والموسيقى ولكن ذلك يحتاج الى فصول كثيرة لا تتسع لها هذه العجالة ولا تنطبق مع أذواق أكثر القراء ومع هذا فنتكلم على الآداب الطليانية في العهد الأخير وكيف ارتقت حتى عم أهل القرى أثرها .

يعتبر تاريخ اللغة الايطالية الحديثة منذ عهد دانتي الشاعر فانها بعده لم يعد ينقصها شيء من الالفاظ للتعبير عن الفكر ومضت القرون الثلاثة التالية بعده فأصبحت البلاد لقلة المواصلات وكل مقاطعة لموقعها الجغرافي لا تعرف ما عند جارتها فنتج من ذلك تعدد اللهجات وفتحت هذه صدرها لكل الالفاظ الحديثة في حين ظلت الايطالية الادبية جامدة تقرأ في المدارس كما تقرأ اللاتينية واليونانية أي كنها لغة ميتة لا حية ، ودام الحال على ذلك الى قبل خمسين سنة وبفضل توفر المواصلات والخدمة العسكرية التي تقضى بتنقل الجند في البلاد أخذت الايطالية الحديثة تهرم في كل مكان وبقيت اللهجات التي تعوق ولا شك دون نشر لغة عامة تفي بمطالب الفكر الحديث وأصبح عندهم لغة يتكلم بها تؤثر فيها اللهجات المحلية ولغة ايطاليا مكتوبة يحسنها الكتاب والمؤلفون في ايطاليا نحو ١٤ لهجة لا يفهم أهل هذه لهجة أولئك وأفصح اللغات لغة طوسقانة ومنها سرت الى رومية ولغة ساردينيا تشبه اللاتينية كثيراً وتختلف عن لغة صقلية وابن رومية لا يفهم لغة ساردينيا وأهم اللهجات الايطالية اللبحة السمندقة

واللومباردية والليكورية والبندقية والرومانية والنابولية والبولية والسكالابرية والمقلية والساردينية .

وتعددت اللهجات مما سمت به البلوى لافى اللغة العربية فقط بل فى لغات أوربا التى يسعى أهل العلم والسياسة الى توحيدها منذ زمن طويل ، فمن ذلك ان فى سويسرا ثمانى لهجات ألمانية لا يتفاهم أهلها بعضهم مع بعض بها بل ان أهالى ألمانيا لا يفهمون لهجات سويسرا مثل أهالى بافيرا وورتمبرغ وهيس ، وهكذا الحال فى فرنسا وغيرها من البلاد التى يظهر أن لها لغة واحدة والحال انها مختلفة اللهجات لا يكاد يفهم المتناوون لغة بعضهم بعضاً .

اقتضت وحدة الروح الايطالية أن يكون لايطاليا لغة مكتوبة واحدة فقام بهذا الغرض من الشعراء والكتاب فى أوائل القرن التاسع عشر أمثال مانزوتى وبلليكو وكاردوشى فأفادوا على اختلاف فى طرق الاداء فى بث اللغة الصحيحة فى الشعب . ومن الشعراء الكتاب المعاصرين الذين اشتهروا فى الآفاق دانوزيو وباسكولى وفوكازارو ودى سانكنيس وفريرو ومن النساء اللاتى نافسن الرجال فى صناعة الأدب سيرارو واوسانى ودلوا ومنهن من تفردن فى القصص التمثيلية وأخرى فى القصص الروائية وغيرهن فى الصحافة .

كان من توفر أسباب الرقاهية فى الشعب الايطالى ان أخذ عدد المختفين الى مسارح التمثيل يزداد اليوم بعد الآخر ومن نشر التعليم وقلة عدد الاميين سنة عن أخرى ان كثر عدد الصحف وقراؤها وكان من ذلك مواد ثمينة لتعجيل كمال اللغة الحية لان التمثيل كالصحافة اذا أراد القارئون بها أن يفهموا وجب عليهم أن يتكلموا بلغة تتناولها عقول الكافة واذ كان بعض هذه الجوقات التمثيلية تطوف بلاد الاقاليم اقتضى لها أن تعدل من لهجتها فى كل محل بحيث تتناولها الاذهان على أيسر سبيل . وعند الطليان مؤلفون كثيرون للروايات التمثيلية لا يقلون عن غيرهم من الامم الراقية كالفرنسيين والالمان .

أما الصحافة فهي تشبه صحافة فرنسا وغيرها من الممالك فى الصورة والشكل

وكل يوم تزيد العناية فيها بالاخبار المتنوعة المؤثرة وتقل مادتها من الانتقاء الجدى والموضوعات الادبية فالصحافيون هنا مثل غيرهم في البلاد الاخرى يبيعون من الجمهور ما ينفق عليه ويروج عنده . وليس للصحف الكاثوليكية رواج كثير كالصحف غير الكاثوليكية وأعظم صحف ايطاليا وأهمها جريدة « كوربيه دلا سيرا » أى بريد المساء وهى تصدر فى ميلانو من عواصم العلم القديمة أو العواصم الادبية كما يسمونها وتجيء بعدها جريدة « التريونا » أى الميترو وهى نصف رسمية ثم « جورنال ديتاليا » أى جريدة ايطاليا وهاتان تصدران فى رومية . ومن خيرة جرائدهم جريدة « ايدياناسيونالى » أى الفكر الوطنى وهى تمثل الفكرة الوطنية الايطالية يريد بها أصحابها أن يطلوا أو يقللوا على الأقل كل ما يزق كلمة مواطنهم وأن يجمعوا شملهم على خطة سمحة غايتها عظمة الوطن . وقد سارت صحافتهم كما هو شأن الصحافة فى كل مكان على توحيد الفكر واللغة .

كان السبب الرئيسى فى كل ما تقدم من ذرائع الارتقاء نشر التعليم بين جميع طبقات الشعب فقد كانت الحكومة الايطالية خصصت سنة ١٨٦١ مليون فرنك للمعارف العمومية وهى الآن تنفق مئة مليون^(١) لهذا الغرض كل سنة وارتقاء كهذا فى البذل على المعارف تنشأ منه تلك الوطنية والوحدة دع المدارس المتنوعة التى أسستها الجمعيات الدينية أو الافراد وزاد عدد الطلاب ضغنى ما كان عليه سنة ١٨٦١ فبلغ فى السنة الماضية زهاء ثلاثة ملايين .

(١) بعد كتابة ماتقدم اطلعنا على خطاب ناظر المالية الايطالى وقد جاء فيه أن ايطاليا تنصرف هذا العام على المعارف ١٤٨ مليون فرنك وتفيض المال الكثير على معارف الولايات ليطبق بالفعل قانون التعليم الاجبارى فى البلاد وقد بلغت الحركة الدولية فى المفايضات خلال الاحد عشر شهرا من السنة الماضية (١٩١٣) ٥٥١٦ مليوناً أى بزيادة ٤٤ مليوناً عما مثلها من السنة التى قبلها وقلت الواردات ٤٨ مليوناً وزادت الصادرات ٩٢ مليوناً وزادت السفن البغارية الداخلة الى موانى ايطاليا فكانت ١٦٤ ألفاً كما زادت البضائع الصادرة والواردة ١٠ — ١٢ مليون طن وزاد عدد السائحين فى ايطاليا مثلاً ألف وزادت كمية المعدن من مناجم الحديد فبلغ ٣٢٥ مليوناً وكذلك مداخيل الضريبة على السكر والتبغ ودخل السكك الحديد وكثر الاتفاق على المصارف وأعمال الرى والاسباب الصحية كثيراً والحكومة الايطالية ستزيد ميزانيتها البحرية والبرية وكل هذا بدون أن تستدين وتبادل الدخل والخرج على طريقة ماهرة فى الامور المالية .

ومع هذا فإيطاليا من أكثر البلاد الأوربية أميين — بعد روسيا — ولا سيما في القرى وإن كان التعليم الابتدائي إجبارياً إلا أنه لا يعمل به كثيراً وبالنظر لما وقع من النزاع بين الحكومة والأكليروس انتهت الحال بأن المدارس لا تعلم التعليم الدينى إلا لولد يطلاب أبوه ذلك والآباء قلما يحفلون بهذا الطلب ولذلك كاد التعليم الدينى يضمحل من مدارس إيطاليا وقد تعطي الحكومة أحياناً إعانات المدارس الأخويات الدينية ومن المدارس الحرة ماله حقوق عالية وله الحق بأن يكون لتلاميذه بالامتحان حقوق تلامذة مدارس الحكومة ومن المدارس ما يديره اليسوعيون وإن ألغيت مدارسهم في إيطاليا منذ زمن طويل . ومدارس الجمعيات الدينية خاضعة أجمالاً لتفتيش الحكومة وترفع عن البحث في السياسة يقسم التعاليم الأوسط في إيطاليا إلى فرعين مختلفين . الفرع المدرسى وهى دروس المدارس المعروفة بالجنائز والليسة والتعليم العملى وهو يدرس في المدارس والجمعيات الفنية وقد كان عدد تلامذة الفروع الأولى على عهد الوحدة ١٢ ألفاً فأصبحت في السنة الماضية ٤١ ألفاً والدروس العملية التى يتخرج فيها الشبان الذين يتمخضون لفروع الصناعات الكثيرة وقد باغوا سنة ١١١١ - ١٠٠٠٠٠ وما كانوا منذ خمسين سنة أكثر من ٦٠٠٠ وفى الفرع المدرسى تعلم اللغتان اليونانية واللاتينية وفى الفرع العملى تعلم اللغات الحية أما عدد تلامذة المدارس الوسطى للمدارس الخاصة فلا يقل عن ستين ألفاً ويؤكد بعضهم أن المدارس التى يعلم فيها الرهبان والقسيسون أكثر نجاحاً من التى يعلم فيها العلمانيون لأن فتیان القسس ممتازون بانكار الذات والتشبع بالروح الدينية أكثر من غيرهم من الأساتذة أما التعليم العالى فإن لإيطاليا منه سبع عشرة كلية ^(١) أو مدرسة جامعة تتنافس فيها بلاد الأقاليم ولكن معظم هذه الكليات لا تخرج رجال عمل بل أكثرهم خياليون من أرباب النظر ويضاف الى هذه الكليات الجامعات العلمية العالية الكثيرة

(١) للحكومة فى إيطاليا سبع عشرة جامعة وهى جامعة بولونيا وكاليفارى وكاتان وجنوة وماسيرتا ومسينة ومودين ونابل وبادو وبلرم وبارم وبالي ويزا ورومية وسالارى وسين وتورينو وفيها أربع جامعات حرة وهى جامعة كامرينو وفريرا وبيروز واوزيه

لدرس الآداب والعلوم في كل مدينة عظمى والحكومة تمدّها بالمال . والمدارس العليا على كثرة ما تستلزمه من النفقات لا تتناول من مال الأمة أكثر من أربعة ملايين فرنك مسانمة مما يستبان منه أن الحكومة توفر العناية بالتعليم الأوسط والابتدائي أكثر مما عداها . وعدد تلامذة الكليات والجامع العلمية العليا نحو سبعة وعشرين ألفاً وكان طلاب المدارس العليا في القرن التاسع عشر يصرفون أوقاتهم في الأعمال الوطنية أكثر من العلم أما الآن وقد استقرت حالة البلاد السياسية فانهم أخذوا ينصرفون الى أبحاثهم ودروسهم ليكون لبلادهم ما أحرزته ألمانيا وانكلترا وفرنسا في مضمار العلوم والآداب .

هذا اجمال ما يقال في التعليم أما الاختراعات والاكتشافات فلم يقصر فيها علماء إيطاليا أسوة غيرهم من أمم الحضارة الحديثة فقد اكتشف باسي طبيعة الامراض الميكروبية وهي النظرية التي خلصت الجراحة والمداواة من الاوهام التي كانت تعوقها . وكذلك كان شأنها في الكهرباء وساعدها على ذلك ثروة شلالاتها وتيسير ارسال الحرارة والنور والاعمال الكيمياوية والميكانيكية الى ابعاد شاسعة ومن مخترعيهم باشتوني وماركوني مخترع التلغراف اللاسلكي وغيرهم من الذين شاركوا في الاعمال العلمية فاختلط الأمر وأصبح من الصعب التمييز بين المتقدم والمتأخر من مكتشفي العلماء في أميركا وانكلترا وألمانيا وفرنسا والنمسا والبلجيكا وهولاندة وسويسرا وروسيا وغيرها من الممالك المدنية .

والنجاح كما قال الأمير جيوفاني بورغزة في كتابه إيطاليا الحديثة ^(١) وعليه اعتمدنا في بعض ما تقدم في هذا البحث أعلاء الوسط على الدوام ليتأتى للسكانات العليا ان تظهر بمظهرها وتثير المجموع بكلامها ومثالها وأعلاء الوسط يكون بتنشيط الشبيبة على القيام بجميع الأعمال الشريفة التي ينحولهم اياها مظهرهم . ومن الخطاء العظيم في عصرنا أن نجعل قيمة شعب على نسبة ما أحرز من الارتقاء العقلي . ان التعليم على اختلاف ضروبه يساعد على ظهور المدارك الاجتماعية وفي الكتابة

والقراءة معنى جديد يجعل بيننا وبين الفكر العام صلة ولكن التعليم بدون التنظيم الطبيعي من جهة وتربية الأخلاق من أخرى لا يتولد منه انشاء رجال تامة أدواتهم في الجملة لتنشأ على أيديهم عظمة مملكة .

واذا نظرنا الى ارتقاء إيطاليا نراها دخلت في ثلاثة أدوار هي أدوار النشوء الشخصي فالدور الاول الدور المادى والثانى النفسى والثالث العلمى وكان بدوء الدور الأول على أوائل تأسيس رومية وفي سنة ٧٠٠ قبل المسيح أى بعد سبعة قرون كان عصر أغسطس وهو عصر مجدها وبعد ثلاثة قرون عندما نقلت عاصمة المملكة الرومانية الى القسطنطينية تراجع أمر الدور المادى والدور النفسى أو الروحى هو دور ظهور النصرانية التى توفر الامبراطور قسطنطين على نشرها وجعل عاصمة بلاده القسطنطينية لمضى سبعة قرون على ذاك العهد حتى تنصرت أوروبا وتم عمل الدين الى أواخر القرن العاشر للميلاد وفي الرابع عشر بدأت تظهر تباشير دور النهضة التى أريد بها تحرير العقل الانسانى من قيوده . والدور الثالث هو الذى نحن فيه والقرن الاخير كان أرقى أيامه وبه ظهرت إيطاليا فى مظهر الدول العظمى واستقامت لها حياتها السياسية وتبعها سائر الاشياء ولا تستقيم حياة أمة بدون أن تستقيم سياستها واستقامة السياسة نتيجة ارتقاء العقول وارتقاء العقول لا يكون بغير قبول المدنية الحديثة والاخذ بالاساليب التى اتخذها السابقون فى مضمار التحضر .

ومن أنعم النظر فى هذه النبذة يدرك أن كل نهضة غير متعذرة وان أمما بلغت من الشقاء مبلغاً كبيراً وتيسر لها بقوة الإرادة واخلاص المستنيرين من الوطنيين أن تغلبت على جميع العوائق وكونت مجموعاً يفتخر به وحررته من قيوده الثقيلة ومن رأى إيطاليا أمس يحجس النمساويون أو الفرنسيين خلال ديارها ويستعبدون أبناءها ويرى الطليان اليوم وقد ألغوا مجموعاً حياً ودولة قوية وهم فى حكومتهم الملكية أكثر حرية من الفرنسيين فى حكومتهم الجمهورية على رأى بعضهم من رأى ذلك لا يقول بأن فى العالم شيئاً مستحيلاً . وان قوة

العقل والثبات على العمل تفعلان أكثر من كل قوة في الأرض في إيطاليا الحديثة عيوب كما في سائر الممالك وهذا يتعذر على السائح الشرقي في بلادها أن يدركه ولا يحل له أن يخط فيه حرفاً لانه لا يرى الا الظواهر خصوصاً مع عدم معرفته لغة البلاد فانه يبقى كالاصم الاخرس وليس ارتقاء الطبقة المستنيرة هو الميزان الوحيد في معرفة أقدار أمة وكم عند الطبقة الوسطى والدنيا من الفضائل وتقيضها مما تؤخذ منه حقيقة شعب وذلك لا يتيسر الا لمن عاشر الطبقات كلها وصرف زمناً طويلاً في أصقاعهم المختلفة وحكم العقل والانصاف فيما يكتب بعد درس الاخلاق والمعادن والتنظير بينها وبين ما يماثلها من الشعوب الاخرى .

وغاية ما يستطيع المفكر أن يقول به اذا رأى إيطاليا ان بينها وبين الشرق القريب من الفروق أكثر مما بين مصر والشام والسنغال أو بلاد نيام-نيام يشهد هنا لكل شيء نظاماً وقانوناً من خرج عنهما ضل وما اهتدى ويجد نشاط الأفراد على أتمه ليس له ما يعوقه من سلطة جائرة وقانون غير معقول فالشقي يشقى بصنعه والسعيد يسعد كذلك ولكن السعادة أوفر مما يناقضها بدرجات السرور تقرأه في الوجوه والبسطة في الفنى والرفاهية تشهده على الأكثر في سكان الاقاليم الوسطى والشمالية ولكل صقع من الأصقاع خاصية لا يكاد يشركه فيها الصقع الآخر فهذا اشتهر بعاديته وآثاره ، وذاك بمحداثته وأنهائه ، وهذا بتجارته ، وذاك بصناعته ، وآخر بزراعته ، وغيره بسكونه ، وآخر بحركته

وتكاد ترى المواهب مقسمة بين البلاد . فلفلورنسة مدينة الزهور وعاصمة طوسقانة وآثينة القرون الوسطى ومسقط رأس دانتي وبتاركو وبوكاس وغاليه وميكل آنجلو وليوناردى فنسى وبنفانوتو وسيليني وأندره دلسارت وغيرهم من نوابغ الطليان في الشعر والموسيقى والنقش والتصوير والهندسة والعلم من المزايا ما ليس لرومية وذلك لأسباب تاريخية واجتماعية كثيرة فان جمهوريات طوسقانة فيينا كانت في القرون الوسطى تحسن الانتفاع من جميع العناصر الحيوية في الشعب كانت رومية تضمحل بما قام فيها من المنازعات بين الأسر الكبرى

والذهاب في الجدالات المذهبية مذاعب . ولذلك كان المجد كله في النهضة (La Renaissance) لمدينة فلورنسة التي هي اليوم إحدى الولايات الإيطالية هذا شأن المدن الداخلية وكذلك الحال في المدن الساحلية فانك تجد مثلاً للبندقية من المزايا ما لا تجد مثله لجنوة ونابل وكلها مما يستدعي الغريب ويستهو به لزول هذه الديار ودرس آثارها الكثيرة بل التي لا تدخل في عد لكثرتها وقد اتخذت الحكومة الجديدة أنواع الراحة لجلب أنظار سياح الأرض لعشيان بلادها وفي ذلك من الفوائد المادية ما لا يقدر فلو انقطع سياح الغرب سنتين عن زيارة إيطاليا لأحست بفقر شديد وذلك لما يبذره أولئك السياح من الأموال في جميع فروع الاتفاق . ولها أمثال في تاريخ إيطاليا وقد نشأ حينئذ وقوف في تجارتها عن طريق البر التي كانت عمل هاته الجمهوريات حتى اذا قام الإصلاح الديني في أوروبا وفصل جزء عظيم من هذه القارة عن البابوية قل ما كان يرد مدة زمن طويل الى إيطاليا من الأموال بالطبيعة فافتقرت .

ان كل كنيسة من كنائس إيطاليا حرة بأن يقصدها السائح للفرجة من القاصية وقد وقع لي من الدهشة عند ما رأيت كنيسة « الدوم » في فلورنسة مثل ما وقع لي من الدهشة عند ما زرت كنيسة القديس بطرس^(١) في رومية مقر البابوية ومهوى أفئدة البابويين في الأرض . ولكل مكان ميزته .

امتازت رومية بكنائسها العجيبة كما امتازت بكثرة فواراتها وعيونها وكثرة تماثيلها وأنصابها في كل جادة وساحة مما يستهو الغريب ويستدعي دهشته كما امتازت جنوه بمقبرتها لتفنن الجنويين منذ القديم بتصوير الأموات على الرخام وهم بين أهلهم أو في آخر ساعات حياتهم والمقبرة هناك ثلاث طبقات كما ان أكثر الأبنية هي الآن في إيطاليا ست طبقات ويضيق المقام لو أردت فقط الالماع الى ما في رومية وحدها من العاديات والقصور والحدائق ولا سيما حديقة البنشيو العامة فانها خصت بكل أنواع الملاحة والراحة وهي مجمع الحسان الرومانيات

(١) كلفت هذه الكنيسة ٢٤٠ مليون فرنك والمهندس المصور ميكل آنجلو هو الذي أقام قبتها

كل عشية وفيها تتجلى عظمة الطليان وتتبدى طبقاتهم الاجتماعية وكل ما يقع
نظرك عليه في هذه المدينة الأزلية صاحبة المدينتين الرومانية والنصرانية تقرأ
فيه روح التفنن وتقدير العلم والنشاط وحب التسامح الا قايلا .

دخلت مرة مع أحد اخواني من مستشرقى الطليان لأزور كنيسة البانتيون
فدهشت لما رأيت واليك البيان : كنيسة البانتيون هي الكنيسة الوحيدة الباقية
من عهد رومية القديمة بنيت معبداً في سنة ٢٧ قبل المسيح ولما رسخت قدم
النصرانية في رومية جعلت كنيسة وكان يشترط على كل شيخ في مجلس الشيوخ
في القرن الثامن للميلاد من جملة ما ينبغي له الاحتفاظ به كنيسة البانتيون .

وكان يدفن بها بعض قديسيهم وأعظم رجال الدين عندهم وما راغى الا وقد
رأيت إلى جانب أضرحة رافيل (المصور النقاش المهندس المتوفى سنة ١٥٢٠)
والمصور أنيبال كراشى (المتوفى سنة ١٦٠٩) وغيرهما من كبار المهندسين
والمصورين والنقاشين الطليان ضريح الملك فيكتور عمانويل الثانى المدعواً بالوطن
لانه قام بالوحدة الايطالية وخلف لذرته من بعده التاج الايطالى بعد ان كانت
أمرته لا تحكم على غير اقليم البيمون فقط - وضريح ابنه همبرت الأول والد الملك
الحالى الذى اغتيل سنة ١٩٠٠

نم أعجبت لضريح المهندس والنقاش والمصور يكون في مقام التكريم الى جنب
القديسين والشهداء وهذا في تلك القرون التى كنا نظن فيها أوربا متوحشة وراقى
أن يجيء ملوك ايطاليا اليوم ويحبون أن يدفنوا الى جنب أولئك الصناع النوابغ
ان لحد المهندس والمصور فى أقدم كنيسة بل أهمها بعد كنيسة القديس بطرس
والقديس بولس هو أكبر دليل على حب الباباوات لرجال الفنون الجميلة ولحد
ملكين عظيمين الى جنبهم هو أيضاً مما يدل على روح التسامح الحديث وعلى ان
رافيل المصور ليس فى مكانته فى خدمة أمتة أقل من فيكتور عمانويل الثانى . فان
كانت باريز قد أقامت كنيسة البانتيون لتدفن فيها رفات العظماء فى العلم والسياسة
فى أوائل القرن الماضى فان رومية تفاخر بأنها خصت بانتيونها لهذا الغرض منذ

زهاء أربعة قرون . بانتيون باريز يضم رفات ميرابو وفينلون وكوفيه وفولتير وروسو وهوغو ولافايت ونابوليون واضرابهم . وبانتيون رومية يحوى أمثالهم من رجال الطليان . فتى ياترى يقوم في الشرق القريب أعظم من أبناء هذه الانجيل الحديثة يكونون في عقولهم واعمالهم على مستوى اولئك الابطال لتقوم بهم مدنيتنا على أحسن الدائم كما قامت مدنية الطليان في هذه الازمان .

اطاليا والمشرقيات

٥٢

طمحت ايطاليا ^(١) في كل زمن الى هذا الشاطئ من البحر المتوسط فحملت أولا القوة والسلام الروماني ولما انحلت عرى هاتين المادتين تحت ضربات البرابرة عادت توجه وجهها الى تلك الوجهة أيضاً لا الى الشمال وكان البحر المتوسط ميدان حمل جنوة وبيزا والبندقية وامالني وباري وسالرن ولم يقنع تجارها بأن يفتنوا بالاتجار بأقمشة الهند وفارس وجزيرة العرب وأفاويتها وأبازيرها بل أخذوا يؤيدون النفوذ اللاتيني في آسيا الصغرى ومصر والحبشة وكان من انتشار الاسلام وقوته في القرن الثامن أن ضربت هذه الفتوح التي تذكر بفتوح رومية أيام عظمتها ضربة شديدة فاحتقر المسلمون ايطاليا على سمو مدارك أبنائها ومرونة أخلاقهم وأغاروا عليها فأدخلوا على قلوب أهلها الهول والفرع فكان الجلاء عظيما ولئن وفقت ايطاليا الى طرد العرب من صقلية فان نجاح مدنها الساحلية في الجنوب قد تراجع وظلت جنوة وبيزا متأثرتين وعادت البندقية فوجعت وجهتها الى آسيا الصغرى .

وكان من الحروب الصليبية أن تهيأت لاطاليا أسباب الانتقام فان هذه

(١) من مقالة لانطوان كاباتون في مجلة العالم الاسلامي الباريزية لخصناها في مجلة المقتبس ونشرت في المجلد السابع صفحة ٦٩٢

الغارات وان كان باباوات رومية هم الذين أملتها عقولهم قد بذل فيها العنصر الايطالى بما عرف به من الحمية الممزوجة بقليل من التبجح من حسن السياسة أكثر مما بذل من الشجاعة فاقصر الايطاليون فى الحرب الصليبية على مرافقة جيوش أوروبا الى آسيا وبينما كان ملوك الأمم الأخرى يقيمون ممالك صغرى فى الأرض المقدسة كان الايطاليون يقطنون ثمرات تلك الحملات . وقد ثبت هذا الدهاء السياسى الايطالى فى الحملة الصليبية الرابعة فانه انتج لجنوة وبيزا ان ربحتا كثيراً واستأثرت البندقية بتجارة آسيا الصغرى وامتلاك أراض مخصصة على الشواطىء الشرقية من البحر المتوسط وجزء من الاستانة . ولما سقطت القسطنطينية فى أيدي محمد الثانى سنة ١٤٥٣ حالت دون هذا السير النافع ومع هذا فان البندقية بما أتته من عجائب المهارة وحسن المأثى بل بجهادها العلى قد احتكرت جميع تجارة أوروبا مع الشرق .

وبهذا الاحتكاك المتصل تمت للبندقية على قوتها البحرية والتجارية معرفة الشعوب الاسلامية حق المعرفة أكثر من كل أوروبا وكان من العادة الجارية مع طبقة التجار من أبناءها ان يتكلموا بالتركية والعربية ويألفوا بعض العادات والمصطلحات الشرقية ولكن جاءت قوة فى القرون الثلاثة التالية أكثر من قوة البندقية على ما لها من الصلات التجارية مع العناصر الاسلامية فزادت عليها لانها روحية تطمع فى امتلاك العالم ونعنى بها « البابوية » .

فامتدت أحلام كنيسة رومية الى الخارج ومطلبها أعلى من الربح المادى وكانت فى عهد غارات الجرمانين تحلم بالقبض ذات يوم على قياد الوحدة فأحسنّت صلاتها مع المسيحيين بل مع الوثنيين فى الشرق ممن تطمع فى تنصيرهم وأدركت كل الادراك الخطر الناشئ من امتداد كلمة الاسلام على أوروبا المسيحية . ومع أن الحملات الصليبية قد اخفقت وقوة الايمان قد انثلمت فى القائمين بها ما برحت كنيسة رومية الى أوائل القرن السابع عشر تطالب بأعمال أخرى وفى هذا العهد كان الضعف أخذ من العثمانيين .

يبد أن رومية شعرت في الحملة الصليبية الثانية أن السيف وحده غير كاف في مثل هذا الجهاد ورأت أن تعارض التعصب الاسلامي بطوائف متمسكين في اتحادهم من غيورى الاوربيين أو الشرقيين لتقطع أوصال المسلمين قطعاً أدبياً بعد أن أوقفهم عن سيرهم المادى . وما فتئت رومية منذ القرن الثاني عشر والثالث عشر تحاول تنصير جميع الشعوب الآسيوية التى ظلت على وثنيها فبعثت الى بلاد المسكوب وفارس وأرمينية والتاتار والتبت ومغوليا والصين والارخبيل الهندى وفوداً من أهل الذكاء والخصافة ممن خلفوا لنا رحلاتهم ومذكراتهم اليومية وعهدت اليهم أن يسبروا غوراً وراء تلك البلاد لينصروهم أو ليتحالفوا واياهم على الأقل ضد المسلمين . وكان نصيب مصر والحبشة أيضاً البحث عن مثل هذا الشأن .

ولم تلبث الرهبنات العظمى ان انشئت مثل الدومينيكانيين والفرنسيسكانيين واليسوعيين والكبوشيين والكرمليين والعاشرين ليكونوا جنداً مخلصاً في خدمة امام الأتجار وتفتح تلك البلاد لدخول النصرانية اليها . فأنبت جيش من الرهبان على اختلاف مظاهرهم في قارتى آسيا وأفريقية الشمالية لافتتاحها ونشر الانجيل فيها ثم نشر المدنية الغربية فحبط القائمون بالأمر أولاً ولم يهتدوا لاحسن الطرق فى العمل فانهاال فرنسيسكانيون والدومينيكانيون يفادون بأرواحهم ويصبرون على ضروب العذاب فى سبيل دعوة الشعوب الاسلامية فى أفريقية الشمالية الى الدين المسيحى وكانت الطرق التى عمدوا اليها على تحمس فيها ممزوجة بكثير من الجهل فشعروا فى الحال أن الضرورة تقضى على من يريد دعوة أحد الى دينه أن يتكلم بلغته على الأقل ليتفاهم الداعى والمدعو فنادى القوم من كل مكان بضرورة انشاء مدارس لتعليم اللغات كان رايكوند لول داعيتها النشيط .

فقضى مجمع فينا سنة ١٣١١ الذى كان برئاسة اكلمنتس الخامس أن تؤسس فى باريزوا كنفورد وبولون وسلنكة دروس عربية وعبرانية وكلدانية من شأنها تخرج وعاظ وأهل جدل أشداء لتنصير المسلمين واليهود . وأنشأ الفرنسيسكانيون

والدومينيكانيون في أديارهم دروساً من هذا القبيل ليعدوا رهبانهم لنشر الانجيل ومنذ ذاك العهد أصبحت إيطاليا مهد حركة نهضة في المشرقيات وأخذوا بنوع خاص يدرسون العبرية للتعمق في فهم أسرار التوراة وتنصير اليهود واللغة العربية لتنصير المسلمين وكان أساتذة العبرية يتخرجون باعلم العلماء الربانيين وأساتذة العربية كانوا ممن رحلوا الى بلاد اللغة التي أخذوا يدرسونها ويصحبهم بصفة معيدين أناس من المسلمين أو من السوريين الموارنة ممن كانوا يعلمونهم العربية بالعمل ورأى هؤلاء القسس بحكم الضرورة أن ينتقلوا من اللغة العامية الى اللغة الفصحى ليستد ساعدتهم في فهم المسائل الفلسفية ورد حجج المخالفين بأسلوب فلسفي أدبي .

ومن أجل هذه الغاية اهتموا أيضاً بمصر والحبشة ومن مدارسهم نشأ العلماء الأول من الأقباط والحبش والاعمرين ولكن دراسة اللغة العربية بقيت الحائكة المتحركة في شبه جزيرة إيطاليا فكان ينظر الى تعلمها أنه من الحاجات الماسة لكل تجار المدن البحرية . فقد وضع أحدهم سنة ١٢٦٥ باللغة العربية كتاب المعاهدة التجارية بين تونس وجمهورية بيزا وظلت العربية مألوفة في عدة أماكن من إيطاليا الجنوبية عقيب احتلال العرب صقلية فكانت في بلاط ملوك نورمانديا وهوها نستوفين وفريدريك الثاني ودي منفروا لغة العلم العالي والشعر والادب . وما كانت العربية على ما فيها من القصائد المقيمة المقعدة والعواطف المؤثرة لتحمل أمثال شارل دانجو على تحمسه لدينه ان يخاف عاديته بل كان الاطباء والطبيعيون في قصره أما من الاسرائيليين أو من المشنمين المتسامحين في عقائدهم وكان الطب هو الجواز الذي سارت به الفلسفة العربية عند مقام جيرارد دي كرمون الشهير في أوائل القرن الثالث عشر في ظل دولة فريدريك الثاني يترجم بعض كتابات ابن سينا الفيلسوف .

وفي القرن الثالث عشر ترجم المعلم موسى من أهل بلرمة من العربية الى اللاتينية كتاب ابقراط في أمراض الخليل فتسربت فلسفة ابن رشد من أمثال هذه

الطرق ولم تلبث أن صادفت قبولا بين ناشئة ايطاليا حتى شكّا من ذلك جهاراً
بترارك في القرن الخامس عشر اذ رأى في تلقف فلسفة ابن رشد دليل الاتحاد
والازدراء باليونانية واللاتينية . وكثير من الادباء والعلماء من غير طبقة الرهبان
كانوا يرون من موجبات الفخر في القرن التالى أن يعرفوا اللغة العربية سائرين
على سنة بيك دى لاميراندول

وعلى توفر بعضهم على نشر كتب في الجدل مع المسلمين حتى قبل أن يترجم
القرآن باحدى اللغات الغربية فان عشاق العربية كانوا يرون من الحيلة ودواصى
الغيرة أن يعمروا أنفسهم على ترجمة رسائل في الطب ينقلونها عن العربية اذ لم يكن
أحد يجهل مكانة العرب في هذا الفن وبذلك يرون أنهم ينجون من الاتهام
بالزندقة وقد أصبح أندري اريفان في البندقية حجة في هذا الباب وانشأ هؤلاء
المرجمون يبالغون النظر فيما ينشرون فكان لهم أسلوب علمى حقيقى . ولما رأى
أندري مونكاجون بللون في القرن الخامس عشر أن تراجم ابن سينا القديمة
واطباء بلاط فريدريك الثانى ليس فيها عناية ذهب بحكم دراسة اللغة العربية في دمشق
وأتم تعليمه الشرقى بالرحلة الى مصر وسورية وفارس وآسيا الصغرى رحلة طويلة
وذلك قبل أن يعود الى كلية بادو ليشرح لتلامذته فلسفة ابن سينا . وقصد
جيرولامورانوزيو أحد أطباء البندقية بلاد الشام أيضاً في سنة ١٤٨٣ ليتبحر
في فهم فلسفة ابن سينا ويلق شروحا على ترجمته عليها .

وكان من سقوط القسطنطينية وهجرة علماء من اليونان الى ايطاليا وكثير من
نصارى الشرق واختراع الطباعة وقيام الاصلاح ان هبت في أرجاء ايطاليا حركة
النهضة العلمية التى تجلت في أجمل مظاهرها في الدروس الشرقية ولاسيما في دروس
العربية والاسلام .

كانت الحركة في تعلم المشرقيات عامة وافراديه معاً انتشرت كثيرا بفضل
الكردينال فريدريك دى مديسيس في فلورنسا والباباوات في رومية والكردينال
بورومى في ميلان والكردينال بارباريكو في بادو ومن تقدمهم مثل باباغانينى الذى

نشر في مدينة البندقية أول طبعة من القرآن باللغة العربية ولكن هذه الطبعة لم تلبث أن أيدت بغيرة دينية خرقاء وكان من الاسقف اغوستينو جويستيناني المشغوف بالدروس الشرقية ولا سيما العربية والعبرية أن قبل من فرنسيس الاول بتدريس اللغة العبرية بعد أن صرف ثروته في اقتناء مجموعات من المخطوطات المهمة في العبرية والعربية والكلدانية والرومية وكان تيزيو امبروكيو قومس (كونت) البونز مستشرقاً مدققاً

وهكذا كانت ايطاليا كلما أولع علماءها باللغة العربية وتشربوا روحها تميل كل الميل الى الاقطار التي كان يتكلم فيها . وقد نشر اندريا أريفاين من مانتو أول طبعة ايطالية من القرآن بيد أن كل هذه الاعمال على جلالتها لاتعد شيئاً في جانب انشاء مطبعة أسرة ميديسيس المالكة والمطبعة الشرقية لبث الدعوة ومطبعة بادو وكليتها وكل ذلك بغية تنصير المسلمين والوثنيين . فقد طبعت مطبعة ميديسيس ١٨ ألف نسخة من الانجيل باللغة العربية سمته (أربعة أناجيل يسوع المسيح سيدنا المقدسة) وأرسلتها مع تجار لتباع بثمان بخس في البلاد العربية أو التي تفهم بها العربية على صورة حازمة لا يظهر منها المقصد الذي يرمي اليه دعاة الدين .

وكانت النية معقودة قبل كل شيء على اعلان حرب صليبية جديدة روحية على الاسلام يدخل اليها بالوسائل العلمية وغنى الباباوات الادباء أمثال ليون العاشر واكليمنتس السابع عناية خاصة بتأسيس خزائن كتب من المخطوطات تسلب من المسلمين الاعداء القدماء لتكون من ذلك مجموعات نفيسة في دار كتب الفاتيكان وكان غريغوريوس الثالث عشر لا يرى أحسن في النجاح من تنصير الناس وأبادتهم . وانشأ يوليوس الثاني في مدينة فانو على بحر الادرياتيک أول مطبعة عربية احتفل ليون العاشر بافتتاحها سنة ١٥١٤ بنشرها اول كتاب طبع بحروف عربية وهو كتاب « صلاة السواحي » . وكان في رومية مطبعة حجرية شرقية انشأها سافاري دي برېف الذي ظل سنين طويلة سفيراً لملك فرنسا في القسطنطينية وهو نفسه

الذى حفر أمهات الحروف العربية التى تقاى عنها مطبعة الامة فى باريز اشكالها .
ونشر منذ سنة ١٦١٣ كتاب التعليم المسيحى .

وظل الكردىنال فرديناندى ميديسيس متما لذوق أسرته فى حب المعارف
الشرقية فابتاع مخطوطات شرقية باسم البابا وكان يدير بطريركيات انطاكية
والاسكندرية ومملكة الحبشة ادارة روحية وانشأ على ثقته مطبعة ميديسيس
وولى عليها ريموندى الذى ولد سنة ١٥٣٦ فى نابولى وهى اكثر البلاد التى انتشرت
العربية فيها . فكان بالافات الشرقية التى يتقنها ولا سيما العربية قدوة الداعين الى
تعلم المشرقيات ونشر بالعربية كتاب نحو وكتب ابن سينا وغيره افكانت مطبوعاته
بحسن طبعها ووضعها موضوع الاعجاب العام وبعد ان قضى ريموندى نحبه لم
تعد اسرة ميديسيس تفكر فى اعلان الحرب الروحية على المسلمين بواسطة الكتب
بل صمدت الى احداث الاضطرابات العملية .

ولم تشأ رومية ان تكون فى خدمة المعارف الشرقية بالمطابع والمكاتب
والمدارس دون أسرة ميديسيس فى بث هذه الدعوة لتنتشر بها الدعوة على
الاسلام فقد صارت بفضل الباباوات ميدان درس كل ما يرقى عقول القسيسين الذين
تنتدبهم رومية لفتح العالم فتحاً روحياً يتخرجون فى المدارس ما يمكن بلسان
البلاد وعاداتها ومعتقداتها التى يريدون بث دعوتهم فيها ودار الكتب تتم لهم هذه
المعلومات فيعثرون نياها على ماسطره اسلافهم فى رحلاتهم الى البلاد التى عنوا
بتنصير اهلها وما تلقفوه من معتقداتهم وعاداتهم ولهجاتهم وصناعاتهم ويقضى
على كل قسيس ان يكتب بعد مقامه فى القاصية كتابة أورسالة تخدم هذا الغرض
ومطبعة بث الدعوة تنشر كل ما يؤلف من هذا القبيل وترجم الى لغات شرقية
كثيرة الكتب المسيحية والردود على الاسلام وكان للغة العربية الشأن الاول
من بين هذه اللغات التى تطبع فيها المطبعة وهى عشرون لغة شرقية

وما كان القصد من هذه العناية الا دينياً محضاً باءىء بدء ولم يكن العلم
علم الشرقى الا واسطة تساعد على الجدل وكذلك اللغة العربية لم تكن الا سلاحاً

يقاتل به الاسلام ولذلك لم تر المدرسة الا ككليركية الشرقية في بادو غضاضة عليها أن تشتغل بالعلم المجرد أحياناً للأثر الذي يحدث عنه وكانت المطبعة والمكاتب الشرقية من المتهمات لتلك المدرسة لذهابها بفضل الشهرة وتأثيرها في الافكار . وقد تخرج بالاستاذين مارامى وأغايتو عدة من التلامذة باللغة العربية فصنفوا فيها وأفادوا وتعاقب اثنان من الكرادلة على أبرشية بادو وكان كل منهما يتنافس في عصره في خدمة الدروس الشرقية . وهذا كان شأن ميلان فان فريدريك بورومة بث فيها روح العلوم الشرقية وبعث منذ سنة ١٦٠٩ الى الشرق يبتاع بالاثمان الباهظة كتباً ومخطوطات شرقية فأسس المكتبة الامبروزية الشهيرة ولم يكثر تلامذة المدرسة التي أسسها لهذا الغرض بل كانوا قلائل امتازوا باخصائهم وكان ثمة أساتذة خاصة من مسيحي الشرق أو المسلمين الملحدين ولطالما عطف عليهم ونشطهم وتخرج في مدرسة امبرواز انطونيوجيجى باللغة العربية فكان لها مجداً أثيلاً .

عد القرنان السادس عشر والسابع عشر ازدهاء الدروس الشرقية ولا سيما اللغة العربية في ايطاليا أما القرن الثامن عشر فكان عصر الانحطاط التام اذ قلت فيه حتى الغيرة الدينية والحماسة العقلية ولم ينشأ فيه سوى الكردينال ميزوفانى الخارقة في اتقان اللغات المنزوعة فكان مفخراً للعلم الايطالى وقد تقاسم جمهور الشعب اقبال وملوك متوسطون صار معهم الى الشقاء والعبودية أما الطبقة العالية فقد حرمت من الاشتراك في ادارة شؤون بلادها ينهكها الاستبداد البليغ أو اضطهاد النمسا الشديد فنسيت في لذائذها المادية حريتها وعلو منزلتها العقلية .

وفي سنة ١٦٩٠ احترقت مطبعة ميديسيس ثم أعيد انشاؤها وبعد أن تقلبت عليها الاحوال ونقلت الى باريز بامر الامبراطور نابليون أعيدت الى ايطاليا وفيها طبع أعظم مستشرقى الطليان أمثال أمارى وسكيا پارلى وكويدي كتبهم وما نشره من آثار العرب . ولما فتح نابليون مصر وأعلن للمسلمين بأنه يراعى

معتقداتهم وحقوقهم وانه لا أرب له الا قتال الممالك احلاف انكلترا رأى أن يستولى على قلوب المصريين فظهر لهم بمظهر الحياد وحسن الخدمة وبعث يجلب مطبعة لبث الدعوة الشرقية من ايطاليا فأنته الى مصر وأخذ يطبع بها الكتب خدمة للسياسة والتجارة

فأصبحت من ثم المطابع الشرقية في ايطاليا بضربات السياسة والحوادث وبقيت المدرسة الاكليركية وخزائن كتبها في بادو بمعزل وعلى ما عرف به المستشرق العالم بالعربية اسيماني من سعة الفضل فانه لم يتيسر لبلاده أن يعيد الحياة للمشرقيات بعد أن انطفأت جذوتها بالفتن والكوائن وانقراض بيت ميديسيس . ونشأ للعربية أستاذ في القرن الثامن وهو القس فلادرس في كلية بلرمة ونشر بعض الكتب ولكن القرن التاسع عشر امتاز بآدابه كما امتاز بالحياة في ايطاليا التي هبت قوية حرة وراحت ترفرف على كل ما كان فيه مجدها أيام تاريخها المجيد فأزهرت فيه الدروس الشرقية ولا سيما الدروس العربية والعلوم الاسلامية . فكانت الولايات الجنوبية في ايطاليا تخرج أبطالاً في المشرقيات أمثال المؤرخ والسياسي ميشل اماري الذي نشر أحسن تاريخ للمسلمين في صقلية وكثيراً من الكتب التي تدل على فضل علم وتدقيق . كذلك يقال في دروس العربية في كليتي فلورنسا وبيزا وعاصر أماري الاستاذ سكيا بارللي مدرس العربية في فلورنسا ثم بونازيا مدرس كلية نابولي واغناس كويدي الذي هو اليوم أحد الزعماء المبجلين من علماء المشرقيات من الطليان وهكذا نشأ لا يظاليا أجلة من المتبحرين في علوم الشرق ولغاته وأمراء يفضلون على العلماء في طبع ما يلزم ونشره

وكان امتياز ايطاليا قديماً بنشر المعارف في كل البلاد فأصبحت كذلك في عهد وحدتها تريدان تجعل لكل اقليم حظاً من هذه الخدمة ولم تلبث صعوبة الحياة الحديثة والاطماع القديمة التي يظهر أنها اليوم العامل في حياة الممالك الاوربية أن تحدو ايطاليا السياسية الى الانتفاع من هذه المعارف النظرية انتفاعاً عملياً واذ كانت مصر على قربها من ايطاليا وغناها وعراقتها في الاسلام مما يكون

منه الخطر كانت هي أول غاية انصرفت اليها كهنة الطليان وتجارهم وكانت ايطاليا منذ القرن السادس عشر مركزاً لتعلم الآداب القبطية وقد انشأت تعلم علم الآثار المصرية والقبطية في بيزا لتثبت بذلك أنها لا تريد أن تكون غريبة عن علم كانت لها القدم الراسخة قديماً في الابداع فيه وكانت للغة الحبشية المقام الاول في ايطاليا لانها رأتها أقرب الى بث الدعوة في نساطرة الحبش وان التجارة تمكن بدون أن يصطدم الايطالى مع الاسلامى الذى لا يتساهل .

وفي أوائل القرن التاسع عشر أنشأت ايطاليا مجمعا ومدرسة لتنصير الافريقيين وتعليم دعاة لهذا الغرض تأخذهم من أبناء تلك البلاد وتربهم ليعودوا الى مساقط رؤوسهم يحيون فيها روح دينهم الجديدة ولكن هذا العمل في التنصير أخفق لما حال أمامه في كل مكان من بث دعوة الاسلام ونشر الدعوة البرتستانتية فاقترعت ايطاليا من ثم على غرس نفوذها في تلك البلاد وأعداد الأسباب للطامع الاستعمارية . ولما سحقت الحبشة لايطاليا سنة ١٨٩٥ جيشاً مؤلفاً من خمسة وسبعين ألف ايطالى في أدوا اضمحلت آمال ايطاليا وقنعت بما ترك لها من المواني هناك وراح أبناءها ينتشرون في تونس ومصر وعلماء المشرقيات المتضلعين من العربية من أبناءها يرفعون شأنها الماضى في الحضارة وتقاليدها القديمة في النصرانية .

واتفق أن أحد رجال البيت الخديوى الامير أحمد فؤاد باشا (عظمة الملك فؤاد الاول ملك مصر اليوم) تعلم في المجمع العلمى العسكرى في تورينو فكان منه بعد ذلك أن عقد أتعص الصلات مع ايطاليا كما بدأ ذلك منه سنة ١٩٠٨ وقد عين رئيساً للجامعة المصرية لتعلم العلوم الحديثة للمصريين ونظم الجامعة بمشورة عالم فرنساوي مشهور المسيو مسبرو وكانت أكثر الدروس تلقى بالعربية فكان من الاساتذة كويدي ونالينو ومالو الايطاليين الذين درسوا الدروس التي عهدت اليهم بالعربية .

ومنذ ذاك العهد مالت الافكار في ايطاليا الى طراباس الغرب لتكون لها أهراء حنطة كما كانت للرومان قديماً وذلك لانها بصرف المال وبذل الوقت والعناية

بزراعتها سيكون منها مورد ربح عظيم وتجد فيها اليد العاملة من الطلاب مجالا واسعا للاستثمار فرأت ايطاليا أن يكون الفتح الاستعماري مشفوعا بالرفق والرحمة والتساهل في معاملة الشعوب الاسلامية وأن يكون أساس الاستعمار في تلك الاقطار المصالح الاقتصادية وان تدار البلاد بأيدي أعظم رجال الادارة ممن تتعلم منهم وزارات المستعمرات الاوربية دروسا في الاستعمار .

وأخذت ايطاليا بتنظيم كلية بادو التي كانت اتخذتها جمهورية البندقية منذ قرنين مدرسة لتخريج رجال سياستها وتراجتها وممارستها تدرس فيها العربية والفارسية والتركية ولا سيما العربية وتستغنى هذه المرة بالعربية أكثر ليكون من متخرجيها أعظم الاداريين المستعمرين لليبيا وتضاف الى دروسها اللهجات البلقانية المنوعة ممن تتجر معهم البندقية وايطاليا . ولمدينة جنوة درس عربي طالما تناوب تدريسه أعظم مستشرقها وهي اليوم تطلب بأن يكون لها امتياز بتخريج رجال الادارة والاستعمار بانشاء كلية بحرية استعمارية فيها وكذلك سيكون من كلية بولون أثر عظيم في تخريج رجال بالعربية كما لها منهم حظ ليس بقليل الآن . وفي رومية في مدرسة الدعوة الى الايمان درسان للعربية والسريانية وكذلك مدرسة القديس أبو لينير فان درس العربية يدرسه فيها الاسقف بوغاريني وتفتخر كلية الحكومة اللادينية في رومية بان فيها درسا للغة العربية وآدابها بزمامة الاستاذ سكياباريللي والحبشية تحت نظارة كويدي . وفي جنوب شبه جزيرة ايطاليا المملوءة بتذكارات اسلامية والقريب من حيث الوضع الجغرافي من بلاد المسلمين كلية بلرمة التي يدرس العربية فيها كل من الاستاذين نالينو وبونازا واقتصرت نابولي على تعليم العربية بالعمل كما تعلمها بالنظر أيضا وفي نابولي مجمع شرقي يعلم بالعمل اللغات الحية في آسيا وافريقية وفيه تلامذة صينيون وهنود وبلغاريون وصرييون وفلاخيون والبايون ويونان . وفي سنة ١٩٠١ أعيد تنظيم هذا المجمع على مثال مدرسة اللغات الشرقية في باريز ويمتاز بان دروسه مجانية ولا يمتحن الطلاب فيه

سويسرا

٥٣

أصبح أن القطار غداً يخترق العقاب والشعاب ، ليخلص من إيطاليا مهد
المدنيتين الرومانية والنصرانية ، الى سويسرا جنة أوروبا ، بل جنة الدنيا ،
ومدرسة العمل العليا ، وأبهج مصيف ومشى ، لملتصم الراحة والسلوى
أيكتب غداً للروح أن تطمئن قليلاً في أشرف ديار ، عرفت في باب حرية
الاديان والافكار ، ويشهد الطرف حسناء ضمت الى صدرها شمل المدنيات
العصرية ووضعت على مفرقها تاج البدائع الارضية والسماوية ، بلاد خص كل شبر
منها بمزية غالية عالية ، وتعاورتها الايدي بالتحسين والتزيين والتطرية ، فلم يتصور
العقل الآن أرقى من نظامها . ولا أبدع من طرازها وهندامها .

أصبح أن هذه المدينة الفاضلة ، دهشة الامصار والاقطار ، وزبدة جهاد
القرون والاعصار ، المغبوظة من جاراتها بل من أهل الغرب أجمع ، على قانونها
المتكامل ، وأمنها الشامل ، سيكون للنفس قسط من الراحة في رباعها البهجة
شهرآ من العمر ، يعد كالف شهر ، فتستمتع الحواس بعجائب صنع الديان والانسان
وآخر حسنات العمران في هذه الازمان

سلام عليك يا جمهورية السلام والوثام ، عقلت الايام أن تنشئ مثلك ،
أنت الوحيدة في العمل بتعاليم السيد المسيح بين الممالك الغريبة ، فلم يعد عليك
أن جوزت بعد تحضرك قتل النفوس ، لا متلاك النفائس ، ولا ان ظلمت شعباً آمناً
لا استصفاً بيته وحقله ، ولا ان هتكت استاراً وأعراضاً ، لتغني عروضا وأعراضاً ،
بلى كنت من خير من عطف على مدحور ومظلوم ، وأكرم مثوى وافدم مقهور ومغموم ،
وعلم طالب علم وصناعة تعليماً مجرداً من النزعات المذهبية والنزعات السياسية ، ومسلاة
كل متعب راغب في التفرغ لنفسه ، لقنت الامم معنى الحكومة الصالحة

في الامة الصالحة ، وحققت بالعمل معنى تضامنك في شعارك « الواحد لكل
والكل لا واحد » فحكمت نفسك بنفسك حقاً وصدقاً ، لا كذبا ورياء

هذه الوجوه النضرة التي تهش لاغريب ، كآهش للقريب ، هي صورة صحيحة
من اخلاق هذا الشعب القليل بعدده ، الكثير بفضائله وعدده ، فان كان هنا
لا يتجاوز احصاء المكين ، أربعة ملايين ، ولا مساحة المكان ٤١٣٤٦ كيلو
مترا مربعا ، فلكم كان القليل العالم ، خيرا من الكثير الجاهل وعظمة الامم بعلمها
وعملها . لا بوفرة سكانها وطول سهلها وجبلها : سويسرا تفاخر وحق لها الفخر
بانها اليوم لا تعرف الاميين الا بما تقرأه عنهم في صحف العالمين . فهل عهد
مثل هذا النور لامة في القدماء أو المحدثين

يخيل للناظر ان هذه البلاد الواقعة بين أربع ممالك راقية . فرنسا وألمانيا
وايطاليا والنمسا قد أخذت من هذه المدن الأربعة أطايبها . ولعله لا يخطئ
من قال ان هذه الممالك أخذت كثيرا من أطايب ما عند سويسرا ، فجاءت هلقسيا
أو سويسرا بمجموعة الابداع في البقاع والاصقاع ، وسلسلة مفرغة في المحاسن
لا يعرف أين طرفاها ، تقاسمت القرى مع المدن ، والأودية مع الجبال ، آثار
الجمال والكمال فعز لها قسم في استهواء القلوب بين هذه الديارات ، بل بين الخمس
من القارات وما ظرف عمران الألمانين والفرنساويين والايطاليين والنمساويين ،
اذا قيس بظرف بلاد السويسريين الا كالنضارة في خدود فتاة العشرين ، في جنب
نضارة ابنة الاربعين .

لا جرم أن هذه الجمهورية الرشيدة هي التي وصفها للناس افلاطون وروسو
فكانت بما وفقت اليه ، مما يضعف الفصحاء عن توفيتها حقها من الاستحسان ،
وذكر المجردات لا يقنع بقدر الادلاء بالحجة ، ولذا تقتصر على طرف مما عرفناه
وعرفه غيرنا عنها . كوصف حياتها القومية والروحية والعلمية والاقتصادية عسى
أن يشر ذلك فائدة لمستفيد ، وعبرة لمعتبر ، في شرقنا المتخدر الأعصاب ، منذ
أحقاب ، الذي كادت تدمع لحاله عيون الأعداء ، بعد ان أدى مقل الأحياب

ويسرا : الافراد والاسرة

٥٤

أول ما يیده الداخل الى أرض سويسرا : الخضرة والنظافة . فانها كلها أشبه بحديقة في وسطها مصايف من أجل ما بنى المهندسون ونقش النقاشون وصور المصورون . الدور على اختلاف هندستها سواء كانت بيضاء كما هي في سويسرا الفرنسية أو منقوشة كما هي في الشمال الشرقي أو من الخشب على ما تراها في أوبرلاند تفيض بهجة ونضرة ونظافة وزينة وتبدو على الدوام جديدة حتى ولو كانت مبنية منذ قرنين أو ثلاثة . والغريون مولعون بإبقاء القصور القديمة مهما كانت ويؤثرونها على الجديد من نوعها . وداخل البيوت على مثال خارجها في الحسن حذو القذة بالقذة .

ادخل الفنادق الكبيرة أو الصغيرة والى منازل الطبقة العليا أو الفلاحين ، والى قصور الأغنياء أو المقتربين ، تجدها كلها متناسقة بنظافتها ، وتشهد المساكن والمخازن على هذا الطرز في الصباح والمساء على السواء ، وما أنس لا أنس تلك النظافة التى شهدتها في المنزل الذى حلت فيه في مدينة لوزان المطل على بحيرة لي مان ومن ورائها جبال الالب وذلك منذ تدخل الدهليز فتصعد الدرج ، الى أن تدخل المنزل ، وتجلس في غرفتك ، الى المائدة ، الى الطعام المنوع المستطاب ، الى أحقر شئ في الدار .

ولقد كنت أعجب كل يوم من رؤية الخادمة تمسح البلاط والدف في الأرض والنوافذ والدرقات وتنفض الستور والأغشية والكرامى والمقاعد والخزائن والمناضد والزرور الموضوعة في الأصاصي دع التحف والصور والتماثيل الصغيرة ومصاييح الكهرباء وغير ذلك مما لا تخلو منه دار في الجملة ، كل هذا مع خدمة المطبخ والمائدة وبعض ما يلزم من السوق تقوم به خادمة واحدة وليس هذا

الحال خاصاً بالبيوت والفنادق فقط بل انك تراه في الشوارع والازقة على صورة مكبرة فان الاوساخ الخفيفة لا تلبث أن تطرح حتى تكتسح وكذلك الثلج لا يلبث أن يتساقط ٢٠ سنتيمتراً وأكثر الا ويرفع من الطرق ، وكل شارع وجادة وساحة وسوق ينظف ويفسل بلا أمهال بحيث تصح هنا حكمة الغرب : « النظافة أثر من آثار النظام والعمل » والشعوب النظيفة هي التي تحب أن ترى كل شيء في مكانه تقامى ضيقاً حقيقياً بل الماء مبرحاً اذا شاهدت الخلل ليست النظافة ابنة الكسل لأنها تستوجب من الافراد والحكومة عملاً وجهاداً متواصلاً ويستدعى أن تحت عليه الحكومة المحكوم عليهم كما هو الحال في سويسرا فان بلدياتها تنفق عن سعة لتجعل البلاد في هذه الحالة من النظافة التي تعجب لها أرقى أمم الحضارة دع شرقياً لا يكاد يقع نظره في بلاده الا على أقذار في الشوارع والساحات والحارات بل في البيوت والحوانيت وخلافى كل شأن من شؤون الحياة الراقية

وكان من أثر هذه المفاداة التي فادت بها بلديات سويسرا في متصرفياتها أو مديرياتها الاثنى والعشرين تحسين الصحة العامة واستجلاب السياح وأحسن معلم لبت أفكار النظام والوقار والرفاهية

تتبارى الحكومات والمديريات والادارات الخاصة والعامة في مضمار النظافة فتجد اقفاصاً من أسلاك لطيفة موضوعة في المدن في كل شارع وحديقة لتوضع فيها القشور أو الاوراق وربما سار الواحد عدة أمتار حتى يرى تلك السلة المعلقة فيضع فيها ما بيده من الفضلات الخفيفة ، وذلك لأن كل سويسرى لا يجب أن يرى متزهره وشارعه وحيه الا كما يرى بيته طاهراً نقياً ليس فيه ما ينبو عنه النظر . وكيفما اتقبت في سويسرا في القطارات أو المراكب في المحطات والادارات تشاهد النظافة المجسمة كأن هذه الخاصية صفة من صفات الأمة السويسرية ، وربما نسى الغريب أن يضع ما استغنى عنه من الورق أو غيره فيشيراليه الاهلون بوضعها في محلها بل ان المفتش في القطار لا يستنكف أن يرفع اوراقا تتساقط

من ركاب قد يكونون في الأكثر غرباء لا يعرفون درجة غلو السويسريين في النظافة في كل شيء

ما كانت النظافة في فطرة السويسريين أو جنسهم بل هي كسبية وثمره تربية طويلة ومدنية باهرة . ولا جدال في أنهم بنظافتهم أرقى من سكان الجنوب والغرب أى من الطليان والفرنسيين نعم ما كانوا أمس كما هم اليوم والدليل على ذلك ان من البلاد السويسرية ما لم يبلغ حتى الآن درجة كافية من النظافة كما يحب السويسريون ولا سيما البلاد التي لا يقصدها السياح وليس فيها فنادق مثل بعض محال من مقاطعة الفالي والكريزون والرينتال ، وهي اذا قيست بمقاطعات زوريخ وفو واوبرلاند فقياسها مع الفارق ولا يزال في المدن العظمى مثل لوزان وجنيف وزوريخ احياء قليلة على شيء من الوساخة بالنسبة لمجموع البلاد ولكن مثل هذه الاحياء تهدم الواحد بعد الآخر والقرى تطهر بأسرع ما يمكن وهي نموذج مما كانت عليه سويسرا قبل خمسين أو مائة سنة فاستطاع أهلها بالتربية أن يحرزوا فضيلة النظافة التي أصبحوا فيها قدوة الأمم الراقية .

تساءل الباحثون في حال هذه الأمة فيما اذا كان الدين تأثير في نظافة السويسريين والراجح من آرائهم على ما ذكره البردوزا في كتابه « سويسرا الحديثة »^(١) ان الدين أثر بالواسطة لا مباشرة وأن للتربية العملية المقام الاول . فالمقاطعات التي سبقت غيرها في مضمار العلم وأحب أهلها النظام وتقانونوا في المحافظة عليه كالمقاطعات الالمانية في الشمال وأهلها بروتستانت هي أكثر نظافة من مقاطعات الجنوب أى الفالي والتسين والكريزون وأهلها كاثوليك وذلك لان سكان هذه ايطاليون والايطاليون جاؤوا متأخرين بالنظافة عن الالمان وكذلك في التعليم . ومع هذا نرى من مقاطعات الشمال مقاطعتي الفو ونوشاتل وهما من جنس فرنساوى لا تقلان في النظافة عن مقاطعتي زوريخ وبرن الالمانيتين

ومهما يكن من اصول السويسريين الماناً كانوا أو فرنسيّاً أو ايطاليين فان سويسرا أشبه بنفسفساء من الشعوب والعناصر تلاقى وامتزجت وتعاشرت

(١) سويسرا الحديثة لالبردوزا Albert Dauzat: La Suisse Moderne .

لا تفرق بينهم الا اللغة وقد اختلطت دماؤهم اختلاط الماء بالراح كما ترى من سحناتهم فان أهالي مقاطعتي الفو وفريبورغ وان كانوا فرنسويين بلفتهم فالسحنات الالمانية غالبية عليهم وكذلك ترى في بعض المقاطعات الالمانية التي تتكلم باللغة الجرمانية أيضاً منذ عشرة قرون ملامح السلتيين والريتيين من قدماء الرومان نشأت من هذه العناصر الممزوجة روح سويسرية ووطنية سويسرية وذلك بامتزاج الفكر الجرمانى بالفكر اللاتينى فأخذ السويسرى عن الالمانى صفات الدين والرزاة والشعور بالتضامن والنظام والثبات والرغبة في الماديات والحقائق واقتبس من العنصر اللاتينى تقاليد البشاشة والادب وجودة الحكم وحسن التقليد والظرف والرأى الدينى فى ابن مقاطعة تسين لايمائل الرأى الدينى في ابن مقاطعة لوسرن وان كان كلاهما يدين بالكثلكة . والسويسريون الالمان أشد نظاماً من السويسريين الفرنسويين ويغالى الاولون بالاكثر فى توطيد سلطة الحكومة وتوسيع اختصاصها وتراهم مولعين بتقاليدهم مرتبطين بعاداتهم القديمة وحریاتهم المحلية وخصائصهم على العكس في السويسريين الفرنسويين فان هذه الصفات تبدو فيهم بمظهر آخر

والسويسرى على اختلاف أصوله ولغته افرنسياً كان أو ألمانياً قليل الفضول لا يسألك فى الفندق ولا فى الشارع اذا تعرفت اليه عن مقاصدك ولا يتتبع عوراتك ولا يسألك أسئلة لا تحب ان تجيب عايبها على العكس فى السويسرى الايطالى وهو ساكن فى الجنوب طبعاً فانه يملل نزيله وصاحبه بأسئلته ، ومن ترك الناس وشأنهم في هذه البلاد نشأ فى أمم أوروبا وأميركا حسن الظن بالسويسريين ، فاختاروا سويسرا مصيفاً ومشى لأن من تلك الامم ولا سيما الشعوب الانكلوسكسونية من لا يجب أن يسمعك صوته فضلاً عن ان يطلعك على عجره وبجره .

وهذا الخلق سرى للحكومة وهى وقانونها صورة من صور الشعب . أكتب هذا عن لوزان وقد مضى علي فيها خمسة عشر يوماً وأنا لم أرسوئى ثلاثة أو أربعة

من رجال الشرطة بالعرض اقامتهم المديرية بداعي الاعياد فقط ولم أرسو جندى واحد ، هذا والمدينة لا تقل تقوسها عن سبعين ألفاً وفيها على الأقل عشرون ألف غريب

هذه هي الجمهورية السعيدة التي أسسها ثلاثة فلاحين منذ عشرة قرون قد بلغت بالعلم والتربية هذا المبلغ من الترقى . وان أكثر مايقع في هذه الديار من الحوادث مثل السرقة والسكر والعربدة التي لا تخلو منها أرض لا يكون على ما رأيت من أنباء الصحف الامن بعض الغرباء وأكثرهم من الطليان والاروام . فبوركت بلاد هذا حالها

سويسرا : النساء والرجال

٥٥

السويسرى كالايطالى والالمانى والانكليزى كثير الولد والذرية وأولاده لا يعدون بالزوج بل بالمقد وبلغني أنه ولد لأحدهم من زوجة واحدة ثلاثون ولداً « فقط لا غير » أما الازواج الذين رزقوا العشرة والخمسة عشر ولداً فهؤلاء أكثر من أن يحصوا فالولد السويسرى كالبيض أو البرتقال يعدون بالخمسات والعشرات . وترى الأبوين لا يدهشان لكثرة نسلهما فانهما في الاغلب يلبسانهم ولا سيما في القرى البسة بسيطة للغاية لا تختلف في الصيف عن الشتاء كثيراً ويطعمانهم ما حضر من الطعام وأكثره يدور على اللبن والحليب والبيض والجبن والخبز الاسمر وقد لا يطعمانهم اللحم الا قليلا اما الخمر فهذه لا تكاد تعرف لانها محكرة للحكومة وأثمانها فاحشة لا يصل الفقير اليها وليست كل المقاطعات مما تجود فيها الكرمه

يلعب الأولاد حول أمهم وفي الحقل حتى السابعة من عمرهم ثم يذهبون الى المدرسة وعندئذ يقل لعبهم حتى ان ابنة العاشرة أو الثانية عشرة تعمل أعمالا

من الخدمة وتحصيل المال يعجز عنها ابن العشرين أو الثلاثين في شرقنا . فتراها من المدرسة الى النزل تخدم في الأوقات المتيسرة لها الى تربية أخيها أو أختها وتعهده الى بيت فلان تغسل لهم الأواني أو غير ذلك والحكومة تحول دون الأولاد وما يشتهون أحياناً فان أكثر الحداثق العامة لا يستطيع الأولاد أن يدخلوها اذا كانوا دون الخامسة عشرة الا اذا كانوا مع كبير من أهلهم يسأل عن حركاتهم وسكناتهم وفي بعض المقاطعات يحرم على الفتى أو الفتاة دون الخامسة عشرة أن يخرجوا الى الشارع بعد الساعة السابعة ليلاً وفي أخرى لا يحضر الولد بعض المسارح والصور المتحركة بل ان له مسارح ومشاهد غير ما للبالغين .

انتشر فكر الأسرة كثيراً في سويسرا وذلك بتداخل الحكومة أيضاً التي جعلت في جملة المرغبات في الزواج اعفاء المواريث من كل رسم اذا انتقلت الى وارث حقيقى مباشرة كالابن ونحوه وأما اذا كانت تنتقل الى الاباعد فانه يدفع عنها رسم فاحش للحكومة

وبينا ترى الحياة الصناعية في أوروبا بأسرها قد طقت كثيراً عن تأليف الأسرات وتأسيس البيوت ترى سويسرا كلما زادت حركتها الصناعية تتكاثر في ربوعها البيوت وذلك بأن العامل أو العاملة يعمل في داره ما يعرفه من أنواع الصنائع كعمل الساعات والتطريز والنقش على الخشب وغير ذلك . فان القرى يعمل وهو في بيته ولا ينقطع عن عمله الزراعى طول السنة وقد حال ذلك دون كثير من أبناء القرى عن غشيان المدن والسكنى بها واقفار الارياف . فان خلو الدساكر من سكانها هو من أول أسباب الخراب كما هو حاصل في الشام من الهجرة الى أميركا مباشرة وكما هو كذلك في فرنسا في الهجرة من قراها الى مدنها والخطب أسهل .

نعم تعمل هنا المرأة والفتاة في قريتها ما تحسنه من الصناعات في المعمل أو في

بيها بدون أن تنقطع عن محيطها وأسرتها وان تتخلى عن تدبير منزلها والمرأة السويسرية مشتهرة بأنها لا تحب الظهور كل ساعة للناس وهي مخلصة صالحة على الجملة تؤثر تعهد عملها وبيتها على كل شيء وتمكر كثيراً بحيث أن السفاسف والزينة لا تشغل من قلبها مكاناً فهي امرأة منزل وعمل تهتم لبيتها اهتماماً غريباً وتظهر حبها للنظام حتى في عواطفها

مامن بلد في الأرض ساوت فيه المرأة الرجل كما هي في سويسرا فهي قرينته في عمله وشريكته حقيقة وهذا ناشئ ولا شك من تربية المرأة على العمل وحبه وقد بلغ سنة ١٩٠٠ عدد السويسريات اللاتي يعملن في الصناعات المختلفة من زراعية وتجارية وصناعية وصناعات حرة ١,٥٧٥,٠٠٠ امرأة . هذا في شعب هو اقل من أربعة ملايين فاذا فرضنا ان النساء ١٩٠٠,٠٠٠ في سويسرا وأخرجنا منهن العاجزات وصغار البنات لا يبقى الا عدد أقل من القليل غير عامل من النساء السويسريات فالمرأة العطلة عن العمل ليست بضاعة سويسرية والعاملات من النساء على نسبة العاملين من الرجال . وقد أحرزن منذ زمن طويل الحق بأن يكون منهن الطبيبات والمحاميات أما حقوق الانتخاب ومشاركة الرجال فيها فانها قلما تهمن ولذلك كان النساء في التجارة والصناعات الحرة أكثر من الرجال . قال لنا رئيس تحرير جريدة « غازت دي لوزان » ان الناس هنا يعملون مهما كانوا أغنياء ولا تكاد ترى عشرة في مدينة لوزان لا عمل لهم على كثرة أغنيائها وأرباب الأملاك فيها

الأخلاق هنا في الجملة قاسية والحياة بالغة حد النظام والناس كلهم يعملون ولذلك تقل البواعث على التبذل والخلاعة وحب الشهوات لان ذلك يستدعى أوقات فراغ والفراغ لا يعرفه السويسريون والسويسريات . ثم ان المناخ لا يساعد على الخروج كل ساعة بل بالعكس مما يحمل على الرغبة في الحياة البيتية . وسويسرا مثل هولاندة أقل البلاد الاوربية التي يولد فيها أولاد غير شرعيين فهي من هذه الوجهة أقل من ألمانيا ثلاث مرات . وسبب قلة العهر العمل بلا شك لان رأس البطل معمل الشيطان

متى تزوجت المرأة السويسرية تصبح عشيرة الرجل حقاً فهي يوم الاحد تذهب واياه الى الكنيسة وفي المساء الى القهوة . والسويسرى يجدفى عطلة الاحد أحسن فرصة له لأنه يتخلى عن عمله فلا يطلب من أسباب السرور الا أن يكون مع أهل بيته . ويقل اختلاط الشبان والشواب في أوقات الفراغ حتى يوم الاحد اللهم الا في الاعياد السنوية النادرة التى تقام فيها مراقص . ويذهب الشبان أيام الآحاد الى الكنائس ولا سيما البرتستانت منهم وبعد الظهر يذهبون عصابات يتمرنون على الرماية ولعب الكرة ويغنون ويمربدون قليلاً ولكنهم يوم الاثنين فى الساعة المعينة تقرأ الرزاة فى وجوههم ويعود كل رجل يستعيد مركزه فى الحياة الاجتماعية .

تذهب الاسرات مساء الاحد ولا سيما فى سويسرا الالمانية الى أحد الفنادق أو القهوةات فترى الامهات والنساء والاخوات جالسات الى منضدة بالقرب من أبنائهن أو أخواتهن أو أزواجهن يشربون جعة وقهوة وقايلوا جداً من المشروبات الروحية والرجال يدخلون وربما غنى الحضور ولكن أغاني وطنية حماسية فيها ذكر الله واحترام المرأة ومدح جمال الجبال وحياة الفلاة وربما غنوا أغاني هزلية أدبية ولكن لا غرام فيها ولا عشق

المرأة السويسرية قد يعالجها الهرم فى الغالب أكثر من غيرها من النساء المرفهات فى أوروبا الغربية والوسطى ولكن هرمها يزد فى عقلها ويبقى قلبها على نضارته وأخلاقها على سذاجتها . والسذاجة خلق من أخلاق السويسريين والسويسريات والسويسرى وسط بين حرية الغالى « الفرنساوى » ورمانة الانكليزى . واثن كانت كتب الرقاعة والخلاعة لا محل لها من الاعراب فى جملة حال السويسرى فهو مع ذلك لا يخامر ديب فى صحة أخلاق بناته وزوجته ويعرف أن اخنلاطهن اذا اقتضى الحال بالرجال والخلوة بهم أو رؤية التماثيل المعراة فى المتاحف وعلى قارعات الطريق مما لا يلقى أدنى اضطراب فى عفتهم . ومن لم يكن له من نفسه وازع لا تحول الحواجز والأستار بينه وبين ارتكاب الرذائل .

سويسرا : الصفات الاجتماعية

٥٦

أول ما يبيده المسافر في سويسرا ضبط المواعيد فإن السكك الحديدية كما هي في أكثر بلاد العالم المتمدن لا تتأخر ولا تتقدم دقيقة عن ميعادها والقطارات تسير الهوينا في أصقاعها كأنها هي أيضاً تحب أن تمتع نواظرها بمناظر سويسرا البديعة فالسكك الحديدية هنا كسائر الأعمال تسير عجلة في بطاء ولا حاجة لأن يعجل المرء هنا في المبادرة الى المحطة لأن العالم كله مدققون في أوقاتهم ومتى كانوا كذلك بورك لهم فيها

الصلابة والثبات صفتان لازمتان للسويسري وقد كان المشهور ان الفرنسيين أكثر الأمم اقتصاداً ولكن ظهر أن السويسريين يفوقونهم فانهم أول أمة أوربية تحسن استخدام أموالها ويلبها الأمم السكندنافية وقد تجاوز ما وضعه ١٦,٣٠٠,٠٠٠ من السكان في صناديق التوفير مليار فرنك فيصيب الفرد ثمانمائة فرنك وهذا مما لا يكاد يكون له نظير : ثلث الأمة تقتصد وتجمع المال الذي لا تحتاج اليه !

لا تردد في أخلاق السويسري يقبل الجديد ولا يخون القديم فهو اما أن يقول نعم أولا . ليشتملك ذلك في المشاريع واللوائح التي توضع وتسبب مما يقتضى تنفيذه عند غيرهم سنين . أما هنا فإذا أريد القيام بعمل تبدأ الصحف بأعداد الأفكار له وتلقى المحاضرات فيضع أحد النواب أو الحكومة مشروع القانون الجديد وإذا اقتضى الحال تصدق عليه الأمة ويخضع له كل الناس وإذا وضع قانون ولم ينفذ فالسويسري يصر على العمل به بدون ملل مثال ذلك بعض السكك الحديدية الجديدة فإن من الخطوط ما يمد في عشرين سنة ولا يكون طوله أكثر من عشرين كيلومتراً ومع هذا فقد تفتح كل سنة محطة جديدة منه ولكن الخط ينتهي في الآخر

إذا كان السويسريون عنودين فذلك لأنهم عمليون لا نظريون في أعمالهم
قلما يطرون وراء الخيالات . وقديماً نبغ في السويسريين فلاسفة أمثال جان
جاك روسو الذى ولد في جنيف أما اليوم فلم تنشأ لهم مثل تلك الطبقة بل ينشأ
لهم أهل عمل أقرب الى الحقائق متشبعين بالحق عارفين المداخل والمخارج خلف
رجال الاعمال رجال الخيال .

امتاز السويسريون بالصناعات فاستفادوا من ذلك فوائد جمة في بلاد شحيحة
بمخيراتهم صعبة المراس بطبيعتها والاقتصار على الزراعة فيها لا تسير به الحركة
الاقتصادية على محورها . فليس فيها فحم حجرى ولا معادن للصناعة ولا شواطئ
بحرية ولا أنهار عظيمة للتجارة بل فيها عقاب من جبال صعبة المرتقى أقيمت على
التخوم فى الجنوب والشرق والشمال وربما غير صالح للزراعة لأنه مألّف الثلوج
والجليد طول السنة أو صخور لا ترتقى وتربة قاحلة وثلثها صالح للغابات والشتاء
يطول ويشتد فى بعض مقاطعاتها ويغمرها بالثلوج برمتها وبحيرات هى كالخال فى
عنى ذات الجمال والدلال ولكن الانسان العاقل يغلب الطبيعة أو يعرف كيف
يستخدمها فان تلك الحواجز الجبلية قد خرقها السكك الحديدية بحيث ان سويسرا
بعد ان كانت تحول دون الاتصال بين فرنسا والنمسا وبين ايطاليا و ألمانيا أصبحت
الصلة اللازمة بينهما شق القطار جميع الاصقاع وتسلل بخطوطه المنوعة حتى الاصقاع
البعيدة عن التركيب الاجتماعى يحمل اليها مائبة الحياة الاقتصادية ورشاشة من
بحر المدنية واستعاضت سويسرا عن الفحم الحجري الاسود بما عندها من الفحم
الابيض وأحسنّت ضبط المياه فدورت بها المعامل والمواد الاولى تجلب من الخارج
ولكنها تعود بارباح فائقة فان ثلاثة أرباع صادراتها هى من حاصلات بدلت فيها
اليده السويسرية وغيرت مثل القطن والحرير والشكولاتا وأنواع المطرقات والساعات
أحسنوا هنا استخدام جميع التربة الصالحة للزراعة على أحدث الطرق الزراعية
المنوعة فوفرت كرومها ومراعيها وكثرت فيها تربية البقر بما يلحقه من اللبن
والزبدة والجبن حتى ان بعض مقاطعاتها الشرقية تبلغ حاصلاتها ٨٠ فى المئة من

البقر وما يشتق منه والثلوج والجمد والصخور والشقيف كانت من المعونات على الاستكثار من اقامة الفنادق والانزال ليأوى اليها السياح الذين ملوا من رؤية الحضارة ويريدون ان يرجعوا شهراً أو شهرين الى الطبيعة فليس في سويسرا حيوانها وجمادها وانسانها شيء لم يحسن استخدامه ويجر في سبيله

السويسريون عمليون في حياتهم الخاصة وهم كذلك في حياتهم العامة فلا تجد في الممالك مكاتب أشغال تنظر الى الجواهر لا الى العرض مثل مكاتبهم ولا ادارات أقل تشبهاً بالاعمال القرطاسية من اداراتهم . فهم في هذا الباب يصلحون أساتذة للفرنسيس والجليان والالمان . دخات كثيراً من المصارف والبيوت المالية في مصر والشام وباريز ورومية فلم أشهد لمصارف سويسرا تلك الدهشة التي يتاقى بها الغريب الوافد عليهم ولا ذاك التطويل الممل الذي يشاهد في مصارف الشرق والغرب على الغالب . وهكذا هم في كل أعمالهم الاشتراكية الاجتماعية . ومن أغرب ما يسمع أن مدينة بال ارتأت أن تستوفي الضرائب من الاهلين في بطاقات بريدية فتم هذا العمل في أسرع ما يمكن ولم ينتظر المكلف في شباك البريد أكثر من عشر دقائق فاحتذى هذا المثال كثير من المدن السويسرية تخفيفاً من أجور الجباة وتيسيراً على الناس

اختار السويسريون السهولة حتى في أصول التعليم في مدارسهم فلا يخرجون اليوم من ست كليات راقية لهم سوى رجال أعمال لرجال آمال وخيال . يخرجون رجل الغد على ما ينبغي له في جهاد الحياة فيتخرج من مدارسهم قليل من العلماء والأدباء وكثير من الزراع والتجار والعاملين . يعلمون أموراً تنفع الطالب في الحال ويلقنونه العمليات وحب الاعمال المنتجة . يرى السويسريون الآن في الامة كثيراً من المخترعين المتوسطين والمفنيين الجائعين والكتاب الذين لا قرائح لهم وكلهم لا فائدة منهم ولكن البقال والصانع وموظف السكة الحديدية وان كان متوسطاً أفيد للحياة الاجتماعية من شاعر شقي لا ينتفع به في شيء ولذلك ترى الكليات تطبق علومها على حسب أقطارها فكلية بال مثلاً تفتن

أستاذتها في تعليم الطلاب حسن استخدام الألوان في كل أبحاثهم الكيماوية لأن البلاد صناعية ولكلتي زوريخ وفريبورغ فرعان تجاريان ولكل فروع التعليم مقام محمود للتعليم الصناعي في سويسرا يوافق ضروريات الحياة والمدايح في كل مقاطعة فالمدارس الزراعية متنوعة وهي مرتبطة بالمديريات مثل المعارف العمومية ولكن حكومة الاتحاد السويسري تمنحها إعانات كثيرة تقوم بحاجتها وفي سويسرا مدارس نظرية وعملية زراعية ومدارس زراعية لشتاء ومدارس لتربية الكرمة ومدارس لاستدراار الالبان وغير ذلك وفيها كثير من المدارس التجارية للمديريات أو للبلديات ونقيم شركة التجار السويسرية كثيراً من الدروس التجارية ولكثير من المدارس الوسطى فروع تجارية هذا عدا المدارس الخاصة مثل مدارس الساعات ومدارس التطريز ومدارس الفنادق ومدارس تدبير المنزل

بين تلك الجبال الصعبة الخطرة رسولة الشتاء الطويل التي لا يستطيع فيها المرء بمفرده أن يعمل ما يقاوم الطبيعة التي لا تشفق أحس السويسري بضرورة التضامن وشعر بالحاجة الى التساند والعمل يداً واحدة وترتيب الجهاد على ما يجب، الجبل قاس وفطري وهو كريم المثلوى واقراء الضيف سنة قديمة عند السويسريين كما هي عند الايكوسيين في انكلترا أو العرب في بلادهم ولا تزال هذه السنة الى اليوم كما كانت أمراً ولكن الأجيال الجديدة مالت الى الحقائق أكثر من أجدادها فاخترعوا من الضيافة صناعة وهي صناعة الفنادق والانزال

وربما يبلغ النظام عند أمة ما بلغه عند السويسريين فان حركة جمعيات التعاون والشركات والنقابات أكبر دليل على رسوخ عادة الاجتماع في عقول السويسريين منذ أحقاب فالنقابات الصناعية استعادت تقاليد الأخويات القديمة حتى ارتبط المستخدمون والتجار والصناع والزراع في سويسرا بنقابات لا يكون من أثرها ضرر على المجموع من مثل الاعتصابات والاضراب عن العمل بل ليكون منها عموم النفع والشركات المحلية متحدة كل مديرية بمديريتها ثم ترتبط مديريات البلاد كلها وهذا في جماعات العملة والمعلمين . وأصحاب الفنادق بل المطاهي متحدة

بعضها مع بعض وما الحكومة السويسرية اذا نظرنا اليها من حيث المجموع
الا اتحاد واسع من النقابات السياسية

لا تزال بقايا الملك المشترك الذى كان معروفاً فى القرون الوسطى فى الغرب ولم
يبرح معروفاً بعضه فى الشرق قائمة على أتمها ولا سيما فى الاصقاع التى بقيت على
فطرتها فان السكان الى الآن فى وادي انيفرس يحلبون الابقار بالاشتراك ولكل
الحق على نسبة ملكه فى حصته من اللبن والزبدة والجبن ولم ترتفع من ذلك خلال
عشرين سنة سوى شكويين . وكثيراً ما تكون بقرة أو بغل أو بيت مشاعاً بين
عدة مالكين وكثير من المراعى الجبلية هى أملاك بعض رؤساء الأسر وفى كل
قرية تملك الاسرة بيتاً خاصاً أو مشاعاً بين أهلها .

وصناعة الجبن فى أكثر بلاد سويسرا تقوم بأيدي شركات مرتبطة بجماعات
المستخرجين للجبن وفى مقاطعة الفالى حيث تقل المياه تروى البلاد باقنية جابت
مياهها من بعيد على مسافة ٤٨ كيلو متراً وكل قناة عملت وأديرت على يد جماعة
من أرباب الاملاك ينتخب رئيس شركتها أصحاب الأراضى التى هى آخذة
بالتقسيم والتجزئة

وبعد فاذا كان الشعور بالتضامن العملى والنظري هو على أتمه فى سويسرا
فان الفكر الوطنى والنظام الاختيارى والضمير الافرادى المشاهد فى أخلاق
الوطنى السويسرى جدير بالاعجاب من كل وجه فالسويسرى يعرف واجبه نحو
المجتمع والحكومة ويخالف فى ذلك الشعوب اللاتينية التى تحب الخلاف بفطرتها
والشعب الألمانى الذى يخضع للسلطة ادارية وعسكرية على صورة غريبة وذلك
باطاعته الرؤساء طاعة عمياء والخضوع لأوامر الامبراطور ولكن الوطنى السويسرى
يخضع لنفسه ويرضى بنظام ارتضاء بحريته . والفكر الوطنى فى سويسرا الالمانية
أشد منه فى سويسرا اللاتينية وان كانتا فى وطنيتهما فى الحقيقة كاسنان المشط
فى الاستواء . وسويسرا الفرنساوية هى مديريات نوشاتل وفريبورغ وجنيف
ولوزان، وسويسرا الايطالية مقاطعتا التسين والغريزون وما عدا هذه الست
مديريات أى الأربع عشرة مديريةية فهى ألمانية

السويسرى الالماني خصوصاً لا يستنكف من أن يشكو كل من يخالف الأمر والنظام لأن لكل شك الحق بنصف الغرامة وقليل جداً من يشتكى منهم ولذا فليس من العيب ما تقرأه على المنعطفات وفي مداخل الحدائق والمتنزهات من الكتابات بحروف غليظة لجعلها تحت ملاحظة الجمهور ومعاونة الوطنيين فان هؤلاء قد عرأوا منزلتهم من بلادهم وما ينالهم من شرفها وما وضعت فيهم حكومتهم من الثقة فلا يريدون بحال أن يشوهوا وجوه مرافقهم ومتنزهاتهم وجنائهم بل يعملون بما فيه حفظها على ما يستلزمه حبهم لبلادهم وأعجابهم بها . ورجال الادارة يجتهدون أن يعلموا الشعب وان يؤهلوه ليعخدم نفسه بنفسه بدلاً من أن يعتبروه ولذا يجب على الدوام الأخذ بيده وقيادته ولهذا أمثال كثيرة تعد بالعشرات مما لا مثيل له عند الأمم الأخرى

وندر جداً في السويسريين من يستحلون أكل مال خزينة الأمة أى ان يخفوا عن الحكومة ما يحق لها أخذ رسوم وضرائب منه ولا سيما في سويسرا الالمانية وان كان بعض أرباب الغايات وهم لا تخلو منهم أمة مهما طهرت نفسها قد يقفون عثرة أحياناً في سبيل بعض الاعمال كما وقف بعضهم سنة ١٨٨٦ لما أرادت الحكومة احتكار الالكحول ووقفوا سنة ١٩٠٧ لما أرادت منع شراب الابسنت المضر ولكن انتصر حزب الحق وجرى احتكار الالكحول ومنع الابسنت بالاكثرية وحسنت صحة البلاد .

لا جرم ان هذا الشعب الذى صورنا هنا بعض صفاته الاجتماعية هو شعب عظيم فان من يضرب صفحاً عن شهواته المادية لنفع المصلحة العامة ومن يفادى براحتة وحب ذاته وهو راض ساكن باسم لاجل مصلحة وطنه يعد من الشعوب التى تحيا حياة طيبة . اللهم انى أحسد الشعب السويسرى حسد غبطة على هذه الأخلاق الفاضلة واصاب اليك أن ترزق شرقنا المسكين مثلها حتى لا يموت بفساد أخلاقه وقلة علمه ميتة جاهلية وقد خسر الدنيا والآخرة

سويسرا: قيودها في الحرية

٥٧

منذ قام الهلفسيون وكانوا يسكنون في شمالي سويسرا الألمانية الحالية أى في أرض ألمانيا وانضموا نحو القرن الأول قبل المسيح الى التوتونيين والسميريين وهم مثلهم يحبون الغزو والغارة وأخلاق الحرية تبدو على هذا الشعب الهلفسى الذي سميت سويسرا باسمه « هلفسيا » - رضع هذا الخلق مع لبن أجداده وتسلسل فيه على اختلاف القرون وما كان أشرف القرون الحالية ولا حكومة الرومان التى استولت على سويسرا نحو خمسة قرون ولا النمسا بعد ولا الاساقفة ورجال الدين وكانوا هم الحاكمين فى كثير من بلاد أوربا ولا دوجات ميلانو وسافوا وبورغونيا ممن حكموا سويسرا يستطيعون ان يشددوا الوطأة على السويسريين لأنهم أشداء من وراء النشأة الجبلية متضامنون بينهم اخوان فى السراء والضراء من قرأ تاريخ سويسرا يعجب من صبر السويسرى ويرى أن جروبه حتى زمن القسوة كانت لطيفة وكثيراً ما كان السويسريون يردون غارات جيرانهم بتفزيعهم وتشتيهم فقط أو بامطارهم الاحجار من الاعالى أو القائهم فى البحيرات ارباباً وما أظن أنه سبق فى التاريخ أن محارباً يجرى معتدياً على بلد ويحاصرها ثلاثة أشهر ويضيق خناقها ثم تخدم المحصورين الاقدار وينفيض نهر فيجبل جسراً عليه كمية من عسكر عدوهم فيتركون الحصار ويأخذون بانقاذ الفرقى كما وقع لمدينة سولور السويسرية فان صاحب النمسا حاصرها لتخضع له وهى مستقلة ثلاثة أشهر فطاف نهر الآر وحمل طائفة من جنده فبدلاً من أن يفتنم المحصورون هذه الفرصة تنادوا لمساعدة الفرقى فانقذوا منهم عدداً كثيراً فلما رأى الملك ليوبولد من السلوريين هذه الشهامة تأثر جداً وعقد معهم الصلح ورفع عنهم الحصار وكان ذلك فى القرن الرابع عشر

تعلم المفلسيون الاحتفاظ بحقوقهم والاعتياد على الشورى وحكم أنفسهم بأنفسهم وكره الملوك منذ قال زعيمهم ديفيكو ليوليوس قيصر عامل الرومان تلك الجملة البديعة وقد أراد ان يعقد معه صلحاً فطلب قيصر الى المفلسين رهائن فقال ديفيكو . « تريد رهائن وقد علمنا آباؤنا ان نأخذها لان نعطيها وكان على الرومان ان يذكروا ذلك » . ولكنك ترى اليوم هذه الامة مع ما بلغت من الحرية التي لم تعهد لغيرها تتساهل بحقوقها مع حكومتها فيما تراه نافعا لبلادها علماً منها بأن الحرية المطلقة لا يمكن حصولها في مكان من المجتمع وهي بالضرورة محدودة بحقوق الغير وبالمصلحة العامة

السويسريون يرون في كل مكان المصلحة العامة ويتركون لها برضاهم ضغار مطالبهم النفسية ويطالبون خاصة بتطبيق حقوق الفرد الأولية فلا يسيئون استعمال حريتهم الوجدانية وحريتهم القولية ليتخلصوا من عبء فيه مصلحة عامة .

السويسري لا يستطيع مع ما نال من الحرية ان يقطع شجرة من غابته الا باذن حكومته ولا ان يضمن داره من الحريق الا عند حكومته لانها هي ضامنة من الحريق ولا ان ياتي ورقا ولا غصناً في احدى البحيرات فضلاً عن الاقذار والاوخام فسويسرا التي احتفظت بحقوقها في عصور الظلمة قد زادت منذ خمسين سنة تدخل الحكومة في مصالحها على ما هي الطريقة المتبعة في ادارة البلاد الجرمانية وذلك بان يكون للحكومة اشراف قليل على بعض شؤون لا تضر بحرية الافراد والمجتمع حرية الضمير والرأي والعبادة مضمونة في أرض سويسرا بموجب قانون الاتحاد السويسري الاساسي ولكن لا بصورة مبهمه بل ان لكل مديرية قانونها الخاص للاجتماع والدين والصحافة ينظر فيه الحين بعد الآخر ويطبق بحسن ارتقاء الشعب وأخلاقه . وحرية الصحافة لم تنقلب قط الى عداء ومما حكات ومع شدة الانتقاد والجدال في المنازع السياسية فان لها حداً تقف عنده لا تتعداه أعظم الصحف السويسرية ولذلك كانت صحافتهم على صورة لا تشبه صحافة الامم الاخرى وربما كانت هي والصحف الانكليزية صحف الحرية الحقيقية مع الاعتدال الغريب

أما نشر السفاهات والفراميات والخلاعات فهذا لو جسر على نشره صحافي لا يجد من الامة من يقرأه فيسقط بطبيعته . ومن الغريب انك تجد في سويسرا كنيسة يصلى فيها أهل مذهبين من المذاهب النصرانية وجريدة هي لسان حال حزينين مختلفين الحزب المحافظ والحزب المتطرف الاشتراكي ، فالقارئ يحكم على آراء الفريقين المتخاصمين من العدد الواحد

لا جرم ان القرون الخالية وحوادث الايام قد دربت السويسريين طويلا على الحرية وقلبتهم بين الشدة والتسامح أزماناً فصاروا يقدرون نعمة السلام والوثام وما تعقلهم الحال الا ثمرة فضجت على مهل بعد ان ذاق أصحابها في انتظارها وتكيفها على هذه الحالة نصباً ، حرية العمل وحرية الاشتراك في سويسرا متعادلتان فمن هذه نشأ الاعتراف بنقابات العمال وبحقوق اعتصابهم ، ومن تلك نشأ احترام المعتصين لحق المخالفين لهم في الاضراب عن العمل ، ومع هذا تجد الاعتصابات أقل مما هي عند الامم الصناعية الاخرى والاجور يزيد بزيادة غلاء الحاجيات وارتفاع أسعار الكماليات لان العملة يتفاهون ويجمعون على الدوام مع زعمائهم ، وكذلك حق حماية سويسرا للمظلومين ، ولا سيما السياسيين ، فانه أرقى مما عند الامم الأخرى ، ولكن سويسرا لا تحمي القاتل ، وكثيرا ما تعتمد بعض مقاطعاتها الى اخراج السفاكين وأرباب الدجارة من غير أبنائها الى خارج الحدود .

يبدأ تلقين الحرية وتطبيق حقوق الوطنى عند السويسريين منذ عهد المدرسة الابتدائية . وليس في سويسرا على الجملة مدارس داخلية ، بل ان الطلبة الذين يرحلون من قراهم وبلادهم للتعلم يدخلون في بيوت الأمر حتى لا يعيش التلميذ منذ صغره عيشاً متكلفاً كعيش المدارس الداخلية لا مثيل له في الحياة ولا يخضع لقوانين جائرة ، وهو الذى يحتاج في بدء نموه الى الهواء والشمس والانطلاق ، ومن علماء التربية هنا من بالغوا في منح اعطاء الطلبة حريتهم وأنشأوا لهم مدارس التربية الذاتية أو الحكم الذاتى فيتألقون أولاداً من سن الثانية عشرة الى السادسة

عشرة جمهوريات حرة ينظمون بينهم أمهرهم والمعلمون لا يعملون الا أن يلقوا عليهم الدروس وذلك لتلقين الأولاد الاستقلال والحياة العمومية ، فالأولاد يختارون رئيسهم وهيأتهم الادارية وأمين صندوقهم . ويكون اختيارهم حسناً جداً في الاغلب ويجيدون في مناقشة القانون الذي يضعه مديرهم ، وتصح أحكامهم في عقوبة المخالفين لنظامهم ، فلا يسرق شيء من مال الصندوق ولو كان الأمين عليه في الثانية عشرة من عمره تحدته نفسه أن يبتاع ببعض الدريهمات حلواء أو شكولاتا أو ملابساً يأكلها أو كرة يامب بها ، فكان سويسرا خلقت بدون أولاد أو ان التربية جعلت أولادها رجالا ونساءها كذلك

حرية الصيد البري والصيد النهري والبحيري محدودة مقيدة في بعض الاوقات وعلى بعض المحال . ورجال الصحة يمنعون كل شيء اذا اقتضت الصحة العامة ذلك ولو كان فيه خراب عدة مقاطعات كأن يقيمون الحجر الصحي على الانسان والحيوان فيمتنع أحد من الدخول الى تلك المحال الموبوءة أو الخروج منها ولا ينبس أحد بينت شفة اعتراضاً على ما حصل . وقانون العمل وتحديد أوقاته يشغل المستخدمين والعمال والعملة على ضرورة معقولة نيتتمعون به بشيء من الراحة والحكومة تتدخل في حياة الوطنيين الخاصة لتقدير الضريبة على دخل الافراد الذين يقدرونها بانفسهم أولاً وللحكومة الحق أن تراقبهم وكذلك كتابة كشف بعد وفاة الميت بمخلفاته .

لكل عمل في سويسرا موانع ومحظورات فالماهر من يقرأ كل ما يقع نظره عليه من المكتوبات في الطرق والمحطات لئلا يغرم شيئاً بتعديه حتى لا ينفى السير فيه أو اتيانه عملاً يعد منكراً في عرف القوم وهو عند غيرهم مباح وأي مباح مثل منع دوس العشب في المروج عند ما تنبت وقطع عدة زهور من جبال الالب وسير المرء في بعض المقاطعات على بعض طرق الكروم يتناول المنع في ذلك الأولاد والرجال مخافة أن تحدث أحد الشرهين نفسه بان يقتطف خصلة من الكرم . واقتطاف العنب يجري بمعرفة الحكومة كل جهة بمفردها

ويمنع على بعض الجسور الخشب في بعض المقاطعات أن يدخن المرء أو يحمل قداحة ويوقف حيوانات ويجمع اجتماعات وهكذا تراهم يفرضون فروضاً ربما لا تقع مرة في العمر ويكتبون لها اللوحات ويضعون على من تعدى عليها الغرامات .

هذه قيود للحرية وضمانات لها في آن واحد لأن الشعب مهما بلغ من رقيه هو كقطع الغنم لا يخلو من جرباء وفي الأكثر يكون المقصود من هذه القيود الأجانب وهم ليسوا على مستوى واحد في عقولهم وعاداتهم . عادة البصاق ممنوعة قطعاً في كل مكان ولا سيما في القطارات حتى أن بعض الكنائس ككنيسة فريبورغ كتبت العبارة الآتية بحرف غليظ : « احتراماً لبيت الله المرجو الامتناع عن البصاق » ويمنع التدخين من بعض المركبات في القطارات واما مدخني مركبات خاصة كما أن للسكري كذلك . وإذا حدث اختلاف بين راكبين في قطار أحدهما يريد فتح النافذة والاخر يأباه فالحكم في ذلك لرئيس القطار فهو الذي يحكم بين المختلفين وهذا أيضاً من جملة ما قدروه من الاحتمالات في أنواع الحريات .

سويسرا أرض الحرية منذ القديم ولكنها كما رأيت حرية من نوع آخر خاص لا تخلو من قيد في كل حال خلافاً لما يتصوره بعض الخياليين

سويسرا : حياتها السياسية

٥٨

ليست سويسرا جمهورية بل فيفساء مؤلفة من عدة جمهوريات صغرى ملونة براءة غريبة في حجمها ونظامها وأفكارها وأخلاقها السياسية . فمن مقاطعاتها ماهو صغير ومنها ماهو كبير ومنها ما تدار المدينة فيه بإدارة غير إدارة القرى المجاورة لها ومنها ماهو عبارة عن مدينة وبضع قرى حولها أو أرباض . ومنها

من يدين أهلها بالكثلكة وأخري بالبرتستانتية وغيرها مزيج من المذهبين ومنها ما ينتمى الى الحزب الاكيركى وأخري محافظة متنطمة في مذهبها وغيرها متطرفة في اشتراكيتها ومنها التي تقدم نوافذ للمعذراء مثل فريبورغ في حين جارتها جنيف فصلت بين الكنيسة والحكومة

وفي الجبال الوسطى وجبال الشمال الشرقى لاتزال الحكومة المعروفة بحكومة البطارقة على الحالة التي كانت عليها على عهد الالمان والفرنك والقوة التشريعية بيد مجلس الوطنيين ومن الجمهوريات جمهوريات صناعية مثل زوريخ وبال احاطتا علما بكل دقائق المجالس النيابية فتضمان ضرائب على الدخل وضرائب على رأس المال وتختاران بعض الاصناف للحكومة وتختار أن طريقة الانتخاب على نسبة العدد ، عادات زوفجية قديمة الى جنب الاختراعات السياسية في القرن العشرين قطعة من الجبال والادوية والبحيرات لا تبلغ مساحتها ثلث مساحة ولاية سورية وتقوسها لايزيدون كثيراً عن نفوس بر الشام كله وحكومتها في مديرياتها والاصح أن يقال في ممالكها لان لكل مقاطعة حكومة كأنها مملكة مستقلة أنواع متنوعة وهذا لتكون عندهم اللامركزية على أشدها ويستمتع أهل كل ناحية مما صغرت بفضل ما يرونه الانسب لمصلحتهم والتغيير يتناول حتى النواحي التي تختلف ادارتها بحسب الاقليم

في غرب البلاد يسرون على الطرق الفرنسية وفي سويسرا الالمانية لكل بلد نظام والمرجع واحد ، هنا تجبى الناحية الضرائب وهناك تسمح لها واراقتها أن لا يطالب المكلفين بقرش ، الاستقلال الادارى الى جانب السلطة المحلية تختلف كل الاختلاف ، المركزية في سويسرا الفرنسية أكثر من غيرها في حين ترى نواحي اينزل الالمانية جمهوريات صغرى أو جمهوريات تنوب عن جمهورية مستقلة الا قليلا

وبهذا التغيير الكثير ساغ الأنظمة والاموضاع أن توافق أخلاق كل صقع وضرورياته وحاجات سكانه ورغائبهم التي تختلف باختلاف نوع الحياة . فالتعليم

مثلا اجبارى فى البلاد كلها يقضى على كل ولد أن يصرف فى المدرسة من سن السادسة الى الرابعة عشرة يتعلم فيها أموراً مشتركة بين المقاطعات كلها وما عدا ذلك فكل مديرية حرة بأن تنظم مدارسها على طريقها وهى تطلق للنواحي حريتها أيضاً فى بعض الامور مدة التعليم تسعة أشهر فى السنة ، ولكن بعض النواحي تقسم العطلة قسمين قسم وقت اشتداد الحر وآخر من آخر ايلول الى أول كانون الاول وهو الزمن الذى تنزل فيه الماشية من الجبال وترعى فى المروج الى أوائل نزول الثلج تحت ملاحظة أولاد تلك القرى .

للتخصيص على هذه الصورة فوائد لا ينكرها الا كل مكابر . يمنع التعديل الجائر ويحفظ للنواحي تنوعها وغرابتها ويثبت روح الحياة المحلية والههم الافراذية ويزيد فى ارتباط المرء بوطنه الصغير ، وهذه أحسن طريقة لتعريفه قدر الوطن الكبير وتحبيبه اليه ، لكل مديرية وطنيتها فلها أعلام خاصة بها وألوان لا تشاركها فيها جارتها ولها أسلحة ولها شارات ، وفى جميع الأعياد وعلى جميع المعاهد العامة توضع شارات المديرية الى جنب اعلام الاتحاد السويسرى مثل دب برن ونور اورى ومفاتيح اونتروالد وكواكب فالى ومطرقة سان غال ، لان كل مديرية هى مملكة ووطن ولها تقاليدها وتاريخها وامجادها ، فهى ليست مديرية بالمعنى الذى نتصوره فى مصر والشام قطعة من بلاد اقتطعت منها كيفما اتفق بدون مراعاة الطبائع والتقسيم الطبيعى بل هى عضو حى نام واحد متماسك الاجزاء فى الجسم الاجتماعى .

وربما قيل ان تخصيص كل بقعة بحقوق خاصة مما يفرق اجزاء الحياة السياسية فتختلف الاحزاب وتكثر فلا يستطيع مجاس النواب العام ان يقوم بعمل ولكن سويسرا ليست على مثل ذلك فان ارادة الأمة تسرى حتى على المخالف ويسكت المناقش بظهور الحجة وربما قيل ان هذه اللامركزية المفرطة تشغل أهل كل ناحية بخصوصياتهم فلا يعودون يلتفتون لارقي مما يتجاوز حدود دائرتهم الضيقة كما هو المشاهد من جرائمهم المحلية فانها كلها جرائم خاصة بدائرة لا تتعداها ،

ولا سيما في سويسرا الألمانية ولولا الجرائد الكبرى مثل جورنال «دي جنيف» و«غازت دي لوزان» و«البوند» وهي الصحف الجوالاة الراقية لكان من يعيش في سويسرا أشبه بمن يعيش في قطر منعزل لأن السويسريين لا يهتمون بالزراعة وتجاريتهم ومجالسهم وحوادثهم وما عداها فعرفته وعدمها سواء ولكثرة هذا التغالي في اللامركزية خيف في القرن الماضي من نشأت الكلمة بتعدد النظم فأتحدت أكثر القوانين العامة والمدنية وأتحدت الخطوط الحديدية واتحد نظام العمل والجمر كوسير السيارات فلم يعد يخشى التباس وصارت البلاد مستقلة كل واحدة بذاتها ولكنها في الشؤون العامة متحدة. وحدثت من هذا الاتحاد فوائد جمة من مثل اتحاد المديريات على أن تحتكر الحكومة كلها الخور فنشأت من ذلك فوائد قللت من مقطوعية الخمر وحسنت نوعه وقل السكيرون والمهربدون وحسنت الصحة العامة وما يؤخذ من دخل الاحتكار من كل مديرية يعطى لها عشرة لتنفقه على بث الدعوة للامتناع عن المشروبات الروحية! . وابتاعت الحكومة الخطوط الحديدية الكبرى ماعدا الخطوط الصغيرة المحلية على صورة كأنها لم تدفع عنه ثمناً وذلك بدون أن تضرب ضرائب ولا أن تعقد قرضاً أو تحتال حيلة فان باجتماع الخطوط تحت ادارة واحدة قلت النفقات وكثر الاقبال فأخذت تلك الخطوط تربح ومن ريعها السنوى مدة ٥٦ سنة يعطي المليار فرنك الذى يدفع ثمناً للخطوط على نجوم وتقاسيط

ومن عجيب احتكارات الحكومة السويسرية احتكارها لضمان الحريق بل لضمان من الحوادث والأمراض لا لطبقة مخصوصة من العمال كعمال السكك الحديدية مثلاً بل للجنود الذين هم تحت السلاح زمن السلام وزمن الحرب . ومن الغريب المدهش ان تضمن حكومة أرواح محكومياتها من رصاص العدو وقنابله وهذا لا مثيل له في المدنية الحديثة ولا تضمن الحكومة من الشيخوخة كطبقة العملة مثلاً لتنفق عليهم أيام عجزهم مأخذته منهم أيام شبابهم وذلك لعلها بان دور الشيخوخة طبيعى لا بد لكل واحد ان يفكر فيه وضمانة مبلغ معين لمن بلغوا

سناً معينة هو مكافأة على عدم الحساب للعواقب وللكره وللسكر . ولذلك لا ترى في سويسرا من لا يعمل أما الشحاذة فلا أثر لها ولا اسم . والحكومة العامة هنا احتكرت خطوط التلفون وضمتها منذ البدء لإدارة البريد والبرق ولكن للأفراد أن يضعوا في محالهم كحداثتهم أو منازلهم أو فنادقهم ما أحبوا من مثلها .

السويسريون عريقون في الديمقراطية بكل ما فيها من المعاني تأصلت في نفوسهم وتشربتها دماؤهم منذ قرون طويلة . قال لي أحد مديري الصحف الكبرى في لوزان اننى لأستطيع أن أعامل عمالى والمستخدمين فى ادارتى الا معاملة الكفاة نعم أمرهم ولكننى احاسنهم فى معاملتى كما احاسن رصفائى فى التحرير وأصدقائى وما ذلك الا لأن الديمقراطية تأصلت فيهم وما ديمقراطية أميركا الشمالية التى يرد تاريخها الى زهاء مئة وثلاثين سنة وما ديمقراطية فرنسا التى بلغت ٤٣ سنة من العمر بالنسبة لجمهوريات الاتحاد السويسرى الا بنات وأطفال لجمهوريات سويسرا عمرها خمسة وستة قرون ولذلك ترى فى السويسرى شعوراً طبيعياً فى المساواة وليس فى جمهوريته أوسمة ولا القاب تشريف فالعامل يشرفه عمله والمفضل على أمته ترفعه على رأسها فى حياته ومماته . ورئيس الجمهورية السويسرى هو من أهل الطبقة الوسطى لا يميزه عن سائر أبناء السبيل فى شوارع مدينة برن شئ من الأبهة والمظمة التى يبدو بها فى بلادنا القائم مقام الصغير دع المتصرف والوالى والقائد والوزير ولا تجد تشريفات فى سراى الاتحاد السويسرى التى تضم اليها مجلس الأمة ومجلس الاقاليم وينتخب مجلس الاتحاد السويسرى كل سنة رئيساً يتولى رئاسة المجلس ورئاسة جمهورية هلفسيا السعيدة وليس هو فى الحقيقة الا حميد مستشاريه الستة

ولا تشهد فى بلاط حكومة سويسرا دسائس يراد بها بقاء الحكومة فى أيدي المتولين عليها على نحو ما يقع فى الامم النيابية فان المجلسين السويسريين لا يقلبان الوزارة قط فلا تعهد عندهم الازمات الوزارية التى تسمع بها فى الممالك الدستورية واذا حدث خلاف بين المجلس والحكومة يتفاهمان بحرية اذا لم يتيسر لهما الاتفاق

وينخضع المجلس الاتحادي أي الوزارة لارادة مجلس النواب والاقاليم كما أن هذين المجلسين لا يماحكان ولا يراوغان . فمجلس الامة لا يقلب الحكومة التي ينتخب مستشاروها السبعة أو وزراؤها السبعة كل ثلاث سنين بل يجدد انتخابهم الفصل بعد الفصل لانهم يكونون قد نشأت لهم تجارب مهمة في العمل ورئيس مجلس الاتحاد السويسري أو رئيس الجمهورية ينتخبه رصفاءؤه الستة كل سنة ويعمل واياهم باخلاص وخلو غرض ويجددون انتخابه على رأس السنة وربما مضت الاعوام والرئيس لم يتغير لأنه اذا عمل العمل الصالح وهو لا يعمل غيره بالطبيعة لا يرى من رصفائه من يحسده على مركز الرئاسة

رواتب النواب هنا مقسمة بحسب الجلسات فاعضاء المجلس الاتحادي يتناول أحدهم عن كل جلسة عشرين فرنكا ويمكن أن يبلغ مجموع ما يتناوله أحدهم في السنة ثلاثة آلاف فرنك فقط أما نواب الاقاليم فيتناول عضو البلدة عن كل جلسة ستة فرنكات وعضو القرية سبعة فيكون للواحد منهم على طول السنة من الرواتب من ٢٤٠ الى ٢٨٠ فرنكا في السنة ورواتب مستشاري المملكة ووزراؤها ١٥ ألف فرنك لكل واحد مساناة وراتب رئيسهم أي رئيس الجمهورية السويسرية ١٨ ألف فرنك مساناة ولذلك قد يضطر المسكين اذا كانت له أسرة كبيرة ان يشتغل أحيانا أعمالا أخرى من تجارة وزراعة ونحوها ولكن لا على أنه رئيس جمهورية له سلطة بل بصفته فرد حكمه حكم الأهالي

الاخلاص هو الخلق الجوهري في الديمقراطية السويسرية فالشعب هو السيد ويجب أن يبقى كذلك . وقد اتخذت جميع الاحتياطات لتظهر ارادته بمظهرها ولتكون محترمة على الدوام . حتى ان بعض الاقاليم لاتزال بحسب قاعدة الفيلسوف جان جاك روسو نحافظ على الحكومة التي تحكمها مباشرة بمعنى أن مجلس الوطنيين فيها يلتئم كل سنة فينتخب حكام الاقاليم ويصدق على الحسابات ويقرر القوانين التي أعدها المستشارون الذين انتخبوا في السنة الفائتة

في سويسرا حزبان مهمان حزب المحافظين وحزب الاحرار يتناقشان في مصلحة

البلاد ولكن اذا تولت الاكثريه زمام المجالس لاتنحى على الاقليه بل ترى من مصلحتها ان تقبل اعضاءها في جلساتها وهناك حزب اشتراكي ولكن لا تأثير له لأن الأمة اشتراكية بطبيعتها . قال لي المسيو جان سبيرو استاذ العربية في كلية لوزان: عندنا حزبان وانا من حزب الاحرار ولكني لا أجد فرقاً بين الحزبين يصح أن يعد فرقاً ولذلك فكلنا حزب واحد في الحقيقة . فبارك الله بامة مهما تعددت مناحيها وأصولها وأهويتها ودرجة غناها وأعمالها لا تختلف في المصاحبة الوطنية ولا تتخلف عن الحق قيد شبر

سويسرا : الوطنية والجيش

٥٩

قالت العرب : احرص على الموت توهب لك الحياة وقال المتأخرون من أراد السلم فليكن أبدأ على استعداد للحرب . هاتان القاعدتان جرت عليهما «ويسرا» وبعد فمن يظن ان هذه الامة التي تعيش بمعزل عن الدول وليست لها سياسة خارجية واستقلالها مضمون باتفاق الدول العظمى تتمرن ليلها ونهارها على الاعمال الحربية وكلها مسلحة وكلها محاربة عند الاقتضاء وتستطيع عند أول صرخة أن تجهز ١٨٠ ألفاً من الجنود الذين يحسنون الرماية كأحسن أهلها ويعلمون عما يدافعون ويأتون الى أي مكان من حدودهم في سرعة البخار ثم يستطيعون أن تجهزوا ١٤٠ ألفاً من الدرجة الثانية ومثل هذا العدد في الدرجة الثالثة وتجهزاتهم ليست على الورق بل عددهم وعددهم حقيقة لا شائبة فيها كأعمالهم . قسم السويسريون الخدمة العسكرية الى عدة أدوار حتى لا تثقل عليهم وينقطعوا بتاتا عن أعمالهم ويوتهم ويخففوا عن أمهم تفقة اطعامهم وايوائهم فبدلاً من أن يقضى الشاب السويسري سنتين أو ثلاث سنين تحت السلاح كما هو عند معظم الامم لا يقون في الخدمة الا أشهراً معدودة في السنة الاولى ولكن

المرء يبقى جندياً من العشرين الى الاربعين ويدعى لحمل السلاح والتعلم في مواعيد مختلفة قد لا تتجاوز الاربع السنين وتكون عنده بندقية يتعلم فيها في بيته وحقله ولا يستعملها الا لهذا الغرض . والولد منذ المدرسة الابتدائية الى المدرسة العليا الى الكلية يتعلم التعليم العسكري وهو تحت ملاحظة الضباط الذين يأتون أحياناً للتحقيق عن أمره والاشراف على رمايته وفحص سلاحه الذي تعطيه اياه الحكومة ومن خالف ذلك يعاقب بأشد العقوبات وهيئات ان تجدد مخالفاً .

سويسرا الحديثة ليست محاربة ولا تثير بينها وبين جاراتها أسباب النزاع لان قلة عددها بين أمم كبرى لا يجعل الحرب من مصلحتها ولذلك فاستعداد السويسري للطوارئ وتدريبه على الحرب ووطنيته المشتعلة وفكره الشعبي ليست الى عدااء وحب فتح بل للدفاع عن كيانه فسويسرا كل سنة تعطى منحة لمكتب السلام في برن ولكنها باليد الاخرى تبتاع السلاح الجديد وتجهز جيشها بكل ماتقدر عليه من القوة وتزيد في ميزانيتها البرية سنة عن سنة لم يمنحها الحياد ان تعتمد الى الطرق العملية كسائر أعمالها في فروع الحياة لأن أرضها لا تحصى الا اذا كانت على حال الدفاع بحيث يحترمها جيرانها وبذلك تحفظ استقلالها لا بمجرد العهود التي تداس بالارجل عند ثوران الغضب وهيجان النفوس للفتح وجر المغنم

سويسرا لا تريد أن تكون طعمة سهلة لكل آكل ولا تخاف في الاغلب أن تداومها فرنسا من الغرب ولا النمسا من الشرق بل تحاذر في الاكثر من الشمال تخاف عادية المانيا وان تضمها هذه ذات يوم بالقوة الى أرضها كما فعلت بمقاطعة شلشويك هولستين وهانوفر وهيس وفرنكفورت والازاس واللورين واخوف ما تخاف من عادية ايطاليا من الجنوب ولذلك تقيم على الشمال معظم جيشها وعلى الجنوب المعاقل المدهشة ومنها معقل غوتار والسنبلون . فان كان السويسريون يحمون بلادهم ويفادون بالرجال والمال للذب عن حياضها فذلك لانهم يحبونها حباً يمازج أجزاء نفوسهم ولا شيء أحسن وأضمن للتعلق بالوطن من الاستقلال وحكم المرء نفسه بنفسه .

قال أحدهم : أن سويسرا ليست من البلاد التي تبقى لضرورة في بقائها
كانكلترا واسبانيا بل أنها لم تبقى الا لان السويسريين يريدون بقاءها . نعم
أن الارادة وحب الحريات السياسية قوة من القوى ولكنها ليست كلها جماع
القوى فان سويسرا لم تتألف عرضاً أو لارادة المتعاقدين المتحددين من أبنائها
بل انها اجتمعت لاتفاقها في العواطف والروح وبما لها من التقاليد المتماثلة والماضي
والمجد الذي يتجسم كل حين باسم « غليوم تل » بطلها القديم

و « غليوم تل » هو أحد رجال الثورة الذين اتقذوا سويسرا من ربة
النمسا سنة ١٣٠٧ م وذلك أن طامل الامبراطور النمساوي كان علق قبعة « الدوج »
على رأس خشبة في الساحة العامة في « التورف » وأراد أن يذل السويسريين
بان يسلموا على القبعة كلما مروا بها فابي أن يخضع غليوم تل لهذه المذلة فاستداه
الوالي النمساوي ولما عرف أنه من الرماة الماهرين بالقوس والنشاب حكم عليه جزاء
أبائه أن يضرب سهماً على تفاحة وضعها الوالي على رأس ابن غليوم تل فلم يسمع
هذا الا أن التي سهمه فأصاب التفاحة ولم يصب ابنه بسوء ولما سأله الوالي لماذا
أعد سهمين فقال له الواحد للتفاحة والآخر لك وعندها نادى بالثارات سويسرا
وكان بذلك خلاص البلاد من حكم النمساويين في أوقات مختلفة كان يكتب فيها
النصر للسويسريين لأنهم مدافعون لامهاجون .

غليوم تل نصبت له التماثيل الكثيرة اليوم في بلاد سويسرا فهو مثل غاريبالدي
في ايطاليا أحياء أمته بشجاعته ، ومن أجل هذا التاريخ المعنن بالواقع لا ترى
السويسريين سواء كانوا ممن يتكلمون الألمانية وهم الأكثرية أو الافرنسية
أو الايطالية أو الرومانشية تحدثهم نفوسهم ان ينضموا الى أبناء جنسهم بل انك
ترى السويسري وأبناءه وأحفاده وأحفاداً أحفاده تغربوا في ايطاليا وألمانيا والنمسا
وفرنسا قرناً وأكثر ولا يزالون محافظين على تابعيتهم ، وقد عرض مرة على أحد
علمائهم « ادوار وود » وكان باريزيا في موطنه فقط ، وسويسريا بجنسيته أن
يتجنس بالجنسية الفرنسية لينتخب عضواً في المجمع العلمي مجمع الأربعين المجلدين

فقال والسذاجة طالحة من كلامه : اننى أحب فرنسا وأسكن باريز ، ولكننى سويسرى مات والدى ووالدى فى سويسرا وأنا لا أكون فى المجمع العلمى ، هذه هى الوطنية السويسرية متأصلة فى شفاف القلوب ، ولكنها ساذجة لا تعتمد الصباح ولا التظاهر ولا تجد داعياً للتبجح بها كل حين .

وطنية السويسريين فى صدورهم مكتومة لها أعياد وحفلات ومصانع وتذكارات تذكروهم الساعة بعد الساعة بما بذل أجدادهم من اوراق دملتهم فى دفاعهم عن وطنهم وما يجب عليهم أن يقوموا به ليحفظوا هذا التراث الجميل النادر . دع ما ينشره علماءهم وأدباؤهم من المصنفات الممتعة التى كلها ترمى الى تحبيب وطنهم اليهم وتلقن أبناءهم منذ نعومة أظفارهم التعاليم الوطنى فى المدارس وتلاميذة مدارسهم يتغنون فى كل شارقة وبارقة بالقصائد الحماسية الوطنية التى نظمها الشاعر السويسرى جوست اوليفيه ، ويتلون الفترة بعد الفترة ما وصف الشاعر الكاتب اوجين رامبرت طبيعة سويسرا وجبالها وأوديتها وبحيراتها فيزيد هيامهم بأرضهم .

السويسريون لا يقنعون أن يحبوا بلادهم حباً مجرداً بل يزورونها بعناية واهتمام وعدد من يرحل منهم صيفاً وشتاء ٢٢ فى المئة من مجموع السياح القادمين الى سويسرا ينتقلون فى جبالها وأوديتها وترى العامى منهم اذا اجتاز أرضاً لم يعرفها بعد يقف فى القطار مأخوذاً بما يمر به من الأصقاع بحيث لا يفوته منها جميل واذا ذهبت الى القرى أتاك بعض أهلها بدون طلب منك وحدثوك عما تحب زيارته من المحال البديعة فى جوارهم . فالسويسريون معجبون ببلادهم وحق لهم المعجب وربما كانوا أكثر الأمم المجاورة فى طربهم بما خصت به جبال الألب من المحاسن التى تخلق الألباب .

اشتهر السويسريون منذ عهد غليوم تل انهم فى مقدمة الرماة فى أوروبا لأن بلادهم تستلزم ذلك ولا تكون حربها بالنظر لجبالها الامناوشة وكميتاً فترى فى كل قرية جمعية للرمى وتقام له الأعياد . وكل سويسرى فى سن العسكرية فلاحاً

كان أو ساكن المدينة يصرف مع رفقته يوم الأحد ساعات طويلة في التدريب على الرماية وفي كل بيت بندقية أو عدة بنادق لشبان سويسرا يعدونها ليدفعوا بها عن أنفسهم وبلادهم كأنهم لا يزالون في عهد الاقطاعات يكلف فيها كل واحد بحماية نفسه وأسرته ولكن هذا شأن الامة المسلحة بسلاحين سلاح القوة المادية وسلاح القوة المعنوية العلمية التي لم تكن في القرون الوسطى .

ضباطهم يخرجون من الجيش مباشرة ثم يتعلمون التعليم الحربي وأكثره عملي في الغالب وهم في الاكثر من أبناء الفلاحين يعاشرون الافراد ويواكلونهم وطعام الجنود من أحسن ما يعدهولهم . مطالبخ تنتقل معهم في المناورات فتراهم في كل وقت يتناولون الطعام الصحي الفاخر الذي لا يوجد الا في المدن وفي حال التوطن والرفاهية وجنديهم يقبض كل يوم ٨٠ سنتيماً في المشاة وفرنكا في الفرسان وهو أحسن راتب يقبضه حندي في جميع أمم أوروبا لان هذه عجزت عن اطعامهم والباسهم لكثرتهم بدون فائدة دع أدرار النفقة عليهم ولا يبتعد عن أهله من الجند الا من دخل في جيش الفرسان فالسويسري سعيد في كل حال من أحواله مرتب في حله وترحاله ممتع باستقلاله ناهض في عامة أعماله ولذلك لا تراه يشكو شيئاً على نحو ما يشكو ابن البلاد الراقية الاخرى الذي يروح تحت أثقال المغارم والمظالم لينفق على بحريته وبريته . قال لي كثيرون نحن سعداء في بلادنا فكنت أقول لهم بارك الله بسعادتكم التي أحرزتموها بمجدكم ورزق شرقنا المسكين بعض ما أنتم فيه انه كريم جواد

سويسرا: المذاهب والقوميات واللغات

٦٠

الدين واللسان من جملة المظاهر المهمة التي تدل على روح شعب وقد كان لها في الارض السويسرية بفضل التسامح والاتحاد ومراعاة حرية الغير مشاكل في

الماضى ولكنها اليوم قد انحلت صعوباتها وتعبدت عقباتها وكان الدين ثم اللسان شعار الوطن الاصغر ثم امتزج أهل كل دين وأهل كل لسان امتزاجاً في البلاد فلم ينشأ في سويسرا مشا كل تذكر كما نشأ في بعض البلاد التي تنازعها البرتستانتيّة والكاثوليكية أو الارثوذكسية والاسرائيلية أو مذاهب أهل السنة والشيعة في الاسلام .

المذهبان السائدان في سويسرا هما البرتستانتيّة والكاثوليكية ولما انتشر المذهب البرتستانتي في القرنين السادس عشر والسابع عشر على يد دعاة من أبناء البلاد أخذت كل مقاطعة تجعل مذهبها رسمياً واجبارياً وتدعو اليه في أرضها وتحتم على الاهلين حضور الصلاة به وان كانوا لا ينتحلون هذا المذهب . وهو شيء من الشدة نشأ للسويسريين بانتشار المذهب البرتستانتي ثم أخذت المدنية تعدل من شدته والبرتستانات أكثر عدداً من الكاثوليك بقليل .

قال دوزا : اذا كان الدين يؤثر أحياناً أثرًا ظاهراً في روح أمة فان الشعب يكيف الدين على صورته مع توالي الأيام والامور الثاني ظاهر في سويسرا وان لم تكن تخلو من الاول ولا جدال بان المقاطعات الكاثوليكية بمجموعها أكثر انحطاطاً من المقاطعات البرتستانتيّة والانحاء الاقل نظافة هي كاثوليكية أيضاً والمقاطعات الكاثوليكية هي التي احتفظت بالأكثر بلهجاتها وان فكر حرية البحث الذي دعت اليه البرتستانتيّة قد أثمر واينع فان التعليم العام في البلاد البرتستانتيّة أكثر انتشاراً مما هو في غيرها وأفكار التسامح مقبولة فيها بسرعة ورجال المذهب البرتستانتي قلما يعنون بالسياسة . وليست هذه الفروق مهمة فان تأثير عقل الامة في المذهبين هو أشد ظهوراً .

السويسري متدين حق التدين ولكن دينه في قلبه وهو لا يحفل على الجملة بالظواهر ولذلك ناسبت البرتستانتيّة مزاجه وللقيام بالفروض الدينية منزلة من حياة السويسري المنظمة كما للأعمال الدنيوية كذلك فتراه يذهب صباح الاحد الى الكنيسة كما يذهب في المساء الى القهوة بكل رزاة وتماسك أو كما يذهب الى

عمله خلال أيام الاسبوع . والرجال والنساء يحضرون في القرى والمدن في البيع لسباع القداديس أو المواعظ وربما كان النساء أكثر عدداً في الكنائس الكاثوليكية كما لحظت من الحضور في بعض كنائس لوزان الكبرى ولكن الكنيسة البرتستانتية مع هذا تفص بالمستمعين والعابدين الراكعين وكلهم يستمعون باحترام لما يلقي عليهم من المواعظ .

ذكرت الفروض الواجبة نحو الخالق في جميع البرامج المدرسية ومعظم المدارس تقيم الصلوات وليس لرجال المذهب البرتستانتى في سويسرا ارتباط بسلطة خارجية وكذلك أهل المذهب الكاثوليكي ليس لهم أساقفة ورؤساء عظام بل ان كل واحد مرتبط بالمقام البابوي ارتباطاً خفيفاً لا يشبه ارتباط سائر البلاد الكاثوليكية في أوروبا وأميركا وآسيا وأفريقية مثلاً فالسويسريين غلاة في حب الاستقلال في كل شيء حتى ان رهبانهم وقساوستهم يلبسون لباساً يخالف البسة غيرهم في الامم الاخرى . وترى الكل متشابهين متقاربين مما يذكر ان سويسرا كانت في القرون الوسطى مهد التسامح وان وقع لها في القرن التاسع عشر ان نشبت فيها حرب دينية من أجل القانون الذي وافقت عليه الاكثرية بنفي الرهبنة من سويسرا في حين لم تنشب في أوروبا حرب دينية في ذلك القرن ومع ذلك تجد جنيف برتستانتيتها وفريبورغ كذلك في تمسكها بكثلكتها كأنهما رومية بكثلكتها ولم تمض على هذه الحرب خمس وعشرون سنة بفضل تلقين المدارس فكر التسامح حتى أصبحت سويسرا أكثر بلاد أوروبا تعلقاً بحرية الوجدان والعبادة على صورة منظمة حرة لا مثيل لها .

اعتبرت سويسرا حتى اليوم الكنيسة ادارة من ادارات الحكومة هذا مع أن الحياة الدينية فيها مادة من مواد الحياة العامة فجعلت الاديان تحت سلطة الحكومة مثل المصارف والسكك الحديدية ولكل مقاطعة قانونها الاكبركي الذي تنظر فيه السلطة التشريعية وتقر عليه أو تعدل منه مطلقة الحرية تحت بعض شروط يقتضيها الدستور السويسري من مثل حرية الوجدان وحرية التدين

وغير ذلك. ورؤساء الدين بحسب المقاطعة برتستاناً كانوا أم كاثوليكاً تدفع لهم الحكومة رواتب تستوفيها من أهل هذا المذهب . وللحكومة حق التدخل في مسائل العبادة والطقوس وإذا أرادت فيكون القول الفصل في بعض المسائل لمجلس الامة . وتدخل الكنيسة البرتستانتية في أعمال الحكومة غير محسوس في سويسرا الالمانية البرتستانتية مثل ماهو في سويسرا الكاثوليكية الفرنسية وغيرها

وبعد حرب سوندربروند اتهم اليسوعيون بانهم أوقدوا الفتنة الدينية في البلاد السويسرية فطردوا منها وقد حظر عليهم دستور سنة ١٧٤٨ الدخول الى سويسرا بيد أنهم دخلوا في الحقيقة الى فريبورغ بعد عشر سنين . ومدرسة اللاهوت في هذه المدينة يديرها الدومنيكيون في الظاهر ولكنها بيد اليسوعيين في الواقع ولاهوتها هو اللاهوت اليسوعي دع من هناك من الرهبان الذين طردوا من فرنسا وجاؤوا فريبورغ وغيرها من بلاد الكتلحة السويسرية يعلمون ويعظون . ولمعظم الكليات السويسرية صفة دينية ظاهرة عليها فاذا كانت كلية فريبورغ كاثوليكية محضة فكلية لوزان وكلية جنيف برتستانيتان

هذا أجمال ما يقال في المذاهب في هذه البلاد أما القوميات أو الجنسيات أو العناصر المتألفة منها فان نصف سويسرا روماني أو لاتيني والنصف الآخر جرمانى وربما كان المراك بين هذين العنصرين على صورة لم يعرف بها في بلد آخر في أوروبا منذ أوائل القرون الوسطى فقد اختلط العنصر اللاتيني بالجرمانى وعلى العكس اختلاطاً كبيراً ومن السويسريين الفرنسيين من تألموا أى أصبحوا ألماناً بلسانهم على طول الزمن ومن الالمانيين من تفرنسوا ويكاد لا يتجاوز اللاتينيون أى الفرنسيين والاطليان والرومانش في سويسرا مليوناً ومائتى ألف وبقية الاربعة ملايين هم المان عاشوا حتى اليوم بحرية تامة في استعمال السنهم بفضل استقلال المقاطعات وعدم المركزية وربما كان الالمان أكثر توسعاً في البلاد وهم الراجحون في التبسط في ربوعها على الزمن حتى أصبح اللسان الفرنسي خاصاً

بغرب البلاد والرومانشى بشرقها والايطالى بجنوبها والالمانى بشمالها ويقدر
عدد الالمان المهاجرين الى المقاطعات الفرنساوية بمئة ألف وعدد الفرنسيين
المهاجرين الى المقاطعات الالمانية بنخمين ألفاً .

ولم تعترف الحكومة رسمياً بلغة الرومانش كما اعتبرت الالمانية والافرنسية
والايطالية وكتبت معظم الاوراق الرسمية بهذه اللغات الثلاث وذلك لان المتكلمين
بها قلائل ولأنها أشبه بلهجة خاصة لأدييات لها وأهلها يتزوجون بالالمان
ويختلطون بهم وكل سنة ينحف عدد المتكلمين بلسانهم . وربما كان الرومانشيون
مثال مملكة أضاعت لغتها على التدريج بدون أن تضع استقلالها أضاعت لغتها
واندمجت في غيرها على خلاف الطاليان وعددهم في سويسرا اللاتينية زهاء
٢٣٠ ألفاً فانهم احتفظوا بعنصريتهم لانهم احتفظوا بلغتهم واحتفظوا بلغتهم لان
لها آداباً خلافاً للرومانشية

ومسألة الألسن غريبة في سويسرا لا تؤثر في الامور الادارية لان حقوق
الاقليّة مصونة كحقوق الاكثرية . ومن أعجب الامور ان اللسان في سويسرا
وان كان من مواد الوطنية المحلية فليس شارة من شارات الوطنية الجامعة .
واختلاف الالسن ليس من العوائق في ادماج السويسريين في قالب الاخلاق
المتحدة وليس في اللسان أدنى مادة من مواد الاتصال فالسويسرى الفرنساوى
في مقاطعتى الفوونوشاتل لا يريد أن يصبح فرنسواً بتابعيته وكذلك السويسرى
الايطالى لا يحب بوجه من الوجوه أن ينضم الى ايطاليا ومثله المانى مقاطعات
شافوزوتوركوفى وسان غال لا يريد أن ينضم الى المانيا

ولولا أحوال نادرة لصح أن يقال أن سويسرا في جميع أدوار التاريخ قد
نالت أعظم الحرية في استعمال اللغات في جميع الاعمال الخاصة والعامة أما اليوم
فان الحرية موجودة مبدئياً ولكن احترام حقوق الاكثرية والاقليّة على أسلوب
معقول تحت نظارة جمعيات تتولى النظر في مسائل اللغات المحلية وانتشارها
وتدافع عن حقوق الاكثرية ولا تغمط حقوق الاقلية في كل بلد يسبق غيره

في عدد المتكلمين بلغة دون أخرى وكانت كتابة جميع الرسميات والعموميات
بعده لغات في القديم للافهام والتفهيم أما اليوم فانه يراعى بما يكتب حق
السواد الاعظم

اللغة الرسمية في كل ناحية هي لغة أكثرية السكان وبهذه اللغة تكتب
مداولات المجالس البلدية والاعمال الادارية التي تعلق ليقرأها الجمهور وبها تكتب
أسماء الشوارع والمصانع ويدرس في المدارس ويلقى الوعظ والقداس في الكنائس
ومن النواحي من اختارت برضاها التساهل مع أهل اللغة الأخرى في بعض
هذه المسائل كأن ترك مقاطعة المدينة اللغة الأفرنسية تجعل لسان التدريس
في مدرستها أو أن سكان مقاطعة رومانشية يقدر لهم بالألمانية . وللمنتخبين
في المقاطعات المختلطة أن يتكلموا بأحدى اللغتين كما يشاءون في جميع المداولات
وتكتب الاعلانات وغيرها باللغتين وإذا بلغت الاقلية العدد الكافي تكون لها
مدرسة بلغتها وكنيسة تعظ وتقدس بلسانها . وفي الكتابات الخاصة وعناوين
الدكاكين تركت للناس حريتهم . وما يسري على الناحية يسري على المديرية حذو
القذة بالقذة أي تكون اللغة الرسمية لغة الأكثرية والاقلية لا تحرم من حق التفاهم
ويطلب الى الموظفين في جميع المقاطعات المختلفة معرفة لغتين وتكثر فيها
الاعلانات وأسماء الاماكن باللغتين ويقبل استعمال اللغتين في المجالس وعمال
السكك الحديدية يبدأون في كل مقاطعة بلغة البلاد في مخاطبة الركاب ثم يثنون
ويثلاثون اذا اقتضى الحال بغيرها وجميع القطارات تكتب عليها اللغات الثلاث
الا الإيطالية فانها تنقص من بعض القطارات التي تمر قليلا في البلاد الإيطالية
السويسرية وللغتين الألمانية والأفرنسية المساواة التامة تكتب جميع أسماء المحطات
وغيرها بهما ويجعل التقدم للغة البلدة الشائعة

وفي سويسرا سبع كليات منها ما يدرس بالألمانية ومنها بالأفرنسية وفي بعضها
دروس مختلفة باللغتين فكلية بال التي انشئت سنة ١٤٦٠ تدرس بالألمانية
وكذلك كلية زوريخ التي انشئت سنة ١٨٣٣ وكلية برن التي انشئت سنة ١٨٣٤

أما كلية جنيف التي أسست سنة ١٨٧٣ وكلية لوزان المؤسسة سنة ١٨٩٠ وكلية نوشاتل التي تمت سنة ١٩٠٩ وكلية فريبورغ التي قامت سنة ١٨٨٩ فانها تدرس بالفرنسية وفي كلية فريبورغ عدة دروس مختلطة بين اللغتين أعضاء مجلس الاتحاد السويسرى سبعة ومنهم رئيس الجمهورية خمسة منهم المان واثنان فرنسيان وقراراتهم تكتب باللغتين وفي سويسرا ثمانية فيالق اثنان فرنسيان وخمسة المان وواحد ايطالى ورومانشى ولغة التعليم فى الفيلق الأخير الالمانية والادارات الخاصة تتبع هذه القاعدة لارضاء قرائها من ذلك ان نقابة أصحاب الفنادق فى سويسرا الالمانية لم ترض ان تغير أسماء قوائم الطعام من الالمانية الى الألمانية لأن معظم الداخلين الى البلاد يفهمون الفرنسية أكثر من الألمانية حتى ان الالمان أنفسهم يفضلون أن يروا أسماء الألوان بالفرنسية لا اعتقادهم بان المطبخ الفرنساوى هو خير المطابخ وألوانهم أجمل المأكول وكذلك ترى أصحاب الفنادق يصدرون جريدتهم باللغتين . كل ذلك يدل على جوهر أخلاق السويسريين وان المحافظة على حق أو على حرية ينبغى أن يكون على قدم المساواة سويسرا بابل اللغات لان فيها على صفرها منهن أربعاً وفى الخمسة سبع وفى الثمانية سبع أمهات الآن ماعدا اللهجات ولكن سويسرا والنمسا حلتا هذه المسألة الحل المعقول العادل فهل نوفق نحن الى حلها كذلك . والعرب هم السواد الأعظم وقد أمرنا باتباع الاكثرية ولاغتهم ميزات ليست لغيرها والامم الدستورية تراعى فيها قبل كل شىء حقوق الاكثرية

سويسرا: كيف تجلب الغريب

٦١

كانت بعض البقاع فى سويسرا منذ نحو ثلاثين سنة من أفقر بلاد أوربا فبفضل ما أنشئ فيها من الفنادق وبذل من المساعي لاستجلاب رضى السياح

والمصطافين والمشتين اغتنت تلك الاصقاع وأصبحت سويسرا وجل اعمادها على القادمين اليها من أقطار الارض حتى لقبوها « فندق أوروبا » ولكن هذا اللقب وهذه الثروة التي يبذرها فيها الاجانب لم تحصلها عن عبث فان علم جلب الغرباء وامساكهم وحملهم على العودة ثانية بكمية أوفر قد أصبح في سويسرا علما حقيقيا له أساليبه وقوانينه واحصاآته وجرائده ومنشوراته المنوعة الظريفة وكلها متناسقة متساوقة كآلة الساعة . وقد علمت السويسريين التجارب أن السائح يستمال بست قواعد من أحسن استخدامها اغتنى وأفاد واستفاد

القاعدة الاولى : أن يزرع المرء كثيرا ليحصد أكثر فقد جعل السويسريون لنشر الاعلانات بالكلام والصور المقام الاول ماعدا اعلانات المحطات والمنشورات المصورة وغيرها من المقالات التي تدفع عليها الاجور الباهظة أحيانا في صحف سويسرا وغيرها والمقصود منها الاعلان . وكل ادارة وكل نقابة توزع منشوراتها مجانا وكثيرا ما تكون كبيرة الحجم يحتاج طبعها لمال كثير وعناية تامة من استجادة الورق والصور والجلود وفيها من كل شيء أطيبه بحيث تستدعى النظر اليها ولو بعد مدة وتنفق على ذلك كله نفقات هائلة ولكن الثمرات التي تعود منها قد قدرت بثلاثة أضعاف أو أربعة

القاعدة الثانية : جميع ترا كيب هذه الآلة متضامنة ولا تنافس بينها . وهذه قاعدة اقتصادية مهمة وهو أن كل صاحب فندق لا يتحدث نفسه أن يحتكر جميع السياح بل يهتم لانجاح المدينة أولا ثم الناحية وأرباضها أو النجاح العام وهذا لا يتم الا بالتضامن بين أبناء هذه الحرفة فيشترك مثلا جميع أرباب الفنادق في بقعة ليعملوا عملا يسر جمهور النازلين في فنادقهم وأنزالهم ويجلبوا السرور والراحة لهم على السواء ومثل ذلك التضامن نراه على أتمه أيضا بين الادارات والشركات المختلفة لا تحاسد بينها ولا تعار في المصلحة وقد ألف معظم أرباب الفنادق نقابات لهم فتاؤها مديرية مديرية أولا ثم تألفت المديريات كلها نقابة واحدة آخرأ فأصبحت فنادق سويسرا كالبنيان المرصوص ومثل ذلك أصبحت بعض القهاوى ومحال

السباع ومحال اعطاء التعليقات وشركات التضامن نقابات خاصة يأتون كل ذلك على شرط أن يرضى السائح ويرتاح

القاعدة الثالثة : أن تراعى حال جميع الطبقات بحيث يرضى كل سائح بالمعاملة التي يراها (١) وذلك لأن سويسرا أدركت أن الرحلات اليوم قد أصبحت ديمقراطية أيضاً وإن لم توسط غنائمهم أكثر من الأغنياء أرباب اليسار بل هم أخلص وأشرف وعلموا بالاحصاء أن واحداً فقط في المائة من السياح الذين يصطافون أو يشتون في بلادهم يركب في الدرجة الأولى في السكك الحديدية و ٨٥ في الدرجة الثالثة ولركاب هذه الدرجة ميزانية مقررة إذا قصدوا كثيراً في مادياتهم لا يعاودون رؤية تلك البلاد وفي سويسرا فنادق وانزال على اختلاف أذواق الناس واقتدارهم فمن أراد الرفاهية يدفع ثمنها في قصور هي أحسن من قصور الملوك ومن أحب التوسط كان له ما أراد وكذلك من أحب أقل من التوسط وإن لم أسمع بأن انساناً يمكن في أوروبا أن يأكل ويشرب وينام بفرنكين وهذا ما أعلن عنه مؤخراً إحدى البيوت التي تنزل الاضياف عليها في لوزان

(١) أتمنى لكل عربي يريد أن يصطاف أو يشتو أو يسبح في أوروبا أن يطيل مقامه في البلاد السويسرية أكثر من غيرها من البلدان الأوروبية وإن يوفر صلاته مع هذه الملكة الصغرى لأنها جمعت آيات المدينة الكبرى ومن الأسف أن عدد المهاجرين من السويسريين إلى البلاد الأخرى يعدل بخمسة آلاف في السنة ولبس منهم بضعة يأتون بلاد الشام مثلاً ليشاهد أبناء قومي الفرق بين الأوروبيين في اخلاقهم وحسن معاملتهم . قلت يوماً لرئيس جامعة لوزان إننا مع الأسف لم نشهد في بلادنا سويسرياً منذ جئتم في القرون الوسطى مع من جاء من الصليبيين وارسام ماث من شبابكم واشرافكم يقاتلوننا مع من يقاتلون قال : نعم ذهبنا اذذاك إلى قطركم ولكن عدنا ممزقين آب عشرتنا واحداً فنحن لا نريد أن نأود ماسبق لأجدادنا ولو متجرين مستعمرين لاغازين فاتحين . وقلت لأحد اساتذة جامعة جنيف ممن احسن ظنه بالاسلام والمسلمين في كتبه ومحاضراته ان من كتبوا مثلكم بدون تحرب عنا من الأوروبيين قلائل جداً فالعلم يشكركم على اخلاصكم وصدقكم واكدوا ان معظم من يكتبون متأثرين بعوامل السياسة من الأمم الأخرى وإن ظهروا في مظهر على مخالفونكم في رأيكم فقال : هذا ما عرفته بعد البحث والسياحة والاختلاط برجالكم وفرق كل ذي علم عليم فتأمل .

القاعدة الرابعة : النظر أبداً الى راحة السائح واظهار العناية بأمره (١) فقد غنى السويسريون ان يسهلوا جميع مصاعب السفر على المسافر فيرى هذا أهم اللغات الاوربية الرئيسة يتكلم بها في المحطات والفنادق والمخازن الخ والبريد من أسهل ما يمكن وفي زهاء ١٠٧ مدينة وبلد من سويسرا مكاتب للاستعلامات للغريب والقريب يسأل الانسان فيها عما يشاء مجاناً وقد نظمت بمعرفة الشركات المحلية ولا عمل لعمال هذه المكاتب الا أن يجيبوا الناس عما يسألون من الصباح الى المساء . والشعب يبدى العطف على الغريب والعناية بأمره فالسويسريون اذا لم يكونوا في رقة الطليان بالاحتفال بالغريب والأخذ بيده فيما لا يعلم ومرافقته مئات من الأمتار أحياناً لدلالته على طريق أو غيره فهم وسط في ذلك فان الواحد منهم يشرح لك محل مقصدك بأوضح عبارة ممكنة واذا شكرته لا يرى أنه يستحق الشكر

القاعدة الخامسة : أن يعرض كل شيء أمام السائح من دون أن يعجز بمطالب مبرمة . وذلك أنك تصل الى المحطة فلا تجد جمالا بل أنت تصرخ جمال فيجيبك

(١) منذ وصلت الى مودوسولا على الحدود الايطالية الى ان خرجت من سويسرا عن طريق جنيف لم اشهد نقداً يصح ان يوجه الى احد أو الى ادارة سوى اللين واللفظ بالغريب . واذكر انني ركبنا القطار السريع من ميلانو وقت العصر وسألت مأمور المحطة متى يصل القطار الى لوزان فاجابني في الساعة الحادية عشرة ليلاً جلست في المركبة وجدي وكان عدد الركاب قليلاً فبقيت فريداً في الدرجة الثانية وليس لهذا القطار السريع سوى درجتين اولى وثانية كما هي معظم القطارات السريعة في اوربا فلما قرب نصف الليل سألت مأمور القطار عن وقت وصولنا الى لوزان فقال لقد قطعناها اما رأيت كيف وقفنا بها بضع دقائق قبل الحادية عشرة فقلت سامح الله المأمور الايطالي فقد قصر في بيان ساعة الوصول بالضبط فقال لا بأس من ذلك فالك تنزل في فالورب وتنام هناك وانت هل كان احد في انتظارك على المحطة في لوزان قلت اللهم لا . قال : اذأتبيت في فالورب وفيها نزلان ومن الغد تعود الى لوزان وانا لا ادفئك اجرة عن المسافة التي ركبناها فوق تذكرتك لان ما جرى ليس من صنعك نم انزلني من القطار لما وصلنا الى فالورب وحمل لي أحد الصندوقين اللذين كانا معي وحملت انا الآخر فابقيناها في محل الامانات في المحطة وخرج معي ودلني على -حت الفندقين وسمى لي اسمهما وخبرني بين احدهما ولما شكرته قال لي هذا بعض مايجب فانظر بالله عليك الى هذه الاخلاق التي قلما تراها من خادمك دع من ليس بينك وبينه صلة ولا يعرفك ولا تعرفه وليس هو بمكلف ان يضع وقته معك على هذه الصورة في مثل ذاك الوقت والبرد قارس للغاية

ولا تجدد عاملاً من عمال الفنادق بل تجد لوحة موضوعة في مخرج المحطة فيها أسماء الفنادق في البلدة على اختلاف درجاتها ولا تجد حوزياً يريد أن يركبك في مركبته ولا سائقاً يريد أن يستأقك في سيارته بل إذا أنت طلبت واحداً منهم أتاك سريعاً بادب . أما وجود الشحاذين الذين يطلبون صدقة كما تشاهد في إيطاليا فهذا لا أثر له لأن الشحاذة ممنوعة هنا أكثر من فرنسا ولا تجد أحداً يتعرض لك لابتغاء شيء منه وتحسين بضاعته بل تراها على اختلاف أنواعها معروضة في الزجاج وقد كتبت عليها أسعارها وهذه أخصر طريقة وأشرفها في قاعدة العرض والطلب وهكذا بائع المرطبات والمشروبات يكتب عليها أسعارها ويجلس في المحطات بحيث تراه ولا يسألك شيئاً .

القاعدة السادسة : أرضاء جميع الأذواق والحاجات حتى الغريب منها واجتناب ما يكدر وإذا وقع خلاف فیراعى ذوق الاكثرية . ولاجل استمالة قلوب السياح عنى السويسريون بحسن الانتفاع من بلادهم من كل وجه وضاعفوا المسليات والمفرحات فتقرأ في نشراتهم التي يستولون بها على عقل الغريب ما يشير الى أن في بقعهم ما يرضى جميع المشارب والامزجة من أرباب الصفاء الى طلاب الخلاء الى المولعين بالالعب الرياضية الى الراغبين في التصعيد في جبال الالب الى من يريدون التسلق الى من يرغبون في التعليم الى من يؤثرون الوحدة الى المصورين والطبيعيين والأثرين وكل واحد يخاطبونه بما يشتهي ويدلونه على ما يهيمه

نم وفروا الراحة لجميع الأذواق وقاموا بما يرضى الأرواح والاشباح فترى أوقات الأطباء معينة مذكوراً الى جانبها أوقات القسايس والمواعظ وعنوان الطبيب مع عنوان الكاهن أو الواعظ . ولا يأتون ما تشمز منه نفس السائح حتى ان دفن الموتى لا يجري في أوقات الصيف الا قبل الشمس حتى لا يقع نظر السائح على ما ربما تشمز منه نفسه فيذكر الموت في بلاد لا يجب أن يكون فيها الا الصفاء والرخاء وكثير من هذه الأعمال تقوم بها شركات لأن فكر الاشتراك منتشر للغاية عند السويسريين فمن شركاتهم شركة المنتدى الأدبي السويسري وهذه عنيت

بتربية الأدلة وتعليمهم ليصعدوا مع السياح في جبال الألب وقد فتحت لتعليمهم ثلاث مدارس في أهم البلاد الجبلية وضمنت لهم حياتهم بمبلغ يربو على ثلاثة مليارات وربع من الترنكات وعددهم نحو ٩٠٠ يدفع لهم المنتدى في السنة نحو نصف التقاسيط وهناك شركات لا تحصى في كل مديرية لتحبيب البلاد الى الأمم ونشر ما ينبغي عنها من مآلهم و. بما أعان بعضها المجالس البلدية على تحسين حالة البلد أو القرية اذا كان هناك نقص يجب تداركه لاستجلاب رضا الغريب فكان من أثر هذه الجمعيات تكثير سواد القادمين على السويسريين سنة عن سنة .

والحكومة لم تدخر وسعاً في هذا السبيل فبذلت الأموال عن سعة في المدن والساكنة فتحت الشوارع الجميلة وجعلت الأرض وعبدت الأرصفة الفسيحة وأنشأت المتنزهات الظليلة والحدائق العامة وأقامت فيها المقاعد الكثيرة ليجلس عليها من أحب وأدخلت الكهرباء الى كل مكان وكذلك التلفزيون والمياه الطاهرة النقية وأقيمت القهاوى المهمة في جميع المحال التي يلحظ أن المسافرين يقصدها

وقد أعد السويسريون جميع الألعاب الرياضية التي يحبها الانكليز كالتينس والفوت بول وغيرها دع أيام الشتاء الترحلق والتدحرج في الثلج (لالوج والسكى والباتناج) . عادة أولع الغرييون بها تقليداً للانكليز وكل سنة يموت في خلالها من المرتاضين المئة والمئتان ومع هذا ترى النساء والرجال يرتاضون هذه الرياضة الخطرة ويزيد عددهم سنة عن أخرى . وبذلك كثر ترداد الناس الى سويسرا في الشتاء ولا سيما الانكليز والاميركان . ويتدر عدد من يقصد سويسرا كل سنة بزهاء مليوني نسمة فاذا فرض ان كل واحد ينفق عشرين ليرة فيكون المجموع أربعين مليوناً تأخذها سويسرا في أشهر معدودة من السنة من الالماني والانكليزي والروسي والنمساوي والمجري والفرنساوي والاطالي والاسبانيولي والبرتغالي واليوناني والمصري والهولاندي والاميركاني والبلجيكي والسكاندينافي وغيره وللألمان المقام الأول في كثرة العدد وهم يؤثرون النزول في البيوت لخص العيش فيها

ويقدرون عدد الفنادق الكبيرة بزهاء ألفي فندق في سويسرا كلها من الطراز الاول والثاني أما الفنادق البسيطة والبيوت فهذه أكثر من أن تعد وما وصلت هذه الصناعة في إقراء الضيوف الى هذا الحد من الارتقاء الا بالثبات والعمل والتفنن والعلم حتى أصبح السويسري معلماً للامم في صناعة الفنادق وكثير من مدن أوروبا وحماماتها المعدنية ومنتزهاتها البحرية بيد أناس من السويسريين .
ويقدرون عدد السرر الموجودة على الدوام في هذه الفنادق بنحو مئة وثلاثين ألف سرير وعشرة آلاف سرير احتياطية

وما برحت شركة الفنادق السويسرية منذ أسست سنة ١٨٨٢ وهي تتفنن في خدمة الفنادق والانزال واستجلاب أنظار العالم المتمدن ولها جريدتان لبث أفكارها توزيعها مجاناً دع المنشورات والكراسات والكتب التي لا تقصر في توزيعها ومما أنشأته مدرسة لتعليم صناعة الفنادق يتعلم فيها مدير الفندق تعليماً على أسلوب معقول وذلك لان ضرورة المباشرة وحاجات الزبن وصعوبة الحياة الحديثة تجعل صناعته مشكلة يوماً بعد آخر ولذلك أحدثوا مدرسة داخلية في ضواحي لوزان واسعة الاطراف مطلة على البحيرة وفيها محال للالعاب الرياضية وجعلتها داخلية وشددت قانونها فقضت بان ينام طلبتها في الساعة العاشرة وتطفأ المصابيح ويمتنع فيها جميع أنواع اللعب بالورق والقمار ومنعت التدخين والخروج بدون رخصة وان يذهب الواحد الى غرفته حتى في النهار بدون ترخيص وأذنيختلف الى الاماكن العامة وأجرة المدرسة أو ثمن الاكل فيها فقط ١٢٠ فرنكا في الشهر لابن سويسرا و ١٥٠ للغريب ومدة الدراسة ثمانية أشهر ويسأل فيها الطالب في الاكثر في اللغات الحية ويجب أن تكون سنه من ١٦ الى ١٨ وتدرس في هذه المدرسة الفرنسية والانكليزية والالمانية والايطالية والحساب والجغرافيا (الجغرافية العامة وجغرافيا طرق المواصلات) وتاريخ سويسرا والتعليم الوطني وحسن الخط والحساب (أصول معاملة الفنادق والمعاملات التجارية على أصول الدفاتر) ومعرفة الحاصلات ونظريات

في الخدمة ودروس في التنظيم وحسن الهندام وتقديم الطعام وحفظ الصحة والرياضة البدنية والالعاب والرقص . وبعد أن ظهرت فوائد هذه المدرسة أنشئت عدة مدارس في سويسرا كلها للوفاء بهذا الغرض ولكن الظاهر أن مدرسة لوزان أرقاها

وأنشأت شركة الفنادق تعلم أناساً فن الطبخ وعهدت الى خبراء يمتحنون من يريد الدخول في هذه الصناعة بمد أن ينال شهادة منهم بتقدمه فيها . ويقدرون رؤوس الاموال التي وضعتها الفنادق بنحو ثمانمائة مايون فرنك وما برحت على ازدياد وأرباحها كذلك في اعتدال لان السويسري يرضى بالربح القليل جرياً على ما تستلزمه القاعدة الاقتصادية . وتختلف أجور الفنادق فيها ما يدفع فيه الواحد في اليوم مائتي فرنك ومنها ما يأكل فيه وينام كل يوم بأربعة فرنكات وكل على حسبه ويقدرون عدد المستخدمين في الفنادق بزهاء خمسة وثلاثين ألفاً معظمهم من النساء وفيهم الغرباء يدفع اليهم ١٦ مليون فرنك عدا الحلاوين التي تقدر بثلاثة أضعاف هذا المبلغ ومن الصعب تقدير ما تربحه البلاد كلها من السياح والمعروف ان أرباحها من ذلك تجيء بعد أرباحها من صناعة الحرير والتطريز والساعات اللهم الا اذا حسب من ينتفعون من الغريب بالواسطة فان أرباح السياح يكون لها المنزلة الأولى وبها اغتنت سويسرا بعد ان كانت فقيرة .

طول الخطوط الحديدية في سويسرا نحو خمسة آلاف كيلومتر اي ١٢ كيلومترا في كل عشرة آلاف متر مربع وقدرب ٩٥ مليوناً عدد من ينتقلون كل سنة على خطوطها ولها طريقة جميلة في اعطاء أوراق اشتراك فيدفع الواحد ٤٥ فرنكا يأخذ بها ورقة في الدرجة الثالثة يركب بها أي قطار أحب مدة خمسة عشر يوماً ويدفع ٦٥ في الدرجة الثانية و ٩٠ للدرجة الأولى . هذا عدا الخطوط الكهربائية والخطوط الحديدية الجبلية والحوافل . ولسويسرا ١٢٠ سفينة تجارية في ١٧ بحيرة كبرى من بحيراتها تغدو وتروح في نقل الركاب تنقل زهاء ثمانية ملايين راكب في السنة وهي دائماً تنتظر القطارات والقطارات تنتظرها . والبرد متصله علائقها

مع السكك الحديدية وفيها جميع أنواع الراحة للغريب ومرا كز البرد وصناديقها كثيرة حتى لقد ذكرت احدى الصحف مؤخراً ماثاله : ينم عن ارتقاء الشعب كثرة مواصلاته البريدية وكثرة ما يبتاعه من الصابون وقد امتازت الدانيمرك بكثرة بردها فان لكل ٢٣٤ سا كنأ فيها صندوق بريد وفي سويسرا لكل ٢٨٦ نسمة صندوق ولكل ٣٢٠ في لو كسمبرغ صندوق ولكل ٤٢٤ المانيا صندوق ولكل ٤٧٢ فرنساويا صندوق ثم تجيء النمسا فانكلترا فالبرتقال أما العثمانية فقد أحرزت الدرجة الأخيرة اذ ليس عندها غير صندوق واحد لكل ٦٩،٣٠٠ عثمانى ! هذا بعض ما عرفته عن سويسرا وما يأتيه الافراد والحكومة لجلب السياح اليها حتى أصبحت فندق أوربا حقاً وصدقاً

سويسرا : تفننها في الاعلانات

٦٢

لا ترى في مدينة سويسرا نقصاً في فرع من فروعها وعمل من أعمالها فكل مخزن وكل دكان وكل ادارة وكل معمل وكل شارع وكل حي وكل دار وكل منزل صغير وكل دائرة وكل مدرسة بل وكل مستراح وكل شيء كتب عليه اسمه وعمله وما يجب للداخل اليه والمعاملة معه بحيث لا يحتاج الانسان أن يسأل أحداً وربما اذا ترويت قليلاً بالنظر لوصوح هذه الكتابات تطوف سويسرا كلها وقلما تطلب من يدلك على من تقصده اذا كانت نمرة محله واسم شارع في جيبك . خاصية غريبة قلما تجد مثلها حتى في كثير من البلدان الراقية . بل قد كتب على الأبواب الخاطئة والعامية « ادفع » أو « اقفل » وكتب على المراحيض « ارفع » أو « اخفض » لتطهير المكان وكتب على بلاس الباب « الرجاء مسح رجليك » وكتب في المدارس

« اياك وادخال عصاك أو مظلتك الى الداخل » وكتب على الصور والتماثيل « ممنوع من شيء » وكتب على صناديق البريد « تفتح ساعة كذا ودقيقة كذا » ولو أردنا تعداد مثل ذلك لطلال بنا المطال وسُم القراء تفاصيل لم يسمعوا بها ولا تخطر لهم ولا في عالم الخيال

ومن يظن أن في دور البريد صناديق تدفع اليها ثمن الطابع كما هو في بعض بلاد أوربا الراقية فينزل اليك فتبصقه على كتابك وفي صناديق البيوت التي تعلق في دهليز الدار وتكون هذه مؤلفة على الاكثر من خمس أو ست طبقات كل طبقة شتتان أو مسكنان فيجىء الساعي ويضع كتب كل منزل وجرائده في صندوقه حتى اذا وضعها يطن جرس من داخل الصندوق فيسمع أهل المنزل فينزلون ويأخذون بريدهم كل ذلك تخفيفا على الناس من الحركة بدون لزوم وفي المخازن والمحال العامة صناديق للقبض والصرف لا تغلط في العد والحساب وتحصى على العامل ما أباعه في يومه

ذكرنا هذا وان كان بعضه لا يدخل في باب الاعلان الذي هو المقصود بهذه الجملة فقد بلغ التفنن بالاعلان في الغرب حداً من الارتقاء لا يكاد يوصف وأظن سويسرا ان لم تكن أرقى الغربيين في التفنن باعلاناتها فهي من أرقاهم بلا جدال وكفاها فخراً انها لولا الاعلان عن بلادها ما استطاعت أن يكون لها هذا الغنى الدثر والسعادة الشاملة فعرفت الناس بقدر بلادها وجمال أصقاعها وربما أفرطت في ذلك أحياناً لمقتضى الوصف الشعري ولقد اطلعت على كثير من الكراسات التي توزعها مكاتب الاستعلامات مجاناً على طالبها فما رأيت أكثر من مهارتهم في ايجاد المزايا لكل مدينة ولكل قرية ولكل طريق ولكل غابة في أرض سويسرا وكل شيء هنا بالاعلانات اذا لم تقرأ صحفها لا تهتدى الى ما تريد ابتياعه أو عمله وقد يكون لها جرائد خاصة بها اسمها جريدة اعلانات مقاطعة كذا ومنها ما يطبع الثلاثين والأربعين ألفاً في اليوم لا تكاد تخلو منها دار واشتراكها عشرة فرنكات في السنة تصدر في ثمانى أو عشر ورقات من حجم جريدة المقتبس وكلها اعلانات

الا الصفحة الأخيرة أو الصفحتان الآخريان ففيهما حوادث ونكات قد يكتفى الواحد بهما للوقوف على حركة بلاده على الأقل . وكل جريدة مرتبطة مع شركة اعلانات تبتاع منها قدراً معيناً من الصحيفة وهي تفتش لها على اعلانات تناسب سعة انتشارها ومكانتها . كنت أتاها في الاحايين بقراءة بعض الاعلانات في الصحف لا عرف منها روح الشعب وحركة تجارته وعمله فكنت أستغرب في الضحك عند ما اقرأ السذاجة تغلب على اعلاناتهم والتفنن فيها آخذاً مأخذه من النيقه والعناية فمنهم من يعلن عن ١٠٠ كيلو من الجبن من جنس كذا بثمان كذا ومنهم من يقول ان عنده رأسين من البقر عمرهما كذا وهما يصلحان للذبح ومنهم من يقول يجب ان يبيع خمس نعاج عجفاء وآخر عشرين رأساً من الغنم وبعضهم يعلن عن لبنه وآخر عن زبدته وآخر عن بيع عربته أو دراجته أو دثاره أو صندوقه أو ثيابه وآخر عن خنزيره الذي علفه وغيره عن حذائه الذي ما أتلفه . وتجد آخر يعلن عن رفشه وبعضهم عن عفشه وآخر عن خزائنه وبعضهم عن سريره وبعضهم عن آلة موسيقاه أو محراثه أو منكاشه أو مجرفته أو حصادته وعصارته ومذراته وآلة تصويره وآلة خياطته وآلة حياكته وآخر عن كلبه والصدق يغلب عليهم في اعلاناتهم عن متاعهم وآنيهم وأدواتهم

أما التفنن في الاعلان عن الاستخدام وطلب عمل في مخزن أو حقل أو ادارة أو منزل ذكوراً كانوا أم أناثاً صغاراً أم كباراً فهذا مما بلغ الغاية التي لم يبق وراءها وراء فكل طالب وكل طالبة يضع شروطه ومزاياه وعمله وربما الأجرة التي يريدتها باخصر عبارة تستهوى القارئ وتستدعي الراغب فيه الى مفاوضته ومخابرته على أسرع ما يمكن وكل يوم تقرأ اعلانات كثيرة في طلب حالب بقرات تباع عدد كذا في محل كذا باجرة كذا . ويستخدم المخزن يعرف كذا وطاهية تحسن ادارة بيت فيه كذا من الأنفس وبواب لمحل كذا وسائس باجرة كذا وحوذى وسائق وراع كذلك وحرث ومجلد ووراق وسكاف ومطرزة وعاملة في معمل الى غير ذلك

من الأساليب التي لم يسمع بها الشرق وهي من اختراع الغرب لأن الاعلان نشأ فيها ومنه نشأت الجرائد

الاعلان عن الحاجيات والكاليات لطيف ونافع ولكن ما كان يظن أن الغربيين اذا أعلنوا عن بيع كذا وإيجار كذا وعمل كذا انهم يتزوجون بالاعلانات ويستمتعون بالاعلانات أيضاً تساوى في طلب ذلك الرجال والنساء لأنهم يعتبرون الزواج وما يشبهه من الحاجات الطبيعية التي لا عيب فيها وغاية الأمر انهم يعلنون عن ذلك بدون تسمية اسم الطالب والطالبة . وهذه الطريقة كانت البادئة بها فيما أظن جريدة «الجورنال» الباريزية ثم تبعها على الأثر جرائد العالم وكان للسويسريين حظ وافر منها وان كان عدد الطالبين والطالبات أقل من عددهم في باريز

وذلك بأن يطلب أحدهم خادمة تستخدم لكل شىء باجرة كذا على أن تقوم بعمل كذا وان يكون عمرها كذا من السنين أو ان الخادمة تطالب ذلك ولا تتوقف عن أن تصف صفاتها وجمالها وسنها وتصف رزانتها ووقارها . اكتب هذا وامامى صحيفة اعلانات لوزان وفيها كثير من هذا القبيل منها ان امرأة اسرائيلية تريد التعرف الى زوج عمره بين الخامسة والعشرين والثلاثين وان تكون له ثروة ثم وصفت عمرها وما تملكه . ومنها ان عقائل واوانس يردن أن يتعرفن الى خواتم تكون لهن مراکز طيبة ومنها ان شابا في الثالثة والثلاثين لا يتناول المسكرات حسن الخلقة والخلق من كل وجه له منصب حسن في الارياض يريد أن يتعرف الى فتاة في الخامسة والعشرين الى الثلاثين ويؤثر أن تكون مسيحية ومعمودة النظام ويقبل بأن تكون حاملة شيئاً من النقود وانه رزين لا يفشى سراً واذا أرسلت اليه الصورة الفوتوغرافية يعيدها في الحال والرجاء ان يكتب في ذلك بنمرة كذا لادارة جريدة لوزان

والقوم هنا لا يكتبون بتعليق اعلاناتهم على الحوائط والمركبات في السكك الحديدية والكهربائية وعجلات النقل وفي الصحف والمنشورات والكراسات وعلى الأبواب والنوافذ ورؤوس الأبنية بل ان التاجر يعلن عن محله حتى في الورق

الذى يصر لك به قيصاً أو بدلة أو كتاباً أو حذاء أو منديلاً أو ورقاً أو أى شيء
تبتاعه بل ان الخيط الذى يربط به الاضبارة أو الرزمة قد كتب عليه اسم محله
ونمرته وما فيه وهكذا فى جميع ما يخطر ببال

وتعتقد جميع المحال التجارية والشركات الصناعية والمدارس وغيرها انها اذا
لم تكثر من الاعلان عنها يتناساها الناس وتقل أرباحها وهذه لوزان لولا ماتقن
أهلها فى الاعلان ما أصبحت عاصمة العلم فى سويسرا الفرنسية وبلغ طلبة كليتها
ألفاً وأربعمائة منهم نحو ألف غريب من غير السويسريين وهكذا المدارس الخاصة
التي يعيش بالعلم فيها أناس لا يستقل بعددهم ومنها ما يدرس فن تدبير المنزل وآخر
الفنون الجميلة وغيرها التجارة وبعضها اللغات وبعضها الألعاب الرياضية الى آخر
ماتقنوا فيه فجاء الغريب يستفيد منه فكان للوزان فصلان فصل الصيف يكثر
فيه السائحون للنزهة وفصل الشتاء يكون خاصاً بالطلاب والمتعلمين ويستفيد من
ذلك أهل البلاد مئات الألوف من الليرات

وبلغ من تقن القوم بالاعلانات ان أحدهم ألف كتاباً فى فن الطبخ فكسد
كساد بضاعة العلم فى بلاد العرب ففكر فلم يجد أحسن من أن يعلن أن الفتاة
التي تراجعها مرسلته اليه ثلاثة فرنكات يقدم لها خير نصيحة قبل زواجها تكفيها
غوائل الدهر وحوادث الايام فكان يبعث لكل مرسلته بالمبلغ المطلوب بنسخة
من كتابه ويقول لها تعلمي هذا فباع من كتابه ثلاثة آلاف نسخة . وكتب
بعضهم اذا أردت أن تفتنى فاعمل عملي وأنا لأعلمك ما عملت الا اذا بعثت بكذا
فرنك حوالة . فكان جواب هذا الشاطر لمن طلب اليه النصيحة أن يقول
له اعمل عملي فتفتنى لامحالة أى اكتب فى اعلانك كما كتبت وهناك المال
يفيض عليك

ولكن هذه الطرق نادرة جداً والصدق هو الغالب على الاعلانات كما قلنا
ولذلك اعتمد الناس عليها وزادت عنايتهم بأمرها وأسست لها البيوت والشركات

المهمة التي تدخلها فتظن نفسك في مصرف كبير أو معمل خطير . والاعلانات مادة الصحف في الغرب وكثير من أمهات جرائدها لا تصدر يوماً واحداً لولا الاعلانات لأن ما تأخذه من القراء والمشاركين لا يباع ثمن الورق مع أنها تطبع بمئات الألوف فتأمل ياتاجر بلادنا

سويسرا : التربية العملية

٦٣

من أعظم أسرار امتياز الغربي عن الشرقي ان الفرد عندهم يعيش بنفسه لنفسه ونحن نتكل في عيشنا في الاغاب على الوالد والوالدة والقريب والحكومة ويقل جداً فيهم من اغتنى من غير المذاهب الطبيعية في المعاش من صناعة وزراعة وتجارة وأقل منه فتى أو فتاة في مستقبل العمر تقعد به همته عن اتخاذ أسباب الكسب انتظاراً لارث ربما يورثه اياه أبوه أو أمه أو لوظيفة تليق بعظمته يتناول راتبها الباهظ بعمل ضئيل قليل

حالة تدهش في الغرب من عيش الاستقلال ونحن حالنا على ما تعهد من عيش الاتكال الذي انقص عدد العاملين والعاملات وقذف بنا من حائق مجد وسعة الى دركات ذلة وفاقة . كلما ذكرنا وأيم الحق ان في دمشق نحو ثلاثة عشر ألف شحاذ أكثرهم أصحاء أقوياء تقضى المعجب من حالنا ونسجل بأننا سواء وحكومتنا في هذا النوم أو التناوم عن السعى في مداواة أمراضنا الاجتماعية وبدون ذلك لا تقوم لنا قائمة ولا نتحرر من قيودنا السياسية والاقتصادية

واني آسف وأبكى لمئات من الشبان في سورية ولا سيما في دمشق وحلب وحماة وطرابلس والقدس سئموا الحياة وسئمتم الحياة لبطالتهم وهم يعيشون طالة على أهلهم ومنهم الموسع عليه في رزقه لا يتزولن للاحتراف بحرفة ولا پروذانه

يليق بهم الا ان يتصدروا على مقاعد الحكم آمرين ناهين يوثرون البطالة منتظرين أن يموت أولياؤهم ليستولوا على أهوالهم وفي الغالب أن يموت الموسر عندنا وهو موسر بالنسبة لمحيطه ويخلف أولاداً كثاراً تقسم بينهم الثروة فينال الواحد جزءاً قليلاً لا يستطيع انماءه ولا يقوم بتفخله وبذخه هذا اذا لم يكن فاسداً اخلاق ولم يصرف دخل سنة في شهر وهناك بشره بالفقر الى أرذل العمر .

أما الغرب فحاله غير حالنا اذا تعلم الولد التعليم الابتدائي غالباً يبدأ أهله يقطعون عنه راتبه ويطالبونه باجرة الدار وثمان الطعام ليلقى بنفسه في معمصان الحياة ويعلم أنه فرد مسئول عن نفسه لا يقوم باعالة غير عمله ولهذا مئات الالوف من الامثلة ولقد قلنا في مقالة سبقت أن ليس في الارض امرأة ضاهت الرجل في عمله كالمرأة السويسرية فلا تكاد تجد في النساء من لا يحترفن في هذه الجمهورية السعيدة غنيات كنا أو فقيرات ولذلك تزيد ثروة البلاد يوماً بعد آخر وترتقى في كل فرع من فروعها المدنية الحيوية . وحال معظم أمم الحضارة كذلك

اكتب هذا وأمامي أربع فتيات في النزل الذي أويت اليه في لوزان لا أطلب لوطنى الا أن يكون رجاله دع نساءه في درجتهم من التفانى في الحياة العملية والتناغى بحب الاستقلال في الاعمال . الفتاة الاولى انكليزية والثانية المانية والثالثة سويسرية فرنساوية والرابعة سويسرية المانية وكلهن سواء في كره الاتكال ومثال صالح غريب المثال

قالت لي الفرنسية السويسرية وهي في الحادية والعشرين من عمرها تعطى دروساً في الموسيقى وقد سألتها عن والدها وحالته في الدنيا : انه متعهد ابنية ولنا بيتان يحتويان على زهاء عشرين مسكناً تؤجرهما في « شالى » من ضواحي لوزان وشقيقى الواحد صاحب نزل في نيس والاخر معلم بستاني في لندرا فقلت لها مثلك في الشرق يستريح ولا يعرف الا الازياء والرفاهية فقالت ان الناس كلهم في سويسرا يعملون وكل واحد يعيش لنفسه فليس من العدل أن أعيش حالة على والدى أو والدتى ولا على أحد اشقائى بل أعمل واجمع ثروة لنفسي عملاً بسنة العاملين والعاملات

أما الفتاة الانكليزية وهي في الحادية والعشرين أيضاً فقد هجرت بلادها وجاءت لوزان تدخل في احدى البيوت الخاصة التي توفرت على تعليم الفتيات اللاتي تخرجن من المدارس العليا في انكلترا والمانيا وروسيا وغيرها وأردن أن يتقدمن في معرفة الفرنسية وآدابها والرياضيات البدنية والرقص والغناء وغير ذلك من لوازم المرأة الاوربية الراقية التي تليق لرأس المجتمعات العالية والتصدر في الردهات والقاعات . قالت أنها تعلم الانكليزية وهي لا تتناول مالا وإنما تعيش مع الفتيات في مدرسة وتتعلم الفرنسية بهذه الوسيلة . وقد ذهب الفتيات خلال عطلة رأس السنة الى الجبال للترحلق والتدحرج والتسلق على الثلج فاقفل باب النزل فعرض عليها هي ورفيقتها الفتاة الالمانية أن يذهبا مع الفتيات فآثرتا البقاء في لوزان فجعلتهما مديرة تلك المدرسة في النزل الذي نحن فيه مدة العطلة تنفق عليهما ريثما تفتح أبواب منزلها أو مدرستها .

أما الفتاة الالمانية رفيقة الانكليزية فهي في الثالثة والعشرين وحالها أيضاً حال رفيقتها تعلم الالمانية وتتعلم الفرنسية وتزيد عليها بأن تعطي دروساً خارج المدرسة وأهلها أصحاب يسار في الجملة ولكنها تحتاج لتعلم الفرنسية وهذه هي الوسيلة التي رأت أن تعتمد اليها في اتقان لغة هوغو وموسيه لتضمها في صدرها الى لغة كيتي وشيلر .

أما الرابعة وهي المانية سويسرية فخالها أدهش من حال الفتيات الثلاث وذلك لان والدها صاحب مخزنين في لوسرن واثراً لا كون لو حسب ما يملكه على حساب بلادنا لعد من الاغنياء عندنا على أنه لا يعد في المحاييج بل المتوسطين هنا فأراد أن يعلم ابنه وابنته الفرنسية لمسيس الحاجة اليها في تجارته وحتى يكونا على أتم الاستعداد لتلقى مصاعب الحياة فجاء بالولد وهو في السابعة عشرة يجعله في نزل في أرباض لوزان خادماً يأكل وينام ويتناول راتباً قليلاً ويتعلم الفرنسية ويتمرن عليها بالعمل وكان تعلم مبادئها بالنظر في المدرسة

وشقيقة هذا الفتى في التاسعة عشرة من عمرها شأنها شأن شقيقها تحب أن

تتعلم الافرنسية وتدير المنزل وتعيش مستقلة فجعلها أبوها خادمة براتب ٢٥ فرنكا في الشهر في المنزل الذي نحن فيه وهي وحدها تتولى جميع أعمال المنزل الا ملاحظة الطبخ فان صاحبة الدار تنظر فيه بنفسها فترى تلك الفتاة من الساعة السابعة صباحاً الى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة ليلاً تعمل بكد لم أر مثله وتقوم بجميع أنواع الخدمة على صورة مدهشة فبينما تراها تكنس بضع غرف في الدار وترتب فرشها وتصلح أدواتها الكثيرة أو تترك الدهليز والممشى والزجاج والدرقات والأبواب اذا هي تتمهد المطبخ أو تخرج كالبرق في جلب حاجة من السوق أو تقدم الطعام على المائدة وترتب السفرة أو تجلو الطباق والصحون أو غير ذلك مما يكثر عدده في البيوت الاوربية تعمل كل ذلك ومنه الشاق الوسخ ومع هذا لا تراها الا باسمه في حين حرمت من رفاقتها في دار أبيها وعنده الخادومات والخدمة .

هذا مثال مما رأيته بالذات من أمثلة التربية الاستقلالية في البنات هنا وبعدها هل يعجب المرء من غنى هؤلاء الاوريين بعد ان عدوا كل عمل شريفاً اللهم الا ما يثلم العرض ويعبث بالمروءة وهذا لا تكاد تخلو منه أمة مهما ادعت أنها أمة أخلاق وتدين وشرف .

كل فتاة من هاته الفتيات وفرت على أهائها بعملها مئة أو مئة وخمسين ليرة في السنة وربحت التعلم العملي والتدرب على الحياة الاقتصادية الاستقلالية فبالله عليك أستطيع أحد أبناء الطبقة الوسطى عندنا وهي تعد من الفقراء في الغرب أن يقول لابنه اذهب الى بلدكذا واخدم وتعلم فضلاً عن أن يقول لابنته علمتك القراءة والكتابة والحساب فعلمها لمن يعلمك الطبخ وتدير المنزل والخياطة والتفصيل .

رأينا في مصر والشام أناساً من المساكين لم يعقهم عن تعليم أولادهم التعليم المطلوب الا ضيق ذات يدهم وكثرة أولادهم لانهم كلهم يريدون أن يعيشوا مرفهين ابن الحراث كابن الفنى صاحب المزارع والمقارنات . ورأينا أناساً فادوا

بالمال واقتطعوا جانباً من رؤوس أهوالهم ليعلموا به أولادهم على أمل أن يعينوهم في أيامهم السود فكان من أولادهم من تعلموا تعليماً ناقصاً ولم يكن منهم الا أن عظمت نفوسهم وظنوا أنفسهم شيئاً مذكوراً وشمخت أنوفهم عن العمل الا في الاعمال التي يصورها لهم الخيال انها نافعة شريفة وذهب ماصرفه أولياؤهم من الذهب عبثاً

الاولاد اذاربوا كما يربى السويسري والالمانى والانكليزى بناته جاء منهم محكمون يعرفون قدر العمل والعمال ويدخلون في الحياة من الصغير فيرتقون الى الكبير . يهتمون الالمان بالشح والفرنسيس بالاقتصاد الزائد والانكليز بقسوة القلب والحقيقة أن البشر كله من طيبة واحدة يحن الى أولاده ويستمتع في ترفيههم ولكن الفرق بيننا وبينهم انهم يلقنون أولادهم معنى الحياة المستقلة ونحن ننشئهم على حياة الاتكال والرضا بالقلة . .

أيأتى يأتى على الشرق الاقرب يوم نرى فيه الرجال والنساء صغارهم وكبارهم يعملون لنشهد أو أبناءنا واحفادنا مثالا من الامم التي تود البقاء لا الدثور والفناء أم نبقى هكذا يسرق بعضنا بعضاً ونعد عمله مهارة أو ينتظر صغيرنا كبيرنا ليموت فيرثه ونحسبه من الموفقين أم تضعف وطنيتنا وحبنا لبلادنا فنتركها تنعى من بناها الى بلاد أخرى حيث الحياة سهلة والعيش مخضل

طاف المدينة والمزرعة وأدخل المعمل والمخزن وانظر الباعة والأشراف في سويسرا تجدهم كلهم لا يستنكفون عن العمل . في لوزان سوق تقام مرتين في الأسبوع على عادة معظم المدن الأوربية مثل سوق الاحد وسوق الجمعة في دمشق تباع في ذلك السوق جميع أنواع المأكول والملبوس والمنظور فترى فيه نموذجاً صالحاً من حاصلات البلاد وصناعاتها وأكثرها رخيص قصده عدة مرات للفرجة وابتياح بعض الاوازم فدهشت وقد رأيت بعض النساء الغنيات والفتيات البارعات الجمال يبتعن بأنفسهن حاجات بيوتهن يجعلنها في كيس براق من المطرز ويحملنها الى مساكنهن وقد تكون بعيدة وعند أكثرهم على ما بلغنى الخادومات والطباخات والوصيفات قلما يعهدن اليهن بشراء حاجة ولو طفيفة ويذهبن بأنفسهن لا بتياعها

وهكذا تجد الديمقراطية تشربتها تقوس الكبير والصغير فلا يجد أحد من المعيب أن يخدم نفسه وداره وأهله وسواء في الشرف من يكسح القمامات والثلج من الشارع ويرزق خمسة فرنكات في النهار ومن يملك مصرفاً كبيراً يعد ما يربحه كل يوم بمئات من الفرنكات مادام كلاهما يعمل في دائرته بقدر طاقته ولا يتعلق بأحد وأول ما يسأل الزوج عن فتاة يخطبها قبل أن يسأل عن جاهلها ما هي معارفها وما تستطيع عمله . فاللهم علمنا علماً ينفعنا في نهوضنا حتى لا ننجل من انحطاطنا في أنفسنا دع خجالتنا أمام غيرنا فان الفرق بين بلادنا وبلادهم أصبح كالفرق بين النور والظلمة والجنة والنار وما راء كمن سمعا .

فل سبروا في الارض

٦٤

ليس كالسياحة تجدد الحياة وتزيد الاختبار وتعلم وتهذب وتزيد في الاعتبار بحوادث الليل والنهار . واني لأتمنى لكل من ساعدته الحال ان ينهض ليعتبر ويتعلم ويتسلى فان النفس في قرارها تصدأ كما يصدأ الحديد بالرطوبة فهي تحتاج للنور وللحرارة والا فتذبل كالزهرة

قال ولیم هازلت من مفكري الانكليز « ان الوقت الذي أمضيناه في السياحة الاجنبية مقطوع من عمرنا مفصول من حياتنا لاسبيل الى وصله ولا وسيلة الى ادماجه والمرء مادام خارج وطنه رجل آخر غير الذي كان هنالك حتى ان المسافر ليودع نفسه فيمن يودع والله در القائل « خرجت من موطني ومن نفسي » فمن أراد أن ينسى الحزن والشجن فليذهب الى غير بلده من بلاد الله يجد في عجيب المناظر وغريب الأحوال سلوة وروحاً وتغيب من عينه مذكرات الهموم وباعثات

الاسي ولذلك كنت أتفق حياتي خارج بلادى لو وجدت من يقرضنى حياة أخرى أتفقها في وطنى حتى أقضى حقوقه اهـ . »

كلمات حكمة وخبرة ولذلك ترى أكثر الأمم رقياً أكثرها سياحاً والعكس بالعكس . والانكليز والاميركان هم في المقدمة ثم يجيء الالمان والفرنسيون وغيرهم من أمم المدنية الحديثة وأمتنا العربية يكون محلها في قائمة السياح في الآخر بالطبع لأنها اعتادت سير القهقري وانا لو أخرجنا المصريين من جملة السائحين في الغرب لاتجد لنا الا عدداً يضحك بالنسبة لأرباب الرحلات من الأمم . أما العرب السوريون ممن يهاجرون الى أميركا فهؤلاء لا يقصدون من رحيلهم الا الكسب ولا يعرفون على الاغلب كيف يستفيد المرء من سياحته علماً وعملاً

نتمنى لأمتنا أن يسيح منها العلماء والوجهاء والتجار والموظفون وأرباب الصنائع والزراعات الواسعة ممن يمكنهم ولو بعض الشيء تطبيق ما رأوه عند من ارتقوا عنهم مراحل . فهذه الطبقات الغنية هي التي تستفيد بالاحتكاك بغيرها من أهل طبقها في الغرب اذا أخذت على نفسها البحث والدرس خلال التنقل وترويج النفس

السياحة لا تكلف اليوم من العناء والمال ما كانت تكلفه منذ مئة سنة فان العارف قد يستطيع أن يطوف أهم عواصم العالم ولا ينفق في يومه أكثر من ليرة صرفها رفاهية لا تتيسر له في بلده ولو كان من أغنى أغنيائها لأن البلاد في الغرب كلها منظمة ومعظم الفنادق والبيوت سواء في الأخذ بأسباب الراحة . والعيش فيها خلا العواصم الكبرى سهل للغاية وهو أرخص مما هو في بلادنا فان المصطاف أو المشتى في سويسرا قد يستطيع أن يكون في طائفة ولا ينفق في شهره ثمن الطعام والمنام الجيد أكثر من ١٥٠ فرنكاً وهذا قلما تجد له مثيلاً في بلدة أوربية اللهم الا في المدن الصغرى أو القرى وكل مدينة من مدن سويسرا حرة بأن يتعلم فيها الشرقى سنين لا أياماً ومن رأى مدينة أو ثنتين يكون قد رأى نموذجاً صالحاً من هذه المدينة الفاضلة

يبد أن من يسبح في الغرب لا يصح له أن يتغلى عن غشيان العواصم الامهات
مقر المدنات الضخمة كرومية ولندن وباريز وبرلين وفينا وهذه العواصم يكتفى
منها السائح ببضعة أيام والأولى أن ينظر الى دولاب الحركة في المدن الصغرى
اذ يستطيع أن يحيط بها فكره أما العواصم الكبرى فان أهاها قد ضاعوا فيها
ولا تكاد تجد واحداً منهم يعرفها حق معرفتها فباريز مثلاً كلما غبت عنها أشهراً
وعدت اليها تجد فيها غرائب جديدة وجواد نفحة لم تكن من قبل وكل شىء فيها
يزداد على الزمن فخامة وعظمة فالفرع الواحد فيها اذا أراد درسه السائح الشرقى
لا يتيسر له فى أقل من بضعة أشهر ولكن النظرة الاجالية يكفى لها خمسة عشر
يوماً ومثلها سائر العواصم وأصعبها على السائح احاطة لندن مدينة الثمانية ملايين
نسمة ونيويورك مدينة الخمسة ملايين .

ان مدينة الغرب متشابهة فى أكثر الاوضاع فمن رأى نموذجاً منها اكتفى
والزيادة على ذلك من النوافل . من زار باريز مثلاً يشهد أعظم نموذج فى الحضارة
الحديثة . وخير لمن يعرف لغة مملكة فى الأ أكثر أن يذهب اليها . وان كان من
يعرف لغة أوربية كبرى مثل الافرنسية أو الانكليزية يستطيع أن يسبح بدون
عناء فى كل مملكة ويتفاهم مع أهلها ولا سيما أهل الطبقة العليا والتجار والعلماء
ثلاث لغات أصول هى التى تفرعت منها لغات القارات الثلاث أوربا وأميركا
واستراليا الانكلوسكسونية واللاتينية والسلافية فمن عرف الروسية مثلاً لا يشق
عليه السياحة فى البلقان وأكثر النمسا ومن عرف الانكليزية استطاع السياحة
فى أميركا الشمالية وأستراليا ومن عرف الافرنسية كانت عليه سياحة ايطاليا
واسبانيا والبرتقال والبرازيل والارجنتين مثلاً من أسهل الاشياء

أما من لم يكتب له الأخذ بحظ من هذه اللغات وأراد الاستفادة من الغرب
فليس أحسن له من استصحاب ترجمان من بلاده ويكون بمن سبقت له الرحلة الى
ديار الغرب واذا أريد الاقتصاد فالأولى أن يجتمع كل ثلاثة أو أربعة أشخاص
ويرافقهم ترجمان مؤتمن عندهم وعندها تقل النفقة نحو الثلث . وافد شاهدنا

كثيراً من أغنياء مصر ساحوا بأوروبا وهم لا يعرفون لغة من لغاتها ولكنهم بواسطة الترجمة استطاعوا أن يحسنوا التصرف بيد أن الأولى أن يكون المرء نفسه عارفاً بأحدى لغاتهم وهناك حدث ما شئت أن تحدث عن استفادته وسروره وبالجملة فإن الخوف من السياحة توهم ليس في محله فلا المال وقلته ولا عدم الاحاطة بلغة أجنبية بل إن المحرك الأعظم في السياحة الإرادة ومن صحت عزيمته زرع الجبال فما بالك بالسياحة وإبناء السابعة والثامنة اليوم يسبحون في أوروبا وأميركا بدون أن يخشوا ضرراً والفتيات الجميلات يضربن في البر والبحر ولا من يتعرض لهن بسوء فهل من العدل أن يكون فتيان الغرب وفتياته أرقى منا كعباً وأكثر أقداماً مادامت لنا في السياحة فوائد لا يقدرها الخامل في بلده والسياحة مدرسة لتعليم الكبار كما أن المدرسة هي المعلمة للصغار فاللهم علم كبارنا وصغارنا علماً نافعا .

نحن في البطرد الفرنسية

٦٥

ليس عجيباً أن ترى العثماني والبراني وغيرهما من سكان آسيا الغربية والساحل الشمالي من أفريقية يطربون في البلاد الفرنسية ويؤثرونها على غيرها من بلاد الغرب في التجارة والتعلم والنزهة فإن معرفة لغة قوم هي مفتاح جميع هذه الاعمال وتعليل صحيح لعامة هذه الاحوال .

انتبهت فرنسا قبل غيرها لاستتباع الشرق الاقرب بتعليمه على مناحيها وتلقينه لغتها فكانت منذ زهاء قرنين تبعث البعث وترسل المعلمين مبشرين بمدنياتها ولغتها فلم يمض زمن طويل وفرنسا اذ ذاك صاحبة الكلمة الاولى في السياسة الغربية قبل انكلترا والمانيا وروسيا الا والخاصة في هذه البلاد يعرفون الفرنسية ويأخذون

عنها ويؤثرون الفرنسيين على غيرهم لانهم لم يعرفوا غيرهم خصوصاً وان المرونة التي يجدونها عندهم تشبه مرونتهم والفرنسيين عرفوا بلين الجانب وكثرة التفاني بتعليم ما عندهم لغيرهم لانهم يرون لغتهم أرقى اللغات الاوربية وأمتهم في مقدمة الشعوب التي قاتلت لاجل الحرية .

ان ميل الفرنسيين (١) للابتكار في كل شئ دعا الى نشر أفكارهم وأوضاعهم في بلادنا

(١) كتب أحدهم مقاله افتتاحية في جريدة الايكودي باري قال فيها : انه مما اثبتته التجارب أن الفرنسي خلق مخترعاً وقد أتى الفرنسيين أمثال لافوازييه وكوفيه وكلود برنال وبيشا وباستور من الاعمال العلمية ما استحقوا به أن يكونوا . وُسين لجميع العلوم الحياتية والكيمياء والتشريح والفسيولوجيا والجيولوجيا وقامت أهم الاختراعات الغربية في الاربعين سنة الاخيرة على أيدي الفرنسيين فهم الذين اخترعوا سر التلغراف بلا سلك وأوجدوا صناعة الاتومويلات وعملوا مدفعاً من عيار ٧٥ وعثروا على الاسباب الرئيسة التي سمحت بالطيران . وهكذا في السياسة فان الفرنسيين أول من أوجدوا في أوروبا وحدة وطنية وهي الوحدة الفرنسية وأول من أسسوا وطناً وهو الوطن الفرنسي وهم كانوا أول الناشرين تحت ستار الحرية والمساواة الافكار الثورية

فالفكر الفرنسي حاد ينتبه بسرعة للمصالح المجهولة في الاشياء وهو براق يدرك بدون كبير عناء المؤثرات التي تحدث بين أجزاء عناصر المادة فهو ذو خاصية تخدم حاجته للمعقول وحبه الموضح . الفرنسي جريء على مثال لويس الثالث عشر و نابوليون والموت الذي كثيراً ما يكون جراء المخترع قلما يفرغه بل يبعث همته ويشحنه سيف مضائه . والفرنسي ميل للحوادث وذوق في اكتشاف المجهول وهذا مما حدا بكثير من الضباط أن يتجسّسوا الاخطار الى آسيا وافريقية لفتح أراض جديدة واسعة وهذا الذوق هو الذي ساق فيما مضى النورماندين والبروتونيين الى سلوك البحار التي لم يسلكها أحد لبؤسوا مدائن في الشواطئ البعيدة

هذا هو الوجه الحسن واذا جئنا الى نقيضه نرى الفرنسي يخترع ولكنه ماقط عرف الانتفاع بشرة اختراعه ولا يحقق وينظم ما اخترعه . وخفته العقيدة نحمل الى غيره الانتفاع بتطبيق ما أوجده هو . فهو يفتح المستعمرات بدمه وماله ولكن الالمان او الايطاليين او الاسبانيين هم الذين يستثمرونها . اختراعاته في العلوم لا يقع عليها حصر ولكنه لم يستعملها قط لتحسين أدوانه أو حاصلاته فقد أسس مثلاً الكيمياء ولكن المانيا هي التي وجدت في الصناعة الكيماوية مورداً عظيماً من الثروة أي ما ياراً وستمائة الف مليون من الحاصلات السنوية منها نحو سبعمائة مليون صادرات وانشأت تسعة آلاف معمل فيها مائتا ألف عامل يدفع الم ٢٦٠ مليون فرنك مشاهرات وأجوراً . —

الفرنسوى يتحرك فى الهواء أسرع من الطير . وهو طيار خارق للعادة بجرأة طبيعية فيه تظنها بلادة منه . ولكنه لا يستطيع أن يجعل للطيارين ولمراكز الطيران نظاما معقولا واذا سقطت فى درجات الاشياء الصغرى ترى الفرنسوى على هذه الصورة من الاضطراب وعدم الانتظام وقلة الاهتمام ويقال فى ذلك ان الفرنسوى يكره وهو على هذه الصورة من الحركة ان ينشئ الى ضرورة انتباه طويل متساق ويشرح بأنه يخنع اذا لم ير نفسه مائلة الى الاعمال المختلفة التى تحته واذا وجب عليه أن يعمل عملا مجهولا يحتاج الى صبر . اما الالماني فهو على العكس من ذلك له قليل جداً من النبوغ فى الاختراع والايجاد بل لا يكاد يذكر له شيء منه ولكنه مختص كل الاختصاص بالانتفاع بما اخترع وتنظيمه .

وما عدا الفلاسفة والموسيقيين فى المانيا القديمة الذين اخترعوا وأوجدوا فان الالماني لا يخترع لان فكره ثقيل وبطيء ومفكر لم يخلق لهذه الانوار الفجائية التى توحى بالمجهول ولكنه متى اخترع اختراع فهناك حدث ما شئت ان تحدث عن حسن استخدامه فهو يحب العمل الذى يحتاج لثبات ولا يستعجل لان الضرورى عنده أن لا يعمل بسرعة بل ان يعمل بجودة وان يكون على استعداد لحين الحاجة فيكون مجهزة لساعة العمل ولا يبدأ قط بطيئا .

جاء الالماني بعد الفرنسوى فى الطيران ولكنه أدهش العالم بتنظيمه له فلم يخط على غير هدى بل رأى بسرعة كل ما ينبغي أن يرى ووفاه حقه . له قليل من المستعمرات ولكنه يسكن مستعمرات غيره فينزلها التجار والصناع الذين يبعث اليها بهم . الالماني لم يخترع التلغراف ولكن لالمانيا الآن نحو مائتى ألف كيلو متر من الاسلاك التلغرافية أى أكثر من فرنسا وعدوا المخبرات التلغرافية فى بلاده ٨٠٠ مليون مقابل ١٩٠ مليون فى فرنسا وما من قرية المانية مهما صغرت الا وهى مرتبطة بهاتف تخابر به وادارتها فى البريد أول ادارة فى العالم . وهى تعترف أن ليس بين كياويها الكثير واحد مثل لا فوازيه وبرتلو ولكن لها معامل تجريبية تعينها الحكومة والمدن والنقابات الصناعية . ان كان الفرنسوى

مخترع الاصباغ الصناعية فالألماني بفضل مدارسه ومعامله أتى فيها بالمعجائب حتى
كاد يختص بتجارة الاصباغ . وما من بلد يعنى فيها بتجديد أدواتها على الدوام
لتكون كاملة من كل وجه على أحدث طرز كما يعنى فى ألمانيا . والقاء أدنى نظرة
على محطة من محطات سككهم الحديدية تشهد لهم بذلك الخ

ثم انتبه الانكليز والأميركان ثم الألمان والطياني للأمر ولكن بعد ان رسخ
التمدن الفرنسي في النفوس وكثر أنصاره بطبيعة الحال مع أنه ربما كان في أوضاع
الأمم الأخرى ما يماثله أو يفوقه . واذ قبلت مصر والعثمانية وإيران ان تعلم
الفرنسية بصفة اجبارية في مدارسها مثل لغة البلاد كان ذلك من أكبر المعونات
على بث هذه اللغة البديعة فأنخذناها لغة التخاطب والتكاتب في التجارة والسياسة .
للبلاد المصرية والعثمانية والایرانية في البلاد الفرنسية اليوم مئات من الطلبة
يدرسون العلوم المتنوعة في مدارسها في حين لا تجد سوى عدد محدود من الطالبين
في مدارس انكلترا وأميركا وأكثريهم من المصريين والهنود أما في ألمانيا والنمسا
وايطاليا وروسيا فان عددهم يعد على الأنامل والایرانيون أكثر الشرقيين
اختلافاً الى مدارس روسيا للجوار والسياسة .

فاذا طربت النفس يوم دخولها أرض فرنسا وسويسرا الفرنسية وبلجيكا
الفرنساوية فذلك لأننا نشعر باننا بين قوم يفهمون من نحن ونفهم من هم .
اننا نستفيد هنا أضعاف استفادتنا في أى أرض سواها لأننا نجد تقارباً في الأفكار
والمناحي ولأننا نعرف تاريخ هذه البلاد كما نعرف تاريخ بلادنا وقد حصلت لنا
على الزمن أنسة باوضاها المرنة اللطيفة ومن تعلم لغة قوم قلت ما بينه وبينهم من
الفوارق وتيسر له أن يشاركهم ويشاركوه في كل ما لا يضر بعاداته وأخلاقه الخاصة
ان المدنية الأوروبية تتسرب كل يوم الى عقولنا في طرق مختلفة تنقلها الصحف
والسياح والمدارس والجيش والاسطول بل ينقلها البرق والهواء ونحن لو أردت
أن تجردنا مما استفدناه منها منذ عهد محمد على الكبير وسليم الثالث لرجعت بنا
قروناً الى الوراء ظنننا معها من أهل القرن السابع أو الثامن للهجرة على نحو

ما شاهد اليوم الافغانين أو المراكشيين أو الجاويين الذين سدلوادون مدينة الغرب
حجاباً كشيئاً فخرموا من حسناتهم ولم ينجوا مثل غيرهم من شرورها .
ان سكان الشرق الاقرب اذا ذكروا الفرنسيين كثيراً فذلك لانهم يعتقدون
فرنسا فاتحة العالم وممدته على نحو ما كانت على عهد نابليون الاول ففرنسا هي التي
وضعت في الحقيقة أساس النهضة المصرية الحديثة وفرنسا هي التي كانت كذلك
في سورية منذ جاء نابليون عكا طامعاً في فتحها لأنها كانت مفتاح سورية حتى
اذا جاءت حادثة الستين المشؤمة وكان لفرنسا اليد الطولى في اعطاء لبنان استقلالاً
ادارياً عظمت تلك المنة على أهلها وعمت المدينة الافرنسية بلاد الشام من طرق
مختلفة خاصة وعامة وطنية وأجنبية رسمية وغير رسمية .

نحن اليوم اذا لجأنا الى فرنسا في معظم حالاتنا فللأثر الناتج من تلك التربية
والدعوة الطويلة المتأصلة ولا يضرنا الأخذ من مدينة القوم ولكن يضرنا الغلو
والجمود فكما ان الفرنسيين أنفسهم لا يستنكفون أن يقتبسوا ما عند الأمم الاخرى
كالانكليز والالمان والاميركان مثلاً مما ليس في أوضاعهم فنحن من مصلحتنا
أن لانكون حكرة لامة فناخذ عن كل قبيل أحسن ما عندهم ولا نقول هذا
سويسري وذاك بلجيكي وهذا فرنسوي وآخر ألماني وغيره ايطالي أو انكليزي
فكلهم أرقى منا مراحل ونحن في حاجة لكل من يعلمنا مدينة تهض بنا من
خمولنا ليساويننا بنفسه بعد ونعد شيئاً مذكوراً في سلسلة المراتب البشرية .

رأيت كثيراً من خاصة الطليان والالمان والانكليز يشيرون الى أن السوريين
خاصة من بين سكان الشرق الادنى يغالون بحب الفرنسيين وليس حتى في البلاد
التي حكمتها فرنسا في أقطار الشرق بلد كسورية يحسن أهلها الظن بالفرنسيين فكنت
أقول لهم ان ذلك صحيح ولكن لا على إطلاقه فان القوم هناك درجات ومن يحبون
الفرنسيين هم الذين أحسن هؤلاء اليهم بتعليمهم على أساليبهم وتلقينهم لغتهم
العذبة فأممكم أيضاً اذا مدت يدها لسورية تعلمها لغاتها وأمجادها يعترف السوريون
لها بصنيعها ويصبحون زبناً في التجارة . وكيف يحب السوري المانيا مثلاً وهو

لا يعرف عنها الا ما يقرأه في الجرائد الفرنسية والكتب الالمانية والمانيا حتى الآن لم تفتح لها مدرسة راقية في سورية والفرنسيس ملأوا سهلنا ووعرنا بمدارسهم الدينية والعلمانية على اختلاف درجاتها

لا ينال المرء الا بقدر ما بذل . والامم الانكلوسكسونية هي ارقى الامم بأخلاقها وآدابها ولكن أنانيتها الكثيرة دعته الى أن أحببت في العهد الأخير الانتفاع من الشرق دون أن تبذل في سبيل رقيه درهما أو تخطو الى اعلاء شأنه قدماً . ولذلك يبقى الشرق الاقرب يتغنى بالفرنسيس والفرنسوية حتى ينافسهم غيرهم من أمم الحضارة الحديثة منافسة حقيقية . ولا طار علينا اذا صرحنا بأننا نظرب في أرض فرنسا لاننا لانعرف غيرها في الواقع ونقص الأمر فقد سبقت فعلتنا آدابها وذكرتنا أمجادها فنحن بها عرفنا الغرب والمرء لا ينفق الا مما عنده وعرفنا الجميل لاهله طبع الكرام . ولا ينسى الا يادى التي لك عندهم الا اللثام والسلام

الحياة السياسية والاقتصادية في بلاد المغرب

٦٦

تسكن بلاد المغرب عناصر مختلفة قديشور بينها نائر الخلاف أحياناً ولذلك كان لمسألة الجنسيات في الارض المغربية شأن عظيم وحروب قلمية ولسانية لا تكاد تهدأ وتداول المناقشات في الغالب على برامج المدارس وعلى القدر الذي يجب أن يعطى للغة المغربية في التعليم في المقاطعات التي فيها رومان وسلوفا كيون وضرييون . وهناك اضطرابات تحدث زمن الانتخابات النيابية تتدخل فيها القوة المسلحة لتحمي حرية الانتخاب وأزمات وزارية قد تطول سنة وجلسات نيابية شديدة الوطأة قد يتلاكم فيها النواب ويتضاربون وربما أطلق بعضهم عبارات نارياً على خصمه أو هددته بالقتل أو ضربه بكتاب ودواة كما حدث ولا يزال يحدث

نحو نصف سكان بلاد المجر هم من العنصر المجرى والنصف الآخر من عناصر مختلفة (المان وسلوفاكيون ورومانيون وروتنيون وخرواتيون وصرييون) بلاد أشبه ببرج بابل اختلطت فيها اللسان وتبليات والمجريون يحاولون بكل ممكن ان يحترم غيرهم جنسيتهم باحترامهم لغتهم والاعتراف بتقدمهم السياسى والمدنى وهذه هى حالة المجر ولولا أن العناصر غير المجرية مؤلفة من أجناس كثيرة ليس بينها أقل صلة وطريق الانتخاب النيابية الجارية فى المملكة تحول دون أدنى مقاومة لما تم للمجر هذا التقدم على غيرهم .

ولئن حاول الامبراطور فرنسيس يوسف ملك النمسا والمجر أن يصلح أسلوب الانتخاب بوضع الاقتراع العام منذ سبع سنين فان مسائل الجنسيات ما برحت مقدمة على المسائل الاجتماعية وقد وقع التحكيم على أن تكون النمسا متجانسة بالجرمانية وان يكون للمجرية حق التقدم فى هنغاريا (بلاد المجر) وقد كان فى مجلس النواب المجرى سنة ١٩١١ - ٤٥٣ مبعوثاً : منهم ٣٨٧ مجرياً و ٤٠ خرواسياً و ٣٤ وطنياً وهذه نسبة تستدعى الاستغراب والمجلس الاعلى أو مجلس الاعيان مؤلف من أعضاء وراثيين مثل البالغين من الارشيدوقة وأعضاء الاسر الشريفة التى تدفع على الأقل ضريبة عن عقاراتها لا يقل عن ٦٠٠٠ كورون ومن أعضاء يعينهم الملك مدة حياتهم بانتهاء رئيس المجلس ومن أرباب المناصب العليا مثل كبار الحكام ومن ٣٣ أسقفاً كاثوليكياً و ٩ اساقفة روم أرثوذكس و ٦ يمثلون المذاهب اللوثرية والكالفانية البرتستانية ومن ثلاثة يفتديهم مجلس نواب خرواسيا .

وللمجلس الاعلى أن يرد ما يشاء من المشاريع والقوانين التى يقرها مجلس النواب ولكنه لا يستعمل هذا الحق الا نادراً لان مجلس النواب موقر فى صدره وغاية ما يستطيع عمله أن يرجىء الاقرار على قرار مجلس الامة

ومن الامراض التى أصيبت بها بلاد المجر دكا أصيبت بهافرنسيا والعثمانية مرض كثرة الموظفين الذى يزداد استحكاما اليوم بعد اليوم فى احصاء رسمى أخير ان فى المجر ٣٠١،٤٨٠ موظفاً فى شعب لا يتجاوز احد وعشرين مليون نسمة

فان الوزارة التي تولت شؤون المجر منذ سنة ١٩٠٦ - ١٩١٠ قد أحدثت عملاً لـ ٤٥ ألف رجل والوزارة التي خلفتها أحدثت في العشرة الاشر الأولى لتوليها الامر ثلاثين ألف وظيفة . وهذا السواد العظيم من الموظفين ينفع الحكومة مدة الانتخابات النيابية لانه يمثل نحو ثلث المنتخبين بيد أن كثرة الموظفين في الحكومة لا يفسر بأن الاشغال تمشي بسرعة على طريقة حسنة بل ان الوقت والمال والقوة تضيع في هذا التطويل والقيود . يساعد على ذلك الاهمال المغروس في طبيعة الموظفين على الاغلب ولا سيما في المجرين فمن لم يتابع البحث عن أوراقه ويلحقها من ديوان الى آخر ويوصى صاحب الشأن تضيع وتهمل ولا نغالي اذا قلنا أن المجر على كثرة تغاليهم في التناغي باستقلالهم قد فتحوا للحكومة من أبواب التدخل في أمرهم حتى في المسائل الخاصة ما يصح معه أن يحكم بأن البلاد المجرية أكثر الممالك التي جعلت نفسها تحت وصاية حكومتها في كل شأن من شؤونها

ولقد عددت مجلة القرن العشرين الحرة وهي لسان حال علم الاجتماع في بودابست عدة أحوال نابت فيها سلطة الحكومة مناب الاقدام الخاص والتبعة الشخصية فقالت ان الحكومة تعطي راتباً للكاهن الذي يعمد الوليد وللموظف الذي يقيدده في السجل وترزق المعلمين وتوصي الطابعين وصناع الأدوات المدرسية وتدفع لمؤلفي الكتب المدرسية ولنقادها ولانشاء دكات للمدارس ويستعمل خشب الحكومة وحديدتها والحكومة تعاون المطابع ومخازن الدخان وعمال الدخوليات (أوكتروا) والكتاب والاختباريين وغيرهم والجمعيات العلمية والصناعية والزراعية والنقلية والمجمع العلمي والممثلين والمغنين وكل من لهم مشاريع يريدون ابرازها الى حيز الوجود ولارباب الضجة والسكوت وتدر المال على الصنائع الاهلية واستملاك محال الوقود وتساعد العامل الصغير والصانع الكبير ومنها يطلب الممثل قرضاً والصراف مالا

هذا وحرية الأديان والمساواة لم تتم في المجر الا سنة ١٨٩٥ وكان لاكتلكة المقام الأول ولرجال الدين سلطة نافذة ويكفي أن يقال ان مساحة بلاد المجر

تبلغ ٣٢٤،٨٥٠ كيلومتراً مربعاً تملك الاسقفيات والاديار والبيع ١٢ ألف كيلومتر مربع منها وبذلك يحكم رجال الدين لان من المال قوة فكيف فيمن اجتمعت له القوتان القوة الروحية والقوة المالية

أهم القوانين الدستورية في المجر ٤٥ قانوناً يرد عهد الاول منها الى القرن التاسع أى الى أحد عشر قرناً وأهمها قانون سنة ١٧٢٣ و ١٨٤٨ وضم النمسا والمجر سنة ١٨٦٧ الذى تم الاتفاق بين المجر والنمسا على أن يدافع المجر عن مملكة النمسا كما يدافعون عن مملكتهم أنفسهم ويكونون مستقلين الا في الجيش والبحرية والامور الخارجية فيدفعون قسطاً صالحاً من المال لمعاونة حكومة فيينا وتتعهد الاسرة المالكة النمساوية بالمحافظة على استقلال المجر وحرية البلاد واستعمال جميع قوة النمسا للدفاع عن سلامة الاملاك المجرية وملك النمسا يحكم المجر كما يحكم بلاده ولكنه يمثل مملكتين متباينتين ولا يكون ملك النمسا ملكاً مطلقاً الا اذا أقر على تنويجه مجلس المجر ويقضى القانون الاساسى في البلاد أن يقيم الملك ستة أشهر في فيينا وستة أشهر في بودابست ولكن هذه العاصمة لا تنال حظ قدومه سوى شهر واحد على الاغلب وهو يتلطف كل التلطف مع الامة المجرية الا أن هذه لا تنسى ما نالها من سحق النمساويين لها في ثورة ١٨٤٨ التى لا يرح المجرىذكرونها ويحتفلون كل سنة بذكرى مقتل الثلاثة عشر قائداً مجرياً الذين اعدموا سنة ١٨٤٩ لاشتراكهم بحرب الاستقلال ضد النمسا ويسمونهم الثلاثة عشر شهيداً وترفع الاعلام السوداء على النوافذ وقد كانت جنازة كوشوت سنة ١٨٩٤ من أعظم الدلائل على ذلك كما كان الاحتفال بافتتاح قبة سنة ١٩٠٩ بالغاً حداً دل على مبلغ تعلق هذه الامة برجالها الذين سموا لاستقلالها .

للمجر الشودتان أنشودة الملك والجيش وأنشودة الامة ولهما عيدان وطنيان الأول في ١٥ آذار والثانى في ١١ نيسان فالأول هو عيد المجر الحقيقى يحتفل فيه بذكرى سنة ١٨٤٨ وقد قرر مجلس الامة المجرية اشتراك الاشراف في جميع

التكاليف العامة والغاء حقوق السادة وحرية الصحافة وفي ١١ نيسان هو اليوم الذي صدق فيه الملك فرديناند على القوانين الدستورية

لا يحب المجر النمساويين ويريدون أن يخالفوهم في كل شيء ولو بالصورة الظاهرة وما أنس لأنس يوم اجتاز بنا القطار من الأرض النمساوية وابتعدنا ساعتين عن فينا ودخلنا في الأرض المجرية فان الأرض تكاد تلبس حلة غير الحلة الأولى وقال لي رفاقي في القطار وكانوا مجريين أنت الآن في أرض هنغاريا مولاي ثم خرج الشرطة والمفتشون كأننا دخلنا الى مملكة أخرى وان ماين فرنسا والمانيا من التباين لا يشعر به على الحدود بأكثر مما يشعر بالتباين بين المجريين والنمساويين والمجر يطلبون اشارات خاصة لمسكرهم كما يطلبون أن يكون التعليم العسكري باللسان المجرى ولهم مطالب أخرى يسمعون اليها لئلا يكون للنمساويين عليهم أقل سلطة وتأثير وان كان هؤلاء تأثير كبير في الأمور الاقتصادية والعلمية كالألمان هذا مع أن بلاد المجر غنية بصناعاتها وزراعتها وعلماؤها ويكفى بأن ثروة المجر قدرت سنة ١٩١١ بثمانية عشر مليار فرنك قيمة أملاكها العقارية وخمسة مليارات قيمة أموالها غير المنقولة ومثلها صناعاتها وبائى عشر مليوناً نقودها وبثلاثمائة مليون أموالها في الخارج أى بأربعين مليون مليار وثلاثمائة مليون فرنك يخرج منها ديونها العمومية خمسة مليارات ونصف

هذا حال مملكة أفقدتها النمسا استقلالها ولكنها لم تقض أولم تستطع القضاء على حياتها الوطنية والاقتصادية كما فعلت روسيا مع بولونيا وبقيت بولونيا بحالها أو زادت ولولا معاونة روسيا للنمسا ما استطاعت هذه ان تغلب المجريين

ليست الامة المجرية عريقة في المدنية كالام القديمة في أوربا فقد جاءت حوالى القرن التاسع وانضمت الى أهل أوربا ونزلت بلادها اليوم ولذلك تجد فيها حتى الآن شيئاً من أوضاع القرون الوسطى في نظاماتها الاجتماعية فان تسعة اعشار من يعملون في الحقول المجرية الى اليوم هم من السلافيين « الصقالبة » أو الرومانيين المغلوين على أسمهم افتتح المجر البلاد وامتلكوا الأرضى وما زالوا يستثمرونها

بأيدي غيرهم ولم يبرحوا في كثير من البلاد على طريقة القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر

واذا تأملت ملياً في حال المجري تجده يشبه التركي في كثير من أحواله فانه يعمل القدر اللازم حتى لا يموت جوعاً هكذا شأن الفلاح والصانع وكذلك شأن طالب العلم وصاحب المنصب كأن حكم العثمانيين على بودابست مئة وخمسين سنة قد طبعهم بطابع تركي فقد رأيت المجريين يشكون من ضعفهم وقلة توفرهم على العمل ويقولون ان منا كثيرين من يعملون شهرين وينقطعون عن العمل عشرة أشهر وهذا عيب كبير في مجتمعنا

تقدر مساحة أملاك صغار الفلاحين في المجر بعشرة ملايين هكتار أي ان يكون الواحد يملك ستين هكتاراً أو الوسط الذي يملك ستمائة هكتار يقدر بثلاثة ملايين وكبار المزارعين بستة ملايين ومجموع ماتملكه الحكومة والمدن والمقاطعات والكنائس والاديار بعشرة ملايين هكتار

وقد أصيبت بلاد المجر بداء الهجرة فهاجر منها منذ ١٩٠٠ الى ١٩١٠ سبعمائة الف رجل فارتفعت أجور العملة وبيعت أملاك صغار الفلاحين من أواسطهم وكبارهم ومهاجرهم مقتصد بحيث يرسل مهاجروهم الى بلادهم كل سنة مئة وستين مليون كورون ومن يعودون الى بلادهم يعودون أغنياء وقليل مادم والعائدون يتعاونون الاراضى بالاثمان الفاحشة

وللاسراييليين المقام الاول في تجارة البلاد تعرفهم بسيماهم ولا سيما في بودابست طاصمة البلاد فان ثلث سكان هذه العاصمة من الاسراييليين أي ثلثمائة الف من أصل تسعمائة الف وييدهم التجارة والصرافة والصناعة وهم أكثر الامة تعلماً وأقدمهم على الاعمال هذا مع أنهم ليسوا قداماء في البلاد بل أن هجرتهم اليها ترد الى العهد الذي طردت فيه اسبانيا وفرنسا والمانيا وبلاد القاع الاسراييليين من بلاد هافوجدوا في بلاد المجر صداراً رحباً وخلفوا اليونان في التجارة . وحيث توطدت قدم التاجر الرومي يصعب على التاجر الاسراييلي أن ترسخ قدمه والرومي

كالاسرائيلي بشوش لين العريكة يعرف من أين تؤكل الكتف في التجارة بخلاف المجري

يقدر عدد الاسرائيليين في المجر بثمانمائة وأربعين ألفاً منهم ستائة ألف « تمجروا » أى أصبحوا مجراً حتى في أسمائهم ومناحيهم ولا يزال عددهم ينمو فان كان أبناء اسرائيل يقبلون على التوطن في هنغاريا فليس لان التجارة والصناعة والصرافة تستميلهم الى نزولها لان جميع الصناعات الحرة مفتحة الابواب أمامهم هذه معلومات قليلة عن بلاد المجر التقطتها في يومين اثنين صرفتها في عاصمة بلادهم أزور معاهدها البديعة وبودابست من أجل عواصم أوروبا وهي مدينتان في مدينة أى بودابست يفصل بينهما نهر الطونة وترتبط البلدان بأربعة جسور كبرى بديعة من أجل مهندس المهندسوز والجسران الجديدان الاخيران هما من صنع مهندسين مجريين أما المدينة فمقسمة شوارع فخمة فسيحة وهي نظيفة لا تقل عن أحسن العواصم

وأهل المجر يحبون الاترك ولا يزالون يذكرونهم بالخير لانهم يرون أن اخواننا أسدوا اليهم جيلاً غير مرة وآخر مرة في ثورة المجر الاخيرة يوم لجأ زعماء الثورة الى الارض العثمانية فحماهم سلطان العثمانيين « واطنه المرحوم السلطان عبد المجيد » من أن تنالهم يد النمسا التي طلبت بالحاح تسليمهم وآثر أن يشهر حرباً على النمسا أو تشهرها عليه على أن يسلم من دخل حماه ولذلك ترى المجر يذكرون هذه المنة على الدهر ويشفعونها بالشكر وحسن الذكر

(١) مبادئ الحياة الادبية

٦٧

سادتي الاعزة : تقاضاني بعض الاحباب ديناً لم أر بدأ من قضائه على حين اشتداد الازمة بل الازمات في بلادنا . أرادوني أن أحضر كم بشيء مما جنيته (١) محاضرة لنا القيناها في المنتدى الادبي في الاستانة يوم ٢٤ ربيع الاول ١٣٣٢ و ٢٠ شباط ١٩١٤

في هذه الرحلة الثانية الى ديار الغرب من ثمرات مدنيته الزاهرة فلم يسعني الا اجابة الطلب مع الشكر لحسن ظنهم وان كان البحث في نهوض القوم أو في فرع من الفروع ارتقاؤهم يحتاج الى درس عميق وبحث دقيق ولكن مالا يدرك كله لا يترك جله فاذا أتيتكم بأمور تعرفونها أو أكثرها فذاك لاني أحببت المبادرة الى امتثال الامر مع علمي بأني لا آتي بجديد على أنه لا جديد تحت الشمس :

كانت السياحة في سالف الزمان ضربا من شاق الاعمال ولكنها أصبحت في هذا العصر على سهولتها حاجة من حاجات المجتمع يحتاج الخاصة اليها أكثر من غيرهم ويدخل في الخاصة أرباب النعمة من التجار والزراع والصناع كما يطلق على العلماء والمفكرين والباحثين والمتعلمين وقد وردت عدة آيات في الكتاب العزيز في الحث على السياحة ولكن الشرق ضعف في العمل يهدى قدمه ولم يهتد الى وجه الصواب في حديثه .

كان أجدادنا يطوون الاميال والفراسخ أياما وشهوراً لينتقلوا من قطر الى آخر ونحن اليوم نسيح في شرق الارض الى غربها في أيام يسيرة ونقطع بضعة الوف من الكيلومترات في ساعات معدودة ومع هذا نرى السائحين منا الى الآن أقل من السائحين في العصور الماضية هذا اذا قابلنا بين سرعة المواصلات وتوفر أسباب الراحة في عصرنا وفقدانها في أعصار أجدادنا أيام كان يقول ابن زريق البغدادي وقد رحل من بغداد الى الاندلس .

ما أب من سفر الا وأزعجه رأي الى سفر بالين يجمعه
كأنما هو في حل ومرتحل موكل بقضاء الله يذرعه

اننا اذا رحلنا اليوم الى الغرب نجدد حياتنا بعد ذبولها وتقوى حواسنا بعد انشلام حدها وندخل في طور تتعلم فيه ونعتبر ونعود عادات حسن أكثرها وجدير بنا أن نقتبسها عن سبقونا مراحل وأشواطا . لانها نتيجة علم متوارث ونظر بعيد متسلسل . فكل ما نراه في ديار الغرب هو عمل قرون خلت . وأجيال علمت فعملت :

وأحب آفاق البلاد الى الفتى ارض ينال بها كريم المطلب
تكثر الخواطر على السائح منا في ربوع ام الحضارة الحديثة فلا يلبث ان
يذكر بلاده ويقابل بين حالها وما يشاهده هناك من السير نحو الكمال بخط سريعة
في حين يرى امته تسير سير السلاحف .

ان القبايع سار سيراً فكراً يسير يوماً ويقيم شهراً
نعم يسير الغرب بسرعة البخار والكهرباء ، ونحن مازلنا نسير بسير الجمال
والبغال والحمير ، وشتان بين نظام السيرين .

سر اين شئت من بلاد المدنية تجدها نسقاً واحداً في الاستمتاع بنعم الجمال
والكمال وقد تشاهد لبعضها على بعض امتيازاً في أمور تتفرد بها ولا فرق في
اصل المادة بين الشرق والغرب : سهول واودية وجبال وانهار وبحيرات وبحار ،
ولكن الفرق في تربية العقول ونمط الحياة فالسر اذاً في السكان لا في المكان .
سحت هذه المرة في ايطاليا وسويسرا وفرنسا والنمسا والمجر فرأيتها الا قليلا
متشابهة في راحتها ونعيمها وعمراتها وعلمها وآدابها وصناعاتها : الناس كلهم يتفنونون
فيما يعلمون ويسرون اليوم بعد اليوم نحو الكمال فيارب ماهذه الروح التي تجرد
منها جسم الشرق وسرت في عظام الغرب وأعصابه وشرائينه فأتى أهله بالعظام
ونحن بقينا خامدين مبهوتين منحلين متضائلين

لا تغبط المجدب في علمه وان رأيت الخصب في حاله
ان الذي ضيع من نفسه فوق الذي ثمر من ماله
مدنية الغرب غريبة في كل مظهر من مظاهرها ، لأن أهلها أحسنوا
الانتفاع من كل قوة في الوجود ونحن أضعنا بجهلنا القوى القريبة الانتفاع .
هذا شأنهم في كل شيء فكان الغرب حلف أن لا يحالف الشرق والشرق آلى أن
يخالف الغرب على كثرة حاجته اليه واضطراره الى الأخذ عنه .

رأيت أولاداً وبنات دون العاشرة يسبحون في الغرب من قطر الى آخر وخدم
بدون أدنى رهبة وارتباك ، ولم أشهد كثيراً من رجالنا يستطيعون السياحة في
أوروبا وأميركا على ما يجب ، وبهذا تعرف درجتهم ودرجتنا وتسجل بأن صبيانهم

أقوى من رجالنا ، وفتياتهم أعقل من نساءنا فاذا كانت النسبة مفقودة بين ابن العاشرة وابن الخمسين فهلا تكون المسافة بين حالنا وحالهم أطول وأجزل .

اننا في درس المدينة الغريبة نأخذ ماتهما لنا وتمثل لانظارنا بادیء الرأي ولو أردنا استقصاء البحث لاقتضى علينا أن نصرف السنة والسنتين لندرس حال مدينة واحدة من مدنها فما بالك بالملكة أو الممالك . ينفد العمر ولا تنفد مادة الكلام عن رقي الغرب وكلما تأملنا معاهده ، وحللنا مادة قواه ، نبكى لضعفنا وقوتهم ، وجهلنا وعلمهم ، ونكاد ندخل في اليأس المميت ، من تحسين حالنا لولا أن اليأس محرم ، وأن التاريخ يحدثنا أن أمماً كانت أحط منا منزلة فارتقت لما صحت عزائم بنينا على انهاضها ، والأمم لا تموت الا اذا اسلمها بنوها العارفون للموت . مواد هذه المدينة التي تأخذ بالعقل والقلب كثيرة ومن أهمها تقدم الغريبيين في بيوتهم عنا ، ورقى الأسرة هنالك وانحطاطها هنا ، والمملكة التي تتألف من بيوت راقية هي التي تحرز شوطاً أبعد من غيرها ، وما الممالك الراقية ، الا مجموعة بيوت راقية ، والكليات تتألف من الجزئيات ، ومن تماسكت أجزاء مادته ، كانت أسبابه اقرب الى القوة بالطبيعة .

كل من يدخل مدينة من مدن الغرب ويختلط بسكانها بعض الاختلاط فلا يبقى مقتصرأ في معلوماته على حياة الشارع والمطعم والفندق والمسرح والقهوة والاماكن العامة يسجل في مذكرته أمثلة لا يكاد يحصيها من رقي الأسرة الأوربية تجسدت في جميع حالاتهم اى تجسيم ، وحامل المسك لا يخلو من العبق

تحمل مدينة الغرب في مطاويها حسنات وسيئات ، ولكن حسناتها تربو على سيئاتها فترى فيها الفضيلة التي بزت الفضائل ، والذيلة التي تربو على مجموع الرذائل ، ولكن الملبع ، يغطي وجه القبيح ، فكأن شعار المدينة الحديثة الارتقاء ، في كل شيء ، والجمع بين المتناقضات ، اما الشرق فهو وسط او دون الوسط ، والوسط والدون لا يكادان يملآن عملاً محموداً في هذا الوجود .

أذكر لكم أمثلة ثلاثة من عشرات من الأمثلة وقعت العين عليها في باب ارتقاء الأسرة الغريبة تمثل أدوار الأعمار وأدوار البيوت . المثال الأول أسرة

فرنساوية مؤلفة من والد ووالدة وطفلتين وطفلين من سكان الولايات من أهل مقاطعة الجورا على الحدود السويسرية جاءت لوزان لتطبيب أحد أولادها ونزلت في المنزل الذي أقمت فيه فلاحظت أمرها مدة أربعة أسابيع انظر عناية الأبوين بتربية أولادها فكان الوالد يوقظ أولاده في الساعة السادسة والنصف ويأخذ في لباسهم ثيابهم مع زوجته وهذه تسرح شعور الأبنيتين وتمشطهما فاذا تناولوا طعام الصباح يرافق الثلاثة من أولاده الى المدرسة لانه وضعهم في المكتب مع أن مدة مقامه في تلك المدينة لا تتجاوز شهرين ثم يعود الى الدار ويحمل ابنه الى الطبيب ويعود به بعد ساعتين فيجىء الاولاد في وقت الظهر وبعد تناولهم الطعام يعود فيشيمهم ثانية الى المدرسة وربما عاد اليهم في المساء ليستصحبهم أو اكتفى بانتظارهم للخروج بهم مع والدتهم الى النزهة . عناية فائقة في هذين الوالدين الذين لا يعرفان غير تعهد صحة أولادها وتعليمهم وتربيتهم وتخريجهم على الآداب والفضيلة والتدين . هذه الأسرة من أسر الأرياف والفلاحين من أهل الطبقة المتوسطة التي تكون على شيء من اليسار ولطالما هنأت الوالدين على عنايتهما بأولادها وقلت لهما أن الأسرة الفرنسية لو كانت كلها مؤلفة على هذا النحو وتربى بمثل هذه العناية وتتعهد بما يشبه هذا الحنان الفتان لاستتحت فرنسا أن تشكو من قلة نفوسها وانحلال التربية في بعض عواصمها . ولهذه الأسرة مئات الألوف من الأمثلة ومثل ذلك يقال في جميع ديار الغرب

والمثال الثاني الذي رأيته يمثل درجة أخرى من درجات الأسرة رأيته في إيطاليا في قصر من أعظم قصور الكبراء الذين جمعوا بين الطريف والتلبد وأعنى به منزل صديقي الأمير ليوني كايثاني الذي صرفت أياما في الاشتغال في مكتبته أبحث عن تاريخ بلادى وأجدادى فان هذا الرجل الشريف في أمته البغى بعلمه وماله لم يزق سوى ولد واحد هو دون العاشرة ولما جاء وقت تعليمه أرسله الى سويسرا يتعلم فيها ولم تأخذه الشفقة عليه وآثر أن لا يراه وأن يربى تربية راقية صحيحة على أن يكون في داره القوراء بين والديه وأهله وقبيله .

والمثال الثالث آتيكم به من بودابست عاصمة المجر فان العلامة غولد صهير شيخ

المشروعات في هذا العصر لم يرزق سوى ولد واحد علمه فلما زوجه أخرجه من بيته على عادة الافرنج في اخراج أولادهم من دورهم متى شبوا وتأهلوا ليؤلفوا أسرة برأسهم ويعيشوا مستقلين عن أبويهم فلا يقع تقور بين الكنة وحماتها ولا بين الولد ووالده . والراحة في الاستقلال في كل شيء . هذه أمثلة ثلاثة من أطوار الأسرة الاوربية تمثل أطوار تلك الأم أما تحليل أجزاء تلك التربية ومادة تلك النفوس الكبيرة فيحتاج لمعمل كيماءى كبير يحشر اليه علماء التربية من أجدادنا والمحدثين من أهل الغرب ليقولوا لنا خلاصة تحليلهم لمادة الحياة الاوربية النامية . والعبرة بالكيفية لا بالكمية .

دعاني الأستاذ غولد صهير لتناول طعام العشاء في بيته وقال لى أنه سيكون معنا ابنه غولد صهير المهندس وكنته ولما قدمنى اليهما قال لى : ان كنتى وهى تعرف خمس لغات فقط تكتب بها وتنكم بسهولة عارفة بالآثار المصرية Egyptologie فقلت لها : بارك الله فيك أيتها العقيلة المحترمة : مجرية في مستقبل الشباب تدرس آثار مصر ومصر باريزنا وأهلها أرقى شعب اسلامى ليس فيهم لدرس آثار بلادهم سوى رجل واحد هو العلامة أحمد كمال بك وكيل المتحف المصرى هذا الرجل الفرد في وادى النيل يتوفر على البحث في عادات مصره على الاصول الغربية وهو منذ زهاء عشرين سنة يلوب على من يعلمه ما يعلم ليخلفه على الاقل في منصبه لانه بلغ سن الشيخوخة ولم يجد في ثلاثة عشر مليون مصرى من يقبل على تعلم ما أفنى حياته في تحصيله وألف فيه ونوع الاساليب في نشره في الكتب والمحاضرات والمقالات . أنا أعلم أيتها العقيلة النبيلة أن في أوروبا نحو عشرة من علماء الآثار المصرية ولكن ما كان يخطر لى ببال أن أرى في بلاد المجر فتاة تشارك الرجال في علمهم وتساهمهم في من يحتاج الى نظر دقيق ومادة متنوعة في العلم ، فان كان نساؤهم على هذا المثال فلاعجب اذا كان من رجالهم المعجب العجائب الى اليوم لم تفكر في هذا الشرق الاقرب في تعليم فتياتنا كما يتعلم فتيات الغرب ، والنساء نصف البشر ولا يقوم النصف الاول الا بنهوض النصف الثانى ، ارسكانت كنة غولد صهير أستاذ تفسير القرآن والأصول والحديث والملل

والنحل في جامعة بودابست عالمة بالآثار المصرية ، فكم عالمة بل عالم عندهم معاشر العرب بآثار البتراء وبعليبك وجرش وتدمر وبابل وأشور وحير والحيرة أنا مع الأسف على كثرة بحثي في تراجم الناس وأيامهم لا أقدر أن آتيكم بواحد يكون على النمط الاوربي في بحثه ودرسه كما لا أجد في أمتي المهندس الذي أريده ولا الكيماوى ولا الطبيعى ولا المصور ولا النقاش دع من يماثلهم من النساء اللاتي شاركن الرجل في معظم حياته المادية والمعنوية في الغرب . و صما قريب يشاركنه في الحياة السياسية .

كل ماتعلناه الى يوم الناس هذا . وقلدنا فيه الامم الراقية لم يخرجنا من الظلمات الى النور . فلم نبرح عيالا على الغرب في معظم شؤونا ومرافقنا وقيام أمرنا ، فما دمنا نريد التحرير السياسى و ليس لنا من أسباب التحرير العلمى قليل ولا كثير هيئات أن تقوم لنا قائمة .

كيف تعمر بلادنا وتستبحر الحضارة فيها ونقلد الغربى في حياته السعيدة وليس عندنا مصور ولا مهندس ولا نقاش ولا مغار ولا موسيقار ولا كيماوى ولا غيرهم وزيادة على ذلك جهل النساء وهو من أعظم الويلات .

لم نعمل حتى الآن احصاء بعدد الاميين في بلادنا ولكن المفهوم ان عدد الاميين هو ٩٥ في المئة في بلاد العرب في حين أصبح عدد المتعلمين في أكثر مدن الغرب مائة في المائة تساوى في الاخذ من العلم بالخط اللازم للنساء والرجال والمتعلم منهم التعليم الابتدائى أرقى من المتعلم منا التعليم الراقى وكل شىء نسبى قالت لى فتاة بولونية في الثامنة عشرة من عمرها تدرس علم التربية والتعليم في جامعة جنيف على أحد مشاهير هذا العلم وهى عارفة بوضع لغات أوربية وقد سألتها عما تقصده من تعلم هذا العلم فقالت : أريد أن أوسس مدرسة في بلدى لان الواجب على المرء ان يكون شىء في هذا الوجود . فقالت لها : جزاك الله عن هذا السعى لامتك خيراً ولكن نساءنا في الشرق لا يردن ولا يريد أولياؤهن مثل ماتريدين ، اكتفين بان يكن لا شىء في هذا العالم ولذلك لا تجد بين ألوف من الطالبات البولونيات والروسيات والمجريات والالمانيات والايطاليات والرومانيات

والبلغاريات والصربيات واليونانيات والاسبانيات والبرتغاليات والبرازيليات والارجنتينيات طالبة عربية اللهم الا واحدة مصرية فيما أعلم تساهم بنات جلسها وتزاحمن على دكات الجامعات في سويسرا وفرنسا وانكلترا وألمانيا فتأملوا حال أمتكم وانظروا الى أى درجة بلغ بين أظهركم انحطاط عقول بنات حواء .

كلما نظرت ملياً في سعادة الحياة في الغرب وشقتها في هذا الشرق يتجلى لي سر تعليم المرأة كما يعلم الرجل وانها هي التي أوجدت تلك الحياة البيتية السعيدة فبالحب والجمال والعواطف والرغبة في الكمالات تمت للبيت الغربي سعادته ومن سعد في بيته أو توقع السعادة فيه كان حرياً بأن يعمل الأعمال العظيمة خارجه اذ يجده في منزله سلوى وعزاء وراحة وهناء .

رأيت كثيراً من شبانتنا يشكون انحطاط تربية المرأة العربية وقلة ما عندنا من الفتيات المتعلّقات اللائي ياقنن للزواج الذي تكون من سعادة أسرة حديثة قوامها الآداب المصرية والفضيلة والمعارف ولكنني لم أر شاباً من هؤلاء المتعلمين ولا ممن سبقوهم من العلماء من غنى بتعليم أخته أو ابنته التعليم الراقى ولا من فكر في تأسيس مدرسة ابتدائية على الطراز الحديث لتلقين البنات مبادئ تنفعهن حقيقة في تأليف البيوت التي يرفرف عليها طير السعد والرغد . النظريات عندنا كثيرة ولكن العمليات لم نسلك طريقها وبالإلـاف حتى الآن

أوروبا ممدنة العالم وجنات النعيم المقيم وقرارة الراحة ومستقر الهناء أيقضى ياترى على مدنيتك البديعة وتنحل بما حوت ديارك من جمال الوجود وجمال الفعال ووفرة العلم والغنى وآثار الغبطة ومعاهد الصفاء والنعمة ليقوم الشرق فيستلم زمام هذه المدنية ويكمل مبادئه أو يمزقه تمزيق الاخرق الا الحق كثرة ورثها وارث لم يعرف قيمتها أم تسلم لك هذه الحياة السعيدة وتقل مؤلماتها ومووباتها ويم الشرق أثرها ويشاركك في كل معنى من معانيك البديعة ويكون حظه كحظ البلاد الراقية من ربوعك ويتحرر من أسره السياسي وأسره الاقتصادي وأسره العلمي ويتخلص من التبعية لك في كل ما يدل على ضعفه وتراجع أمره .

تيار الغرب ينهال علينا فيأتينا تارة بحمأة وطوراً بقليل ماء فهل نرزق التوفيق

ياترى فنكرع من معينه ونطرح كدوراته أم نتناوله على علاته ولا نكاد نسينه .
ان مالدينا اليوم من أسباب القوة لا يقوم في وجه ذاك التيار لانها ضئيلة
لا كفاء لها بالمقاومة ، ولعمري أن ألف أمى وأمية لا يوازي عقلهم عقل متعلم
أو متعلمة واحدة .

كانت حكوماتنا ومجتمعاتنا حتى الآن تعد الجهل قوة والانحطاط نهوضاً .
وكما كانت الأفكار منصرفة الى وجهة واحدة يعينها صاحب الشأن كانت تلك
المجتمعات تغتبط وتفرح ولطالما قال بعض من أحسنتم الأمة ظننا بهم قرونا واستولوا
على عقولها وقلوبها وتصرفوا بعجزها وبجبرها اذا قيل لهم أن العلم العقلاني مفيد ينبغي
أن يكون في الأمة أفراد يعرفونه : أن هذا العلم لا تنفع معرفته ولا يضر جهله .
بيد أن الأيام أثبتت أننا في أشد الحاجة لكل علم وفن ومجتمعنا العربي
العثماني لا يقوم حق القيام الا متى عهد أفرادنا الى الأخذ من كل مطلب من
مطالب الحياة كما هي سنة من سبقونا ، ومن الأسف أننا لم نبرح في مجتمعنا شاهد
ناشئتنا الكريمة على الاغلب تميل الى المذاهب الاتكالية وأكثرها يؤثر التوظيف
في فروع الادارة والجندي ولو كانت هذه غير رابحة في الجملة . ان جعل وظائف
الحكومة هدفاً لنا في تعلمنا هو الذي أفقر هذه المملكة وجعلها في مؤخرة الممالك في
عمرانها وثروتها وراحتها . والمال أساس الاعمال ولا يأتي به الا المتعلمون من الرجال .
فهل لكم يا رجال الأمة أن تحققوا هذا الظن بكم فقد سئمنا ونحن نسمع من
أقبال المتعلمين من أمثالكم على الوظائف والزهدي في الصناعات الحرة وانى لأخجل
اذا قلت أن صانع الخزف والفخار والقرميد أتفع لهذه الأمة من وزير متوسط
القريحة ضعيف مادة العلم لا يحسن عمله وقد وصل الى منصبه بالمصانة والشفاعات
وان دباغ الجلود أو صباغ الحرير والقطن أشرف من فقيه تعلم بعض فروع
المعاملات ليتولى بعض الاعمال القضائية والشرعية .

وبعد فرجائي اليكم يا شبان هذه الامة ، وبغيركم لا تجد شبيبها ، أن تجعلوا
نصب أعينكم الاعمال الاستقلالية ويكنى بعضكم أن يتولى الاعمال الادارية وغيرها
في المملكة فان الكل لا تتسع خزينه هذه الامة لا عاشته خصوصاً وأنتم تعلمون

ضائقة الموظفين وان جيوبهم في الغالب فارغة تتقاذفها الرياح لانها خالية وهم على الدوام مثل تجار البورصة اقبال وادبار والادبار في الاكثر هو الغالب .

من لى بأن يعمل كل واحد من شبان هذه الامة الواجب عليه أولاً ويتوفر على دراسة ائفرع الذى يمت به فان سن الدراسة معينة محدودة لا ينبغي أن يعمل فيها مايجب عمله في غيرها ومتى أتم الطالب ذاك الدور فلا جناح عليه اذا اشتغل بالعموميات فشاركة الطالب في المسائل العامة يجب أن تكون في سن الدراسة الى حد محدود وبعد ذلك فهو في حل من الاشتغال بما أراد .

أنا أحب أن أشهد من أبناء أهلى وقره عينها رجالا يفكرون في ترقية نفوسهم وذويهم وبيوتهم والاخذ بأيدي اخوانهم أكثر مما أحب أن أراهم يفكرون في المسائل الاجتماعية الكبرى التى يضيع بها الوقت على غير طائل بالنسبة اليهم وان كان الواجب على كل وطنى أن يصرف من فكره ووقته شطراً ولو قليلاً للنظر في المسائل العمومية .

تلامذة الكليات فى ألمانيا هم الذين هبأوا الوحدة الألمانية ووضعوا أساسها فى القرن الماضى ولكن كان العلم رائدهم وكان عملهم يقف عند حد محدود فهل يأتى يوم على هذه الامة البائسة ياترى تشهد فيه طلاب مدارسها العاليا بعد أن يتموا وظائفهم المدرسية يفكرون فى الخير العام لامتهم خصوصاً متى أتموا سن الدراسة وأصبحوا أحراراً فى أعمالهم واراداتهم . نعم أيها الاخوان « ان الشفيق بسوء ظن مولع » وان مايتمثل للانظار من مدنية أوربا مهما كان ظاهره فيه الرحمة فرحمته لاهله لا لنا ونحن لارحمة لنا الا اذا أتناعلى أيدي رجالنا أمثالكم وهؤلاء لا يأتون بعمل تام الا اذا شاركهم النساء وحسن نظام البيوت وتنظيمها على الاساليب الغربية نعم نحن لاحياة لنا الا اذا تعلم الرجال وربات الحجال التعليم اللازم وقام كل واحد بواجبه ووجدنا المقاصد فى التربية والتعليم .

ان القليل المتعلم منا لا يؤلف أقل أمة صغيرة ، وهذه الزهرات التى أراها مهما بلغ من نضارتها تضيع بين ما هناك من عوسج وبلان فلا سبيل الى وقايتها الا بتنقية هذا الشوك ما أمكن ولا ينقى بغير معول العلم والتربية ومعرفة الواجب والعمل بسنة

الغرب التي سلكها في الترقى على تعديل طفيف يدخل فيها بطبيعة الاقليم والعادة .
ان ناديم هذا مثال من أمثلة التضامن ولكن أمتنا لا تعد مرتقية الا متى
كان في كل مدينة بل في كل قصبة من مدنها وقصباتها أندية تنسج على منواله
في التعارف والتعاطف وتوقد في الصدور جذوة الغيرة الوطنية وتحمس النفوس
الى طالب العلم ويأخذ القوى بيد الضعيف حتى يساويه في المنزلة ويتدبر الكل
في مستقبل مجيد للامة يخرج بها الى حالة أحسن من حالتها الآن ويتعلم ابن الفلاح الصغير
كما يتعلم ابن الغنى الكبير واذا لم تقم جميع أعضاء هذا الجسم لا ينمو ولا يتم له البقاء .
واجباتكم أيها الاعزة كثيرة جداً والاولى البداءة بالجزئيات ولكن على شرط
أن نبداً ونجعل تاريخ الامم التي نهضت قد وثنا ومهمازنا على العمل يجب أن تكون مدنية
الغرب اذا أردنا أن نحيا حياته مصدرنا وموردنا وبدون ذلك الفناء المطلق والعياذ بالله
أو الاندماج في جسم الامم الغربية التي تبسط أيديها علينا اليوم بعد اليوم .
اننا لانحيا الا بقوميتنا على نحو ما كان أجدادنا همس وحال أم الحضارة الحديثة
اليوم ولكن هذا اللفظ الجميل - لفظ القومية - لا يطابق معناه مبناه الا باتخاذ
جميع أسبابه على نحو ما يعمل المجر والبولونيون والاطاليون وما يجزى من منافسة
محمودة بين الفالونيين والغلاننديين في البلجيكي والالمانيين والفرنسيين في سويسرا
ومن دواعي الحسرة ان من رحلوا من أبناء العرب الى ديار الغرب يدرسون
في معاهد العلم ليستحقوا الاسم العربي الشريف بالفعل لا بالقول أقل عدداً من
أكثر عناصر هذه الدولة . نعم هم أقل من الاتراك والروم والأرمن هذا مع
أننا أكثر من نصف سكان هذه المملكة المحبوبة وبلادنا أغنى من بلاد تلك
العناصر التي أخذت ما استطاعت من الحكومة لتعليم أبنائها وقامت بسد العجز
من أموالها الخاصة .

بلغنى أن في نية الحكومة السنية ارسال ستين طالباً من أبناء العرب الى مدارس
أوروبا العليا فان صبح النبأ عد من أعظم الاصلاحات . وان كان هذا العدد دون
الواجب أيضاً وذلك بأننا اذا ضمنا عدد طلابنا الآن بستين طالباً بلغ من قابل
مجموع طلبتنا في الغرب مائة وعشرين وهم لا يبلغون نحو سبع طلبة الايرانيين

في مدارس أوروبا مع أن العرب العثمانيين أكثر سواداً من الإيرانيين بالتحقيق .
هذه عددنا وهذا ما أعدناه ، هذه أدواؤنا وتلك أدويتنا ، وبأيديكم
وأيدى أمثالكم خلاصنا ، فلا تخيبوا آمالنا فيكم معاشر الشبيبة المستنيرة العبد
ثقل عليكم وبتضامنكم وتماسكم يهون كل عسير على شرط أطراد العمل وأتقانه ،
ومضاعفة الأفعال أكثر من الأقوال ، وصرف المسعى الى المنتج النافع ،
والزهد في التافه العبت ، والله يتولاكم ويسدد مراميكم ، ويقر عيون أوطانكم
بنجاحكم ويجعل منكم أعضاء عاملة في جسم مجتمعنا وأصواتاً داعية الى كل نافع
ورافع أنه سميع الدعاء

ارض يونان

٦٨

اغتنت فرصة ارساء الباخرة الرومانية التي ركبها من الاستانة الى الاسكندرية
في ميناء يرا لازور آتينة مدينة ارسطو وسقراط والمسافة بين يرا وآتينة تسعة
كيلو مترات تقطعها السكة الحديدية الكهربائية في خمس عشرة دقيقة . رأيت
آتينة مدينة وسطى لا تزيد نفوسها عن مائتي ألف وهي في منبسط من الأرض
وعلى مقربة منها أكمة قام عليها الاكروبول والمدينة نظيفة في الجملة مبلطة
أرصفتها بحجر أبيض يشبه الرخام وفيها حدائق نظيفة وابنياتها الحديثة من الرخام
أيضاً وأهم مالفت نظري فيها معاهدها التي قامت بعطايا المحسنين من أبنائها مثل
الستاد أو الملاعب العجيب الذي أنشئ بمال أفيزوف ونصب تمثاله أمامه .
وأفيزوف هو الذي خلف ملايين من الفرنكات أعطاها لأمته ومنها أنشأت
قسماً من الدارعة اليونانية المنسوبة لاسمه .

نم في آتينة تتجلى عطايا اليونان المحدثين فترى مدرسة البنات طالية داخلية
وخارجية أنشأها ارساكي من ماله وترى مكتبة الامة أسسها فاليانوس وترى
لافيزوف حبوس النساء والاولاد ولسذا المجمع العلمي ولسينكروس حبوس الرجال

وقد أنشأ على تقفته من آتينة الى فالير طريقاً معبدة وطولها ٩ كيلو مترات .
وأنشأ فارة كيس مدرسة عالية للأولاد وجاياس قصر المعرض وهو مؤسس مدرسة
البنات العليا للروم في الاستانة وهكذا تجد فلاناً من أغنياء اليونان أنشأ مدرسة
صناعية وآخر مدرسة زراعية وغيره مدارس ابتدائية وبلدية للفتيان والفتيات
فتجد اليوناني مع أنه أكثر الامم هجرة لبلاده - لأن نصف اليونان هاجروا
الى مصر والسودان وأميركا وشواطئ البحر المتوسط وغير ذلك من البلاد -
أكثرهم تعلقاً بحبها وتفكيراً في انہاضها يغتنى أحدهم من مصر أو من أميركا
ويجود بالالوف لبلاده لينهض بها وهذه خاصة من خصائص اليونان وان كان
المشهور عنهم كزازة الايدى .

نهضت يونان في المدة الأخيرة نهضة عظمى بفضل نشر التعليم على اختلاف
صنوفه بين أبنائها وهو الدواء الشافي لكل مرض اجتماعي .

التعليم في يونان مجاني اجباري وفيها اليوم ١٤١٤ مدرسة ابتدائية للذكور
منها ١١٩٧ من الدرجة الأولى و ١٣٤ من الصف الثاني و ٢٩ من الصف الثالث
و ٥٤ من الصف الرابع وعندهم ٤٠٠ مدرسة للبنات منها ٣٠٠ من الدرجة الأولى
وفي القرى ٨٨٤ مدرسة تقبل الذكور والأناث على السواء وعندهم مدرسة
عليا لتخريج الملمات وقد أنشأت جمعية آتينة الأدبية عدة مدارس مسائية يتعلم
فيها مئات من الفتيان المضطرين أن يعملوا في نهارهم وليس لهم من الوقت غير
الليل . في يونان ١٨٧٨ أستاذاً و ٦١٠ معلمات و ٧٦٨ معلماً في مدارس الاولاد
في الحقول ولهم مدرسة صناعية عليا تنقسم الى قسمين قسم يعلم الفنون والعلوم
ويخرج المهندسين والميكانيكيين ومنهم من يعد من الدرجة الأولى والقسم الآخر
يعلم الصناعات النفيسة أي النقش والرسم والتصوير والحفر والصناعات النقشية .
وعندهم مدرسة تجارية ومدرسة جامعة عليا فيها أساتذة اشتهروا بأعمالهم العلمية
حتى في أوربا .

هذا مع أن لليونان في الممالك العثمانية مدارس كثيرة راقية فان لهم في الاستانة
وحدها ٧٨ مدرسة فيها ٥٩٧ معلماً يدرسون ١٦٠٣٧٣ طالباً دع ما لهم في البلاد

التي ضمت الى بلادهم حديثاً وكل المدارس التي هي خارج علمهم لاتنال شيئاً من الرواتب من الحكومة بل ان يونان هناك يقومون بنفقاتها .

ربما لم تصب بلاد بمصائب الهجرة أكثر من اليونان فان الداخل منهم الى نيويورك وحدها كل سنة يقدر بأربعين ألفاً فما بالك في الاقطار الأخرى فاذا كان عدد يونان قبل الجزر وسلانيك ويانيا التي انضمت اليهم نحو ثلاثة ملايين فان المقدران مثل هذا العدد منهم موزع في أقطار العالم وهم يحافظون على لغتهم وعاداتهم حيثما كانوا بحيث كادوا يجعلون لغتهم في الاسكندرية ومصر والاستانة لغة رسمية لكثرة انتشارها وحرصهم على التناغمي بها .

ومع كثرة المدارس في اليونان ترى طلبتهم في جامعات الغرب كثاراً جداً ولا سيما في باريز ولندن . واليونان ان لم يكونوا أكثر الامم اقبالاً على تلاوة الصحف والتشوق للاخبار السياسية فهم في مجلة الامم المتقدمة في هذا الشأن فلاتكاد تجد واحداً لا يتلو جريدة أو كتاباً أو مجلة في كل مكان والفقير منهم يستعير جريدة جليسه ولذلك لا تبيع جرائدهم كثيراً فان لهم في أتينة (١١) جريدة يومية واذ كان العدد الواحد يفتقل من يد الى أخرى كما تنتقل جرائدنا في الشام ومصر في أيدي قرائها الذين لا يحبون أن يشتركوا ولا أن يتناعوها اقتصاداً بارداً منهم صعب على جرائدهم ان ترقى .

ولليونان جرائد كثيرة في الاستانة والقاهرة والاسكندرية وجرائد أسبوعية في بعض عواصم أوروبا ومنها ما يصدر بغير اللغة اليونانية ليبثوا فيها أفكارهم ويؤثروا في الاسواق المالية والمجالس السياسية .

هذا ما أمكن الالماع اليه من حالة رقي المعارف في يونان وأرضهم القديمة قبل الحرب لم تتجاوز ٦٤ ألف كيلومتر مربع وهي غير مخصصة في الجملة بل أكثرها جزر متقطعة في عرض البحر حتى ان سواحلها تبلغ في مساحتها سبع مرات مساحة سواحل انكلترا وتربو ١٢ مرة على سواحل فرنسا ولذلك كان اليونان في كل زمن يحصرون قواهم في بحريتهم ويصرفون فيها أموالهم وقسماً عظيماً من ميزانيتهم وقد كان اواخرهم التجارية يدطولي في استقلالهم سنة ١٨٢٤ لا ينكرها التاريخ .

واختلف العلماء في أصل اليونان الحاليين هل هم من نسل القدماء الذين ملأوا الأرض فتوحا وفلسفة وصناعات تقيسة والأرجح عند الباحثين في أصول الشعوب أنهم اخلاط من النار جاؤا منذ قرون الى هذه الأرض واستعمروها بعد أن فرغت من سكانها الاصليين أما هم فيصعب عليهم سماع هذا الحجاج ويحاولون بالطبع أن ينتسبوا لافلاطون وأرسطو وسقراط وديوجنس وهو مبرور وغيرهم من فلاسفة يونان الذين يبيضوا وجه التاريخ بعلمهم وحكمتهم . آثينة تشبه المدن الاوربية ممزوجة بشيء من الحياة الشرقية ولكن الفقر ظاهر على السكان والغلاء فيها أكثر من جميع أوربا قال صاحب كتاب يونان الحديثة ^(١) ان أسعار العيش في يونان يزيد ٥٠ في المئة عما هو عليه في انكلترا ونحو ٢٥ في المئة عما هو في الولايات المتحدة

المدنية الرومية الحديثة منقول أكثرها عن فرنسا وفرنسا ساعدت اليونان كثيراً ولذلك حفظوا لها جيلها وما برحوا حتى اليوم يتخذونها معلمة لهم ومربية حتى أن معلمي جيشهم الى الآن هم ضباط من الفرنسيين وفي الحرب الالمانية الفرنسية بعث اليونان بكتيبتين من متطوعتهم ليقاتلوا في صفوف الجيوش الفرنسية فقتل بعضهم وبيضوا وجوههم مع من أسدى اليهم جيلا ومن طبع اليوناني معرفة خدمة الأمزجة المختلفة والميل الى النافع له ما أمكن بكل وسيلة . ان ماني آثينة من بقايا العاديات القديمة ليس بالشيء الذي يلفت نظر السائح اللهم الا اذا أحب أن يزورها ليتذكر مافيها . وأين عظمة رومية من عظمة آثينة ولا نغالي اذا قلنا ان بقايا عادياتنا في جرش ووادي موسى وبعليك وتدمر أفخم وأعظم من بقايا عاديات اليونان كلها التي لم تقو على عاديات الايام .

في العاصمتين

٦٩

رأيت هذه المرة في العاصمتين عاصمة الترك الاستانة وعاصمة العرب القاهرة ما طالما شكamنه الاجتماعيون من الاتكال الجسم والغلو في حب التوظيف والاستخدام

(1) Percy F. Aartin la Grèce noieinelle

رأيت ابن الاستانة لا يفكر ولا يريد أن يفكر في غير استحصال الرزق من باب الحكومة ورأيت المصري كذلك كلاهما يستميتان في طلب الوظائف وقد زهدا في الاعمال الحرة فلانكاد ترى في الاستانة متعلماً الا وهو يرغب أن يبيع استقلاله من غيره ويكون بيده آلة تحرك بدون اختيارها . ومن الاسف ان هذا الخلق استحكم حتى لا تشهد سوى أسباب الرزق الضئيلة بيد الاتراك أما التجارات الواسعة والصناعات الراجحة فهي للرومي والارمني والالماني والافرنسي وغيرهم من الشعوب والامم وكذلك المصري المتعلم لم يتعلم الا للخدمة في الدواوين وترك التجارة وغيرها من مذاهب المعاش للرومي والايطالي وغيرها .

داء استحكمت حلقاته حتى أفقرنا . يسلب الغريب من أمواله النال يحملها الى بلاده ولا يزال آخذاً بالانتشار والعبر في القطرين تتلو العبر داعية القومين الى أطراح المذاهب الاتكالية وان ابواب الاستخدام اذا فتحت اليوم قليلاً فغداً تقفل حتى في وجوه الكفاة من الطالبين وخزائن فروق ومصر تضيق صدرها عن اتفاق ما يلزم من المال على العمال والمستقل في عمله أتفع لنفسه ولقومه من المتعلق باذيال غيره الذي يعيش طالة على السوى .

كنت في القاهرة في زيارة صديق لي من أهل العلم والمكانة في الحكومة المصرية فجاءته فتاة مسلمة ودفعت اليه ورقة بخطها كتبت فيها صورة مائالها من من تنحية ديوان الصحة لها من الخدمة في المستشفى وحرمانها من خمسة جنيهاً كانت عينت لها منذ تخرجت من مدرسة القصر العيني وطالبة اليه أن يساعدها لارجاعها الى مركزها .

فقال لها صاحبي أن مصلحة الصحة قد أسدت اليك معروف فأجب عليك أن تشكرها عليه . وهو أنه فتحت أمامك باب الاستقلال في عملك ومصرفي حاجة الى طبية مسلمة مثلك وليس فيها كثيرات من أمثالك وأنت تكتبين العربية والانكليزية وتحسنينهما كما لحظت من كتابتك فانصح لك أن تعدى الى نشر اعلانات عن محل تتخذينه وتشتهرين مع الزمن فلا ترضين بعد مدة ان تدفعي هذا القدر من المرتب الذي تعدنيه شيئاً للمرض الذي تستخدمينه فانك ستربحين

العشرات من الجنيات في شرك وتخدمين بذلك بلادك ونفسك .
فلم يحل هذا الكلام محل القبول من قلب الطيبة وأخذت تورد الحجج على صحة ما تريده وانه لا قبل لها الا باستخدام ولا رزق لها الا فيه وانها اذا نالت الخمسة جنيات فقد حيزت لها الدنيا وأخذت بحظ من السعادة لها ولا مرتها لان هذه أتقت ما كانت تملكه في تعليمها فلم يعد في وسعها ان تزيد على ذلك .

وهكذا بقي صاحبي وانا نورد البراهين القاطعة التي تلقن الفتاة معنى الاستقلال وتبعد بها عن مواطن الاتكال حتى كل اللسان وانتهى الامر الى ان يكلم في امرها أحد اصحاب الشأن ليرجموها الى وظيفتها التي اخرجت منها من غير سبب ولا تجد سعادتها الا فيها .

هذا مثال رايته بالامس في مصر وكل يوم يقع مثله عشرات في الاستانة .
وان المرء ليأسف جد الاسف على عقول تضيع من غير فائدة واعمال وكفاآت تذهب هباء .

اناس يرضون بالدون من العيش وفي استعدادهم ان يبرزوا في كل عمل تصح ارادتهم على اتخاذه وان يفتنوا ويرتاشوا ويعيشوا مرفهين لا مقتراً عليهم واحراراً لا مقيدين مستعبدين

في الشرق قوى كثيرة تضيع وبعض ما يمكن الانتفاع به من موجوده لا يحسن استخدامه والمتعلم من أهله يعتقد أن الراحة والغبطة في الاعتماد على خدمة يخدمها ومادري أن تعب في هذه الراحة وأنه لراحة بدون تعب ولو كان هذا الخلق غرس في طباع الانكليز والاميركان والالمان والفرنسيس وغيرهم من أمم المدنية الحديثة كما غرس في طباع سكان هذه الديار ما قامت هذه الحضارة التي تدهشنا ولما استقام نظام الاسرة على صورة تبهشنا آثارها .

ليس من الاسف ان نكون حتى في بلادنا غرباء فاذا اراد احدنا ان يترفه بعض الرفاهية لا يجد نزلاً ولا مطعماً ولا قهوة ولا مسرحاً لوطنى بل كلها لا فرنج . والتركي والعربي باهتان شاخصان لا يعرفان من اين تؤكل الكتف لانهما مجهلان اصول الحياة وتحصيل الرزق ويحبان التفخل والفخفة وضخامة الالقاب .

ولطالما راينا من نعدهم من كبرائنا يطأئون رؤوسهم ذلة لتاجر صغير في مظهره في الحقيقة ولكنه كبير في ذاته لانه جمع مالا وعدده ارادة ان يقرضه ما يستعين به على تمشية اموره او يتبلغ به يسيراً ريثما تصرف له مشاهرتة . وهذه الحال تراها على اشدها في القطر المصرى لان ابن مصر منفاق على الاكثر لا يفكر في أن يوازي غالباً بين دخله وخرجه ولذا انتقات الاملاك اوجزاء كبير منها من ايدى المصريين الى الغرباء والرومى في المقدمة والحال في الاستانة أدهى وامر .

وبعد فحيث اشتد العراك بين الامم وبعبارة اخرى في العواصم الشرقية التى تكون فيها المنافسة على اتمها تجدد الوطنى يتضاءل ويضعف امام الغربى بل ينهزم شر هزيمة وتتجلى للناظر صورة الاتكال والاستقلال — بل صورة من العلم النظرى الذى هو القشور وصورة العلم العملى الذى هو اللباب

اشتدت في فرنسا على عهدهما الاخير محبة الوظائف وكثر فيها جيوش الموظفين والمستخدمين فأحس القوم بهذه الآفة التى تهدد كيانهم فأنشأ بعض المستنيرين حقيقة يستنكفون من تولى الوظائف حتى ضاق ذرع الحكومة او كاد في البحث عن الكفاة اذ لم يقبل عليها الا المتوسطون وزهد في خدمتها النوابغ وما أنس لأنسى وزيرا تعارفت اليه في باريز ترك الخدمة وتولى ادارة مصرف صغير وكم في الغرب من رجل عظيم خطبته المناصب فإني وآثر ان يكون تاجراً او صرافاً او صاحب معمل او مدير شركة او محرر جريدة او استاذاً في مدرسة على ان يكون وزيراً كبيراً يقدم ويؤخر في مصالح امته ويحمل ويعقد في اقدارها . والامثلة كثيرة في هذا الباب فهل يتعظ شرقنا المسكين .

فهرس غرائب الغرب

الجزء الاول

الرحلة الاولى

صفحة		صفحة
٣	مقدمة الكتاب	٩٢
٤	١ الرحيل من دمشق الى لبنان	١٨
١٠	٢ وصف لبنان الطبيعي	١٩
١٦	٣ نبذة في تاريخ لبنان	٢٠
٢٢	٤ غابات لبنان	٢١
٢٦	٥ الهجرة من لبنان	٢٢
٣٤	٦ حالة مصر	٢٣
٣٩	٧ مرسيليا	٢٤
٤٥	٨ ليون	٢٥
٤٨	٩ تنمية باريز	٢٦
٥١	١٠ باريز بعد الغروب	٢٧
٥٤	١١ تاريخ عمران باريز	٢٨
٥٧	١٢ اجماليات في عمران باريز	٢٩
٦٠	١٣ علم المشرقيات	٣٠
٦٣	١٤ درس من سلانيك	٣١
٦٧	١٥ دار معونة العلماء	٣٢
٧١	١٦ تأخي الغريين	٣٣
٧٧	١٧ محاضر تنافي نهضة العربية	٣٤
		٣٥
		١٨
		١٩
		٢٠
		٢١
		٢٢
		٢٣
		٢٤
		٢٥
		٢٦
		٢٧
		٢٨
		٢٩
		٣٠
		٣١
		٣٢
		٣٣
		٣٤
		٣٥

الرحلة الثانية

صفحة	صفحة
١٧٢	٣٦ دواعي الرحيل وجهلنا
١٧٤	٣٧ بيلادنا
١٧٧	٣٨ دار الدعوة والارشاد
١٨٠	٣٩ في القاهرة
١٨٤	٤٠ في طريق رومية
١٨٨	٤١ الاميركايتاني
١٩١	٤٢ نساء الافرنج
١٩٤	٤٣ المدينة لا تشفق
١٩٧	٤٤ تكريم الرجال
٢٠٠	٤٥ صناعة المنادق
٢٠٧	٤٦ رجال الكذبة
٢١٠	٤٧ العرب والطايعان
٢١٤	٤٨ لذائد الغربيين
٢١٧	٤٩ نهضة ايطاليا - ايطاليا
٢٢٤	٥٠ القديمة
٢٣١	٥١ ايطاليا في القرون الوسطى
٢٤٠	٥٢ ايطاليا في القرون الحديثة
٢٥١	٥٣ ايطاليا بعد الوحدة
٢٥٣	٥٤ ايطاليا وعلومها وفنونها
	٥٥ ايطاليا والمشرقيات
	٥٦ سويسرا
	٥٧ سويسرا - الأفراد
	٥٨ والأُسرة
	٥٩ سويسرا - النساء والرجال
	٦٠ سويسرا - الصفات
	٦١ الاجتماعية
	٦٢ سويسرا - قيودها في
	٦٣ الحرية
	٦٤ سويسرا - حياتها
	٦٥ السياسية
	٦٦ سويسرا - الوطنية
	٦٧ والجيش
	٦٨ سويسرا - المذاهب
	٦٩ والقوميات واللغات
	٧٠ سويسرا - كيف تجلب
	٧١ الغريب
	٧٢ سويسرا - تقننها في
	٧٣ الاعلانات
	٧٤ سويسرا - التربية العملية
	٧٥ قل سيروا في الارض
	٧٦ نحن في البلاد الفرنسية
	٧٧ الحياة السياسية
	٧٨ والاقتصادية في بلاد المجر
	٧٩ حياتنا والحياة الاوربية
	٨٠ أرض يونان
	٨١ في العاصمتين

المكتبة الأهلية . بمصر

عَلَى سَبِيلِ الْغَرْبِ

كتاب اجتماعي تاريخي اقتصادي أدبي

فيه كلام على : دنية : فرنسا ، وانكلترا ، والمانيا ، وإيطاليا ، وإسبانيا ، وسويسرا ، والبلجيك ، وهولاندا ، والنمسا ، والمجر ، والبلقان ، واليونان ، والامستانة ، ومصر ، والشام ومقالات في علائق الشرق بالغرب ، والغرب بالشرق . منذ الزمن الاطول ، ولا سيما صلات الغرب مع العالم الاسلامي ، والعربي منه خاصة . في جنوبي ايطاليا وفرنسا والاندلس .

تأليف

محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي العربي

— الجزء الثاني —

الطبعة الثانية

الرحلة الثالثة

البرية والفرنسية

٧٠

لما رست بنا الباخرة سفنكس في ميناء الاسكندرية منصرفنا من دمشق الى باريز (يوم ١٥ تشرين الأول) ١٩٢١ خرجت سيدة باريزية طائدة من سياحة لها قصيرة في القطر المصري فذكرت عند أول حديث ماشاهدته ودهشت به في القاهرة من انتشار اللغة الافرنسية بين طبقات الشعب وجمهور الغربيين النازلين في تلك العاصمة فقلت لها لا تعجبي فان علاقة الفرنسي مع العرب قديمة جداً رد الى أكثر من ألف سنة وبعبارة أصح ترجع الى القرن الأول للهجرة أيام دخل العرب الجنوب الغربي من أوربا فاتحين واسـتولوا على شبه جزيرة ايريا أو اسبانيا .

ولقد سردت على السائحة بعض ماعلق في الذهن من علاقة الأمتين احداها بالآخرى فرأيت أن لا يفوت هذا الموضوع قراء المقتبس أقدمه بين يدي نجواهم بعد طول العهد بمحاورتهم وعساني أغنم هذه الفرصة السائحة وأحدثهم بما يقع لي في هذه السياحة الثالثة يضيفونه الى (غرائب الغرب) التي طالما حدثتهم بها لا تزلماً ومصانعة بل حب الفائدة والاطلاع ورجاء ان تنسج في حضارتنا على منوال من سبقونا اليوم أشواطاً في ديار الغرب ونستعيد بعملنا حضارتنا التي أدهشت ابن القرن العشرين وما هي الا ابنة القرن الثامن والتاسع والعاشر ونشفع حمل الأجداد بما يتلقفه الاحفاد عن أهل الحضارة الغربية الحديثة .

بدأت اللغة الافرنسية بالانتشار في القطر المصري في القرون الحديثة على عهد دخول نابوليون الأول وقد صحبه جمهور من العلماء قاموا بأعمال علمية لا تزال ترددها مصر بالشكر وجميل الذكر على وجه الدهر . ولما افتتح محمد علي جد

الأُسرة السلطانية الحاضرة القطر المصري واحتاج الى تنظيم شؤونه كان أعوانه على ذلك علماء فرنسا فأطاعوه في تنظيم رى القطر المصرى واصلاح نجبايته وانشاء مدارس وتأليف جيشه البرى والبحرى

وما برحت تلك الروح الشريفة التى بثها علماء فرنسا فى مصر على عهدى نابوليون ومحمد على سارية فى أعصاب مصر حتى يومنا هذا حتى كانت سبب سعادتها وعلى الرغم من احتلال الانكليز القطر المصرى منذ أربعين سنة وحرصهم على نشر لسانهم شأن كل أمة راقية لم يبرح العمل الذى قام الفرنسيين بوضع أساسه فى وادى النيل يتسلسل ويجود وجمعياتهم ومجامعهم العلمية ومدارسهم شاهد عدل على ذلك .

ولقد تركت مصر منذ اثنى عشرة سنة وكان يصدر فيها عشر جرائد يومية باللغة الافرنسية وتصدر بها جريدة واحدة باللغة الانكليزية ولكن وجهها الثانى باللغة الافرنسية ومن هنا يدرك القارئ مبلغ تعلق المصريين باللغة الافرنسية وكذلك من فيها من النزلاء اليونان والطلبان والأرمن والسوريين وغيرهم من أم البحر المتوسط . فاذا شاهدنا المصريين منذ أول نشأتهم الحديثة يفضون المدارس فى فرنسا أكثر من انكلترا وغيرها من أم الحضارة الحديثة واذا شاهدنا لغة فرنسا منتشرة أى انتشار فى القطر المصرى فلا عجب اذا ادعينا والدليل معنا ان مصر ولاصراء حسنة من حسنات المدنية الافرنسية كما هى بزراعتها حسنة من حسنات النيل المبارك . ومثل ذلك يقال عن سورية بل عن البلاد العثمانية جمعا والأمة العثمانية كانت أشد الأم الشرقية علاقة بفرنسا وغنها أخذت علومها وبروح حضارتها وسياستها تشبعت منذ عهد سليم الثالث . وكذلك فعلت فارس فى القرن الماضى

تلطفت فرنسا فى بث لغتها بطرق مختلفة وأهمها المدارس الدينية والعلمانية التى أنشأتها الجمعيات وأمدتها بالمال وحمتها على مايجب وأرخصت أثمان كتبها وجرائدها وجعلت طاصمتها مثابة المتعلمين والمسترشدين منذ القديم ولا سيما من

سكان الشرق الاقرب فاستحكمت على الزمن علائق الحب بين الأمتين العربية والأفرنسية وان مازاه اليوم من الحركة الاجتماعية السياسية في مصر والشام وآسيا الصغرى ان هو الا من آثار الجامعات الافرنسية ونور سرى في عقول العرب والترك في هذه الديار فانبعثت منه هذه الشعلة التي نراها ویمجب بها الغرب قبل الشرق . فنور الشرق الابد لهدانا ظهر في جامعات السكسونيين ونور الشرق الأقرب تجلی من معارف الفرنسيس اللاتین

ومن الأدلة على توطد الصلات القديمة بين العرب والفرنسيس ومنها كان انتشار لغة هؤلاء بيننا ان العرب أطلقت على أمم أوروبا اسم الافرنج أو الفرنجة وهو تحريف (فرنك) Les Francs

وما الفرنك في الحقيقة الا الفرنسيس أنفسهم اذ كان لغتهم الكفة الراجعة بين لغات أوروبا في الحروب الصليبية في بلاد الشام ومصر فقد ذكر ميشو^(١) المؤرخ في كتابه الحروب الصليبية ان الافرنج في سورية لم يكونوا يتكلمون في الحرب الصليبية بغير اللغة الافرنسية وكان اسم فرنسا في الحروب الصليبية يمتزج بجميع الحوادث العظيمة في تلك الحرب ويسمون المستعمرات التي وراء البحار في هذا الشرق بفرنسا الشرق

وهذا ولا جرم مبدأ جمل اللغة الافرنسية لغة دولية رسمية بين أمم الحضارة منذ الزمن الاطول فكانت المفاوضات والاجتماعات والعقود والعهود السياسية والتجارية تجري باللغة الافرنسية بينهم وخلفت هذه اللغة اللاتينية في أوروبا في هذا المعنى وكان لها المقام الأول الى النصف الأول من القرن الماضي وقد كانت فرنسا هي المرجع الأول في السياسة الاوربية ولم يكن ذلك بصنع رجال السياسة من أبنائها فقط بل بصنع علمائها وما توفروا عليه من خدمتها أمثال باسكال وموليير وفولتير ومونتسكيو الذين أقاموا دعائم مجدها ودعوا سياسة الامم الى الاعتماد عليها في السياسة والتجارة والاصطلاح عليها في المخاطبة والمكاتبة

(1) Michaud : Histoire des Croisades

لما فيها من الخصائص ولأنها من بين اللغات الاوربية أكثرهن وضوحاً ومنطقاً وبياناً ولاذاتاً النثر الفرنسي تام في ذاته لا مثيل له في آداب الامم الاخرى بشهادة كثير من الالمان والانكليز .

نم كانت الافرنسية وما زالت شائعة عند أبناء الطبقات المستنيرة والشريفة في روسيا وفنلندا والدانمرك وألمانيا والنمسا وإيطاليا والمجر وهولاندا واسوج ونروج واسبانيا والبورتيغال وفي انكلترا . دعو مانيا واليونان والتشيكوسلافيا واليوغوسلاف ومصر والجزائر وتونس وغيرها ولم تضعف العناية بها الا بانتشار فكرة القومية بين الشعوب المتحضرة فاضحت كل أمة تعنى بلغتها الوطنية قبل كل لغة وتنقل الى لغتها جميع ما تحتاجه من العلوم والصنائع عن أشهر علماء الأرض ومع هذا ظل للافرنسية المقام الأول بين لغات الغرب وان كان الناطقون بالانكليزية والالمانية أكثر عدداً

في الأرض مائتان وثمانون مدرسة جامعة من صنوفها تنبعث منها أشعة المدنية وفرنسا يصيبها من هذا المجموع سبع عشرة ^(١) في أرضها وأربع في البلجيك تدرس بالافرنسية وأربع في سويسرا كذلك فلغة يتمشقها أهل الطبقات المستنيرة في الارض وتخدمها في كل العلوم خمس وعشرون جامعة هي لغة حية يحتاج الناس اليها بحسب قربهم وبعدهم عن بلادها وعلائقهم الحاضرة والغابرة بأهلها

مواطن اللغة الافرنسية

٧١

انتشار لغة الامة تبع لحاجة الناس اليها ولسياسة أهل تلك الامة وتفوقهم

(١) أنشئت جامعة باريز سنة ١٥٠١ وجامعة مونبلييه نحو ١١٨١ وجامعة كرونوبل ١٣٣٩ واكس مارسيل ١٤٠٩ ويزانسون ١٤٨٥ وبوردو ١٤٤١ وكان ١٤٣١ وكلمون ١٨٠٨ وديجون ١٧٢٤. وليل ١٥٣٠ ونانسي ١٥٧٢ وليون ١٨٠٨ وبواتيه ١٤٣١ ودين ١٧٣٥ والجزائر ١٨٤٩ وستراسبورغ ١٨٧٢ وتولوز ١٢٣٠

في مضمار الصنائع والتجارات . ان تاريخ نشوء اللغة الافرنسية لا يتجاوز العشرة قرون فمن المؤرخين من يرى ان ذلك يرد الى معاهدة فردون التي عقدت سنة ٨٤٢ ولكن هذه اللغة لم تؤلف حقيقة الا في القرن الحادى عشر وكلما كانت سياسة فرنسا تقوى تزداد لغتها انتشاراً ويعتمد عليها في كتابة العقود والعهود والمخاطبات فأصبحت على الزمن لغة علم وسياسة ودامت محتفظة بهذه المكانة الى أواسط القرن الماضى

جاء في تاريخ اللغة والآداب الافرنسية ^(١) ان هذه اللغة لاسباب سياسية كثيرة ولكثرة مالقيت فرنسا من المصائب والانتباه العام في روح القومية في شعوب أوروبا المختلفة كل هذه الأسباب جعلت من المستحيل بقاء الامتياز الذى كان لفرنسا في القرن الثامن عشر . واذا بقيت لغة السياسة فذلك أشبه بالسلطان في احتفاظه بالاستانة لان خروجه منها يولد منافسات كثيرة ولم تعد اللغة التي يضطر الرجل المذهب ان يحسنها كما يحسن لغته

وما برح الناس من مدريد الى بطرسبرج يعتبرون تعلم اللغة الافرنسية من دواعى الظرف والبهجة والفائدة ولئن نازعت اللغة الانكليزية الافرنسية في عالم التجارة وأصبح الناس في أكثر الموانى البحرية يفهمونها وكذلك انتشرت الألمانية وأضرت في بعض المحال باللغة الافرنسية وكذلك عم التكلم باللغة الايطالية في البحر المتوسط فان الافرنسية مازالت منتشرة في مستعمرات فرنسا القديمة مثل سان برب ومكلون والكوان لوب والمارتينيك والرينيون ولوزيان . وعدد النازلين في تونس والجزائر من أصل فرنساوى ٣٢٢ الفأعدا الجيش . وقدر واسكان كندا الفرنسيس بنحو مليون ونصف وكذلك سكان دومينيك وسانت لوسى وموريس وسيشل . ومن المتعذر تقدير عدد المتكلمين في أوروبا الغربية باللغة الافرنسية أو باللهجات الافرنسية ولا يفوتنا النظر ان كل من يسكنون أرض فرنسا لا يتكلمون بالافرنسية فان مليونى نسمة من سكانها يتكلمون بلهجات اخرى من أصل جرمانى أو سلتى أو

(1) Petit de Julleville ; Histoire de la langue et de la littérature française.

إيطالي أو لغة أخرى ومنها جزيرة كورسيكا وفوق ذلك فإن نحو أربعة ملايين نسمة يتكلمون باللغة الفرنسية خارج حدود فرنسا منهم ٢,٨٧٧,٠٠٠ في الباجيك و٩٠٠٠ في بلاد ماليدى في بروسيا الرنازية و٢١٧ ألفاً في الألزاس واللورين و٦٤٣ ألفاً في سويسرا وفي تورين في أودية الألب بضع مئات الألوف يتكلمون الفرنسية أيضاً وكذلك سكان جزائر الإنكليز النورماندية فانهم يتكلمون بلهجة نورماندية بحيث انه يمكن تقدير من يتكلمون باللغة الفرنسية في أوروبا الغربية بأربعين مليوناً وزيادة

وهذا العدد قليل بالنسبة للشعوب التي تنمو سكانها نمواً كبيراً كالشعوب الأنكلوسكسونية والشعوب السلافية ولذلك رأينا كثيرين من فلاسفة فرنسا ورجال الاجتماع فيها ينادون بتلافي هذا النقص ابقاء على مجد أمة عظيمة عاشت بمعنوياتها كثيراً كما عاشت بمادياتها ومنهم الفيلسوف فوليه في كتابه تفسر الشعب الفرنسية (١) قال : الى الموانع الحربية والاقتصادية الناشئة من قلة السكان يجب أن نضيف تقهقر لغتنا من العالم فقد كان يتكلم بها في العالم الأوربي ٢٧ في المئة من السكان واليوم لا يتكلم بها في العالم كله سوى ٤٦ مليوناً (فرنسيين وسويسريين وبلجيكيين وكربايون وكناديون) في حين يتكلم بالألمانية مئة مليون وبالإنكليزية ١١٥ مليوناً و١٤٠ مليوناً من الخلق لفهم الرسمية هي الإنكليزية . قال : والتجارة لا تكون خاصة الا بين الشعوب التي تتكلم لغة واحدة فمن الأسف ان عدد الذين يتكلمون بالفرنسية ينقص اهـ

هذا ما قاله عالمان حجتان بشأن انتشار اللغة الفرنسية ونحن نرى انها آخذة بالانتشار كثيراً في المستعمرات الفرنسية وفي البلاد التي لها علاقة سياسية أو تجارية مع فرنسا وبين ولكن المسألة الصعبة هي في حل معضلة تناقص نفوس الفرنسيين بالنسبة لجيرانهم وبهذا كتب التفوق لهم فقد قيل كثرة العيال أحد اليسارين

(1) A. Fouillée : Psychologie du peuple français

ومن أجل ما قاله أحدهم مؤخراً أننا إذا لم نغلب معاصر الفرنسيين بكثرة عديداً فسنغاب على الدوام بنبوغنا وعبقريتنا . أما لغتهم فتعد في الطبقة الأولى بين لغات الغرب وإن عرضت لها بعض العوارض كما يعرض للأفراد والامم فانها بالذكاء واتخاذ الاسباب تزول وتضمحل

وبينا أنا أنشئ هذه السطور جاءت الصحف تحمل خطبة للمركز روير دي فاليرا أحد أعضاء المجمع العلمي الباريزي (في اللغة الافرنسية والحرب) قال في جملتها : منذ وجد البشر وأخذوا يتكلمون نشأت لهم ثلاث لغات واستحقت ان تدعى عامة وهي اليونانية والرومانية والافرنسية فقد قالوا ان اليونانية ترشحت من غناء الارباب واليزان Cigales فأصبحت لغة الجمال أما لغة الرومان فقد تألفت من جهاد المطامع التي كانت تنبعث من عمل المقننين والجنود فأصبحت لغة الحكم والسلطة وكانت اللغة الافرنسية لغة الظرف والعقل المسالم بتساوق نغمتها ووضوح عبارتها . وهذه خاصية غريبة عرفت بها على الدوام ولا شك ان ذلك أتانا من تمازج العنصر الساقى باللاتيني ونعم التمازج وذكر ان شارل كان كان يقول بانه لو أحب ان يخاطب المولى لمخاطبه بالاسبانيولية ولو أحب أن يخاطب النساء لمخاطبهن بالاطليانية واذا أحب أن يخاطب حصانه لمخاطبه بالالمانية ولكن اذا أحب أن يخاطب الرجال فيكلمهم باللغة الافرنسية قال فالغة الافرنسية هي من بين اللغات اللغة البشرية وبها انتشرت معظم الحقائق على الارض وبالافرنسية أعطيت أجل الوعود وجري العمل بها .

قال جان جاك روسو أن لغات الجنوب هي ابنة الفرح ولغات الشمال ابنة الحاجة . وقالت مدام دي ستايل ان اللغتين الايطالية والاسبانيولية هما موزونتان للايقاع والتلحين بل هما كالغناء الرخيم . والافرنسية لا تفتقر بالمحاضرات والتخاطب ومناقشات النواب . والنشاط الطبيعي في الامة الانكليزية قد أورت لغتها حالة في التعبير تقوم مقام السجع في اللغة . واللغة الالمانية أكثر فلسفة من الايطالية وأكثر شعراً متيناً من الافرنسية وأكثر ملائمة للقوافي في الشعر من الانكليزية ولكن يبقى لها نوع من اليبوسة جاءت على الغالب في كونها لم تستعمل في المجتمع ولا في الجمهور .

علاقات العرب بالفرنسيين

٧٢

ان البحث في علاقة العرب بالفرنسيين يحتاج الى محاضرات طويلة فنقتصر من لباب هذا الموضوع على هذا القدر معتمدين على مقاله سيديليو صاحب كتاب تاريخ العرب وهو من الذين أنصفوا العرب جداً في التفلسف في تاريخهم كما أنصفهم كثير من علماء الغرب ممن لم يتأثروا بالعوامل الدينية والسياسية ولا أهمتهم الاغراض التجارية والاستعمارية

حدثنا التاريخ ان العرب استولت من أرض فرنسا على اقليم سبتمانيا في الجنوب الغربي من غاليا (فرنسا) على ساحل البحر المتوسط وعلى مدينة ناربون وجعلوها قاعدة أعمالهم الحربية واستولوا أيضاً على مدينة كاركاسون ونيم واتون وبون وسانس وافنيون وبوردو^(١). ولما أراد الامير عبدالرحمن ان يستولى على تور قام له بين هذه المدينة وبين پواتيه رجل اسمه شارل مارتيل من أمراء تلك البلاد وصده عن بلاده فتراجع العرب ولو ظفروا في تلك الواقعة لانتشر الاسلام في فرنسا وصرى منها الى سائر أقطار أوروبا

ثم استولى العرب على مرسيليا وأرل بل وعلى اقليم البروفنس في جنوبي فرنسا ووصلوا كما قلنا الى پواتيه وهي على ٢٣٢ كيلو متراً من جنوبي غربي باريز. حمى شارل مارتيل شمال فرنسا من غارة العرب (٧٣٢ - ٧٣٩ م) وترك للعرب اقليم سبتمانيا حيث أقاموا أما كن دأئة وعقدوا عهداً مع أهل البلاد وأدخلوا كثيراً من كلماتهم في الاصطلاحات اليومية في الحياة وكان رجال الكهنوت في تلك البلاد يؤثرون حكم العرب على حكم الفزاة من الجرمانين لان هؤلاء لا يستنكفون ان يستولوا على أملاكهم الكنائسية. وقد أخذت الصلات العديدة

(١) Sédillot : Histoire générale des arabes.

تعتقد بين المسيحيين والمسلمين فتزوجت احدى بنات الدوج داكيتين من أمير عربي

ولما رجع العرب عن اقليم سبتمانيا سنة ٧٥٩ احتفظت العرب هناك باملاكها وبيوتها وعلى عهد شارلمان توطدت العلاقات بين العرب وشارلمان ملك فرنسا وتبودلت الهدايا بين هذا وبين هارون الرشيد

وبينا كان التوحش ضارباً أطنابه على غاليا وجرمانيا كان العرب قابضين على زمام الاحكام في جنوبي فرنسا من جبال البيرينات الى جبال الالب يحملون من مستعمراتهم الى بورغونيا وسويسرا في الشمال والى التيرول ولومبارديا في الجنوب ما تعلموه من العلوم في مدارسهم

وفي ذاك العهد انتقلت الى الغرب عادة استعمال الأرقام العربية والكسور العشرية وبقيت أسماؤها مع مالحقها من التعديل عربية صرفة ويذكر سيديليو ان التعابير النادرة جاءت اللغة الافرنسية من العربية أكثر من اللاتينية وان كان في الافرنسية على عهد أول نهضتها لفظة واحدة يونانية مقابل خمسمائة لفظة لاتينية فمن العدل ان يقال انه كان مثل ذلك من اللغة العربية قال فالعرب اساتذتنا في العلوم بل في سائر المعارف البشرية

ومع أن علاقات العرب بالاسبان كانت أكثر من علائقها مع الفرنسيين فان عبد الرحمن الثالث الاموي كان على اتصال دائم مع أمراء من اسبانيا وفرنسا والمانيا والممالك السلافية (الصقالية) وكان القصر الملوكي في تولوز (فرنسا) صورة من صور قصر الخلافة في قرطبة يتبارى فيه الشعراء ولما انتقل أحد أمراءهم ليتولى عرش فرنسا سنة ٩٩٩ ادخل مأخذ عن العرب تبديلاً حقيقياً في باريز من حيث الأخلاق واللغة .

أما الحروب الصليبية (١٠٩٥ - ١٢٩١) فقد ساعدت على هذه الحركة الاجتماعية كل المساعدة واختلط الفرنسيون خاصة بالعرب في الشام ومصر ولا سيما في حملة سان لويس الذي بقي عدة سنين في الشرق وكان لفريدريك الثاني

المعاصر لهذا الأمير حرس من العرب ويستقبل في قصره أبناء ابن رشد الفيلسوف وكان علم الفلك والرياضيات والعلوم الطبيعية تقرأ في كتب العرب ولما انجلى العرب عن اسبانيا (١٤٠٣ - ١٥٧١ - ١٦٠٩ م) جاءت قبائل عربية كثيرة الى فرنسا من جديد ونشرت فيها أسماء بيوت جديدة وكذلك كان من فتح الجزائر فانه أدخل في الافرنسية ألفاظاً عربية كثيرة ولا شك ان هذه الصلات التي لم تنقطع مدة قرون بين العرب والفرنسيين قد نقلت الى الافرنسية عدداً وافراً من التعابير والمصطلحات الشرقية

ومن البديهي ان العرب كانوا سادة البحر المتوسط في القرن السابع وبعده فاعطوا الطليان والفرنسيين الالفاظ البحرية وكان الطب العربي أساس علم الطب عند الفرنسيين أخذوه مع كثير من الالفاظ العربية . وكان ملوك فرنسا من أهل العنصر الثالث يقلدون العرب في كل شيء والعرب نقلوا الى الغرب علوم أئينة ورومية وعندهم وبلغتهم وصلت الى أوروبا بل الى أهل المدينت الحديثة . ويقول الأب لامنس ^(١) في كتابه ملاحظات على الالفاظ الافرنسية المشتقة من العربية ان نحو تسعمائة لفظة أخذتها اللغة الافرنسية عن العربية وأدخلتها في معجمها واستعملاتها .

هذا مثال صريح من اختلاط الامتين منذ القديم وكان من أثره تأثير لغة العرب في لغة الفرنسيين ونقل كثير من العادات الشرقية العربية الى أواسط أوروبا وغربها والفرنسيين ولا سيما سكان الجنوب أشبه بالعرب في طبائعهم ومناخ بلادهم . لا جرم ان طول العشرة تؤثر في كل مظاهر الحياة في الأمم ولما كانت الشعوب اللاتينية أقرب ببلادها من بلادنا في أوروبا وآسيا وأفريقية كانت سابقة الأمم الى الحضارة ومنها انتقلت هذه الى جرمانيا وبريطانيا وغيرها . فكان تأثيرنا بها وتأثرها بنا أكثر من غيرنا من أمم الشرق الكبرى كالصين والهند فسبحان المعز المذل المحول المقلب

(١) Lamnens : Remarques sur les mots français dérivés de l'arabe

دعاني صديقي الأستاذ المسير كابريل فران من رجال المشرقيات في باريز الى حضور محاضرة له يلقيها في مجمع الابحاث الاوقيانوسية . وهذا المجمع العلمي يبحث في كل ماله علاقة بالشؤون البحرية أنشأه من ماله ألبير الأول أمير موناكو وهو من فضلاء رجال البحر خدم العلم البحري خدما جلي ، ومما قام به انشاء مسابير (جمع مسبار) لمعرفة أعماق البحار قاس بها الى تسعة آلاف متر في المحيط الباسيفيكي وأخذ ينفق عن سعة زائدة على هذا المجمع وغيره مما يخدم علم البحار وخص بذلك فرنسا لأنه تعلم في مدارسها وتأدب بأدبها وبلاده صغيرة لا تحتل هذه العناية ومساحتها عبارة عن بضع مئات من الكيلومترات ، وأهلها بضعة ألوف من الخلق فقط لا يزورهم الا قاصدهم .

وأول ما يذهب الذهن اليه عند دخول هذا المعهد الفخم ، ومعرفة تاريخ اماره موناكو وأميرها وفضاله على العلم يخلد بذلك اسمه ويخدم البشر ترى ماذا عمل أغنياء الترك وأغنياء العرب للخير العام منذ أربعة أو خمسة قرون الا اذا كانوا استحلوا أكل الأوقاف وعرقوا لحم الفلاح ، ونهبوا أموال الأئمة بالطرق المحرمة في العقل والنقل ، ومع هذا يحترمهم بعض الاغمار ويسجد لسلطانهم عبيد الدنيا وان لم ينالوا من أفضالهم ونوالهم وكان من حقهم أن يجبهوهم ويرذلوهم لانهم كالحلمة الطفيلية في جسم أمهم يفتدون من دماؤها ولا يعطونها واحداً من مئة مما يجب عاينهم اعطاؤه

يجاد عليكم بأموالكم وتعطون من مئة واحدا

وخلاصة محاضرة المحاضر العلامة البحث في البحرية في الشرق ، ولا سيما في الصين والهند وجاوه وشواحل بلاد العرب وبحر القازم والأبيض والظلمات

وذكر أيادى العرب على علم البحار فى القديم وبعض الاسفار البحرية التى قام بها الملاحون من أجدادنا فى القاصية وآثرت الثمرات المطلوبة الى أن تطرق فى الكلام الى ذكر ابن ماجد الملاح البصرى الذى قام بأعمال بحرية كبرى فى عهد الملاح البورتقالى فاسكو دى غاما الذى كان أول ملاح مهد سبل السير فى البحار على الغربيين وقال ان الملاح العربى اجتمع بالملاح البورتقالى وأظهر له نواقص سفينته وعلمه ما لم يكن يعلم .

ولابن ماجد هذا كتاب فى الملاحة دخل دار الكتب العربية بدمشق نسخة منه وتكلم عليها فى أحد أجزاء مجلة المجمع العلمى العربى ، وظفر المحاضر بنسخة منه فى مكتبة باريز وهو الآن آخذ بطبعها بالعربية كما أنها مؤلفاً لأنها حوت من الحقائق عن طرق البحار قبل ايجاد البخار ولا سيما فى المحيط الهندى وما يلزم للابحار فيه وما يعترض فى طريق سالكه من الجزر والتيارات والأهوية وغيرها ما هو العجب العجيب

وبعد أن أقاض على هذا النحو تعرض لذكر الخليفة المأمون العباسى وعدد مائة من اليد البيضاء على العلم ، وذكر كيف جمع العلماء على اختلاف نحلهم من أقطار البلاد التى كانت مشهورة بارتقاءها فى عهده للبحث فى العلوم والصناعات وعلمهم بعمله التسامح وكيف لما غلب ملك الروم طلب اليه أن يسلمه كتب العلم التى عنده وهو عمل مدهش لم يعهد لملك ولا لحكومة ان طلبت مثله من عدوها فى القديم ولا فى الحديث ، وبه يعرف قدر المأمون وتقانيه فى خدمة الانسانية .

وقال ان عملاً واحداً مما عمله المأمون أفضل مما ينسب لوالده الخليفة هارون الرشيد من ليالى ألف ليلة وليلة .

ذكر هذا والحاسة قد بلغت منه مبالغها حتى سرى من كهربائيتها شظايا نالت قلوب الحضور فى ذاك البهو البديع ، وبعد ان استرسل على هذا النحو فى الكلام على مدنية العرب ، وان على الاوربيين أن يعرفوهم أكثر مما عرفوهم بفضل

وذكر اسم كاتب هذه السطور وذكر له عمله العلمي في بلاده ، ثم علق آمالاً على دمشق وسورية وخدمة علمائها للعربية والمدنية ورد على من قال من الانكليز ان الغرب والشرق لا يجتمعان وقال بل يجتمعان ويتمازجان وينتفع أحدهما بأخيه كما هو حاصل الآن وكلما تعارفا زالت الوحشة وزادت الفائدة والعائدة وختم المحاضرة بعرض بعض صور السفن الشرقية القديمة والحديثة بالقانوس السحري وانتفض الجمع وكان من طبقات مختلفة

قلت وكلام العالم المحاضر على الشرق والغرب خاصة كلام من ذاق وفهم وعاشر وسامر . ومعظم أرباب الفهم من علماء المشرقيات في الغرب على هذه الصورة في تقريب القلوب ، ورفع غشاوات الجهل والتجاهل ، والام لا تتحد الا باتحاد المقاصد وبالتساند والتعاقد والشرقي محتاج الى الغربي والغربي كذلك وهذا لا يتم الا بالاختلاط ، وأخذ المتأخر عن المتقدم ما تشد حاجته اليه من العلوم والصناعات .

احتفال الفرنسيين

بالادب والعلم

٧٤

في الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم الثالث من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢١ احتفل المجمع العلمي الفرنسي تحت قبة مازارين المشهورة وهي مقره في مدينة باريس بقبول المسيو جوزيف يديه عضواً في المجمع العلمي خلفاً للمسيو ادهون روستان المتوفي منذ ثلاث سنين وقد حضر الاحتفال جمهور كبير من العلماء والأدباء والسادة والقادة والأوانس والعوائل من أهل هذه العاصمة لا يقل عددهم عن ثمانمائة انسان وكان في جملة الحضور المسيو ميلران رئيس الجمهورية

الافرنسية بصفته أحد أعضاء مجمع العلوم الأخلاقية والسياسية لا بصفته رئيساً للجمهورية ، وجلس على كرسي الرئاسة المنيو بارتو مدير المجمع العلمي ، وناظر الحربية والمسير فريدريك ماسون أمين سر المجمع الدائم ، وجلس أعضاء المجمع الخمسة في مقاعدهم ناحية .

تكلم العضو الجديد أولاً فذكر طرفاً من منشأه ، ثم أفاض في بيانه ما شاء وشاءت الاجادة وعدد أيادي سلفه الشاعر روستان على الأدب ، وما كان من احسانه في شعره ورواياته الشخصية التي أدخلت في التمثيل الفرنساوي روحاً جديدةً أقر بها أكبر النقاد والباحثين من أهل العلم حتى من كانوا يقاومون سرّاً شهرة الشاعر ويضعون العثرات في سبيل نبوغه

ولما استرسل على هذه الصورة من تحليل روح سلفه الشعرية والأدبية ، وأورد شيئاً قليلاً من قصصه وأشعاره ومراميه السامية جاءت الزوبة للمسيو بارتو فأجاب العضو الجديد معدداً له خدمه العلمية ونشأته ومن تخرج به من الناشئة منذ عشرين سنة وهو أستاذ في مدرسة دار المعلمين العالية ثم أستاذ في كولييج دي فرانس ، ثم تطرق الى ذكر الشاعر روستان وأشار الى حسنات أخرى له وحلله من وجهة ثانية تحليلاً كياوياً أدبياً ببيان هو آخر ما وصل اليه البيان الفرنساوي بعد معالجة أهله له عشرة قرون

دهشت وأيم الحق بما تلا العالمان من خطابينهما اللذين تمثلت لي فيهما الآداب الفرنسوية بأجل مظاهرها والبلاغة الحقيقية التي أخذت بأهداب الموضوع من عامة أطرافه فكان اللفظ في كلامهما على قدر المعنى والتفنن في الابداع بالغاً الغاية في النيقية ، وقد حوى كلامهما من جمال الأسلوب وسحر البيان ما يشهد لهذه الأمة بأنها سابقة الأمم الغربية بأمرها في البيان والتبيان

سمعت ما تلاه الخطيبان وقرأته في المساء بحرفيته بامعان وكنت أود لو أعربته لقراء المقتبس لولا أن فيه جملاً تحتاج الى شرح حتى يدرك المقصد منها من لم يتأدب بآدابهم من أبناء العربية على ان ترجمته بلساننا تستغرق أعمدة أربعة أعداد من هذه الجريدة على الأقل

تمثلت لى فى هذه الجلسة التى دامت نحو ثلاث ساعات حالة الأمم الفريسة فى الثبات وتسلسل الفكر وتقديس الخلف لما قام به السلف فهذا المجمع المؤلف من أربعين عضواً ويسمونهم « المخلدين » مازال يعمل على احياء اللغة وخدمتها منذ نحو ثلاثة قرون يجتمع فى قصره المنيف محافظاً عليه كما كان على عهد انشائه وله من ريع أملاكه ثروة طائلة وكلهم يسرون سيراً واحداً ويضربون الى هدف واحد فى خدمة لسانهم ولا يرون من أمنهم الا التنشيط ولا من الحكومات التى توالى عليهم الا العطف والحرمة . تمثلت هذا وتمثلت بجمعنا العلمى العربى فى دمشق وما لقي من الحكومة العربية ومن بعض السخفاء لأول مرة من ضروب المقاومة والسخرية فقلت وهذا أيضاً سر من أسرار الخالق فى خلقه يقضى على الأمم المريضة بعقلها فى أيام محنتها وسعادتها ان تنكر المحسوسات وتجادل فى البديهيّات وتستعدى الصاحب والعشير . والجاهل عدو نفسه .

لم أكد أفرغ من هذه التصورات حتى حملت الصحف نبأ مفاده ان رئيس الجمهورية غادر باريز الى مونيخ فى جنوب فرنسا ليحضر الاحتفال بمرور سبعة قرون على جامعة مونيخ الطبية فاستغربت هذه المصادفة . لأن جامعة مونيخ هى ابنة العلم العربى فلنا فيها حصّة معاشر العرب لافى بنائها ولا أملاكها ولا فى عروضها وخرثتها وكتبها وأدواتها بل فى وضع أساس علم الطب فيها وغيره من العلوم المادية التى كان فيها العرب أيام عزهم سادة الأمم كافة وكانت الأرض تقتبس منهم ويفاخر الأذكىاء بالأخذ عنهم .

نم ان علماء العرب والامرائيليين الذين قرأوا على عرب الاندلس العلوم الطبيعية على ما كانت معروفة به فى القرن الثانى عشر للميلاد هم الأولي ادخلوا الى مونيخ كما حملوا الى كثير من مدن فرنسا وايطاليا وغيرهما بضائع العلوم المختلفة التى خاض فيها العرب وبرزوا وهذا الرأس المال قليلا كان أو كثيراً هو الذى نماه أبناء الغرب فارتقى الى الصورة التى نراه عليها اليوم ولولا العرب لتأخرت مدنية

الغرب قرونًا كثيرة بعد وربما ظل الى اليوم كانه في ظلمات القرون الوسطى
كثير من باباواتهم وكرادتهم وأساقفتهم وقساوستهم كانوا يأتون الاندلس
ويحضرون العلوم المختلفة على علماء العرب ويرجعون الى بلادهم يبشرون بها
ومنهم من ارتقى الى كرسى البابوية بفضل ما تلقفه عن العرب وكم من كتاب عربي
في علم شريف كالعلم الطبيعى والرياضى والفلك والكيمياء اتصلت بأهل الغرب
ترجمته اللاتينية ككتب « كرموتة » الطليانى وفقد اليوم أصلها العربى وبالإلصاف
أما الاسرائيليون الذين كانوا يومئذ في أوروبا محقرين مضطهدين فقد كان لهم
عند عرب الاندلس مكانة وأى مكانة فجاء منهم نوابغ أيضاً خدموا العلم وأخذوه
عن العرب وبشروا به فى بلاد الغرب

فاذا قال بعضهم اليوم ان علم الطب الذى أخذته جامعة مونبليه عن العرب
منذ سبعمائة سنة كان مؤلفاً من تقاليد شرقية ومن بقايا الكتب التى نجت من
حريق مكتبة البطالسة فى قوله الفخر أيضاً لنا ويكفى أن كلام أبقراط وجالينوس
لم يبلغهم الا من طريقنا وبلغتنا فترجه أطباء يهود من العرب وعلق عليه ابن سينا
وابن رشد والرازى وابن زهر . وجميع المادة الطبية التى أخذها الغرييون عنا
كانت مدة القرون الوسطى بل دامت الى القرن السابع عشر مادة تدريس الطب
فكانت مونبليه تقرأ بها العربية لتفهم العلوم المكتوبة بها !

فاذا فاخرت جامعة مونبليه اليوم بتعداد نوابغ رجال الطب والعلم فيها
وعددت غناها بأبحاثها العلمية ومبادئها وحياتها وانها أول جامعة فى أوروبا أحدث
فيها قصر للتشريح وجديقة للنبات فان هذا الفخر ينالنا منه ولا شك نصيب
عند المنصفين ولكن ما الشأن الآن فينا وماذا ينفع البصير اذا لم نكن نحن اليوم
بأخذنا عن الغريين ما أسلفه أجدادنا اليهم من العلم عاملين على أن نمثله بل
نمضغه ونهضمه ونخرج به علماء جديداً فلا نكون مقلدين بل مقلدين أو مجتهدين
بما . وعقل البشر ماسدت عليه منافذه وفضل الله لم ينحصر فى شرقي ولا غربى

بل فيمن يعلم ويعمل . فهل يتعلم قومي ياترى حتى ينبغ فيهم أمثال أعضاء المجامع العلمية في باريز وأساتذة جامعة مونتبلية حتى يضعوا اسمنا في قائمة الأمم المتحضرة الحديثة

كتب مؤخراً أحد كتاب اسوج كتاباً سماه مراحل الحكمة الفرنسية عدد فيه أهم الصفات التي اشتهر بها الفرنسيون فقال (١) الذكاء وسرعة الفهم (٢) العشرة اللطيفة والانسانية (٣) فكرة الاسرة (٤) الفردية وحب الذات (٥) تصلب الرأي (٦) حب الاقتصاد (٧) احترام المرأة

صفحة من تاريخ فرنسا^(١)

٧٥

عرفت معظم أمم أوروبا بالتنقل في البلاد من القديم ، وزاد فيها هذا الخلق مع الحضارة زيادة كبرى . وكلما استفاضت الحضارة كان التنقل أكثر وأفيد . ومن الناس من يحب الهجرة ، فاذا نزل بلداً ليصرف فيه ابتغاء الكسب أشهراً أو أعواماً ، يستميله حب ذاك البلد فيقيم فيه ، وربما أخذه بعد ذلك وطنه ، ونزل في سبيل حبه عن مشيخته ومقوماته ، وتلبس بعبادات الأمم التي نزل عليها ، وتعلم لسانها وأصبحت عاطفته مع الزمن عاطفة أهلها . والشعوب الانكلوسكسونية أكثر حبا للهجرة والاستيطان في أرض الغير من الشعوب اللاتينية ولا سيما الشعب الافرنسي منها الذي عرف بأنه أقل الشعوب هجرة وسياحة لجمال بلاده وحبها ولأنها بلاد عريقة في المدنية حوت كل شيء . ومنذ عهد

(١) اعتدنا على كتاب زهرة التواريخ الفرنسية لهانوتو Hanotaux : La fleur des histoires françaises و على كتاب التاريخ العام للافيس ورامبو Lavissee et Ram Band : Histoire generale وعلى تاريخ الحضارة لسينوبوس Seignobses : Histoire de la civilisation

الحروب الدينية لم يعهد أنه هجر أرض فرنسا عشرات الألوف من الفرنسيين صبرة واحدة كما فعلوا يومئذ وراحوا يهاجرون الى أرض وجدوا فيها منفذاً لحريتهم الوجدانية .

لا يكفي الانسان أن يعيش ويسكن وان ينتقل من مسكنه فمن فطرته أن يتحرك وينتقل . هو في حاجة الى الحركة واستعمال رجله ليذهب الى القاصية يرى غيره ويحادثهم ويأخذ عنهم أموراً ويقايسهم لافى أصناف السلع والبضائع فقط بل يتبادلواياهم الافكار والعواطف . ينتقل ليستعمل قوته العاقلة وينمي موارده ويوسع دائرته . البشر سواء كانوا منظمين أهل أوضاع وشرائع أو همجالات يدخلون تحت نظام وسواء دعوا قبيلة رحالة أو أمة ساكنة شأنهم شأن الفرد فان الشعوب تنهض وتضرب في طول الأرض وعرضها ترى ماذا كان فيها وما يكون .

كان الغاليون أجداد الفرنسيين مولعين بالحوادث يركبون الاخطار لنيل الفخار ولم يكن العالم القديم في نظرهم من السعة بحيث يكفيهم في حملاتهم ورحلاتهم ولا عجب فهم من نسل أولئك الشعوب الرحالة التي انتقلت من سهول آسيا وكانت العالم القديم من عامة أطرافه وقد نقلوا الى أخلافهم هذا الدم المتحرك في أجسامهم ومن القبائل من يحب الاعتصام وراء جباله ومنهم من يحب الاستكانة على سواحله والفرنسيين يحبون الأرض والبحر على السواء . وقد تجلت فكرة التنقل تجلياً غريباً في الحروب الصليبية فلم يستهو ذلك الفرنسيين فقط بل استهو معظم أمم أوروبا وكثرت العوامل التي قادت الى هذه الحروب وأدت الى غزوة الغرب للشرق على تلك الصورة دهرأ طويلاً . وكيف كانت الحال فان من هذه الحروب بدأ انتشار الفرنسيين في الشرق وعرف أهله وعرفوهم .

ولما رجع الفرنسيين في احدى الغزوات الصليبية من سورية دعاهم في الطريق مدينة سالن الى الأخذ بناصرها وتخليصها من أيدي العرب الذين كانوا أخذوا بمخنقها فهب منهم رجلا ن مهذبان من أهل نورمانديا وهما ولدا تنكريد دي هوتفيل : رويرلافيزي وروجر فأطاعوا القوم على تحريرهم ثم انصرفوا ولما كانوا

قد تذوقوا جمال تلك البلاد المنيرة عادوا اليها وأسسوا فيها ملكا طال عهده قرنين وبواسطتها عرف في صقلية وإيطاليا الجنوبية اسم فرنسا وأخلاقها وعلومها كما عرفت في الشرق كله أو شرق البحر المتوسط وأصبحت بلرم ومسينا ونابل الإيطالية اليوم مدناً أفرنسية أمس وترى في بعض بيع صقلية الهندسة الغوطية الى جانب الهندسة اليونانية القديمة ومعها الهندسة العربية والهندسة البيزنطية وقد تركوا أسماء افرنسية وشارات افرنسية في تلك الارض التي هي أول ما استعمره الفرنسيين .

أتت عدة قرون والمسألة الإيطالية والصقلية والناپولية كانت مما يهتم له ساسة المرئسيين ودام ذلك الى عهد حروب إيطاليا التي جمعت مصالح الشعبين . الافرنسي والإيطالي واجهما على مقصد واحد في المدنية وقاما بما سمي « النهضة » . أن النورماندين وهم ملوك البحر لم يقتصروا على دائرة خاصة في تطوافهم وفتوحهم بل كانت سفنهم منذ أوائل العهد الاطول للقرون الوسطى تمخرعباب البحار الاسبانية والبورقالية وتجتاز جبل طارق وتسير مع شواطئ افريقية فعرفوا جزائر آسور وكناريا والرأس الاخضر وقيل أنهم أسسوا مراكز تجارية لهم في شاطئ الذهب وشاطئ العاج حيث قامت في العهد الحديث مستعمرات افرنسية مهمة حتى لقد ادعى بعضهم أن هذه الرحلات البحرية التي وصلها النورمانديون الفرنسيين قد سبقتهم بها خريستوف كولمبس فاتح أميركا الى معرفة العالم الجديد ورأوا أرضاً وهم يشقون العباب على سفنهم الشراعية .

ومن المحقق أن أحدهم جان دي بيتانكور احتل سنة ١٤٠٢ جزائر كناريا باسم ملك فرنسا ولكن حرب المئة سنة في فرنسا قطعت الرغبة في مثل هذه الأعمال . ولما كشف فاسكو دي غاما الملاح البرتغالي طريق رأس الرجاء الصالح وخريستوف كولمبس الجنوى قارة أميركا ، فكشفنا بذلك طرق العالم الجديد الكبرى كانت فرنسا مستعدة للدخول في هذا العراك .

كانت المدنية الى ذلك العهد محصورة في عبر البحر المتوسط فقط ، وقامت

المدنات القديمة ، وطاشت على ضفافه وفي القرون الوسطى كانت رومية مركز الدائرة العقلية والأدبية في الأرض وموانئ البحر المتوسط برشلونة ومارسيليا وجنوه ويزا والبندقية وسيطات التجارة مع بلاد الشرق .

وعلى عهد النهضة انبعثت المدنية الحديثة من شبه جزيرة ايطاليا التي ورثت مباشرة تقاليد يزانطية وتراثها ومالبت القوم في أوروبا ان يعرفوا بوجود أراضي واسعة وراء ما عرفوه من الشرق ومن بلاد الهند التي طالما طمع فيها الطامعون وأيقنوا أن وراء البحار جزائر وقارات ثمينة وسكاناً ودعاء ينزلون بلاداً كثرت فيها مواد القوى الطبيعية وأصبح معينها فائضاً لا ينضب . ولما عاد أرباب الرحلات الاول من تلك الاضغاع النائية ذكروا لقومهم عظمة البلاد التي رأوها متجلبية بجلباب الغنى والسعادة وحدثوهم عن الانهار العظمى وما تطل من البقاع البكر وعن وفرة المناجم وغناها وعن سهولة العيش في تلك المشاهد الغريبة .

ولم يمض زمن طويل حتى قامت الاساطيل التي كانت حصرت وكدها في التطواف فقط في الابعاد المحدودة في البحر المتوسط تطوف في بحر الظلمات والبحر الغربي كما كان الاوربيون يعرفونه . ففتحت في العالم طرق عريضة للعمل واستسهلت المخاطر والرحلات الطويلة التي تحتاج الى كثير من الاقدام واقتحام العظامم واقتضى لتلك الثروات الجديدة رجال جدد وعقول جديدة . فعلى شواطئ ذاك المحيط قبالة تلك القارة التي ظهرت من العدم الى الوجود نشأت ونمت بطول العراكة والنشاط العظيم شعوب قوية بعيدة بجرى الهم طموحة الى العلاء والثناء فكان الاسبانيين والبور تغالين المقام الاول المحمود في هذا الشأن ثم للفرنسيين والانكليز ثم جاء الهولنديون والالمان وكلهم من سكان شواطئ بحر الظلمات وبحار الشمال فكانوا على استعداد لاجتياز البحار اذ كانت هذه أملاكهم وعلى ضفافها بلادهم وكانوا عرفوا طرقها أيام تشرد بعض أبنائهم في أسفارهم البحرية فأخذوا يقذفون بأنفسهم في تيار هذا المعترك فاعتموا ان احتلوا أرض خريستوف كولمبس التي أحرز أميريكوفيسبوسى الملاح القلودنسى

شرف نسبتها اليه (أميركا) نأشأوا فيها أمما جديدة ، وأحدثوا مدنيات هي بنات علومهم وآدابهم ، وهكذا قبضوا على قياد المسائل العظمى بين البشر وبيننا كان الفتور يعمرو الأم البحرية ويضجرهم العمل حتى أوشكوا أن يتركوا خوض البحار ويزهّدوا في البحر المتوسط وخوض لججه قام مهندس افرنسى مسوقا بنابل من نبوغه وقريحته الى فتح ترعة السويس ، فوصل الشرق بالغرب وعادت قوى الأمم الى نشاطها ، وأخذت كل أمة تفكر بايجاد مملكة لها على البحر كما لها مملكة في البر ، وكان للفرنسيس في ذلك شأن عظيم . ففي سنة ١٥٠٣ اكتشف ملاح نورماندى فرنساوى البرازيل وفي سنة ١٥٠٦ وصل ملاح فرنساوى آخر الى الأرض الجديدة وفي سنة ١٥٢٩ وصل آخر الى صومطرا وقد طاف أمثال هؤلاء الملاحين جميع شواطئ أفريقيا ، واستعمر الفرنسيين الأرخيل الفرنساوى ، ثم استولوا على كندا ، ومع كل هذا فان البرتغاليين والاسبانيين ثم الانكليز والهولانديين قد كتب لهم النجاح في مستعمراتهم أكثر من الفرنسيين ، فان هؤلاء لم يستطيعوا لاختلاف كلمتهم في الداخل أن ينشئوا ممالك باقية لهم كما فعلت الأمم البحرية الاربعة .

بدأت فرنسا باستعمال السيفغال وسيراليون وشاطي العاج ورينيون وجزيرة موريس في أفريقيا وبعض أجزاء الهند في آسيا وجزائر الارخبيل وكويان ولوزيان وكندا وذلك في أوائل القرن الثامن عشر ، وأظهر بنوها استعدادا للاستعمار من المفاداة والجرأة والعمل حتى صبح أن يقال ان كل حفنة من تراب تلك البلاد جبلت بدم افرنسى لأنها كانت تكره نزول الغرباء عليها ، حتى اذا انتصف القرن كان ريع تلك المستعمرات عظيما جدا .

وكان من نتائج اشتغال فرنسا بحروب لويس الخامس عشر أن فقدت مستعمرتين عزيزتين عليها كندا والهند ، وذهب عمل أبطالها وعقل علمائها ومنظميها أدراج الرياح . ولما شغلت بالثورة لم تضع الأزيمة أوزارها حتى لم يبق لفرنسا بحرية يعتد بها وفقدت زهرات من مستعمراتها .

وفي القرن التاسع عشر بدأ الفرنسيين بالانتشار في الاقطار وصحت عزائمهم على الاستعمار فبدأوا باستعمار الجزائر منذ سنة ١٨٣٠ فافتتحوها عقيب حروب هائلة مستخلصين لها كما قال هانوتو من شعب صعب القياد لا يخضع ولا ينقاد ، ثم خفق العلم الفرنسي على خاليدونيا الجديدة وأرخيل تاهيتي في المحيط ، وأخذت فرنسا الكوشنشين من مملكة انام سنة ١٨٦٣ وعلى عهد الجمهورية الثالثة الحالية تم امتلاك الجزائر بالاستيلاء على تونس ، وانضمت الى مستعمرة الرينيون الحفيرة بلاد مدغسكر وأراضى الأرخيل المحيطة بها ثم كومور ومايوت وتومى بي وأضيفت الى خاليدونيا الجديدة بلاد الهيريد الجديدة ، وانضم الى الكوشنشين كبودج وانام والتونكين الى حد مكنونج ، لا جرم ان أهم مستعمرات فرنسا هي على مقربة منها في شمال أفريقيا ، فإذا تم لها استصفاء سراكش مع ريفها خفق علمها على جزء عظيم من بلاد العرب في الغرب الأقصى والأوسط والأدنى ، واتصل ذلك بمستعمراتها في داخل أفريقيا وغربها فتتشر بذلك تجارتها ولغتها وأخلاقها وامجادها وتكثر بأهالى تلك البلاد سوادها



إذا القينا رائد الطرف على تاريخ فرنسا نجد أنها ظهرت في مظاهر الحياة في حالتها بؤسها ونعيمها ولما تمت لها وحدتها واستدارت رفعتها واتسعت في القاصية مملكتها رأت كما قال مؤرخوها أن المرء لا يعيش منفرداً بل هو يريد أن يحب ويحب وأن الكامل من صدر عن كرم ودعته الحاجة الى التفكير في خير الناس وأكثر الشعوب قوة من اذا آتت من نفسها ذلك رأت دافعاً منها يدعوها لان تعمل ما حولها وأن تنشر في الخارج شيئاً من مواردها وأن تفيض ذرواً من فضل نشاطها الذي غرسته الطبيعة فيها ، قالوا : ولطالما تكررت لفرنسا بل ربما أتت ذلك مرة في خلال النرون الماضية أن أثبتت شجاعتها الادبية بأن خفت الى معاونة الشعوب الضعيفة والمفلوبة ومن خانها نكد الطالع وسوء البخت فافتقرت وتقطعت أوصالها فقدمت اليهم معاونتها المادية وبذلت نجوم عواطفها وكثيراً

ما كانت تب دفاعاً عن طائفة أو تأييداً لفكر وقد اتقدتها الأمم الأخرى على هذه الأخلاق وعدوا ذلك فضولاً منها. ودخولاً فيما ليس من شأنها وكثيراً ما كان ذلك يضر بها ويوجب تعماً لغيرها ولكن هذا الخلق على ما يظهر طبيعي في الفرنسيين فقد فطروا على حب الدعاية وبث الدعوة لما جبلوا عليه من حب التألف والميل إلى الانس والتعارف

حب العشرة. حاجة من حاجات القاب والسعى في التقرب ممن لا يعرفك هو مبدأ حبه لك وحبك له ومن عادة الذكاء الأفرنسي أن اشتدت حاجته إلى التفاهم والاتصال بالغير ولذلك زعموا أن من أول امتيازات اللغة الأفرنسية أن كان فيها من الوضوح والجلال ما ليس في غيرها من لغات الغرب . وما دام الفرنسيون لم يستول على قلوب من يحفون به لأشرب قلوبهم ما يعتقده حقاً فإنه يفتش على أساليب فعالة لفهامهم ما يراه هو بنفسه فالرجل الفرنسي إذا كانت له عقيدة لا يكون سعيداً إلا إذا شاركه في ذلك من يحب من الناس ولذلك كثرت أسماء الفرنسيين في قائمة المجاهدين في سبيل بث فكر أو نشر مذهب في كل قرن وتجلّى ذلك في القرون الوسطى فامتزج في أجدادهم حب الإيمان بحب التنقل في البلدان فكانوا يحجون الأراضي المقدسة ويزورون المعتقدين بحسب عرفهم . وكان لرومية والقدس وسان جان دي كومبوستل ولورد وغيرها نصيب وأى نصيب من تلك الزيارات كما تزور الأمم اليوم باريس ورومية وآثينة لأنها مهد مدنات عظمى . وكانت هذه الرحلات في القرون الوسطى من أعظم الأسباب في التواصل والتعلم والتحسس فيلتقي الناس على الطريق ويتفاهمون ويقص بعضهم على بعض أموراً ويأخذ أحدهم عن الآخر أشياء . ومن الأغاني القديمة نشأ في الفرنسيين الميل إلى طرد العرب من أرض فرنسا بعد أن استولوا منها على شطر عظيم . من التفتى بتلك الأغاني أولع قومهم بالحج إلى بيت المقدس وقبر المسيح وأثرت فيهم مواعظ رجال الكنيسة والرهبان الذين رأوا أن ينشؤوا في عالم النصرانية مذهباً أدبياً واحداً باسم الكثلركة الرومانية . بتلك الأغاني

استعدت الافكار للقيام بحملات في القاصية ولا سيما على المسلمين وبذلك نشأت الفتوة والفروسية فيهم والقسوة عندهم هم الذين يفادون بمالهم وراحتهم وحياتهم ليقوموا على الارض بعمل عظيم من الشجاعة والعدل وطيب السريرة ثم فسد هذا المثال من الرجال ولكن كان في ابان انتشاره من أشرف ما تطمح اليه النفس البشرية من مظاهر الشرف والفخر على رأى هانوتو اذ كان واحدهم يرمى الى مقصد عال من خدمة الدين والعطف على اليتامى والمتهوكن والاخذ بأيدي المقهورين والعائرين . وسرت العدوى عدوى التجنن بالصليب في فرنسا كما وصفها كتابهم واستولت على أفئدة السذج وكان داعية ذلك بابا افرنسي الأصل اسمه أوربانوس الثاني وراهب وهو بطرس الناسك وهما اللذان أوقدا جذوة الحروب الصليبية وجما الناس في فرنسا لغزو الاراضى المقدسة وسكانها فهرعوا ألوفاً ألوفاً وقضوا في الوصول اليها زرافات ووحداناً وبعد سنتين فتحوا أنطاكية ثم بيت المقدس وغيرها وكان معظم الامراء الذين استولوا على شطر من سورية من الفرنسيين ولكن عرضت لهم معايب ومصاعب اضطررتهم بعد سنين طويلة الى ان يرجعوا ادراجهم ولو كتب لهم البقاء لكانت دعوتهم في البلاد التي غزوها سرت من ذلك الحين بيد أن قواتها خانتهم ومن وراءهم من الامم لم تمد اليهم أيدي المعونة ورفعت فرنسا صوتاً مرات في حمل الامم الغريبة على مناصرتها فلم تفلح فلما جف لديها معين الاقناع لم تر الا الرجوع ونادت بالرحيل ثم جهزت حملة ثانية بدعوة القديس برناروس وبمعونة ملكهم لويز السابع الفرنسي وكونراد الثالث امبراطور المانيا فأخفقت أيضاً وهكذا اشترك الفرنسيون في الحملات الصليبية الثمان التي حملها الغرب على الشرق . وكانت السابعة والثامنة بقيادة أعظم ملوكهم القديس لويس الذي كان يرى أن يهاجم القوة الاسلامية في أهم حصونها أي في مصر وتونس لا في فلسطين وسورية فاستولى على دمياط ومصر وغلبه المسلمون في المنصورة وأسروه في تلك الوقعة ولم يطلق سراحه الا بإرجاع دمياط ثم جهز حملة قوية سنة ١٢٢٠ على تونس وهلك

هناك بالطاعون ولكن الفرنسيين لم ينسوا تونس فجأوها سنة ١٨٨٠ يجددون ذكر ملكهم الشجاع التقى في نظرهم الذي عبد أمامهم الطرق الى فتحها

وبعد قرنين استخلص العرب من الصليبيين بلادهم في سورية وابل القريقتان في ذلك بلاء حسنا وبذل الفرنسيين خاصة دماء وشجاعة وبسالة واقداما . وقد طادت هذه الحروب على شعوب أوروبا بالفوائد العظيمة فركت دمها ومازجت بين عالمين وعرفت قصور مدنيتهما وأدركت أموراً من مدنيات قديمة واتسع أمامها مجال العمل والاقدام وكان في تجديد الحملات الصليبية تجديد النهضة وكان الاشتراك بها يعد من الكمال البشري لان الانسان قلما قادى بحياته في سبيل غاية كل هذه المفاداة المخلصة وكان لفرنسا المقام الاول في هذا الباب لما أحرزت من المجد فانقشر ابناءؤها على شواطئ البحر المتوسط وتنقلوا من الغرب الى الشرق ومن الشرق الى الغرب وبيننا كان الفكر الديني هو العامل الاقوى في الفرنسيين على عهد القرون الوسطى جاء دور النهضة العلمية ويطلقون اسم « النهضة » على العصر الذي جاء بعد القرون الوسطى مباشرة وليس معنى ذلك أن القوم قطعوا ما بينهم وبين الماضي من الصلات وطلقوا الغار ليأخذوا بأهداب الجديد الحاضر فان ذلك صعب والتاريخ كالطبيعة لا يعمل طفرة ولا ركضا وعمله تدريجي . وقد اختار من سبقوا من الكتاب أن ينعتوا ذلك العصر بعصر النهضة لانهم كانوا مأخوذين بلطفه الذي يشبه الربيع فان البذور التي رقدت طويلا في الارض أخذت لجأة تقوى وتنمو فانبعثت المدنية كما تزهو الاشجار في آذارها وكان العامل الاقوى في هذه النهضة استمتاع الناس بحياة حرة أكثر من العصور السالفة وتمتعهم بعيش طيب فيه البذخ والرفاهية . مظاهرات الى ارتقاء الفكر ارتقاء محموداً والى الابداع في التصوير والنقش

خلصت القوميات في أوروبا من قيودها . واذ كان عمل الجماعة أقوى وأثبت اواشد احكاماً مما كان عليه في القرون الوسطى أصبح الميدان فسيحا لعرض الافكار الحرة والمقاصد التي تحتاج لتعمل الى زمن ولم يعد الاشخاص فقط ولا

جماعات خاصة ولا المدن ولا النواحي تعمل وتستحصل مشتركة بل كان العامل في ذلك الشعوب والاطمان وكانت المدنية ترمى بحد ذاتها الى مقاصد فتحت لها منافذ واسعة الى العالم والمستقبل وأخذت الامم يختلط بعضها مع الآخر ويتبادلون الافكار والاكتشافات وقد استفادت في حوض البحر الابيض خصوصاً تجارة مهمة عقيب الحرب الصليبية وسكنت بعض السكون نفحة الطوائف والشارت بين جميع الشعوب البحرية سواء كانوا كاثوليكاً أو روماناً أو مسلمين . وكانت بين مدن البندقية ويزا وجنوة ونابل وبلرم ومارسيليا وبرشلونة وبين الاستانة والاسكندرية وتونس والجزائر صلات مستديمة وكان تعليم الملاحين في البحر المتوسط متحداً ويتكلمون لساناً واحداً وكانوا حيث يحلون يعثرون بآثار نفيسة من عظمة القدماء وهم اليونان والرومان . وأخذ الناس في كل مكان يتغالون في أوربا باقامة البيع واعلاء قباهها ونصب التماثيل وأعمال العمران من ملاعب وميادين وحجار وموان وعمد وأروقة وأهرامات . وأنشأ أهل الشمال يجلبون صنائعهم الهندسية وعلومهم العملية يمزجونها بما لدى سكان الجنوب فظهر من ذلك نور أخذ بالابصار أو كاد وحصل من ذلك صنائع سموها بضائع النهضة وكانت النهضة الإيطالية بادية بدء ولكنها تأثرت بمؤثرات سكان الشمال فنشأ في إيطاليا من نوابغ المهندسين والمصورين أمثال ليونارد دي فنسي وميكل آنج ورافائيل لم ينبغ في جميع الامم الاوروبية أمثالهم في عصرهم ولا في الذي بعده

ولم تكف في قيام صنائع النهضة مسجة (ملقعة) البنائين ولا ريشة المصورين ولا مقراض النقاشين . بل زاد ولوع الناس بالتعلم والحكم على الأشياء بفهم وأخذوا يتطلبون من كل مكان الكتب وكانت نادرة ثمينة بحيث ينيطونها الى سلاسل في خزائن الكتب القليلة التي كانت تجعل فيها وكان تطلب الكتب عاماً والاسفار الى ذلك العهد تنسخ يبطء واحداً بعد واحد لتحفظ في قلايات الاديار ويخص بمطالعتها الملوك وكبار السادة والأعيان أو أغنياء الرهبان ، أما الطلبة ومحبو الاطلاع فكانوا يكتفون بتلقيها وتلقيها بالكلام أو بالتصوير

والعالم طامح الى التعلم والمعارف . وفي هذه الاثناء اخترع غوتنبرغ الطبع فكثرت المؤلفات والكتب وتناولتها الأيدي بسرعة فوحدت الافكار والذكاء البشرى ووسعت العقل فتوسع العالم وينا كان غوتنبرغ مخترع الطبع كان فاسكو دي غاما وخريستوف كولمبس يكتشفان أميركا . فاشتركت فرنسا في هذه النهضة المباركة المعجبية ، ونزلت في الميدان الذي فتح أمام الذكاء الغربي وتينا كانت البندقية وجنوة ويزا في ايطاليا آخذة بالانحطاط كانت بوردو ولوريان ونانت والمهاجر من بلاد فرنسا آخذة بالا-تفادة والارتقاء . فكانت فرنسا في الصف الأول بين الممالك المتحدة الموحدة وكانت لها ميزة على الأمم الغربية لان ملوكها جلبوا اليها من حروب ايطاليا كل ما استطاعوا اقتطافه من ثمرات النهضة وذلك لاختلاطهم بسكان شبه جزيرة ايطاليا قبل غيرهم .

هذه صفحة جليلة من تاريخ الفرنسيين وتنقاهم في البر والبحر وما أبدوه من مظاهر الشجاعة في الدهر الغابر بحسب عرفهم وتصورهم وعلى ما تقتضيه درجة ارتقائهم وتطورهم وكيف غزوا الشرق يوم تدنيهم باسم المدنية . واستعمروا بعض أقاليمه يوم نهوضهم باسم المدنية ، فسبحان مبدل الأفكار ، ومكور الليل على النهار .

قصر فونتينبلو

٧٦

عمر الملوك منذ ألف البشر اجتماعهم قصورا كثيرة ذكرها التاريخ ولكن قل فيها ما تعاورت الأيدي على تنميته . مثل قصر فونتينبلو على ٥٩ كيلومترا من باريس ، ونظن كثيراً من القصور التي اشتهرت في القديم اذا جعلت الى جنبه تهدأ كراخا ويوتا ضئيلة ، قصر تهيجتك عظمته لان فيه ما حوت العظمة من

المعاني في المباني ، قصر تتجلى فيه الصناعة والهندسة والتفاني في الابقاء على آثار الأجداد ، ان كان ظاهره كسائر القصور باهت لانه بنى بحجر وآجر غير روتقهما الدخان وتطاول الأزمان ، فان في الداخل مالا يكاد يتصوره العقل من آثار الصناعة والتفنن ، زرته في اليوم الثامن عشر من كانون الاول ١٩٢١ والشمس مشرقة تمحج بأشعتها أطاليه وساحاته وغاباته فما أبهج وما أعظم .

لا يزيد سكان المدينة التي قامت بالقرب من هذا القصر على خمسة عشر ألف نسمة وكان يأتيها السياح من العاصمة ومن الآفاق بالملئات يقضون ساعات وأياما على مقربة من عادياتها التي تدل على ان العظمة تسلسلت في فرنسا منذ زهاء خمسة قرون ، وان ما اشتهر بنينا من سلامة الذوق وقوة الابداع حقيقة لا يتماهى فيها اثنان .

ذكرت فونتنبلو في التاريخ لأول مرة في القرن الثاني عشر وكانت قلعة بادى بدء وأقام فيها لويز السابع يعة ووسع سان لويز القصر وأقام فيها شارل الخامس دار كتب وهي التي نقلت بعد الى باريز وكانت النواة التي منها ألفت دار كتب الامة في عاصمة الفرنسيس . ولقد كان فرانسوا الاول هو الموجد الحقيقي لقصر فونتنبلو فخاطب كبار الرسامين والنقاشين والبنائين من الطليان فلم يجبه منهم الا أناس كانوا يعدون في الطبقة الثانية بعد ميكل آنج وليوناردى فنسي ورافائيل وظل هنرى الثانى يداوم على العمل الذى بدأ به سلفه فرانسوا الاول

وكان هنرى الرابع بعد فرانسوا الاول أكبر بان لقصر فونتنبلو . فعمل فى بنائه منذ سنة ١٥٩٣ الى سنة ١٦٠٩ وأتفق فيه مليونين ونصف مليون ليرة وجاء لويز الثالث عشر وعمل أيضاً فى بناء القصر ، وكان لويز الرابع عشر يأتي فونتنبلو كل سنة وأصلحت ماري انطوانيت بعض جهات من القصر . ولما نشبت الثورة الفرنسية ترك القصر زمناً . ولما قبض نابليون الاول على زمام الملك أتفق فيه اثني عشر مليون فرنك وأصلحه . وفى هذا القصر كتب هذا الامبراطور صك تنازله عن الملك سنة ١٨١٤ وفى قاعة كتب القصر اليوم

مسودة هذا الصك وفيه ودع حراسه فسمى المكان الذى خرج منه صحن الوداع وقال فى مفكراته عن قصر فونتنبلو ، وهذا ولا شك منزل الملوك بل منزل العصور .

وما زال القصر منذ وجد يزوره ملوك أوربا ويأتون اليه فى الاوقات الرسمية وينشاه رجال فرنسا من ملوك ورؤساء جمهورية زائرين متصدين يتألف القصر من عدة أبنية مختلفة بنيت ككرايت فى مختلف العصور بدون رسم خطة معينة ، ولذلك دعى بمجمع القصور وفيه نموذج من مدنيات خمسة عصور فى البناء والفرش والآنية والرسم والنقش وكل قصر بل وكل شعبة من قصر صرفت فى تزيينها القرائح وبذلت فى ايجادها الاموال ، فترى فيه سرر الملوك والملايكات ، وغرف زينتهم ومطالعتهم وجلوسهم وأماكن حظياتهم ووصيفاتهم وكتمة أسرارهم وغرف انتظارهم زوارهم وقاعات استقبال العظماء فى المواسم وجوقات موسيقاهم ومحال رقصهم ومناضدهم ومقاعدهم ومتكائهم وساطاتهم وأدوات تسليتهم وخزانة الكتب التى وضعت فى ممشى طوله ثمانون متراً فى عرض ستة أمتار وزيادة وفيها نحو ثلاثين ألف مجلد مذهبة وكثير من المخطوط القديمة والعاديات فى النقش والرسم مالمو أردت وصفه لاستغرق عدة صفحات .

أما الغابات المحيطة بالقصر فهى من أجل ما خلق الخالق وتماورته الايدى بالتحسين وساحتها ١٧ عشر ألف هكتار ولها ألفا كيلو متر من الماشى والطرق و ١٦١٦ هكتاراً للمتزهات و ٤٠٠٠ هكتاراً من الصخور وفيها من أشجار السنديان والزان والصنوبر والسندر ، والسنديان أكثر الشجر وهى من العظمة والضخامة على جانب لا تشتغل الفأس فيها الا مرة كل ثلاثين سنة وريعتها نصف مليون فرنك ، ولكل ناحية من هذه الغابة مزايا وفضائل أفردتها القوم بالتأليف وغالوا فى درسها والبحث فيها ولا تسيا أحجارها وأشجارها . ومن أشجارها ما دعوه باسم آلهة القدماء تنويها به وجعله المفكرون ومتزههم والشعراء مدعاة

قرايحهم والعاملون سلوى نفوسهم ، وأدهش ما يدهشك في القصر ، والغابة
في فونتنبلو تسلسل الفكر في الفرنسيين وتقانيهم على اختلاف الادوار التي
أتت عليهم من ملكيات مطلقة ومقيدة وجمهورية في الاحتفاظ بالقديم
والعمل على تحسينه وتزيينه لتذكر الاحفاد ، اعمال الاجداد . فلاعجب اذا كانت
فونتنبلو بهجة النفوس وهي خلاصة قرائح كثيرة وأيد لا يعلم عددها . فونتنبلو
احدى العاديات التي تفاخر بها فرنسا وحق لها أن تفخر لانها تم على عظمتها
وثرورتها .

الموسيقى المصرية

٧٧

مدعاة السرور ، مجلبة النشأة ، مسلاة الحزين ، مفرجة الكروب ، مبهونة
الخطوب ، عنوان الحياة الداخلية ، مظهر الاخلاق القومية ، مصورة الفواعل
النفسية أصدق عامل على التحمس والتحمس ، أقوى دافع الى النهوض ، معلنة
أتقع الدروس الشريفة ، مذكرة بالمطالب العالية مما لا يعلمه الضعف ، دافعة عن
مزائق الشباب وطيش الحلو ، فيها يتجلى العقل البشري الفعال بأشارات وأى
اشارات ، تعمل عملها في الافئدة والوجدانات

هذه هي الموسيقى وهذا ما يتوخاه الغريون منها ولذلك تجدها في كل صقع
من أصقاعهم نفمة ورنة ، وفي كل مملكة من ممالكهم وترأ خاصاً ، بل أوتاراً
تهز القلوب ، وتعمل عملها فتقوى الضعيف ، وتجير الكسير ، وتهيب بالمستمع
الى ميدان المضاء وتمكن فيه أواخي الحزم والعزم ، وتطرد عنه الوسوس
والهواجس ، وتجعله في الذروة يشرف على التصورات البشرية ، فيتدبرها
في سره ، ويهيم ويتعلم ، ويطرب ويسلو .

تدخل الموسيقى عندهم في معظم مظاهر الحياة الخاصة والعامة ، فلا يجتمع

دينياً كان أو مدنياً ، ولا ملهى ولا مسرح ولا ملعب ولا مرقص ، ولا مطعم ولا فندق ، الا وللموسيقى فى الغالب دخل كبير فيه يتعلمونها صفاراً ، ويرضعون حبها مع اللبن ، لان الحاجة اليها مفروسة فى الفطرة البشرية ، والدافع اليها الطبع أولاً ثم التطبع ، فكيف بهما اذا اجتماعاً ، ولذلك يحسنها أو يستحسنها رب الاسرة وصاحبة البيت ، والطفل والابنة ، والامنى والفتاة ، والسيد والمسود ، والمويز والمعسر ، والعامل والماهر ، والكبير والصغير ، والقائد والجندى ، تساووا فى حبها ، واجمت كلمتهم على عموم تفعها . والاخذ بحظ منها .

قال لى من طاف أميركا الشمالية وتوغل فى ريفها وقراها ان أصغر فلاح فيها يملك آلة البيانو يطرب عليها هو وأهله وأولاده وأصحابه . وقالت مدام دى ستايل انك لا تجد فى سكان المدن ولا القرى ولا الجنود ولا الحراثين من لا يعرف الموسيقى فى المانيا فى أحقر كوخ تسمع صوت الموسيقى على نحو ما نسمع ذلك فى ايطاليا الا قليلا والاولاد والطلبة يطوفون يوم الاحد فى الشوارع يعجدون الله وينشدون الا نشيد الحماسية

آلات الموسيقى متعددة فى الغرب ولكن الصور التى تخرجها مختلفة وان أجمعوك فى بلد ما هو من صنع غيرهم فتسمع فى كل أمة ألحان رجال الفن فى أمة أخرى ، وأمم الغرب مهما تباعدت فى المقاصد وتباينت فى المصالح لا تجدوها الا متفقة فى تمجيد المغنين من الموسيقيين يضربون أوتارهم غير نكير ولو بلغ الحقد أو التنافس أو التنازع مداه فى صدورهم فليس لهم شئ أجمعوا على تقديسه مثل نعمة تصدر عن يد صناع ولحن يلحنه نفس تقيس

الشرق أمام الموسيقى الغربية كالملك بالسمع . أو كمن يسمع بأذن غيره يطول به المهد حتى يطرب لها طرب أهلها بها لان موسيقاه وأغانيه تخالف موسيقاهم وأغانيهم ولانه ألف لغات أخرى . وان لم يفهمها ولكنها قريبة من مصطلح قومه . مؤلفة مع مناخه ومحيطه . ودرجة رقيه وتاريخه . فالعربى يطرب من نغنى التركية وبالعكس للمجاورة والألف . والفارسى يحب الموسيقى العربية

لتمازج تاريخ أمته بالعرب . وكلما قويث الروابط بين الامم . وسهلت الشقة وارتفعت تأثيرات التخوم . والمبعدات بين القلوب . زاد طرب الجار من نعمة جاره .

سمعت الموسيقى في أكثر بلاد الغرب في ايطاليا والنمسا والمجر وسويسرا والمانيا وانكلترا وفرنسا وهولاندة والبلجيك واسبانيا فكان طربي بالموسيقى الاسبانية أكثر من غيرها لأنها ترشح من الانغام العربية لتمازج تاريخ العرب بتاريخ الاسبان ، وكذلك تطرب النفس بالموسيقى التركية ، لأنها ترشح من موسيقانا ، وقد أتت قرون والعرب والترك متلاحمون في البلاد ، مشتهدة روابطهم ، متحدة كلمهم

ولقد طربت من موسيقى أهل الغرب الأقصى وأهل الجزائر وأهل فارس طربي من الموسيقى الشامية ودون طرب كل عربي بالموسيقى المصرية لأنها أرقاها وقد بلغت بالنسبة الى سائر البلاد مرتقاها . تأثرت مرة لنعمة فارسي كان ينشدني قصيدة من نظمه في الحرية ، وتأثرت مرة من فتاة صربية في قطار كانت ترنم بنغمتها الوطنية ، وأنا لم أفهم معاني الفارسي ولا الصربية . ولكن باذهبت اليه النفس من التذكارات ، فعل فيها فعلة فأخرجها عن كثافتها ، وسمعت مؤخرأ مغنية اسبانية في مسرح الاولمبيا في باريز تتغنى بالاسبانيولية وتبيع بنفسجاً ترشقه على الحضور فكان منظرها وحركتها ونغمتها من أجل مارأته العين في الغرب ، وطربت به حقيقة ، وما ذلك الا للأثر الناتج عن تأثيرات الموسيقى ، وما يتذكر الانسان من الوقائع والحوادث

كانت لنا في بر الشام موسيقى راقية فكادت تندثر لزهة الناس في هذا الفن لأنه دليل ارتقاء الأمة ، والأمة كانت مشتغلة بنفسها ترجع القهقري ، وكان المشتغلون بهذا الفن مردولين ممتهين ، فبينما نجد الموسيقى في المنشد في الأمم الأخرى عشير الملوك والرؤساء والعلماء منها مرفها اذا مات مشى في جنازته

العظماء - كما فعل الفرنسيين بجنازة سازه ساين الموسيقار - وعدوه من المفضلين على أمتهم ومجدوه وقدسوه ، ترى مثيله في أرضنا مهاناً لا يؤبه له ، ان أخذ بفنه عاش فقيراً ومات خاملاً حقيراً ، وكم من نابغة في الموسيقى عندنا تمحى عن هباته خشية ان يلحق به العار ، وزهد نفسه طوعاً أو كرهاً بما يحبه ، وكان في مستطاعه أن يبرز فيه لعله بضيق العيش من هذا الباب ، ولأن صاحبه لا يعد في الطبقة التي هو حري ان يعد فيها

جاء دور كان الفقهاء يعدون ساقطاً من العدالة كل من يغنى عندنا ولا سيما اذا كان غني بالأجرة ^(١) ويتسامحون مع من يغنى مع جماعة من أصحابه وكانوا يعدونه فناً يفقر صاحبه ولكن الغرب على العكس من ذلك ، يفاخر بهذا الفن أعظم عظيم ، ولا يستنكف أن يأخذ نفسه بادبه ، وبرزق عشرات الألوف منه ، فاذا مات مات عن ثروة طائلة وخلف لأهله مجداً وغنى .

لغة عامة

٧٨

بعد انتظام سير القطارات والسيارات والمركبات الكهربائية في البر والسفن في البحر والطائرات في الجو اشتد اختلاط الأمم بعضها ببعض وأصبح الشرق لا يستغنى عن الغربى ولا الاوروبى والاميركى عن الاسياوى والافريقى والبشر في حاجة تزيد مع الايام مساساً الى التخاطب والتكاتب والتعامل والتواصل للتجار والاستثمار والعلم والسياسة وغير ذلك من مقاصد الحياة والاجتماع . أمسى البشر في حالة من احتكاك أبناء اللغات المختلفة لاسبيل معها الا الى التفاهم لان حياتهم مناط ذلك وهذا يشمر به حق الشعور من ساح في بلاد بعيدة ونزل على

(١) الطالع السعيد الجامع لاسماء الفضلاء وازواة باعلى الصعيد للادفوى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ

أم وعناصر متباينة . ان من يحسن الانكليزية أو الافرنسية من لغات الغرب ومن يعرف العربية أو الفارسية من لغات الشرق مثلاً قد تسهل عليه السياحة أكثر من غيره في الغرب أو في الشرق ولكن هذا غير كاف للاختلاط والتعارف والكسب والتعلم وكم من دانيمركي أو هولاندي أو أسوجي أو فنلاندي أو بهيمي أو بورتيغالي أو مجري أو عربي أو فارسي أو تركي أو جاوي أو ياباني أو صيني لا يحسن غير لغته فإذا جئت تتجر معه أو تأخذ عنه شيئاً من مظاهر الحياة التي لا تجدها عند أمتك تحقق لعدم فهمك وفهمه .

أكثر الطبقات المستنيرة في الأمم تعرف لغة أو أكثر غير لغتها فالفرنسي المتعلم قد يعرف الانكليزية أو الالمانية والاطالي قد يحسن الافرنسية والالمانية والياباني قد يتمكن من الانكليزية . ولكن العبرة لا بالفرد بل بالجموع فانك اذا كنت على بضعة كيلومترات من الجنوب الغربي في فرنسا ودخلت أرض اسبانيا وكنت لا تعرف غير الافرنسية لا تجد في الشعب من يكلمك الا بالاسبانية وكذلك اذا اتجهت صوب الشمال فنزلت انكلترا أو هولاندة أو السويد أو زوج خالك كذلك . اليك الحال في أوروبا والخطب في أميركا أقل لان الأكثرية في شمالها تتكلم الانكليزية وفي الجنوب يتكلمون الاسبانية والبورتيغالية وفي كندا يتكلمون الافرنسية والانكليزية . أما أوروبا وآسيا وأفريقية فهي برج بابل بتبلبل السنة سكانها وناهيك بهذا طاق عن التمازج والتعامل فقد اعتصمت كل أمة في حدودها وتناغت بحب لغتها ولا سيما بعد تقرير مسائل القوميات وجعلها في الاغلب المعيار الأول لان يكون علمها واحداً

دعت الحاجة تيمورلنك في القرون الوسطى وكان جيشه مؤلفاً من عناصر تتكلم بلهجات شتى وهو في حاجة الى توحيد مقصده فألف لغة الاربدو أي الجيش ليتفاهم جيشه فرسخت هذه اللغة المصطلح عليها في الهند حتى كادت تكون أكثر لغات تلك البلاد انتشاراً وساعدته على فتوحه وارتفعت بها اشكالات عظيمة . واخترع أحد ضباط الروس منذ بضع سنين لغة سماها « الاسبرانتو » أخذها من

أصول اللغات اللاتينية على الأكثر لتكون واسطة التخاطب في العالم فنجح في بث اختراعه وعلى كثرة مالتى من معارضة المعارضين أربى عدد المتكلمين بلغته الجديدة على مليون متكلم يتعلمها المرء في ثلاثة أشهر كما أكد العارفون بها وأصبح الدعاة اليها كثيرين من رجال العلم في الغرب قائلين أن نحول لغة الاسبرانتو يتعلم في ساعة ومفرداتها خصوصاً لمن يعرف إحدى اللغات اللاتينية كالفرنسية والاطالية والاسبانية والبورقالية يمكن حفظها في أسبوع ويكتب بها من يتعلمها عقيب الشهر من بداءته بها على أسروجه وفي ختام الثلاثة أشهر يتكلم بها جيداً ويكتب بها فيجيد وقالوا أن من الفوائد المادية والمعنوية التي تنشأ من انتشار هذه اللغة أن تتحاب الأمم في الغالب لانهم يتفاهمون في الحال على اختلاف مداركهم ومطباتهم وكم من مشاكل حدثت لسوء التفاهم وكم بفضاء تأصلت ومنشؤها عدم الفهم والتفاهم .

وعلى ما في هذه اللغة الجديدة من السهولة يكون السبق فيها للشعوب اللاتينية أو لمن يحسن فهم إحدى لغاتهم وعدد هذه الشعوب في أوربا وجنوبي أميركا يربو على مائتي مليون نسمة يؤلفون كتلة مهمة امام اللغات الانكلوسكسونية والسلافية والجرمانية التي يزيد المتكلمون بها كل يوم لوفرة سكانهم ومواليدهم . أما الانكليز والاميركان والجرمان مثلاً فيردون على الاغلب هذه الفكرة فكرة اللغة الواحدة ويقولون كان علماؤنا في القديم يتخاطبون ويتفاهمون قديماً باللغة اللاتينية وقاهيك بها من لغة ونحن اليوم نتفاهم مع الشعوب الأخرى بإحدى اللغات الحية كالانكليزية والالمانية والافرنسية ثم أن احداً قد يحسن التخلص بتعلم إحدى هذه اللغات في بضعة أشهر لسهولة طرق التعليم والتدريس وخير للانكليزي أن يتعلم الافرنسية مثلاً لغة حوت أهل القرائج وهي لسان عشرات الملايين من الخلق من أن يتعب نفسه بلغة ملفقة كلغة الاسبرانتو لا نبوغ فيها ولا عبقرية .

قل أحد الدعاة الى تعلم الاسبرانتو وهو من كبار رجال العلم في فرنسا بعد

أن عدد مزايها ولا يتوهمن واهم ان نشر هذه اللغة خيال في خيال أو تقويم باطل أو حلم حالم فان عدد من يتكلمون بهذه اللغة ويكتبون بها الآن في العالم مليون انسان فاذا بذلت العناية قليلا بها لا تلبث النتائج أن تزيد والفائدة أن نعم . ولعله يأتي يوم وليس بعيد يعجب فيه أبناؤنا توقفنا في الاصطلاح على لغة عامة سهلة التعلم وكيف لم تقبل على الاخذ بها بادئ الرأي . لاجرم أن صغار احفادنا سيتجاوزون حد الاستغراب متى قرأوا الحجج الصبائية التي يدلى بها المعارضون لصكرة اللغة الواحدة . أن دعاة التقليد واعداء التجديد وانصار الارتجاع واحباب النقهر والساخرين والمباحكين المدعين والمتعالمين ورثة من كانوا يهزأون بالقاتل بدوران الارض ويقبحون مكتشف حركة الدم ومخترع السكك الحديدية والسيارات والطائرات — أن المدافعين عن كل قديم مهمارث وبلى قد اخترعوا لهم اعتراضات صبيانية لقلّة الفهم ولذلك نقيم لهم الاعذار فعدم الفهم معذرة وعلة . نعم أنهم لم يدركوا أن تعلم لغة بسرعة خارقة للعادة ليس في قواعدها شاذة ومفرداتها لا تينية معدلة قد يغير وجه العالم كل التغير وذلك يوم يستطيع البشر أن يتبادلوا العبارات باللسان والقلم وبهذا الایجاد السهل المختصر ينشأ عهد جديد في صلات الانسانية .

هذا ما خص ما قاله شارل ريشه أحد اعضاء المجمع العلمي في باريز وقال أن طبقة المتعلمين ممن يصرفون اليوم سنين طويلة في تعلم لغة أو لغتين غير لغتهم ثم هم لا يحسنونها يخلصون من هذا العناء الثقيل وتصرف كل أمة وكدها الى تعلم لغتها الخاصة وتكون اللغة الحديثة معواناً لكل ولا يؤثر ذلك في سير لغة من اللغات الحية المتعارفة بل تزيد العناية بها أكثر من ذي قبل . قلنا تزيد العناية بكل لغة بين أهلها ولكنها لا تنتشر عند الامم الاخرى فالتناس اذا انتشرت الاسبرانتو لا يحرصون كثيراً على تعلم غير لغتهم مهما بلغ من سمو آدابها وحيوت من المعارف والفوائد وربما جاء زمن على الاسبرانتو ان تكتب بها كل العلوم وتكون لغة السياسة والتجارة العامة وينبغي فيها الشعراء والكتاب

والممثلون والخطباء فإن لم تتراجع اللغات الحية بذلك يقل الراغبون فيها . على أن جامعة باريس نفسها أخذت تلتقى دروساً بالاسبرانتو على طالب تعلمها وتجد في بعض البلاد الهولندية قد كتب على إحدى نوافذ دور البريد عندهم « هنا يتكلم بلغة الاسبرانتو » ويوشك أن تكون العناية عامة بهذه اللغة بين الأمم على كثرة المقاومين والمعارضين وستأخذ قاعدة بقاء الانسب حكمها على شدة المعارضة والمقاومة في الامور المفيدة موقته لا تثبت الا عشية أو ضحاها فسبحان من جعلنا شعوباً وقبائل وجعل من آياته اختلاف السنننا وألواننا .

البلجيكي

٧٩

كنت أظن بعد أن أصيبت الباجيك في الحرب العامة بوطأة الألمان وخربت ليج وبروكسل ولوفين ونامور ان هذه البلاد أصبحت قاعاً نصفصفاً ولما زرت عاصمتها بروكسل في شهر كانون الأول ١٩٢١ رأيت فيها ما أدهشني . رأيت في طريقى جميع القرى والجسور والمحطات التى خربتها المدافع الألمانية قد أعيدت الى أحسن مما كانت ولم يبق لتلك الحرب الطاحنة الا آثار في مآلياتها لا يراها الغريب . أظهر البلجيكيون في حربهم الى جنب الحلفاء (فرنسا وانكلترا وإيطاليا وأميركا) انهم من أول الشعوب في أمور الحرب كما هم من أول شعوب العالم بالصنائع والزراعة . ولقد أردت زيارة موزجات من مدارس البلجيكي لآزورها كما زرت كليتها الحرة في بروكسل فقل لي انها كلها تنسج على منوال المدارس الفرنسية أما أنا فلم أصدق ذلك لأنني رأيت للبلجيكيين أسلوباً مغالفاً للألمان والانكليز والفرنسيين في بعض مظاهر مدينتهم فالأولى أن يكون للمعارف قسط من هذا الخلاف

كان نابوليون يدعو بلجيكا « ساحة حرب أوروبا » وسماها الجغرافى اليزهركو « ساحة تجربة أوروبا » وما من مملكة في العالم ضيقة النطاق الى هذا الحد يبذل فيها أبنائها مثل هذه الهمم والعزائم . فقد وقعت الامة البلجيكية في مقدمة العالم من حيث سير الافكار الاجتماعية وهذا وجه مكانتها . نشأ لها ذلك من دوؤبها على الاخذ بأسباب الارتقاء . وان جميع المسائل الكبرى التى تهيج لها أعصاب الشعوب العظمى هياجاً قل أو كثر لتحدث في البلجيكيك غلياناً دائماً فيجد لها أبنائها أساليب من الاصلاح يحلون بها أحسن حل ^(١) . فأصبحت البلجيكيك بحياتها المجتمعة وقوتها الداخلية والخارجية المزدوجة ونشاطها البطيء في الظاهر ولكنه منتج خصيب لانه متواصل وشجاعته العتيدة وصحتها المتينة وعقلها الرشيد - أشبه بمعمل اجتماعى بديع .

ولقد تنشأ من ذلك أعراض التسمم الزائل في ذاك الجسم اذ يصاب بشيء من تأثيراته بيد أن تركيب الشعب البلجيكي قد بلغ من القوة بحيث يحتمل كل ضروب التجارب بدون خشية . ومما لا جدال فيه ان الافكار مهما كان نوعها اذا دخلت بوتقة العقل البلجيكي تتركب تركيباً مقولاً وتلبس صوراً حقيقية من المنافع . لا تصنع بلجيكا الماس بل ينحت فيها الماس الخام فيصبح حلياً في السوق تعمل منه كميات كبيرة . البلجيكيك بلاد معامل الحديد وتصفيحه وتحليله فهي معامل لكل فكر جديد كما هي معامل للحديد .

البلجيكيك بلد الصناعات والتجارة وأحسن الاقطار بزراعة تربتها فهي من أغنى بلاد الارض وان موقعها الممتاز بين ثلاث ممالك كبرى هي منبعث أشعة المدنية - انكلترا وفرنسا والمانيا - قد جعلها كالصلة والعائد بين هذه المدن والكلمة العامة الشاملة وهي تستدعى أعجاب الممالك الأخرى وتفوقها بنحسب تربتها ففى أرضها البالغة ثلاثة ملايين هكتار تجد جميع أنواع التربة . ومعادن الحديد لا تبعد كثيراً عن سطح الارض . ولذلك زكت أرضها ونمت صناعاتها وتزدهت بتجارها .

قالوا أن الاندلس « حديقة الزهور في أوربا » ويقال في البلجيكيك بما فيها من كل نافع تنتجه أنها « مبقلة أوربا » . وليس في البلجيكيك الا كل نافع وفيها اللطيف أيضاً . ونفى بذلك مناظرها الجميلة وجبالها التي يأتيها سياح الغرب كما يأتون سويسرا يلتمسون الراحة والهناء في ربوعها وحماماتها البحرية المقصودة وعلى ضفاف أنهارها البديعة . وفيها من آيات البناء والنقش والتصوير بدائع مدهشة وفي بروكسل وبروج ولوفين أجل دور البلديات في أوربا وفيها من العاديات كل بديع جميل . في ثلاث ساعات يقطع القطار هذه المملكة وأنت تتنقل فيها من غريب الى أغرب . بروكسل من أجل عواصم العالم وأقرس من أهم موانئها واذا وافيت الفلاة والخلاء فكأنك رجعت بضعة قرون الى الوراء

ان الشعب البلجيكي مثال الشعوب الصغيرة بعددها الكبيرة بأعمالها فعدده ٧،٥٧٢،٠٠٠ ومساحة بلاده ٢٩،٤٥٦ كيلومتراً مربعاً عندما أضيف اليها من مقاطعتي أوبين وماليدى بعد الحرب وصادراتها ٣٩٥١ مليوناً ووارداتها ٤٩٥٨ مليوناً وخطوطها الحديدية ٩٤٦٤ وينزل في كل كيلو متر من أرضها نحو ٢٦٠ شخصاً وهو اقصى ما بلغتته أرض غصت بسكانها . وهي على البحر الشمالى تمتد على ضفافه من الشمال الغربى ٦٧ كيلو متراً ويحدها من الشمال والشمال الغربى هولاندة على ٤٣١ كيلو متراً ومن الشرق المانيا على ٩٧ كيلو متراً ودوقية لوكسمبورغ الكبرى على ١٢٩ كيلو متراً وتحدها فرنسا من الجنوب والغرب على ٦١٤ كيلو متراً . وامتازت البلجيكيك بمهندسيها وتطريق الحديد وتوليد الكهرباء حتى ان معظم شركات الكهرباء في مصر والشام هي ملك شركات بلجيكية كما امتازت بمصوريها ونقاشيها وموسيقيها . ولها في الشعر والادب مقام محمود منذ استتمعت باستقلالها السياسى سنة ١٨٣٠ ومن كتابها في أيام الثورات من كانوا يكتبون باللغتين الافرنسية والفلاندية على السواء . وهاتان اللغتان هما لغة البلاد تتقاسمان السكان نصفين ففي الجنوب والغرب الافرنسية مستحكمة وفي الشمال والشرق اللغة الفلاندية وهي أشبه بالهولاندية احدى فروع اللغات الجرمانية .

ان اختلاف البلجيكيين في اللغة لم يفصل عراهم في الوطنية كما هو شأن كثير من الامم يختلفون بلغاتهم ولكن كلمتهم واحدة في سياساتهم . فقد رأينا السويسريين يتكلمون أربع لغات ولا يحبون أن يقولوا أربعة عناصر بل جميعهم وطنيون سويسريون لا فرقاً بين الذي يتكلم الألمانية والألمانية والفرنسية والإيطالية أو الرومانشية . ورأينا الفاسكونيين والبروتيين والبورغونيين والسافواياريين والباسكيين وغيرهم يتكلمون لهجات مختلفة وتجمعهم الجامعة الفرنسية وشاهدنا الكاتالانيين والأندلسيين والجلالقة والبيسكانيين يتخالفون في عاداتهم وطبائعهم ولهجاتهم ثم تجمعهم جامعة الاسبانية فيقال لهم كلهم اسبانيون

ومن الغريب في البلجيك أن ترى شعباً نازلاً في هذه البقعة الضيقة من الارض ولا تخرج اجزاؤه بعضها الى بعض ولا يتناسى شخصاته على حين تجمع بين هذين العنصرية وهم الفالونيون والفلامنديون المصالح المشتركة والخطوط الحديدية والطرق النهرية الى غير ذلك من ادوات التمثيل والامتزاج . بعض المواد اذا جعلتها في بوتقة واحدة تنتهي بفعل الحرارة ان تتحول الى مادة جديدة وتذهب مميزاتها بته . وان اقليمي الفلاندر وفالونيا اللذان تتألف منهما بلاد البلجيك لتمرجهما بوتقة مدنية واحدة محصورة فيختلطان ولكن لا يتمازجان ويظل كل عنصر سالماً من مؤثرات جاره واجتماعهما صناعي لا طبيعي .

رأينا الشقاق بين أهل هاتين اللغتين على أشده في كل مكان بين الخاصة والعامة ولم يفت اختلافهما في عضد الوطنية ومع هذا لا ترى في البلجيك الا فالونيين وفلامنديين ممدل على أن الدولة لا تتحول كما أن طبقة الشعوب كذلك فالوطن في الحقيقة كما قال توسيديد مجموعة مدن وبيوت وقلاع واسوار بل الوطن هو الروح الحية في المدينة وما تقرأه في قلوب الوطنيين ان هو الا بقايا مما كان في قلوب الاجداد .

الى اليوم ترى الخصام على أشده بين هذين الشعبين اللذين يؤلفان شعباً واحداً في معظم مظاهر الحياة ولكنهم في المسائل الوطنية لا فرق بين ابن الشمال

وابن الجنوب فينقاتلون بالمدى كما يتقاتل أبناء البلاد الحارة كالاسبان والطلليان ولكن كلمتهم في الشدائد سواء على نحو مارأيناها يوم الحرب العامة فكانوا مثال الوطنية كما هم أجل مثال في المدنية .

وما برح الخصام بين الفلامندية والفرنسية مستحكمة حلقاته فقد تحررت البلجيكيك من هولاندة واسبانيا والنمسا بالتأثيرات الافرنسية واللغة الافرنسية وما زال شعار الفلامندية منذ نحو قرن « حرية بلا لسان » وشعار مدينة أقرس للنساء الفلامنديات :

لا تسمحن أن يجرى الحديث بالافرنسية

فأذلفتنا الوطنية تموت

وبعد فقد أحرز البلجيكيون على الرغم من تطاحنهم في مسائل الاشتراكية والدين واللسان مقاماً عالياً في مظاهر الحضارة حتى صحت فيهم كلمة ستوارت ميل : « لا تعمل أعمال كبرى رجال صغار » فالعظام للعظام وعمل العظيم عظيم زرت قاعدتي البلجيكي بروكسل وأقرس ورأيت منافستهما في طريق المدنية واختلاف صورهما كاختلاف لسانهما واختلفت الى المتاحف والقصور وعجبت من تبرز أهلها في كل مرة كيف لم يجعلوا ولو في احدى الجامعات البلجيكية (بروكسل - لوفين - غاند - ليج) درساً للعربية تبلغ فيه عن الاقل مستوى الدانيمرك وسويسرا واسوج وزوج فهذه من الممالك الصغيرة التي لا تميل الى استعمار قطر من الاقطار العربية ومع هذا تجد في جامعاتها نصيباً من العناية بالعربية لغة المدنية القديمة

في البلجيكيك زهاء سبعة آلاف مدرسة ابتدائية فيها نحو مليون من الاولاد الذكور والاناث ومع هذا تجد عشر أهلها أميين على حين لا تجد في هولاندة أكثر من ٢٣ في الالف وفي فرنسا ٤٧ في الالف . والاحزاب المتغلبة فيها ثلاثة أحزاب حزب الاحرار والحزب الديني وحزب الاشتراكيين وليس في بلجيكا كما تقدم روح بلجيكية كما ليس في المانيا روح المانية ولا في فرنسا روح فرنساوية

ولا في انكلترا روح انكليزية . ومامن شعب في الارض يملك روحاً خاصة بل هو مزيج أرواح مختلفة ولكنها مؤتلفة .

رأيت في بروكسل صورة جميلة من الحياة أحب أن لا يفوتني تدوينها . رأيت رجلا في الثانية والخمسين يمسك بيده ولداً عند بائع القند والسكر عمره أربع سنين يتناح له بقدر ما يستطيع أن يحمل ثم التفت الى أبوه وخاطبني بقوله يجب أن يقوى هذا الولد أتدري أى نعمة هو بين أولادي ؟ قلت لا . قال : هو ابني الثامن عشر فدعوت له ولأولاده بالصحة والهناء . وفي ذلك دليل كبير على كثرة تعالى هذه الأمة بتكثير نسلها ومباغ العناية بأولادها مما يشهده الغريب في كل دقيقة وهو سائر في الشوارع فيرى الأم تحمل طفلها وهي سائرة مبهجة به واذا ركبت في المركبات الكهربائية أو دخلت في محال الزحام يوسع لها ليرتاح طفلها وبقدر ما تجد في الشوارع من أبناء العاشرة أو العشرين مثلاً تجد من أبناء الأشهر أو السنتين والثلاث ولذلك كان مستقبل البلجيكي باهراً لتوفرها على النسل وكان أهلها كثيرين جداً اذا قيسوا بالأرض التي ينزلونها .

عمراه هولاندة

٨٠

هولاندة أوندرلاندة أو الفلنك أو بلاد القاع هي من البلاد الغربية بتركيبها الطبيعي كلها بسائط لا جبل فيها اللهم الا أكتات على الحدود الألمانية لا يتجاوز أعلاها ثلثمائة متر أى علو برج أيفيل في باريس أما من جهة البحر فان سواحلها نازلة عن الشواطىء قليلاً ولذلك سميت بلاد القاع .

بلاد صغيرة اذا قست طرورها من الشمال الى الجنوب لا يتجاوز الثلثمائة كيلومتر ولا يكاد عرضها من البحر الى تخوم ألمانيا يتجاوز المائتى كيلومتر ومجموع مساحتها

السطحية ٣٨ ألف كيلومتر مربع منها ٣٣ ألفاً أرض تصلح للزراعة و ٥٠٠٠ كيلومتر ماء . وتعد من حيث مساحتها السطحية المملكة السابعة عشرة ولكن عظمة الممالك لا تقوم بكبر رقعتها بل بما فيها من مواد العظمة الحقيقية وأدوات الحياة الطيبة .

ليس في الأرض مملكة تحارب المياه والمياه تحاربها مثل هولاندة ففيها على ضيق مجالها أربعة أنهر كبيرة وهي الرين والموز والاسكوت والايسل . واقنية لا تكاد تعد تقطع القرى والمدن وتجري الى كل وجهة وبحيرات داخلية بل بحر داخلي ويسمى الزويدوزيه تبلغ مساحته ٣٥٠ ألف هكتار ويشغل جزءاً مهماً من أرض البلاد فهولاندة تعيش بهذه المياه تحمل الى تربتها الخصب واذا غفلت عنها داهمتها من البر والبحر ولا سيما من البحر فاخربتها وهناك البلاء . ولذلك ترى الهولاندي أبدأ في حرب دائمة مع الحياة منذ العصور المتطاولة . ومن أجل وهذا قالوا : ان الخالق خالق العالم ماعدا هولاندة فان الهولاندين أوجدوها . وقالوا في أمثالهم القديمة التي يتغنون بها : من لم يوقف سير المياه لا يستحق أن يملك أرضاً .

وكم من أرض كانت بحراً فردمها الهولانديون فاصبحت مياقل ومباخس وكم من أرض طفا عليها البحر فاصبحت جزراً وجزيرات عراق منذ القديم بين الهولاندين والمياه وفي هولاندة « وزارة المياه » كما فيها وزارة مالية ووزارة مستعمرات مثلاً . خصوصية لها لا يشاركها فيها غيرها ولها في سطر البحر عليها وسطوها على البحر تاريخ خاص غريب .

في ثلاثة وثلاثين ألف كيلومتر مربع من الأرض ينزل نحو سبعة ملايين من الهولاندين ويعدون من أغنى شعوب أوروبا وأكثرها عراقة في الحضارة وأشدّها اختلاطاً بالأُم وتعلماً للغات المختلفة وقد يحكم على المتعلم فيها أن يدرس الألمانية والانكليزية والفرنسية خلال التعليم الابتدائي والاولى وقل أن تلقى متعلماً لا يحسن التخاطب بلغة أولغتين ماعدا لغته وكثير منهم يتعلم اللغتين الجاوية والمالايو لارتباط تجارة بلادهم بالهند الشرقية

قالوا في الهولاندى ان بشرته قست وطبعه جف (١) بما يهب عليه من هواء البحر وندى المياه وان الشعوب كالاطفال فكما ان الطفل الذى قامى العمل يختلف عن الولد الذى عاش فى النعيم والسعادة هكذا الأمم التى عاشت فى الهناء والمجد ليست بتصورها كالأمم التى ارتقت فى العمل وتحت التهديد وضربات الايام والليالى . لا جرم أن ألفة التجارة بل الذوق الطبيعى فى الهولاندى لها يفسر ولو بعض شىء ما تراه فيه من الحذر والاحتياط . فأخذ الهولاندى بأسباب الحيلة حتى لا يخدعه أحد من الناس قد جعل فيه طبيعة خاصة . ثم ان النزاع القائم بينه وبين المياه منذ الزمن الاطول ومدافعة الناس عن حدوده كحروب هولاندة مع اسبانيا وحروبها مع فرنسا وانكلترا وحروبها الدينية التى كانت على أشد حالاتها فى بلادها نشأ منها هذا المخلق فى الهولاندى خلق الحذر والجفاء . وكان آخر المحن التى أورثته شيئاً من هذا القبيل تجنيد هولاندة ستمائة ألف جندي خمس سنين خلال الحرب العامة حتى نجت من شر الحرب اذ كان الالمان يسكون بها من البر ويريدون أن يدخلوها فى الغمار والانكليز وحلفاؤهم يشدونها من البحر يريدونها على الاشتراك معهم فانجأها الله بحيادها وفرط استعدادها .

الهولاندى رجل عمل لامثيل له فى موضوعه ويعتبر الهولانديون فى مقدمة تجار أوروبا فان روح التجارة تمسهم أبداً . للهولاندى رأس موزون بصير كل البصر فى المسائل . عملي لا ينظر الى ما بعد بل يتقن النظر الى ما قرب منه ويعمل ما يعمل مدفوعاً بعامل الفكر فى الحكمة أو الحساب أو لا استعداد فطرى فيه يدعو الى أن يتلبس بالعدل فهو عادل والعدل يفضي به الى المساواة التى يحبها .

اشتهر الهولانديون بنظاماتهم الاجتماعية وشركاتهم وتقاباتهم بحيث ترى

(١) كتاب روح شعب وحياته أو هولاندة فى العالم لهنرى أسلين : Henry Asselin :
L'âme et la vie d'un peuple.. La Hollande dans le monde

بلادهم كلها مجموعة شركات واتحاد جماعات و نقابات في كل ضرب من ضروب الاجتماع والتعاون . الهولاندى كالفينى يحتقر الوقت بعض الاحتقار ويتجاهل الساعة خلافاً للانكليزى الذى يقول الوقت نقد . وترى الهولاندى مع هذا يعيش جيداً ويعمل جيداً ويربح كثيراً ولا يتعجل ويسرع خطاه . هو يصحو من نومه متأخراً ويأتى الى عمله فى الساعة التاسعة أو العاشرة وينصرف فى الخامسة أو السادسة ليستقبل ضيوفه أو يذهب الى التمثيل أو يتعاطى شيئاً من غير أعمال النهار . فالهولاندى لا يضبط نفسه بالساعات فى العمل بل يعمل على هنيئته عملاً متقناً يفيد فى مجموعه .

عرفت المرأة الهولاندية بأفراطها فى حريتها وهى فى ظاهرها ربة دار تعنى باصلاح داخليتها وتتولى نظام مسكنها ومطبخها على أنها فى الحقيقة راقية بعلمها تميل كل الميل للمسائل العقلية وتحب الاطلاع على أعمال الفكر الانسانى تطالع كثيراً وفى أربع لغات على الأقل ولها وقوف على أقوال الحكماء والأدباء والحركة العلمية وتشدو شيئاً كثيراً فى العلم والادب . ولا تعرض بضاعتها من ذلك لأنها الى السذاجة والعزوف عن الظهور .

ولقد فطر الهولانديون على الحرية فلا تسمع منهم ما تسمعه اذا لقيت أحداً من الشعوب اللاتينية كقوله انه سر للتعارف اليك وانه ليفرح اذا لقيك فى منزله ومحلّه فان هذه الالفاظ لا أثر لها فى حديثه فاذا قال لك الهولاندى أنه يسر ان يستقبلك فى داره أو يحترمك فان كلامه خال من كل رياء يمكنك أخذه على ظاهره لانه الحق المجرد خال من المبالغة والحشو والظرف المألوف عند الطليانى والاسبانى والفرنساوى .

زرت أحد علماء المشرقيات فى ليدن وانصرفت من لدنه بعد ساعة لزيارة خزانة جامعها فتقدم الى أحد تلامذته وخاطبني باللغة العربية بقوله أن السيدة فلانة زوجة استاذى تدعوك مع زوجها غداً الى تناول طعام المساء فى دارها على أن لاتستصحب معك الترجمان . فمن يسمع لاول وهلة بطرز هذه الدعوة

بحسبها جافة والحقيقة أن فيها كل الظرف خصوصاً والترجان لا فائدة له لان الداعي وعقيلته يتكلمان الا فرنسية . وطبقة التراجمة في الغالب من احط الفئات في أوروبا فلا يليق أن تجاس الى مائدة أمثال تلك الطبقة الراقية العاملة .

وبعد فقد سبقت هولاندة غيرها من الامم بحريتها ومعاهدها الحرة المنظمة وبينما كان الفرنسيين وغيرهم يقاتلون الملوك ورجال الدين والنبلاء لاستحصال حرياتهم كان الهولنديون قد تخلصوا من ظالمهم ممتعين بحريتهم حتى لقد جلا اليهم من فرنسا وحدها مئة الف برتستاني في الحروب الدينية عقيب أن أهلك الكاثوليك في فرنسا عقيب مذبحة القديس برتلموس مئة الف انسان في خمسة أيام وهنا البابا ملك فرنسا اذ ذاك على ما أتاه ورجاله من هذه المنقبة ! وبينما كانت المراقبة شديدة على الافكار في فرنسا كان روسو وفولتير وأمثالهما من الحكماء يطعمون كتبهم في هولاندة هرباً من ظلم الظالمين وسخافة المراقبين .

ومع هذا فقد كان شارل كان ملك اسبانيا وأمبراطور ألمانيا وسيد سبع عشرة ولاية هولاندية هو الذي حكم على لوثيروس صاحب المذهب البرتستاني في فرمس وتعهده بسحق الاصلاح الديني الذي كان سري في انحاء أوروبا وكان العدو اللدود للوثيريين والكالفينيين من الهولانديين . وكانت شدة ديوان التفتيش الديني الذي أقيم في جنوبي هولاندة أي في أرض البلجيك اليوم لمصادرة العقول من جملة اتفصال الهولانديين عن ابن شارل كان فيليب الثاني . والبرتستانتية هي المذهب السائد الآن في بلاد القاع و٦٢ في المئة من أهلها برتستانت أو انجيليون و ٣٥ كاثوليك و ٢ من الاسرائيليين فالبرتستانتية هي دين الحكومة وفي هولاندة كما في البلجيك أربع جامعات وهي جامعة ليدن وأوترخت وامستردام وغروننغ ويكفى أن يقال أن ستة من علماء هولاندة نالوا جائزة نوبل مما لم تحصل عليه أمة من أمم الأرض . وفي هذا برهان على كثرة نوابغهم وعلمائهم في كل فن ومطلب . زرت أمهات مدن هولاندة والمسافة بينها قريبة في السكك الحديدية مثل ليدن ولاهاي وأوترخت وامستردام وروتردام ورأيت

كثيراً من قراها وأكثر بنائهم بالقرميد والآجر لقلة مقالعهم وكم من دار مرت بها وقد كتب عليها أنها عمرت في سنة كذا من القرن السادس عشر وحيثما طفت ترى عناية الامة بالغة باطفالها فتراهم ينزهونهم في البرد الكالح ودرجة الحرارة ١٨ تحت الصفر والوجوه باسمه مستبشرة . والهولانديون كثير نسلهم بحيث أكد أحد علماء الاحصاء أنهم سيبلغون ثلاثين مليوناً بعد عشرين سنة

هولاندة والاسلام

٨١

الهولانديون قليل عديدهم ضيق نطاق أرضهم كثيرة فعالهم متسعة مستعمراتهم . شعب في الغرب عدده سبعة ملايين يقود في الشرق أربعة وأربعين مليوناً من البشر . ونعني مستعمرة الهند الهولاندية أوجاوة وما إليها من مئات من الجزائر . وقد شبهها أحد كتاب هولاندة بنطاق من الزمرد يتثنى على طول خط الاستواء . ومساحة هذه المستعمرة ٣٥٣١ ميلًا جغرافياً مربعاً أي مساحة قارة أوربا ما عدا روسيا الوسطى وروسيا الشرقية ^(١) تزرع الشاي والقهوة والخيزران والقطن والارز والمطاط وقصب السكر والقرفة والفلفل والصمغ والطبرخة « غوتارشا » وجميع أثمار البلاد الحارة والمعتدلة وبقولها حاصلاتها وفيها من المعادن البترول والبنزين والكازولين والقصدير والذهب وغيره .

دخل البورتغاليون هذا الارخبيل قبل أن يفتحوا ملقة سنة ١٥١١ يضع سنين وجاء الاسبانيون خصماً وهم من الشرق الى جزائر الملوك فلم يلبثوا ان تراجعوا الى جزائر الفيلبين الشمالية وفي أواخر القرن السادس عشر توفق بضعة شعوب من الاوربيين الى بلوغ تلك الجزائر فجاء الانكليز سنة ١٥٩٤ والهولانديون سنة ١٥٩٦

(١) مقالة الهند الهولاندية في الموسوعات الاسلامية

ثم الفرنسيون والدانيمركيون والاسوجيون على سفنهم الحربية ليلبتاعوا الالبازير والافاوية والاحجار الكريمة وغير ذلك من الحاصلات . وكان البرتغاليون والصينيون وسكان آسيا الجنوبية قد احتكروا لانفسهم هذه الاصناف . وفي سنة ١٦٠٢ توحدت الشركات الهولندية الصغرى وكانت عديدة تتجر في تلك البلاد باسم شركة الهند الشرقية الممتازة فتوسعت أعمالها خلال القرن السابع عشر وزادت نفوذاً في السياسة والاقتصاد وامتدت كلمتها من أفريقية الى اليابان وعلى شواطئ جنوبى آسيا وأرخبيل الهند الشرقية وتوطدت أقدامها في تلك الاصقاع الى أواخر القرن الثامن عشر . وفي سنة ١٨٠٠ نزلت هذه الشركة الى حكومتها عن جميع حقوقها فكان شأن هولاندة مع شركتهم هذه شأن الشركة الانكليزية التى فتحت الهند . وكانت الشركة الهولندية تدير شؤون البلاد وتعقد مع بقايا أمراء المسلمين محادثات ولما فقدت هولاندة استقلالها في حرب نابليون انتقلت أحكام هذه المستعمرة الى أيدي الانكليز ثم تقرر في مؤتمر فيينا إرجاعها الى هولاندة فأخذت تنظمها وتستثمرها وفي سنة ١٨٢٥ حدثت فيها ثورة اضطرت معها هولاندة الى أن تقوم ببعض الإصلاحات وتأصلت كلمتها فيها فتوطدت العلاقات بين الوطنيين والهولانديين ومعظم السكان من أهل الاسلام بلغوا (١) خمسة وثلاثين مليوناً وفيهم كثير من الهنود المولدين وألوف من العرب الحضارمة أهل حضرموت وقد وصفوا كلهم بالكاء وأخذوا يقتبسون المدنية الغربية وان من أبناءهم من أدهشوا باستعدادهم الفطرى أقرانهم من الهولانديين في جامعات أوترخت وامستردام وليدن ومدرسة الادارة في دلفت

قام استثمار هولاندة بين الجاويين على تبادل المنافع وارتبط الهولانديون بالجاويين برباط المصاهرة وقد يصبح الهولاندى وأولاده جاويين أكثر مما يصبح

(١) سياسة هولاندة الاسلامية لسنوك هرغرون : L. Snouck Hurgronje :
Politique musulmane de la Hollande

الجاوى هولاندياً . وذلك لما عرف به الجاويون من التسامح وحب السلام ولما عرفت به ادارة هولاندة من اللين فى الجملة بعد شدتها خلافاً لما تعامل به دول الاستعمار - فيما قيل - البلاد التى يسكنها سكان من الجنس الاسود أو الأحمر أو الأصفر . ومن دواعى الفخر لهولاندة مما يصح ابراده دليلاً على حسن إستعمارها ان سكان الهند الهولاندية مازالوا على نمو متصل خلافاً لما عرف من أن الشعب المظلوم المستعبد يقل نسله ويتراجع أمره . فان سكان جزيرة جاوة وحدها وهى أكبر تلك الجزائر وأعظمها جمعاً بين المدنية الاسياوية والمدنية الاوربية قد بلغ فى الأحصاء الأخير ثلاثين مليوناً منهم ٢٥٠ ألفاً من الصينيين و٦٥ ألفاً من الاوربيين وكلهم من المولدين فى الجزيرة على حين لم يكن عددهم سنة ١٨٩٥ سوى خمسة وعشرين مليوناً

ترك الهولنديون للمسلمين حريتهم الدينية يحججون ويذكرون وقيمون الصلوات ويحلون مشاكل الزواج والطلاق وغيرها على ما يشاؤون . والغالب ان الاسلام دخل الجزيرة منذ سبعة قرون فتم اسلام أهلها فى ثلاثة قرون وأخذ بعض شبانها منذ قرنين ونصف قرن يرحلون فى طلب العلم الى مكة المكرمة ويعودون الى بلادهم ينشرون كلمة التوحيد بين الوثنيين والبوذيين فيزداد الاسلام انتشاراً بواسطتهم وبواسطة التجار وهم ناجحون فى هذا الشأن أكثر من الأديان التى لها دعاة منظمون وجمعيات تنفق للدعاية الى مذهبها عن سعة .

وقد انحصرت تجارة الداخلية بالحضارمة والوطنيين على الاغلب والتجارة الخارجية بالأوربيين ولا سيما الهولانديين . وللعرب هناك زهاء بضع صحف عربية تكتب باغة لا بأس بها وهذا دليل على كثرة من يقرأون العربية ، وكما راعت هولاندة قاعدة حرية الأديان مع الأكثرية من المسلمين رخصت لدعاة البروتستانتية والكاثلكة بإنشاء مدارس فى تلك البلاد فأسسوا زهاء ألفى مدرسة فيها ١٥٠ ألف طالب وفى مدارس الحكومة أكثر من ٣٧٠ ألف طالب وربما بلغ عدد تلاميذ المدارس فى تلك المستعمرة ٤٣٠ ألفاً اذا حسبت المدارس

الخاصة ، وهناك مدارس عالية لتدريس الطب والصنائع النفيسة والحقوق وغيره
تتمت سلسلة التعليم العام . والمستعمرة متصلة مع سائر موانئ الشرق والغرب
بسفن تجارية آية بنظامها ونظافتها . ويتكلم بالهولندية كثير من الوطنيين من
تجار وموظفين ومتعلمين بحيث انتشرت لغة هولاندة هنا انتشارها في جنوبي
أفريقية بواسطة من توطنها من الهولانديين .

في هذه المستعمرة اليوم حركتان سياسيتان وهى عبارة عن حزب كبير
يدعو الى الاستقلال الادارى فى البلاد لاعتقادهم ان الوطنيين أصبحوا قادرين
على رؤية شؤونهم بأنفسهم . وحزب صغير وهو مؤلف من هنود ووطنيين ؛
يقول بالاستقلال المطلق لتلك الجزائر ونزع ربة الحكم الهولاندى ، وهناك أناس
يخافون من هذا الاستقلال اذا تم مخافة أن يرفع على البلاد العلم اليابانى أو
الانكليزى يوم يرتفع عنها العلم الهولاندى

ولا تعتمد هولاندة فى الغالب الى القوة فى قتال هذه الأفكار التى تضر
بمستقبلها خصوصاً وهى تعرف ان الجاويين ليسوا أمة حربية ، وقد جعلت لهم
جيشاً مؤلفاً من أبنائها وهم نحو ثلثه لحفظ النظام . ولهذه المستعمرة أسطول
حربى خاص بها . وقل ان حدثت فى الماضى حوادث بين المستعمر والمستعمر كما
حدث فى الهند والجزائر مثلاً اللهم الا ثورة سنة ١٨٢٥ ومعظم شؤون الهند
الشرقية بأيدي الوطنيين ولا يزال هناك بعض أمراءهم من المسلمين الذين أبقى
عليهم هولاندة يتمتعون بحقوقهم الا قليلا وترجع الاعمال الكبرى الى أناس من
الهولانديين والحاكم هولاندى يعينه ملك بلاد القاع .

هولاندة والعرب

٨٢

سألت العلامة الأستاذ هوتسما Houtsma مديرة دائرة المعارف الاسلامية وعضو المجمع العلمي العربي وناشر كتاب زبدة النصره للمهاد الأصفهاني وتاريخ ابن واضح اليعقوبي والاضداد لابن الانباري وغير ذلك من كتب العرب - عن منشأ الاستشراق العربي في هولاندة والسبب الذي دعا اليه فأجابني حفظه الله وهو الحجة الثقة في هذا الباب بما تعريبه : « عملاً بوعدي أرسل اليكم عجالة في مبدأ الدروس العربية وارتقاؤها ويرد ذلك الى الزمن الذي أسست فيه جمهورية الولايات الهولاندية المتحدة أواخر القرن السادس عشر التي نشأت من معارضة البرتستانات للحكومة الكاثوليكية الاسبانية . وأول ما صرفت اليه العناية في تعليم اللاهوت البرتستانى درس تفسير الكتاب المقدس ودرس اللغة العبرية واللغات السامية الأخرى ولا سيما العربية وهناك سبب آخر كان يدعو الى تعلم العربية وهو كثرة اتجار الهولنديين مع سكان البلاد المغربية (مراکش والجزائر وطرابلس) وأهل الشرق الاقرب .

وربما كان الأستاذ توما اربنيوس^(١) Th Erpenius المتوفى في ليدن سنة ١٦٢٤ هو مؤسس هذه النهضة . وذلك انه كان تلقف من اللغة العربية حظاً صالحاً مستغرباً بالنسبة لعصره وعزم أن يرسل الى الشرق لان الكتب المطبوعة بالعربية كانت على عهده نادرة جداً ومن بواعث الاسف انه اضطر الى العدول عن سياحته هذه فبلغ في رحلته الى البندقية ، ولكنه توفى الى الاجتماع في باريز وغيرها بعرب من الجزائر ومراكش وجمع كمية من المخطوطات العربية فتوسعت معلوماته . ولما عاد الى ليدن نشر (سنة ١٦١٣) كتاباً في نحو اللغة العربية

(١) في معجم لاروس اربن Erpen ولعله هو هو

واللاتينية وفي سنة ١٦١٥ نشر حكايات لقمان وأعد للطبع كتاب التاريخ العام للشيخ المكين الذي طبع بعد وفاته سنة ١٦٢٥ ولطبع هذه الكتب أنشأ بنفسه في ليدن مطبعة جهزها بأهميات الحروف العربية ما زالت الى اليوم باقية على ما تعاورها من التغيير الذي اقتضاه الزمن .

وكان تلميذه يعقوب غوليوس Y Golius أسعد حالا منه فانه رافق بعثة الولايات الهولندية المتحدة الى مراکش سنة ١٦٢٢ - ١٦٢٤ ثم زار الشرق وقد دخل أخوه بطرس في الرهبنة الكرملية وقضى جميع حياته في الشرق ، وترجم كتباً مسيحية بالعربية وبقي يعقوب في ليدن ودرس العربية الى حين وفاته سنة ١٦٦٢ ونشر معجماً عربياً لاتينياً وأعد للطبع كتاب الفلك للفرغاني الذي ظهر سنة ١٦٦٩ وقد ظل طول حياته على اتصال مع أصحابه من العرب الذين لقيهم في سياحاته ، أو من كانوا يأتون نادراً الى هولاندة ، وعنى كل العناية بابتياح مخطوطات عربية لخزانة كتبه الخاصة وخزانة المدرسة الجامعة ، وقد اغتنت مجموعة الجامعة بعد قليل من الزمن ب وفاة وارنير L . warner من تلاميذ غوليوس وسفير هولاندة في الاستانة (١٦٥٥ - ١٦٦٥) الذي وقف عليها مجموعة كتبه العربية والفارسية والتركية وكان أكثرها من خزانة حاجي خليفة المشهور بمعرفة الكتب^(١) ومن تلامذة غوليوس أيضاً رلاند A. Reland أستاذ في جامعة اوترخت في بداءة القرن الثامن عشر ، وصاحب التصانيف الكثيرة بالجغرافية والآثار القديمة في فلسطين وكتاب في الدين الحمدي (١٧١٨) خلا من شوائب التعصب للانصرانية وكتب لغاية علمية صرفة . ولم تلبث العناية

(١) من غريب الاتفاق ان كاتب شلي أو الحاج خليفة صاحب كشف الظنون وجماعاً وغيرهما من الكتب الجيدة قد أخذ الرياضيات والطبيعات الجغرافيا وغيرها في القسطنطينية عن عالم هولاندى جاء تلك العاصمة ليدرس اللغات الشرقية ودان بالاسلام ولما هلك كاتب شلي بيعت كتبه فافتنى أكثرها السفير الهولاندى وهي التي وقفها على جامعة ليدن فكانت المادة المهمة لتمييز مجموعة الكتب العربية في ليدن عن غيرها لانها انتقاء عالم كبير مثل كاتب جاي وفيها لباب العلوم ولم تؤخذ سقيا ورعياً وليس فيها الفث والسمن . هولاندة على كاتب شلي يد بيضاء بتلقينه علوما لا عهد للترك بها تعلمها وألف فيها وأفاد وقابلها على صنعها بان أعطاها من علوم العرب والاسلام مالا عهد لهولاندين به (المترجم)

بالدروس العربية بعد الأستاذ رلاندا ان ضعفت عن القرن السابق . وذلك لان التجارة مع الشرق لم يعد لها تلك المكانة التي كانت لها سابقاً . وأصبحت الصلات مع الشعوب الذين هم من أصول عربية تقع على الندرة فلم يرحل الى الشرق عالم واحد ليأخذ عن أهله علومهم . وقل الاتصال مباشرة مع الحياة الشرقية . ولم يعد للغة العربية من فائدة الا لعلماء اللاهوت ممن رأوا فيها غناء في فهم الكتاب المقدس وأشهر هؤلاء المستعربين شولتنس A. Schultens من أساتذة جامعة ليدن (١٧٢٩ — ١٧٥٠) الذي حاول ارجاع معنى الكلمات العبرية الى أصل عربي وبهذه الصورة يتأتى شرح جميع مشكلات التوراة وكان من أمر ابنه وحفيده وكلاهما أستاذ في العربية ان سارا على خطته مثل كثير من المستعربين في ذلك العهد . وقد نشر شولتنس (١٧٣٢ — ١٧٥٥) سيرة صلاح الدين لبهاء الدين . وعلى ذلك العهد كشف مجد علوم المشرقيات في هولاندة وأصبحت في ظلمات بانبعث النور من ناحية المشتغلين بالمشرقيات من الفرنسيين بنبوغ سلفستردى ساسى Sylvestre de Sacy أوائل المائة التاسعة عشرة وكادت تعجز عن مجاراة علماء المشرقيات من الألمان وعلى هذا فلا أقول شيئاً في هاماكير Hamaker ونييس Neynis وجونبول Juynboll وغيرهم من أساتذة العربية وان نشر الأخير عدة كتب منها جزء من تاريخ أبي المحاسن والمعجم الجغرافي مراصد الاطلاع .

وما الداعية الحقيقي للغة العربية في هولاندة الادوزى R.P. A. Dozy أستاذ جامعة ليدن (١٨٥٠ — ١٨٨٣) الذي وسد اليه وبالأسف تدريس التاريخ العام بدلا من تدريس العربية الذي كان يشغل منبره اذ ذاك الاستاذ جونبول وقد غنى لأول أمره بتاريخ العرب في اسبانيا الذي جلاه للأبصار بسلسلة من المطبوعات مثل كتب عبد الواحد المراكشي (١٨٤٧ — ١٨٨١) والبيان المغرب لابن عذارى (١٨٤٨ — ١٨٥١) وابحاث على التاريخ السياسي والأدبي في اسبانيا خلال القرون الوسطى (الطبعة الثالثة سنة ١٨٨١) وتاريخ مسلمي

اسبانيا (١٨٦١) وهو من أجل ما كتب في بيان النبوغ العربي ومن حيث أسلوب انشائه . ولم تقتصر أبحاثه على تاريخ العرب في اسبانيا بل نشر سنة ١٨٤٨ معجماً مطولاً في أسماء ألبسة العرب ونشر في آخر عمره (١٨٧٧ — ١٨٨٠) ذيلاً علماً لمعاجم العربية وهو من أهم المصنفات لكل المستعربين الأوربيين . وكذلك كتابه في تاريخ الاسلام الذي كتبه سنة ١٨٦٣ باللغة الهولندية ونقله شوفين الى الافرنسية وأظنه ترجم أيضاً بالعربية .

وهنا أنجز معروضي الوجيز عن الدروس العربية في هولاندة فان ما قام به تلامذة دوزي في هذا الشأن مثل دي خوى ^(١) M.j.de Goeg ويونغ P. de Jong معروف لديكم فلا أميل بتكراره هنا .

ولكم بما بدأيتم من هذا البيان الجلي أن تحكموا بأنفسكم على ما بذله الهولنديون من الفيرة التي لا تعرف النصب ليتمكنوا من معرفة لغتكم الشريفة ويدركوا أسرار الآداب العربية . وبديهي ان علماء المشرقيات من الهولانديين يهتمون جد الاهتمام للعمل الباهر الذي تقومون به في الشام لاهياء هذه الآداب لتعيدوا للعرب ما كان لهم قديماً من المقام المحمود في ساحة العلم البشري اه . هذا ما تفضل به صديقنا الكريم من المعلومات النافعة عربناه شاكرين له يده البيضاء على آدابنا ولغتنا . ولا شك ان القارئ قد تبين له مبالغ عناية الهولانديين بل معظم أجيال الغربيين بالعربية وآثارها . ولا عجب فهم مثال الدوؤب على كل عمل نافع وقد أفادوا بما نشروه من آثار أسلافنا تاريخ مدنية باهرة . ولا بأس بأن نشر بهذه المناسبة الى المطبعة الشرقية التي أعانت المشتغلين

(١) أن العلامة دي خوى المتوفى سنة ١٩٠٩ ناسر كتاب تجارب الامم لابن مسكويه والعيون والحدائق ومكتبة الجغرافيين العرب وهي مؤلفة من جغرافية الاصطخرى وابن حوقل والمقدسي وابن الفقيه وابن خرداذبة وابن رسته وابن واضح والمسودي مع الفهارس وناسر تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري — قد عدت من أعظم علماء المشرقيات في الغرب لاهيائه هذه الكتب النفيسة ولا سيما المكتبة الجغرافية وتاريخ الطبري فهو من مفاخر هولاندة بلامراء . أما الاستاذ يونغ فهو ناسر كتاب المشتبه للذهبي وكتاب الانساب لابن المنفل المقدسي ولطائف المعارف لشمالي وكتاب الحراج لابن آدم وغيره فيعد من كبار المستعربين أيضاً (المترجم)

بالمشقيات من بلاد القاع وغيرها على نشر ما أحيوه منذ ثلثمائة سنة من كتب الساف الصالح في ضروب المطالب المدنية كالتاريخ والجغرافيا والرحلات والفلسفة والآداب واللغة والشعر والاجتماع بل والحديث والفقه والاصول . وما زالت هذه اللغة من لطف الله بها يخدمها الاطاعم ويفار عليها من ليسوا من أبنائها . فيحسن خدمتها الدخيل أكثر من الاصيل . وكيف لانهى إهلولا ندين وقد خدموا لغتنا وشرعوا بنشر آثارها يوم لم يكن لنا مطبعة واحدة في جميع بلاد هذا الشرق القريب ولا من يفكر من علمائها وأدبائها في طبع رسالة أو كراس أو كتاب من علومها يوم كان الانحطاط باديا في جميع مظاهر حياتنا

كانت المطبعة التي أسسها في هولاندة مؤسس النهضة العربية فيها هي التي أنشأها في ليدن المستشرق اربنيوس بمعاونة حكومته . وما زالت هذه المطبعة تنتقل من يد الى أخرى حتى كان مديرها سنة ١٨١٢ جوها لا بريل Brill ثم تولاها ابنه . ثم صارت شركة مغفلة بهذا الاسم يديرها اليوم أحد الشركاء السيد بيلتنبورج C. Peltenburg وقد طبعت حتى الآن نحو ٣٥٠ مصنفاً باللغات الشرقية ولا سيما العربية فان نحو نصف ما طبعت بالعربية جاء مثال جودة الطبع والوضع والعناية . وهي تطبع من اللغات الشرقية باللغة المصرية أى بالحروف الهيرغليفية ولغة كهنة المصريين ولغتهم العامية وباللغة القبطية ومن اللغات السامية بالاشورية والبابلية والعبرية والآرامية (السريانية والسامرية) والحبشية والعربية . وتطبع باللغة التركية وبالفارسية والسنسكريتية وهما من اللغات الآرتية ومن لغات مالايو البولونيزية باللغة الجاوية والمالاوية والمادورية والباتاكية والروية ومن لغات الشرق الاقصى بالصينية واليابانية والسيامية

وقد اعتمد علماء المشرقيات في أوروبا وأميركا على هذه المطبعة حتى في الممالك التي فيها أحسن المطابع العربية كالمانيا وانجلترا ومطبوعاتها غالية الثمن لانهم يطبعون منها عددا قليلا بقدر حاجة علماء المشرقيات والجامع العلمية الا قليلا ، ومن الكتب والرسائل التي طبعت فيها ومنها ما تقد ومنها ما أعيد

طبعه ثانية كتب ابن سينا والفارابي والجاحظ والغزالي والطبري واليعقوبي وابن الأثير والخوارزمي والبلاذري والمقدسي والذهبي والاصطخري وابن حوقل وابن الفقيه وابن رسته والهمداني وابن تغري بردي والجمحي والمسعودي والدينوري والادريسي وابن قتيبة وابن بدرون وابن هشام وابن القيسراني وابن خطيب الدهشة وابن مسكويه وابن الانباري والثعالبي والشيرازي والبخاري وابن حزم والاصفهاني والسجستاني والمقرئزي والمقرئ وابن آدم وابن خرداذبة وابن منقذ وابن سعد وابن سعيد وابن قوطية وابن ولاد وابن اسحق والرازي وارسطو والميموني والرامهرمزي وابن جبير وغيرهم من كبار المؤلفين المحققين. وآخر ما طبعه مطبعة بريل الموسوعات الاسلامية L'encyclopédie de l'Islam وهي تصدر باللغات العلمية الثلاث الألمانية والانكليزية والافرنسية ، وقد وصلوا بها الى أواخر حرف ا. فتكلموا في الكراسي السادسة والعشرين على الاسلام ويؤازر في هذه الموسوعات كبار علماء المشرقيات في الغرب ومنهم بعض الهنود والجزائريين . وقد نشرت هذه المطبعة من دواوين الشعر طائفة صالحة منها حماسة البحري ، وديوان أبي فراس وديوان عينية بن الابصر والمفضليات والهاشميات وصريع الغواني وحسان بن ثابت والقطامي ونقائض جرير والفرزدق وغيرها . وكما تطبع ليدن الكتب العربية والشرقية فان مدينة هارلم الهولندية تطبع الطوابع الفارسية ولا يستغرب ذلك من مملكة صغيرة فيها نحو خمسمائة مطبعة وأربعة عشر ألف عامل في الطباعة وألف ومائة جريدة ومجلة . هولاندة بعيدة عن الشرق بموقعها ولكنها قريبة بما تنشره لهواما تعده من الصلوات الحسنة الادبية .

معاهد انكلترا

المتحف البريطاني - جامعة اكسفورد - جامعة كبريج

٨٣

لم يكتب لي أن أقضى في انكلترا سوى أربعة أيام صرفت نصفها في لندرا
لزيارة المتحف البريطاني وابتاع كتب من مطبوعات الغرب وخصصت اليومين
الآخرين بجامعة اكسفورد وجامعة كبريج
ان مدينة لندرا وحدها وسكانها ثمانية ملايين ونصف تؤلف اليوم نحو عشر
عواصم كالقاهرة بمساحتها وسكانها وتبلغ وحدها مقدار أربعين مدينة من مثل
مدينة دمشق تحتاج ولا جرم الى أن يصرف المرء فيها أشهراً حتى يزور معاهدها
وقصورها ويعرف نموذجاً من اداراتها ونظاراتها ومتاجرها ومصارفها فما بالك
به اذا سمعت همتته لان يزور معامل لنكشير ومناجم الغال وما في ولاياتها من الصنائع
والبدائع ولا سيما في ليفربول ومنشستر ورمينغهام . ولذلك اكتفيت بنموذج
مما يهمني من المدارس والمتاحف والمكاتب . أما البحث في مدينة الانكليز
وأخلاقهم فمرجه الكتب ولم يبق الباحثون فيها مقالا لقائل ولا مجالا لجائل .
ركبت السيارة أطوف في أحياء لندن وضواحيها بضع ساعات وما أظنني
لمحت الا جزءاً منها وناهيك بعاصمة هي مجموعة بلدان وحواضر وقرى وناهيك
بعاصمة فيها من أنواع المحطات للسكك الحديدية عشر محطات كلها آية في الضخامة
واذكر اني خرجت من احداها وأنا قاصد الى كبريج في القطار وعلى جانبي قطاران
آخران يخرجان في نفس تلك الدقيقة من المحطة . وكل شيء هنا يدل على عظمة
الانكليز وتغاليهم في الرفاهية والصحة وما أذكر اني رأيت بلداً في الغرب أشبه
بلندرا أكثر فيه التأنيق في المطاعم واستجادة ابنتها وأثاثها وضروب الراحة فيها
ولاً أكثر نظافة من مركباتها الكهربائية والبخارية ومن محطات سككها الحديدية

وسككها الكهربائية . أما محال الاطمنئنان العامة في الشوارع فهي على غاية مايتصور من الاتقان والنظافة ولا عجب فهي منذ القديم مضرب الامثال بفرط نظافتها .



المتحف البريطاني في لندن بمثابة خزانة كتب الأمة ومتحف اللوفر في باريس وفيه الكتب والعاديات معاً . أسس سنة ١٧٥٣ ولم تكن فيه اذ ذاك الا بضع مجموعات فلم يلبث أن اغتنى بسرعة غريبة وبنى بناؤه الحالي بين سنتي ١٨٢٣-١٨٥٢ المتاحف والمكاتب دليل محسوس على ارتقاء أمة وانبساط ظل سلطانها وعظمة تاريخها الغابر والحاضر . وناهيك بانكلا ترا أعظم حكومات الأرض بمستعمراتها وقد بلغ المتفشيون ظلالها زهاء أربعمئة مليون من البشر أو نحو ربع سكان المعمور . ولا عجب اذا كان متحفها وكتبتها آية الآيات وموضوع إعجاب الامم بأسرها وفي دار كتبها اليوم ثلاثة ملايين من المجلدات أو تزيد . فيها أنقى المراجع المخطوطة الانكليزية وغيرها من اللغات ومجموعة المخطوطات العربية وحدها تعد بالالوف جعل فهرستها في ثلاثة مجلدات كبرى . وجعلت المكتبة تحت قبة عالية أعلى من قبة كنيسة مار بطرس في رومية وأحط من قبة كنيسة البانتيون بباريز . وجعل حوالى القبة التى يجلس تحتها ستمائة مطالع بالراحة دون أن يشوش الواحد منهم على جاره - مخازن الكتب على رفوف من الحديد طبقات بحيث يسهل الاتيان بما يطلبه الكاتب منها . وكتب المراجعة كالمعاجم والفهارس ونحوها جعلت تحت القبة يتناولها المطالع حالا وهي تربو على عشرين ألف مجلد وهناك غرفة خاصة بمن يريدون الرجوع الى الصحف والوثائق السياسية والبرلمانية .

وقد جعل المتحف على صورة عملية منظمة مستوفاة شروط الصحة فيه . وهو من أغنى متاحف العالم قسم أقساماً وكل قسم حوى آثار أمة من الامم اذا رأيته تظن المتحف البريطاني لا يحوى غيره لكثرة ماجهز به من الآثار وبذل فيه من العناية فمنها آثار المصريين والهنود والصينيين واليابانيين وغيرهم من أمم الغرب

ولا سيما بريطانيا العظمى فحدث عما حوت فروعها ولا حرج من النوايس والقبريات والدروج والبردى والالواح والنقوش والالوانى والسلاح والقيشاني والمفصص والمجصص والمنحس والمصفح والمذهب والمفضض

وميزانية المتحف البريطاني مليون جنيه في السنة ويقسم الى اثنتى عشرة دائرة يتولى كلا منها حافظ من الحفاظ وهم حافظ المطبوعات والمخطوطات والعاديات الشرقية والقرون الوسطى وأصول الشعوب والآثار اليونانية والرومانية والنقود والايقونات والمصورات والخرائط والرسوم المطبوعة والصور المختومة والنبات والحيوان ومطمورات الارض ومعادنها . ولا أغالى اذا قلت أن الزائر اذا أحب أن ينظر في كل قطعة من عاديات المتحف ويبحث في كل فرع من فروع المخطوطات والمطبوعات في خزانة الكتب يحتاج الى صرف سنة من عمره ويخرج بعد ذلك وهو غير كثير الالماس بما حوت تلك البقعة من المفرد والمركب والقديم والحديث ولذلك اكتفيت بالاماع الى ماهناك لان وصف ما فيه يحتاج وحده الى مجلد برأسه

في بريطانيا العظمى سبع عشرة جامعة منها عشر جامعات في انكلترا أقدمها جامعتا اكسفورد وكبريج والجامعات العشر جامعة لندرا ودورهام وما نشتر ولينفرپول وليدس وبرمنغهام وشيفلد وريستول وأكثرها حديثة انتظم أمرها في العقد الثاني من القرن التاسع عشر أو في أوائل القرن العشرين وقد كثرت الجامعات عتیب ارتقاء المدارس الوسطى (الكوليجات) في انكلترا وفي ايكوسيا أربع جامعات وهي جامعة سانت أندري وجامعة غلاسكو وجامعة ايردين وجامعة اديمبورغ وجامعة والس في بلاد الغال وجامعة دوبلين والجامعة الملوكية في ايرلاندا

وقد وصف منذ ستين سنة جامعتى اكسفورد وكبريج عالمان كبيران أحدهما عربى وهو « أحمد فارس » والثاني فرنساوي وهو « تين » فقال الاول : واعلم أن

كبريج واكسفورد هما مدينتان في بلاد الانكليز كل منهما يحتوى على نحو
عشرين مدرسة وألفى طالب في الاولى تعلم الهندسة والرياضيات والالهيّات وفي الثانية
علوم الأدب والفقه والمنطق والفلسفة ولا يمكن التعلم فيهما الا بنفقة زائدة وما
أحد يقصدهما الا أولاد الكبراء والاغنياء ولا سيما اكسفورد فهناك ترى طالب
العلم شاعخاً بأثفه مصرعاً خده كأنما هو طالب ملك الصين والهند وأكثرهم
يصرف همه في ركوب الخيل واللذات وينبذ العلم ظهرياً فتمت حان وقت الامتحان
عرف ما يريد الشيخ أن يمتحنه به من المسائل اذ هي محصورة معدودة فيجتهد
في حفظها وترسمها فاذا سردها عليه وأحسن مردها أجازة بصك يذكر فيه انه
نال مرتبة المعلمين وهي عندهم متنوعة ولكل من هذه المدارس أوقاف يعيش
منها القسيسون الملازمون لها وربما كان أيضاً من غير القسيس فان كل من نبغ
في علم من العلوم أجرى عليه الرزق من الوقف وفي كل من المدينتين مكتبة عربية
غير أن كتب اكسفورد أكثر اهـ .

وقال « تين » ان اكسفورد مجموع أربع وعشرين مدرسة أو معهد خاص
مستقلة ولكل واحدة ريع يقدر على الاقل بخمسة عشر ألف جنيه ومنها ما يبلغ
ريعه أربعين ألف جنيه فصاعدا وفيها جامعة للاساتذة جعلت مركزاً للمدارس
ويقبض المدير من ألف الى ثلاثة آلاف جنيه في السنة والمعلم من ٢٠٠ الى ٣٠٠
جنيه والمعيد المراقب من ٤٠٠ الى ٥٠٠ والجامعة عندهم أشبه بجماعة من الاساتذة
يشبهون أساتذة الكوليج دي فرانس في باريز فالطالب غير مضطر الى حضور
الدروس وراتب معظم الاساتذة من خمسمائة الى ستمائة جنيه ومنهم من يقبض
أقل من ذلك ومنهم ألف جنيه ومن أساتذة اللاهوت من يقبضون ١٧٠٠ جنيه
في العام وقد يقبض العميد فيهم من ١٠٠٠ الى ٣٠٠٠ جنيه ماعدا الدار التي يسكنها
والحديقة التي يتمتع بثمارها وبقولها وهؤلاء الأساتذة مضطرون أن يعيشوا
عيشاً مرفهاً وان يقرأوا الضيوف ويعاونوا في جميع ضروب الاعانات بحيث انهم
ينفقون في الغالب جميع رواتبهم شأن الاساقفة ومعظم كبار الموظفين^(١)

(١) يقبض قاضي القضاة في لندرا ٢٥٠ ألف فرنك في السنة أو عشرة آلاف جنيه والقضاة
العاديون ١٥٠ ألفاً وفيهم من يقبض ٢٠٠ ألف وقضاة المقاطعات يتناولون ٣٧٠ ٥٠٠ فرنك

في اكسفورد نحو ١٣٠٠٠ طالب وفي كمبريج ١٢٠٠ ومنهم في لندرا وهذا
الدرس المتمم العالي هو خاص في العادة بطبقة الأشراف والأغنياء من الاقلية
وذلك لانه يكلف نفقة طائلة (من ٢٠٠ الى ٣٠٠ جنيه في السنة وتكثر جداً أبواب
الصرف) ولان هذا الدرس هو من الكماليات للذهن (الرياضيات المجردة واللغتان
اليونانية واللاتينية) ولانه يؤخر الدخول في الاعمال المثمرة . ولكل طالب
غرفتان أو ثلاث غرف في المدرسة بحيث يتألف منها خلية نخل . وعلى الطالب
أن يحضر صباحاً في الكنيسة ويحضر درساً واحداً ومن يتخلف مساء عن الساعة
التاسعة يعاقب في الغالب بغرامات مالية والتلميذ الصغير أكثر حرية من
الطالب الكبير واليافع عند مايكبر لا يتنقل من نظام ديري الى استقلال مطلق
بل ان تنقله مدبر بحكمة فهو يترك في المدرسة لنفسه في شؤون كثيرة اما في المدرسة
الجامعة فلا يخلو وشأنه بالمرّة ومثل هذا الاحتياط جميل في باب عدم الافراط
في الحرية . واعتياد الحرية ضمان أخلاقي والمراقبة ضمان طبيعي . ثم ان اكسفورد
وكمبريج مدينتان صغيرتان فلا ينزل الشاب طاصمة تدعوه ملاهيها ولذائذها الى
اضاعة وقته بل يعيش في الخلاء ويعاني الرياضات البدنية ولا يبحث عن ملهيات
في دور التمثيل والمقاهي والجراد العظمى ويبتعد عن اغراء المغرّين وحديث المحدثين
ولذائذ المتلذذين . وليس في هاتين البلدين شيء من الفحش ومن تميل أنفسهم
اليه يذهبون الى القرى المجاورة أو الى لندن ونصف الطلبة أعفة طاهرة ذيوهم
وأهم نقص فيهم الميل لتعاطي الخمر . وكانت المسكرات شائعة هنا منذ خمسين سنة
شيوعاً كثيراً كما هو الحال بين أهل الطبقة العالية فأصبح تعاطيها الآن نادراً .
ويبقى الطالب في هاتين الجامعتين على شيء من التدين ويقل فيهم الانحلال ولو بالصورة
الظاهرة بل هم يدينون بالبرتستانتية أو مايتشعب عنها من مذاهب المصلحين .

مدة التدريس ثلاث سنوات ويراجع الطالب في السنة الأولى المواد التي
تعلمها في المدرسة والفحصان الاولان بجرّيان في النحو واللغة وهما عبارة عن
البحث في مؤلفين أو ثلاثة من مؤلفي اليونان واللاتين ومساجلة باليونانية أو

اللاتينية ثراً أو شعراً وبعض أسئلة في الانجيل والتوراة . والفحص الثالث عبارة عن المساجلة في نفس المواد ولكن بصورة أوسع نظراً وأوفر تقدماً وأشدّ عناية بالتاريخ والفلسفة . ثم يكون للطلاب الخيار في اختيار أحد الأربعة الفصوص النهائية والاول في الرياضيات والثاني في العلوم الطبيعية والثالث في الآداب واللغات القديمة والرابع في التاريخ الحديث والشريعة والاقتصاد السياسي . وأهم ما يتعلمه الطالب تهذيب خلقه وتوجيه ارادته وتعريف ميوله . ولما كان معظم الطلبة من أبناء النبلاء أو الأغنياء كان عيشهم على أسلوبهم الخاص ودبدبتهم المعهودة وكثير من الأغنياء يبعثون بأولادهم الى هاتين الجامعتين ليتعرفوا الى أهل تلك الطبقة التي تأوى الى المدرسة وتكون لها بمثابة ناد وجمع وقد يكون التمييز على أشده بين النبلاء وغيرهم في بعض المدارس سواء كان في الطعام واللباس ومنزلة الطلبة وثروتهم مما يعتد به كثيراً ومن الطلبة من يصرفون خمسمائة جنيه وأكثر خرجهم الخاص .

هذا ما قاله العالمان في وصف الجامعتين الانكليزيتين اللتين تخرج برجالهما رجال انكلترا أمثال ايراسم وميلتون وباكون ونيوتن وبايرون ودريدن ودون سكوت وفيكليف . ولا شك ان بعض الاحوال قد ارتقت وبعض المصطلحات قد تغيرت بطول العهد . ففي جامعة كبريج اليوم زهاء ثلاثة آلاف طالب في ١٩ مدرسة أو دائرة منها ثنتان للسيدات وفي المدينة نحو خمسين ألف ساكن ويرد تاريخ انشاء جامعة كبريج الى القرن الثالث عشر وكذلك جامعة اكسفورد وهذه مؤلفة اليوم من خمس وعشرين مدرسة . وفي اكسفورد مكتبة البودلين المشهورة وفيها مجموعة مهمة جداً من المخطوطات والمطبوعات العربية نشرت مجموعتها الاولى منذ قرن ونصف .

ولا تزال تلك المباني الشاهقة الشائقة كما كانت يوم بناها بناتها ومنها ما يرد تاريخه الى القرن الثالث عشر مثل مدرسة الثالوث في كبريج فانها من أجل مارآته العين من أبنية القرون الوسطى في الغرب .

المجتمع الانكليزي

السياحة والانكليز - توريث البكر - الجمعيات والمنتديات - أشرافهم ونبلاؤهم

٨٤

أكثر الامم الغربية جرأة على الضرب في الأرض وغراماً بالارتحال الأمة الانكليزية كما هي أكثر الامم أقداماً على العظام. وحيثما انقلبت في الغرب وفي الشرق في القطارات والسفن في الفنادق والأماكن العامة لا تجد الا انكليزاً رجالاً ونساءً يسبحون على اختلاف طبقاتهم. وسواء عندهم الرحلة البعيدة والقريبة. ينفقون النفقات الطائلة في هذا السبيل مما لا تستطيع سائر الأمم أن تجاريهم فيه اللهم الا سكان الولايات المتحدة وهم انكليز أيضاً ان لم يكونوا بعنصرهم فبتربيتهم. السياحة دليل النشاط وأنشط الامم الانكلوسكسونية. ومن الغريب ان الانكليزي اليوم يسبح في المانيا والنمسا بل في فرنسا وايطاليا ويكاد لا ينفق جزءاً من عشرة مما ينفقه في بلاده وذلك لارتفاع ورقه النقدي ونزول أسعار الورق في هذه الممالك ولا سيما المانيا والنمسا وبولونيا والتشكوسلوفاكيا ورومانيا واليوغوسلافيا

ذكر «تين» ان كثيراً من نواب انكلترا يغنمون فرصة العطلة النيابية ليذهبوا الى فرنسا أو اسبانيا أو ايطاليا أو المانيا يصححون معلوماتهم السابقة ويأخذون أفكاراً جديدة يذهبون لا مرة ومرتين بل ستاً وثمانى وعشر مرات ليقفوا على أمور ويتبعوا تموجات الرأي العلم. وعلى هذا فان احكامهم محكمة أبداً تهيأ لها أساليب الصحة والتحقيق. اذا حدث خطب في الدانيمرك وبولونيا ورومية والولايات المتحدة لا يعتم الانكليزي أن يهرع في الحال لأخذ ايضاحات صريحة عما حدث ومتى وافى الانكليزي بلداً أجنبياً يتعرف الى العظماء من أهله ويدعوهم اليه ويقبلهم وينفضهم كما يقبل المرء كتاباً وينفضه وربما دون كل مادار

بينهما من الحديث ومتى انقلب الى أهله يبلغ أمته ما وقع عليه من الحقائق ويحمل الى أهل طامه وأبناء حرفته ومحيطه ما يزيدهم معرفة فيأهم بسبيله وكم من انكليزي طاف المزارع والمعامل في غير بلاده وكتب عنها تقارير ممتعة وألقى عنها محاضرات جيدة وكم من رجل زار المعامل في أوروبا وأميركا فألف فيها وحاضر والفقير منهم يقتصد جزءا من المال من عمله ليجري به سياحة خلال السنة ويعود وقد حفل وطابه بما طاب له من الحقائق وما رآته عينه من النظريات . وما من فتى نشأ من أسرة طيبة لا يسيح العالم كله . وكل تربية تامة تستلزم سياحات في الخارج ومقاماً فيه طال أو قصر . وترى خلال العطلة المحامين ورجال القضاء والاساتذة يأتون زرافات الى ألمانيا وكثير منهم لا يتمكنون الا من رؤية ظواهر الأشياء . والاثاء لا يستطيع أن يملأ بأكثر من حجمه . بيد أنهم كلهم يعودون ببعض أفكار أو بمبادئ يقل خطأؤها أو بأوهام غير فظيعة على الجملة . واذا انضمت جميع هذه الاستعلامات في سلك جاء منها رأى عام يقرب من الحقيقة في المسائل الكبرى ولا شأن له في السياسة ويكون على جانب من الصحة حاوياً نصيحاً وموعظة ثم ان رجل الدولة الذي يكشف ببصيرته الطريق السليم تعضده أمته وتأخذ بيده في مهمته . البحارة يهللون لربانهم وكثيراً ما يذهب الجمهور الى البحث عنه وسوقه الى أخذ سكان السفينة بيده يديرها .

وبمثل هذا النوع من التربية اذا انتشرت في الطبقة العالية من الأمة تتناول بالطبيعة العقول الكبيرة والعقول الصغيرة من أهل تلك الطبقة . فاذا كان النرد فيهم على استعداد لا يسقط لقله تربيتهم الكافية الخاصة بل يتلقى ما يقويه ويزيد في مضائه وتصل قريحته وعبقريته الى الدرجة التي قدر لها الانبعاث ولا يعتمد أن يأتي بشمرة طيبة لان مركزه وثروته وصلاته توفر عليه طول مدة التمرين والاهتمام بجمع المال والعيش . قالوا ومن دواحي الأسف ان طبقة برمتها تنال بصورة ظالمة ثروة موروثة ومكانة قبل أوانها ثم يأتي في جملتها بعض انذال وكثير من

البهايم وأناس وسط في مداركهم . ولكن لاسبيل الى تأليف طبقة مختارة الابل
هذه الوسائط . وهذا أشبه بزربية فيها مئة رأس من الخيل يسبق منها ستة وتجد
فيها سابقاً دونه السوابق ولكنه واحد في كل ألف . ولا تنجح المملكة اذا لم
ترزق رؤساء أصحاب مكانة وكم من مملكة تداعت أركانها لخلوها من رجل عظيم
يقودها اه .



قاعدة من قواعد التوراة سار عليها الانكليز فاختلطت بدمائهم وأصبحت لهم
شريعة موافقة وعادة راسخة وهي توريثهم بكر الأولاد وحرمان سائر الابناء
والبنات من ارث والديهم . قال أحمد فارس : ومن عادة الكبراء والنبلاء أن
لا يورثوا جلاهم (لقبهم) وأملاكهم الا لابن البكر فان شاء أعطى اخوته وان
شاء حرّمهم ففي هذه الحالة يلتزم الاهلون أن يقوموا بكفائتهم واذا كان البكر
مسرّفاً فبذر أموال أبيه اشترى أصحابه أو أهل البلاد له ولاخوته وظائف من
الدولة أو تبعثهم الى البلاد الخارجية . والحكمة في توريث البكر دون غيره هو
بقاء الجلاء في العيلة وصون ناموس البيت واذا تقدم الابن بنت بقي له حق اللقب
والوراثة هذا اذا كان التراث عقاراً فاما اذا كان حصص مضاربة مثلاً أو أشياء
متنقلة قسم بين الاخوة اه .

وبهذه القاعدة حفظت بعض البيوت في كثير من أصقاع انكلترا كما كانت منذ
بضعة قرون لم تهدم ولم تقسم وظلت بمحادثات وأسوارها ومرافقها وفرشها ونظامها
على نحو ما أسسها الجد الاقدم . ومن دور الكبراء ما هو متاحف مهمة بذاتها وكم
من دار نبيل من نبلائهم حوت مجموعة من العاديات أو المجوهرات أو النقوش والصور
مالو كان في حكومة صغرى لعد من موجبات فخارها . ولقد قال ناقدو قاعدة توريث
البكر كثيراً ما يكون أكبر الاولاد في الطبقات الشريفة منذ عهد المدرسة
متهتكاً بعشقه مأخوذاً بالتعليق فلا يجيء منه الا أحق منفاق متعجن يسبح فلا
يأتي من رحلته بفائدة بل يحمل العادات القبيحة من غير بلاده ويسترسل في شهواته

وقد يملّ من حياته . ولو لم تكن طبقة النبلاء تتجدد بمن يدخل فيها من أهل الطبقة الثانية ذات العقول والقرائح لأصبحت أعضاؤها مؤوفة وضعفت عقولهم وكانت شراً على المجتمع كما هو الحال في ممالك أخرى . ثم أن عدم التساوى بين الاولاد يورث أموراً مرة فيضطر الولد الثاني ان لم يدفعه أخوه الى الجيش أو الكنيسة أو الاداره الى أن يبقى زمناً محروماً النعمة سلباً من الراحة فيهاجر ويتأخر في زواجه ويخدم غيره عشرأ أو عشرين سنة على حين تجد أخاه مستقلاً وغنياً من ولادته ليس له الا أن ينزل في بستان وفي قصر أخذ بأطراف اللذائذ . بيد ان هذا الولد الثاني لا يحزن لما يصيبه من فقد أرث والده كما تتوهم بل يعتاد ذلك منذ الطفولة لقدم العادة بذلك ومشروعيتها فيحتملها ويقبلها كأنها من ضروريات الطبيعة ثم هو لا يخشى النصب لان مزاجه يدعو الى العمل ويهجمس له كبرياؤه أن الاجل بالمرء أن يكدح لمعاشه بنفسه لا أن يتكل على غيره .

الانكليز مكثرون من الاولاد معتادون الرفاهة يربحون كثيراً وينفقون كثيراً فاذا نشأ الولد في محيط يرى فيه البذخ على أتمه ثم تعلم منذ نعومة أظفاره بعد تهيئة عقله بالدرس والتربية أنه محروم مما يراه من الثروة الا أن يعمل بنفسه الا يكون له مما يراه مهماز يسوقه الى العمل ويستسهل السفر الى الصين والهند واستراليا يرئاد العالم ليغتنى ويقتنى وينشئ عيلة ويقيم مجداً . بهذه الطريقة يغنى الضعفاء ولكن فكر الاقدام وحب السبق وقوة النشاط وجميع قوى الفطرة البشرية تعمل عملها . والمرء يقوى بالجهاد والامة يتجدد شبابها والذهب يسيل كالسيل على البلاد

لا تكمل المدنية اذا خلا المجتمع من طبقة من الاشراف أو تنقصه الحياة المعظمي المستقلة المنبعثة الى أقصى أشواطها المجردة من هموم الشح المستعدة للجهال . قال أحدهم : ويل للقصور وسلام على الأكواخ . والاولى أن يقال سلام على الاكواخ وسلام على القصور . قال « تين » تغدوا انكلترا في الحقيقة جمهورية تصوغ لها طبقة الاشراف ما تحتاج اليه من الوزراء والنواب والقواد والساسة كمدرسة هندسة تعد القدر اللازم من المهندسين . كثير منهم ضعفاء

عجزة لا ينالون خدمة حقيرة الا أن ينفقوا دخلهم ولكنك تأخذ من هذا العدد من محتاج اليهم من أركان الجيش ولا اثن من الحصول على مثل هذا الضرب من الرجال

بقدر ما ترى من عزوف الانكليز خارج انكلترا عن الناس واشمئزازهم تبدهم في بلادهم الى الألفة والتعاطف وكل شيء يتم عندهم في الاندية (الكلوبات) ومن الغريب أنك لا تجد في انكلترا وزارة للمعارف كما تجد وزارة للأمر الخارجية والمستعمرات مثلاً والامة تعلم أبنائها بالمعاونات والمطايا والأوقاف . وتكثر الجمعيات الخاصة فتجد فيها جمعيات لانقاذ الفرق وتنصير اليهود ونشر التوراة وترقية العلم وحماية الحيوانات وقمع الرذيلة والغاء عشور أرباب الدين وجعل العملة أرباب أملاك وبناء بيوت جميلة وتوفير دراهم لهم وللهجرة ونشر المعلومات الاقتصادية والاجتماعية وحسن استعمال يوم الاحد ومقاومة المسكرات وتأسيس مدرسة للمعلمات وهلم جرا .

هذا في جمعياتهم وهي تعد بالألوف اما منتدياتهم التي يعمرها في الغالب كل من عرف عندهم باسم لا جنتلمن وهو من بلغ الكمال في التريية والتهذيب فانها أكثر وأعظم . وكانت الاندية أما كن لتناول الطعام والشراب أولاً ثم انقلبت مع الزمن قصوراً فخمة ^(١) محترمة ولم يدخلها النساء لأول أمرها وكان لاعضاء النادي فندق خاص بهم يحتوى على غرفة مائدة ومكتبة ومحل للتدخين وحجر للنوم بحيث يكون المرء في ناديه كأنه في بيته الذي يؤويه . ثم استخدمت الاندية للأحزاب السياسية ثم انقسمت أقساماً بحسب مقاصدها . وانكلترا في مقدمة الامم في التناغم بطبقاتها لا يستطيع فيها أهل طبقة معينة أن يختلطوا بغير طبقتهم ومن الاندية السياسية والعلمية ومنها أندية الرياضات البدنية والحمامات والصيد واللعب والشرب وأندية العزاب والممتنعين عن التدخين والشراب . وهناك

(١) من خطاب لنا كتبناه سنة ١٩١٣

أندية خاصة ببناء حرفة معينة وطبقة معينة وفكر معين حتى صارت الاندية تعد بالآلاف في بريطانيا العظمى . ومن ثمرات الاندية عند البريطانيين ان أهل كل حرفة وطبقة يعرفون في أنديتهم أقدر الرجال فيهم فإذا جاء وقت انتخاب مجلس النواب يكون لمبرزهم منهم أعرف الدعاة لهم فيختارونهم للنيابة عن الأمة أى ان أعضاء نادى الاشراف وأعضاء نادى الحوذيين والسواقين والسكافين والطباعين والوراقين والغزالين والفحاميين بل وكل ما يخطر ببالك من أرباب الصناعات المختلفة يستمعون بالاندية على اختيار مدارك اخوانهم فينبون عنهم أخطبهم واعقلهم وأمنهم واعلمهم

ومن غرائب الاندية في لندرا اليوم نادى السكوت وهو للصم البكم ليس فيه كلام يسمع ولا جرس يقرع ومن يدخل النادى من المشتركين فيه يكبس زراً كهربائياً ينير قطعة من المكان فيفتح له وبنور الكهرباء أيضاً اصطالحوا على اشارات لاتفاهم بينهم ويدخله الرجال والنساء يلعبون بالبيلاردو او يتحادثون احاديث صم ويغنون غناء الصم . وفي لندرا ناد للمعتزلين عن الناس يدخله من ضاقت صدورهم من الوحدة والعزلة ولا يقبل فيه النساء الا بعد سن الخامسة والعشرين وقد جعل دولياً طاماً ولا يؤدى المشترك فيه شيئاً وهو غريب فى بابيه لانه يضم اناساً من اهل الارض بأسرها ومن جميع الطبقات الراقية وفيه طائفة كبيرة من ارباب المكانة والشهرة .

وعندهم ناد اسمه نادى « العجل الذهبى » ونادى « القط الاسود » ونادينا « وهو نادى أعظم الادباء ونادى ١٠١ ونادى الست ساعات وهو ناد اعضاءه ستة يدخلون اليه كل يوم الساعة السادسة ويخرجون الساعة الثانية عشرة ومع كل واحد منهم كتاب . و« النادى الدائم » وعدد أعضائه مئة يقسمون أن لا يبرحوا منازلهم مهما كلفهم الامر من المخاطر حتى انه حدث يوماً حريق قرب ناديهم فلم يخرجوا منه الا بقوة رجال الشرطة . وفي لندرا أندية قلما تقبل فيها النساء وفيها أندية للنساء العازقات عن الزواج . ومن أنديتهم نادى اللوبياء السوداء على مثال نادى

نيويورك وهو مؤلف من أربعين عزباء يجتمعون مرة في السنة ويضع رئيسه في صندوق أربعين حبة لوبياء بيضاء ومنها واحدة سوداء ويسحب كل عضو حبة فن سقطت السوداء في يده حكم عليه قانون النادي بان يتزوج والنادي يتكفل له بنفقة تزويجه كما يتناع له أثاث بيته ويقوم بنفقة سفره ثلاثة أسابيع مدة شهر العسل . ومنها أندية لطالبات الزواج على مثال نادي اليابان يتم بواسطته كل أسبوع مائتا قران ويتزوج أكثر المقترنين بالنظر الى صور خطيباتهم الشمسية وفي لندرا ناد للمنتحرين شعاره بالموت شفاء الاسقام كلها ولا يقبل فيه النساء ولا العزباء . ولها ناد للارواح يدخله علماء ومحامون وجراحون وباحثون ممن يهتمون بكشف الاسرار عن مخاطبة الارواح ولها ناد لمن لا أنوف لهم ورئيسه مصري أتفه أقفي للغاية يكاد لا يظهر ونادي مشوهي الخلقه ونادي السوداويين يجتمعون فيه كل أسبوع وهم عبارة عن حوذين وسواقين وملاحين ليتسابقوا ويتشائموا ويظهروا فضل قرائحهم في علم الطعن والقذف ومن قصر من الاعضاء أو أبدى لطفاً في ألفاظه وحركاته يغرم في المرة الاولى وفي الثانية يطرد من حظيرة أقرانه . وفيها نادي العبوسين يدخله من ساءت أخلاقهم يلتزمون السكوت فيجلس الواحد منهم الى ناحية يدخل غليونه بدون أن يتكلم . وعندهم نادي من يقسم الناس اربعة أقسام أي نادي البخلاء المقترين وفيه أناس من كبار أرباب الاملاك وأعظم المالين . ونادي قتلة البشر وهم يؤثرون القتل على ثلم الشرف ورئيسهم قتل خمسة وعشرين شخصاً في البراز اه . قال من وصف أندية الانكليز : الاندية مرآة صادقة تقرأ فيها عنوان القلب والابدال الذي طراً على الهيئة الاجتماعية والاخلاق على توالي القرون ولطالما مرت فيها أجيال من الناس ذكروها فذكرتهم وأقدم أندية لندرا النادي البحري الملوكي أسس سنة ١٦٧٤ وأنشئ غيره في النصف الاول من القرن السادس عشر وأسس نادي طرف الغار سنة ١٨٠٥ الى غير ذلك من الاندية التي كان ولا يزال يختلف اليها العالم والمفكر والموظف والسياسي والبحري وأهل جميع الطبقات .

طبقة اللوردات أو الاشراف في انكلترا غريبة في غناها وعاداتها وشمها وهي تعد جزءاً مهماً من البلاد وما زالت أراضيها تنتقل بحسب قانون الوراثة في البكر من يد الى يد على اختلاف القرون . وكم من لورد نبيل يملك ألوفاً من الافدنة جعلها غابات ليصيد بها مرة أو مرتين في السنة وكم من لورد لا يعرف أملاكه حتى قيل أن أحدهم يملك مزرعة عظيمة وكل يوم يطبخ الطاهي الطعام لاثني عشر انساناً يحضرون لتناول الطعام على أمل حضور اللورد ويسرج له سائسه حصانه وينتظره في المكان الذي يرجى أن يصل منه وهو لا يجيء بل لم يحضر ولا مرة واحدة . ولكن هؤلاء الملوك بغنهم يظهرون يوم الشدائد بخطر غريب من الحمية والوطنية والسخاء وقد رأينا منهم في الحرب العامة الاخيرة ما أدهش من بذلهم في سبيل نصرة انكلترا وحلفائها .

في انكلترا سبعة وعشرون دوقاً ماعدا الدوقات الذين هم من دم ملكي يملكون نحو ٢٥٠٠ مزرعة كبرى أي أراضي نصف المملكة على التقريب . ويقدر أن مساحة أراضي الدوق دي سرتر لاند ١٠٣٥٨٠٥٤٥ فداناً بلغ دخلها منذ عشرين سنة زهاء ١٤١ ألف جنيه ويحجي بعده لوردات منهم من يملك دخلاً سنوياً قدره مائتا ألف جنيه ومنهم أقل وأدنى ما يملك أحد الدوقات الصغار عشرة آلاف فدان . ويتألف من هؤلاء الدوقات والقابهم وغناهم امتن اساس في بنيان المجتمع الانكليزي الحاضر وهم المحور الذي تدور عليه الحياة الاجتماعية والسياسية في البلاد . ولطالما كان هؤلاء الاشراف منذ القديم موضع احترام انكلترا . وقد تركت حقوقهم وغاباتهم بدون أن تتعهدوا الايدي تركوها لتكون متنزهاً ومجالاً للارتياض والصيد على حين تنقطع الوف من الايدي عن العمل لقلة الاراضي التي تعمل فيها ويتحكم الاشراف في مزارعهم ومزارعهم تحكماً غريباً . وبعد فان غنى انكلترا المشهور محصور في ايدي الاسرات الممتازة المختارة من طبقة الاشراف واغنياء الطبقة الوسطى . والرفاهية وقف عليهم وحدهم لا يشاركون فيها غيرهم من اهل الطبقات الاخرى كما هو الحال في فرنسا وقد

بلغ في هذه الحرب او بعدها عدد المعوزين الذين تجري عليهم الحكومة الانكليزية الجرايات وتطعمهم الجمعيات الخيرية زهاء مليوني انسان من خمسة وأربعين مليوناً ويقول بعض المفكرين ان السبب في هذا الشقاء ان أهل القرى يقصدون المدن ويتخلون عن الزراعة لقلة ما لهم من الأراضى المملوكة فبعد ان كانت أراضى انكلترا تطعم البلاد أكثر من نصف السنة أصبحت لا تكفيها خمسة وثلاثين يوماً وكل يوم تقفر المزارع وتعمر المدن هذا مع ما أصاب المعامل من الفتور لقلة رواج المصنوعات بعد الحرب . واملاك الاشراف مهتلة لا يستفاد منها وتلك الأيدى العاملة تنقطع اضطراراً عن عملها لأنها لا تجد ما تعمل في الصناعة والتجارة وكانت تعمل في تلك الأراضى لو وزعت عليها توزيعاً معقولاً فأشراف انكلترا هم العائق الكبير في كل اصلاح وارتقاء وأملأهم هي الحاجز الاقتصادي الحائل دون نماء الراحة العامة فعليهم التبعة العظمى في غلاء المعيشة وقلة الأعمال والشقاء الاجتماعى .

ومع هذا فتحت منذ ثلاثين سنة طريقة جديدة لادخال لوردات جدد علاوة على القدماء وهم من كبار أرباب المعامل والمالين مثل الدوق دى نور فووك وواردانه السنوية سبعة وثلاثون مليون فرنك ما عدا الاربعمئة فدان التى يملكها فى سى وستمنستر فى لندرا وريمها مليون جنيه والدوق دى بوفور أراضيه البالغة ٢٥٠ فداناً فى لندرا هو مليوناً جنيه واللورد نورثامبتون وريم أملاكه مليوناً ليرة وغيرهم كثيرون وبذلك أدخلت بريطانيا العظمى روحاً جديدة فى طبقة النبلاء والمال أشرف مادة يحترمها البشر قاطبة وان تنوعت أساليب هذه الحرمة وكل من يفتنى لا يسأل الناس غالباً عن الطرق التى بها بلغ ما بلغ شريفة كانت أو وضيعة .

النفس الانكليزية

٨٥

كتب كثير من علماء الاجتماع والحكمة من الفرنسيين في النفس الانكليزية ومنهم مونتسكيو وتين وبوتني وفوليه وديمولين^(١) كتبوا في أدوار مختلفة فمنهم من كتب في القرن الثامن عشر ومنهم في القرن التاسع عشر وغيرهم في القرن العشرين وفي أمثال العامة « أعرف الناس بك ربك وجارك » ومما قالوه تقتبس الفصل الثاني : انكلترا من بلاد الشمال ولها بينها مركز امتازت به فليس لاقليمها ما يعادله بين الاقاليم لانها تتمتع بمناخ يكاد لا يختلف طوره فلا ترى في الشتاء تبدا في الهواء من شمالي انكلترا الى جنوبها على مسافة تسعمائة كيلومتر فيستطيع سكان بريطانيا أن ينتقلوا من ناحية الى أخرى بدون أن تتأثر أجسامهم من هذا التنقل وتختلف انكلترا عن سائر بلاد الشمال بتعرج شطوطها وخصب تربتها في حين يضعف الهواء المرء في أواسط بلاد روسيا أو في شمالي بروسيا فيكتفي الروسي بما حضر لديه من حاجاته ولذلك يقل فيه فكر الاقدام على الأعمال أما الطبيعة في بلاد الانكليز فتنادي ساكنها بقولها انك يا هذا تهلك اذا تراخيت وتستمتع اذا جددت . فالهواء في بلاد الانكليز رطب ولكنه صحي وتقبل بحيث

(١) روح الشرائع ومذكرات على انكلترا لمونتسكيو Montesquieu : De l'esprit
ومذكرات تين على انكلترا des lo's et notes sur l'Angleterre
وعلم الروح الانكليزية في السياسة خلال القرن التاسع Caine : Notes sur l'Angleterre
عشر لاميل بوتني Emile Boutmy : Essou'd, nue psychologie
politique du penple anglais au X L X e sicile
ومختصر في روح الشعوب الاوربية لفوليه Fouillée : Es puisse psychologique
des penples europeéne
وسر تقدم الانكليز السكسونيين لاديمون ديمولان Ed. Démolins : A quoi tient la
supériorité des Anglo-Saxons.

يكاد يصعب استنشاقه والجسم يهزل فيه اذا لم يتغلب عليه بحركات كثيرة .
تطفح انكلترا بطوار القامات ضخام الاجسام أشداء البنية وفيها من المعمرين
الشيخ أكثر من كل بلد من بلاد أوربا . والأرض الانكليزية بما تترطب به
من الضباب أو يغمرها من هطول الامطار تحتاج الى الدوام الى التجفيف
بالقساطر حتى لاتغدو بطائح أو غابات وهي بفضل تهيئتها خصبة ممرعة . ومناخ
انكلترا يحتاج الى الغذاء الكثير ولا سيما اللحوم وأرضها مستعدة كل الاستعداد
لتربية الماشية . والبحر بما ضم قاعه من الاسماك يدخل في مضائق الى أرض بريطانيا
المعظمى فيصبح الصيد على طرف الثام .

وبالنظر لطوبه الهواء دائماً واصفرار الشمس بما يداهما من الغيوم التي
تنخل أشعتها نخلا لا تزال الظلمة سائدة شطراً من النهار يضطر معه ابن تلك البلاد
ان يحسن لباسه ومناحه ودفعه ويبعث عن الاعمال التي تستلزم كدحاً وكداً فهو
في حاجة الى جوخ لثيابه والى جدران غليظة لمسكنه فتراه يصرف جزءاً مهماً
من وقته في النسيج والتقطير واستخراج الفحم أو تراب النفط لا وقيده خلافاً لابن
جنوبي أوربا فانه لا يعوزه مثل تلك العدة ليعيش . والانكليزي اذا لم يجد عامة
حاجاته في أرضه يجلبها من الخارج على سبيل المقايضة مع ماضنته احشاء بلاده
من المعادن والمناجم ويسهل عليه تناول ذلك بما له من وسائل النقل السريعة
الرخصة الاجور

واذ كانت الطبيعة الخارجية للامة الانكليزية مدرسة ابداع ونشاط وحذر
وتدبر نشأت هذه الفضائل من أسباب جلب المصالح ودرء المضار وكانت من
كمال الأخلاق في هذا الجنس ودعا الجهاد في الحياة وهو هنا أصعب منه في كل
بقعة الى أن ينسلخ عنه بالانتخاب الطبيعي كل من لم يرزقوا هذه الصفات اللازمة
كالمرضى والجامدين والجبناء والعطلين ولم يبق من هذا العنصر غير الاقوياء أهل
الدراية العاملين وتواصل ذوق العمل بنشاط دائم فعال في النفوس حتى صار
كأنه أرثى فيها .

ولقد حسبوا أن غذاء انكليزي واحد يكفي ثمانية أشخاص في بلاد اليونان وبما لبريطانيا من الموقع المتميز باعتزالها في جزائرها سهل اندماج سكانها . وقد قعها كثيراً الاختلاط مع الخارج وبما لها من الشطوط التي تبلغ ضعفى شطوط فرنسا بمساحتها يصعب لتعرجها ان تغزى موانئها . وقد كثر في تربتها الحديد والفحم الحجري . وهذا من أكبر الدواعى في امتداد تجارتها ثم ارتقاء صناعتها فساعدتها الاسباب المادية على النهوض بعد ان كان أهلها في القرن السادس عشر أشبه بالاسبانيين بكسلهم وكان الجوخ يأتيهم به الهولنديون من بلادهم وليس عندهم معمل لنسجه ويبعثون هم اليهم بالصوف وقد بدأ عمل الجوخ عندهم في القرن السادس عشر على أيدي مستعمرين من الهولنديين .

قالوا ان الشعب الانكليزي شعب انتفاعى وهذا يصدق على كثير من الشعوب ولكن العامل الأكبر اليوم في هذه الامة الهوى في العمل للعمل والميل اليه حباً به . وما الحياة السياسية في انكلترا الا ابنة الميل الى تمرين القوة والبذل منها بطائل وبدون طائل ومن يجتاز البلاد الانكليزية يشعر بحاجة الامة الى هذا التمرين والى هذا الصرف من القوة بما يراه من الحركة على السيارات واشتغال قوم بالالعب الشاقة فيوقن بان الرياضات البدنية الشديدة ليست في انكلترا مدعاة للتسلية بل هي ضرورية لدفع حاجة طبيعية لا تقل في شدة الحاجة اليها عن الجوع والعطش .

كل من زار لندرا يشهد الرجال من الانكليز يركضون في الشوارع كأنهم عرض لهم طارض مهم جداً يوشك أن يذهب اذا أبطؤا عليه فيركضون نحوه بدون أن ينظروا ذات اليمين وذات الشمال للتخدية والتسلية فهم لا يضعون نصب أعينهم غير الغاية العملية التي هي هدفهم ومنتجعهم حتى اذا وصل العامل الى مكتبه أو عمله ينصرف اليه بجملته ولا يدخل فيه غيره ولا يلتفت الى ما يصده أو يخطر بباله في غير ما هو بصده فتراه لا ينقطع لحظة عما هو مأخوذ به ولا ينى في مهمته ولذلك كانت أجرة العامل الانكليزي أرقى من أجور عملة الامم الأخرى لانه

لا يلبيه شيء أثناء العمل ويعمل نحو ضعف ما يعمله الايرلندي أو الالماني مثلاً . وهذا المزاج الخاص يؤثر في جميع الفروع أثراً مدهشاً .

لا يستنكف نساء من عمل يتعاطينه لتكون لحياتهن غاية فينصرفن الى تأسيس جمعيات الاحسان ويخدمن في المستشفيات ويعملن أعمالاً قد تعدها بعض الأمم المتقدمة من الاعمال الوضيعة ولكنها تكون لخدمة الانسانية ولذا أدخل خمسون ألف امرأة في الحزب الحر في انكلترا وشاركن الرجال ومنهن المطالبات بحقوق الانتخاب قد نلنه مؤخراً والمؤمنون من الانكليز بالدين لا يؤمنون به وينصرفون عن كل شيء بل يعملون باسمين ويجهدون في الحياة لا يصدحهم مأخذوا أنفسهم به من الغاية عن النظر في دنياهم . واذا كان الانكليزي لا يعتقد بالدين في باطنه يأتي الكنيسة مع أولاده وأهل بيته لاعتقاده بأن الايمان خير من الانحلال .

وبعد فان الذوق واعتياد العمل يجب أن ينظر اليهما كأنهما خاصّة جوهرية وصفة لازمة اختيارية لهذا الجنس فهما يصحبان الانكليزي حيث يذهب تشفعهما الاسباب المكتومة من نياته وهما مفتاح أسبابه . وان الدواعي التي أدخلت ضرورة العمل في هذا الجنس قد أضاعت اليوم من شأنها وذلك لان كثرة الفنى العقلي والمادي قد زاد عدد الأغنياء وأضعف على التدرّج في جزء من سواد الأمة الانكليزية الغزيرة الارثية التي بها يعترف الانسان بقانون العمل ويقبل به فأصبح الكسالى والضعاف في هذا المحيط الجديد أكثر حظاً في البقاء فتألف منهم عنصر خاص تحرص حكومته على جلب المنافع اليه وأهل السعة من الانكليز يبذلون الفضل من أموالهم له وكل هذا على الجملة لا يضر الصفات التي ورثها الانكليز وتأصلت فيهم مدة قرون .

للاقليم في انكلترا تأثير مهم في الشعور والمدارك فهي البلاد التي يحف هواؤها وتكثر كهربائيتها التي تقوى الالياف وتمنّ الانسجة . ومثل الحس يكون التصور الطبيعي أي حاسة تمثل المحسوسات فانها في الانكليزي تتأخر ولذلك نرى الاعمال

الجراحية أقرب الى النجاح على يد الانكليزي منها على يد الايطالي مثلاً لأن الاول قلما يضطرب كالثاني . وقد شاهد خصوم الانكليز من عسكريهم في حروب اسبانيا واترلو وانكرمان والحرب العامة عجباً اذ لم يكونوا يتأثرون للاعضاء تبتز والقذائف تنفجر والعظم يكسر والارواح تنزع .

ان أرض انكلترا على ما خصت به من العبوسة والامطار الغزيرة والضباب المتواصل والطبيعة الساكنة قد أثرت في نفوس بنيتها حتى لم يجدوا في الوجود ما يشغلهم ولذا شغلوا بخاصة أنفسهم وقل كلامهم وفضولهم كما قل شعورهم بما يأتيه من الخارج . والكلام كالشعور والفكر يرتقي ويصفو بالرفاهية ورغد العيش وهو أثر من آثار الثروة العامة والفراغ ، وصف تين الشعب البريطاني بقوله: من السرور الذي يشغفه السكوت وهو من أعظم ما تطمح اليه نفس كل انكليزي أن يجاهد في أمر ويتحمل المشاق ولا يرجع عما نوي . وقد أعرب شاعرهم تنسون عن مثل هذا الفكر بامعناه: ما أعظم على النفوس ان تقف دون غاية وتجعل لقواها حداً وان تصدأ كالسيف يعلق على الحائط بدلاً من أن يلعب في يد حامله ويصفو بالاستعمال وليس استنشاق الحياة هو الحياة بل اننا اذا فقدنا كثيراً فقد بقي علينا كثير فما كنا عليه ما برحنا فيه . قلوب أبطال شأنها التساوى بأنفسها حتى أصبحت على الزمن وييد القدر نهب الضعف ولكنها مسلحة بإرادة شديدة في مضائها وبمحنتها وإيجادها ولا تلين قناتها أبداً .

ووصف أمير سون الفيلسوف الاميركاني العنصر الانكليزي بما يأتي . قالت الطبيعة أن الرومان لم يبق لهم سلطان فلدى ابني مملكة جديدة سأختار عنصراً جديداً كله مثال الرجولية معروف بالقوة الوحشية ، واني لأعارض في منافسة تجري بين الذكور مهما كانوا الى القسوة فليفرز الجاموس قرنه في وجه جاموس آخر وليمض أكثرهما قوة يفتح الطريق فان لي عملاً أريد أن أتمه ويستدعي ارادة وعضلات .

يقل في العنصر الانكليزي على الجملة الاستعداد لتصور الأفكار العامة

ويكره النظريات المجردة كما يكره المذاهب المقررة فليس للانكليزي شيء من المجردات يشغله بل تراه أبداً مأخوذاً بضرورة العمل . أليس معنى هذا ان حاسة العموميات ضعيف تركيبها في انكلترا بل ان العقل عملي لا يقبل الا مايلزمه وينفعه يعرف كيف يضبط نفسه ويحدد حدوده حتى اذا سار بنفسه سار سيرا نافعا لا سيرا نكرا فعقله لا يشبه قائداً في جيش يفكر في وضع خطط الهجوم والدفاع بل يشبه ضابطاً يقود بعيداً عن معمعان الحرب قسماً من الجند الاحتياطى المساعد فلا ترى في هذا الضابط قابلية لأن يكون في الطبيعة ولكنه يجيد في اتخاذ مركز له في النقط التى تجاوزها الجيش المهاجم وينظم فيها المقاومة .

العقل الانكليزي يفكر في الأمور القريبة التى هى أكثر ما يكون مساعاً به مباشرة وله من مشاغله في تحصيل ثروته وتحسين زراعته ما يصده عن الحق ولا يفرغ ذهنه الى النظر الى الأشباح الفارغة فهى بعيدة من الأرض جداً غريبة عن الحياة الدنيا غير ملتزمة مع شروطها وضرورتاتها . ولذا ترى الانكليزي فى مسائل الدين لا يتعدى أفق العالم الناظر بأحوال النفس . والاخلاقي الذى يبحث فى المراتبات وليس هو صوفياً أو مفكراً ولا موحداً وهو لا ينظر الى القواعد الموضوعية والألفاظ بل ينظر الى الغاية من التدين أكثر من الوسطة وهكذا هو فى السياسة فلا تقوم حريته فقط على الدستور الذى يمنح الحرية على التقاليد الموروثة التى تحمي حى الحرية القديمة المتأصلة فيه .

من غريب حال الانكليز ان كثيرين من حملة العلم فيهم لم يتعلموا العلوم اللازمة للامام بالتربية العامة فهم اخصائيون لا تشوبهم شائبة وان من يحاول فى انكلترا أن يحدث أحد علماءهم فى العلم المجرد لا يجد من يستمع لكلامه . فالعالم الطبيعى عندهم هو الذى يعرف كيف يصنع نموذجاً ميكانيكياً يطبق فيه العلم على العمل فقط ، حتى انك لا ترى فى كتبهم فى الكهرباء الاحبال المرسومة تعلق وتمتد ومواسير يقطر منها ماء وغيرها ينتفخ وآخرين قبض . وهكذا انكلترا فى صناعاتها لا يصدر منها الا ما يقع تحت حسها ولا تقص فى قصصها الا ما يماثل

حالتها الطبيعية وكذلك تاريخها ورواياتها الشخصية وفلسفتها ، وقد قدر لهذا الشعب أن ينشر البرتستانتيه بثباته ويخرج من الكنيسة والكثلكة اذ كانت دين ساطة قادرة روحية تقن وتخطر وتماقب والناس معها مكرهون على القيام بتعاليمها .

أما المذهب البرتستاني فهو دين الحكومة الذاتية الوجداني فالاول موجد النظام والقاعدة والآخر محافظ النشاط ومبدعه . وهذا هو المذهب الذي يناسب أمة خلقت لتعمل .

ان تأخر سن البلوغ في شبان الانكليز وعفة النساء الانكليزيات وتعدد الأسر والبيوت كل ذلك من أخلاق الانكليزي الحديث كما كان قديماً من خصائص أخلاق الجرمانيين سكان انكترا الأصليين ، وامتازت الامة الانكليزية من بين الأمم بأنها ظلت متجانسة لم تمتزج بغيرها ، فالانكليز وهم أهم عنصر تتألف منه انكترا هم جرمانيون من بلاد الشمال ومن أجداد الجرمانيين انكليز وجدت وسكسونيون وكلهم من عنصر الماني والذين جاؤا بعد ذلك لاستيطان انكترا الدانيمركيين والنورماندين هم فروع تشعبت من تلك الدوحة

الانكليز خارج بلادهم لا يمتزجون بغيرهم من الأمم وهم في أرضهم أكثر الأمم حرية وأشدّها اكراماً وأيسرها لقبول الغرباء . ليست انكترا جزيرة بل قارة . وانكترا كما قال الشاعر شكسبير قلعة شادتها الطبيعة بنفسها اتقاء نثانة الحرب وشدتها وانكترا تشبه في الأفكار والمنازع التي تأتيها من أوروبا نفسها ، واذا اقتدت بالبلاد الأخرى فاقتداؤها موقت كأنه للتسلية أو هو سطحي كأنه زى من الأزياء تلبسه اما سواد الشعب فلم يمس بشيء في منازعه وهو راض بأخلاقه الأولية وبالجملة فقد كانت دواعي الاختلاط قليلة جداً بين الانكليز وغيرهم ولا سيما عامة الأمة ، فالانكليزي أشبه بساكن الولايات في أوروبا وفكره كالشراب بقي زمناً في مأمن من الاهتزاز فخر وكشف ولم تعد له تلك الميوعة التي تؤهله الى الاختلاط بشراب آخر وما قط تمازج العنصر الانكليزي بغيره من

العناصر في البلاد التي أخضعها لسلطانه فهو كالمعدن البعيد جداً عن نقطة التدوين فلا يتأتى أن يجعل منه أدنى مزج ، وما قط شادوا بأنفسهم الشعوب التي انتحوا بلادها ، وما تلعنوا في استمالة قلوبهم .

ويشعر الانكليزي بأنه أقل من غيره علاقة بالمجتمع البشري ، وقلما يقتبس من صلاته مع غيره شيئاً يستفيد به في تركيب أخلاقه وقلما يبحث عما يفكرون فيه وإذا بحث فبحثه مجرد لا يدخل نتيجة في عواطفه وأعماله فهو ناسك بعيد عن العالم وعن غيره من الأمم بل هو بعيد عن جاره الذي يساكنه في حي واحد وعن المحيط الذي يعيش فيه ولا يشعر بأقل ضجر من العيش وحده ، ولا يجد حاجة أن يقص ما عمله على غيره ، ولا يسوقه سائق تقى أن يقف على ما عمله غيره فهو فيما خلا الشؤون التي تسمه مباشرة لا يهتم إلا بما له علاقة بالمسائل الوطنية العامة التي لها به مساس ولكن لا مباشرة بل من طريقة وطنية . قال فوليه : لا مرأى في أن للانكليزي تقائص مع ماله من الصفات ، فإن استقلاله يعرضه للانانية وشعوره بالوحدة يقوده الى الجفاء والغرابة في الفكر تؤدي به الى التمتع وفلسفته في التعمد بالحقائق واحترام النجاح والقوة والغنى أوصله الى احتقار الضعيف والفقير

يقول أميرسون : انك تحسب الانكليزي اذا اجتمع مع الاجانب أخرس فهو لا يصالحك ولا يتركك تنظر ما في عينيه في الفندق ويلفظ اسمه بحيث لا يسمع فكل واحد من هؤلاء الجزائريين جزيرة بعينها . ويقول موتسكيو : « يصعب على الفرنسي أن يكون لهم أحباب في انكلترا وكيف يجب الانجليز الغرباء عنهم وهم لا يحبون أنفسهم وأنى يعطوننا ماناً كل وهم لا يتواكلون . يجب أن نجري على خطهم فلا نهتم بأحد ولا نحب أحداً ولا نعتمد على أحد . قال يجب أن تراعى طبيعة البلاد كما هي فاذا كنت في فرنسا فأصحب كل الناس وفي انكلترا لاتصحب أحداً وفي ايطاليا أقرظ جميع الناس وفي المانيا أشرب مع كل الناس » وقال كارلايل الانكليزي : الانكليز شعب أخرس وشرح ذلك بقوله : ان السكوت يزيد في علاقتهم

ونظامهم مع مايبين عنه اللسان . الانكليزي يميل الى الاختفاء ولا يهتم بالظهور بل يهتم لتجويد العمل من حيث هو عمل نافع ولذلك ترى جرائد انكلترا لا يوقع كتابها على مقالاتها وهي مع هذا أرقى من جرائد فرنسا التي يوقع كتابها على مقالاتهم ليقال عنهم أنهم كتبوا وصحفهم أكثر صحف أوروبا مادة وأكثرها صدعاً بالحق وأقلها انعماساً في الرشاوى لخدمة أغراض خاضة . وقال فولني العالم الفرنسي في سر نجاح الانكليز في الزراعة والتجارة والصناعة : « أنهم بالسكوت يجمعون أفكارهم ويتفرغون الى التدبير والتقدير على ما ينبغي ويحسبون دخلهم وخرجهم ويصفو فكرهم أكثر وينبث كلامهم جلياً ومن هنا كان التدقيق والرواء رائد جميع أعمالهم العامة والخاصة »

قال فوليه : ان انكلترا لا مثيل لها بصناعاتها وتجاريتها وانتشار مستعمراتها والتثامها التثاماً عملياً مع الحكومة الحرة وهي دهشة بشعرها وآدابها وحركتها العلمية والفلسفية ومع هذا لم تعمل على ما يظهر شيئاً يرفع من قدر الجنس الانساني برمته كما فعلت ايطاليا وفرنسا وألمانيا وقلما تهتم بنشر ما تفتنه من الحقائق لتحملها الى خارج بلادها فليس من ذوقها الدعوة الى مبادئ حادثة ولكنها قامت للعالم بمثال باهر من الحرية والعمل والأمانة تساوى أحياناً أكثر من المبادئ . بعض الشعوب أولعت بأن وضعت نصب عينها غاية في الكمال العام ورجعت انكلترا أن تضع موضع العمليات لعظمة جنسها وانتشار كلمة معجبة كتبها احدى المدن الانكلوسكسونية على سلاحها وهي « أريد »

ان كان من خلق الانكليزي الاقدام على المعظائم فان حب الجديد والذوق في المجهول ليس فيه الا على ضعف أيضاً فالانكليزي يبقى انكليزيا ويعيش عيشاً انكليزيا حينما نزل . والانكليزي أقل من الفرنسي والايطالي في اليأس من النجاح وأكثر منهما هزواً بالمتاعب والمخاطر لعله بان لها حداً لا تتعداه ولا بد من حل مشكلاتها . وقلما تراه يحسب حساباً لنكد الطالع فتري الشاب يتزوج من

فتاة وهو في مقتبل العمر ولا يطالبها ببائنة (دوطة) بل يقترن بها بلامهر ويقدم على تأسيس أسرة فيزيد تققاته ثلاثة أضعاف ما كانت عليه والصانع يقدم على ادخال اصلاح في عمله بجرأة ويتخذ أسباب النجاح وهو يعلم أنه لا يلبث أن يتم اصلاح مصنعه حتى يقوم صانع آخر ينافسه ولكنه يكون استفاد من الفترة بين اصلاحه واصلاح منافسه وترى المهاجر منهم لا سبده ولا لبد ومع هذا ينزع ويرزح تحت أثقال المتاعب وهناك سبب آخر وأعنى به الهوى في العمل أو التجنن فيه وفي الحركة والدوق في العمل من أجل هو عمل وكل ذلك مما تقتضيه حالته الطبيعية . وانا لرى المرسلين منهم يتغربون في الارض ولا يخافون بل يتعزون بما يتم على أيديهم في الاقاصى وينامون ملء جفونهم شاكرين ويعملون أعمالاً في السر ابتغاء وجه الله

ومن خلق الانكليزي أنه متشدد في الاحتفاظ بالحالة الحاضرة فارباب العقول الغربية في تصورها كثيرون ولكنك لا ترى فيهم أحداً يميل الى الثورة وقد اشتهرت انكلترا بانها بلد التقليد المستعصية حتى على اللازم من التجديد وثلاثة أرباع سكانها لا يشعرون بالحاجة الى ادخال تعديل في القوانين والأخلاق والرابع الآخر يقبل بالتعديل في بعض أحوال مخصوصة ويتعلق بها ويلاحقها بنشاط . ولذا رأينا الشعب الانكليزي قد جالد لاول وهلة ريثما أدخلت عليه أساليب الارتقاء حتى المادى منه فلما تسرب اليه صار في لجمه وعظمه وهكذا شأن الامة العظيمة تتشدد في تقاليدها وتستنكف في الغالب عن قبول كل جديد الا اذا ثبت لها ما ينقضه ثبوت الشمس والقمر . فقد قيل: القوة الحقيقية في كل مملكة ما عرفت به من الاخلاق الطبيعية . وتقليد الاجانب على أي صورة كانت طار على الوطنية .

مهما بلغ من انحطاط مكانة الرجل الانكليزي في المجتمع ومهما بلغت حرفته من الامتهان لا يحسد من كان أعلى منه منزلة وله من عمله الذي يستمتع بمنافعه أعظم سواى ولذلك قل ان مالت الطبقة العاملة الى انكلترا الى تغيير نظام الاشراف

في المجتمع لاعتقادها بأن الاعمال مقسمة لان الحظوظ متباينة وبيننا ترى فرنسا تقول للوزير كن فكان مهما كان وضيعاً وللنائب كن نائباً فكان مهما كان منحطاً في أصله وللشريف كن شريفاً فيكون تجدد انكلترا لا تسمح لوضع أن يعد في جملة العظماء الا بعد ثلاثة أجيال وذلك على نظام وترتيب تدريجي لعلم القوم بان الطبيعة في انكلترا تتأخر في كل شيء ولذلك اقتضي أن يكون ارتقاء الناس كذلك « قال تين »: ان ثلاثة أشياء في انكلترا أحسن منها مما في فرنسا وعلى العكس فالسياسة في انكلترا راقية لانها ثابتة لا تتغير كما هي الحال في فرنسا كل عشرين سنة . وهي حرة لانها تدعو الافراد الى الاشتراك بها بالفعل وتسلم القيادة فيها الى الطبقة العالية لانها أقدر من غيرها وتكون لها مشغلة تصدها عن البطالة . وصحافة الانكليز أكثر مادة وأصح نظراً ومجالسهم أوسع اختصاصاً . وكذلك الحال في الدينيات فان الاخلاق تقوم مقام الطقوس والمعتقدات . وكأن الدين عند الانكليز يدعو الى الحكم الذاتي وإلى سلطة الوجدان وتهذيب الارادة ويترك مجالاً كبيراً للتأويل والمواطف الشخصية والدين لا يعارض العلوم الحديثة وميول العصر الحاضر ورجال الدين يتزوجون . وللدين تؤسس المدارس والدين يوصى بالعمل ولا يدعو الى الزهد والقائمون عليه كجمهور الناس لا امتياز لهم عليهم .

قال ولم تغز انكلترا منذ ثمانمائة سنة ولم تقم فيها حرب أهلية منذ مئتي سنة ورأس مالها أكثر من فرنسا مرات وعلام الرقاهية والغنى فيها أكثر من كل شعب من شعوب الأرض . الانكليزي يحسن الزراعة والصناعة والعمل أكثر من الفرنسي ويحسن تربية نفسه بنفسه والخاصة عند الانكليز أرقى من الخاصة عند الفرنسيين وعلمهم راسخ وعملهم نافع وفرنسا تفوق انكلترا بجودة مناخها وتقسيم الثروة بين أفرادها لان لديها نحو خمسة ملايين مالك أرض ولذلك كان الفقراء أقل شقاء في فرنسا مما هم في انكلترا وليس في أرض الفرنسيين أغنياء ضخام الثروة كالانكليز لان الثروة تقسم بينهم والموارث عندهم متساوية

والفرنسيس يفضلون جيرانهم بحياتهم البيتية والاجتماعية اهـ
من خصائص الانكليزي أنه يشبه ميكانيكياً تعلم علم الحيل (الميكانيك) بالتجربة
لا بالنظر فتراه مهتماً أن ينتج بما له من آلة ما أمكن من النتائج ولا يحرص على
تبديل محركها أو أدواتها لعله بأنه إذا فعل ذلك أقتضى عليه أن يوقف العمل
وان يبذل الوقت والاهتمام سدى من أصل رأس ماله المحدود وهو يدرك بأنه
إذا حدث للآلة ما يضر سيرها تقف أحياناً وتنقطع فائدته وفائدتها ولذلك يجد
من نفسه داعياً الى القبول بتعديل آلة على أن يغير أدواتها القديمة بأدوات
جديدة ولكن بدون أن يوقف الآلة ويقلل من مغلها

يعتقد الانكليزي بالضعف البشري ويشعرون بضرورة أخذ الامور بالتدريج
والبدء بها من الصغير للوصول الى الكبير حتى لا تقف القاطرة في هذا الجهاد
وتهور في منحدر لا تقوم منه فهم في شرائعهم يكتفون بتعديلها واصلاحها مع
الزمن وماقط حدثهم أنفسهم أن يضربوا بما لديهم عرض الحائط ويضعوا غيره
من عند أنفسهم والانكليزي مع هذا اذا رأى الخير في تعديل قانونه يصر عليه
فقد رأينا أصحاب الصحف على عهد الاصلاح النيابي الكبير قد صعب عليهم أن
يصدروا منشوراتهم النافعة لأنه قضى عليهم أن يدفعوا عن كل نشرة طابعاً
فأجمعوا أمرهم على ان يصدروها بدون طوابع فغرمتهم الحكومة وجبستهم
ولكن جرائدهم ومنشوراتهم ظلت تصدر على عاداتها بدون طوابع واصرروا على
رفعها ومضت اربع سنين على هذه المسألة حبس لأجلها زهاء خمسمائة رجل حتى
اضطر مجلس النواب ان يجيب الطلب وان تضررت الحكومة من رفع قسم مهم
من الميزانية .

يعمل الانكليزي عمله حباً بالعمل نفسه على حين يعمل غيره من الأمم
لاحراز الثمرة التي تعقب الشرف او الراحة والرفاهية والدليل على ذلك ما تراه
في اهل الطبقة العالية منهم ممن لهم ثروات تعفيهم من تعاطي الاعمال فتراهم
يصرفون نصف ايامهم في الالعاب الرياضية الشديدة غير مباين فكأن الرياضات

لهم كالفطرة المستحكمة كما كانت الألعاب الاولمبية في يونان ايام عزهم ثم انك لا تجد غنياً لا يصرف شطراً من وقته في النظر في شؤون مقاطعته وابرشيته وكثيراً ما يهلك قواه في هذا السبيل بينما تجد ابنه في استراليا او مانيتوبا يعيش مع رعاة الغنم في تلك البلاد القاصية المنفردة وابنه الآخر من المرسلين في جنوبي افريقية يعمل شاق الاعمال .

وبينا ترى الانكليزي اكثر الأمم تحاشياً مما فيه عبودية واحرص الناس على التناغي بالحرية الشخصية والحرية المدنية كحرية الاجتماع وحرية التكلم وحرية القول تراه في نظام أسرته قد احتفظ حتى الآن بنظام الحكم المطلق فترى الابنة تأتي زوجها بدون أن يعطيها والدها بائنة لأن العادة جرت بين الأغنياء وأرباب اليسار أن يحفظوا لبكر الأولاد العقارات ويقسموا الأشياء المنقولة بينه وبين أخيه الاصغر منه سناً وتنال الابنة حصة من ذلك ويكون في الغالب دخلاً قليلاً تناله من واردات أبيها . حرمت ذلك حتى لا تجيء دار زوجها بما يرفع رأسها عليه لأن الرجال يريدون أن تكون لهم السلطة التامة في بيوتهم واذا اتفق أن زوجاتهم جاؤهن بشيء من المال يضيفونه الى ثروتهم ويحرمونهن حتى الوصاية على أولادهن والتصرف بأموالهن ، والزوجة مع زوجها وما يختار هولا ما تختار هي . والوالد والوالدة يريان ابنتهما بعيدا عنهما ولا تأخذها به شفقة والولد اذا غاب عن والديه ينساها واذا مثل بين أيديهما يحترمهما

قال « تين » : الانكليز مشغولون باشغالهم ليس عندهم من الوقت ما يظهرون فيه بمظهر الأنيس المتهذب أما الفرنسيون فهم أهل لطف وظرف يفتح بعضهم الى بعض قلوبهم وييوحون بذات أنفسهم وهم أشكال يتبدلون بينهم في خطبهم ويتنزهون ويسرون ويركضون ويذهبون طلقاً حتى يسقطوا . الانكليز نوابغ فائقون وهم لا ينسجون حتى ولا على آثار الاقدمين الذين يعجبون منهم في باريز يطيش المرء مما يرى من العالم فلا يعرف الا العادات الظاهرة وليس له من الوقت ما يتمكن به من معرفة الرذائل والفضائل . لو سئلت عن مرامي الانكليز لصعب

على في الحقيقة ان أجيب عليها فلا الحرب ولا المنشأ ولا المراتب ولا السعداء من الناس ولا الهذيان في نيل رضى الوزراء مما يهتمون به بل هم يريدون أن يكون الرجال رجالا ولا يعتبرون الا شيئين الفنى والاهلية . أريد بلفظ نبوغ أمة الا خلاق وصورة الفكر في الشعوب المختلفة التى تقاد بتأثير بلاط ملوكى أو عاصمة واحدة . فالانكليزى والفرنساوي والايطالى ثلاثة مظاهر من مظاهر النبوغ .

وقال أيضاً أرى مدينة باريز مدينة جميلة وفيها أمور بشعة وأرى لندرا مدينة بشعة فيها أمور جميلة جدا . فى لندرا الحرية والمساواة ولكن حرية أرباب الحشمة من الناس ومساواتهم وفى ذلك تختلف عن حرية البندقية وهى حرية العيش فى الظلمة والتزوج من بنات الهوى . ومساواة لندرا هى مساواة حشمة ووقار وبذلك تختلف عن حرية هولاندة التى هى حرية السفهاء والسفلة . ليس أمام الانكليزى إذا تلفت صحته غير سبيلين اثنين اما أن ينتحر او يصبح لصاً . وقال : ان المال محترم عند الانكليز للغاية أما الشرف والفضيلة فليس لهما تلك الحرمة . لما كان الانكليز لا يتحابون فى بلادهم حتى لا ينخدع أحدهم بصاحبه أصبحوا قساة . الانجليزى يبدى نحوك أدبا قليلا ولكنه لا يبدو منه ما ينافى الأدب قط

انجلترا اليوم أكثر بلاد الأرض استمناعا بحريتها ولا استثنى من ذلك ولا جمهورية . أدعوها حرية لأن الامير ليس له فيها سلطة حتى يسىء لاي كان وذلك لان سلطته محدودة مراقبة ولكن اذا أصبح مجلس النواب الحاكم المتحكم تصبح حرية بلا حد اذ تكون بيده القوة الاجرائية على أن السلطة اللامتناهية هى للمجلس والملك الآن والقوة الاجرائية للملك الحدود السلطة فعلى الانجليزى الصالح أن يتوخى الدفاع عن الحرية من اعتداء الملك والمجلس . قال أحدهم لما مسكوا الحبل الأزرق سنة ١٧٣١ للمستردى بروغلى : انظروا الى هذه الامة انها طردت الاب وأنكرت الابن واستصفت روح القدس

٨٦

جزيرة أو جزائر بريطانيا العظمى عزلتها الطبيعة عن أوربا كأنها قارة برأسها
فجاءت أخلاق أهلها وعاداتهم نمطاً غريباً يدهش لها الغربي قبل الشرقي . وفي
أكثرها الجيد الصالح . ومن أكثر علمائنا الذين قضوا أعواماً في بلاد الانجليز
واختلطوا بهم واطلموا على أحوالهم العلامة أحمد فارس ^(١) فقد أجاد في وصفهم
فاقتبست جملاً من كلامه لأن من أقام في بلد أعواماً لا يشبه من زاره أياماً قال:
ينقسم جيل الانجليز الى خمس طبقات «الطبقة الأولى» الأمراء والوزراء
والنبلاء وذوو المناصب السامية ويلحق بهم الأُساقفة «الثانية» الأعيان أو
العلية وهم الذين يعيشون من أرزاقهم وأُملاكهم لا من معاطاة شغل أو حرفة
وليس لهم جلاء أى لقب عظيم «الثالثة» العلماء والقضاة والفقهاء ويلحق بهم
القسيسون والتجار أهل المراسلات «الرابعة» التجار أصحاب الدكاكين والكتاب
وهم الذين يحتاجون الى تحصيل معاشهم بالاحتراف والاصطراف ولكن من
دون ابتذال ماء الوجه «الخامسة» أهل الحرف والصنائع والعملة ويلحق بهم
الفلاحون وهم الجمهور الا كبر فعادات أهل الطبقة الأولى مباينة بعض المباينة
لثانية ولكن ليس بينها وبين الاخيرة مناسبة أصلاً وعادات أهل الطبقتين الثالثة
والرابعة متساوية لاختلاف فيها الا ماندر أما أهل الطبقة الثانية فان لهم من
وجه نزوع الى الاولى بالنظر الى العز والاستبداد ومن وجه آخر ينزعون الى
الباقى بالنظر الى الجنسية والالفة والغالب على جميع هذه الطبقات حب الوطن
والمباهات بما عندهم من الصنائع والاحكام والاذعان للقوانين التى بنيت عليها

(١) الوسطة فى معرفة أحوال مالطة وكشف الخبايا فنون أوربا (الطبعة الثانية بمطبعة
الجوائب فى قسطنطينية ١٢٩٩ هـ)

معاملات دولتهم ودواوينهم . ولما كان أصحاب الطبقة الأخيرة هم الجمهور الأكبر وهم الحريون بأن يقال لهم بريتانيون أو انجليز لكونهم بقوا على قديم أحوالهم وأطوارهم ولم يعرفوا غيرهم من الأجيال إلا بالمعاشرة ولا بالمطالعة وجب أن تقدم ذكرهم أولاً فنقول : ان أول خلة يراها الغريب فيهم هي عدم اكتراثهم له وتقورهم منه فلا يفرحون لفرحه ولا يحزنون لحزنه بل لا يعنى أحد منهم بشأن جاره ولا يهجه أمر غير أمر نفسه فكل ذي حرفة يقتصر على الاشتغال بحرفته مدة حياته ولا يتطال إلى معرفة شيء غيرها فالفلاح مثلاً لا يعرف شيئاً إلا ما آل إلى الحرث والزرع والقفين لا يدرى مما يحدث في بلاده سوى ما يختص برواج سعر الحديد والطلب على الأدوات المصنوعة منه وهلم جرا إلى المهندس والطبيب . وإذا استراح الرجل منهم ساعة قضاها بذكر ما عمل وما سوف يعمل . ويمكن أن يقال ان بهذه الخصلة استتب عز دولة الانجليز وعظمت شوكتها . لان الرعية لا تعرض ذوي الامر والنهي في تدبيرهم ولا تتناول إلى معرفة ما تقتضيه سادتهم وأهل شوراها . وهم أطوع خلق الله لأولياء أمورهم . ويمكن أن يقال أيضاً انهم لعدم اختلاطهم بغيرهم من الناس يحسبون أنفسهم وهم في هذه الحالة أسعد خلق الله وان جميع رسومهم وأحوالهم مستغنية عن التبديل والتغيير

ومن طبع الانجليز الرث وهو البلادة وقلة الفطنة فلا تكاد احداثهم تفهم شيئاً من كلام الغريب بينهم بل الكهول أيضاً لا يعون ما يلقي عليهم الا بعد الروية والتأمل وشتان ما بينهم وبين الفرنسيين فان الحدث من هؤلاء يبتدر إلى الجواب كأنما قد درسه ودراه من قبل سؤالك اياه ولو قلت أن البريتاني القح ليس له من نوعي العقل سوى نصف المكتسب ونصف الغريزي لما أخطأت وتلك صفتهم من القديم

ومن طبعهم انهم لا يتزاورون ولا يسهر بعضهم عند بعض وكيف يسهرون وهم انما يرقدون في الساعة التاسعة ويقومون صباحاً في الساعة الرابعة وربما

بقى الرجل سنين ولا يعرف جاره وكذا أهل المدن وغاية محاورتهم اذا تلاقوا في الطريق أن يقول أحدهم طيب بطرس فيقول الآخر طيب يوحنا . واذا اجتمع المتعارفان منهم وتساءلا فلا بد أن يبتدئ أحدهما أولا بوصف الهواء وصحوه أو برده ثم يخبره بما عرض له من وجع في كتفه أو نالول في رجله أو اختلاج في عينه فيقول السامع يحزننى ذلك جدا ولا يكاد احدهم يضحك ضحكا طبيعيا وانما هو عبارة عن قهقهة ثم يعقبها الكتم والعبوس

ومن طبعمهم أيضا أن لا يحترموا الشيخوخة من حيث هي شيخوخة ولا تهاب الاولاد والديهم كما تهاب الاولاد عندنا ولا يحن الوالدون أيضا على اولادهم كما عندنا ولذلك يقع كثيرا ان الاب يقتل ولده والولد يقتل أباه وأمه . ومن منكر عاداتهم التي لا يمكن أن يحولوا عنها مع علمهم بأن جميع الافرنج خالفوهم فيها حلقهم لحام وشواربهم . ومن عادة العامة الملاكمة ويقال لها «البوكس» والملاكمة للعامة بمنزلة المسابقة للعلية غير أن هذه محظورة يجب فيها الحد وتلك مسكوت عنها وقد كانت سابقا بمنزلة الملهى في اجتماع الناس للنفرج عايبها . وفي أواخر القرن الماضى كانوا يتعلمونها في المكاتب . ومن طبع الانكليز عموما التهافت على الشهرة والنباهة بين أقرانهم بأى سبب كان ولا سيما في أسباب المعارف والعلوم . ومنهم من يعتقد بالطيرة والتفائل وظهور روح الميت عند قبره وهذا الوهم فاش حتى عند عامة سكان المدن وشرع الانكليز أطول الشرائع أحكاما وأكثرها قبلا وقالوا وأوسع من علم العربية قلبا واعلاالا . فان بعض الدعاوى التي تستدعى دهاء الفقهاء ومحالهم ربما يدوم خمسين سنة فأكثر ويمكن تقسيم شرعهم الى أربعة أقسام . الأول ما تناقلوه من أحكام الرومانيين والزمانيين والسكسونيين الذين فتحوا بلادهم ويدخل في ذلك أمور من قبيل العادة . وفي الحقيقة فان جل عاداتهم سنة لهم . الثانى ما بنى على العدل والانصاف ومراعاة المصالح على وجه الاستحسان والترجيح اذ لم يرد فيه ولم يجر فيه حكم فيحكم بالرأى حسبما

يترجح عندهم أنه الاصلح . الثالث أحكام مجلس المشورة وهي غير متناهية
الرابع أحكام ديوان الكنيسة

وتحيتهم في الصباح هي أن يقولوا صباح طيب وفي المساء مساء طيب ثم يردفوها
بقولهم « هودو يودو » وترجتها كيف يعملون أنتم تعملون وهو سمة تنبئ عن
مزيد مياهم وتوقانهم الى العمل حتى انه يوجد في لغتهم نحو عشرة ألفاظ مرادف
للعمل وهو أكثر ما عندهم من المترادف ولا يخاطبون بضمير المفرد الا الباري
تعالى أو في الشعر وهو ضربة لازب فاما عند الفرنسيين فاستعماله انما هو في مخاطبة
الادلال كأنه يكلم المحب محبوبته أو الوالد ولده . ومتى خاطبت أحداً من فلاحى
الانكليز وهو مصنع اليك أبدى مهمة عند كل جملة أعنى قوله « هم » فكأنها
عندهم حرف بمعنى نعم وعند كل فقرة تقضى بالاعتبار يقول اه واذا هم خاطبك
تقضوا رؤوسهم ولا يكادون يشيرون بالأيدي كما هو دأب أهل مالطة وإيطاليا
وغيرهم وليس للهجتهم مطلقاً نغمة مطربة سواء تكلم بها جاهل أو عالم أو ولد
أو امرأة اذ ليس في كلامهم مدٌّ ولا حركات طويلة وأصوات الرجال من حناجرهم
بخلاف اللغة الفرنسية فان فيها غنة تستحب من الأولاد والجواري جدا وربما
طرب لها من ليس يعرفها . ومن عادة النساء اذا كلن أحداً من الخاصة ان ينحنين
له عند كل سؤال وجواب وعادة الغلمان ان يضعوا أيديهم على رؤوسهم وكذا
هي عادة الخادم مع مخدومه عند كل سؤال وجواب حتى القسيسون أيضا يرتاحون
لهذه الدغدغة واذا خاطبوا أحداً بكلام توبيخ وغيظ قالوا له « سر » وهي بمعنى
« سيد » حتى انهم يقولونها عند طردهم كلباً ونحره فيقولون مثلاً اخساً ياسيدي
وقد يستعملونها أيضاً لتعظيم المخاطب واجلاله . والرجل يقول عن زوجته معلتى
والمرأة تقول عنه معلى . واذا خاطب زوجته أحد من الخاصة بلفظة « مادام »
كان ذلك اشارة الى تنافرها فخطاب الرضى انما هو أن يقول لها يامحبتى وياعزيزتى
وربما قالوا ياقلبي ولا يكادون يفهمون ياروحى وياعينى

اذا دخلت على أحد من أهل العربية احتنى بك غاية الاحتفاء وان لم يكن

بينكما صلة أو معرفة وعند الانصرف لا يزيد على أن يقول لك في أمان الله وربما لم يبق لك وإذا دخلت على أفرنجي أراك أنه مشغول عنك بما هو أهم من الزيارة وسألك أن تسرع في عرض حاجتك وعند انصرافك من عنده ينهض لك ويرافقك الى الباب وعند الفرنسي لا بد من أن يكلمك هناك كلاماً يوجب وقوفك ولو دقيقة إشارة الى أنه لم يعمل منك وعامة الانكليز هم دون عامة فرنسا أدباً وكياسة كما أن علياً أولئك أفضل من علياً هؤلاء وليس عند الانجليز فضول وتكليف على الدخيل فيهم بل ولا على من هو منهم فلا يزورونه في غير وقت الزيارة ولا يستعبرون منه ولا يتعرضون لما يأتيه .

ومن ذلك الجد في المساعي وعدم الشهامة وكراهية العبث الموجب للتنافر والعداوة أو لنكاية الخصم في الكتابة وعدم التهافت على الحسد فاذا رأوا عندك مثلاً متاعاً تقيساً لم يكن عندهم مثله لم ينفسوا عليك في احرازه ولا يقولون ياليت كان لنا مثله . ومنها انهم يضبون على ما بهم فلا يتظلمون ولا يجدفون أى يستقلون عطاء الله ولا يقولون ليس لنا وليس عندنا فكل واحد منهم يريد أن يستغن عنك ولا تكاد تسمع خادماً يطعن في مخدومه أو خادمة تعيب مخدومتها وان كانا يكابدان عندهما ، واذا نبغ فيهم انسان في فن وصنعة لم يجد من يتصدى لتجهيله وتخطئته فلا يحسد ولا يبغض حقه . بل يجد من ينشطه وييسر له أسباب العلم ، ولا يتشبثون بأعقاب الاقاويل ولا يأتون النجمة والغيبة الا قليلاً ، ومن ذلك حسن الترتيب والتدبير في الاشتغال والمصالح والتوقيت للعمل فلكل شيء عندهم وقت ولكل وقت شغل فاذا اتفق ان زارهم أحد في ساعة الشغل لم يتحاشوا أن يقولوا له مثلاً قد أنسنا بك ولكن علينا قضاء ما لا بد من المصالح فلا تؤاخذنا وزرنا في يوم كذا فينصرف عنهم عاذراً لا عاذلاً ومن ذلك اختصارهم الكلام مع المخاطب اذا اعتمدتهم بشيء فاذا احتاج الصغير الى الكبير في شيء قال له اني أرجو أن تكون من الحسنين الى بتنويل طلبتي فأكون لك من الشاكرين فيكون جواب الكبير له بغير ملث سأبذل جهدي في مصلحتك وأخبرك

وأما اذا رأى المسئول نفسه غير قادر على احساب سائله وتفعه قال له مصرحاً
أن سؤالك فوق طاقتي فاقصد غيرى ولكن متى وعد فلا بد من انجاز وعده
فلا محال ولا مطال

ومن الخصال المحمودة الحرص على ما يؤتمنوز عليه فاذا سلمت لأحدهم
مثلاً طرساً فانه يصونه عنده بمنزلة طرس نفسه حتى اذا استرجعته بعد سنين أعاده
إليك كما تسلمه بل ربما أزال عنه الوسخ ورده اليك نظيفاً وقال لك وهو معتذر
قد تجاسرت على أن أزلت الطبع عن الطرس وأرجو أنى لم أسىء فيما فعلت .
وقس على هذا سائر ما تأتمنهم عليه وينضم الى ذلك احترامهم لرسائل فلا يفتح
أحدهم كتاباً جاء باسم غيره بل يبذل جهده في إيصاله اليه واذا زارك منهم زائر
فلا يمد يده ولا طرفه الى ما بين يديك من الصحف فاذا أراد أن ينظر في كتاب
لم يلمسه الا بعد أن يستأذنك

ومن ذلك تنشيط أولادهم الى الاشغال وتمارينهم على ما يكسبهم وإياهم الرزق
الكافى والمواظبة على الاعمال والصبر على ما يتعاطونه جل أو حقر فانهم لا يملون
من السعى ولا يرون فى الكسل راحة ولا يقول أحدهم انى كبرت عن تعلم شىء
فلا يزالون دائبين كالنمل مادامت فيهم نسمة تتحرك ومع كل هذا التجلد والتحمل
فتى ضيم أحدهم أو سقط شرفه أو مال نجمه فاهون شىء عليه نحر عنقه . ومن
رام أن يكرم نفسه عندهم فليظهر لهم أنه مستغن عنهم ولا يعرض لهم فى طلب
شىء ولا فى استعارته وبناء على ذلك يصاحبون من يصاحبون أياماً وشهوراً
وسنين ولا يسألونه عن مقدار دخله وخرجه ولا يريدون أن يسمعوا ذلك منه
اذا ذكره . ومتى وثق أحدهم بانسان وعرف منه الجد والاستقامة والامانة
يأتمنه على زوجته وبناته فيذهبن معه ليلاً ونهاراً بلا مانع ومن يحضر الى بلادهم
بوصاة من عند معارفهم احتفلوا به وعدوه منهم وصموا آذانهم بعد ذلك عن
سماع ما يقال فيه من الذم . واذا زارهم أحد أول مرة ولم يكن من معارفهم
فلا بد من أن يعطى الحاجب تذكرة مكتوبة باسمه فيناولها الخادم سيده فى صحفة

من الفضة أو البلور ولا يكاد يدخل عليهم زائران في وقت واحد وقد يكون عند البواب دفتر يكتب فيه أسماء الزائرين في كل يوم . وفي الجملة فان معاشر هؤلاء الرؤوس تتعب الرأس والرجل معاً وتضيع كثيراً من الوقت والمال . وربما دعاك أحدهم الى غداء فقام عليك ذلك الغداء ثمن عشرة أغدية . ومما يحمد من هؤلاء النبلاء انهم لا يضعون في أرديتهم سمات الشرف ويطوفون به في الطرق تهويلاً على العامة كما تفعل نبلاء فرنسا وانما يتحلون بها في أوقات معلومة وكذلك الخواتين لا يتحلين بالخلي والجواهر الا في الولائم والسهريات ونحو ذلك . ومن ذلك خطابهم خدمتهم بالرفق واللين وان أظهروا عليهم المعجزة والمنجبية فالمخدومة تقول لخدمتها اذا أمرتها بأن تناولها شيئاً هاتى هذا الشيء ان أعجبتك . وبعد أن تأخذه منها تشكرها وربما تباخات عليها في الاكل والشرب وأرضتها بمثل هذا الكلام الطيب فيطيب خاطرها . ومع هذا الرفق والملاطفة فلا تزال المخدومة متباعدة عن الخادمة ومظهرة لها فرق المقامين وتباين الشانين فلا تدل عليها بشيء واذا غضبت عليها فلا تكلمها بكلام يشف عن سفاهة وخروج عن حد الأدب ويحمد أيضاً من عاداتهم انهم اذا استخدموا شخصاً لسنة وأرادوا صرفه لغير ذنب نبهوه من قبل صرفه بثلاثة أشهر وعند الفرنسيين ينبهونه من قبل ثمانية أيام فاما اذا كان مشاهرة فينبهونه قبل صرفه بأسبوع أو أدوا اليه أجرة الشهر وصرفوه

قال ابن فارس هذا واني سمعت من كل من عاشرته وقد عاشر الانكليز أن يصنفهم بالكبر والمعجزة وكبرياء علية الانكليز انما هي في وجوههم أكثر منها في ألسنتهم وقلوبهم . وان وسم الناس اياهم بالمعجزة مطاقاً ليس في محله الا اني لأنني عنهم الاتصاف بعزة النفس وترفيعها عن أن تدل لغيرهم وهي من الخلائق المحمودة لدى جميع الخلائق فاما كبر السفلة منهم فهو ابداء العبوس أيضاً مضافاً اليه عدم التأدب في الكلام والحركات ونبرهم في الخطاب وسوء الضحك واللقاء والمنقلب وهلم جرا . هذا وكما اشتهر عن الانكليز الكبر كذلك اشتهر عنهم الصدق

ومما يحمد من الكبراء ومن ذوى المراتب السامية هنا انهم لا يتدخلون في التجارة ومن منكر عاداتهم انه اذا دخل أحد على جماعة من هؤلاء العلية ولم يكن يعرف منهم غير واحد فقط لم يسلم الا عليه ما لم يعرفه بهم صاحبه فاما اذا دخل على قوم ولم يكن يعرف منهم أحداً فلا يجي مطلقاً بخلاف عادة الفرنسيين فان من يدخل على جماعة أيا كانت يضع يده على رأسه أو ينزع برنيطته احتراماً لهم وكذلك اذا خرج وان لم يكن يعرفهم .

انكلترا والاستعمار

٨٧

من لم يطلع على التاريخ والجغرافيا لا يعتقد عند ما يقع بصره على البلاد الانكليزية أن حكومتها استعمرت مملكة واسعة أعظم من مملكة قيصر وأهمر منها ، ولقد ارتكبت انكلترا أغلاطاً كثيرة وركبت أخشن مراكب الجنون للوصول الى مستعمراتها ، وعلى ما في طرق استعمارها من النقص الذي لم يتم بالاصلاح حتى الآن يصعب أن يقال ^(١) أن شعباً نجح في هذا الباب أكثر من الانكليز اذا اعتبرنا اختلاف العناصر والأخلاق والاهوية والطباع

تتناول مستعمرات انكلترا نحو ثلث مساحة الارض وربع سكانها واذا استثنينا اليابان والصين نجد انكلترا قد اتصلت من الاصل أو بالحكم مع أكثر من ثلث الشعوب المتقدمة في العالم فلها في قارة أوروبا أربع مستعمرات وفي قارة أميركا إحدى عشرة مستعمرة وفي افريقية أربع عشرة مستعمرة وفي آسيا ست مستعمرات وفي أستراليا ثماني مستعمرات ولكل واحدة قانونها الخاص تشدد

(١) انكلترا وحكومتها ومعامدها لدى فونبلانك

صلاتها بالمركز (لندرا) أو تلين بحسب عراقها في المدنية وجهادها في سبيل الحرية والقومية .

والفضل الاول في حفظ جزائر بريطانيا ومستعمراتها الى الاسطول الانكليزي الذي حطم كل لسطول ماعداه لجيرانه حتى غدا الاول فقد قال المؤرخون أن الانكليز ما كانوا يحمون بأن ينقلبوا من قرصان بحر الى دولة بحرية عظمى فقد استأجر هنري الخامس سفن الهولانديين في اقرن الخامس عشر للاستعانة بها على حملته الى فرنسا ولم يكن للبلاد قبل عهده بحرية بحرية لحماية الشواطئ وكانت جميع تجارة بريطانيا الخارجية بعد الهولانديين واللومبارديين والهانسيين تستميلهم الحكومة البريطانية بما كانت تمنحه من الامتيازات التي تحرم منها رعاياها من الانكليز . ولم تهتم انكلترا الا عهد ريشار الثاني بحماية علمها ولم تؤثر الاسباب التي اتخذتها الا على عهد هنري السابع وظل الانكليز الى آخر أيام الملكة اليزابت غير مستعمرين . بدأ القرن السابع عشر وليس لانكلترا خارج أوروبا ولا مستعمرة وقد سبقهم جيرانهم النازلون على ضفاف البحر الا تلاتيكي .

كتب أحد رجال البحرية في انكلترا أواخر القرن السادس عشر يصف البحرية الانكليزية فقال : لا يتأتى للبحرية الانكليزية أن يكون لها وجه شبه مع البحرية الهولاندية ، فقد أصبحت هولاندة كما كانت مدينة صور القديمة ومدينة البندقية الحديثة مستودع كثير من البضائع يصرف منها واحد من المائة ببلادها والباقي خارجها والهولانديون يأتون اليها متاجرين كل سنة على ٥٠٠ الى ٦٠٠ سفينة ولانكاد نبعث اليهم بأكثر من ٣٠ الى ٤٠ سفينة فالهولانديون يتجرون مع جميع مواني فرنسا ونحن لا نتجر الا مع خمس أو ست مواني وسفنهم وحدها تبلغ أكثر من جميع ما يملكه مجموع أمم النصرانية فهم يبنون في السنة ألف سفينة . هذا وليس في بلادهم شجر ، وحاصلات أرضهم لا تشحن أكثر من مائة سفينة اه

وأن تحطيم السفن الانكليزية في بحر الشمال والمانش سنة ١٤٨٨ للاسطول الاسباني الذي لا يغلب L, invincible Armador كان مبدأ تفوق انكلترا بحريتها وقد ساعدت انكلترا يومئذ الأتواء فلم تبق منه الا طويل العمر وقد وقع لانكلترا مسألتان ساعدتاها على هذا التفوق وهما اكتشاف أميركا سنة ١٤٩٢ وكانت جنوة ويزا وفلورنسة والبندقية واكسبورغ وتروي ومدن الهانس مجمع التجارة والتجار ففتح اكتشاف أميركا أمامها بابا جديدا فأصبح مملكة من ممالك المحيط الباسيفيكي وفاقت على الدول الخمس التي كانت ممتدة على شواطئ هذا المحيط .

دخلت البورتغال أول الدول في ميدان الاستعمار ثم اسبانيا ثم هولاندة وقد بلغت هاته الدول الثلاث أرقى درجات سعادتها الاستعمارية في منتصف القرن السادس عشر وقامت فرنسا بمثل هذا الأمر بعد ذلك بقليل وكانت فيه أرقى من انكلترا وهذه جارت الأخيرة ، ولم تصرف أكثر من قرن لتعوض الوقت الذي أضاعته ولم يعترف بها بأنها دولة بحرية قوية تطمح الى الاستيلاء على البحار الا يوم صلح أو ترخت سنة ١٧١٣ وعجيب تأخر انكلترا عن جيرانها الدول الخمس المفتحة موانئها على البحر الا تلاتيكي كيف لم تنتفع حالا من تجارتها مع أميركا على ما لها من المركز الغريب وهي أقرب الأمم الى العالم الجديد وشواطئها تمتد على طول ٧٩٠٠ كيلو متر أي ضعف شواطئ فرنسا واذا كان الانكليزي في أي نقطة من بلاده لا يبعد عن الساحل أكثر من خمسة وعشرين فرسخا هذا مع تعدد موانئهم وأنهارهم ووصول سفنهم حتى الى العاصمة والى كثير من الحواضر بدون أدنى طائق على حين ليس لهولاندة والبورتغال من الموانئ ما يعدها لاعداد الأساطيل الكبيرة وفرنسا واسبانيا مشاغل في اليابسة تحتاج لان تصرف قواها البرية فيها وتغنيها بها زيادة على البحرية .

كان من الاضطهاد الذي وقع على البرتستانات لأول انتشار مذهبهم في انكلترا أن هاجر كثير منهم الى أميركا والى غيرها فاستعمروا البلاد واستصفوا الممالك

وأنشأوا في أيام نكبتهم لأمتهم ممالك بنيت على التضامن وكان سداها الاقدام ولحمها الوطنية . وأخذت انكلترا تطوف البحار التي كانت مجهولة الى ذلك العهد تؤسس فيها أما كن مشمرة تقرب بين محطاتها وتوطد سلطانها وتحمل الى القاصية علمها فتألف من ذلك عنصر مؤلف من بحارة شجعان ومستعمرين مقدمين وتجار للربح متمطشين يكلب عليهم الصدق في متاجرهم . وحسن الذمة شرط في التجارة ولكنهم لا يعبأون بالشرف في المسائل الأخرى فهم قلما يراعون عهودهم مع الدول الأخرى بعيدون عن الانسانية متشبعون بالانانية . والظلم عادة لمستعمرهم ونشأ من ذلك حب التوسع في الملك على صورة لامثيل لها في أمة . وان من تفرقوا في أميركا من مهاجرة الانكليز ونزعوا أيديهم من الكنيسة البابوية قد ربوا على استقلال الفكر والانتكال على المولى الحامى المطلق لخلقهم . ومن هذه الجماعات أو مجموع كنائسهم المجددة نشأت تلك المملكة الاميركية . فانجلترا قبل هؤلاء المستعمرين كانت تتوسع اليوم بعد اليوم أما فرنسا واسبانيا فكانتا تتراجعان في مستعمراتها الحين بعد الآخر .

دخل في الاستعمار بالهجرة أو الفتح شعوب أوروبا العربية لقيام بلادهم بالقرب من الاوقيانس الباسيفيكي والاتلانتىكى والهندي أي اسبانيا والبورثقال وهولاندة وانكلترا وفرنسا والدانيمرك ثم تبعها ألمانيا وإيطاليا وأنشأوا البلاد وأسسوا الممالك ولكنهم كانوا باستعمارهم كلهم دون استعمار الرومان واليونان والفينقيين في حسن معاملة المستعمرين والاحسان اليهم في البلاد التي نزلوها على شواطئ البحر المتوسط وبحر الشمال فكان رائد المستعمرين من المحدثين القضاء على من نزلوا بينهم ولا سيما العبيد وهذا مما يؤسف له ^(١) ويصعب تطبيقه على ارتقاء النصرانية والعهد الحديث عن مستوى الوثنية والعالم القديم



(١) معجم السياسة والاجتماع لبلوك Block: Petit dictionnaire politique et social

وهاك الآن نموذجاً من ادارة الهند أكبر مستعمرات انكلترا بل أكبر ممالك الأرض بعد الصين تدرك منها أسلوبهم في حكومتهم الغربية التركيب المتنوعة الاجزاء التي تحيلها في بودقتها بالزمن الطويل الى انكليزية صرفة بمبادئها ومبادئها الا قليلا .

لما استولى ^(١) الانكليز على الهند عقيب ان دالت دولة المغول ورفع عن بعض ارجائها علم الفرنسيين لم يجدوا أمامهم حكومة وطنية في البلاد ولا جماعة اجتمعوا لتدبير شؤونهم تربطهم المصلحة المشتركة بها بل رأوا هنا وهناك عصابات غير طبيعية نشأت بالاتفاق بطبيعة الفتح وظلت بطبيعة الحال عبارة عن مجتمعات منفصلة العرى تجمع تحت لوائها ملايين من الناس في أماكن متباينة وكان لهذه الأقوام بحسب مكانتها زعماء يقودونها سموا أنفسهم أمراء وراجات ونوابا وسلاطين وأمبراطرة ولم تتغير هذه الصورة من الحكومة منذ العصر الذي استولى فيها الفرس والمقدونيون والبارثيون والتتار والمغول وغيرهم على تلك القارة

ومع ما نراه من حال ذاك الشعب المهزيع المنتشر الاطراف الخالي من كل جامعة قد أنشأ له مدنية باهرة دامت قروناً تنير العالم بدائعها وظلت الى يوم الناس هذا لم تمسها يد بسوء . فارتبط الهنود من الشمال الى الجنوب من جبال حملايا الى رأس كومور برباط واحد وعملوا بقلب واحد وتشبعوا بروح واحدة تدفعها الثبات الذي لا يوصف والغاية المشتركة التي وجهوا كلهم وجهتهم اليها وذلك انهم لم يرموا الى غرض سيامي ولا الى غرض اقتصادي بل لأن المجتمع الذي ألفوه ورتبوا درجاته ^(٢) لم تكن غايته زمنية دنيوية بل كانت دينية فاستقام الامر للمستعمرين لأن القوم لاتهمم السياسة ولان النواب والراجات المغلوين على أمرهم ليست لهم أصول راسخة في البلاد ولا منزلة في قلوب الأمة فكان الدين هو الذي يحرص القوم على بقاءه والانكليز أحرص الناس على احترامه ولا سيما بين طبقات البراهمة التي كان لها تأثير شديد في العامة

(١) من مقالة في المجلة الزرقاء الفرنسية Revue Blene

(٢) في الهند سنة ١٩٢٠ قبيلة مختلفة Caste وقال آخر انها ١٤٠٠

أدرك الانكليز في الحال صراحة بأنهم في حل من أن يؤسسوا في الهند الحكومة التي تروقهم من حيث الادارة والنظام السياسي والتشريعي على أن لا يمسوا المعتقدات ولا رجال الدين بسوء فانشأوا حكومة جديدة سموها حكومة الاستقلال ولم يراعوا في تأسيس هذه الحكومة أصول الشعوب اذ كان هنا البنغاليون الجياع والماهراتيون الشجعان وفي مكان أبعد سكان ميزور وفي المقاطعات الأخرى السيخيون النشيطون فتجد الفلسفة العالية والتصوف البديع الى جنب الخرافات المستحكمة والتعصب الشديد بل راعوا اختلاف طبائع الاقاليم من حيث وضعها الطبيعي عملاً بما قاله أحد رجالهم من أن الاختلاف في أصقاع الهند أشد مما تراه في ظاهر أرضنا وسياراتنا . ولم ير المستعمرون من مصلحتهم أن يؤلفوا وطنية هندية فيكون لسكان بنجاب وبنغال وطنية خاصة بل عزموا على توسيع الاختصاص والسلطة وتقسيم البلاد في ادارتها على خلاف ما جرت عليه فرنسا في ربط البلاد كلها بالعاصمة مباشرة لأنها ترمى الى تجنيس أهل البلاد المستعمرة بالجنسية الفرنسية . وبعد تجارب طويلة تمت لانكلترا سنة ١٨٦١ صورة ادارة الهند وكانت هذه الصورة معدلة منظوراً فيها وهي الصورة التي جرت عليها شركة الهند الشرقية سنة ١٧٧٣ واستصدرت بها قانوناً من مجلس النواب فقسمت الهند أولاً الى ثلاث ولايات بنغال ومدراس وبومباي دعوها رئاسات *Présidence* لان ادارتها كانت بيد مجلس ينشر القوانين وينفذ القرارات وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر وهو دور الحروب والمنازعات الهائلة رأت انكلترا من الضرورة أن توحد الادارة السياسية مع الادارة الحربية لتقوية كل منهما فعمدت سنة ١٧٧٣ بولاية الهند لحاكم بنغال بحيث يكون له التقدم على حاكمي مدراس وبومباي ولكن ولايته اسمية لا فعلية فأخذت الولايات الثلاث تضيع الوقت في الاخذ والرد والادارة مختلة الأساليب لا ترجع الى يد تضم شملها حتى اذا كانت ثورة السيبي سنة ١٨٥٧ وهي التي كادت تخرج انكلترا من الهند وضعت الحكومة صورة ادارة كانت أساساً للامبراطورية الهندية

وهو عمل ادارى لم توفق اليه أمة ولم يخطر في خاطر حاكم .
فقسمت أراضي الهند الى طبقتين جوهريتين أراضي السلطنة البريطانية أى البلاد
التي تحكمها انكترا مباشرة وهى عبارة عن ولايتى مدراس وبومباى اللتين بقيتا
على ما كانتا عليه فى حدودهما وولاية بنغال وقاعدتها كلكتوتا جعلت عاصمة
المملكة وقسمت الى ثمانى مقاطعات لها حق الانتخاب . والطبقة الثانية أمارات
الوطنيين التى تركت تحت سلطة الراجات الاسمية أو الفعلية فقسمت الى قسمين
فى وضع الحماية الانكليزية عليها وبذلك صار الحكم للوالى العام والرئاسات
وحكومات الولايات والامارات الوطنية

ولحاكم الهند أو نائب ملكها مجلس مؤلف من ستة وزراء لهم معاونون وفى
بعض الاحيان ولا سيما عند سن القوانين يضطر الى أخذ آراء المجلس وله الحرية
أن يعمل بها أو يرفضها وهؤلاء الوزراء يشبهون من وجوه كثيرة وزراء لويس
الرابع عشر لا وزراء أدوارد السابع وهم وزير الداخلية والخارجية والمالية والمعارف
والتجارة والحرية والعدلية والاشغال العمومية ويحق لوالى مدراس وبومباى
أن يحضرا فى المجلس عضوين فوق العادة وهذا المجلس الوزاري يجتمع فى المكان
الذى يستنسبه الحاكم العام فحينما التأم فهناك العاصمة . ويضاف الى هذا المجلس
بعض الاعضاء فيصبح برلماناً أى مجلس نواب فيكون نصف هؤلاء الاعضاء
الاضافيين من الاعيان أو ربيين كانوا أو وطنيين على أن لا يكونوا من
موظفى الحكومة يعينهم الحاكم العام فبذلك يصبح العنصر الرسمى فى هذا المجلس
أكثر من العنصر الأهلى وهذا العنصر قليل العدد ولذلك لاحكم له ومعاونته
اسمية فى الأغلب

أما المجلس التشريعى فله سلطة واسعة لا يقف أمامها الا امتيازات البرلمان
البريطانى وحقوق السلطنة الانكليزية وتنفذ قراراته عند ما يصدق عليها حاكم
الهند . وهذه الطريقة التى تسهل احالة السلطة الاجرائية الى السلطة التشريعية
تحل مسألة تقسيم الادارة على أيسر وجه فى حين تمنحها وحدة الآراء والاميال

وفي مجلس النواب كما في مجلس الوزراء يعمل كل عضو بما فيه المنفعة العامة وينظر في المسائل التي يحسن معرفتها بخلو غرض ويعطى رأيه حراً وللموظفين ضمانات لاتضر بالنظام ولكنها تقي أشخاص كل الوقاية

تنظر الحكومة العامة في المسائل الملكية خاصة كالديون العمومية والكمبارك والرسوم الاميرية والمقايضات والبريد والبرق وتققات الحرية والاديان وقانون الجزاء والتمتع والعلائق الخارجية والحقوق الادبية وغيرها وتوجه دفة السياسة الى الوجهة التي تختارها وتوحد بين المصالح العامة والخدم العامة فهي المنظمة والمديرة وحافظة العهد الدستوري أما ولاية الاقاليم فلكل منهم مجلس خاص ومجلس تشريعي لاتسرى احكامه على احكام الحاكم العام كما أن هذا لا يعتدى على امتيازات الامبراطورية وما عدا ذلك فالحكومة مالكة حريتها برمتها ولها مطلق التصرف ان تقرر ما تشاء. ويخاطب واليا مدراس وبومباي لندرا مباشرة ويتناولان التعليمات بأنفسهما أما سائر الولايات فادارتها ترجع الى ولاية بعضها الى متصرفين يعينهم الحاكم العام ويتناولون رواتبهم من الامبراطور ويختارهم من الموظفين الذين قضوا عشر سنين في الهند على الاقل وهم يخبرون كل كوتا في شئونهم ولكن في الامور الادارية ولهم سلطة كسلطة والي مدراس وبومباي ولهم الميزة عليهم بأنهم أكثر خبرة وتقوذاً

أما الجيش فيؤلف من جيش عامل من الاوربيين والهنود ويقدر بمائتين وسبعين ألفاً منهم ثلاثة وسبعون ألفاً من الانكليز ومن جيش مساعد تقدمه الأمارات الوطنية المستقلة عدده ٣٨٠ ألفاً ولكن على الورق فقط وعنده أربعة آلاف مدفع واذا استثنى من الجيش العسكري الانكليزي وبعض الآلات كالسيخيين والباتام والفوركا فالجيش الهندي لا يساوى شيئاً. واذا استثنى من الجيش المساعد فيلق مملكة الكواليور لا يساوى شيئاً أيضاً. قال أحد كبارهم: ان هذا الجيش عبارة عن خليط من الأوباش لاعلم له بالتدريب الحربي وليس لديه سلاح منظم وان الاين أو ثلاثة من جيشنا مع بطارية خيالة تمزق شمل خمسين

ألفاً من مثل هؤلاء المحاربين فمجموع هذا الجيش العامل وقدره سبعمائة ألف مع الجيش الاحتياطي هو عبارة عن تضليل يزول كالسراب أو كالدخان عند مداهمة الخطر وتقسم كل ولاية وارداتها مع الولايات العامة على نسبة محدودة وتقوم بنفقات القضاء والمعارف والاشغال العمومية واعانة البائسين ولكل ولاية الحق في أن تستلف نقوداً على واردات خمس سنين تصرفها في الطرق التي تراها نافعة لعمران ولايتها وتقتصد ما تشاء وفي الهند أربع محاكم عالية في بومباي وبنغال والشمال الغربي ومدراس تميز اليها أهم الدعاوى المدنية والجزائية وينتخب أعضاؤها من قبل السلطنة الانكليزية ويقبض كل عضو من مئة ألف الى مائتي ألف فرنك راتباً سنوياً وفي كل حاضرة ولاية محكمة استئناف ومحكمة جزاء نقالة ثم محاكم المقاطعات ويعمدون تارة الى استعمال قانون لندرا واذا وقع اختلاف بين أوروبيين من رعايا انكلترا يطبقون عليهم القانون الهندي وأحياناً قانون الجزاء الانكليزي الهندي

ومأمورو الادارة الملكية عبارة عن ٧٦٥ موظفاً فيكون بذلك موظف واحد لكل ربع مليون ساكن وتحت أيديهم صغار الموظفين من الوطنيين^(١) ومن مبدأ إنكلترا في الهند ان تبقى جميع الوظائف الكبرى في أيدي الاوروبيين وتعطي جزءاً مهما منها للوطنيين ولا ترى الحكومة ان تقبل أحداً من رعاياها الهنود وتجعلهم انكليزاً في جنسيتهم وهم يهزأون بفرنسا التي جنست رعاياها في بوندشيري بجنسيتها وأعطتهم حق الانتخاب لارسال نواب وأعيان .

أما الإمارات الهندية المستقلة فهي منقسمة الى طبقتين تقل في الأولى السلطة الانكليزية عليها ومنها الإمارات الاسلامية التي تركت وشأنها لان ذلك أقل في النفقة عليها ولكن حالتها الى الزوال لادنى اشارة تصدر من الحاكم العام ثم ان أمراء تلك الإمارات الاسلامية هم غرباء ويدينون بدين يكرهه السواد

(١) في الهند ٢٥٠٠ موظف وطني يقبضون مساهمة من ١٢ ألفاً الى ٢٥ ألف فرنك فيكون عدد الموظفين الوطنيين الذين يقبضون من ٣٠٠ فرنك الى ١٠٦٠٠٠ فرنك بنسبة ٩٠ في المئة

الأعظم من رعاياهم فهكذا تجد في مملكة النظام مملكة حيدرآباد الدكن ^(١) تسعة ملايين من البراهمة مقابل مليون من المسلمين وفي سائر الممالك المستقلة ^(٢) خمسون مليون برهمي أما ممالك كوالبور واندور وبارودا فليس لها من المهراتية الا الاسم لأن أمراءها دخلاء عليها . اما ممالك الطبقة الثانية من الوطنيين فتختلف عن هذه كثيراً ومن هذه الممالك ميزور وراجبوتانا ورافانكور وجيبور وجوبور وملوكها من البراهمة ولئن اعتادوا العبودية فذلك لأنهم كانوا الى عهد قريب خاضعين للمهراتيين والمغوليين ولذلك ترى الحكومة من الحكمة ان تضيق خناقهم وهي لا تخافهم ولكنها لا تتركهم اليهم الا قليلاً قال جايمس ستيفن : ان الانكليز في الهند هم نواب تمدن محارب وسلام تدعمه القوة وما من بلاد نظمت شؤونها وحالتها الدعة والراحة مثل الهند البريطانية ومتى خفت شدة الحكومة يكرنظام الهند كأنه مأخوذ بسيل جارف اه . وتنقسم درجات التعليم في الهند الى ابتدائي ووسط وعال وهو النقطة الضعيفة من ذاك البناء الانكليزي الهندي البديع

ان من يسكنون البلاد الواقعة بين نهر الاندوس وشاطيء كوروماديل ويطلقون عليهم اسم الهنود يجب أن يجعلوا من الشعوب التي تشتمل من الغريب وتمادييه شأن كل الشعوب التي لها تاريخ قديم وفلسفة معروفة وتمدن خاص بها وهذا يصدق على الاكثرية من البراهمة كما يصدق على الاقلية من المسلمين فالبراهمة يرون من واجباتهم ان لا يجيدوا قيد شبر عن تعليم أولادهم الصنعة التي يعلمها آباؤهم بالارث وتلقينهم الفروض الاجتماعية والعالمية والدينية التي تصدر عن زعمائهم وان جزءاً من هذا الشعور ليتعلمه الطفل بالفطرة والتقليد وباقيه يحصله في مدرسة قريته أو يأخذه عن رئيسه الديني مع ما يأخذ من آداب

(١) مؤسس هذه الدولة هو من نسل احد قواد اورنك زيب المشهور الذي خلع سنة ١٧٢٤ من سلطة المغول وطامسة مملكته حيدرآباد وهي انكليزية محضة جسيمة البقعة جميلة بين المدائن

(٢) عدد هذه الامارات عشرون امارة وهي ماعدا مملكة باهوبال وباهاوال لاشأن لها من حيث السياسة ودخلها ١٢٥ مليون فرنك

أُمته ودينها فيملاً ذهنه بالترا كيب المهمة والصلوات ولا سيما صلاة الغداة ومعناها
« لنعبد النور السامى من هذه الشمس ربة كل موجود في الوجود الى تقود
فكرنا كما تقود عين معلقة بقبة السموات »

أما التعليم الحديث فان رب الاسرة يدفعه عن أسرته مشمئزاً بقدر ما كان
يشمئز لا وكون من هدايا اليونان ويرفضها ولذلك يعز على البراهمة أن يخونوا
مبادئهم المقدسة وأكثر ما يحذرونه من الامور التى يحملها اليهم الغرب المدرسة
فان شيئاً خفياً فى فطرتهم يدعوهم فى السر : اياكم والمدرسة الانكليزية
فهى عدوتكم

وعلى هذا حارت انكلترا فى سياسة التعليم التى تجرى عليها بين البراهمة لانها
لا تستطيع ان تعلمهم التعليم الاوربي الا اذا أضرت بمعتقداتهم الدينية ومعتقدهم
هو وطنيتهم وهى لا تريد أن يخرجوا عنها حتى ان انكلترا اضطرت سنة ١٨٤٠ ان
تجيب مطالب ثلثمائة ألف رجل اجتمعوا فى سهل بنارس يقيمون الحجة على
الرسوم التى تريد وضعها على البيوت وعزموا أن يهلكوا جوعاً أو تحجيبهم
الحكومة الى الغاء هذه الرسوم فاجابتهم مكرهة مخافة أن يحدث وباء فاذا عادت
روح الاعتصاب وسرت فى أعصاب مائى مليون رجل لمقاومة سياسة التعليم
ماذا تعمل بريطانيا ؟

ولم تر انكلترا أسلم لها من تلقين الهنود مبادئها بالتدريج على أن تعلمهم
ما تعلمه أبناءها فى عاصمة الجزائر البريطانية وتشربهم حب الانكليزية على شرط
أن لا يحميدوا عن جادة الاخلاص لها ولا يسيئوا استعمال المفتاح الذى تسلمهم
اياه ويستخدمونه لفتح الباب فى ايذائها

والمسألة لا تخلو من اشكال أيضاً فيما يتعلق باهل الطبقة العالية من المسلمين
فقد جاء فى احد التقارير عن الهند مانصه : « اذا صرفنا النظر عن الاسباب
الاجتماعية والتاريخية فى الشعب الاسلامى فى الهند نرى لانحطاطهم أسباباً ذات
شأن لها علاقة بتربيتهم التى تؤثر فى حياتهم . » فتعليم الجامع يجب عندهم أن

يكون سابقاً دروس المدرسة ولا يتيسر أخذ الطفل من المسلمين الا بعد أن يقضى بضع سنين في مدرسة يتعلم فيها اللغة العربية والفقه الاسلامي ولكن تعليم المدرسة الدينية يقوده الى أن يختار الخدم الدينية مؤثراً لها على أرباح المسالك والاعمال . وقد أيدت التجارب هذه الملاحظة اذ حدث ان حب الوظائف العامة قد أثر قليلاً في المسلمين في الهند وظلوا يقاومون التعليم الانكليزي كل المقاومة ولحسن ظالمهم لم تمن الحكومة الانكليزية بان تجعل المسلمين أوريين كما صرحت على جعل الهنود كذلك ورأت انكثراً ان تنقذ الطبقة العالية من الهنود من الاوهام القديمة لتستخدم منهم أناساً في الادارة والقضاء والمالية وقد رأى لورد ما كولي سنة ١٨٣٥ على ما فيه من العقل الذي أثر تأثيراً سيئاً في الهند ان من الواجب تعليم اللغة الانكليزية في مدرسة شبان الهنود من أرباب الطبقات المختلفة لترشح التربية الانكليزية من الاعلى الى الادنى وكان يقصد من ذلك ان يأخذ ما يلزم للبلاد من الموظفين من أهل البلاد أنفسهم

وفي سنة ١٨٥٤ أنشأت انكلترا ديوان المعارف العمومية فعنيت بادخال اللغة الانكليزية الى مدارس بنغال وبنارس ونظمت مدارس الوطنيين مع محافظتها لها على صفاتها الخاصة وفي سنة ١٨٥٧ أثمرت البذرة التي وضعها لورد ما كولي في تربة الهند فأُسست ثلاث كليات في كلكتا وبومباي ومدراس على مثال الكليات الانكليزية فيها أنواع الراحة والرفاهية وتدرس فيها الدروس التقليدية وأنشئت في حاضرة كل مقاطعة مدرسة عالية وفي المدن الصغرى مدارس وسطى ثم أنشئت كليات لاهور لاقليم بنجاب والله آباد لاقليم الشمال الغربي وساغ للمتخرجين من تلك الكليات أن يتدرجوا في المراتب مثل من تخرجوا من كليتي اكسفورد وكمبريج .

فتخرج من تلك الكليات أناس من أرباب الذوق والادباء والمشرعين وقل في المتخرجين العلماء اذ لاحظ السير هنري مين ان عقل الهندي المستعد لقبول ما حلا وطاب من المعارف هو محروم مما يتصور من قياس مدقق للحقيقة فالهندي

يجيد التكلم والكتابة والتفكير الدقيق ولكنه متوسط الاستعداد للحساب والارقام وأصبحت الحكومة تبعث الى لندرا بارقي طبقة من متخرجي كليات الهند ليكونوا نموذجاً على اشتغالها وراموزاً لمن طبيعتهم بطابعها فكانت تكرم وفادتهم في لندرا ولم تعقم ألوانهم السمرء وتناسب أعضائهم وعيونهم التي تقدح شرراً وقاماتهم القصيرة وحركاتهم المتناسقة وأمزجتهم الشديدة عن أن يستميلوا قلوب الناس اليهم ونالوا من الكرم البريطاني أنواع الرعاية والعناية وفتح الانجائز لهم أبواب دورهم الانيقة الشريفة كأن كل فرد منهم كان أميراً خطيراً وراجاً كبيراً فأخذوا بما شاهدوا وتكلموا على أجل أسلوب وعاشوا عيش الوطنيين الانجائز وقدروا حق قدره كل مافي الوطنية من الاحترام والامن والشرف والاستقلال العالي .

فكانوا يتعاشرون ويتسامرون ويتعارفون في المجالس الى من يخطبهن من الآنسات الفئانات الشقر البيض ويلعبون معهن أنواع الالعب المألوفة والرياضات الانجائزية النافعة وكانوا في جميع أحوالهم مثال الظرف في ألبستهم والترتيب في قبعاتهم حتى اذا أتموا دور التمرين التي كان كل يوم منها ابتسامة للمستقبل وتشبعوا بهواء الغرب وتبطنوا أسرار فلسفة هربرت سبنسر وشوبانهور ونيتشي وخفقت أفئدتهم بما علمت وتلبس شعورهم بالبدايع وحشيت عقولهم بخطب مجلس النواب الانكليزي - يركبون البحر عائدین الى بلادهم بلاد الشمس والحرية يحملون أجل ذكرى مما رأوه وفي صناديقهم وأصواتهم الاوراق المطيبة والزهرات الذابلة وقطع من الشريط وبعض الفسطين يؤبون والكبر آخذ منهم ويعود محيطهم البرهي يتحيفهم ويرجعون الى سابق أوهامهم وأحقادهم على الادارة الانكليزية التي لم تؤثر فيها كثرة تغذيتهم بمبادئ أصحابها

ولقد شاعت اللغة الانكليزية بين أمراء الهند حتى صارت لهم بمثابة لغة الاسبرانتو في الغرب يتكلم بها الهنود وهم من أجناس مختلفة وأصحاب لهجات متباينة فالتكلمون باللغة السنسكريتية والبراكريتية والبالية والتيلنكا والبنغالية

والهندستانية والمالا كالية والتامولية وغيرها من لهجات الهند يحسنون الانكليزية كأهلها وهذا ما حدا انكلترا ان تضاعف مدارسها وكتاتيبها وكلياتها ثم رأت من الحكمة أن تعتمد على العنصر الاسلامي فاعظمت له مكانته وأقلت من مكانة العنصر البرهمي فزاد ذلك البراهمة تقوراً وأخذوا ينادون في سرهم وجهرهم « الهند للهنديين » وأرادوا محاربة الانكليز حرباً اقتصادية فلم يكن من أبناء جنسهم أناس يكفون للظفر في هذه المعارك فلم يسعهم الا أن يلجؤا للاجانب فكان الألمان وهم الشعب الذي يحاول أن يخلف الانكليز في كل مكان هم الذين مدوا أيديهم للهنود وأصبح ما تخرجه هندهم من بالات القطن وصناديق الشاي وأكياس القهوة يسافر الى ميناء همبورغ بدل منشستر

ثم حدثت مشاغبات وقتل رجال الثورة بعض أعضاء الحكومة فلم يسع انكلترا الا أن تعطى الهند نظاماً جديداً مصبوغاً بالصبغة الديمقراطية أكثر من ذي قبل وأشركت الهنود في سياسة بلادهم واستعملت انكلترا الرفق فيمن دعوا الى الثورة من رجال الصحافة والمحاماة وكان من تقربها من روسيا وتحالفها مع اليابان أكبر مفتر لهم الهنود عن نزع أيديهم من يد حكومتهم أما المسلمون الذين رأت بريطانيا بعد حين ان تعتمد عليهم فقد تحركت نفوسهم وأدركوا قصورهم خصوصاً عند مارأوا اخوانهم شبان العثمانيين الأحرار الذين حرروا المملكة العثمانية من السلطة الاستبدادية كل هذا ليصدق على سكان الهند ما قاله أخذ المفكرين من رجال السياسة الانكليزية « سيبقى الشعب الهندي على الدوام شاهداً ناطقاً بالماضي غير ممسوس بيد الغرب الا مساً خفيفاً » ومحاولة تجديد شبابه هو من الغلط وقلة الخبرة اه .

هذا وصف لادارة حياة الممالك في أكبر مستعمرة لا كبر دولة وقد كانت الهند مدة قرن ملك شركة تستثمرها بمراقبة ^(١) مكتب تعينه الحكومة ويقيم في لندرا وبعد ثورة السيپاي سنة ١٨٥٧ انحلت الشركة وجعلت تحت ادارة

الحكومة مباشرة . وأصبح مكتب المراقبة وزارة الهند التي مازالت تؤلف دائرة على حدتها غير وزارة المستعمرات . وسموا الهند أمبراطورية وجعلوا الملكة فيكتوريا ملكة انكلترا اذ ذاك أمبراطورتها وذلك سنة ١٨٧٧ وما زال ملك بريطانيا العظمى يقرن الى القابه لقب « أمبراطور الهند »

لم تعدل كما رأيت في الفصل الذي سلف الادارة الانكليزية الا ببطء شديد والتبديل الذي وقع حتى الآن في الاصول القديمة لم تغير من طبيعته فان الشركة الانكليزية أتمت عمل الادارة المفولية وما إدارة الهند كما قال أحد رجال انكلترا الا أشبه بإدارة والد مستبد يملك في الجملة جميع الأرض ويرى من واجبه أن يقوم بواجب أعمال صاحب ملك غنى وذكي . وفي الهند اليوم مائة ألف جندي وضابط وموظف من الانكليز يقبضون رواتب مهمة ويقضى على رجال الادارة ان يحسنوا اللغة الوطنية لأن الترجمان لا يعبر عن فكر المترجم عنه وله وقد يرتكب الفلظ عن قصد فيؤث الاوربي بتبعة ذلك أمام المرؤوس أو المتقاضى والهنود يجدون من رجال الادارة عدلا وفضل شرف فيما قيل . وعمال الهند من الانكليز موسع عليهم في المشاهرات فيبدأ أحدهم براتب ثمانية أو عشرة آلاف فرنك في السنة ثم يزيد بسرعة حتى ان من يصل الى مرتبة راقية في الجملة يتقاعد في سن الخامسة والاربعين وينال راتباً سنوياً قدره ألف جنيه ويعود الى انكلترا مستريحاً ويقبض نائب ملك الهند ٤٣٠ ألف فرنك مساهمة . ورواتب الموظفين في المستعمرات الانكليزية باهظة خلافاً لسائر الامم في مستعمراتها التي تتوخى الاقتصاد فلا يدخل في خدمتها الكفاة من أهل الطبقات المختارة .

ويعيش ضباط الانكليز وعمالهم في الهند في عزلة عن الوطنيين لا يختلطون بهم ولا يساكنونهم ولا يقبلونهم في أنديتهم . وبعض الفنادق تقفل في وجوه الوطنيين حتى المتخرجين في الجامعات الانكليزية منهم ويحظر على الدارسين من الوطنيين في محطات السكك الحديدية أن يدخلوا غرفة الانتظار بل هي خاصة بالانكليز والاوريين . ولكثير من شركات الخطوط الحديدية مركبات خاصة

بالبيض وأخرى مقصورة على غيرهم من الوطنيين . والتمييز بين الغربي والشرقي ماثل هناك للبيان في كل حال وشأن . ونسبة الوطنى الى الاوربي في الهند كنسبة الخادم الى سيده والعامل الصغير الى مديره . وصفار الموظفين من الهنود لا يلقون أمرهم الا في حالة من الخضوع كأن يفضوا من أبصارهم ويضعوا أيديهم على صدورهم قال ميتين : ان كل من ذهب من الهنود الى أوربا أو نظر في الاخلاق الغربية يتألم من القسوة البريطانية ويثنى على سهولة الاستقبال التى يجدها المرء فى قارة أوربا . ولقد لقينا في رحلتنا مجاميا شاباً مسلماً كان يتأسف على ألمانيا ويقول ان الالمان أكثر الأمم بشاشة وجذلاً فلا نكاد تصل الى حانة الجمعة فى بلادهم حتى يوجهوا اليك الخطاب ويضعوا لك الأسئلة ويجيبوك على أسئلتك . ولا يقبل فى المجتمعات الانكليزية من الوطنيين الامن بلغوا درجة عالية من الشرف والغنى كالأمراء والاقبال مثلاً وأبناء الرسول وكبار تجار المدن الكبرى وقليل من كبار الموظفين الهنود وذلك فى مجتمعات من يفوقونهم فى درجاتهم وقد تشاهد بعض أغنياء من التجار فى الردهات الانكليزية وذلك فى المدن التى اختلط أهلها منذ القديم مع الغربيين مثل بومباي ومادراس وكلكتوتا . بيدان تعز الانجليز من الداخلين عليهم ظاهر على أئمة فلا يكون الوطنيون الا بمعزل ويحظر على الانجليزى أن يتزوج بهندية ومن يفعل ذلك يقضى عليه ان كان موظفاً أن يستقيل أو يقال . والتسرى مع الوطنيات نادر مكتوم فى بعض المدن . اليك جملة حال الهنود مع مستعمرهم وليس استعمار الانجليز حسنات كله ولا سيئات كله ففيه الجيد وفيه دون ذلك . ومن المحقق الثابت ان الهند ارتقت ارتقاء محسوساً فى عهد حكومتهم شأن معظم مستعمراتهم ونشروا لغتهم بينهم مع الزمن الطويل ولكن كل وطنى من الهنود لا يروقه الا أن يرى بلاده مستقلة عن كل سلطة أجنبية .

الاندلس

صدر الكلام ومصادره



زرت ^(١) في الشتاء الماضي (١٣٤٠ - ١٩٢٢) بعض أمهات مدن الاندلس فأرادني غير واحد من الاحباب على أن أحدثهم بطرف مما شاهدت في ربوعها من بقايا حضارة العرب ، فأجبتهم الى رغبتهم ، شاكراً حسن ظنهم ، وقد رأيت أن أشفع مشاهداتي ، بشيء من مطالعاتي ، عن هذا القطر ليتعرف القارئ من الغابر ، وجه الحاضر ، ويقيس في الجملة ما كان هناك في عهد أمتنا ، على ما هو كائن اليوم في عهد غيرهم ، أذكر ما أثره العرب في تلك القاصية من حضارة ، وأثله من مجد خالد على جبين الدهر ، والسبب الذي به ارتفعت الأندلس حتى عدت أرقى مملكة في عهد شبابها ، والاعراض التي عرضت لها ، فهرمت فزال سلطانها ، وتداعى عمرانها ، وابتذر سكانها ، وربما تقعت في الاخلاف ، سيرة الاسلاف ، خصوصاً في أرض لم يكتفوا بأن فتحوها ، بل عمروها وتديروها ، وحكموها واحكموها ، ومدارسة حياة الأجداد ، تربي أخلاق الابناء والاحفاد ، يصيبون فيها حكمة بالغة ، وموعظة حسنة ، والتاريخ يلقي الفكر الجديد ، وينير الطريف بالتليد ، والله وارث الأرض ومن عليها .

وهاك ما رجعت اليه من الكتب والرسائل في تأليف الفصول التالية ، ومنه تعالى أستمد المعونة ومن الراسخين في العلم تصحيح ما عساهم يعثرون عليه من الهفوات .

(١) طبقات الأمم لصاعد الأندلسي « طبع بيروت » (٢) نفع الطيب للمقري

(١) نشرت أولاً في المجلد الثاني من مجلة المجمع العلمي العربي

« مصر » (٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشي « ليدن » (٤) قلائد
العقيان للفتح بن خاقان « مصر » (٥) مطمح الاتقاس له « الاستانة » (٦) البيان
المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى « ليدن » (٧) الاحاطة في أخبار غرناطة
للسان الدين بن الخطيب « مصر » (٨) رقم الحلل له « تونس » (٩) الحلل الموشية
له « تونس » (١٠) معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار له أيضاً « فاس »
(١١) طوق الحمامة في الألفة والالاف لأبي علي بن حزم الأندلسي « ليدن »
(١٢) الذخيرة في شعراء الجزيرة لابن بسام « مخطوط » (١٣) أخبار العصر
في انقضاء دولة بني نصر « مونيخ » (١٤) التعريف بالمصطلح الشريف لابن
فضل الله العمري « مصر » (١٥) المسالك والممالك لابن حوقل « ليدن » (١٦)
أحسن التقاسيم للمقدسي « ليدن » (١٧) كتاب البلدان لابن واضح اليعقوبي
« ليدن » (١٨) تقويم البلدان لأبي الفدا « باريز » (١٩) أخبار مجموعة في فتح
الأندلس وذكر أمراءها رحمهم الله والحروب الواقعة بينهم « مجريط » (٢٠) الجزء
الثاني والعشرون من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري وفيه أخبار
ملوك الأندلس من العلويين والأمويين ومن ملك بعد بني أمية الى حين انقراض
الدولة العبادية « غرناطة » (٢١) الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية « الجزائر »
(٢٢) كتاب محمد بن تومرت مهدي الموحدين « الجزائر » (٢٣) عنوان الدراية
فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة بيجاية للغبريني « الجزائر » (٢٤) المؤنس
في أخبار إفريقيا وتونس لابن أبي دينار « تونس » (٢٥) ديوان ابن حمديس
الصقلي السرقوسي « رومية » (٢٦) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي « ليدن »
(٢٧) العيون والحداث في أخبار الحقائق « ليدن » (٢٨) تاريخ المسعودي
« باريز » (٢٩) تاريخ الكامل لابن الأثير « مصر » (٣٠) تاريخ ابن خلدون
« مصر » (٣١) الحلة السيرة لابن البار « ليدن » (٣٢) كتاب القضاة بقرطبة
للخشني « مجريط » (٣٣) تكملة التكملة لابن البار « مجريط » (٣٤) التكملة
لكتاب الصلة لابن البار « الجزائر » (٣٥) صبح الأعشى للقلقشندي « مصر »

- (٣٦) معجم البلدان لياقوت الحموى « ليبسيك » (٣٧) المكتبة العربية الاندلسية وفيها ستة كتب وهى الصلة لابن بشكوال ، وبغية الملتبس لابن عميرة الضبي والمعجم لابن الابار والتكملة لكتاب الصلة لابن الابار وتاريخ علماء الاندلس لابن الفرضى وفهرست ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة فى ضروب العلم وأنواع المعارف أبو بكر بن خليفة الأموى الاشبلى نشرها المستشرقان الاسبانيان كوديرا ورييرا «مجريط» F. Codera et J. Ribera : Bibliotheca Arabico - Hispana (Madrid) (٣٨) المكتبة العربية الصقلية لميشيل آمارى « ليبسيك » (Leipzig) M. Amari : Bibliotheca arabo - sicula (٣٩) محاضرة ابن زيدون لأحمد زكى باشا نشرت فى السنة الثانية من مجلة البيان « مصر » (٤٠) السفر الى المؤتمر لاحمد زكى باشا أيضاً « مصر » (٤١) قصيدة ابن عبدون وشرحها لابن بدرون « ليدن » (٤٢) رسالة ابن زيدون وشرحها للصفدى (٤٣) ترجمة ابن عباد « ليدن » (٤٤) ترجمة ابن زيدون « ليدن » (٤٥) ترجمة ابن عبدون وملوك بنى الألفطس « ليدن » (٤٦) قاموس الاعلام لشمس الدين سامى « تركى طبع الاستانة » (٤٧) مجلة المقتطف (٤٨) مجلة المقتبس « مصر والشام » (٤٩) دائرة المعارف الاسلامية « ليدن » Encyclopédie de l' Islam, Leyde (٥٠) تاريخ مسلمي اسبانيا لدوزى « باريز » Dozy : Histoire des Musulmans d' Espagne, Paris (٥١) التاريخ العام للأفيس ورامبو « باريز » Lhuissie et Rambaud : Histoire générale. Paris (٥٢) تاريخ العرب والمغاربة فى اسبانيا والبرتقال لكونده « باريز » J. Conde : Histoire de la domination des Arabes et des Maures en Espagne et en Portugal, Paris (٥٣) تاريخ العرب العام لسيديليو « باريز » : Sedillot : Histoire générale des Arabes, Paris (٥٤) تاريخ العرب لحوار « باريز » C. Huart : Histoire des Arabes. Paris (٥٥) عمالة فى تحليل نفوس الشعوب الأوربية لقوليه « باريز » Fouillée : Essai d'une psychologie des peuples européens. Paris (٥٦) المخطوطات العربية

- في الاسكوريال لهارتويغ دارنبورغ (باريز) Hartwig Derenbourg : Les
 manuscripts arabes de l'Escorial, Paris (٥٧) الصنائع في اسبانيا
 لذكوميز مورينو «مجريط» Gómez-Moreno: El arte en Espana «Madrid»
 (٥٨) الكتابات العربية في غرناطة لاميليو لافوانتي أي الكنترارا «مجريط»
 Emilio Lafuente y alcántara : Inscripciones arabes de Grenada
 «Madrid» (٥٩) دليل اسبانيا والبرتقال لبيدكر «ليبسيك» Baedeker :
 Espagne et Portugal, Leipzig (٦٠) بحث وصفي لمصانع العرب تأليف
 رافائيل كوفروراس «مجريط» Raphaël Contreras : Études descriptives
 des monuments arabes, Madrid (٦١) تاريخ الأديان العام لسلمون ريناخ
 «باريز» Salomon Reinach; Histoire générale des religions, Paris
 (٦٢) اسبانيا في القرن العشرين لمارفو «باريز» Marvaud : L'Espagne au
 XIXe siècle, Paris (٦٣) الاسبانيون والبرتقاليون في بلادهم لكيلاردى «باريز»
 Quillardet : Espagnols et Portugais chez eux, Paris (٦٤) اسبانيا
 والبرتقال مصورتان «باريز» L'Espagne et le Portugal illustrés, Paris
 (٦٥) دائرة المعارف الافرنسية الكبرى «باريز» La grande encyclopédie
 française, Paris (٦٦) معجم لاروس المصور «باريز» Nouveau Larousse
 illustré, Paris (٦٧) بحث في حياة ابن زيدون لاوغست كور «الجزائر»
 Auguste Cour : Ibn Zaidoun, Alger (٦٨) تعليم اللغة العربية في اسبانيا
 لميكائيل آسين بلاسيوس «الجزائر» M. Asín Palacios : l'enseignement
 de l'arabe en Espagne, Alger (٦٩) معجم الكل في واحد أو موسوعات
 العلوم البشرية Tout en un: Encyclopédie des connaissances humaines
 (٧٠) دستور في الصنائع الاسلامية لسالادين وميجون : Saladin et Migeon :
 Manuel d'art musulman (٧١) معجم الالفاظ الاسبانية والبرتقالية المشتقة
 من العربية لانجلمان «ليدن» Engelmann : Glossaire des mots espagnols
 et portugais dérivés de l'Arabe, Leyde (٧٢) معجم الالفاظ الاسبانية

العربية لريتوانجن «مادريد» Rittwagen : De Filologia Hispano Arabica
« Madrid »

نحية الاندلس

٨٩

عشقتها ولم تسعدني الايام بامتاع النظر في جمالها ، واستطلعت طلع أخبارها ،
فروى الرواة عنها عجائب اقلها مما يستهوى النفوس المتمردة ، يأخذ بمجامع القلوب
الجافة العاصية ، تقردت بين بنات جيلها بما خصت به من معاني الحسن والاحسان ،
فكثر الخطاب والطلاب ، وهي لا تقفأ تبدي لمن أم حماها صنوفاً من اللطف
والظرف ، وتخطب البعيد والقريب بشعر باسم ، وترشقهم بنظرات ، لا تخلو من
غمزات ، تريد بها الهزوء بنكبات الزمان ، والاستخفاف بسخافة الانسان .

عشقتها منذ عهد الصبا ، وعشق الصبا شديد ، لما قرأته الباصرة من وصف
سجايها وحملته الى البصيرة ففكرت فيه ، وتدبرت خوافيه وحواشيه ، وزادني
غراماً بها ما سمعت من أن أناساً قبل أضيبيوا بما أصبت به ، وعدوا النزول في حماها
ولو ساعة سعادة العمر ، وحسنة الدهر : العشق فنون وعشقي كان لأرض الاندلس
عليها من كل عربي ألف ألف سلام ، على مر العصور والأيام .

عشقتها لكثرة ما تلوت من آثار من درجوا على أديمها من أبنائها وغير أبنائها ،
وكانت المخيلة تتصورها في مظاهر صبح بعضها يوم اللقاء ، وآخر كان بالطبع كالخيال ،
في الاندلس تم نحو نصف مدنية العرب الباهرة ، وقضوا في أرجائها نحو ثمانية
قرون كانت بجملتها وتفصيلها عهد السعادة والغبطة ، ودور ظهور النوابع وأرباب
الابداع والقرائح ، وكم من أمة من أمم الحضارة الحديثة على كثرة ما اقتبست
وأوجدت ، لم يتيسر لها حتى يوم الناس هذا ان تبلغ مكانة الاندلس ، فكان هذا
الصقع في منقطع أرض المغرب ، وآخر أرض العرب ، بين البحرين المحيط والمتوسط
برهاناً أزلياً على فرط استعداد العرب للعلوم والصناعات ، وناعياً على من أنكروا
لافراطهم في الشعوبية فضل هذه الأمة على الحضارة .

أقام الغريون ضروبا من المصانع من بيع وأديار ومتاحف ومكاتب ومدارس وجسور وسدود وطرق ومعابر وتماثيل ونصب وبرك ، لكنهم لم يصنعوا على كثرة تفننهم في هذا الشأن ، منذ عهد اليونان والرومان ، طرزا من البناء يكلمك ولا لسان له فيقول ، وينظر اليك فيعجل في شفاف قلبك ولا عين له فتتظر ، ويطربك بتساوق نغماته من دون فاصناجة ولا وتر ولا ألحان . مصانع كثيرة بقيت بقاياها في طليطلة وقرطبة واشبيلية وغرناطة سلبتها الفتن والجهل تارة شطراً من بهائمها ، وسالمتها حيناً فابقت عليها ، أو رمت شيئاً مما أضرت به عوامل الأيام وإن لم تعد اليها نضرتها الأولى .

سلام على أرض طيبة خصها الخالق باجل الهبات الطبيعية ، فلم ينقصها زكاء تربة في نجادها ووهادها ، ولا مياهاً عذبة دافقة من هضابها على شعابها ، ولا أشجاراً باسقة وزروعاً خصبة في سهلها ووعرها ، ولا اعتدال مواسم وجمال اقليم ، ومصحة أبدان زانها الصانع السماوي بإيجاده كما زانها الصانع الأرضي بأبداعه ، وما أجهل الطبيعي والصناعي ، إذا تواعدا الى الاجتماع في خير البقاع . ليالى الأنس ، في جزيرة الاندلس ، وأيامها الغر ، في سالف الدهر ، فيك قامت سوق الآداب ، بما ارتفعت به رؤوس العرب على غابر الاحقاب ، وكل في ربوعك الذوق العربي حتى ظن بعضهم انك نسيت كل شيء ماعدا الأدب ، وما هذه الآثار الأبدية الاثمرة علمك وصناعاتك وزراعاتك : سلام على أرواح علمائك وفلاسفتك ونوابغك وأدبائك وأمرائك ما كان أرجح أحلامهم ، يوم سنوا للعرب سنة الأخذ من السعادتين ، وشرعوا لهم شرعة المدنية المثلى ، حملوا فأجملوا من الشرق الى الغرب تعاليم في الدين والدنيا كانت صفوة العقول الى عهدهم فادهشوا من عاصرهم ، وخلفهم من الاجيال ، ونسجوا لهم على غير مثال نسيجاً رقيقاً ، كتبوا لهم فيه سجلا رقت حواشيه ، ونظاماً متقناً في حكم الانسان للانسان ، يطبع في تاليه اذا تدبره ، طبيعة حسن الذوق والطبع ، وينشئه على أرق مثال من الخيال في الكمال والجمال . مثال حي من حضارة العرب في القارة

الأوربية عامة . وفي شبه جزيرة اسبانيا خاصة ، يفتخر به العرب على اختلاف أصقاعهم وحق لهم الفخر ، لأن الأندلس العربية الإسلامية كانت وما زالت مدرسة الغرب المسيحي ، نزل طلابه في قرونها المظلمة على علماء العرب فأوسعهم من مكارم أخلاقهم ، وأكرموا منوهم بما علموهم ، وما أسخى العربي على طالب قراه ، والمعتصم بحماه ، فلما جاء دور الانحطاط ، وازف رحيل ذاك الرعيل ، من أرض كان الغرب كله يعدهم فيها أثقل دخیل ، أبقوا لهم تلك المصانع ناطقة بفضلهم معلمة لهم معاني ليست في معاجم تفائسهم ، ومكذبة على غابر الأيام من ينكر المحسوس . ويغبط الحق لصاحبه ، ويستهو به الغرض ، فيشوه وجه الحق الجميل .

الى اليوم لم يزل في الغربيين أناس يصعب عليهم الاعتراف بمزية للعرب يباعث من بواعث النفوس اللثيمة ، فلا يكادون يصدقون حتى بما ورد عن هذه الأمة في كتبهم دع كتبها من أعمال هذه الحضارة الغربية ، وما ذاك الاثر الضئيل الباقي من عادات الاندلس العربية ، الا برهان جلي على ما كان هناك من عدل شامل ، وعقل كامل ، ونظر نافذ ، ويد صناع ، أربت على ما عمل من مثلها في سائر البقاع والاضقاع

تقويم الاندلس

٩٠

أخذت العرب اسم الاندلس من اسم سكانها الأصليين الفانداليس Vandales فقالوا فاندالسيا أو فاندالوزيا Vandalitia أو Vandalusia وأطلقوا عليها اسم الجزيرة من باب التغليب فقالوا جزيرة الاندلس كما قالوا جزيرة العرب وما هي في الحقيقة الا شبه جزيرة لاتصالها من أقصى الشمال بمجال البيرنات أو الشنايا كما كان يعرفها العرب ، قدروا القسم الجنوبي من شبه جزيرة فانداليس أو أبيريا

أو اسبانيا بمسيرة ثلاثين يوماً طولا وزهاء عشرين يوماً عرضاً يحدها البحر من أطرافها الأربعة إلا من الشمال الشرقى . وميزان وصف الاندلس كما قال ابن سعيد: انها جزيرة قد أهدقت بها البحار فأكثر فيها الخصب والعمارة من كل جانب . والاندلس في عرف أهلها اليوم عبارة عن ثمانى ولايات ولاية المرية وولاية قادش وولاية قرطبة وولاية غرناطة وولاية حولنا ؟ وولاية جيان وولاية مالقة وولاية أنبيلية ومساحتها السطحية ٨٦٦٨٧ كيلو متراً مربعاً وسكانها زهاء أربعة ملايين فهي نحو خمس اسبانيا الحالية بسكانها ونحو سدسها بمساحتها السطحية . هذا ما يطلق عليه اليوم اسم الاندلس بيد ان حكم العرب تجاوز ذلك الى برشلونة وما وراءها من الشرق والى لشبونة وما جاورها في الغرب ولم يبق في أيدي الاسبانيين والبرتغاليين من هذه الجزيرة التى تبلغ مساحتها زهاء نصف مليون وأربعة آلاف كيلومتر مربع سوى أراض مصخرة ضئيلة من الشمال تعرف ببلاد الجلالقة وآستوريا .

فالعرب لم يملكوا اذاً الجزيرة بأسرها حين افتتحوها وانما ملكوا معظمها ولذلك لا تعرف مساحة الاندلس العربية على التحقيق ويقول المسعودى ان ان مسيرة عمائر الاندلس ومدنه نحو من شهرين ولهم من المدن الموصوفة نحو من أربعين مدينة وقال غيره ان فى أرض الاندلس العامر والفاخر فكانت من ثم مساحة الاندلس تختلف بحسب تغلب العرب على أعدائهم أو تغلب أعدائهم عليهم وكم من الاقاليم والمدن فى الشمال والغرب والشرق دخلت مرات فى حكم العرب ثم خرجت عنهم فقد كان عملها لعبد الرحمن بن معاوية فى القرن الثانى ثلاثمائة فرسخ فى ثمانين ثم صغرت فى القرن الثامن حتى أصبحت — كما وصفها العمرى — كمنحصر القطاة ضيقاً ، ومدرج النمل طريقاً .

لا جرم أن مقام العرب فى الاندلس كان غير طبيعى لمجاورتها لأمم قوية الشكيمة مخالفة لها فى الجنس واللسان والدين حتى ان صهر بن عبد العزيز لماولى السمع بن ملك عليها أمره أن يكتب اليه بصفتها وأنهارها وكان رأيه انتقال أهلها

منها لا تقطاعهم عن المسلمين قال المؤرخ وليت الله كان أبقاه حتى يفعل فان مصيرهم الى بوار الا أن يرحمهم الله .

وصف المراكشي ما كان في أيدي الاسبان والبرتغال من أرض الاندلس سنة ٦٢١ هـ فقال أول المدن في الحد الجنوبي الشرقي على ساحل البحر الرومي مدينة برشونة (برشلونة) ثم مدينة طركونة ثم مدينة طرطوشة والمدن التي على غير الساحل في هذا الحد المذكور مدينة مرقسطة ولاردة وافرغة وقلعة أيوب هذه كلها يملكها صاحب برشونة وهي الجهة التي تسمى ارغن . وفي الحد المتوسط ما بين الجنوب والغرب مدينة طليطلة وكونكة وافييج وطلبيرة ومكادة ومشرط (مجريط ؟) ووبذ وايلة وشقوبية هذه كلها يملكها الادفنش وتسمى هذه الجهة قشتال . وتجاور هذه المملكة فيما يميل الى الشمال قليلا مدن كثيرة أيضاً وهي سمورة وشلنكة والسبطاط وقلورية هذه كلها يملكها رجل يعرف بالبيوج وتسمى هذه الجهة ليون . وفي الحد المغربي الذي هو ساحل البحر الأعظم اقيانس مدن أيضاً منها مدينة الاشبونة وشنترين وباجة وشنتره وشنتيافو وبابرة ومدن كثيرة يملكها رجل يعرف بابن الريق ووراء هذه المدن مما يلي بلاد الروم مدن كثيرة ثم ذكر ما يملكه المسلمون لعهد من الاندلس فاورد حصن بنشكة وطرطوشة وبلنسية وشاطبة وجزيرة الشقر ودانية ومرسية وغرناطة وحصون لرقه وبلش وقلية وبسطة ووادي آش والمرية وحصن منكب ومالقة والجزيرة الخضراء .

وقوم القلقشندي الاندلس في المئة الثامنة فقال ان الاندلس أقامت بأيدي المسلمين الى رأس الشمئة سنة من الهجرة ولم يبق منها بيد المسلمين الا غرناطة وما معها من شرق الاندلس عرض ثلاثة أيام في طول عشرة أيام وباقي الجزيرة على سعتها بيد نصارى الفرنج وان المستولي على ذلك منهم أربعة ملوك الأول صاحب طليطلة وما معها ولقبه الادفونش سمى على كل من ملك منهم وعاصمة المغاربة يسمونه الفنس وله مملكة عظيمة وعمالات متسعة تشتمل على طليطلة وقشتالة واشبيلية وبلنسية وقرطاجنة وجيان وجليقية وسائر أعمالها . الثاني صاحب لشبونة

وما معها وتسمى البرتقال ومملكته صغيرة واقعة في الجانب الغربي وهي تشمل على لشبونة وغرب الاندلس. الثالث صاحب برشلونة وارغن وشاطبة وسرقسطة وبلنسية وجزيرة دانية وميورقة . الرابع بيرة وهي بين عمالات قشتالة وعمالات برشلونة وقاعدته مدينة ينبلونه ويقال لملكها ملك البشكنس .

هذا في الجملة تقويم الاندلس في القديم وكلما توغلت في سميت الشمال صعب المرور لكثرة الجبال وترامى المسافات وهي اليوم في الخطوط الحديدية سهلة في الجملة فاذا جئت من مدينة باريز وهو الطريق الذي سلكناه تصل الى مجريط في ست وعشرين ساعة وهي ١٤٤٥ كيلومتراً ومن مجريط الى قرطبة ٤٤٢ كيلومتراً ومن قرطبة الى اشبيلية ١٣١ كيلومتراً ومن غرناطة الى جبل طارق ٣٠١ كيلومتر ويتأني اختصار هذه المسافات اذا كانت القطر تقصد الى البلاد مباشرة بدون تنقل أو تعاريج ولكن تقل فيها الخطوط المستقيمة والقاطرات .

فتح الاندلس

٩٠

لما فتح موسى بن نصير مولى بنى أمية أفريقية وما حولها أي تونس وما ورائها سنة ثمان وسبعين للهجرة وبلغ طنجة سار يريد مدائن على شط البحر وفيها عمال صاحب الاندلس قد غلبوا عليها وعلى ما حولها . وكان يليان أحد ملوك الاندلس لموجدة وجدها على بعض الملوك من قومه في تلك البلاد بعث بالطاعة لموسى ، وأقبل به حتى أدخله المدائن بعد أن اعتقد لنفسه ولاصحابه عهداً رضيه ، واطمأن اليه ، ثم وصف له الاندلس ودعاه اليها فبعث رجلاً من مواليه يقال له طريف في أربعائة رجل ومعهم مائة فارس فصار في أربعة مراكب حتى نزل جزيرة سميت به لنزوله فيها ، وكانت هذه الجزيرة معبر مراكبهم ودار صناعتهم ،

فاغار على الجزيرة فأصاب شيئاً ورجع سالماً وذلك سنة احدى وتسعين . ثم دعا موسى مولي له يقال له طارق بن زياد فبعثه في سبعة آلاف من المسلمين ، جلهم من البربر والموالي ليس فيهم عرب الا قليل ، فدخل في تلك السفن الاربع في سنة اثنتين وتسعين وأخذت السفن الأربع تختلف بالرجال والخيول وضمهم الى جبل على شط البحر منيع فنزله وسمى به جبل طارق والمراكب تختلف حتى توافي جميع أصحابه .

ولما بلغت ملك الاندلس رذريق صاحب طليطلة غارة طريف على الاندلس جمع جموعه قبل مائة ألف أو شبه ذلك فبعث موسى على سفن كثيرة ، كان عملها بخمسة آلاف مقاتل فتوافي المسلمون بالاندلس عند طارق اثني عشر ألفاً ومعهم يليان في جماعة من أهل البلد يدلهم على العورات ، ويتجسس لهم الأخبار ، فالتقى رذريق صاحب طليطلة وطارق بن زياد بموضع يقال له البحيرة فانهمزم رذريق ثم مضى طارق الى مضيق الجزيرة فمدينة استجة ، وحارب فلّ العسكر الأعظم وهزمه ثم ورد طارق عيناً من مدينة استجة على نهرها على أربعة أميال فسميت العين عين طارق ، وفرق جيشه فأرسل فرقة الى قرطبة ، وأخرى الى رية ، وثالثة الى غرناطة ، وسار هو في عظم الناس يريد طليطلة ، ففتحت كلها وكذلك مدينة تدمير ، وأسر أحد ملوك الاندلس ومنهم من اعتقد على نفسه اماناً ، ومنهم من هرب الى جليقية في الشمال ، ثم سار طارق حتى بلغ طليطلة ، وخلي بها رجالاً من أصحابه ، فسلك الى وادي الحجارة ثم استقبل الجبل فقطعه من فج يسمى فج طارق . وفي سنة ثلث وتسعين دخل موسى بن نصير في ثمانية عشر ألفاً من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر وقد بلغه ما صنعه طارق بن زياد فحسده وخشى أن ينال شرف الفتح دونه أمام الخليفة من بني أمية . فلم يلبث ان فتح من المدن ما لم يفتحه طارق مولاه فافتتح مدينة شذونة وقرمونة واشبيلية وحاصر هذه أشهراً فهرب أهلها الى مدينة باجة فمضى موسى الى مدينة ماردة وقتلهم عليها أشهراً فصالحه أهلها على أن جميع أموال القتلى وأموال الهاربين الى جليقية للمسلمين

وأموال الكنائس وجليها له ثم افتتح مرقسطة ومدائها .
ذكروا أن المسلمين انتهوا الى مدينة لوطون قاعدة الافرنج ، ولم يبق لاهل
الاسلام شيء لم يتغلبوا عليه مما وراء ذلك الا جبال قرقوشة وجبال بنبلونة
وصخرة جليقية ، فاما الصخرة فلم يبق فيها مع ملك جليقية الا ثلثمائة رجل تلفوا
بالموت والجوع والحصار فلما لم يبق منهم الا ثلثمائة رجل ورأى ذلك المرتبون
على حصارهم استقلوهم فتركوهم فلم يزلوا يزدادون حتى كانوا سبب اخراج المسلمين
من جليقية وهي فشتيلية .

هذه زبدة مما قاله المؤرخون في فتح الاندلس ولا شك أن قرب سواحلها
من شواطئ أفريقية قد ساعد العرب كثيراً على هذا الفتح فان المجاز أو الزقاق
كما كان يسميه العرب بين البرين بر العدو (١) وبر الاندلس قريب جداً يسهل
معه نقل الدخائر والجيش من أفريقية وذلك لأن الزقاق في موضع يعرف بجزيرة
طريف من بر الاندلس يقابل قصر مصمودة بازاء سلا في الغرب الأقصى وعرضه
اثنا عشر ميلاً ومن الجزيرة الخضراء في الاندلس الى مدينة سبتة ثمانية عشر ميلاً .
وبالباخرة تقطع المسافة اليوم من الجزيرة الخضراء أو جبل طارق الى طنجة فرضة
الغرب الأقصى في نحو ثلاث ساعات .

وأنت ترى ان معدات الفتح عند العرب كانت قليلة ومع هذا استصفوا الاندلس
في مدة وجيزة ، وذلك لأن الاختلاط القديم المستحكم للجوار بين أهل الاندلس
وبين أهل شمال أفريقيا وتغلب الاندلسيين أحياناً على بلاد البربر أي الغرب
الأقصى والأوسط ، قد هباً لسكان البلاد بل لقوادها وحكامها من العرب أن
يعرفوا معالم الاندلس ومجاهلها ، ويقفوا على مواطن الضعف من حكوماتها .

(١) العدو بضم العين المكان المتباعد ويطلق العرب بر العدو على ما سامت الاندلس من شمال
افريقية وبعد عن بلادهم ويعنون بالعدو المغرب الأقصى والأوسط والأدنى أي مراکش والجزائر
وتونس . وقال صاحب التاج وبر العدو بالاندلس واليه نسب شهاب الدين بن ادريس العدوي
عن قاسم بن اصبح قيده الرشاطي . ولعل العدو هذه بلدة من بلاد الاندلس ليست مشهورة
والمشهورة ان العدو كما قلنا وايدى علماء الجغرافيا من العرب .

فقد جاؤوها والاختلاف بين ملوكها على أشده والبلاد قد جاعت قبل مجيئهم ثلاث سنين (من سنة ثمان وثمانين الى سنة تسعين) ثم وبئت حتى مات نصف أهلها أو أكثر. وإذا صح ان الملك الاعظم في طليطلة جيش على العرب مئة ألف مقاتل وهو مستبعد فان جيش موسى بن نصير البالغ اثني عشر ألفاً قد تغلب عليه لا بعدده بل بما للعرب من الاضطلاع بأمر الحرب هذا وأهل البلاد كانوا في الجملة يريدون الخلاص مما هم فيه من سوء الحال ولا سيما اليهود فانهم كانوا قبل بضع سنين قد ذاقوا الامر من حكوماتهم ومواطنهم المسيحيين فلما جاء العرب الفاتحون كانوا أدلاءهم وأكبر رداء لهم لعلمهم بأنه ينفس خناقمهم بالماتحين. وكان المسلمون كلما دخلوا بلداً جعلوا نصف حاميته من اليهود والنصف الآخر منهم. ثقة في ابناء اسرائيل وضعها المسلمون فيهم مدة كونهم في الاندلس.

تولى البلاد المفتوحة عمال الدولة الاموية في الشرق وتعاقب عليها قوادهم ومواليهم منذ سنة ٩٢ هـ وخطب باسم خلفائهم على منابرهم خطب مدة قليلة للعباسيين^(١) بعد سقوط دولة الأمويين بالشرق حتى اذا كانت سنة ١٣٨ جاء من الشرق هاربا عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المسمى بالداخل فتغلب بواسطة جماعة من أهل بيته وموالي آل مروان وبماله من العصبية في قبائل زناتة أخواله، وكانت والدته منهم حتى استولى على الاندلس، وبذل أهلها له الطاعة، فأصلح من شأنها ورفع وأبناؤه وأحفاده من بعده شأن خلافتهم هناك وأجمعت القلوب على حبهم وقل المنتفضون على ملكهم المتوثبون على

(١) دعا عبد الرحمن بن معاوية نفسه عند استغلاط امره واستيلائه على دار الامارة قرطبة ويقال انه اقام اشهرأ دون السنة يدعو لابي جعفر المنصور متقبلاً في ذلك يوسف الفهرى الوالى قبله الى ان افرد نفسه بالدعاء. ويقال ان عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم اشار عليه بذلك عند خلوصه اليه فقبله الا انه لم يعد اسم الامارة وسلك الامراء من ولده سنته في ذلك الى عهد عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله فهو الذي تسمى بالخلافة بعد سنين من سلطانه ودعى بامير المؤمنين لما استفعل امره واستبان له ضعف ولد العباس وانتشار سلطاتهم بالشرق وذلك في آخر خلافة المقتدر بالله جعفر بن احمد المتضد منهم ذكر ذلك ابو مروان ابن حيان وورخ الاندلس.

سلطانهم ، ولقد أنصف المنصور العباسي عند ما لقب عبد الرحمن الأموي بصقر قريش لانه « عبر البحر وقطع القفر ، ودخل بلداً أعجيباً مفرداً ، فصر الأهمصار وجند الاجناد ، ودون الدواوين ، وأقام سلطاناً بعد انقطاعه ، بحسن تدبيره وشدة شكيمة »

انقرض ملك بني مروان من الاندلس سنة ٤٠٧ هـ على رأس مائتي سنة وثمان وستين سنة وثلاثة وأربعين يوماً بعد ان جمعوا الشمل ، ورأبوا الصدع ، وأحيوا المعالم ونشروا العدل ، وخدموا الحضارة ، وكانت أيامهم اعراساً وأفراحاً ، فتفرق الملك بأيدي ملوك الطوائف فكان « كل ملك لما بيده فضبط اشراف العمالات أزمة أمورهم ، وركبوا ظهور غرورهم ، وتنافسوا في انتحال الالقاب السلطانية فأتوا من ذلك بكل شذيمة » الى ان قام رأس المرابطين وأمير المسلمين يوسف ابن تاشفين اللمتوني صاحب المغرب الأقصى وأعاد للبلاد مع ابنه علي بن يوسف سالف نضارتها ، ودعا للخلافة العباسية على منابر الاندلس ولم تزل الدعوة للعباسيين وذكر خلفائها على سائر الاندلس والمغرب الى أن انقطعت بقيام ابن تومرت مع المصادمة في بلاد السوس .

تنفس خناق البلاد بالقوة الجديدة التي جاءت بها دولة المرابطين لشدا زر المسلمين في الاندلس ، كما عادت اليهم بعض القوة على عهد الموحدين ، وكان هؤلاء لا يتوقعون عن نجدة اخوانهم في الاندلس ، حتى ان الخليفة المنصور من الموحدين لما دنت وفاته جمع بنيه والموحدين ووصاهم بوصايا منها : أيها الناس أوصيكم بتقوى الله « وأوصيكم بالايثار واليتيمة » أراد بالايثار أهل جزيرة الاندلس وباليتيمة بلاد الاندلس ، الا أن أحوال الجزيرة اختلفت في أواخر دولة أمير المسلمين علي بن يوسف فأوجب ذلك تخاذل المرابطين وتواكلهم ، وميلهم الى الدعة ، وإيثارهم الراحة ، وطاعتهم النساء فهانوا على أهل الجزيرة ، وقلوا في أعينهم ، واجترأ عليهم العدو ، واستولى النصارى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم ، وكادت الأندلس تعود الى سيرتها الأولى ، بعد انقطاع دولة بني أمية فاستدعى عقلاء الجزيرة بني مرين من بر العدو فجاءهم أميرها سنة ٦٥٨ في جيش ضخم فملك

بالاندلس ثلاثة وخمسين مسوراً ما بين مدن وحصون وهو اول من ملك العدوتين من بنى مرين وجاهد الفرنج فدوخ بلادهم وكانت قبل جوازه الى الاندلس تستطيل على المسلمين وملكوا قواعد الاندلس وأكثر حصونها مثل قرطبة واشبيلية وجيان وشاطبة ودانية ومرسية وغيرها ولم تفتش للاسلام راية منذ وقعة العقاب ^(١) سنة ٦٠٩ الى أن جاءت رايته وكانت الحروب والغزوات متصلة بين العرب وأعدائهم في القرن الخامس والسادس والسابع وكثيراً ما يؤدي ملوك العرب الجزية للافرنج بعد ان كان هؤلاء في القرن الأول والثاني والثالث والرابع يؤديون الى العرب الجزية . ولما أغلظ ابن تاشفين لا نفوس الكلام في المكاتبه قال هذا : « بمثل هذه المخاطبة يخاطبني وأنا وأبي نغرم الجزية لاهل ملته منذ ثمانين سنة وكان ذلك سنة تسع وتسعين وأربعمائة »

وبعد ان زال حكم الموحدين من اسبانيا دخلت في حكم محمد بن يوسف بن هود من بطليوس الى مرسية وقرطبة واشبيلية سنة ٦٢٦ ولما هلك التف المسلمون حول محمد بن يوسف بن الأحمر من أسرة بنى نصر فاستولى على الاندلس سنة ٦٢٩ فدام فيه وفي أعقابه نحو قرنين ونصفاً كان الضعف رائد دولتهم أولاً حتى لقد صالح ابن الأحمر الفنس ملك اسبانيا سنة ٦٦٥ على أن اعطاه نحو أربعين مسوراً من بلاد المسلمين من الشرق فقال أبو محمد الرندي يرثي الاندلس ويستصرخ أهل العدو من بنى مرين قصيدته المشهورة التي يقول فيها

دهى الجزيرة خطب لاعزاء له هوى له أحد وانهد ثهلان
أصابها العين في الاسلام فامتحن حتى خلت منه أوطان وبلدان
فسل بلنسية ماشان مرسية وأين شاطبة أم أين جيان
وأين قرطبة دار العلوم فكم من عالم قد سما فيها له شان

(١) هذه الوقعة وقعة العقاب هي المعروفة عند الافرنج باسم لاس نافاس دي تولوزا Las Navas de Tolosa وهي قرية من عمل ولاية بيان اشتهرت بانتصار ملوك ارغن وقشتاله ونافار على العرب سنة ١٢١٢ — ٦٠٩ هـ وقد ضربوا العرب ضربة لم يتمكنوا بعدها من التوغل في بلاد اسبانيا

وعاد أمر المسلمين فضعف وبنو الأحمر آخر ملوك الأندلس يستصرخون الموحدين من أهل العدو فينجدونهم حتى رسخت أقدام الملوك من بني الأحمر أو بنى نصر في بقعة صغيرة من البلاد جعلوا غرناطة عاصمتها ولما انقرضت دولة الموحدين اعتمد بنو الأحمر على قوتهم في حماية سلطانهم حتى ضعف أمرهم وصحت نية الأسبان على إخراجهم من شبه جزيرة أسبانيا باتفاق إيزيلا الكاثوليكية وفرديناند واتحاد ملوك أرغن وقشتالة ونافار تحت سلطان واحد وكان خروج آخر ملك من بنى الأحمر من بلاد الأندلس سنة ٨٩٧ هـ ويومئذ انتهى حكم العرب هناك .

عمرانه الاندلس

٩٢

ولا يفارق فيها القلب سراء	في أرض اندلس تلتذ نعاء
ولا تقوم بحق الانس صباء	وليس في غيرها بالعيش منتفع
على الشهادة ازواج وابناء	وان يعدل عن أرض يحض بها
على المدامة امواه وافياء	واين يعدل عن أرض تحت بها
وكل روض بها في الوشى صنعاء	وكيف لا يهيج الا بصار رؤيتها
والخز روضتها والدر حصباء	انارها فضة والمسك تربتها
من لا يرق وتبدو منه اهواء	وللهواء بها لطف يرق به
ولا انتشار لآلى الطل انداء	ليس النسيم الذي يهفوها سحراً
في ماء ورد فطابت منه ارجاء	وانما أرج الند انتشار بها
وكيف يحوى الذى حازته احصاء	واين يبلغ منها ما أصفه
فريدة وتولى ميزها الماء	قد ميزت من جهات الارض حين بدت

دارت عليها نطاقا ابجر خفقت وجداً بها أوتبتت وهي حسناء
لذاك يبسم فيها الزهر من طرب والطير يشدو وللأغصان اصفاء
فيها خلعت عذارى ما بها عوض فهي الرياض وكل الارض صحراء
« ابن سفر المرني »

كانت شبه جزيرة اسبانيا في صمراتها قبل الفتح العربي منحة عن طامة الممالك الاوربية . حكمها الرومان وكانوا من خير من شاد بنياناً ، واقام في المعمور صمرانا ، ومع هذا لم ينلها من عنايتهم كبير أمر ، فلما جاء العرب الفاتحون في العقد الاخير من المئة الاولى ، كان عهدهم الاول عهد الفتوح على نحو ما كان عهدهم في الشام ، فلما التفتوا فيه الى تجويد البناء حتى اذا ورد على الاندلس من الشرق بل من دمشق عبد الرحمن الداخل الاموي سنة ١٣٨ هـ نقل مع جماعته أسلوب أمته في العمران ، وكان سبقه اليها جمهور من الشاميين ، نقلوا أسلوب بنائهم وعاداتهم وأصول معاشهم ، فاعتمدوا في بناء قصورهم ودورهم على الهندسة الدمشقية في الغالب ، وجعلوا في الدور فناء أو صحناً في وسطه بركة ماء وعلى جانبيها الازهار والاشجار ، وتقوم بعض طنوف الطبقة الثانية من البناء على عمد من الرخام وغيره ، والدور طبقتان فقط طبقة سفلية للصيف والطبقة العلوية للاشتاء ويدخل الى الدار من دهليز . رسم خطط هذه الدور بادي بدء مهندسون من الروم ثم أصبحت مع الزمن هندسة خاصة للعرب على ما كان شأنهم في الشام .

يقول بعضهم أن العرب لما وصلوا اسبانيا لم يكن لهم هندسة مخصوصة فقل فيهم كالايبانيين الابداع والايجاد ولكنهم تفننوا في النقش . واقدم مصانهم مسجد قرطبة ، انشأه عبد الرحمن الداخل سنة ٧٨٥ م والنقوش فيه والفسيفساء من عمل صناع من الروم ومن هنا نشأت الصناعة العربية وتمثلت في المساجد والبيع والقصور والحمامات والابراج والابواب الحصينة . ومن اغرب المباني مسجد طليطلة مثال الهندسة العربية وقاعدة منارة مسجد اشبيلية وكثير من الارتجة والابواب . ولما استولى الاسبان على اشبيلية جعل ابن الأحمر غرناطة عاصمته فقام قصر الحمراء

وظهرت بدائمه ، وهو أجمل زهرة من زهرات الصنائع النفيسة التي تفتقت
أكامها بأيدي العرب . وظل صناع العرب في اسبانيا قرونًا بعد ذهاب دولتهم
يعملون في المصانع الاسبانية ويدخلون في هندستها بعض أساليبهم فاثروا بها
تأثيراً عظيماً في المعاهد المبنية على الاسلوب الفوطي والايطالى (الرئيسانس) .
ولقد كان ملوك الاندلس وامراءها وقوادها وطامة من تولوا خطط الحكم
والقضاء والحسبة ، غرام باستكمال نخامة الملك ، وتشيد القصور ، وجلب المياه
وبناء الارصفة ، واقامة القلاع والحصون . بدأ بذلك عبد الرحمن الاول وجرى
آل بيته وعظماء مملكته ، على قدمه في هذا الشأن ، ومنهم عبد الرحمن بن الحكم
(٢٣٨) الذي كان « أول من جرى على سنن الخلفاء في الزينة والشكل ، وترتيب
الخدمة ، وكسا الخلافة أبهة الجلالة فشيد القصور ، وجلب اليها المياه ، وبنى
الرصيف ، وعمل عليه السقائف ، وبنى المساجد الجوامع بالاندلس ، وعمل السقاية
على الرصيف ، وأحدث الطرز ، واستنبت عملها ، وأخذ السكة بقرطبة ، ونغم
ملكه ، وفي أيامه دخل الاندلس تقيس الوطاوغرائب الاشياء . ومنهم عبد الرحمن
ابن محمد الذي قال فيه صاحب العقد : « ان الملوك لم تزل تبني على أقدارها ويقضى
عليها بآثارها وانه بنى في المدة القليلة ، مالم تبني الخلفاء في المدة الطويلة ، نعم لم
يبق في القصر الذي فيه مصانع أجداده ، ومعالم أوليته ، بنية الا وله فيها أثر
محدث ، أما تزيد أو تجديد

كانت البلاد نسقاً واحداً في العمران حتى كان للقرى أيضاً نصيب وافر من
العناية ولذلك كثر عددها حتى قالوا انه كان على الوادى الكبير فقط أربعة عشر
ألف قرية فكنت على رواية ابن سعيد اذا سافرت من مدينة الى مدينة ، لا تكاد
تنقطع من العماره ، ما بين قرى ومياه ومزارع ، والصحارى فيها معدومة ، أى
في القسم الذي تأصل فيه حكم العرب . ومما اختلفت به ان قراها في نهاية من
الجمال لتصنع أهلها في أوضاعها وتبييضها لئلا تنبو العميون عنها بل هي طراز
من مناظر قد أتقنت بالبياض والزخرفة تخطف بالابصار عند وقوع شعاع
الشمس عليها .

لاحت قراها بين خضرة ايكها كالدر بين زبرجد مكنون
قويت حركة العمران بالطبع حيث كان يقيم الخليفة والسلطان ، ولما ابنتى
عبد الرحمن بن محمد فى غربى قرطبة مدينة الزهراء خط فيها الاسواق وابنتى
الحمامات والخانات ، والقصور والمتنزهات ، واجتلب الى ذلك بناء العامة ، وأمر
مناديه بالنداء ، الا من أراد أن يبنى داراً أو يتخذ مسكناً بجوار السلطان فله
أربعمائة درهم فتسارع الناس الى العماره فتكاثفت وتزايدوا فيها فكادت أن تتصل
الأبنية بين قرطبة والزهراء والمسافة أربعة أميال .

كان بناء الاندلسيين بالآجر والحجر وكان الحجر عندهم أنواعاً منه الحمرى
والأحمر والأبيض والمجزع وكانوا ينحتون السوارى والعمد من مقالصهم على
الأغلب . وقيل ان سوارى جامع قرطبة جلبت من البيع القديمة من جنوبى فرنسا
وايطاليا ومن أفريقية والاسطانة وسواء قطعت من مقالع الاندلس ، أو جلبت
من القاصية ، فان فى ذلك فضلاً كبيراً للعرب ، يدل على معرفتهم الأشياء الحسنة ،
وقدرتهم على حمل هذه الاثقال فى البر والبحر ، مع قلة الآلات الرافعة ، وقصور
علم الحيل عما هو عليه فى عصرنا

قال أحد الباحثين من الفرنجة : فى اسبانيا ميدان لدرس الصناعة العربية
المغربية منذ بدايتها وكان التردد بادية بادية عليها الى أن ظهرت فى مظهرها
هذا على غاية من الغرابة والظرف . وقال بعضهم ان الهندسة العربية قد أفرغت
جهدها فى قصور الحمراء ، وأتت ماوسعتها الاجادة والظرف بأمثلة ، تأخذ بمجامع
القلوب فى العمران ، ولو لم يكن جل الاعتماد على الخشب والجص فى البناء ، وهما
مما تقل متانته ، لانت منها آثار خالدة أكثر مما أتت ، ولكن مجموعها مدهش
غريب يمجّد خيمة العرب الرحل فى البادية . ومن أغرب ما اصطنعوه عمل المقرنص
فى القباب مؤلفاً من عدة قباب صغرى متناسقة ، بدون أن ترى اللحمة بينها ،
والنقش فيها قليل الا ما كان من جل نقشت بالحروف الكوفية أو العربية
المشبكة الاندلسية

قلنا ومعظم الآثار التي بناها الاسبان بعد سقوط آخر دولة الاندلس كانت بأيدي صناع من العرب ، أبقوا عليهم لقيام مصانعهم ، وذلك لان الاسبان كانوا متأخرين في الهندسة والصنائع النفيسة ، وأهم ما يتنافس فيه الاسبان الى اليوم القيشاني فانك تراه في كل بيت وكنيسة ، وحائط ونزل ومدرسة ومتحف ، وهو أنواع منه ما يجعل على الأرض ، ومنه ما يجعل على طول قامة الانسان في الجدران المختلفة ، وللآجر عندهم شأن عظيم في البناء . وقد يدم قروناً كما شاهدنا ذلك في خرائب القسطنطينية بمصر وأكثره من بناء القرن الاول للهجرة

يصعب تعداد المصانع التي شاهدها العرب في أوقات مختلفة ، في الاصفاع التي نزلوها ، كما يصعب اعطاء حكم تام على معالمهم ، لان كثيراً من بنيان الاندلس عوّر بتداول الايام ، فصح في مدينتها ودساكرها قول أحد الاندلسيين في بلنسية وقد عاث العدو فيها

طاشت بساحتك الظبا يادار ومحا محاسنك البلى والنار
فاذا تردد في جنابك ناظر طال اعتبار فيك واستعبار
أرض تقاذفت الخطوب بأهلها وتمخضت بخرابها الاقدار
كتبت يد الحدثان في عرصاتها لا أنت أنت ولا الديار ديار

أهل الاندلس

٩٣

كان الجيش الذي فتح الاندلس باديء بدء مؤلفاً من قليل من العرب ومن البربر سكان الغرب الأقصى والأوسط وما اليهما . نزل كل فريق منهم في بقعة فاعمرها وأقطعهم القواد مارحل عنه أهله من المزارع والمداشر . وقد فرق الحسام

ابن ضرار الذي ولي اماره الاندلس في سنة ١٢٥ وخضعت لسلطانه جميع العرب الشاميين الغالبين على البلد ، وأبعدهم عن دار الأماره قرطبة ، اذ كانت لا تحملهم وأنزلهم مع العرب البلديين أي السابقين الى الاندلس ، في سنة الفتح سنة ٩٢ للهجرة . والشاميون هم الذين دخلوا سنة ١٢٥ أنزلهم على شبه منازلهم في كور شامهم ، وتوسع لهم في البلاد ، فأنزل في كورتى اكشونة وباجة جند مصر مع البلديين الأول ، وأنزل باقيهم في كورة تدمير وأنزل في كورتى لبلة واشبيلية جند حمص مع الأول أيضاً ، وأنزل في كورتى شذونة والجزيرة جند فلسطين وأنزل في كورة رية جند الاردن ، وأنزل في كورة البيرة جند دمشق ، وأنزل في كورة جيان جند قنسرين أي حلب ، وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة من العجم طعمة . وبقي العرب البلديون من الجند الأول على ما بأيديهم من أموالهم لم يعرض لهم في شيء منها فلما رأوا بلاداً شبه بلادهم خصباً وتوسعة ، سكنوا واغتبطوا وتمولوا .

قال ابن الخطيب : أنزلوا القبائل الشامية في كور على شبه منازلهم التي كانت في كور شامهم ، وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة طعمة وبقي العرب والبلديون والبرابرة شركاؤهم وسكنوا واغتبطوا ، وكبروا وتمولوا ، الا من كان نزل منهم لأول قدومه موضعاً رخيماً ، فانه لم يرتحل وسكن به مع البلديين . وحكى غيره انه نزل في البيرة من كان قدمها من جند دمشق من مضر وجلهم قيس وافناء قبائل العرب ، ونزل رية جند الاردن وهم يمن كلهم من سائر البطون ، ونزل شذونة جند حمص وأكثرهم يمن وفيهم من نزار فقريسير ، ونزل مدينة الجزيرة البربر واخلاط من العرب قليل ، ونزل في جيان جند قنسرين والعواصم وهم أخلاط من العرب من معد واليمن ، ونزل قبائل البربر مدينة بلنسية .

وما عدا قبائل العرب والبربر الذين تفرقوا في بلاد الاندلس على ما رأيت كان فيها أخلاط من الشعوب من رومان وقوط ومهاجرة من أقطار شتى فامتزجوا كلهم في بودقة واحدة . قال هوار : ولما أصبح عبد الرحمن ملكاً على جميع اسبانيا الاسلامية (٣٢٠ - ٩٣٢) استندلة بال طبقة الاشراف من نسل العرب المهاجرين

على الاسبانيين الذين دانوا بالاسلام وعلى كثير من الاسرائيليين والمسيحيين فتوصل بذلك الى جعل الكل أمة واحدة عرفت في الشرق باسم الاندلس .
ولقد استمرت قبائل العرب الشاميين « في غمار من الروم يعالجون فلاحه الارض وعمران القرى يرأسهم أشياخ من أهل دينهم ، أولو حنكة ودهاء ومداراة ومعرفة بالجباية اللازمة لرؤوسهم » فاحتفظ العرب بسكان البلاد الاصليين ، وهبأوا السبل لدخول المهاجرين اليها من المسلمين على اختلاف عناصرهم ومن غيرهم ، فأسلم كثير من أهل البلاد ، واختلطت أنسابهم بأنساب العرب ، وكان المغلوبون يقلدون الغالبين لاول الامر في مناديتهم وعاداتهم ، شأن المغلوب مع الغالب ، قال فوليه : بعد ان حكم العرب اسبانيا قروناً دخلتها كمية وافرة من الدم الافريقى فكان ذلك من موجبات ارتقاء العقل في اسبانيا . ومزج الدم الاسباني بالدم العربى هو ولا شك من جملة الاسباب التى تحمل بالاسبان على اختلاف أصقاعهم الى الطموح الى العظام ومراتب الشرف اه .

ولما دب الضعف فى الاندلس أصبح العرب يتشبهون بجيرانهم من الافرنج روى المقرئ : ان بنى الاحمر كثيراً ما يتزيا سلاطينهم وأجنادهم بزي النصارى المجاورين لهم . وذكر ابن خلدون أوائل المئة التاسعة ان أهل الاندلس يتشبهون بأمم الجلالقة « فى ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم ، حتى فى رسم التماثيل فى الجدران والمصانع والبيوت ، حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة انه من علامات الاستيلاء ؛ فبعد ان كان القشتاليون والجلالقة دع أبناء الأندلس من غير المسلمين يتشبهون بالعرب أصبح هؤلاء فى أواخر أيامهم يتشبهون بهم ، شأننا اليوم مع أمم الغرب تقلدهم فى أزيائهم ولباسهم وعاداتهم ، وتقسخ المجال لكل ما ينفقونه علينا من بضائهم العلمية والاجتماعية ، سنة الله فى الضعيف مع القوي .

امتزج المستعربة Lesmozarabes أو المسيحيون الذين يتكلمون بالعربية فى الاندلس ، بالقادمين عليها فلقى المعاهدون منهم رعاية من الفاتحين الالهى فى

الادوار التي كانوا يكيدون فيها للمسلمين ، ويخرجون عن الذمة فان الفقهاء كانوا يفتون بتغريبهم واجلائهم عن أوطانهم ، وقد أجاز منهم يوسف بن تاشفين الى بر العدو « عدداً جماً ، أنكرتهم الاهواء ، وأكلتهم الطرق ، وتفرقوا شذر مذر » على انه لم يقع شيء من هذا القبيل الا في النادر لان العرب كانوا يحرصون على بقاء أهل البلاد فيها ليعمل التطور عمله فيسلم من يسلم مع الزمن منهم أو يعطى الجزية ويتعلم العربية فتخف الفوارق بينه وبين أهل عصبية الفاتح .

فمن ثم ساء لنا أن تقول ان أهل الاندلس لم يكونوا كلهم من نسل العرب بل كان منهم العرب قال صاحب فرحة الانفس : أهل الاندلس عرب في الانساب ، والعزة والالفة وعلو المم ، وفصاحة اللسان ، وطيب النفوس ، وأباء الضيم ، وقلة احتمال الذل . والسماحة بما في أيديهم ، والتزاهة عن الخضوع واتبان الدنية هندیون في أفراط عنايتهم بالعلوم ، وحبهم فيها وضبطهم لها وروايتهم ، بغداديون في نظافتهم وظرفهم ، ورقة أخلاقهم ونباهتهم وذكائهم ، وحسن نظرهم ، وجودة قرائحهم ، ولطافة أذهانهم وحدة أفكارهم . وتقوؤ خواطرهم . يونانيون في استنباطهم للمياه . ومعاناتهم لضروب الفراسات ، واختيارهم لاجناس الفواكه وتديرهم تركيب الشجر وتحسينهم للبساتين بأنواع الخضر ، وصنوف الزهر ، فهم أحكم الناس لاسباب الفلاحة ، وهم اصبر الناس على مطاولة التعب ، في تجويد الاعمال ، ومقاساة النصب في تحسين الصنائع ، وأحذق الناس بالفروسية ، وأبصرهم بالطعن والضرب . وقال ابن حزم : ان أهل الاندلس صينيون في اتقان الصنائع العملية وإحكام المهن الصورية ، تركبون في معاناة الحروب ومعالجة آلاتها ، والنظر في مهماتها . وقال ابن بسام : في جزيرة الاندلس اشراف عرب المشرق افتتحوها ، وسادات أجناد الشام والعراق نزلوها ، فبقي النسل فيها بكل اقليم ، على عرق كريم .

تسامح العرب

٩٤

العرب من أكثر الأمم تسامحاً مع المخالفين لهم في المعتقد والجنس واللسان، ولولا تسامحهم أيام عزمهم بالاسلام، لم تبقى بقية من الأمم المغلوبة في بلادها محتفظة بدينها ولسانها ومقدساتها، وذلك لأن الشريعة السمحاء تقضى بالرفق والرحمة، وعدم التعرض لدين المخالفين وأموالهم خصوصاً اذا كانوا أصحاب دين سماوي، ولذلك اكتفوا من أهل الاندلس بجزية^(١) وتركوا لهم حريتهم، فأعجب بهم مخالفوهم، لانهم حملوا اليهم سلاماً، وكفوهم مؤونة فتن كانت عليهم غراماً، تأتي على الأنفس والنفائس. وتذكع عالم الامن والامان.

كره العرب التعصب ولا سيما في الاندلس وعمدوا الى كل تسامح معقول فاستمالوا بسيرتهم من نزلوا بينهم من الاسبانين والبرتقالين حتى انهم كانوا (سيديليو) اذا شجر خلاف بين مسلم ومسيحي من الجند، يعطي الحق غالباً للمسيحي، وجعلوا

(١) هذا كتاب الصلح الذي كتبه عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن غيدوش (غيدوس) الذي سميت باسمه تدمير اذ كان ملكها ونسخة هذا الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن غيدوش انه نزل على الصلح وان له عهد الله وذمته وذمة نبيه صلى الله عليه وسلم الا يقدم له ولا لاحد من أصحابه ولا يؤخر ولا ينزع عن ملكه وانهم لا يقتلون ولا يسبون ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم ولا يكرهوا على دينهم ولا تحرق كنائسهم ولا ينزع عن ملكه ما تعبد ونصح وادى الذي اشترطنا عليه وانه صالح على سبع مدائن أوريواله وبلنتلة واثمنت وموله وبقره واية ولورقة وانه لا يؤوى لنا آباءاً ولا يؤوى لنا عدواً ولا يخيف لنا آمناً، ولا يكتم خبر عدو علمه، وان عليه وعلى أصحابه ديناراً كل سنة وأربعة أمداد قح وأربعة أمداد شعير وأربعة أقساط طلا (شراب من العنب غير مخمر وهو أشبه بالمصيبة في بلاد الشام) وأربعة أقساط خل وقسطى عسل وقسطى زيت، وعلى العبد نصف ذلك شهد على ذلك عثمان بن أبي عبدة القرشي وحبيب بن أبي عبدة . . . ابن ميسرة الفهمي وأبو قائم الهذلي وكتب في رجب سنة أربع وتسعين من الهجرة .

ايام الآحاد أيام عطلة ، بدل الجمع ، و رخصوا ان يتعبد كل انسان على الصورة التي يراها . فنشأت وحدة وطنية بين الغالب والمغلوب ، حتى لم يكدر يشعر هذا الا في النادر و باغراء رجال الدين ، انه مغلوب على أمره ، فاقد لاستقلاله ، واعتبد الامويون في أكثر أيامهم على جيش من الصقالبة أهل صقلية يشترونهم أو يأخذونهم أسرى كما كان يفعل العثمانيون بجيش الانكشارية وصارت لافراد من الصقالبة حظوة عند الملوك والامة حتى ان حبيباً الصقلبي من فتيان الاموية بقرطبة ألف كتاباً تعصب فيه لقومه سماه (بالاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة) . وربما كانت منزلة الصقالبة بقرطبة منزلة الشعوية أعداء العرب في بغداد ولا من ينكر عليهم . ومن أثر التسامح ، شاعت اللغة العربية في كل أرض نزلها العرب . بل لم يمض أكثر من نصف قرن حتى اضطر رجال الكنيسة ان يترجموا صلواتهم بالعربية ليفهمها المسيحيون ، لان هؤلاء زهدوا في اللغة اللاتينية ، ونشأ لهم غرام بالعربية ، فأخذوا يتقنون آدابها ، ويتغنون بأشعارها ، ويكتبون فيها كأبنائها ، ويعجبون ببلاغتها إعجاب أهلها بها .

وكان كثير من أذكاء الجلالة والقشتاليين والليونيين والنافارين ، دع من كانوا في البلاد التي فتحتها العرب من المسيحيين ، يتعلمون العربية ويقصدون الخليفة الاندلسي أو أحد رجاله يستخدمون في الادارات ، وتجرى على سادات الاسبان أحكام الاسلام فيختلطون بأشراف العرب ، ومن ظل محتفظاً منهم بدينه نسي مبادئه فصار يحجب نساءه كالمسلمين ، ويقتدى بأزيائهم وأبستهم وعاداتهم ، في مآدبهم ورفاهيتهم وأنسهم . ومن المسيحيين والاسرائيليين من وزروا في الاندلس لملوك المسلمين وهم مقيمون على دينهم ومنهم من كان أبوه أوجده اسبانياً فاسلم^(١) والمسلمون لا يضمنون بشيء على أهل ذمتهم يجرؤون عليهم

(١) راجع نبذة في امتزاج العرب بالمعجم في اسبانيا والاستشهاد على ذلك بالاسماء والالقب في كتاب (السفر الى المؤتمر) .

الرواتب والارزاق ، كما تجرى على بطاتهم وأهل نحلتهم ويأمنونهم على مصالحهم ،
وينتدبونهم في سفاراتهم ، ويطلعونهم على أسرارهم ، ويأمنون الاطباء منهم
على أرواحهم وحرمتهم

وشاع زواج العرب بالاسبانيات والبرتقاليات اللاتي كن بجمالهن ، أجل
صلة لتمازج الفاتحين بخصومهم ، والتحام القرابات بينهم ، بل أن ملوك المسيحيين
على عهد توزع الاندلس بين ملوك الطوائف ، أمسوا يتزوجون من بنات الامراء
المسلمين ، فقد تزوج الفونس السادس بزايدة ابنة أمير أشبيلية ، وعقد مثل
هذا الزواج كثيراً ، وكان عدد المتزوجات من الاسبانيات والبرتقاليات بالمسلمين
وعدد المسلمات المتزوجات من الاسبانيين والبرتقالين آخر أيام الاندلس كثيراً
جداً حتى جرى لذلك كلام في الشروط التي تمت بين الغالب والمغلوب .

ومن العرب من آثر زي الاسبانيين من الملابس والسلاح واللجم والسروج
وكلف بلسانهم مثل محمد بن سعد بن مردنيش صاحب بلاد شرق الاندلس (٥٦١)
وكثير من الوزراء كانوا يعرفون لسان جيرانهم مثل محمد بن الحاج (٧١٤) ويتشبهون
بهم في الاكل والحديث وكثير من الاحوال والهيئات .

هذا ما عمله الغالبون المسلمون من العرب مع المسيحيين المغلوبين من الاسبان
والبرتقالين ، أما معاملتهم للاسرائيليين فكانت أيضاً مما يدهش له ، فأصبح هؤلاء
في الاندلس منزلة سامية في العلم والصنائع والتجارة ، وكانت غرناطة في القرن
العاشر تدعى مدينة اليهود لكثرتهم ومكانتهم فيها .

أصبح أهل البلاد يتكلمون بالاسبانية والبرتقالية والعربية على السواء وأخذوا
بعد حين لا يتعاقدون بينهم إلا باللغة العربية وقد وجد من عقودهم نحو النقص
من هذا القبيل كتبها المستعربة من الوطنيين الاصليين باللغة العربية ، والعربية
كانت لسان القائمين بالدولة الاسلامية ، هجر ما عداها في جميع الممالك ، فصار
استعمال اللسان العربي من شعائر الاسلام وطاعة العرب . هجر الامم لغاتهم وألسنتهم
في جميع الامصار والممالك التي خفقت عليها رايات الفاتحين ، وصار اللسان العربي

لسانهم، حتى رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم ومدنهم، وصارت اللسنة العجمية دخيلة فيها، وغريبة عنها، قاله ابن خلدون :

ولذا أتت ثلاثة قرون على بقايا الاسبانيين المتراجعين الى الجبال الشمالية وقد نسيت تقاليد البلاد إلا من استوريا وما اليها من الاصقاع واضطرت الحكومات الصغرى التي اعتصمت في أقصى الشمال أن تصانع وتعاهد وتعلم من أعدائها، وهم أرقى منها نظاماً ومدنية وحكومات أوربا الكبرى لذلك العهد تطلب رضاها وتعلم منها وتتلفف معها، حتى بلغ الامر بعبد الرحمن الثالث الذي أشبه ملكاً من ملوك هذا العصر لا ينقاد لاهام العنصر والدين، ولا يتوقف في أمر فيه مصلحة، وتسير سياسته بحسب الاحوال — ان وجد له حلفاء من زعيم البربر إلى ملك ايطاليا إلى امبراطور القسطنطينية وكانت سفراء فرنسا واليونان والامان تتوارد على قرطبة، وقد وضع هذا الخليفة حداً للحروب بين العرب والاسبانيين والبربر في الاندلس، وحصن حدود مملكته من ملوك ليون وقشتالة ونافار واستولى باسطوله على غربى البحر المتوسط، وبسط سلطانه على افريقية الشمالية فكان ميسين^(١) العلوم والفنون وحامى التجارة والصنائع وقد اصبحت اسبانيا العربية على عهده وعهد اخلافه في القرون الوسطى أكثر البلاد مدنية وحسن ادارة قائده دائرة المعارف الاسلامية .

لا جرم أن خلفاء الاندلس كانوا من التسامح مع الكافة بالمكان الذي يغبطون عليه، ويجب التنويه به، لانه لم يسبق له نظير في عصورهم عند الامم الاخرى، فقد جاء من خلفائهم من كانوا يبيحون لدعاة النصرانية أن ينشروا دينهم أحراراً وبلغت الحال ببعض المتحمسين منهم، ان كانوا يقفون على أبواب الجوامع ليتسقطوا المسلمين بالدعوة الى دينهم، وكان عبد الرحمن الثانى عزم أن يجمع

(١) ميسين هو نديم أغسطس قيصر الرومانى استعمل تقوذ مولاة لتنشيط الآداب والعلوم فاغدى نعمة على فرجيل وهوراس وبروبروس وأصبحت كلمة ميسين مرادفة لحامى الآداب والعلوم والفنون ومات في السنة الثامنة قبل المسيح .

مجمعاً مقدساً من النصارى برئاسة رئيس أساقفة اشبيلية لقمع عادية التعصب
الاسباني إذ أخذ دعاة الدين المسيحي يسبون الاسلام جهاراً حتى يقتلوا في سبيل
دعوتهم ، وتكتب لهم الشهادة بزعمهم ، ولكن الخليفة مات قبل التمام هذا
المؤتمر سنة ٢٣٨

ولطالما ارخى خلفاء الاندلس العنان لخطبائهم ووعاظهم ومؤرخيهم وكتابهم
يوسعون المجال لأقلامهم وألسنتهم ، حتى في أعمال الخلفاء ، ولا يجدون منهم
إلا لطفاً وعظماً ، ذلك ان الناصر كان كلفاً بعمارة الارض ، وإقامة معالمها ، وتكثير
مياهاها ، واستجلابها من أبعد بقاعها ، وتخايد الآثار الدالة على قوة ملكه ،
وعزة سلطانه . وعلو همته ، فانه لما ابتنى الزهراء . واستفرغ وسعه في تنجيدها
واتقان قصورها ، وزخرفة مصانعها ، انهمك في ذلك حتى عطل الجمعة بالمسجد
الجامع ، فقرعه القاضي منذر بن سعيد قاضي الجماعة بقرطبة بخطبة على المنبر امام
جمهور المؤمنين ابتدأها بقوله تعالى (اتبنون بكل ريم آية تعبثون ، وتتخذون
مصانع لعلكم تخلدون ، واذا بطشتم بطشتم جبارين ، فاتقوا الله وأطيعون ، واتقوا
الذى أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون ، انى أخاف عليكم
عذاب يوم عظيم) ثم أفضى الى ذكر المشيد ، والاستغراق في زخرفته ، والسرف
في الاتفاق عليه ، فخرى في ذلك طلقاً ، وتلا فيه قوله تعالى (أفمن أسس بنيانه
على تقوى من الله ورضوان خير ، أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار ،
فانهار به في نار جهنم ، والله لا يهدي القوم الظالمين ، لا يزال بنيانهم الذى بنوا
ريبة في قلوبهم ، الا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم) وأسرف الخطيب في ترويع
الخليفة وتقريعه ، ولم يحسن السياسة في وعظه ، فاستشاط الخليفة غضباً ، واقسم
أن لا يصلى خلف الخطيب الجمعة أبداً فقال له ابنه : وما الذى يمنعك عن عزل
منذر بن سعيد والاستبدال به فزجره أبوه وانهره وقال : أمثل منذر بن سعيد
في فضله وورعه وعلمه وحلمه لا أم لك يعزل في ارضاء نفس ، ناكبة عن الرشـد .
مثال آخر : شنع أحد المؤرخين على أحد الملوك المعاصرين في الاندلس ، فخلق ابن

الملك وهم بقتل المؤرخ ، فلما شعر أبوه بذلك قال له اليك عن هذا الفكر الخبيث ولئن قتلتني لا كونن أنا المطالب بدمه . تقتله ليعيرنا الناس باننا نقتل مؤرخينا . حتى إذا مضت أيام دخل المؤرخ الحمام ليستحم ، فلما خرج ليابس ثيابه ، رأى فيها صرة تضم ألف دينار ، ورقعة من الملك يقول فيها : ان الذي أوصل اليك هذه الدراهم وأنت لا تشعر ، قادر ان يرسل اليك من يقتلك فكفّ غرب لسانك عنا وإذا عدت فأرخت ثانياً لا تشنع علينا أعمالنا . قال دوزي اذا قيست حرية العرب بحرية الافرنج تشبه هذه الاستبداد .

وما زال هذا التسامح المحمود حتى انتقل ملك العرب في الاندلس الى المرابطين والموحدين وكانوا افريقيين لا يخلون من شئ : من التعصب وليس فيهم تسامح الامويين العرب فتبدلت الحال بعض الشيء ، وذهبت أو كادت طلاوة تلك المدنية التي أقاموها وكانت لا بالغربية ولا بالشرقية فبهر خبرها وخبيرها لولا أن قام الملوك من بني نصر في غرناطة ، ورأبوا الصدع ، وجبروا الكسر ، وكانوا كلما صغرت رقعة ملكهم ، زادت الرقعة الباقية ارتقاء ، فتنتقل القوة والنفوس من بلد زال عنها سلطانهم ، الى بلاد يرفرف عليها علمهم ، ويزيد ملوكهم تسامحاً مع ذمتهم ومجاوريهم . وهمة في تعهد صناعاتهم وزراعتهم وعمران مدنتهم التي حصنوها بالعدل والاحسان

العرب والاسبان

٩٥

قال بعضهم لو لم يقيم كلوفيس ^(١) بحروب دينية في القرن الخامس لتعذر على

(١) كلوفيس (٤٦٥ — ٥١١) ملك الفرنجة (فرنسا) سنة ٤٨١ افتتح صقع باريز واستخلصه من أيدي الرومان سنة ٤٨٦ واستولى على ولاية الاكيتين من الفيزيغوت وغلب الالمان سنة ٤٩٦ والبورغوند سنة ٥٠٠ ودان مع أمته بالنصرانية سنة ٤٩٦ فكان أول من وحد بلاد غاليا (فرنسا) في دينها وسياستها .

المسلمين فتح اسبانيا . ونحن نقول لولم يفتح العرب الاندلس ويحمل اليهم عبد الرحمن الأموي مدنية قومه لتأخرت المدنية الحديثة قروناً عن الظهور في ربوع أوربا^(١) وقد أجمع المنصفون أن العرب لولم ينجلوا عن الاندلس لكانت حال اسبانيا اليوم أرقى مما هي بمراحل ولا يؤمل لهذا الشعب وقدرأى صنوف العذاب من رجال الدين ورجال الحكم ، وأكلت نوابغه الحروب والاستعمار وديوان التفتيش الدينى ، أن تنشأ له نهضة كنهضة ايطاليا في القرن الخامس عشر تنتقل منها الى أوربا بأسرها .

وان المرء اذا نزل اسبانيا اليوم ليشعر ولا سيما في القسم الجنوبي منها أنه في بلاد عربية لو كان لسان القوم العربية . ويرى كثيراً من السحنات أشبه بوجوه العرب منها بوجوه الامم اللاتينية . وبعض عاداتهم وطبائعهم تتم عن روح عربية على سعى رجال الدين في نزعها من بينهم ، منذ استعاد اسبان أرض الاندلس أواخر المئة التاسعة . لاجرم أن أربعة قرون ونصفاً لم تكف لان تزع من القوم ما تأصل فيهم في ثمانية قرون وتمثلوه وتمثل بهم من مدنية العرب .

ذكر بعضهم أن في الاندلس أهم آثار اسبانيا ، والاندلس من اسبانيا بمثابة اقليم البروفانس في جنوبي فرنسا وصقلية من ايطاليا ، وقد جمعت الاندلس جميع المحاسن والخرائب المبعثرة في طول اسبانيا وعرضها ؛ ولهجة الاندلس ماثلة الى العربية كثيراً والاحتفالات والاخلاق قيد حفظت فيها الاساليب العربية .

نعم لا تزال تسمع في اللغة الاسبانية كثيراً من الألفاظ العربية من أسماء البلاد والأنهر والنواحي وبعض المرافق والمصطلحات ، وكل كلمة تبدأ عندهم بأل التعريف العربية هي عربية لا محالة ، ومن الأسماء ما يبدأ ببني ومنها ما يبدأ بوادي فدخلت مئات من الألفاظ في اللغة الاسبانية وتأصلت فيها كما دخلت

(١) من تاريخ الكنيسة تعريب هنرى جبب قال موسليم الجرمانى : حق علينا ان نقول ان العرب ولاسيما عرب اسبانيا هم أصل ويلبوع كل معرفة في الطب والفلسفة والفلك والتعاليم التي بزغت في أوربا منذ القرن العاشر فصاعداً .

البرتقالية والايطالية والافرنسية لغات الامم اللاتينية ، وهى ظاهرة كل الظهور فى اللغة الاسبانية وأقل منها فى اللغة البرتقالية والى اليوم تسمع بوادى الرامة ووادى الحجارة ووادى القنال ووادى البياضة ووادى الكبير وقاعة وقلعة والرملة وقصبة وقصر ومدينة وجنة والمدور والبطاقة والقنديل والأنبىق والساقية والمنارة والربض والمسجد والربع والشمسية والفندق والحراب ومئات غيرها أفردھا علماء اللغة منهم بالتأليف .

أخذ الاسبان عن العرب أشياء ظنوها بعدُ من مصطلحات أجدادهم وبنات أفكارهم ، وتأصلت فيهم من حيث يشعرون ولا يشعرون . حدثنى الثقة ان أحد علماء المشرقيات من الاسبان وهو موسيقار يحسن العربية ويطبع الآن كتاباً يثبت فيه بالأدلة التاريخية ان الموسيقى الكنائسية فى القرن الثالث عشر كانت مقتبسة من الموسيقى العربية . ويخيل لمن يسمع الموسيقى الاسبانية والغناء الاسباني ويرى الرقص الاسباني انها عربية الا قليلاً بحيث ساغ لنا أن نقول اذا كان الروسى شرقياً « تأورب » واستغرب فالاسباني عربى شرقى « تأورب » واستغرب أيضاً

ولا تزال الى اليوم ترى كثيراً من النابيين من الاسبانيين يدعون ان أصلهم عربى يذكرون ذلك مفاخرين ويعدون ذلك من أمارات الشرف والتغنى بذكرى القديم الجميل . وقد رأينا الاسبانيين فى القرن التاسع عشر والعشرين نهضوا نهضة لا بأس بها للبحث عن ماضيهم أو ماضى اسبانيا الاسلامية وصرفوا فى ذلك وقتاً ومالاً وتوفر على هذا العمل طائفة منهم حرصوا أجمل حرص على الأخذ من المدنية العربية ليكفروا عن سيئات أجدادهم الذين عوروا بعملهم مصانع العرب وخططهم وحرقوا ومزقوا أسفارهم وآثارهم .

أذكر مثالين من هذه النهضة يعدان فى الباب الأول من أبواب تسلسل الفكر الراقى والدؤوب المحمود وهو مما يقل الآن فينا بعد أن أورثنا الاسبانيين أخلاقنا وطباعنا واليكم البيان : قال لى الاستاذ الاب آسين بلاسيوس مدرس العربية

في جامعة مجريط وأحد أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق وأنا أنظر خزانة كتبه :
جمع أكثر هذه الخزانة أستاذي ريبيرا وفيها كتب كثيرة مطبوعة وأهمها الجزازات
« الفيش » التي رتبها طول حياته وفيها أسماء ثلاثين ألف عالم من علماء الاندلس
وقد استنسخها البرنس ليوني كايثاني الايطالي صاحب تاريخ الاسلام الكبير
ليطبعها في مجلة ما يطبع من آثار العرب . قال : لما كنت في بلدي وجئت مجريط
لأعمل مع أستاذي أحمل ما تيسر لطالب جمعه من الكتب ضمنت مجموعتي الى
مجموعته في هذه الدار ولما حانت وفاته وكان عزباً أوصى لي بكتبه على أن أشتغل
بها مدة حياتي وأفتح أبوابها لطلاب الاستشراق ثم أتركها كما تركها هو لمن أرى
فيه الكفاءة للعمل بعدى أو أجعلها في إحدى دور الكتب العامة .

هذا هو المثال الأول والمثال الثاني مجموعة السنيور اوسما Osma ناظر مالية
اسبانيا سابقاً وهي من الفسيفساء والقيشاني الاسباني والسلاح والرخام والسجاد
والادوات والالوان الفضية والزمردية والالوان الخزفية والبلورية والالبسة
والنقوش والتصاوير والاعمال الخشبية والنقود العربية والاسبانية ذهبية فضية
ونحاسية من صنع عرب الاندلس وصنع اسبانيا المسيحية في القرون الوسطى هذا
عدا وثائق تاريخية وسجلات من القرن السادس عشر من الآثار النصرانية وقد
بدأ بجمع هذه المجموعة عم السنيور اوسما والد زوجته وأحد أشراف اسبانيا
منذ زهاء خمسين سنة ودامت ابنته بعده وزوجها يطرسان على آثار هذا المغالى
بالآثار الاسلامية والنصرانية . ولما جاءت الوفاة أوصت بالقسم الذي جمعته
في حياتها والذي ورثته عن أبيها لزوجها السنيور اوسما على أن تدعى المجموعة
كلها باسم لقب والدها فسميت مجموعة مجمع بلنسية للدون خوان

Justituto de Valencia de Don Juan الحديثة فبنى الدار الأولى على الطراز الاندلسي والثانية على الطراز المسيحي
في القرون الوسطى وكلا الدارين متلاصقان جعلت كل مجموعة في الدار التي تناسبها

فأصبحت الدار ان متحفاً مرتباً ترتيباً علمياً رافياً بمعرفة صاحبها الآن وإشارة من يختلف الى داره من غلاة العاديات والآثار وحملات العلوم والفنون الذين يضمهم في ناديه مرة في الاسبوع يتفاوضون الصناعات والنفائس . وقد وقف الوزير المولع بالآثار مؤخراً بمجموعته البديعة وأقام عليها خمسة من الامناء منهم الاستاذ آسين المشار اليه ووقف عليها مبلغاً من المال لا يقل عن خمسة ملايين بستاس أو نحو عشرة ملايين فرنك بحسابنا اليوم وأعطاه خزانة كتبه البالغة ألفي مجلد على أن تبقى مجموعته ويزاد فيها ليدرس تاريخ الصنائع والفنون في اسبانيا وقد توخى في وصيته تنشيط الطلبة الوطنيين والاجانب على درس هذا الفرع من العلم في اسبانيا وخص المولعين بهذا الشأن من الانكليز ممن يصرفون مدة في مجرط لهذا الغرض يدرسون مجموعته فيعاونهم معاونة مالية وخص من الانكليز طلبة جامعة اكسفورد لانه درس فيها في صباه فأراد أن يعنى عناية خاصة بمن يتخرجون فيها . هذان مثالان من عناية الخلف بآثار السلف ولو قام في أذهان خاصة الاسبان مثل هذه الافكار منذ جلاء العرب عن بلادهم لكانت اليوم مجاميعهم ومجموعاتهم أعظم ثروة خلفتها أمة مغلوبة لامة غالبة ولعدت في اسبانيا من أكبر موجبات فخرها كما تربع ولايات الاندلس اليوم من بقايا الآثار العربية التي يقصدها السياح من عامة أقطار الارض

العلم في الاندلس

٩٦

قال لنا الدكتور روزيه^(١) رئيس جامعة لوزان في سويسرا سابقاً اننى طوفت بلاد الاندلس ورأيت آثارها الباقية من عهد العرب ، فأعجبت بها كل الاعجاب ،

(١) من محاضرة « العرب في الاندلس » القاها في النادي العربي بدمشق مساء ٢ حزيران ١٩١٩ و

ومما شهدته السدود القائمة الى اليوم في ولاية بلنسية ، فان أهل هذه الولاية من الاسبان اليوم يعيشون بفضل هندسة مهندسى العرب لهذه السدود ، ولم يتيسر لمدينة القرن العشرين أن تقيم أرقى مما أنشأه أبناء جنسكم في القرون الوسطى ، ولحسن الحظ لم يقو التعصب الدينى الذى دك كثيراً من المعالم فى أرض أندلس على نفس هذه السكور على وادى الأحمر وغيرها والا لهلك أهل ذاك الاقليم عطشاً . ومن الاسف ان مدينة هذه بعض آثارها تذهب ولا من يبكيها ، فقبح من قضوا عليها ، وأوصلوكم الى ما أنتم عليه من الانحطاط .

جملة لا يزال صداها يتردد في أذنتنا منذ فاوينا بها العالم السويسرى من بضع سنين وقد ذكرنا به عهد الاندلس وعهد عمرانه الزاهر ، وارتقائه الباهر . ذكرنا بالامس أمة عربية أوروبية تشبه الغربيين فى تصوراتها وآدابها وعلومها ، ولكنها شرقية عربية مسلمة باقامة شعائر دينها وأخلاقها وعاداتها ، وقلنا اننا معاشر العرب على كثرة عنايتنا أيام عزنا بتقييد علوم ديننا ولساننا وما الى ذلك ، لم نكن فى العناية بالعلوم التى هى اليوم العلوم الحقيقية كالرياضيات والطبيعات والكيمياء والفلسفة والطب والفلك دون ذلك بكثير ، والا لما قامت مصانع الاندلس على النظام الذى يرى الناس أثره ويعجبون به على اختلاف العصور ، ولما أعجب الاستاذ روزيه اليوم بهندسة العرب لسدود بلنسية الباقية لعهدنا . بعد انقراض دولة العرب من تلك البلاد زهاء أربعة قرون .

ولقد حدث الثقات ان الغربيين من المجاورين للاندلس كالفرنجة أى الفرنسيين والالمان وسكان بر رومية أى الطليان وكانوا أمثل الافرنج مدينة لذلك العهد لم يكونوا الا دون جيرانهم عرب الاندلس فى العلم وأعمال العمران والصناعات والزراعة ولولا علماء الكيمياء والمهندسة والنبات والطب من العرب لتأخرت المدنية فى أوربا زمناً طويلاً .

ولذلك كانت الاندلس فى عهد العرب كعبة العلم يحج اليها أذكىاء الطلاب من فرنسا وإيطاليا وغيرها كما يحج اليوم طلاب العلم الى كليات فرنسا والمانيا وانكلترا والبلجيك وسويسرا وهولاندة

أخذ عشرات من الافرنج العلوم عن عرب الاندلس وترجموها باللاتينية ومنها ما فقد أصله العربي اليوم وبقيت ترجمته فقط ^(١) . وأن العلوم التي تلقاها جربرت الذي أصبح بابا رومية باسم سلفستر الثاني عن عرب الاندلس كانت موضوع اعجاب معاصريه حتى أنهموه بالسحر .

كانت الاندلس قبل أن تغلب بنى أمية عليها سنة ٩٢ هـ خالية من العلم لم يشتهر عند أهلها أحد بالاعتناء به ، إلا إنه يوجد فيها طلسمات قديمة في مواضع مختلفة وقع الاجماع على أنها من عمل ملوك رومية اذ كانت الاندلس منتظمة بمملكته . ولما استقر الامر لبنى أمية غنى جماعة من أهلها بطلب الفلسفة ونالوا أجزاء كثيرة منها وفي أيام الامير الخامس من بنى أمية وهو محمد بن عبدالرحمن أي في أواسط المئة الثالثة تحرك أفراد من الناس الى طلب العلوم أي غير علوم الشريعة واللغة ولم يزالوا يظهرون ظهوراً غير شائع الى قريب وسط المائة الرابعة . ذلك لان رجال الدين كانوا أصحاب صولة وتأثير في النفوس ، ومن عادة من جهل شيئاً أن يعاديه . فتوهم بعضهم ان هذه العلوم الدنيوية مدرجة الى الزهد في العلوم الاخرية ، فكانوا يشددون النكير على من يتعاطونها ، ولكن أكثر ملوك بنى أمية ومن بعدهم من ملوك الاندلس ، كانوا أعقل من أن يطاوعوهم في النيل ممن يريدون الايقاع بهم ، لمخالفتهم لهم في العلوم التي يمتنون بها .

اشتهر بين وسطي المئة الثالثة والرابعة من العلماء أبو عبيدة مسلم البلنسى المعروف بصاحب القبله كان عالماً بحركات الكواكب وأحكامها وصاحب فقه وحديث ومنهم يحيى بن يحيى المعروف بابن السمينه من أهل قرطبة كان بصيراً بحساب النجوم والطب وغير ذلك ، متصرفاً في العلوم ، متفنناً في ضروب المعارف ، وكان معتزلي المذهب ، توفي سنة ٣١٥ ومنهم محمد بن اسمعيل المعروف بالحكيم وكان عالماً بالحساب والمنطق نحويّاً لغويّاً توفي سنة ٣٣١

انتدب الامير الحكم في أيام أبيه عبد الرحمن صدر المائة الرابعة الى العناية

(١) راجع ما كتبه هوار في تاريخ العرب في أسماء قلعة الافرنج في العلوم عند العرب وما كتبه نالينو في كتابه علم الفلك عند العرب المطبوع في رومية .

بالعلوم فاستجلب من بغداد ومصر وغيرها من ديار الشرق عيود التواليف الجليلة في العلوم القديمة والحديثة ، وجمع منها في بقية أيام أبيه ثم في مدة ملكه ما كاد يضاهي ما جمعه ملوك بني العباس في الأزمان الطويلة ، فكثرت تحرك الناس في أيامه الى قراءة كتب الأوائل وتعلم مذاهبهم .

وقام بعده ابنه هشام فعمد الى خزائن أبيه الحكم الجامعة للكتب المذكورة وغيرها وأراد استخراج ما فيها من ضروب التأليف بمحضر خواص من أهل العلم بالدين وأمرهم باخراج ما في جملتها من كتب العلوم القديمة المؤلفة في علوم المنطق وعلم النجوم وغير ذلك من علوم الأوائل حاشا الطب والحساب وأمر باحراق ما عدا ذلك وافسادها فاحرق بعضها ، وطرح بعضها في آبار القصر . وهيل عليها التراب والحجارة ، وغيرت بضروب من التغاير ، فعل ذلك تحبباً الى عوام الاندلس وتقبيحاً لمذهب الخليفة الحكم عندهم ، اذ كانت تلك العلوم مهجورة عند اسلافهم ، مذمومة بالسنة رؤسائهم ، وكان كل من قرأها متهماً عندهم بالخروج عن الملة ، ومظنوناً به الالحاد في الشريعة ، فسكن أكثر من كان تحرك للحكمة عند ذلك ، واضمحلت نفوسهم ، وتستروا بما كان عندهم من تلك العلوم ، ولم يزل أولو النباهة من ذلك الوقت يكتمون ما يعرفونه منها ويظهرون ما تجوز لهم فيه من الحساب والفرائض والطب وما أشبه ذلك الى أن انقرضت دولة بني أمية من الاندلس .

قال هذا القاضي صاعد وتؤيده رواية ابن سعيد في المغرب قال : وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء ، الا الفلسفة والتنجيم فان لها حظاً عظيماً عند خواصهم ، ولا يتظاهر بها خوف العامة ، فانه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق ، وقيدت عليه أنفاسه . فان زل في شبهة رجوه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة ، وكثيراً ما يأمر ملوكهم باحراق كتب هذا الشأن اذا وجدت وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه وان كان غير خال من الاشتغال بذلك في الباطن على ما ذكره الحجاري .

قال ابن حزم : وأما كتب الفلسفة فاما ما في عصرنا أبو الوليد بن رشد القرطبي وله فيها تصانيف جعدها لما رأى من انحراف منصور بن عبد المؤمن عن هذا العلم وسجنه بسببها وكذلك ابن حبيب الذي قتله المأمون بن منصور المذكور على هذا العلم بأشبيلية وهو علم ممقوت بالاندلس لا يستطيع صاحبه اظهاره ، وكان مطرف الاشبيلي قد اشتغل بالتصنيف في علم النجوم ، الا أن أهل بلده كانوا ينسبونه الى الزندقة بسبب اعتكافه على هذا الشأن ، فكان لا يظهر شيئاً مما يصنف .

وقال أيضاً من رسالة أهل قرطبة : انهم من المتكمن في علوم القراءات والروايات فقط وكثير من الفقه والبصر بالنحو والشعر واللغة والخبر والطب والحساب والنجوم بمكان رحب الفناء ، واسع العطن ، متناهي الاقطار فسيح المجال . وقد ذكر ابن حزم في رسالته هذه من نبغ في الاندلس من المؤلفين في علوم الدين والنسب والتاريخ والطب وعد بعض كتبهم قال : وأما الفلسفة فاني رأيت فيها رسائل مجموعة وعيوناً مؤلفة لسعيد بن فتحون السرقسطي دالة على تمكنه من هذه الصناعة واما رسائل أستاذنا أبي عبد الله محمد بن الحسن المذحجي في ذلك فمشهورة متداولة ، وتامة الحسن ، فائقة الجودة عظيمة المنفعة . وقال لم يؤلف في الازياج مثل زيج مسلمة وزيج ابن السمع ، وهما من أهل بلادنا وكذلك أحمد بن نصر . وقال آخر : وأما كتب علم الموسيقى فكتاب أبي بكر بن باجة الغرناطي من ذلك فيه كفاية ، وهو في الغرب بمنزلة أبي نصر الفارابي بالشرق واليه تنتسب الألحان المطربة بالاندلس التي عليها الاعتماد ، وليحيي الخلدج كتاب الاغانى الاندلسية على منزع الاغانى لأبي الفرج ، وهو ممن أدرك المئة السابعة قال صاعد : ولما افترق الملك في صدر المائة الخامسة من الهجرة بين ملوك الطوائف واقتعد كل منهم قاعدة من أمهات البلاد ، فاشتغل بهم ملوك الحاضرة العظمى قرطبة من امتحان الناس ، واضطرت الفتنة الى بيع ما كان بقصر قرطبة من ذخائر ملوك الجماعة من الكتب وسائر المتاع ، فبيع ذلك باوكس ثمن ، واتفق قيمة ، انتشرت

تلك الكتب بأقطار الاندلس ، ووجد في خلالها اطلاق من العلوم القديمة ، كانت أفانت من أيدي المتحنيين بحركة الحكم أيام المنصور بن أبي طاهر وأظهر أيضاً كل من كان عنده من الرعية شيء ما كان لديه منها ، فلم تزل الرغبة ترتفع من حين ذلك في طلب العلم القديم شيئاً فشيئاً ، ثم أبيضت تلك العلوم الى أن زهد الملوك فيها وفي غيرها فقل طلاب العلم وصاروا افراداً بالاندلس .

فمن اعلام هذه العلوم على ذلك العهد أبو غالب بن عبادة الفرائضي كان مشهوراً بعلم العدد وأبو أيوب عبد الغافر بن محمد أحد المهرة بعلم الهندسة . وعبد الله ابن محمد المعروف بالسري كان عالماً بالعدد والهندسة وكان ينسب اليه العلم بصناعة الكيمياء ومنهم أبو بكر بن أبي عيسى كان مقدماً في العدد والهندسة والنجوم وسائر العلوم الرياضية فكان يجلس لتعليم ذلك في أيام الحكم . وعبد الرحمن ابن اسمعيل بن زيد المعروف بالاقليدي كان متقدماً في علم الهندسة معتنياً بصناعة المنطق وأحمد بن حماد القرطبي (٣٣١) عالم بالحساب والهندسة وأبو القاسم أحمد ابن محمد العدوي كان معلماً بعلم العدد والهندسة نافذاً فيها وأبو عثمان سعيد ابن فتحون بن مكرم المعروف بالتمار السرقسطي كان محققاً اماماً في علم النحو واللغة ، وله تأليف في الموسيقى ورسائل في الفلسفة . وأبو القاسم مسلمة بن أحمد المعروف بالمرحيط كان امام الرياضيين في الاندلس في وقته ، واعلم ممن كان قبله بعلم الافلاك ، وكانت له عناية بارصاد الكواكب وله كتاب حسن في تمام علم العدد وهو المعنى المعروف بالمعاملات ، وكتاب اختصر فيه تعديل الكواكب من زيح البتاني ، وغنى بزيج محمد بن موسى الخوارزمي ، وصرف تاريخه الفارسي الى التاريخ العربي ، ووضع أوساط الكواكب لأول تاريخ الهجرة وزاد فيه جداول حسنة توفي في سنة ٣٩٨ وقد أنجب تلاميذ جلة ، ولم ينجب عالم بالاندلس مثلهم ، فمن أشهرهم ابن السمع وابن الصغار والزهراني والكرماني وابن خلدون فاما ابن السمع القائم أصبغ بن محمد بن السمع المهندس فكان متحققاً بعلم العدد والهندسة متقدماً في علم هيئة الافلاك وحركات النجوم ، وكانت له مع

ذلك عناية بالطب وله تواليف حسنة في الهندسة وعمل الاسطرلاب والازياج ،
ومنها زيجه الذى ألفه على أحد مذاهب الهند المعروف بالسند هند توفى سنة ٤٢٦
وأما ابن الصفار فهو أبو القاسم أحمد بن عبد الله بن عمر كان متحققاً أيضاً بعلم
العدد والهندسة والنجوم ، وقعد في قرطبة لتعليم ذلك ، وكان له أخ يسمى محمداً
مشهور بعمل الاسطرلاب ، لم يكن بالاندلس قبله أجمل صنفاً لها منه .

وأما الزهراوى فهو أبو الحسن على بن سليمان كان عالماً بالعدد والهندسة
معتنياً بعلم الطب . وأما الكرماني فهو أبو الحكم عمرو بن عبد الرحمن من أهل
قرطبة أحد الراسخين في علم العدد والهندسة ، رحل الى الشرق وانهى الى حران
من بلاد الجزيرة وعنى هناك بعلم الهندسة والطب ثم رجع الى بلاد الاندلس وجلب
معه الرسائل المعروفة برسائل اخوان الصفا ، ولم يدخلها أحد من أهل الاندلس
قبله ، ومحل من العلوم النظرية المحل الذى لا يجارى فيه ، توفى بسرقطة سنة
٤٥٨ وأما ابن خلدون (هو غير عبد الرحمن بن خلدون المؤرخ) فهو أبو مسلم
عمرو بن أحمد بن خلدون الحضرمي من اشراف أهل اشبيلية في علوم الفلسفة
مشهور بعلم الهندسة والنجوم والطب ، مشبهاً بالفلاسفة في اصلاح أخلاقه ،
وتعديل سيرته ، وتقويم سياسته ، توفى سنة ٤٤٩

ومن مشاهير تلاميذ أبي القاسم أحمد بن عبد الله الصفار ابن برغوث والواسطي
وابن شهر والقرشي والامطش المرواني وابن المطار فاما ابن برغوث فهو محمد بن
عمر بن محمد المعروف بابن برغوث كان متحققاً بالعلوم الرياضية مختصاً منها بإثبات
علم الافلاك وهيئتها وحركات الكواكب وارصادها وكان له مع ذلك تحقق بعلم
النحو ، ومعرفة القرآن والفقه والوثائق ، واشراف حسن على سائر العلوم ، توفى
سنة ٤٤٤ وأما الواسطي فهو أبو الاصبع عيسى بن أحمد أحد المتكئين من علم
العدد والهندسة والفرائض وقعد بقرطبة لتعليم ذلك ، وله أيضاً بصير بجمال من
علم هيئة الافلاك وحركات النجوم ، وأما ابن شهر فهو أبو الحسن مختار بن شهر
الرعيى كان بصيراً بالهندسة في النجوم متقدماً في اللغة والنحو والحديث والفقه

شاعراً متكهما ذا دهاء ومعرفة بالسير والتواريخ وأما ابن العطار فهو محمد بن خيرة العطار فكان من تلاميذ ابن الصفار متقناً لعلم العدد والهندسة والفرائض وله بصر بصناعة النجوم وعناية بعلم حركاتها .

ومن مشاهير تلاميذ ابن السمع أبو مروان سليمان بن محمد بن عيسى بن الناشي وهو بصير بالعدد والهندسة معتن بصناعة الطب وأحكام النجوم وأبو جعفر أحمد بن عبد الله المعروف بابن الصفار المتطبب ومن نظراء هذه الطبقة عبد الله ابن أحمد السرقسطي كان نافذاً في علم العدد والهندسة والنجوم . وقعد لتعليم ذلك في بلده توفي سنة ٤٤٨ ومنهم أبو اسحق ابراهيم بن أحمد بن ابراهيم الاشبيلي كان بصيراً بعلوم البرهان والاسان والمساءلة متفنناً في ضروب المعارف صنعا لطيف اليد توفي سنة ٤٢٠

ومن مشاهير أصحاب ابن برغوث ابن الليث وابن الجلاب وابن حي قاما ابن الليث فهو محمد بن أحمد بن الليث كان متحققاً بعلم العدد والهندسة معتنياً بعلم حركات الكواكب وارصادها وكان مع هذا بصيراً بالنجوم واللغة والفقه توفي سنة ٤٠٥ وأما ابن حي فهو الحسن بن محمد التجيبي من أهل قرطبة كان بصيراً بالهندسة والنجوم كلفا بصناعة التعديل وله فيها مختصر على مذهب السند هند وخرج من الاندلس سنة ٤٤٢ ولحق بمصر ثم رحل الى اليمن واتصل بأميرها المسيحي وكان ملكه اذذاك يشتمل على بعض أفريقية وجميع مصر والشام وجزيرة العرب والحجاز وتهامة ونجد واليمن حظى عنده وتوفي سنة ٤٥٦ وأما ابن الجلاب فهو الحسن بن عبد الرحمن المعروف بابن الجلاب أحد المتحققين بعلم الهندسة وهيئة الافلاك وحركات النجوم وله مع ذلك عناية بالمنطق والعلم الطبيعي .

ومنهم أبو الوليد هشام بن أحمد بن هشام بن خالد الكنانى المعروف بابن الوقشي من أهل طليطلة أحد المتفنيين في العلوم المتوسعين في ضروب المعارف من أهل المكر الصحيح والنظر الناقد والتحقيق بصناعة الهندسة والمنطق والرسوخ في علم النحو واللغة والشعر والخطابة والاحكام لعلم الفقه والأثر والكلام وهو

مع ذلك شاعر بليغ ليس يفضله عالم بالانساب والأخبار والسير مشرف على جمل سائر العلوم ومن نظراء هؤلاء أبو جعفر أحمد بن خميس بن عامر بن منيع من أهل طليطلة أحد المعتنين بعلم الهندسة والنجوم والطب وهو من لدات القاضي أبي الوليد هشام بن أحمد بن هشام وأبي اسحق إبراهيم بن لب التجيبي المعروف بالقويديس قعد للتعليم بذلك زمنا وكان له بصر بعلم هيئة الافلاك وحركات النجوم وتقوذي العربية توفي سنة ٤٥٤ ومنهم محمد بن عبد الله بن مرشد مولى ابن طلحس الوزير كان كاتباً كامل الصناعة يجمع الى ذلك النبوغ في علوم كثيرة من الحساب والتنجيم والهندسة توفي سنة ٤٤٨

وكان في القرن الخامس للهجرة افراد من الاحداث في الاندلس مشغولون بعلم الفلسفة ذوو افهام صحيحة وهم رقيقة فمهم من سكان طليطلة وجهاتها أبو الحسن علي بن خلف بن أحر وأبو مروان عبد الله بن خلف الاستجبي وأبو جعفر أحمد ابن يوسف التهلاكي وعيسى بن أحمد بن العالم وإبراهيم بن سعيد السهيلي الاضطرابي. ومن أهل سرقسطة الحاجب أبو عامر بن الأمير المقتدر بالله وأبو جعفر أحمد ابن جوشن. ومن أهل بلنسية أبو زيد عبد الرحمن بن سيد.

وأبرع هؤلاء في الهندسة علي بن أحر الصيدلاني وأبو جعفر أحمد بن جوشن وأعلمهم بحركات النجوم وهيئة الافلاك أبو اسحق إبراهيم بن يحيى النقاش المعروف بولد الزرقبال - والزرقبال نسبة لآلة مموها الزرقلة وهي صحيفة لرصد لكواكب - فانه أبصر أهل القرن الخامس بارصاد الكواكب وهيئة الافلاك بحساب حركاتها وأعلمهم بعلم الازياج واستنباط الآلات النجومية وأحمد بن يوسف يعرف بابن كاد (حماد؟) كان من أهل المعرفة بالعدد وصناعة لنجامة وبنى ازياجه ومنها القبس والمستنبط على ارصاد أبي اسحق الطليطلي المعروف بالزرقالة وأما أبو عامر بن الأمير بن هود فهو مع مشاركته لهؤلاء العلم الرياضي منفرد دونهم بعلم المنطق والعناية بالعلم الطبيعي والعلم الالهي. وكان عبد الرحمن بن اسمعيل بن بدر المعروف بالاقليديس الاندلسي متقدما

في علم الهندسة معتنياً بصناعة المنطق . وموسى بن ميمون الاسرائيلي الاندلسي قرأ علم الأوائل واحكم الرياضيات وشدا أشياء من المنطقيات وأبو بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة عالماً بعلوم الأوائل لم يبلغ أحد درجته من أهل عصره في مصره وله تصانيف في الرياضيات والمنطق والهندسة أربى فيها على المتقدمين قال القفطي إلا أنه يتمسك بالسياسة المدنية وينحرف عن الأوامر الشرعية استوزره أبو بكر يحيى بن تاشفين مدة عشرين سنة وكانت وفاته في سنة ٥٣٣ وممن اعتنى بصناعة المنطق خاصة من سائر الفلاسفة أبو محمد بن حزم القرشي وكان أبوه أحد العظماء من وزراء المنصور محمد بن أبي طامر ووزر لابنه المظفر. وكان ابنه أبو محمد وزيراً أيضاً لعبد الرحمن المستظهر بالله ثم نبذه هذه الطريقة وأقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن وعنى بعلم المنطق . ومنهم أبو الحسن علي بن اسمعيل بن سيده الاعمى وكان أبوه أيضاً أعمى عنى بعلوم المنطق عناية طويلة وألف فيها تأليفاً كبيراً ذهب فيه الى مذهب متي بن يونس وهو بعد هذا أعلم أهل الاندلس قاطبة بالنحو واللغة والأشعار وله في اللغة تواليف جليلة منها المحكم والمحيط الأعظم والمخصص وشرح اصلاح المنطق وشرح كتاب الحماسة ٤٥٨ ومن أعاجيب النوابغ الاندلسيين الذين فقدوا بصرهم ولم يفقدوا بصيرتهم ابن الحناط الكفيف الذي قال فيه ابن حيازانه كان أوسع الناس علماً بعلوم الجاهلية والاسلام بصيراً بالآثار العلوية عالماً بالافلاك والهيئة حاذقاً بالطب والفلسفة ، ماهراً في العربية واللغة والآداب الاسلامية ، وسائر التعاليم الاوائلية ، ولد أعشى ضعيف البصر ، متوقد الخاطر ، فقرأ كثيراً في حال عشا ، ثم طوى نور عينيه بالكلية فازداد براعة ونظر في الطب بعد ذلك فأنجح علاجاً وكان ابنه يصف له مياه الناس المستفتين عنده فيهدى منها الى مالا يهتدى البصير ولا يخطئ الصواب في فتواه ببراعة الاستنباط ، وتطبب عنده الاعيان والملوك والخاصة فاعترف له بمنافع جسيمة .

وأما العلم الطبيعي والعلم الألهي فلم يكن أحد من أهل الاندلس بهما كبير

عناية ومن المشتغلين بهما ابن النباش التيجاني وأبو عامر بن الأمير بن هود وأبو الفضل بن حسداى الاسرائيلى . وأما صناعة الطب فلم يكن بالاندلس من استوعبها ولا لحق بأحد من المتقدمين فيها وأول من اشتهر منهم بالاندلس أحمد ابن اياس من أهل قرطبة ومحمد بن عبد الله الأوسط ويعرف بالحرانى ومنهم يحيى بن اسحق أحد وزراء الناصر لدين الله وسعيد بن عبد الرحمن بن محمد ابن عبد ربه مولى الأمير هشام الرضى بن عبد الرحمن الداخل وهو ابن أخى أحمد بن محمد بن عبد ربه الشاعر صاحب العقد وكان له بصر بمحركات النجوم ومهاب الرياح وتغيير الأهوية . ومنهم عمر بن بريق واصبغ بن يحيى وأحمد ابن حكم بن حفصون وكان هذا طبيباً نبيلاً ، دقيق النظر ، بصيراً بالمنطق ، مشرفاً على كثير من علوم الفلسفة ، ومنهم محمد بن تميم وأبو الوليد محمد بن الحسين المعروف بابن الكنانى كان عالماً بالطب حسن العلاج ومنهم عبد الملك الثقفى كان عالماً بالطب والهندسة وكان الطب أغلب عليه ومنهم عمر وأحمد ابنا يونس بن أحمد الحرانى . ومنهم محمد بن عبدون الجبلى وكان قبل ان يتطب مؤدباً فى الحساب والهندسة ومنهم سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل وعبد الله ابن اسحق المعروف بابن الشناعة المسلمانى الاسرائيلى وأبو عبد الله محمد بن الحسين المعروف بابن الكنانى المظفر وكان بصيراً بالطب متقدماً فيه ذاحظ من المنطق والنجوم وكثير من علوم الفلسفة ومنهم أبو العرب يوسف بن محمد أحد المتحققين بصناعة الطب توفى سنة ٤٣٠

ومن أشهرهم أحمد بن ابراهيم الانصارى من أهل بلنسية كان من أهل العلم بالفرائض والحساب لايجارى فى التعاليم قعد لتعليم الحساب والهندسة ٥٩٣ ومنهم أبو عثمان سعيد بن البغونش عالم بعلم العدد والهندسة والطب ٤٤٤ ومنهم الوزير أبو المطرف عبد الرحمن اللخمي عنى عناية بالغة بقراءة كتب جالينوس وارسطوطاليس وغيرها من الفلاسفة وتمهر فى علوم الادوية المفردة حتى ضبط منها ما لم يضبطه أحد فى عصره وألف فيها كتاباً جديلاً لا نظير له جمع فيه ما تضمنه كتاب ديسقوريدوس

وكتاب جالينوس في الأدوية المفردة وكان له في الطب منزع لطيف ، وذلك أنه لا يرى التداوى بالأدوية ما أمكن التداوى بالأغذية أو ما كان قريباً منها ، فإذا دعت الضرورة إلى الأدوية فلا يرى التداوى بمركبها ، ما وصل إلى التداوى بمفردها ، فإن اضطر إلى المركب ، لم يكثر التركيب ، بل اقتصر على أقل ما يمكن منه .
ومنهم أبو مروان بن زهر الأشبيلي وأبو محمد عبد الله بن محمد المعروف بابن الذهب وأبو عبد الله محمد البجائي المعروف بابن النباش معتن بصناعة الطب ذو معرفة جيدة بالعلم الطبيعي ومشاركة في الإلهي وتحقيق بعلم الأخلاق والسياسة وبصر بصناعة المنطق . وممن غنى بطلب الفلسفة والهندسة والمنطق أبو الحسن عبد الرحمن بن خلف بن عساكر كان صنع اليدين متصرفاً في ضروب من الأعمال اللطيفة والصناعات الدقيقة .

ولم تزل صناعة أحكام النجوم نافقة بالاندلس قديماً وحديثاً فمن مشاهير المشتغلين بها أبو بكر يحيى بن أحمد المعروف بابن الخياط وأبو مروان الاستجى أحد المتحققين بعلم الأحكام والمشرفين على كتب الأوائل والآخر وله في التسييرات ومطارح الشعاعات وتعليل بعض أصول الصناعة رسالة فاضلة لم يتقدمه أحد إليها .
ومن المذكورين أبو الأصبع عثمان القرني من أهل قرطبة وكان علمه الذي ينسب إليه ويغلب عليه التنجيم ومنهم عبد الرحمن بن وافد اللخمي من أهل طليطلة رحل إلى قرطبة فلقى بها القاسم خلف بن عباس الزهراوى وأخذ عنه علم الطب وكان مع تقدمه في ذلك فقيهاً عالماً متفنناً وله في الفلاحة مجموع مفيد وكان عارفاً بوجوهها وهو الذى تولى غرس جنة المأمون بن ذى النون الشهيرة بطليطلة توفى سنة ٥٦٧ وممن لم يشتهروا محمد بن عيسى بن ينق أبو عامر من أهل شاطبة لازم أبا العلاء بن زهر باشبيلية وأخذ عنه علمه وبرع في الطب والأدب وتوفى سنة ٥٤٧

ومن الأطباء بالاندلس جواد الطبيب النصراني كان في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط وله اللعوق المنسوب إلى جواد وله دواء الراهب والشرابات

والسفوفات . وكان خالد بن يزيد بن رومان النصراني بقرطبة صانعاً بيده طالعاً بالادوية الشجارية وابن ملوكة النصراني كان في أيام الامير عبيد الله وأول دولة الامير عبد الرحمن الناصر وكان يصنع بيده ويفصد المروق وكان على يابه ثلاثون كرسياً لقعود الناس وعمران بن أبي عمرو واسحق الطيب المسيحي كان مقياً بقرطبة وكان صانعاً بيده مجرباً يحكى له منافع عظيمة وآثار عجيبة وتحنك فاق به جميع أهل دهره ومنهم سليمان أبو بكر بن تاج كان في دولة الناصر وابن أم المؤمنين وأبو بكر احمد بن جابر وأبو عبد الملك الثقفي كان أديباً طالماً بكتاب اقليدس وبصناعة المساحة وهرون بن موسى الاشبولي وعبد الرحمن بن اسحق بن الهيثم والرميلي كان بالمرية في أيام ابن معن المعروف بابن صمادح ويلقب بالمعتصم بالله ومنهم بن الفوال يهودي من سكان سرقسطة كان متقدماً في صناعة الطب متصرفاً في علم المنطق وسائر علوم الفلسفة ومروان بن جناح كان يهودياً وله عناية بصناعة المنطق وتوسع في علم لسان العرب واليهود ومعرفة جيدة بصناعة الطب ومنهم اسحق بن قسطار وكان يهودياً أيضاً وكان بصيراً بأصول الطب مشاركاً في علم المنطق مشرفاً على آراء الفلاسفة وله تقدم في اللغة العبرانية وبراعة في فقه اليهود وهو حبر من أحبارهم ومنهم حسداي بن اسحق وكان من أحبار اليهود متقدماً في علم شريعتهم وهو أول من فتح لاهل الاندلس منهم باب علمهم من الفقه والتاريخ وغير ذلك وكانوا قبل يضطرون في فقه دينهم وسنى تاريخهم ومواقيت أعيادهم الى يهود بغداد فيستجلبون من عندهم حساب عدة من السنين يتعرفون مداخل تاريخهم ومبادئ سنينهم فلما اتصل حسداي بالحكم ونال عنده نهاية الخطوة توصل به الى استجلاب ما شاء من تأليف اليهود بالمشرق فعلم حينئذ يهود الاندلس ما كانوا يجهلون واستغزوا عما كانوا يتجشمون الكلفة فيه .

ومنهم الفضل حسداي من ساكني مدينة سرقسطة ومن بيت شرف اليهود بالاندلس غنى بالعلوم على مراتبها وتناول المعارف من طرقها فاحكم علم

لسان العرب ونال حظاً جزيلاً من صناعة الشعر والبلاغة وبرع في علم العدد والهندسة وعلم النجوم وفهم صناعة الموسيقى ، وحاول عملها وأتقن علم المنطق وتعمّن بطرق البحث والنظر واشتغل أيضاً بالعلم الطبيعى ، وكان له نظر في الطب ومنهم أبو جعفر بن أحمد بن حسداى كان آية في الطب والمنطق ومنهم ابن ميمحون أبو بكر حامد .

وكان أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكرى من مرسية وأعيان أهل الاندلس وأكابرهم فاضلاً في معرفة الادوية المهردة وكان أبو جعفر الغافقى والشريف محمد بن محمد الحسنى وخلف بن عباس الزهراوى وابن بكلارش من أكابر علماء الاندلس في صناعة الطب وابن الصلت أمية بن عبد العزيز من بلد دانية من شرق الاندلس وهو من أكابر الفضلاء في صناعة الطب وفي غيرها من العلوم وكان أوحداً في العلم الرياضى متقناً لعلم الموسيقى وعمله جيد اللآب بالعود .

ومن أعظم فلاسفة الاندلس أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجة وكان في العلوم الحكمية علامة وقته متميزاً في العربية والادب والطب متقناً لصناعة الموسيقى جيد اللعب بالعود قالوا انه لم يكن بعد أبي نصر الفارابى مثله في الفنون التى تكلم عليها من تلك العلوم فانه اذا قرنت أقاويله فيها بأقاويل ابن سينا والغزالى وهما اللذان فتح عليهم بعد أبي نصر بالمشرق في فهم تلك العلوم ودونا فيها بان لهذا الرجحان في أقاويله وفي حسن فهمه لاقاويل ارسطو والثلاثة أئمة دون ريب ومن حكمائهم الالهيين أو المتصوفين الشيخ الاكبر محيى الدين ابن عربى صاحب الفتوحات دفين دمشق .

ومنهم أبو العلاء بن زهر كان غاية في علوم الاوائل والطب وأبو مروان ابن أبي العلاء زهر وكان من كبار الاطباء . والحفيد أبو بكر بن زهر كان متميزاً في العلوم ولم يكن في زمانه أعلم منه بصناعة الطب ومنهم أبو الحفيد محمد ابن أبي بكر بن زهر وأبو جعفر بن هارون الترجالى من أعيان اشبيلية وكان

محققا للعلوم الحكمية متقنا لها معتنيا بكتب ارسطاطاليس وغيره من الحكماء المتقدمين فاضلا في صناعة الطب عالما بصناعة الكحل ، وأبو الحجاج يوسف ابن موراطير من شرق الاندلس وموراطير قرية من بلنسية كان فاضلا في صناعة الطب فالامور الشرعية أديبا شاعرا ومنهم ابن أخته أبو عبد الله بن يزيد وأبو مروان عبد الملك بن قبال وأبو اسحق ابراهيم الداني وكان أمين البيمارستان وطيبه بالحضرة وكذلك ولداه وأبو يحيى بن قاسم الاشبيلي كان صاحب خزانة الاشربة والمعاجين التي يأخذها الخليفة المنصور من عنده .

وأبو الحكم بن غلندو الطبيب وأبو جعفر احمد بن حسان وأبو العلاء بن أبي جعفر احمد بن حسان وأبو محمد الشذوني وله معرفة جيدة بعلم الهيئة والحكمة والطب مشهور بالعلم وأبو الحسين بن اسدون شهر بالمصدوم الطبيب وعبد العزيز ابن مسلمة الباجي وأبو جعفر بن الغزال وأبو بكر بن القاضي أبي الحسن الزهرى وابن الحلاء المرسى وأبو اسحق بن طملوس من جزيرة شقر من أعمال بلنسية وأبو جعفر الذهبي وأبو العباس بن رومية النبائي العشاب وأبو العباس الكنبنازي وابن الاصم وغيرهم من الأطباء الذين كانوا يجمعون الى الطب أدبا وشعرا أوفقها وحديثا وقرآنا أو فلسفة ومنطقا أو نجوما أو كيمياء .

هذه جملة اجمالية في بعض رجال العلم غير الدينى في الاندلس ذاك القطر الذي اليه تنسب نحو نصف المدنية العربية الذي نقل أهله المدنية القديمة الى أهل المدنية الحديثة فكانوا خير صلة وطائد بين الرومان واليونان والفرس وبين الانكليز والاطليان والالمان والفرنسيين وقد تم ما تم من ذلك بفضل عقول خلفاء العرب وملوكهم هناك فقد كان أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أحد ملوك الاندلس عالما مفننا مكرما للعلماء والشعراء ولم يزل يبحث عن العلماء وخاصة أهل علم النظر الى أن اجتمع له منهم مالم يجتمع لملك قبله من ملوك المغرب وكان ممن صحبه من العلماء والمتفنيين أبو بكر محمد بن طفيل أحد فلاسفة المسلمين وكان هذا متحققا بجميع أجزاء الفلسفة يأخذ الجامكية مع عدة أصناف من الخدمة من

الاطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة والاجناد الى غير هؤلاء من الطوائف وكان يقول لو تفق عليهم علم الموسيقى لا تفقته عندهم ولم يزل أبو بكر يجلب اليه العلماء من جميع الاقطار وينبه عليهم ويحضه على اكرامهم والتنويه بهم ، وهو الذي نبه الى أبي الوليد محمد بن رشد ، وأشار اليه بتلخيص كتب الحكيم ارسطاطاليس لان أمير المؤمنين كان يشكو من قلق عبارته أو عبارة المترجمين عنه وغموض أغراضه .

ومن المتأخرين في هذه العلوم أبو علي الصمعليل حسن بن محمد رئيس الموقتين بالمسجد الأعظم من غرناطة (٧١٦) قال لسان الدين : وكان فقيها اماما في علم الحساب والهيئة أخذ عنه الجلة والنهلاء قائما على الاطلاع والرخائم والآلات الشعاعية ماهراً في التعديل مداوم النظر ذا استنباطات ومستدركات وتواليف نسيج وحده ورجعة وقته ، ومثل أبي جعفر أحمد بن حسن بن باضة السلمي الموقت بالمسجد الأعظم بغرناطة كان نسيج وحده وقريم دهره معرفة بالهيئة وأحكاماً للآلة الفلكية ينبعث منها يده ذخائر يقف عندها النظر وتستدعي الحيرة جمال خط واستواء صنعة وصحة وضع وبلغ في ذلك درجة عالية ونال عناية بعيدة حتى فضل بما ينسب اليه من ذلك كثيراً من الاعلام المتقدمين وازرت آلاته بالجمائريات والصفاريات وغيرها من آلات المحكمين وتغالى الناس في أثمانها أخذ ذلك عن والده الشيخ المتفنن شيخ الجماعة في هذا الفن ، ومثل أبي العباس أحمد بن مفرج النبائي المشهور (٦٣٨) وابن جابر الرياضي المشهور والوزير ابن الحاج (٧١٤) كان من العارفين بالحيل الهندسية بصيراً باتخاذ الآلة الحرية الجافية والعمل بها انتقل الى فاس واتخذ الدولاب المنفسح القطر البعيد المدى ، والمحيط المتعدد الاكواب الخفي الحركة ، ومنهم ابن خاتمة الاديب الطبيب من أهل المئة الثامنة الذي كتب في الوباء ^(١) كتاباً عرف فيه الميكروب والجراثيم وأثبت العدوى بما لا يقل عن عالم من علماء هذا العصر ، وفيه يقول ابن

الخطيب انه حسنة من حسنات الاندلس ، ومن رجالات الاندلس وأعلامها ابن طلمس الوزير ، كان كاتباً مهندساً الى من ضارعههم في علمهم من الاطباء والفلاسفة والحكماء والكيماويين ممن لا يعدم أناس من المؤرخين في صف العلماء جهلاً وتعنناً .

هذا في العلوم الطبية والطبيعية والفلسفية والفلكية والرياضية وقد نبغ في الانداسيين من العلماء في التاريخ والجغرافيا والادب والرحلات أفراد ما برحت كتاباتهم مرجعاً الى اليوم لكل عالم ومؤلف .

وقد أشبهوا علماء الغرب لهذا العهد في العناية بالعلوم المادية وبرزوا فيها حتى نشأ لهم أئمة عظماء على ما رأيت سابقاً وألفوا فيها فأحسنوا احسانهم في صنائع لا يحسنها الا صنع الايدي دقائق النظر وكثيراً ما كانوا يبسطون المسائل ويتوسعون في تحقيقها ومنهم من يؤلف العشرة والعشرين مجلداً في علم واحد كما فعل أبو حيان مؤرخ الاندلس فالف كتابه في ستين مجلداً وألف أحمد بن أبان صاحب شرطة قرطبة كتاب السماء والعالم في مئة مجلد وموضوعه اللغة جملة على الاجناس في غاية الايعاب بدأ بالفلك وختم بالذرة . وكثر فيهم المكثرون من التأليف المجودون فيها ومنهم من كان له مئة تأليف جيد . وقالوا ان تأليف ابن حزم بلغت نحو أربعمئة مجلد وتوالت في عالم الاندلس عبد الملك بن حبيب السلمي بلغت ألفاً .

ومن مشاهيرهم ابن جبير الكنانى (٦١٤) الذي رحل الى المشرق كما رحل كثير من علماء الاندلس قبله الى مصر والشام والعراق والحجاز وغيرها في طلب العلم وأخذ الحكمة ثم عادوا الى بلادهم وكتب رحلته المشهورة البديعة .

واشتهر في الجغرافيا أبو عبيد البكرى المتوفى سنة ٤٨٧ هـ صاحب كتاب معجم ما استعجم والمسالك والممالك ومحمد بن أبي بكر الزهرى الفرناطي من أهل المئة السادسة والشرىف الادريسي صاحب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ويقال له كتاب رجار وذلك لأنه صنفه باسم رجار الثاني صاحب صقلية وجنوبي ايطاليا سنة ٥٤٨ هـ وغيرهم .

ومن مؤرخيهم الحميدي وابن حيان وابن خلدون وابن الفرضي وابن بسام
 وابن بشكوال وابن الابار وابن سعيد وابن الخطيب ومن أدباؤهم المشهورين
 ابن جزى وابن هانى وابن سهل الاسرائيلي ويحيى القرطبي وابن رزين وابن
 عمار وابن لبون والبايجي وابن الدباغ وابن الجذ وابن القبطرنة وابن عبد البر
 وابن السيد وابن عصام وابن عطية وابن خفاجة وابن وهبون وابن اللبابة
 وابن الصائغ وابن سارة الشنتريني وعبادة وابن وهبون وابن خروف وابن
 خاقان والمصحفي والاشجعي وابن جهور وابن سلمة واللعاني وابن برد وابن أبي
 أمية ومنذر بن سعيد والزيدي وابن القوطية وابن العربي (أبو بكر) وابن الأعم
 والرمادي ومن أدباؤهم حفصة بنت الحاج الركوني وعائشة بنت قادم وفاطمة الشيلاري
 وولادة بنت المستكفي بالله ومريم الفيصولي (الفصولي) وصفية بنت عبد الله
 التبري والفسانية والبلشبية والوادي آشبة ولبنى كاتبة الحكم بن عبد الرحمن ومزنة
 كاتبة الأمير الناصر لدين الله وغالية المعلمة وريحانة المقرئة وفاطمة المغامى ، وقر
 البغدادية وحسنة التميمية وأم العلا بنت يوسف الحجازية وأمة العزيز الشريفة
 الحسينية وأم الكرام بنت المعتصم بن صامح المارية ، والعروضية مولاة أبي
 المطرف عبد الرحمن بن غلبون واعتماد جارية المعتمد المشهورة بالرميكية والعبادية
 جارية المعتضد وبثينة بنت المعتمد بن عباد ، وحفصة بنت حمدون ، وزينب
 المارية ، وغاية المني ، وعائشة القرطبية ، وأسماء العامرية ، وأم الهناء بنت القاضي
 عبد الحق ، ومهجة القرطبية ، وهند جارية عبد الله بن مسلمة الشاطبي الشلبية ،
 وحمة بنت زياد المكتب وأختها زينب ، قال ابن سعيد انهما شاعرتان أدبيتان
 من أهل الجبال والمال والمعارف والصون الا أن حب الادب كان يحملهما على مخالطة
 أهله مع صيانة مشهورة ونزاهة موثوق بها ، وسعدونة وغيرهن

هذه حالة العلوم في تلك المملكة التي بادت وباد سلطانها ، وقد رأيت كيف
 كثرت المهندسون في بانسية وغرناطة وقرطبة واشبيلية وغيرها من حواضر
 الاندلس وبأعمال هؤلاء الاعلام زخر بحر العمران ، وقامت مدينة العرب على
 أمتن بنيان حتى دهش بها ابن القرن العشرين الغلامه روزيه السويسري على
 ما تقدم بك آنفاً .

تفنن عرب الاندلس

٩٧

لم تقف همة الاندلسيين عند حد الابداع في هندسة الدور والمصانع وعمل النقش والتزييق وتنجيد البناء والتخرف فيه وبناء الجسور وتعبيد الطرق وانشاء السكور والسدود ، فان هذه الاعمال في العمران كانت نتائج لازمة للثروة العظيمة التي فاضت عليهم من زراعاتهم وصناعاتهم ومتاجرهم ، فقد تفننوا أنواع التمنن في الزراعة ، ونقلوا الى الاندلس من الشام أنواعا من الاشجار والازهار والغراس والبقول لم يكن لاسبانيا عهد بها ومنها انتقلت الى أوربا الغريبة ، ومن جملة ما أدخلوه من أنواع الشجر والنبات الفستق والموز والنخيل والارزوالقطن والتوت وقصب السكر والزعفران والهلجون وزهر الكاميليا الحمراء والبيضاء والورد الياباني وغير ذلك ، وتفننوا في هذا تفنن الغربيين لعمدنا بزروعهم وورودهم وثمارهم وبقولهم حتى كانت الاندلس المعتدلة الاقليم ، الحسنة المناخ ، تعطى ثلاثة مواسم في السنة لحسن استثمارها ، فتدر على أهلها اخلاف الرزق والغنى سواء في العناية عندهم الاعضاء أي الاراضي التي تسقى بالامطار أو التي تسقى سيجاً أي بماء الانهار ، ذلك لانهم حفروا آباراً ، وأسالوا المياه من القاصية ، وعمرُوا خزانات وسدوداً .

وكان لهم بصر بالصنائع حملوا معهم من الشام أيضاً صناعة صقل السيوف وهي الصناعة التي نسبت الى دمشق حتى اليوم فقليل لها بالافرنجية Damasquinage أو Damasquinerie أو Damasquinture أي تنزيل الذهب والفضة في الفولاذ وقد اشتق منه الفعل عندهم Damasquiner كما نقلوا صنعة الأقمشة من الحرير والكتان مزينة بالرسوم من دمشق أيضاً فنسبت اليها عندهم وقالوا في فعلها Damasser أي عمل ثياباً على النمط الدمشقي .

واختصت قرطبة بدبغ الأديم أى الجلود واشبيلية بالحرير (كان فيها سنة ١٥١٥ ستة عشر ألف نول يعمل فيها ١٣٠ ألفاً من العملة فأصبح عددها سنة ١٦٧٣ أربعاً مائة نول فقط وذلك بعد جلاء العرب والاسرائيليين) وكان بمالقة يعمل الزجاج كما « يصنع الفخار المذهب العجيب ويجلب منها الى أقاصى البلاد » والى اليوم ينسبون هذا الصنف الى مالقة فيقولون في بلاد الشام المالتى للصحاف والاولانى المعروفة . واشتهرت المرية بعمل الوشى والديباج والجوخ (كان فيها ٦٠٠٠ نول للجواخ) و « لكورة باجة خاصة فى دباغة الأديم وصناعة الكتان » وكان فى المرية « لنسج طرز الحرير ثمانمائة نول وللحلل النفيسة والديباج الفاخر ألف نول وللإسقاطون ^(١) كذلك وللثياب الجرجانية كذلك وللأصنفهانية مثل ذلك وللعنابى والمعاجر ^(٢) المدهشة والستور المكحلة ويصنع بها من صنوف آلات الحديد والنحاس والزجاج مالا يوصف »

وكان الديباج والوشى يعمل أولاً فى قرطبة ثم غلبت عليها المرية فلم يتفق فى الأندلس من يجيد عمل الديباج اعادة أهل المرية . واتفردت سرقسطة بصناعة السمور ولطف تديره وهى الثياب الرقيقة المعروفة بالسرقسطية خصوصية لاهل هذا الصقع « وفى جميع نواحيها يعمل الكتان والحرير الفائق » وكان فى جيان ٦٠٠ نول للحرير ويعمل السجاد فى رية والسلاح والحلى فى قرطبة ومرسية وطليلة وسرقسطة . وأخذت شاطبة تصدر الورق بكثرة منذ سنة ١٠٠٩ قال ياقوت وفى شاطبة يعمل الكاغد الجيد ويحمل منها الى سائر بلاد الأندلس وبالجملة فلاهل هذه الديار « خصائص كثيرة ومحاسن لا تحصى واتقان لجميع ما يصنعون » قال ميجون : كانت فى الأندلس عدة معامل مشهورة لمصنع الفسيفساء ويسمونه المقصص ونقلت صناعة الفسيفساء عن الرومان

(١) بلد بالروم تنسب اليه الثياب الإسقاطونية وقد تسمى الثياب بنفسها إسقاطوناً قال فى التاج هي كلمة رومية (٢) المعجرتوب بمعنى يلتحف به ويرتدى والجمع المعاجر

وهكذا رسخت الصنائع في امصار الاندلس ، برسوخ الحضارة وطول أمدّها
قال ابن خلدون : فانا نجد في الاندلس رسوم الصنائع قائمة ، وأحوالها مستحكمة
راسخة في جميع ماتدعو اليه عوائد أمصارها ، كالمباني والطبخ ، وأصناف الغناء
واللهو ، من الآلات والالوتار والرقص ، وتنضيد الفرش في القصور ، وحسن
الترتيب والأوضاع في البناء وصوغ الآنية من المعادن والخزف ، وجمع المواعين
واقامة الولائم والاعراس ، وسائر الصنائع التي يدعو اليها النرف وعوائده ،
فنجدهم أقوم عليها وأبصر بها ، ونجد صنائعها مستحكمة لديهم ، فهم على حصّة
موفورة من ذلك ، وحظ متميز بين جميع الامصار . »

وذكر سيديليو ان العرب من حيث الاخلاق والعلم والصناعة كانوا أدنى
بكثير من الاسبان وهم أمتن أخلاقاً وطبائع ، وفيهم الكرم والاخلاص ،
والاحسان الذي لم يكن عند عدائهم كما ان فيهم عزة النفس التي امتازوا بها في كل
زمن ، وكان الافراط المضر فيها داعياً الى احداث البراز . وساعد على عظمة العرب
في اسبانيا انتشار الآداب والعلوم والفنون على عهدهم انتشاراً كثيراً وكذلك
الزراعة والصناعة وعم الذوق في اللذائذ العقلية جميع طبقات المجتمع . والشعر
يرقي النفوس . وغدت المنافسة الشريفة على أتمها في الافكار . وكانوا يكتبون
على جميع المصانع اسم من أمر بينها ، واسم بانها ، والأمة تمدح المحسن بها ،
والمحسن لبنائها ، وارتقت عندهم الهندسة والموسيقى والرقص الى درجة ذات
بال ، ولا يزال الى اليوم في الغرب يدرس أسلوب بنائهم ، ويعجب بما نقشوه فيها
من النقوش ، وكان لدولة الموحدين في الاندلس ذوق خاص في البناء انشاؤا
الجوامع والمآذن والاماكن العامة والمستشفيات والرباطات ، في كل بلد من بلادهم
وأقاموا الطرق والجسور والسدود وحفروا الآبار وأجروا الانهار .

ولقد كانوا يستخرجون من مناجهم الزئبق والتوتيا والحديد والرصاص
والفضة والذهب ويستقطرون السكر ويعملون اللبود « المشهورة في جميع الارض
بالجودة والصبغ الحسن . ولهم من الالوان والاصباغ والحشائش التي يلون بها

الحرير وأنواع الصوف والثياب ما ليس في بلد من بلدان الارض له نظير حسناً وكثرة . » ويحملون حاصلاتهم ومصنوعاتهم الى أقطار المملكة العربية بل الى أقاصى البلاد الشرقية والغربية في البحار على سفن الاندلسيين التجارية وكان لهم منها أساطيل في كل فرضة من فرضهم تقلع على الدوام من موانى الاندلس لتحمل الى شواطئ أفريقيا وآسيا وأوربا ما يروج فيها من سلعهم ومعادنهم وثمارهم وحبوبهم .

قال كاباتون : كانت مدينة العرب في اسبانيا ظاهرة في الامور المادية وذلك بما استعملوه من الوسائط الزراعية لاختصاب الاراضى البائرة في الاندلس من الاساليب العلمية التى اتخذوها لريها وهى أساليب ان لم تكن من اختراع العرب فهم الذين اكملوا نواقصها وأحسنوا استخدامها كما أنهم أسسوا معامل للحرير والجلود والبلور وغزل الصوف والقطن والكتان والقصب وأقاموا مالا يحصى من المعاهد العامة وفيها ما يستدعى اعجاب الامم بأسرها حتى بعد ثمانية قرون من انشائه اه .

وقال أحد علماء الفرنجة : كان في الاندلس على عهد الحضارة العربية أربعون مليون نسمة من أرباب الصنائع والعمل (سكان اسبانيا اليوم نحو ٢١ مليوناً وسكان البرتغال ٦ ملايين) وعلى ذلك العهد قامت فيها المدن المهمة التى يعجب الناس الى اليوم بخرائبها وعلى ذاك العهد كانت الزراعة ناجحة وبفضل هندسة العرب كانت المياه تجري الى كل مكان في بساطها فتحمل الخصب والامراع . وقال آخر : ان عهد استيلاء العرب على اسبانيا كان أسعد أيامها لنجاح زراعتها بما قام فيها من أعمال السقيا وبفضل غراسهم وزروعهم وحسن استثمارهم لمعادن الارض ومناجمها ولما اغتنت البلاد أكثر فيها سكان الدساكر والقرى كما كثر سكان المدن الكبرى .

ولا عجب — وحال البلاد من ارتقاء الصنائع والزراعة وتعددين المناجم واتساع

التجارة قد بلغ هذا الحد — ان كانت جباياتها من حقوقها وغير واجبها الى سنة ٣٤٠ هـ نحو عشرين ألف ألف دينار قال ابن حوقل : ولست أشك على ما يوجبها النظر وتواطأ به الخبر فيما جمعه الحكم بعد هلاك أبيه من خدمه والمصادر من الذين كانوا في جملة عن أسباب الاندلس ولوازمها وجباياتها وخراجها واعشارها وصدقاتها وجواليها تمام أربعين ألف ألف دينار وبلغ خراج الاندلس على عهد عبد الرحمن الثالث عدا ما كانت دولته تستوفيه عيناً ٦٠٢٤٥٠٠٠ دينار . وحكى ابن خلدون عن الثقات من مؤرخي الاندلس : ان عبد الرحمن الناصر خلف في بيوت أمواله خمسة آلاف ألف ألف دينار مكررة ثلاث مرات يكون جملة بالقناطير خمسمائة ألف قنطار وكان هذا الملك يقسم الجباية اثلاثاً ثلث للجند وثلث للبناء وثلث مدخر وكانت جباية الاندلس يومئذ من الكور والقرى خمسة آلاف الف واربعمئة ألف وثمانين ألف دينار ومن الستوق^(١) والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار وأما أخماس الغنائم العظيمة فلا يحصى ديوان . وانتهت جباية قرطبة أيام ابن أبي عامر الى ثلاثة آلاف الف دينار بالانصاف .



كان للاندلسيين حذق باستخراج العلوم واستنباطها من ذلك ان عباس بن فرناس حكيم الاندلس صنع في بيته هيئة السماء وخيل للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود وهو الذي استنبط بالاندلس صناعة الزجاج من الحجارة وأول من فك الموسيقى وصنع الآلة المعروفة بالمشقال^(٢) ليعرف الاوقات على غير مثال واحتال في تطيير جثماته وكسا نفسه الريش ومد له جناحين وطار في الجو مسافة بعيدة ثم سقط . فهو أول من حاول الطيران من بني الانسان وكان أهل قرطبة أول من غنى بتبليط المدن وكذلك انارة الطرق في الليل عرفت لأول مرة في قرطبة أيضاً ولما ارتقت العلوم على عهد بني الاحمر في غرناطة اكتشفوا بل اخترعوا بارود المدافع وعرف منذ ذاك العهد ولا تزال مدافعهم

(١) الستوق الزيت البهرج الملبس بالفضة

التي دافعوا بها عن غرناطة محفوفة الى اليوم في أحد متاحف اسبانيا .
وفي الاندلس عرف الطبع فكان أحد أبنائها هو السابق في مضمار هذا
الاختراع الذي لم تنتفع الانسانية بافيد منه . فكانت لهم فيه طريقة لم ينته
الينا خبرها بالتفصيل بل عرف اجمالاً ان عبد الرحمن بن بدر من وزراء الناصر
من أهل المئة الرابعة د كان ينفرد بالولايات فتكتب السجلات في داره ثم يبعثها
للعام فتنطبع وتخرج اليه فتبعث في العمال وينفذون على يديه « فاذا كان هذا
هو الطبع المعروف وما نظنه الا هو فيكون ابن بدر العربي قد سبق غوتمبرغ
الالماني مخترع الطباعة بنحو أربعة قرون .

وذكروا أن ملوك غرناطة فرضوا جوائز للمخترعين لينشطوهم ويلقوا المنافسة
بينهم وربما ميزوهم بامتيازات خاصة على نحو ما فعل لويز الرابع عشر وكولبر
في فرنسا . وعنى الاندلسيون بتأليف رسائل يفهمها كل انسان تكون معواناً
على الانتفاع بالاعمال العامة وهم انشأوا دساتير سهلة التداول يتدارسها الصناع
والعجلة فتفيدهم فيما هم بسبيله .

واخترع الاندلسيون الخطوط المخصوصة بهم كما اخترعوا الموشحات التي
استحسنها أهل المشرق وصاروا ينزعون منزعتها وكانت طبقاتهم في نظامهم ونثرهم
لا تخفى على بصير ولم يكن يخلو بلد من كاتب بليغ وشاعر مفلق بل د كان من
مدنهم مثل شلب قل ان ترى من أهلها من لا يقول شعراً ولا يعاني الأدب
ولو مرت بالفلاح خلف فدانه وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت
عليه وأى معنى طلبته منه « وخص أهل وادي آش بالأدب وحب الشعر . وعلل
ذلك أحد العارفين بقوله أن أهل الاندلس أشعر الناس لما أكثر الله تعالى في بلادهم
وجعله نصب أعينهم من الأشجار والانهار والطيور والكؤوس لا ينازعهم
أحد في هذا الشأن .

وكانت للاندرلسيين عناية بنقد الشعر لا يجوز عليهم ساقطه ونبغ كثيرون
منهم في هذا المعنى^١ والفوا فيه التأليف الممتعة . وكانت لهم مدارس لتعليم

القرآن والكتابة والحساب وتعلم العلوم على اختلاف ضروبها في الجوامع من غير فكير يعلمون الفلك والجغرافيا واللغة والطب والنحو ومبادئ الطبيعة والكيمياء والمواليذ الثلاثة ذكروا أنه كان في قرطبة ثمانون مدرسة عامة وسكانها مليون نسمة وان الموحدين انشأوا في الاندلس مدارس عامة ومدارس عليا وأغدقوا احسانهم على العلماء يريدون أن يعيدوا الى الاندلس بهاءها على عهد الامويين وان الحكم انشأ في قرطبة سبعة وعشرين مدرسة اتخذ لها المؤدين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن وأجرى عليهم المرتبات وعهد اليهم في الاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم وفي ذلك يقول بن شخيص :

وساحة المسجد الاعلى مكللة مكاتب لليتامى من نواحيها

لومكنت سور القرآن من كلم فادتك ياخير تاليها وواعيها

واحدث رضوان النصرى (٧٦٠) المدرسة بقرطبة ولم تكن بها وكانوا كما قال ابن سعيد يقرأون في جميع العلوم في المساجد باجرة فهم يقرأون لان يعلموا لان يأخذوا جاريًا فالعالم منهم بارع لانه يطلب ذلك العلم يباعث من نفسه يحمله على ذلك أن يترك الشغل الذي يستفيد منه وينفق من عنده حتى يعلم .

وكثيراً ما كان ملوك الاندلس يقترحون على الناس حفظ الكتاب الفلاني من كتب الادب والعلم ومن حفظه فله كذا دينار فها هو الا أن يحفظه مئات طمعاً في الجائزة وعم التلذذ بالادب جميع طبقات المجتمع عندهم . وكثير من الشعراء كانوا ينتجعون بشعرهم الملوك والامراء يمدحونهم فيصلونهم ويثرونهم زمناً على نحو ما كانت الحال في القرون الوسطى في المتشاعرين المتغنين بالشعر المتكفين به في بلاد الافرنج ويسمونهم بالافرنسية التروبادور والتروفير^(١)

Les Troubadours et les Trouvères

(١) التروبادور شعراء كانوا يقولون الشعر باللغة الافرنسية القديمة في القرن الحادي عشر الى

وكان تعليم البنات شائعاً عندهم وكثير منهم يحفظن بضعة دواوين من دواوين العرب وينظمن ويترسلن كالأوريات اليوم وإذا عرفت ان المدارس كانت مبدولة في المدن والقرى فلا تستغرب بعد ذلك ان قال أحد مؤرخي الافرنج ان سكان اسبانيا الاسلامية الا قليلا كانوا يقرأون ويكتبون على حين كان اهل الطبقة العليا في أوروبا المسيحية أميين لا يقرأون ماعداً أفراداً قلائل من الشمامسة جعلوا الكتابة من شأنهم .

وكان للاندلسيين غرام بتسبيل الكتب على المطالعة ولهم خزائن كتب عامة وخاصة وكانت قرطبة أكثر بلاد الاندلس كتباً وأهلها أشد الناس اعتناءً بخزائن الكتب صار ذلك عندهم من آلات التعيين والرئاسة فلا يكاد يخلو دار من خزانة فيها كتب قيمة . وقد انشأ الحكم الثاني عدة مكاتب للمطالعين فكان يرسل وكلاءه الى المشرق يستنسخون الاسفار فما هو الا أن يؤلف المؤلف تصنيفه حتى تستنسخ منه نسخة أو نسخ لتحمل الى خليفة الاندلس ولا يفوت بلاده شيء من حركة العقول وكانت دار كتبه تحتوي على أربعمائة الف مجلد جاء فهرسها في أربعة وأربعين مجلداً ولطالما أجزل ملوك الاندلس الصلات لبعض مؤلفي الشرق والاندلس حتى يذكروا في مقدمتها أنهم الفوها برسم خزائهم ومن المؤلفين من كانوا يرضون بذلك ومنهم من لا يرضون به يقصدون أن يكون لمن يستفيد منه .

وكان للعلماء والمؤرخين والشعراء والادباء في الاندلس مجامع علمية وأدبية أشبه بالمجامع أو الاكاديميات في هذا العصر وذلك لنشر العلم والمعارف ومفاوضة الحكمة بينهم فنتج من اجتماعهم فوائد مهمة للعلم والمدنية . وكان المظفر بن

القرن الخامس عشر والتروفيش شعراء بلغة وال من القرن الحادي عشر الى القرن الخامس عشر كانوا يختلفون الى الملوك والعظماء يلشدون الاشعار ويضربون على الاوتار وربما أقاموا في قصورهم مدة ثم ينقلون .

الافطس صاحب بطليوس من أعلم الملوك بالادب وله التصنيف المترجم بالتذكرة والمشتهر بالكتاب المظفرى فى خمسين مجلداً فى الفنون والعلوم واستأدب لبيه أبا عبد الله بن يونس وكان يحضره وأبا الحزم بن عليم وأمثالهما للمذاكرة والمباحثة فيفيد ويستفيد وكان لأبى عامر أمير الاندلس فى دولة هشام المؤيد مجلس معروف فى الاسبوع يجتمع فيه أهل العلوم للكلام فيها بحضرته .

وقد انشأ الحكم مجمعا فى قصر مروان وقلده غيره من أمراء الاندلس فأنشأوا مجامع لهم . وانشأ احمد بن سعيد النصرى مجمعا فى طليطة فكان يجتمع عنده أربعون عالما من طليطة والبلاد المجاورة ثلاثة أشهر فى السنة أى فى شهر تشرين الثانى وكانون الاول وكانون الثانى يعقدون اجتماعاتهم فى ردهة فرشت أحسن فرش فيبدأون عملهم بتلاوة آيات من الكتاب العزيز ثم يتذاكرون فى تفسير ما قرأوا ويأخذ بهم الاستطراد الى البحث فى فنون شتى من العلم والحكمة .

وكان أمير المسلمين على بن تاشفين لا يقطع أمرا فى جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء^(١) فكان اذا ولى أحدا من قضائه كان فيما يعهد اليه أن لا يقطع أمرا ولا يبت حكومة فى صغير من الامور ولا كبير الا بمحضر أربعة من الفقهاء فبلغ الفقهاء فى أيامه مبلغا عظيما لم يبلغوا مثله فى الصدر الاول من فتح الاندلس . وأمير المسلمين هذا هو الذى اجتمع له ولايه من أعيان الكتاب وفرسان

(١) كان للقضاة فى الاندلس مشاورون حتى لا يصدروا الا عن آراء ناضجة واليك مثالا من تقليدهم : « هذا كتاب تنويه وترفيه ، وانهاض الى سرى رفيع ، أمر بكتبه الامير الناصر لدين أبو جعفر بن أبى جعفر أدام الله تأييده ونصره ، للوزير الفقيه الاحل المشاور الحسيب الاكل أبى بكر بن أبى جرة ادام الله عزه انهض به الى الشورى ليكون عند ما يقطع بامر ، أو يحكم فى نازلة ، يجرى الحكم بها على ما يصدر عن مشورته ومذهبه ، لما علمه من فضله وذكائه وجده فى اكتساب العلم واقتنائه ، ولكون هذه المرتبة ليست طريفة له بل تليدة ، متوارثة عن اسلافه الكريمة وآبائه ، فليجعلها تحمل المستقل بأعبائها ، الا نحن بأنبائها ، العالم بمقاصدها المتوخات المعتمدة وانحائها ، والله يزيده تنويها وترفيها ويؤوه من حظوته وتمجيده مكانا رفيعا ، وكتب فى التاسع لذي حجة ٥٣٩ الثقة بالله عز وجل اهـ »

البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الاعصار فانقطع اليهما من الجزيرة من أهل كل علم فحوله ، حتى اشبهت حضرتها حضرة بنى العباس في صدر دولتهم وكانت أيام بنى المظفر بمغرب الاندلس أعياداً ومواسم وكانوا ملجأ لأهل الآداب خلدت فيهم ولهم قصائد أشادت بآثرهم ، وابقت على غابر الدهر حميد ذكركم .

كان أهل دانية اقراً أهل الاندلس لان مجاهداً العامري كان يستجلب القراء ويفضل عليهم وينفق الاموال فكانوا يقصدونه ويقيمون عنده فكثر وافي بلاده قلنا واذا كان عرض للاندلس في بعض أدوارها مافرق جامعها السياسية فاستفاد من ذلك أعداؤها فقد كان لتفريقهم الى ممالك صغرى داعياً الى التنافس أحياناً حتى صار لكل اقليم مزية ليست لغيره ، واختص كل ملك بشيء فأتخذ أسباب النجاح فيه ، واستدعى أهل الاختصاص من رجاله .

ومن لطيف تدبيرهم في الاتفاق على الجند دون تحميل الامة أعباءه وهو تحت السلاح ما عمله ابن جهور رئيس قرطبة من جعل أهل الاسواق جنداً وجعل أرزاقهم رؤوس أموال تكون بأيديهم محصاة عليهم يأخذون ربحها فقط ورؤوس الاموال باقية محفوظة يؤخذون بها ويراعون في الوقت بعد الوقت كيف حفظهم لها وفرق السلاح عليهم وأمرهم بتفريقه في الدكاكين وفي البيوت حتى اذا دم أمر في ليل أو نهار كان سلاح كل واحد معه .

ومن أجمل أعمالهم في اقامة قسطاس العدل ان هشام بن عبد الرحمن الداخل كان يبعث الى الكور قوماً عدولا يسألون الناس عن سير العمال ثم ينصرفون اليه بما عندهم . واعترض له يوماً متظلم من أحد عماله فبدر الى الشاكي وقال له : احلف على كل ما ظلمك فيه فان كان ضربك فاضربه أو هتك لك سترأ فاهتك ستره أو أخذ لك مالا نفذ من ماله مثله الا أن يكون أصاب منك جداً من حدود الله فجعل الرجل لا يحلف على شيء الا أقيد منه .

ولقد بنى الخليفة عبد الله بن محمد السابط بين القصر والجامع بمدينة قرطبة

وكان يقف فيه قبل صلاة الجمعة وبعدها فيرى الناس ويشرف على اجتهدهم وحركاتهم ويسير بجماعاتهم ويسمع قول المتظلم ولا ينجي عليه شيء من أمور الناس وكان يقعد أيضاً على الابواب في أيام معلومة فترفع اليه فيه الظلمات وتصل اليه الكتب على باب حديد قد صنع مشرحباً مستطيلاً لذلك فلا يتعذر على ضعيف ايصال بطاقته بيده ولا انهاء مظلمة على لسانه وفتح باباً في قصره سماه باب العدل وكان يقدم فيه للناس يوماً معلوماً في الجمعة لياشترأحوال الناس بنفسه ولا يجعل بينه وبين المظلوم ستراً . فكانت سيرة عمالهم مع الرعايا ان يتحفظوا من كل أمر يوجب الشكوى منهم وينقبضون عن التحامل على من دونهم .

وهكذا فانه لا يكاد يخطر ببالك شيء من أدوات الحضارة ومقومات العمران وأساليب العلم والمعرفة الا قام به أو يبعثه ملوك الاندلس وأهلها حتى التماثيل فانها كانت تجعل في قصور العظماء والصور تزين بها غرفهم وردهاتهم لذلك أبقوا على أكثر ما كان في البلاد قبل الفتح من التماثيل للاعتبار بها خصوصاً بعد ان انغمسوا في الحضارة قال أبو طامر البرياتي في الصنم الذي بشاطبة :

بقية من بقايا الروم معجبة	أبدى البناء بها من علمهم حكما
لم أدر ما أضمر وافية سوى أم	تتابع بعد سموه لنا صنما
كالبرد الفرد ما أخطا مشبهه	حقاً لقد برد الايام والامما
كأنه واعظ طال الوقوف به	مما يحدث عن عاد وعن إرما
فانظر الى حجر صلد يكلمنا	أشجى وأوعظ من قس لمن فهمها

وقد أقاموا حداثاً للحيوانات والنباتات وعنوا حتى بصراع الثيران فصارعوا الاسبانيين وربما فاقوهم وأولعوا بالرقص ولهم منه أنواع وكذلك آلات الطرب كالخيال^(١) والكرج والعود والروطة والرباب والقانون والمثونس والكثيرة

(١) الخيال هو الذي يسمى خيال الظل أو الخيال الراقص أو خيال جعفر الراقص وجعفر اسم مخترعه يسميه العامة كركوز «قره كوز» وبالفرنسية Marionnette, polichinelle والكرج تماثيل خيل مبرجة من الخشب معلقة باطراف اقبية يلبسها النحوان ويحاكن بها متطلة الخيول فيكررون

والقيثار والزلامى والشفرة والنورة والبوق وكان فى مدينة آبدى من أصناف
الملاهى والرواقص المشهورات بحسن الانطباع والصنعة ما تظنهن فيه احذق خلق
الله تعالى باللعب بالسيوف والذكر واخراج القزى والمربط والفتوخة
أما الموسيقى فقد كان زرياب أدخلها الاندلس فكان يجرى عندهم مجرى
الموصلى فى الغناء وله طريق أخذت عنه وأصوات استفيدت منه وعلا عند الملوك
وأحسنوا اليه حتى كادوا يفرطون وشهر شهرة ضرب بها المثل . ولا عجب اذا قلنا
ان تفرق الاندلس اصقاعاً وممالك كان أشبه بتفريق المانيا وايطاليا قبل وحدتهما
الى أمارات صغيرة تتنافس فى مضمار العلم والصنائع وال عمران .

مدينة مجريط

٩٨

سار بنا القطار من باريز الى جنوبي فرنسا ماراً بأراض عامرة بزراعتها دالة
على سلامة ذوق أهلها وتقننهم فى ضروب الحياة المادية والأدبية ولما اجتزنا
جبال البيرنات « جبل الثنايا » دخلنا ليلاً محطة إرون الاسبانية قاصدين الى

ويفرون ويشاقن وهى من آلات الرقص وتسمى بالفرنسية Carrousel, chevaux de bois
والروطة ضرب من الرباب معربة عن الاندلسية Rotta أو Role, وبالفرنسية rotte أو
Role, وللؤنس قرية يركب فيها زممار ولعلها من اصل اسباني بقابلها بالفرنسية Muselle أو
Cornemuse والكثيرة ضرب من السنطور تنقر أوتارها بالأصابع Cithare والقيثار
Guitare آلة ذات ستة أوتار ولها يد مقسومة الى انصاف الحان يركب عليه دساتين والزلامى
نوع من الزمار هو تصحيف الزنامى نسبة الى زنام مستنبط الناي وكان زنام زماراً مشهوراً عند
هرون الرشيد يضرب به المثل فى حسن صناعته . والشفرة والنورة زماران الواحد غليظ الصوت
والآخر رقيقه والمود معروف بالفرنسية Luth والرباب معروف بالفرنسية Rebec والقانون
مشهور بالفرنسية Harpe والبوق معروف . والذكر نوع من الرقص أو اللعب يعرفه الزنج
والحبش بالفرنسية Kalenda والقزى نوع من لعب المشعوذين والفتوخة جمع فتخة وهى خاتم
كبير وهى لعبة الخاتم « من مقالة العلامة الابانستاس ماري الكرملى : المقتبس م ١ ص ٤٣٥ »

مجريط عاصمة اسبانيا الحديثة كثرت لواعج الاشواق الى الصقع الاندلسى واشتدت
تباريح الذكرى

وأكثر ما يكون الشوق يوماً اذا دنت الخيام من الخيام
تمثلت للعين تلك الأمة العربية الغريبة ، وما أثلته من الأنجاد في هذه البلاد ،
وظهرت فيه من مظاهر الحياة الراقية ، تذكرت جيلا عظيما ، لم يبق سوى التحدث
بطيب أخباره . والتطلع الى جميل آثاره ، ذكرت عشرات الألوف من العظماء
ضمت الاندلس أعظمهم ، وكان كل واحد أمة برأسه ومنهم من لم ينبغ أمثال
لهم في أمة في القرون المتواصلة ووددت لو أمكن العمل بحكمة المعرى حين قال :
خفف الوطء ما ظن أديم الا رض الا من هذه الأجساد
وحرام بنا وان قدم العر دهوان الآباء والأجداد

مدينة مجريط أو مدريد هي عاصمة اسبانيا منذ سنة ١٥٦٠ وسكانها اليوم
يقربون من سبعمائة ألف وهي العاصمة التي اختارها فيليب الثانى لتوسطها من
البلاد وكانت على عهد العرب حصناً أو بليدة ولم ترزقها الطبيعة نهراً كبيراً ولا
ضاحية بدیعة مشجرة مثمرة بل كان قديماً في أرباضها بعض الغابات فخطمت ولم
يبق منها الا القليل . على أن فيها اليوم ما في جميع عواصم الغرب من المرافق
والمصانع . زرت بعضها وهي لا تختلف عن مصانع الأمم اللاتينية الا قليلا بل
هي أقل عظمة من مصانع ايطاليا وفرنسا وليس في مجريط أثر يعتد به من آثار
العرب ، وأما آثار الاسبانيين الحديثة فليست مما يعجب به كثيراً لأنها حديثة
عهد على الأغلب وتكاد تكون الصبة الدينية متجلية في كل مصنع من مصانعهم .
وأكثر أحياء المدينة ضيقة ويوتها مزدحمة كسائر المدن المنحطة في أوروبا
الا ان بعض الأحياء والدور المستحدثة هي على الطراز الغربى الجديد ولها حدائق
وساحات على جانب من السعة مستوفاة شروط الصحة . وقد أنشئت في زمن
الحرب العامة في مجريط وغيرها من مدن اسبانيا بيوت أقامها أغنياء الحرب أى
الذين اتجروا فيها وربحوا وربحت بهم اسبانيا لحياها وقد أحسنت لنفسها بالتزامها

خطة المسألة ومن هذه البيوت ما يقتضى ألوفاً من الليرات . فلما اشتدت لازمه على أوروبا طامة لحق اسبانيا من أثرها شىء بالطبع فوقف العمل فى بعض تلك البناءات وكذلك كثير من المشاريع والمعامل التى أحدثوها مغتتمين فرصة تقاثل جيرانهم

فى مجريط تسمون كنيسة من الكنائس التى لاشأن لها فى نظر التاريخ وعلم العاديات . وليس لها مقام رفيع فى باب البناء الحسن . والمصانع التى من هذا القبيل ليست بالكثيرة العدد وقد قام القصر الملكى اليوم محل القصر العربى وكان هنرى الرابع جعل هذا القصر محلاً للصيد . وفى متحفها الوطنى بعض آثار العرب التى أفانت من أيدي الذين زهدوا فيها بصنع المتعصبين من رجال الدين وخربوها وأتلفوها . أما تاريخ هذا الحصن العربى أى مجريط فليس بعظيم وخلاصته أنه أخذ من العرب ثم استعادوه الى أن استولى الاسبان على طليطلة سنة ١٠٨٦ م فأصبحت مجريط يومئذ اسبانية وقد زادت مكانة مجريط فكبرت رقعتها فى الجزء الثانى من القرن التاسع عشر وذلك لاتصالها بالخطوط الحديدية مع الولايات ومع فرنسا والبرتقال وقد أنشئ فيها فى العهد الأخير ترامواى كهربائى Métropolitain تحت الأرض على مثال ترامواى باريز ولندرا وبرلين ونيويورك .

دير الاسكوريال

٩٩

أهم مائى ضاحية مجريط دير الاسكوريال على أحد وخمسين كيلو متراً منها بناه فيليب الثانى ونجزت عمارته سنة ١٥٨٤ وعمر فيه حفيده فيليب الرابع البانتيون مدفن العظماء من الآل الملكى وقيل انه أتفق على الدير خمسة عشر مليوناً ونصف

مليون من البستاس أى الفرنك الاسباني .

والاسكوريال كما قال عنه واصفوه من الافرنج مثال بما عمله الارادة ومما لا عمله فقد قيل ان الارادة قادرة في بعض الاحوال وطاجزة عن إيجاد عمل واحد يدل على نبوغ وعبقرية وهذه الشعلة الالهية قد تقصت في عمل باني الدير : فمن انه نشأ في عهد لم يشتهر بقوة الایجاد ولا بسلامة الذوق فجاء بناؤه جافاً رغم ما تعاوره من أيدي المهندسين لم ينم عن لطف ولا حوى أسباب الجمال . وغلب على البناء تصنع الملك فيليب في مظاهر أبهته وعظمته ولطالما ضيق صدور أسرته وحاشيته منه في هذا الشأن فلم يكن لهم هم الا أن يدهنوه وكان من طبعه أن يتدخل فيما لا يعلم حتى أفسد على المهندسين عملهم أو كاد وجاء العمل الذي أبقاه للاعقاب حتى يفتخروا به وليس فيه كبير أمر من جمال المندام والنظام أشبه بسجن مظالم وديماس منحوت .

وأهم ما يلفت النظر في هذا الدير دار كتبه وفيها خمسة وأربعون ألفاً من المجلدات حوت كثيراً من المخطوطات والنقوش والرسوم ومنها الكتاب المقدس الذي كان يقرأ فيه بعض ملوك اسبانيا في القرون الوسطى وبعضها كتب باللاتينية ومنها ما كتب بالاسبانيولية أو اليونانية ومنها المزين بأجمل الرسوم ومنها المذهب المكتوب على رق ويهمننا من هذه المكتبة مجموعة الكتب العربية وهي ألفا مجلد كانت السفن الاسبانية غنمتها من مركب لآحد ملوك مراکش المتأخرين . وكان في هذا الدير قبل القرن السابع عشر نحو ثلاثة آلاف مخطوط عربي فالتهمتها النار في الحريق الذي نشب في الدير مع ما التهمت من الكتب الأخرى .

فليست الكتب العربية في خزانة الاسكوريال اسبانية المصدر كلها كما أكد لنا أحد علماء الاسبان وصاحب البيت أدري بالذي فيه أخبرني أن الاسبان غنموا هذه الكتب من سفينة كانت لآحد سلاطين الغرب الأقصى فوقعت في أيدي الاسبان وقال آخر أن أصل هذه المجموعة كانت لآحد سفراء اسبانيا

لدى الباب العالى ولما غادر الاستانة أهداها للملكه فوضعها هذا فى الدير الذى كان ملكاً له ولآله من بعده والرواية الاولى أصح .

وقد وصف هذه الكتب باللاتينية أحد رهبان الموارنة من سنة ١٧٤٩
١٧٥٣ وفيها ١٩٥٥ مخطوطاً رأيت نموذجات منها وقرأت وصف الآخر فيها
كتبه أحد علماء المشرقيات من الفرنسيين ولا سيما القسم الذى يهمنى منها
عرانى فى هذا الدير ما عرا كثيرين قلبى من السويداء ثم السكون والراحة
والبرودة التى تدعو الى العزلة والتفكر والانكماش والدرس وانك لتشعر وأنت
تسير تحت قباب الاسكوريال العارية من التفنن والزينة بهواء بارد من حياة
الاديار كما تشعر فى مدارس اكسفورد وييمها والنازل هنا بطبيعته يرى دافعاً
من نفسه يدفعه الى أن يشغل نفسه بشيء وما من ملجأ أوفق لنسيان العالم
يحمل ساكنه على البحث عن الحقائق وعلى الصبر فى كشف المسائل المتعذرة
المبهمة المجهولة مثل هذه المعاهد .

قرطبة والزهراء

١٠٠

بأربعة فاق الامصار قرطبة منهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة والعلم أعظم شيء وهو رابعها
لم يكتب لى أن أزور مدينة طليطلة لاشهد فيها قصور العرب القديمة ومساجدها
القائمة الى اليوم وعادياتها الماثورة وكانت من عظام مدائن الاندلس وهى من
قرطبة على عشرين يوماً فاكتفيت بزيارة ثلاث مدن من أمهات المدن الاندلسية
قرطبة واشبيلية وغرناطة وهى العواصم الثلاث التى تأصل فيها حكم العرب
وطالت أيامه .
وقرطبة كانت فى عزها أعظم مدائن الاندلس فأصبحت الآن وليس فيها من

السكان سوى ثمانية وخمسين ألف ساكن وقيل ان مساجدها بلغت ألفاً وستمائة مسجد وحماماتها ستمائة وذكر آخرون انه كان فيها مائتا ألف دار وثمانون ألف قصر دورها ثلاثون ألف ذراع وكان بخارجها ثلاثة آلاف قرية في كل واحدة منبر وفقية مقلص ^(١) تكون الفتيا في الاحكام والشرائع له يأتون كل جمعة للصلاة مع الخليفة بقرطبة ويطالعونه بأحوال بلدهم .

قال المراكشي : بلغت قرطبة من القوة وكثرة العمارة وازدحام الناس مبلغاً لم تبلغه بلدة . حكى ابن فياض في تاريخه في أخبار قرطبة قال كان بالربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي هذا ما في ناحية من نواحيها فكيف بجميع جهاتها وكان الماشي يستضيء بسرج قرطبة ثلاثة فراسخ لا ينقطع عنه الضوء .

وفي تواريخ الافرنج ان قرطبة كانت منقطعة القرين بين مدن الغرب أى أوربا وليس ما يشبهها بعمرائها وسكانها فكان فيها خمسمائة ألف ساكن و٢٨٧ ربةاً وهي مكتظة بالسكان وقد قامت المتنزهات البهجة المفروسة بأنواع الاشجار على طول الوادى الكبير والقصور والمصايف مغطاة بالخضرة وكان في هذا الوادى الكبير أربعة عشر ألف قرية .

فقرطبة كانت أعظم مدينة بالاندلس وليس بجميع المغرب « لها شبه كثرة أهل وسعة رقعة وفسحة أسواق ونظافة محال وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق » ووصفها المقدسى فقال : « وصف ما شئت من طيبها ورحبها فانها جنة الاندلس على ما حكى لى وهي مصر الاندلس وقد دلت الدلائل واتفقت الآراء على أنه مصر جليل رفيق طيب وان ثم عدلاً ونظراً وسياسة طيبة ونعمة ظاهرة ودينياً وهي في جهاد وتغير أبداً مع علم كثير وسلطان خطير وخصائص وتجارات

(١) المتلس هو الذى يلبس القالس أو القلنسة وكان يحق للمتلس وحده في الاندلس ان يفتى وكان عليه ان يستطهر الموطأ والمدونة أو عشرة آلاف حديث وللمتلسين الحق ان يلبسوا القالس فقط وتكتب بالصاد (قاله دوزى في ملحقة على المعجمات العربية)

وفوائد « وذكروا ان لاهل قرطبة رئاسة ووقار لاتزال ممة العلم والملك متوارثة فيهم .

ليس في قرطبة اليوم من آثار العرب سوى قطعة من مسجدھا الأعظم بناه عبد الرحمن الداخل وكان معبداً للويزغوت على اسم القديس منصور وقد ملكه المسيحيون وأخذ المسلمون نصفه سنة ٧٨٥ م ولما شرع بالبناء ابتاع عبد الرحمن النصف الآخر منهم كما فعل الوليد الأموي في دمشق يوم بنى جامعها واستصنى النصف الآخر من أربابه المسيحيين وعوضهم عنه كنائس أخرى .

وزاد الناصر عبد الرحمن بن محمد في المسجد الجامع بقرطبة زيادته المشهورة وفيها القبو الكبير الذي يصطف المؤذنون أمامه يوم الجمعة للاذان وهو من أعجب البنيان . وحبس المستنصر بالله على الجامع بقرطبة لما كملت زيادته ربيع جميع ماجرته اليه الوراثة عن أبيه أمير المؤمنين في جميع كور الاندلس وأقاليمها على ثغور الاندلس كافة تفرق غلات هذه الضياع طاماً بعد طام على ضعفائهم الا أن تكون بقرطبة مجاعة فتفرق فيهم .

ومما قيل في آثار مدينة قرطبة وعظمتها حين تكامل أمرها في مدة بني أمية ان عدة الدور التي بداخلها للرعية دون الوزراء وأكابر أهل الخدمة مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار ومساجدها ثلاثة آلاف وعدة الدور التي بقصرها الزهراء أربعمائة دار وذلك لسكنى السلطان وحاشيته وأهل بيته .

وقالوا ان المسلمين لما فتحوا قرطبة وجدوا بها آثار قنطرة فوق نهرها على حنايا وناق الأركان من تأسيس الأتم الدائرة قد هدمها مرور النهر على ممر الازمان فتقدم الى فضيلة النظر فيها عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه عند ما اتصل به خبرها فامر السمع بابتنائها فصنعت على أتم وأعظم ما بنى عليه جسر من حجارة سور المدينة . وربما كان هذا أول عمل في العمران قام على أيدي عرب الاندلس في القرن الأول للهجرة .

قال بعضهم لم يكن للعرب هندسة خاصة لما دخلوا قرطبة وكانوا يعتمدون على هندسة أهل البلاد التي تغلبوا عليها فنسجوا في بناء المسجد على مثال مساجد مصر ومسجد القيروان وكان هذا من أعظم مساجد الاسلام وقيل أنه بنى على شكل مسجد دمشق وكان فيه ١٤١٨ سارية تشبه غابة ملتفة والباقي منها الآن ٨٦٠ وهى أدق من سوارى الجامع الأموى اليوم وقال آخر أن الباني واخلافه جلبوا هذه السوارى من ابنية قديمة وبيع مسيحية فى القاصية كجنوبى فرنسا وأفريقية أى قرطاجنة والاسطانة وتبين ان أكثرها من مقالع اندلسية ومحراب هذا المسجد الجامع لا يزال محفوظاً وهو دهشة الى اليوم والى ما بعد اليوم وعلو قبته تسعة أمتار حفر فى قطعة واحدة من المرمر وعمل بالفسيفساء وزبرت عليه آيات كريمة . وله اثنان وعشرون باباً معمولا بالنحاس بقى الآن منها ١٢ باباً وعلى بعضها صورة نقوشها الاصلية وقد قام البرج الذى هناك مقام المنارة التى أنشأها عبد الرحمن الناصر . يقول جوسيه لو أقيمت البيعة التى أقاموها وسط الجامع على عهد شارل كان فى مكان آخر لصار لما شأن وهى هنا من أبشع آثار الهندسة اذ أحدث بانوها بها ضرراً على بناء وحيد من نوعه فى العالم .

وكان فى جامع قرطبة سبعة آلاف مصباح تنعكس أنوارها على النقوش المذهبة والزهرى والياقوت والمفصص وغيرها فتزيد فى جماله وعلى ما أصيب به هذا المسجد من الأضرار بقى الى اليوم من أغرب ابنية الأرض .

قال غوتيه : لاسبيل الى وصف التأثير الذى يشمر به المرء عند دخوله هذا المسجد الاسلامى القديم فيترأى لك انك تسير فى غابة مسقوفة لافى بناء مصنوع وحيث اتجهت يضيع بصرك فى صفوف من السوارى تلتقى وتمتد على مرمى البصر مثل غراس من المرمر ظهرت من تلقاء نفسها على أديم الأرض اهـ .

نعم ان البيعة التى أقيمت وسط جامع قرطبة والبيع الصغرى التى جعلت فى أكثر زواياه قد شوّهت من محاسنه وابدلته عن أصله وفى نية ديوان الآثار فيما بلغنى أن يرجع القديم كما كان وينقل الآثار المسيحية من جامع قرطبة ليبقى

بدون زيادة ولا نقصان طرازاً في البناء منقطع القرين في الأرضين إلا ان البيعة الوسطى بيعة شارل كان يصعب نقل انقاضها لما فيها من الزخرف ولما صرف عليها من المال .

هذا ما بقى من آثار الأجداد في قرطبة وقد زرتها وأرباضها فرأيتها وهي على منبسط من الأرض تشبه ضاحيتها ضواحي دمشق وهندسة أكثر بيوتها الجديدة على الطراز العربي البديع ولأهائها الى هذا العهد حرمة له وغرام به وحرص عليه يعدونه من جملة مقدساتهم . وعلى أربعة أميال من قرطبة بنيت مدينة الزهراء سنة ٣٢٥ هـ بناها الناصر لدين الله الأموي في ست عشرة سنة وطولها ألف وستمائة ذراع وعرضها ألف وسبعون ذراعاً وجعل في سورها ثلثمائة برج وخص ثلثها قصوراً للخلافة وثلثها للخدم وثلثها بساكنين وكان يدخل فيها كل يوم من الحجر المنحوت ستة آلاف صخرة سوى الآجر وغيره وحمل اليها الرخام من أقطار الغرب ودخل فيها أربعة آلاف وثلثمائة سارية وأهدى ملك الفرنج لبانيها أربعين سارية رخام واما الوردى والأخضر فمن أفريقية والحوض المذهب جلب من قسطنطينية والحوض الصغير عليه صورة أسد وصورة غزال وصورة عقاب وصورة ثعبان وغير ذلك والكل بالذهب المرصع بالجوهر وكان ينفق عليها ثلث دخل الاندلس وكان دخلها يومئذ خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف درهم .

وقال أحد المؤرخين ان مباني قصر الزهراء اشتملت على أربعة آلاف سارية جلبت من رومية وقسطنطينية وقرطاجنة وتونس وأفريقية فيها خمسة عشر ألف باب ملبس بالحديد والنحاس المموه وكان عدد الفتيان فيها ثلاثة عشر ألف فتى وسبعمائة وخمسين فتى وعدد النساء بقصر الزهراء ستة آلاف وثلثمائة امرأة وأربع عشرة امرأة وكان على الحجر الذي جلب من مقالع الاندلس أو حمل من القاصية نقوش وتماثيل وصور على صور الانسان ولما جلبه أحمد الفيلسوف وقيل غيره أمر الناصر بنصبه في وسط المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس ونصب عليه

اثني عشر تمثالاً . وقال بعضهم عمل في الزهراء عشرة آلاف عامل خمسا وعشرين سنة وفي الشرق من الوادي الكبير مدينة الزاهرة التي بناها المنصور بن أبي عامر التي يقول فيها ابن عربي لما دخلها ووجدها متهدمة :

ديار بأكناف الملاعب تلمع وما ان بها من ساكن فهي بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب فتصمت أحيانا وحيناً ترجع
نخاطبت منها طائراً متفرداً له شجن في القلب وهو مروع
فقلت علي ماذا تنوح وتشتكي فقال علي دهر مضى ليس يرجع

وقد حرقت الزهراء وهدمت في حدود سنة ٤٠٠ هـ وبقيت رسومها وخربت قرطبة وما فيها من القصور والمرافق في حرب البربر وسقطت قرطبة في أيدي العدو سنة ٦٣٣ هـ بعد ان كانت مدة خمسة قرون وخمس قرن في أيدي العرب ولم يعد حكمهم اليها بعد ذلك ولما خلت قرطبة من سلطان يرجع الى أمره صار كل من قويت يده عمر مدينة فخرت قرطبة وعمرت اشبيلية .

مدينة اشبيلية

١٠١

على شاطئ الوادي الكبير في أجل بقاع الاندلس وأعد لها هواء وأزكاها تربة قامت هذه العاصمة التي كانت من أعظم مدن الاندلس بعد سقوط قرطبة في أيدي الاسبان وكانت مدينة الحظ والسرور على اختلاف الدهور والعصور وليس اليوم في اشبيلية بقايا كثيرة من آثار العرب الا الجيرالدا أو منارة الجامع الاعظم وهي أعجوبة اشبيلية ترى من مكان بعيد بناها مهندس عربي من سنة ١١٨٤ - ١١٩٦ لأبي يوسف بن يوسف من دولة الموحدين وهي من الآجر يدق حجمها كلما ارتفعت في الهواء وقاعدتها عبارة عن مربع ذي ١٣ متراً و ٥٥ سنتمترًا ويزيد سمك الجدران علي مترين وقد تشوهت بما زاد عليها الاسبان

بعد خروجها من أيدي العرب وهي الآن قبة جرس البيعة الكبرى .

قال في ذيل الباب : قد دخل (يعنى أمير المؤمنين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن) اشبيلية في غرة صفر سنة ٥٩٣ فآخذ في اتمام بناء الجامع وتشيد مناره وعمل التفافيح من أملح ما يكون من عظمة لا أعرف له قدراً الا أن الوسط منها لم يدخل على باب المؤذن حتى قطع الرخامة من أسفلها وزنة العمود الذى ركب عليه أربعون ربعا من الحديد وكان الذى صنعها ورفعها فى أعلى المنار المعلم أبو الليث الصقلى وموتت تلك التفافيح بمائة ألف دينار ذهباً اهـ .

ومن أجل ما فى كنيسة اشبيلية اليوم والجامع أمس ناووس من الصلب فيه بقايا خريستوف كولبس الملاج الجنوى الذى اكتشف أميركا يحمله من أربعة أطرافه ملك قشتالة وملك ارغون وملك ليون وملك نافار وهو من صنع ميليدا سنة ١٨٩٢ كان فى كنيسة هافان ثم نقل الى اشبيلية سنة ١٨٩٨ بعد ان تحررت كوبا من اسبانيا .

تقرب اشبيلية من البحر ولا ترتفع عن سطحه أكثر من ثمانية أمتار وقد قال الفرنجة فيها : ليست الجير الدا ولا سائر مصانع اشبيلية ولا كنوز آثارها وجميل نقوشها على الحيطان هى التى اشتهرت بها اشبيلية البديعة ورددت المثل الذى سار فيها « من لم ير اشبيلية لم ير غريبة » بل ان ما اشتهرت به فى جميع اسبانيا مظاهر سرور الحياة فيها من مراقص وأفراح ومواسم وحركة البهجة الدائمة التى تنبعث من سكانها على الدوام .

جرت مناظرة بين يدى منصور بن عبد المؤمن بين العالم أبى الوليد بن رشد والرئيس أبى بكر بن زهر فقال ابن رشد لابن زهر فى كلامه : ما أدري ما تقول غير انه اذا مات عالم باشبيلية فاريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها واذا مات مطرب بقرطبة فاريد بيع تركته حملت الى اشبيلية . وبهذا عرفت ان اشبيلية بلدة طرب وسرور فى معظم أدوارها . ولطبيعة الاقليم دخل كبير فى هذا الشأن . فى اشبيلية قصور كما فى قرطبة مصايف زرتها وزرت حدائقها وطوفت

في اعطائها وهي ملك لانس من أغنياء البلاد تتناقل من سيد فيهم الى سيد ومنها ما جعل كما هو بيت يلاتوس على الداخل اليه جعل يتقاضاه الحارس ليصرف على الفقراء كما جعلت الحكومة على كل داخل الى معهد من معاهد العرب وغيرهم جعلاً من النقود لتصرف منه على الترميم فليس في البلاد ما يعنى الناظر اليه والزائر له من دفع النقود من متاحف وآثار الا اذا كان بعض المغاور والحصون والسدود الخربة التي قامت في كل ناحية من انحاء البلاد التي ظل فيها حكم العرب نافذاً دهرًا طويلاً .

كانت اشبيلية تعد من العواصم بكثرة سكانها ولما سقطت في أيدي الاعداء هاجر من مسلميها فقط زهاء ثلثمائة ألف مسلم الى قرطبة وجيان وبلنسية وغرناطة حيث كانت راية بني نصر تتحقق . وناهيك ببلدة يهاجر من سكانها هذا العدد وسكانها اليوم ١٤٨ ألفاً وتعد من المدن المتجددة وليس لها مسحة من القديم الا ما كان من بعد عهد العرب وقد سقطت من بعد جلائهم عنها الى الحضيض .

مدينة غرناطة

١٠٢

بلد يحف به الرياض كأنه وجه جميل والرياض عذاره
وكأنما واديه معصم غادة . ومن الجسور المحكمات سواره
هذا ما قاله ابن الخطيب في هذه العاصمة آخر ما حكته العرب من أرض
الاندلس من عواصمها وحواضرها جمعت فيها بقاياهم وجالياتهم فظلوا فيها نحو
قرنين ونصف قرن وعمروها فادهشوا العالم بعمرانها . جاءها جميع المسلمين الذين
لم يجبروا ان يبقوا في البلاد التي وقعت في قبضة العدو يحتمون بملوكها من بني نصر
جاؤها ألوفاً ألوفاً من قرطبة واشبيلية وبلنسية يحملون اليها ما كان مبعثراً من
الصنائع والثروة في تلك الأرجاء .

قالوا ان غرناطة قاعدة بلاد الاندلس وعروس مدنها وخارجها لانظير له
في بلاد الدنيا وهو مسيرة أربعين ميلا يخترقه نهر شنيل المشهور وسواه من
الأنهر الكثيرة والبساتين والجنات والرياضات والقصور والكروم محدقة بهامن
كل جهة . وحكى ابن سعيد ان غرناطة تسمى دمشق الاندلس لسكنى أهل دمشق
بها عند دخولهم الاندلس وقد شبهوها بها لما رأوها كثيرة المياه والاشجار وقد
أطل عليها جبل الثلج Sierra Nevada — كما أطل جبل الثلج أو جبل الشيخ
أو جبل حرمون على دمشق — وفي ذلك يقول ابن جبير :

يادمشق الغرب هاتيك لقد زدت عليها
تحتك الأنهار تجري وهي تنصب اليها

قال ابن سعيد أشار ابن جبير الى أن غرناطة في مكان مشرف وغطتها تحتها
تجري فيها الأنهار ودمشق في وهدة تنصب اليها الانهار وقد قال الله تعالى في وصف
الجنة تجري من تحتها الأنهار . أما غوطة غرناطة اليوم فليست كغوطة دمشق
باشجارها الملتفة ولا كما كانت كذلك على عهد العرب بل هي جرداء مرءاء ولذلك
كان منظرها أشبه بمنظر سهل البقاع اذا أطلت عليه من سفوح لبنان الغربي .
وغرناطة في كورة البيرة من أشرف كور هذا الاقليم نزلها جند دمشق .
قال الرازي : وخص البيرة أي سوادها وريفها لا يشبه بشيء من بقاع الارض
طيباً ولا شرفاً الا بالغوطة غوطة دمشق .

وقال ابن الخطيب : وخصها أي خص غرناطة لافيح المشبه بالغوطة الدمشقية
حديث الركاب وسمر الليالى قد دحاه الله في بسيط سهل تخترقه المذانب وتتمخلله
الانهار والجداول وتزاحم فيه الغرف والجنات في ذرع أربعين ميلا ونحوها
تنبو العين فيها عن وجهه ولا تتخطى المحاسن منها مقدار رفعة الهضاب والجبال
لمتطامية منه بشكل ثلثي دائرة قد علت منه المدينة فيما يلي المركز من جهة القبلة
مستندة الى أطواد سامية وهضاب عالية ومناظر مشرقة فهي قيد البصر ومنتهى
الحسن ومعنى الكمال .

وينزل الثلج شتاء وصيفاً على جبل غرناطة وينبجس منه ستة وثلاثون نهراً
كما تنبجس من سفوحه العيون . قال أبو الحجاج ابن حسان :

أحن الى غرناطة كلما هفت	نسيم الصبا تهدي الصبا وتسوق
سقى الله من غرناطة كل منهل	بمنهل سحب ماؤه من هريق
ديار يدور الحسن بين خيامها	وارض بهما قلب الشجي يشوق
أغرناطة العلياء بالله خبري :	ألاها ثم الباكي اليك طريق ؟
وما شاقني الا نضارة منظر	وبهجة دار للعيون تروق
تأمل اذا أملت حوز مؤمل	ومد من الحمرا عليك شقيق
وأعلام نجد والسكينة قد علت	وللشفق الاعلى تلوح بروق
وقد سل شليل فرنداً مهنداً	نضى فوق در ذر فيه عقيق
اذا نم منه طيب نشر اراكه	أراك فتيت المسك وهو فتيق
ومها بكى جفن الغمام تبسمت	ثغور أفتح في الرياض أنيق

ولما غدت غرناطة عاصمة ابن الاحمر من دولة بني نصر بالسيف تارة وبمحسن
السياسة مع الأحزاب المعادية أو بمخالفة القشتاليين الاسبانيين وبني مرين المراكشيين
تارة أخرى جعلها العرب الذين طردوا من المدن المجاورة وطناً لهم ونشط ملوكها
الصنائع والتجارة وعمرروا الطرق والمجاري وتسلسل ذلك فيها قائم الثاني ما بدأ
به الأول وزينوا البلاد بآبنية بديعة فأصبحت غرناطة أغنى مدينة في شبه جزيرة
ايبيريا وبمحكمة أمراءها انبعثت منها شعلة المدنية المغربية في اسبانيا وأنت غنايتهم
بالزراعة والصناعة عهد قرطبة وما كان فيها من العلوم والصناعات وجمال البناء
وأصبحت قصورهم مثابة العلماء والأدباء والفلاسفة « فصارت المصر المقصود
والمعقل الذي تنضوى اليه العساكر والجنود » ولما استولى عليها الاسبان سنة
١٤٩١ م بعد ان حاصروها سبعة أشهر فنيت في خلالها ازواد المحاصرين من
العرب وفنيت خيلهم كما فنى كثير من نجدة الرجال بالقتل والجراحات — كان
سكانها نصف مليون نسمة (تقوسها اليوم ٧٦ ألفاً) فانحطت على عهد الاسبان

بعد حين وأقمرت من السكان بما أصدره الملوك الكاثوليك من الأوامر الخرقاء ولما اشتدت فيها وطأة ديوان التفتيش الديني ظل الحكام والرهبان يستأصلون شأفة العرب حتى لم يبقوا منهم باقية وكان لها على عهد العرب ١٠٣٠ برجاً متزاحمة بالبيوت وقال ابن الخطيب ان الأبراج بلغت الى ما يناهز أربعة عشر ألفاً وكان في جوارها ما ينيف على ثلاثمائة قرية عدا ما يجاور الحضرة من قرى الأقليم أو ما استضيف اليها من حدود الحصون المجاورة (وكان أكثرها امصاراً فيها ما يناهز خمسين خطبة تنصب فيها لله المنابر وترفع الايدي وتتوجه الوجوه ويشتمل سورها وما وراءه من الأرخاء الطاحنة بالماء ما ينيف على مائة وثلاثين رحي)

فهرس الحمراء

١٠٣

هم الملوك اذا أرادوا ذكرها من بعدهم فبالسن البنيان
أو ماترى الهرمين قد بقياوكم ملك محاه حوادث الازمان
ان البناء اذا تعاضم شأنه أضحى يدل على عظيم الشأن

الحمراء ويقال لها القسبة الحمراء ومعنى القسبة عندهم القلعة وتسمى حمراء غرناطة وهى مطلة على مدينة غرناطة اطلال الصالحية من سفح قاسيون على دمشق . سميت بالحمراء لاجرار جدرانها بل للون التربة التى قامت عليها فى سفح جبل غرناطة ومعظمها مبنى بالخزف والكلش والحصباء . وفى قسبة الحمراء قصور العرب وهى ثلاثة قصور منفصلة عن القلعة وتدخل فيها المدينة الصغرى القائمة على تلك الاكمة وقد بنى كل قصر منها فى زمن غير زمن القصر الآخر وبقى من القصر الأول شئ قليل وهى المقصورة والكنيسة وكان جامعاً بناه محمد الثالث من ملوك بنى نصر قال فيه ابن الخطيب ان أعظم مناقبه المسجد الجامع بالحمراء

على ما هو عليه من الظرف والتنجيد والترقيش ونخامة العمل وأحكام أنواع النفضة وابداع أثرها أثق عليه من مال الجزية فظهر بها منقبة له يتيمة فاق بها من تقدمه ومن تأخره من قومه .

والقصر الثاني قصر الآس وفيه الآس الكثير كان مقر السلطان ومجلس الحكم أودار السلطنة يقعد فيه للمظالم ويستقبل السفراء وكبار رجال المملكة . والقصر الثالث منعزل عن القصرين الآخرين قليلاً وكان فيه دائرة حرمة ومساكنه الخاصة وفي هذا القصر صحن الاسود وهو في الجزء الأوسط منه .

فقاعة السفراء عبارة عن مربع مساحته ١١ متراً بعرض ١٨ كان الملك يستقبل بها وفيها عرشه الى الشمال أمام المدخل وهي تطل على ربض البيازين ومدينة غرناطة وقد ركبت في كل نافذة وسطى أعمدة صغيرة من العجمي أو الشمسية تدفع حرارة الشمس . وتتش هذه القاعة من أجل ما حوت الحمراء وكان فيها ١٥٢ صورة مختلفة طبعت بالجص الطرى على الجدران في قوالب من حديد وهي الى الحمرة والزرقة المشبعة .

أما فناء الاسود فهو صحن واسع فيه اثنا عشر أسداً رابضاً من الرخام تحمل الاناء العظيم القائم وسط الدار ويخرج الماء من أفواهها وتسيل الفوارات من أعلى الصحن الذي جعل قطعة واحدة كبيرة كأنه حوض واسع من أحواض بيوت دمشق القديمة وكأن ابن حمديس الصقلي وصف هذه الدار عندما وصف دار المنصور ببجاية فقال :

واعمر بقصر الملك ناديك الذي	اضحى بمجدك بيته معمورا
قصر لو انك قد كحات بنوره	أعشى لعاد إلى المقام بصيرا
واشتق من معنى الحياة نسيمه	فيكاد يحدث للعظام نشورا
نسي «الصبيح» مع «المليح» بذكره	وسما ففاق خورتقا وسديرا
ولو ان بالايوان قوبل حسنه	ما كان شيئاً عنده مذكورا
أعيت مصالعه على الفرس الاولى	رفعوا البناء واحكموا التديرا

ومضت على الروم الدهور وما بنوا
اذكرتنا الفردوس حين أريتنا
فالمحسنون تزيدوا أعمالهم
والمذنبون هددوا الصراط وكفرت
فلك من الافلاك الا انه
أبصرته فرأيت أبدع منظر
وظننت انى عالم فى جنة
واذا الولا ئد فتحت أبوابه
عضت على حلقاتهن ضراغم
فكأنها لبدت تهصر عندها
تجرى الخواطر مطلقات أعنة
بمرخم الساحات تحسب أنه
ومحصب بالدر تحسب توبه
يستخلف الا صباح منه اذا انقضى
وضراغم سكنت عرين رئاسة
فكأنما غشى النضار جسومها
أسد كأن سكونها متحرك
وتذكرت فتكاتها فكأنما
وتخالها والشمس تجلو لونها
فكأنما سلت سيوف جداول
وكأنما نسج النسيم لمائه
وبديعة الثمرات تعبر نحوها
شجرية ذهبية نزعت الى
قد صولجت أغصانها فكأنما

لملوكم شهباً له ونظيراً
غرفاً رفعت بناءها وقصوراً
ورجوا بذلك جنة وحريراً
حسناتهم لذنوبهم تكفيراً
حقر البدور فاطلع المنصوراً
ثم اثنتيت بناظرى محسوراً
لما رأيت الملك فيه كبيراً
جعلت ترحب بالعفاة صريراً
فغرت بها أفواهها تكسيراً
من لم يكن بدخوله مأموراً
فيه فتكبو عن مداه قصوراً
فرش المها وتوشع الكافوراً
مسكا تضوع نشره وعبيراً
صبحاً على غسق الظلام منيراً
تركت خير الماء فيه زئيراً
وأذاب فى أفواهها البلوراً
فى النفس لو وجدت هناك مثيراً
أقمت على أدبارها لتثوراً
ناراً وألسنها اللواحس نوراً
ذابت بلا نار فعدن غديراً
درعاً فقدر سردها تقديراً
عيناي بحر عجائب مسجوراً
سحر يؤثر فى النهى تأثيراً
قنصت لمن من الفضاء طيوراً

وكأنما تأتي لواقع طيرها أن تستقل بنهضها وتطيرا
 من كل واقعة ترى منقارها ماء كسلسال اللجين نميرا
 خرس تعدد من الفصاح فانشدت جعلت تفرد بالمياه صفيرا
 وكأنما في كل غصن فضة لانت فأرسل خيطها مجرورا
 وتريك في الصهر يج موضع قطرها فوق الزبرجد لؤلؤاً منشورا
 ضحكت محاسنه اليك كأنما جعلت لها زهر النجوم ثغورا
 ومصفح الابواب تبرا نظروا بالنقش بين شكوله تنظيرا
 تبدو مسامير النضار كما علت فلك النهود من الحسان صدورا
 خلعت عليه غلائلاً ورسية شمس ترد الطرف عنه حسيرا
 واذا نظرت الى غرائب سقفه أبصرت روضاً في السماء نصيرا
 وعجبت من خطاف عسجده التي حامت لتبنى في ذراه وكورا
 وضعت به صناعه أقلامها فأرتك كل طريدة تصورا
 وكأنما للشمس فيه ليقة مشقوا بها التزويق والتشجيرا
 وكان ماء اللازورد مخرم بالخط في ورق السماء سطورا
 وكأنما وشوا عليه ملاء تركوا مكان وشاحها مقصورا
 يمالك الارض الذي أضحي له ملك السماء على العداة نصيرا
 كم من قصور لملوك تقدمت واستوجبت لقصورك التأخيرا
 فعمرتها وملكك كل رياسة واستوجبت لقصورك التأخيرا
 منها ودمرت العدا تدميرا

وهناك قاعة الحكم وقاعة بني سراج والمقصورة . تخرج من واحدة فتدخل
 في أخرى فتخالك في جنة عالية قطوفها دانية لا تستطيع وصفها لبدائعها
 الكثيرة وهناك قاعة اسمها قاعة الاختين كانت على ما يظهر لجلوس نساء
 الملك في الشتاء وتقسها من أقصى ما بلغه النقش العربي من الاتقان وأهم ما فيها
 المقرنص الذي حوى نحو خمسة آلاف شكل مختلف بعضها عن بعض تألف منها
 مجموع يصعب وصفه لجماله وقبتهأ عجوبة البناء ومثال الصبر والعمل وكأنها

كانت في يد صانعها كالعجين يعمل فيها ماشاء من الصور أو كأنها خلقت خلقة ولم تمسها يد بشر

وبالقرب من قصور الحمراء جنة العريف وهي حديقة كبرى فيها جميع أشجار القطر وأزهاره قامت هندستها في منحدراتها وأكلماتها وبساتينها على أسلوب يأخذ بمجامع القلوب وفيها سطوح ومنغاريء وفوارات وسياج تشبه المصايف الإيطالية في عهد النهضة وفيها كثير من شجر السرو ومن جملتها سروة. يدعوونها سروة السلطان عمرها نحو ستائة سنة وتحتها فيما يقال تواعدت امرأة أبي عبد الله مع ابن سراج

ولقد كان للسلطان أوائل المئة الثامنة في غرناطة ما يناهز مائة جنة مثل جنة العريف على ما روى صاحب الاحاطة وناهيك بمدينة فيها مثل هذا العدد الدثر من الجنان وذلك في الحقيقة من أمارات المدنية والرفاهية .

ورد ذكر الحمراء لأول مرة في واقعة حدثت سنة ٢٧٧ هـ فاعتصم بها القيسيون من العرب وقد تأثرهم عصاة من الاسبانيين فنجا الأمير الأموي بحيلة غريبة وخرج مخرجاً مدهشاً مع رجاله ولما استولى الموحدون على غرناطة التجأ المرابطون الى هذا القصر . واشتهرت الحمراء على عهد دولة بني نصر أو بني الأحمر الذين استقلوا بأماره غرناطة بعد سقوط قرطبة واشبيلية وجعلوها عاصمتهم فأنشأ محمد بن الأحمر قصره الملكي بالقرب من السور والقلعة وفي عهد الامبراطور شارل كان جعل جامع الحمراء كنيسة فأبدلت صورة القصر الملكي القديم وأنشئ باب المدخل الذي يجتاز منه السور الذي طوله ٣٥٠٠ متر وفيه عدة أبراج .

وقالوا ان فرديناند وايزابيلا الكاثوليكية عنيا كل العناية بالحمراء لما اغتما فرصة اختلاف العرب وأمرائهم وعزما على اخراج جميع العرب من اسبانيا وقد أمرا بترميم نقوشها الداخلية ورما جدرانها وكان شارل كان على شدة حرصه على آثار الحمراء والابقاء عليها عمر مباني ليخلد فيها اسمه ولكنها لم تم وأوردوا في معرض البرهان على ولوعه بالآثار العربية ما نسب اليه من القول عند ما وقع

بصره على آثار الحمراء : يالشقاء من أضيع كل هذا .

جاء في دائرة المعارف الاسلامية : واذا وقع التنظير بين قصر الحمراء والقصور والجوامع التي بنيت على ذاك العهد في القاهرة مثلا كجامع السلطان حسن الذي بنى سنة ١٣٥٦ م تبين الفرق العظيم بين البنائين فانك ترى لهندسة جامع القاهرة أمثالا كثيرة في حين بنى قصر الحمراء على غير مثال محتذى ولا يوجد في مملكة من الممالك قصر اسلامي مثل الحمراء وبقدمه لم يكن له شبيهه مع انه شيد بمواد سريعة الانحلال اللهم الا أبنية العصر الأموي التي عثر عليها الباحثون في بادية الشام شرق بلاد موآب وبعض الخرائب من العصر العباسي في سامرا والرقه .

وقصارى القول ان الحمراء مصيف تحف به حدائق واسعة ومتنزهات وفيه المياه الجارية والنبات والحيوان الكثير ونقوشه تبهر الأبصار وفي مسالك الأبصار: ان الحمراء كثيرة المباني الضخمة والقصور ظريفة جداً يجري بها الماء تحت بلاط كما يجري في المدينة فلا يخلو منه مسجد ولا بيت وبأعلى برج منها عين ماء وجامعها من أبدع الجوامع حسناً وأحسنها بناء وبه الثريات الفضية معلقة وبجائط محرابه أحجار ياقوت مرصعة في جملة مانعق به من الذهب والفضة ومنبره من العاج والآبنوس .

ولما استولى ملوك قشتالة على الحمراء سلموها الى مهندسين من العرب بلغ من حذقهم انك لا تعرف ما أدخلوه فيها من الإصلاح ولا تميزه عن الاصل الذي كانت عليه من قبل . ودام هذا الترميم في الحمراء الى ثورة العرب سنة ١٥٦٩ وفي سنة ١٥٢٢ أصيبت بهزة أرضية وفي سنة ١٥٩٠ بحريق في مطحنة بارود سببت خراب أقسام منها ثم تركت وشأنها في القرن السابع عشر والثامن عشر وقد نسف جنود نابليون سنة ١٨١٢ قسماً منها بالمواد الملتهبة معتبرين الحمراء حصناً وذلك عند جلائهم عن اسبانيا ثم أخذت همة حكومة اسبانيا تتجدد لاعادة الحمراء الى حالتها الأولى .

ويقول جوسيه ان ملوك اسبانيا لما دخلوا الحمراء لم يعاملوا آثار خصوصهم

معاملة أعداء بل معاملة أصحاب . وبعدان ذكر كيف كانوا يتعهدونها وكيف عهدوا الى مهندسين من العرب استخدموهم لترميمها قال : وأهملت الحمراء من بدء القرن السابع عشر الى أواسط القرن الثامن عشر فأخذ يسكنها جنود ياطرة وأرباب حرب وحاكة وفاخرانيون وأسرار فقيرة فكانت الأوساخ فيها وفي جدرانها والناس يعبثون بما فيها وربما أصابها شيء من البارود والقذائف فتبدلت محاسنها وبليت بعض حيطانها ونقوشها ورسومها ومعالمها ثم صحت نية حكومة اسبانيا على تعهد تلك القصور وارجاعها الى حالها وكانت الهمة في هذا الشأن تفتقر ثم تتجدد بحسب سلطان ملوك اسبانيا ودرجتهم من العقل والفهم .

وفي هذا القصر أو المدينة البديعة ماعدا الآثار العربية قصر شارل كان أراد أن يوسع به دائرته سنة ١٥٢٦ بناه من الجزية التي كان يتقاضاها من العرب للسماح لهم بإجراء بعض شعائرهم . ومن أعمال شارل كان ابنية لم تتم لقلّة المال فيما يظهر والغالب انه حاول بما أنشأه من الأبنية ان يطمس آثار العرب ليجعل لبنائه الرجحان فلم يتم له ما أراد وبقيت الحمراء أجمل مثال في القصور على مر العصور والدهور .

وليس في الحمراء من الفرش والأواني الباقية من عهد العرب سوى جرة طولها كثر من متر صنعت من تراب بالميناء ولها لمعان لازوردي وذهبي رسم عليها حيوانات ونقوش عربية وهي من صنع معامل غرناطة في القديم هذه صورة مصغرة من وصف هذا القصر وما طرأ عليه إلي يومنا هذا وهو مقصد السائحين من أهل الأرض وكأن ابن حمديس وصفه اذ قال :

قصر يقصر وهو غير مقصر	عن وصفه في الحسن والاحسان
وكأنه من درة شفافة	تعشى العيون بشدة اللعان
لا يرتقى الراقي الى شرقاته	الا بمعراج من اللحظان
عرج بأرض الناصرية كي ترى	شرف المكان وقدرة الامكان
في جنة غناء فردوسية	محفوفة بالروح والريحان

وتوقدت بالجر من ناربحها
وكأنهن كرات تبر أحر
ان فاخر الأترج قال له ازدجر
لي تمعة المحبوب حين يشمى
منى المصبغ حين يبسط كفه
والماء منه شبائك فضية
وكأنما سيف هناك مشطب
كم شاخص فيه يطيل تعجباً
عجباً لها تسقى الرياض ينابغاً
خست بطائرة على فن لها
قس الطيور الخاشعات بلاغة
فاذا أتبع لها الكلام تكلمت
وكأن صانعها استبد بصنعة
أوفت على حوض لها فكانها
فكانها ظنت حلاوة مأها
وزرافة فى الجوف من أنبوبها
مركوزة فى الرمح حيث ترى له
وكأنها ترمى السماء بيندق
لو عاد ذاك الماء تقطاً أحرقت
فى بركة قامت على حافاتها
زعت الى ظلم النفوس تقوسها
وكأن برد الماء منها مطفى
وكأنما الحيات من أفواهها
وكأنما الحيتان اذ لم تخشها

فكأنما خلقت من النيران
جعلت صوالجها من القضبان
حتى تجوز طبائع الأيمان
طيباً ولون الصب حين ترانى
فبنان كل خريدة كبنانى
ذابت على درجات شاذروان
القتة يوم الحرب كف جبان
من دوحة نبتت من العقيان
نبعت من الثمرات والاغصان
حسنت فافرد حسنها من ثان
وفصاحة من منطق وبيان
بخير ماء دائم الهملان
نخر الجهاد بها على الحيوان
منها إلى العجب العجاب روائى
شهداً فذاقته بكل لسان
ماء يريك الجرى فى الطيران
من طعنه الحلق العطاف سنان
مستنبط من لؤلؤ وجمان
فى الجومنه قيص كل عنان
أسد تذلل لعزة السلطان
فلذلك انتزعت من الابدان
ناراً مضرمة من العدوان
يطرحن أنفسهن فى الغدران
أخذت من المنصور عقد أمان

كم مجلس يجرى السرور مسابقاً منه خيول اللهو في ميدان
يجلو دماء على الخدود ملاحه فكأنه المحراب من غمدان
فسماؤه في ممسكها علوية وقبابه فلكية البنيان

كتابات الحمراء

١٠٤

تقرأ في قصر الحمراء كثيراً من الآيات والمواعظ والأشعار زبرت على
الحجر أو بالخط الأندلسي المشبك وهو أقرب إلى النسخ المتعارف في هذه
البلاد الشرقية منه بالخط المغربي ومما تقرأه على أحد الأبواب « أمر ببناء هذا
الباب المسمى بباب الشريعة أسعد الله به شريعة الاسلام كما جعله فخراً باقياً على
الأيام مولانا أمير المسلمين السلطان المجاهد العادل أبو الحجاج يوسف ابن مولانا
السلطان المجاهد المقدس أبي الوليد بن نصر كافي الله في الاسلام صنائعه الزاكية
وتقبل أعماله الجهادية فشيد ذلك في شهر المولد المعظم من عام تسعة وأربعين
وسبعمائة جعله الله عزه واقية وكتبه في الأعمال الصالحة الباقية »

ومنها « الملك الدائم والعز القائم » ومنها « الحمد لله على نعمة الاسلام »
ومنها « عز لمولانا أبي عبد الله » ومنها « ولا غالب الا الله » ومنها « وما بكم من
نعمة فمن الله » ومنها « النصر والتكين والفتح المبين لمولانا أبي عبد الله أمير
المسلمين » ومنها « وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم » ومنها « فاقه خير
حافظاً وهو أرحم الراحمين » ومن الآيات التي رسمت على إحدى القباب في مدح
أبي الحجاج يوسف الأول

تبارك من ولاك أمر عباده فاولى بك الاسلام فضلاً وأنما

فكم بلدة بالكفر صبحت أهلها وأمسيت في أعمارهم متحكما
وطوقتهم طوق الإسار فأصبحوا ببابك يبنون القصور تخدمها
وفتحت بالسيف الجزيرة عنوة ففتحت باباً كان للنصر مبهما

ولو خير الاسلام فيما يريده لما اختار الا أن تعيش وتسلما
الى أن قال :

فأمنت حتى الفصن من تفحة الصبا وأرهبت حتى النجم في كبد السما
فان رعشت زهر النجوم نخيفة وان مال غصن البان شكر كيمما
ومنها: ومن قبلها استفتحت عشرين معقلا وصيرت مافيها لجيشك مغنا
وكتب في قاعة السفراء

أنا محلاة عروس ذات حسن وكمال
فانظر الابريق تعرف فضل صدق في مقال
واعبر تاجي تجده مشبهاً تاج الهلال
وابن نصر شمس فلك في ضياء وجمال
دام في رفعة شأن آمناً وقت الزوال

وكتب أيضاً

وحكيت كرمي العروس وزدته اني ضمنت سعادة الازواج
من حاءني يشكو الظماء فوردى صرف الزلال العذب دون مزاج
فكأني قوس الغمام اذا بدا والشمس مولانا أبو الحجاج
لازال محروس المثابة ماغدا بيت الاله مثابة الحجاج

وكتب على القبة

تحبيك مني حين تصبح أو تمسي ثغور المنى واليمن والسعد والانس
هي القبة العليا ونحن بناتها ولكن لي التفضيل والعز في جنسي
جوارح كنت القلب لاشك بينها وفي القلب تبدو قوة الروح والنفس

وان كان أشكالى بروج سمائها فتي عدا ماينها شرف الشمس
ومما كتب أيضاً على بركة صحن الاسود وهو من نظم الوزير أبي عبد الله
محمد بن يوسف بن زمرك تلميذ لسان الدين بن الخطيب :

تبارك من أعطى الامام محمدا	مغاني زانت بالجمال المغانيا
والا فهذا الووض فيه بدائع	أبي الله أن يلقى لها الحسن ثانيا
ومنحوتة من لؤلؤ شف نورها	تحلى بمرفض الجمال النواحيا
يذوب لجين سال بين جواهر	غدا مثلها في الحسن أبيض صافيا
تشابه جار للعيون بجامد	فلم ندر أياً منهما كان جاريا
ألم تر ان الماء تجرى بصفحتها	ولكنها مدت عليه المجاريا
كمثل محب قاض بالدمع جفنه	وغيض ذاك الدمع اذ خاف واشيا
وهل هي في التحقيق غير غمامة	تفيض الى الآساد منها السواقيا
وقد أشبهت كف الخليفة اذغدت	تفيض الى أسد الجهاد الاياديا
فيامن رأى الآساد وهي روابض	عداها الحيا عن أن تكون عواديا
وياوارث الانصار لاعن كلاله	تراث جلال تستخف الرواسيا
عليك سلام الله فاسلم مخلداً	تجدد أعياداً وتبلى أعاديا

ومما كتب في احدى القاعات أيضاً من نظم الوزير ابن زمرك

أنا الروض قد أصبحت بالحسن حاليا	تأمل جمالي تستفد شرح حاليا
أباهي من المولى الامام محمد	باكرم من يأتي ومن كان ماضيا
ولله مبناه الجميل فانه	يفوق على حكم السعود المبانيا
فكم فيه للابصار من متزه	تجد به (؟) نفس الحليم الامانيا
تبیت له خمس الثريا معيدة	ويصبح معتل النواصم راقيا
به القبة الفراء قل نظيرها	ترى الحسن فيها مستكناً وباديا
تمد لها الجوزاء كف مصافح	ويدنو لها بدر السماء مناجيا
وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت بها	ولم تك في أفق السماء جواريا

ولو مثلت في ساحتها وسابقت
ولا عجب ان فاق الشهب في العلى
فبين يدي مولاي قامت لخدمة
بها البهو قد حاز البهاء وقد غدا
وكم حلة قد جللتها بحليها
وكم من قسي في ذراه ترفعت
فتحسبها الافلاك دارت قسيها
سواري قد جاءت بكل غريبة
به المرمر المجلو قد شف نوره
اذا ما أضاءت بالشعاع تخالها
فلم ز قصرأ منه أزم نضرة
مصارفة التقدين فيه بمثلها
فان لملاّت كف النسيم مع الضحي
فيملاً حجر الروض حول غصونها

ومن الآيات اللطيفة

وجاد بها برد الهواء نسيمها
وقد حزت من كل المحاسن غاية
واني بهذا الروض عين قريرة
فصحت هواء والنسيم قد اعتلا
تقبس عنها الشهب في الافق الأعلا
وانسان تلك العين حقاً هو المولى

وفي الاندلس الى اليوم على كثرة ما انتاب مصانعها وقلعها ومدارسها وتربها
وجسورها وسدودها من التخريب لا تزال ترى بعض كتابات من النظم والنثر
وبعضها مثال البلاغة والفصاحة لأن الاندلسيين عاشوا وتنعموا في أرض معتدلة
الهواء جميلة الطبيعة فلا بدع ان جادت القرائح على تلك النسبة وظهرت في كتابهم
وشعرائهم آثار الابداع والاعجاب .

ذكرى مؤنة

١٠٥

مضت أعوام تلتها أعوام ، والنفس تتحدث بالارتحال الى الاندلس المحبوبة ، تستنفض معالمها ومجاهلها ، وتستبطن معاهدها ومصانعها ، فتتدبر ، وتذكر ، وتستفيد وتفيد . ولما اتاحت لها الاقدار ، بلوغ تلك الامصار ، عرض لها ما كدر صفو تلك الذكرى ، ذكرى التطواف في الاندلس بعد عزها للاعتبار ، بالدمى والاحجار ، واستنطاق الآثار ، واستقراء الاخبار ، لمعرفة عمل العرب في تلك الديار . .

اتفق نزولى غرناطة في اليوم الثاني من كانون الثاني ، اليوم الذي خرج فيه أبو عبد الله آخر ملوك بني الاحمر من عاصمة الاندلس ، وانتقلت أحكامها الى أيدي الغالبين من الاسبانيين ، والجرس يدوى في كنيسة الحمراء دويًا متواصلًا متساوًا مدة أربع وعشرين ساعة ، احتفالاً بهذا اليوم الذي يعده أهل اسبانيا عامة وسكان غرناطة من بينهم خاصة من أسعد أيامهم الفر . احتفلوا به ضروب الاحتفال ، ومن جملة مظاهر سرورهم مأدبة أديها يومئذ شيخ مدينة غرناطة في النزل الذي حلته في جوار الحمراء واسمه نزل « واشنطون » على اسم واشنطون محرر أميركا الشمالية وقد حضر المأدبة عظماء المدينة وشربوا وطربوا على ذكر أسنيلاء أجدادهم على آخر أرض احتلتها العرب من شبه جزيرتهم .

تذكرت ذلك اليوم المشؤوم ، وقد رفع الصليب النفضي على أعلى برج في الحمراء إشارة الى ظفر الاسبان الاخير وخروج العرب من هذه الديار ، وقد أخذ أبو عبد الله بن الاحمر يتحفز في حاشيته ليخرج من الحمراء قبل أن ييغته العدو فيها ، ويتلفت وهو يجتاز جبل الثلج الى غرناطة البديعة فيتنهد ويبكي ، وأمه ترافقه وتقول له : لا تبك كالنساء ما كآلم تستطع أن تحافظ عليه كالرجال . كل سنة يبالغ القوم هنا بعيد غرناطة السنوي وقد احتفلوا به حتى اليوم

أربعمائة وثلاثين سنة يتذكرون كل مرة نصرتهم على أعدائهم ويوماً تمت لهم فيه وحدتهم القومية والدينية ، وقد مثلوا أفظع مأساة ارتكبتها أنفس متعصبة جاهلة ، وسلكوا للخلاص من مخالفهم طرقاً بشعة ، لم يسلكها هؤلاء معهم يوم استصفوا أرضهم وحلوا دياراتهم ، وهم في رفعة ومنعة ، وغبطة وسعة . يحشدون يوم الحفل رجالهم ونساءهم وذرايرهم يحفزون أرواحهم ليوقظوها ، ويهيجون كوامن الصدور ليعتبروا بما وقع لهم في سالف العصور وليعلموهم ان غلبة سنة ١٤٩٢ وان كانت من باب تسلط الجهل على العلم الا أنها دلت على أن الثأر لا ينسى ولو بعد ثمانية قرون .

وما كان أجدر بالعرب ان يعدوا آخر يوم خرجوا فيه من الاندلس من أيام البؤس ، المشتعلة بالحزن . المملوءة بالاستعبار ، يتناشدون فيه التعازي والمرائي ، ويتطارحون حديث محنة مضت ، وتذكارها المؤلم لم يبرح يتجدد ، وشرر شرها لم يزل يتولد ويتوالد .

قيل ان أناساً من جالية الاندلس في بر العدو ما برحوا الى اليوم وقد انقضت أربعة قرون على مغادرتهم بلداً نبت لهم فيه العز ، وأثمر المجد والسعد ، يخلف الوالد منهم لبنيه في جملة مخلفاته ، مفاتيح داره في الاندلس على أول أن يعود أولاده اليها ذات يوم ويفتحوها ويترلوها . تذكار ان عده بعضهم في باب الهزل ، وقيده في سجل المستحيالات ، يحوى ولا جرم في مطاويه أجمل العظات ، وأعظم التذكارات .

وحقيق بكل بلد للعرب فقد استقلاله ان يقيم كل سنة المآتم على ما حل به خصوصاً في البلاد التي يبعث فيها المتغلبون بمشخصات المغلوبين فان بعض العناصر الاوربية كالاسبان لم يكتفوا بطرد العرب من بلادهم بل يحاولون اليوم في الريف من بلاد مراکش ان يجلوهم عنها بعد ان تأصلت كلمتهم فيها منذ ثلاثة عشر قرناً أقاموا خلالها مدنيات وأنشأوا أمجاداً لهم ودولات .

ان العرب الذين أنشأوا من العدم مدينة الاندلس وقاموا في عصور الظلمات

بأعمال لا يكاد يصدق الناظر اليها انها بنت قرائحهم ، وثمره عقولهم ، لو لم تتناصر على ذلك أصدق الروايات ، لا يعجزهم اليوم ، والعصر عصر النور ، أن يقوموا بمثل ما عمله أجدادهم ، لو نفس خناقمهم ، وملكوا زمناً قياداً أنفسهم . بعض أهل الغرب اليوم حرب على الشرق وسوف تكون لهذا الغلبة للاحتفاظ بدياره وآثاره ، وأمامه اسبانيا والبور تقال اللتان ثارتا لنفسهما من مستعبديهما بعد قرون ولم تكونا في رقي العرب اليوم عدداً وعدداً ، ومضاء وغناء .

أضعف أمة اليوم في الغرب لا يبلغ عدد أهلها عدد أهل إقليم واحد من أقاليم العرب أو قطر من أقطارهم تتناغي الليل والنهار بآثارها وتتحدث بمفاخر أجدادها وتقديس أعمال نوابغها ورجالها ولا تنسى يداً للمحسن اليها ، ولا اساءة مجرم جان عليها . العرب توغلوا يوم اشتد سلطانهم في جنوبي أوروبا ونشأت لهم حكومات في شبه جزيرة أيبيريا وجزيرة صقلية وسردانية فارتكبوا بذلك جناية في عرف أهل تلك الديار ، أفليس من العدل ان تغفر لهم هذه الهفوة أو الغزوة ، في جانب ما حملوه الى من غلبوهم من ضروب المعارف والصناعات ، ومستحسن الآداب والأخلاق . العرب حملوا الى الاندلس حضارة رائقة ، ونظاماً محكماً ، أحلوا محل الفوضى والتوحش ، والسخافات والخرافات .

تود كل أمة اليوم .هما بلغ من تراجع الحضارة بينها ان تحكم نفسها بنفسها وتمثل مشخصاتها ومقدساتها ، فهل ينال العرب هذه الأمنية وهم ليسوا دون بعض الأمم الاوربية التي أخذت تتمتع الواحدة تلوا الأخرى باستقلالها منذ قرن من الزمن فليس كل أمم أوروبا بحضارتهم الانكليز والالمان والفرنسيين ولا كل الشعوب العربية على مستوى واحد في الحضارة والنور .

جهد المسلمين و تنصيرهم

١٠٦

لما استولى العرب المسلمون على الاندلس لم يكرهوا أحداً من سكان البلاد الأصليين على الدخول في دينهم ، بل أظهروا التسامح المقبول الذي يأمرهم به الدين الحنيف ، وأطلقوا للناس حريتهم في ذلك ، فكان بعض الاسبانيين يدينون بالاسلام برضاهم .

فعهد العرب اذاً في الاندلس كان عهد تسامح وحرية ، لم تعهده من قبل ولا من بعد ولم يمنع عن بث الدين المسيحي الادعائه المفرطون ، ممن كانوا يقفون على أبواب المساجد والجوامع ، ويدعون المسلمين الى دينهم ، ولا جوزوا أخذ مال أحد من أهل ذمتهم بل اكتفوا بجزية بسيطة ، وساءوهم في جميع الامور بانفسهم . مثال من لطف الحكم تعلمه الفاتحون من كتابهم فلم يحيدوا عنه قيد غلوة ، وهم في عز سلطانهم ، والقول الفصل في الارض كلها لهم ولقومهم مدة قرون طويلة . هكذا فعل العرب في أبان قوتهم ، فانظر ماذا صنع الاسبان يوم قوى سلطانهم وكيف عاملوا العرب تقلاً عن شاهد العيان قال :

لما استولى صاحب قشتالة على مدينة بلش طام اثنين وتسعين وثمانمائة ودخلت في ذمته جميع القرى التي تلى بلش وقرى جبل منتميس وحصن قارش خرج أهل بلش من بلدهم مؤمنين ، وحملوا ما قدروا على حمله من أموالهم فذهب من جوزه العدو الى أرض العدو ومنهم من أقام في بعض تلك القرى ومنهم من صار الى أرض المسلمين التي بقيت بالاندلس .

ولما استولى الغالبون على مدينة مالقة وباش جميع الجهات الغربية لم يبق للمسلمين في تلك الناحية ملجأ . وفي طام ثلاثة وتسعين وثمانمائة خرج العدو نحو حصون الشرقية وكانت في صلحه فاستولى على تلك الحصون كلها وفي سنة ٨٩٤

خرج نحو حصن موجر فاستولى عليه وعلى الحصون القريبة منه ومن مدينة بسطة . وكان صاحب قشتالة كثيراً ما يستعين بالمرتدين والمدجنين على قتال المسلمين يدلونه على عوراتهم ، ولطالما أمر بهدم المدن والقرى التي يستولى عليها يبنى بأقاضيها مسورات في بضعة أيام كما فعل في غرناطة . ومن جملة الشروط التي شرط أهل غرناطة على ملك قشتالة أن يؤمنهم في أنفسهم ونسائهم وصبيانهم ومواشيهم ورباعهم وجناتهم ومحارثهم وجميع ما بأيديهم ولا يفرمون إلا الزكاة والعشر لمن أراد الإقامة ببلدة غرناطة . ومن أراد الخروج منها يبيع أصله بما يرضاه من الثمن لمن يريده من النصارى والمسلمين من غير غبن ، ومن أراد الجواز لبلاد العدو بالغرب يبيع أصله ، ويحمل أمتعته ، ويحمله في مراكبه إلى أي أرض أراد من المسلمين من غير كراء ولا شيء يلزمه لمدة ثلاث سنين ، ومن أراد الإقامة من المسلمين بغرناطة فله الأمان على نحو ما ذكر وكتب لهم بذلك كتاباً ، وأخذوا عليه عهداً وميثاقاً في دينه منغلطة . وبعد ذلك أخلى المسلمون مدينة الحمراء كما أخلوا غرناطة ودخلها الأسبانيون . ولما سمع أهل البشارة أن أهل غرناطة دخلت تحت ذمة النصارى أرسلوا بيعتهم إلى ملك الروم ودخلوا في بيعته فلم يبق للمسلمين موضع بالاندلس .

ولقد صرح صاحب قشتالة للمسلمين بالجواز إلى الساحل فصار كل من أراد الجواز يبيع ماله ورباعه ودوره فكان الواحد منهم يبيع الدار الكبيرة الواسعة المعتبرة بالثمن القليل ، وكذلك يبيع جنانه وأرض حرثه وكرمه وفدائه بأقل من ثمن الغلة التي كانت فيه ، فمنهم من اشتراه منه المسلمون الذين عزموا على الدجن ، ومنهم من اشتراه منه النصارى وكذلك جميع الحوائج والأمتعة ، ومن المسلمين من طمعوا في عناية ملك النصارى بهم فاشتروا أموالاً رخيصة وأمتعة وعزوا على المقام في الاندلس .

ثم إن الملك أمر الأمير محمد بن علي بالانصراف من غرناطة إلى قرية اندرش من قرى البشارة فارتحل بعياله وحشمه وأمواله وأتباعه ، ثم ظهر له أن يصرفه

فبعث للمراكب تآني لمرسى عذرة واجتمع معه خلق كثير ممن أراد الجواز فركب الأمير محمد ومن معه في تلك المراكب حتى نزلوا مدينة مليلة وفاس من عدوة المغرب .

وأخذ ملك الأسبان بعد حين ينقض الشروط التي اشترطها عليه المسلمون ، وشرع يفرض عليهم الفروض ، وثقلت عليهم المغارم ، وقطع لهم الأذان ، وأمرهم بالخروج من مدينة غرناطة إلى الأرياض والقرى ، وبعد ذلك دناهم إلى التنصر وأكرههم عليه وذلك سنة أربع وتسعمائة فدخلوا في دينه كرها وصارت الأندلس كلها نصرانية ، وامتنع بعض أهل الأندلس من التنصر كأهل قرية ونجروا البشرية واندرش وبلنيق ، فأحاط بهم ملك قشتالة وقتل رجالهم وسبي نساءهم وأخذ صبيانهم وسلب أموالهم ونصرهم واستعبدتهم ، وامتنع أناس في غربي الأندلس من التنصر وانحازوا إلى جبل وعزمين ، فلما امتنعوا عليه وقتلهم فلم ينل منهم منالاً أعطاهم الأمان على أن يجوزهم لعدوة المغرب مؤمنين على أن لا يسرح لهم شيئاً من أموالهم غير الثياب التي كانت عليهم وجوزهم لعدوة المغرب كما شرطوا ولم تقم للإسلام والمسلمين بعد ذلك قائمة .

قال السلاوي : التزم أهل غرناطة طاعة صاحب قشتالة لما استولى عليها سنة سبع وتسعين وثمانمائة والبقاء تحت حكمه ولما نقض الشروط وهي سبعة وستون شرطاً عروقة ومنها إقامة شريعة المسلمين على ما كانت ولا يحكم على أحد منهم إلا بشريعتهم وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك إلى أن آل الحال لهم على التنصر فتنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة ، وكان أهل الأندلس كثيراً ما يهاجرون إلى بلاد الإسلام غير أن طاعتهم كانوا قد تخلقوا بأخلاق المعجم (غير العرب من الأسبان) وأثر فيهم ذلك أثراً ظاهراً لطول صحبتهم لهم ، ونشأة أعقابهم بين أظهرهم إلى أن كانت سنة ست عشرة وألف ، فهاجر جميع من لم يتنصر منهم إلى بلاد المغرب وغيرها . وفي خلال ذلك منع العرب من التكلم بالعربية (١) .

(١) لما اقترضت دولة العرب وبقي بعضهم فيها حافظوا على دينهم مع شدة الاضطهاد ولكنهم

قال المقرئ : كان النصارى بالاندلس قد شددوا على المسلمين بها في التنصر حتى انهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ومنعواهم من حمل السكين الصغير فضلاً عن غيرها من الحديد وقاموا في بعض الجبال على النصارى مراراً ولم يقيض الله لهم ناصراً الى ان كان اخراج النصارى اياهم اعوام سبعة عشر وألف فخرجت ألوف بفاس وألوف أخر بتلمسان ووهران وخرج جمهورهم بتونس وخرج طوائف بتطاوين وسلا والجزائر وعمرروا القرى واغتبط بهم الناس وتعلموا حرفهم وقلدوا ترفهم^(١) ووصل جماعة منهم الى القسطنطينية والى مصر والشام وغيرها من بلاد الاسلام .



هذا مارواه مؤرخو العرب واليك ما قاله مؤرخو الافرنج في هذه الكارثة : جاء في التاريخ العام للافيس ورامبو : صحت النية سنة ١٦٠٩ على نفي العرب Les morisques وكانوا يؤلفون عنصراً خاصاً عصى على التمثل ولم ينزل عن

نسوا أو الرموا باهمال اللغة العربية وصارت اللغة القشتالية أى الاسبانية ملكة متوارثة فيهم فكتبوا علومهم بها لكن بحروف عربية وسموها (الحيامو — Aljamiado) ووجه التسمية أن العرب يسمون كل ما ليس بعربي اعجبياً وجرى على منوالهم الاندلسيون فكانوا يسمون اللغة القشتالية أى الاسبانية باسم « الاعجمية » ثم انتقلت هذه اللفظة الى اللغة الاسبانية بغير حرف العين لعدم وجود ما يقابله في اللغات الافرنجية فصارت الكلمة مقابل هذا الصوت (الاجاميا) ولما كان أهل اسبانيا يقدون أغلب الجيمات خآآت قالوا (الاخاميا) أو (الحيا) ورسوموها بحروفهم هكذا بعد أن سكنوا حركة اللام (Alj amia) وعلامة النسبة عندهم (lo) توضع في آخر الكلمة فلذلك قالوا (Aljamiado) أى الاعجمي . (السفر الى لمؤنر)

(١) قال ابن ابي دينار ان المهاجرين من الاندلس الى تونس سنة ١٠١٧ - ١٠١٨ هـ كانوا خلقاً كثيراً فوسع لهم عثمان داي في البلاد وفرق ضغفاهم على الناس واذن لهم ان يعمروا حيث شاؤوا فاشترى الهناشير وبنوا فيها واتسموا في البلاد فعمرت بهم واستوطنوا في عدة أماكن وبنوا أكثر من عشرين بلداً فصار لهم مدن عظيمة وغرسوا الاشجار ومهدوا الطرقات بالكراريط لمسافرين وصاروا يعدون من أهل البلاد ، وذكر السيد حسن حسني عبد الوهاب من علماء تونس في رسالة بالفرنسية ذكر فيها أصول التونسيين انه دخل تونس في القرنين ونصف القرن الذي انتهى بها جلاء العرب عن الاندلس لا أقل من مئة ألف أندلسي وأن الطبقة المتدنة الفنية من الاندلسيين نزلت مدينة تونس واختلطت بأهلها وقلدهم ملوك بني حفص فيها خطط القضاء والادارة والتعليم .

مشخصاته ومميزاته على كثرة ما بذل فيليب الثاني من الجهد فوقع الاتفاق على التذرع بكل ما يمكن لاهلاكهم فعمدت الحكومة الى الخروج عن القانون بدعوى قيامها بما فيه سلامتها ولا نجاز وحدة اسبانيا واتقاذ البلاد من أولئك المحالفين صراً للاتراك والانكليز والفرنسيين على حين اشتدت شوكة قرصان البحر من البربر وهنري الرابع يضع خططه السرية لحاذرت اسبانيا العواقب وقام رئيس أساقفة بلنسية يدعو الى طرد العرب مدعياً ان منهم تسعين ألفاً يستطيعون حمل السلاح واذا أثار على اسبانيا عدوها تسوء حالها ويخرج موقعها . واذا كان القشتالي كسلاناً فقيراً كان يكره من العرب منافستهم الشديدة له التي اكسبتهم غنى بفضل اقتصادهم نادى رئيس الاساقفة ان مما يخشى منه ان يحتكر هؤلاء العرب جميع ثروتنا ويؤدوا بالمسيحيين الى العدم والشقاء . وقال غيره انهم يدخرون على الدوام وعلمهم عبارة عن مرقتنا فهم الدودة التي تقرض اسبانيا . وعلى هذا كان من التعصب الدينى ان قضي على العرب . ولما تعذر تنصيرهم رأوا ان الطريق الوحيد الى الخلاص من خطرهم المادى والمعنوى يكون بطردهم فقوى تفوذ رجال الكهنوت على ممثلي طبقات الاشراف في البلاد وكانت عقول هؤلاء أكثر استنارة يحرصون على الاحتفاظ بالعرب في بلادهم لانهم حاملون ينفعونهم بعملهم ويدرون عليهم ريعاً كبيراً فقاموا ينكرون الشدة التي ارتأى أن يعمد اليها المجلس والخبر نديم الملك فلم يلبث بقايا العرب في بلنسية والاندلس ومرسية وقشتالة وارغون وكتلون ان غربوا (ايلول ١٦٠٩ تموز ١٦١٠) وحملوا الى أفريقية حيث هلك عدد كبير منهم وثار أربعون ألفاً منهم فاعتصموا في جبال بلنسية فذبحوا أو استعبدوا ففقدت اسبانيا بهم على أقرب تقدير من خمسمائة الى ستمائة ألف من أحسن العاملين في الزراعة والصناعات ومعجات بذلك خرابها وبعملها هذا ابتاعت وحدتها الدينية بالثمن الغالى وفرح الرأى العام الاسباني اذ ذاك بما تم في هذا الشأن وعدوه من أعظم الاعمال التي قامت في عهد ملكهم ومنهم من رأوه نعمة من السماء ! وقال مؤرخ اسباني : يا لسعادة ملك توفى الى

أن يعمل هذا العمل من طرد العرب ، ولكن الامم خارج اسبانيا عدوا عمل الاسبانيين من تغريب العرب جنوباً بل وصفه ريشليو بأنه أفظع عمل بربري ذكره تاريخ القرون .

وفي التاريخ العام أيضاً أن خضوع العرب في اسبانيا قد أقلق ملوك الكاثوليك ^(١) وفتح أمامهم مسألة تطالوا الى حلها بما عهد في عنصرهم من المضاء الوحشى وبما اشتهرت به قرون التدين من التعصب وعدم التسامح فأروا ان بعض مئات الالوف من الاسرائيليين والمسيحيين يكثرون سواد المخالفين وهم كثير نسلهم لا يعلم ماذا يكون منهم وهم على ما هم فيه من النمو يفتنون ويعملون فاشتد القلق من قوم يخالفون الاسبانيين بحضارتهم بل يعجبون بها ولهم ميول وعقائد وعواطف تخالف ما عليه الجمهور فبدأوا بالاسرائيليين حتى أن ميكل لوкас أعظم سادات قشتالة ذبحه سكان جيان أمام المذبح في الكنيسة سنة ١٤٧٣ لاتهامه بالمطف على الاسرائيليين .

وكان من مذابح سنة ١٣٩٠ ان اضطر ألوف من اليهود في معظم مدن قشتالة ان يتنصروا ومنهم من دام على نصرانيته ومنهم من رجع الى دينه الاصلى أو كان ظاهره مسيحياً وقلبه وعاداته قلب امرائيلي وعاده . وكان منهم طبقة غنية محترمة وفي سنة ١٤٨١ وقع تخييرهم بين التنصر والجلاء فأثروا الثاني إلا ان ديوان التفتيش لم تأخذه بهم رحمة كما لم يشفق على المسلمين سنة ١٤٩٢ فشقوا عصا الطاعة بما رأوه من تعصب الكردينال كسيمنس ^(٢) الذى عهد الى تنصيرهم بأبشع الطرق من الحبس والشدة وأخذ الاولاد ولما فرغ صبرهم وعمدوا إلى السلاح نقض ما أعطوه من الشروط يوم تسليمهم غرناطة ولئن فضلوا أن يتنصروا على أن يهجروا بلادهم فانهم لم يسلموا أيضاً واشتد ديوان التفتيش

(١) يريد ملوك اسبانيا فان ملك اسبانيا لا يزال الى اليوم يدعى فى الرسمية صاحب العظمه الكاثوليكي Sa Majesté, Católica

(٢) هو مرشد ازابيلا الكاثوليكيه ملكة قشتالة حكم اسبانيا بعد موت فرديناند الكاثوليكي مات سنة ١٥١٧ وقد كان من أعظم من فضوا على العرب ومدنيتهم على ما مر بك فى الفصول السابقة

في مراقبتهم وكان الاسبانيون يرون في عمل هذا الديوان الدينى سلامة عنصرهم وسلامة دينهم ولذلك كانوا شاكرين لعمله مهما قسا وغرم .

وقال ريناخ : لم تكتف اسبانيا بما قامت به من المظالم باسم الدين واحراق البشر وقتلهم وتعذيبهم بل رأت أن توهم الناس انه لا سبيل الى قيام وحدتها الا بنفى اليهود سنة ١٤٩٢ ونفى العرب (١٦٠٩) فسارمئات الالوف منهم يهجرون بلادهم وهلك منهم فى الطرق عشرات الالوف فخرمت اسبانيا من أحسن العاملين فيها وفقدت تجارها الماهرين وأطبائها الحاذقين وقد قتل فى اسبانيا وحدها بفعل ديوان التفتيش الدينى نحو مئة ألف انسان على الاقل ونفى منها مليون ونصف وبذلك خربت مدينة تلك البلاد الجميلة .

وقال سيديليو : كان طرد العرب من اسبانيا من موجبات تأخرها كما وقع لمدينة نانت يوم طرد منها من كان مغالفاً للكثلكة فاضر ذلك بالصناعة الفرنسية وقد تمكن الكردينال كسيمنس من تعوير جميع آثار المسلمين وأمر بأحراق ثمانين ألف مخطوط عربى فى ساحات غرناطة .

سقوط الاندلس

١٠٧

كان العرب فى الاندلس فى جهاد دائم مع أعدائهم منذ وطئ طارق بن زياد وموسى بن نصير أرضها ، ورفعوا علم الامويين على ربوعها ، ودفعوا بأعدائهم الى أقصى الشمال . يسكن الجلائقة وغيرهم حيناً إذا وجدوا العرب مستمسكين بعروة الوحدة ، ومتى شاهدوا اختلاف أمور العرب أو آنسوا من بعضهم ميلا اليهم أو نزوعاً الى الاحتماء بهم لينالوا من خصومهم يحملون حملات منكرة ، ويقاتلون أعداءهم بكل ما فيهم من قوة ولذلك قلت غارات الاسبانيين والبرتغاليين

على البلاد التي نزلها العرب على عهد دولة بني أمية أوائل المئة الخامسة وإن كان الثوار لم ينقطعوا تماماً في الداخل عن مجاذبة الأمويين حبل السلطة .

ثم فسدت عصبية هذه الدولة من العرب واستولى ملوك الطوائف على الأندلس واقتسموا خطتها وتنافسوا بينهم وتوزعوا ممالك الدولة وانتزاع كل واحد منهم على ما كان في ولايته وشمخ بأنفه وبلغهم شأن المعجم مع الدولة العباسية فتلقبوا بألقاب الملك ولبسوا شارته واستبد كل واحد منهم بجانب من الأندلس ودعي نفسه ملكاً فتلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمعتضد والمظفر وأمثالها حتى نعى عليهم ابن شرف عملهم بقوله المأثور

مما يزهدي في أرض اندلس أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها كاهري يحكي انفا خا صورة الاسد

أو كما قال ابن حزم : فضيحة لم يقع في الدهر مثلها أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام في مثلها يسمى كل واحد منهم بأمر المؤمنين ويخطب لهم في زمن واحد أحدهم في اشبيلية والثاني بالجزيرة الخضراء والثالث بمالقة والرابع بسبته وأصبح العرب والبربر في خصام مستديم والجميع في خلاف مع أهل المغرب الأقصى من الجنوب وفي حروب مع بقايا الأمم الأسبانية والبرتغالية من الشمال والغرب .

سقطت الأندلس لتشتت أهواء أمرائها وأصبح بعضهم « ولا هم له سوى كأس يشربها وقينة تسمعه ، وهو يقطع به أيامه » واسترسلوا إلى اللذات وركنوا إلى الراحة ، وأغفلوا الأجناد واحتجبوا عن الناس ، ولم يعودوا ينظرون في الملك ، ومنهم من قتل كبار قواده ، ووسد الأمور إلى الضعاف فكثرت المظالم والمغارم ، وكثر الثوار مرات بشرق الأندلس وغربها من القضاة وغيرهم ، وهكذا تبدد شمل الجماعة « فضبط أشرف العمالات أزمة أمورهم ، وركبوا ظهور غرورهم ، فاتوا من ذلك بكل شنيعة »

قال ابن حزم : كانت طرطوش وسرقسطة وإفراغة ولاردة وقلعة أيوب

في يد بني هود وبلنسية في يد عبد الملك بن عبد العزيز وألشغراي مافوق طليطلة من جهة الشمال في يد بني رزين وطلطلة في يد بني ذى النون وقرطبة في أيدي أبناء جهور واشبيلية في يد بني عباد ومالقة والجزيرة الخضراء في يد بني برزال من البربر والمرية في يد زهير العامري ثم ابن صمادح ودانية وأصمهاها والجزائر الشرقية (الباليار) في يد مجاهد العامري وبطليوس ويابرة وشنترين ولشبونة في يد بني الافطس وأصبح كل امرئ وما اختار من الألقاب والأسماء حتى أن المستعين لما جلس على عرش الخلافة قال للناس أجمعين : ارتعوا كيف شئتم ، وارتسموا بما أحببتم من الخطط ، فتسمى بالوزارة في أيامه منفردة ومثناة (أي الوزير وذوي وزارتين) أراذل الدائرة ، وأخابث النظر ، فضلا عن زعانف الكتاب والخدمة .

قسمت الاندلس بعد سقوط الأمويين ، الى تسع عشرة مملكة منها قرطبة واشبيلية وجيان وقرمونة والغرب والجزيرة الخضراء ومرسية وبلنسية ودانية وطرطوشة ولاردة وسرقسطة وطلطلة وباجة ولشبونة وغيرها . ولقد كان يخشى بعد هذا التفرق وتراجع أمر الدولة الأموية أن تسقط الاندلس دفعة واحدة ولكن قدر الله أن يكون ملوك الجلائقة وقشتالة وغيرهم مشتتة كلتهم متفرقة أهواؤهم وقبض للبلاد دولة أخرى جديدة قوية جاءت من الجنوب أي من المغرب الأقصى وهي دولة المرابطين ففرج بها عن العرب بعض الفرج فجاء يوسف بن تاشفين وقاتل الادفنش سنة ٤٨٠ واتصر عليه وكانت البلاد الى البوار بسبب استيلاء النصارى عليها وأخذهم الاتاوة من ملوكها قاطبة .

ثم طادت أحوال الاندلس فاختلفت اختلالا مفرطاً آخر دولة أمير المسلمين على بن يوسف أوجب ذلك « تخاذل المرابطين وتواكلهم ، وميلهم الى الدعة ، وإيثارهم الراحة ، وطاعتهم النساء ، فهانوا على أهل الجزيرة ، وقتلوا في أعينهم ، واجترأ عليهم العدو ، فاستولى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم . » . حتى جاء الموحدون كما كان المرابطون من قبل بدعوة عقلاء الاندلس وأمرائها وقد

كانوا يدعونهم الى نصرتهم بضروب الفصاحة من الشعر والنثر ويستنفرون
الناس من العدو .

لما اشتد الحصار على أهل اشبيلية سنة ٦٤٥ صنع ابراهيم بن سهل الاسرائيلي
قصيدة يستنفر بها الغزاة من العدو ويستنصر بامراء العرب وذلك اذ كان العدو
عليها قال فيها : •

يامعشر العرب الذين توارثوا شيم الحمية ككابر عن كابر
ان الاله قد اشترى ارواحكم يبعوا ويهنتكم وفاء المشتري
أنتم أحق بنصر دين نبيكم وبكم تمهد في قديم الاعصر
الى أن قال :

والخيل تضجر في المرائب عرة الاتجوس حريم رهط الاصفر
كم نكروا من معلم ، كم دمروا من معشر ، كم غيروا من مشعر
كم أبطلوا سنن النبي ، وعطلوا من حلية التوحيد صهوة منبر
الى أن قال :

عند الخطوب النكر يبدو فضلكم والنار تخبر عن ذكاء العنبر
لوصور الاسلام شخصاً جاءكم عمداً بنفس الواثق المتحير
ولوانه نادى النصير لخصم ودعاكم يأسرني يامعشرى

نعم كانت التفرقة بين أمراء العرب في الاندلس مما علم أعداءهم كيف يتحدون
ليدفعوهم عن أرضهم كما وقع للعرب في صقلية سنة ٤٣١ فانهم بعد ان دافعوا
عنها جيوش البيزنطيين والنورماندين والروسين والفاكريين قسموا صقلية الى
أمارات صغرى فانشأوا جمهورية في بلرم وأخرى في سر قوزة وكان ذلك من
أكبر الدواعى في زوال سلطانهم . لاجرم ان ضعف الوازعين الدينى والمدنى من
ميل القوم الى الراحة والدعة وضعف الأخلاق الحربية فيهم وانتشار القوضى
في أحكامهم كان منه ان تأذن الله بذهاب ربحهم لا كما يدعي بعض المامة من أن

رواج سوق الشعر كان السبب في زوال الاندلس وتبديد ثمل أهلها فقد كان الشعر عندهم من جملة المسليات لان للعرب طامة غراماً به والأدب وسيلة الى العلوم كافة والعرب أمة أولعت منذ عرف تاريخها بالتصاحفة والبلاغة .

ومن تدبر سير الحروب بين العرب والاسبان والبرتغاليين في المدة التي ارتفعت فيها أعلام المسلمين على الاندلس يدرك أن القوتين قوة الغالب والمغلوب كانت متعادلة في أكثر الأيام ولكن تكتب الغلبة للفريق الذي كان جنده منظمًا أحسن من جند خصمه وكان بعض خلفاء الاندلس يعتمدون على جنود لهم من الرقيق كالصقالبة وغيرهم ويعفون رعاياهم من التجند على حين كان زعماء الاسبان يصرفون أيام شبابهم في تعلم الضرب بالسيف والرمح لقتال أعدائهم^(١) والعرب لا يجوزون أن يستبدلوا العادات الحربية بأعمال الزراعة وما في المدنية الراقية من التمتع والهناء فكان الناس في الممالك النصرانية يضطرون الى الخدمة في الجندية ويرافق الاشراف ملوكهم الى الحرب مع أتباعهم .

أما العرب فلا يخرج أحدهم الا الى الجهاد واذا خرج فيكون خروجه على الاغلب متكارهاً لمدة معينة فكانت أوضاع الاسبان حربية محضة تكون لهم بها الغلبة في القتال أما في البحر فكان العرب أشد بأساً وأقوى أساطيل ولهم في كل فرضة من فرض الاندلس سفن معدة وقد أقاموا لهم دور صناعة في المربة وطرطوشة وطرخونة وكانت معامل اشبيلية وقرطاجنة تخرج كل سنة سفناً جديدة تمخر في عرض البحار .

استولى الملوك من بنى الأحمر قرنين ونصف قرن كما تقدم لنا الكلام في ذلك

(١) وصف لسان الدين أمة قشتالة بقوله : وحال هذه الإمة غريب في الحماية المزروحة بالوفاء والرقعة ، والاستهانة بالنفوس في سبيل الحية ، عادة العرب الاول واخبارهم في القتال غريبة من الاسترجال ، والزحف على الاقدام ، اميرهم ومأمورهم ، والجنو على الارض ، او الدفن في التراب ، والاستظهار في حال الهاربة ببعض الالخان المهبجة ، ورماتهم قسيهم عربية جافة ، وكلهم دروع ، ولا لجام عندهم ، والتقهتر مقدار الشبر ذنب عظيم وطار شليح ، ورماتهم بسبقون الحيل في الطراد ، وحالهم في باب التحلي بالجواهر وكثرة آلات الفضة غريب اه

وهم الذين استولوا علي بقايا مجد العرب بعد ان انتصر سلطانهم سنة ٦٦٣ هـ علي الفرنج واسترجع منهم اثنين وثلاثين بلداً من جملتها اشبيلية ومرسية ثم طاد العدو وأخذ بمخنتهم ولكن لم ينل منهم لاجتماع كلمتهم في الداخل على الجملة ولما دب الهرم في جسم دولتهم وقرى الاسبان باتحاد ايزابيلا ملكة قشتالة وفرديناند ملك الاراغون أي باتحاد المملكتين الرئيسيتين في الشمال تأذن الله بفناء الاندلس فلم يبق أمامهم الا التسليم والاستسلام وفي ذلك كان هلاكهم وبوارهم .

جبل طارق وطنجة

١٠٨

كان جبل طارق الذي نسب الى طارق بن زياد فاتح الاندلس وهو المكان الذي بلغه في جيشه أواخر المئة الاولى بأيدي العرب مدة استيلائهم على الاندلس فلما دالت دولتهم طاد الى الاسبان ولبث في حكمهم الى القرن الثامن عشر واستولى الانكليز عليه في سنة ١٧٠٤ واحتفظوا به رغم محاولة الاسبان في سنة ١٧٧٩ - ١٧٧٩ بمعاونة الاسطول الفرنسي للاستيلاء عليه فلم يستطع الاسطول ان الفرنسي والاسباني تخليص هذا الحصن من أيدي الانكليز .

يعلو جبل طارق عن سطح البحر ٤٢٥ مترأ وهو متصل مع القارة الاوروبية بسهل من الرمل فيه بطائح ويشرف على المدينة . وقد جعل الانكليز فيه قلعة شحناها بالمدافع فجاءت من أحسن مافي العالم من الحصون . فهو في الحقيقة قطعة من أرض اسبانيا ولكنه انكليزي الحكم والنظام يشرف على البحرين المحيط والمتوسط ويأخذ بمخنت السفن الغادية والرائحة بين القارات الثلاث أوربا وأميركا وأفريقية .

يبلغ سكان جبل طارق اليوم ٢٢ ألفاً ماعدا الحامية الانكليزية وأهلها مزيج من شعوب أوروبا وأميركا وآسيا وأفريقية وكذلك ابنتها مزيج من طراز الابنية عند الامم الكثيرة واللغتان الشائعتان هنا الاسبانية والانكليزية . ولا يحق اليوم لغير الانكليزي التبعة ان يقتنى ملكا في هذا المرفأ الضيق النطاق ويراقب الاجانب فيه مراقبة شديدة والمدينة كلها عبارة عن شارع واحد ضيق بنى في الغالب منذ قرنين وعلى مقربة من جزيرة طريف وهي أشبه بقلعة كبيرة مشرفة على البحر .

جئت جبل طارق من غرناطة وانتهيت بالجزيرة الخضراء آخر عمل اسبانيا والمسافة بين هذه الجزيرة وجبل طارق بضع دقائق يجتازها المجتاز على ظهر سفينة . وعلى بضعة أميال من جبل طارق ترى مدينة طنجة قائمة على البحر في بر العدو من ثغور الغرب الأقصى وأول أرض أفريقية يقع نظر الخارج من القارة الاوربية عليها فينتقل السائح انتقالا فجائيا من مدينة راقية الى مدينة مشعثة منحطة وليس بين القارتين الاوربية والافريقية الا مجاز صغير كان العرب يسمونه الزقاق .

اغتنمت فرصة انتظار الباخرة الانكليزية التي تسافر من جبل طارق الى مارسيليا في يومين فزرت طنجة وطوفت في ارجائها وسكانها اليوم نحو أربعين ألفاً فيهم كثير من الاسبانيين والبرتغاليين والطلليان والفرنساويين وهي من المدن التي استعمرها الفينيقيون فيما مضى ولا تزال محتفظة بطرازها الشرقي على كثرة ما تداول عليها من الأمم بعد الاسلام فقد استولى عليها البرتغاليون سنة ١٤٧١ م والانكليز سنة ١٦٦٢ وحاصرها الفرنسيين سنة ١٨٤٤ وبقيت منذ ذاك الحين في يد المراكشيين وهي الآن مشاع لكل الدول أو تحت حمايتهم ويتنازعها الفرنسي والاسبان كما يتنازعون على السبق في حماية بلاد الغرب الأقصى . ويقع فيها كثير من معتمدى الدول والسلطين المخلوعين من أمراء المسلمين في الغرب الأقصى أمثال مولاي عبد العزيز ومولاي الحفيظ .

نعم ان المراكشيين مازالوا في هذا الثغر وما وراءه من البلدان على تصلبهم
في عاداتهم رغم التيار الشديد الهاجم عليهم من أوروبا وهم منها على ثلاث ساعات
بحراً لا يفصلهم عنها الا بحر الزقاق وبين طنجة والجزيرة الخضراء اثنا عشر ميلاً
« وهو أضيق موضع فيه وأوسع موضع فيه نحو ثمانية عشر ميلاً » قال الفقيه
لمرادى المتكلم القيروانى بعد خلاصه من بحر الزقاق ووصوله الى مدينة سبتة :
سمعت التجار وقد حدثوا بشدة أهوال بحر الزقاق
ققات لهم قربونى اليه انشفه من حريوم الفراق
فلما فعلت جرت ادمى فعاد كما كان قبل التلاق

علم المشرقيات في اسبانيا

١٠٩

كان على اسبانيا وتاريخها مرتبط بتاريخ العرب ثمانية قرون ان تكون اول
دولة غربية تعنى باللغة العربية ولكنها تعد من الاواخر لان الارتقاء يتبع بعضه
بعضاً ولا تنفق امة الا مما عندها ومع هذا حدثنا التاريخ ان اول مدرسة (١)
عربية أنشئت في طليطلة اوائل القرن الحادى عشر ومن هذه المدرسة نشأت
تربية الاسبانيين على مناحى العرب وفي سنة ١١٣٠ أنشأ رئيس اساقفة طليطلة
مدرسة للتراجمة في هذه المدينة وبها رسخت اللغة العربية والافكار العربية
في اسبانيا المسيحية . وكان من نتائج وقعة العقاب ان حررت اسبانيا من رق
العبودية للمسلمين وأدرك ملوك قشتالة ان ليس من العقل مقاطعة الماضى القديم
وانهم في حاجة بعد الى أن يتعلموا من معلمهم القدماء ومنافسيهم الا لداء من
العرب فحاول الفونس العاشر أن يعمل لاسبانيا المسيحية ماعمله العرب لاعلاء

شأن الاسلام وذلك بالاخذ باحسن ما فى الحضارتين ومزجها بالحضارة الاسبانية فأسست سنة ١٢٥٤ فى اشبيلية مدرسة عامة لاتينية عربية وحفظ لمدينة مرسية روثها العربى الصرف واستدعى الى عاصمته العلماء من جميع الملل والنحل ليؤسس مدرسة طليطلة الثانية وقوامها اختيار احسن المعارف النافعة وهى أقرب الى التسامح من المدرسة الاولى اذ كانت تجمع الى التقاليد اللاتينية الحضارة العربية والعلم العبراني .

كان لليهود يد طولى فى نقل العلوم من العربية الى اللاتينية لأن المرابطين والموحدين الذين استولوا على الاندلس بعد الامويين كانوا الى التعصب . بددوا كتب الفلسفة وأحرقوها ليرضوا بذلك العامة والفقهاء ولولا تراجم الاسرائيليين لضاع كثير من أوضاع مدنية العرب فى الاندلس .

ثم بدا لرجال الدين من الاسبان ان يسعوا فى نشر دينهم بين المسلمين فاخذوا يعنون باللغة العربية ليتعلمها الرهبان ويمجادلوا مخالفهم بالبرهان فوضع أحد الدومنيكيين أول معجم عربى باللغة الاسبانية سنة ١٢٣٠ وفى سنة ١٣١١ - ١٢ امتدح البابا الكمنص الخامس فى أحد المجامع الدينية من انشاء درس لتعليم العربية فى مدرسة صلمنكة وفى أواسط القرن الثالث عشر كان الدومنيكيون مثال الغيرة فى نشر اللغات الشرقية بين أبناء رهبنتهم ومنها العربية وأنشأ صاحب أراغون مدرسة لتعليم اللغات الشرقية فى ميرامار وأنشأ المجمع الدينى فى طليطلة ينفق على طغمة من الرهبان مؤلفة من ثمانية أشخاص انقطعوا لدراسة العربية وعلى هذا ظلت الجمعيات الدينية ولاسيما الفرنسيسكانية الى القرن الثامن عشر فى اسبانيا هى القائمة بدعوة المستشرقين الى درس آداب الشرق ولفاته وتاريخه .

ولم تنل مدرسة صلمنكة شهرة طائلة فى أوروبا حتى غدت إحدى المراكز العلمية الأربعة وهى باريز واكسفورد وبولون الا أنها بتأثير العلم العربى أقامت على أساس معقول تعليم العلوم الطبيعية والطب ولم يكن فى مدرسة صلمنكة فى أواخر القرن الثالث عشر غير خمس وعشرين حلقة للتدريس منها حلقة لليونانية

وأخرى للبرانية وثالثة للعربية فأصبحت في القرن السادس عشر سبعين حلة فيها سبعة آلاف طالب .

ولما أعلن الأسبانيون الحرب على جنسية العرب ومدنيتهم ودينهم ضعفت العناية باللغة العربية ولم يكتف القوم باستصفاء جميع الجوامع وجعلها كنائس بل أخذوا ينصوون المسلمين بالاكراه وفي سنة ١٥٠١ - ٢ طردوا من مملكتي قشتالة وغرناطة كل من ظلوا محافظين على الاسلام ولم يعد للدومنيكيين والفرنسيكانيين من حاجة لتعلم العربية ليتمكنوا من مجادلة الفقهاء وتخلوا عن علومهم لأنها افسدت أفكارهم وزهد المسيحيون في علوم المسلمين وقام في أذهانهم أنها خطر عليهم .

صدر أمر الكردينال كسيمنس سنة ١٥١١ بعد أن أحرق في ساحات غرناطة كمية من الكتب العربية أن تباد كتب العرب من بلاد اسبانيا عامة فتم ذلك في نصف قرن ولولا المترجمات منها الى العبرية واللاتينية لبادت مدنية العرب من تلك البلاد . وأخذ ديوان التفتيش الديني على نفسه اباداة كل أثر للعرب وما كان متنصرة المغاربة الذين دانوا بالنصرانية مكرهين ليستطيعوا ابداء أسفهم الا سرأ وفي الكتب العربية المكتوبة بالمعجمة أي المكتوبة بحروف اسبانية دليل على تعلق أولئك المتنصرة بقديهم .

وفي سنة ١٥٥٦ منع فيليب الثاني متنصرة المسلمين من استعمال اللغة العربية وأرادهم على أن تنزع من أسمائهم التراكيب العربية وعن أجسامهم الالبسة الشرقية ليمزجهم بزعمه في سواد أبناء المذهب الكاثوليكي ثم طردوا على عهد فيليب الثالث وكان عددهم نحو مليون نسمة على صورة قاسية سخيفة ولم يبق من الحضارة العربية واللغة العربية في اسبانيا غير ذكرها وزهد القوم في القرنين السابع عشر والثامن عشر في تعليم العربية في اسبانيا اللهم الا على طريقة افراية وغدا الاطلاع على العربية نقصاً ولربما اتهم من يتعلمها بالالحاد بعد ان كان أهل الطبقة العليا من الاسبان أيام عز العرب يحلون باقوال فلاسفة العرب كلامهم

ويدرسون الفلسفة العربية درس مستبصر مستفيد لا درس ناقد عنيد ويعدون الاطلاع على الآداب العربية من أمارات الظرف والكياسة .

وعلى هذا لم يبق لمدرسة الفرنسيسكان في أشبيلية من أساليب تعلم العربية الا أثر ضئيل وأراد شارل الثالث أن يعيد الى اسبانيا عهد الآداب العربية فاستدعي لذلك رهباناً موارنة من سورية ليعلموا الاسبانيين لفهم الاصلية الثانية ويحقق للنصف الثاني من القرن الثامن عشر ان يباهى باساتذة متمكنين من أسرار العربية في اسبانيا .

ولما ادخل الاصلاح الى الكليات القديمة في أواخر النصف الاول من القرن التاسع عشر عادت العربية تدرس في جامعات اسبانيا رسمياً ولما استلمت الحكومة الاسبانية سنة ١٨٥٧ زمام اصلاح التعليم من دون رجال الدين او الملك أو الاشراف ربحت اللغة العربية حتى كادت تعود اليها حياتها التي كانت لها في شبه جزيرة اسبانيا من القرن الثاني عشر الى القرن الخامس عشر فاخذت معرفة اللغات والآداب العبرية والعربية تدخل من تلقاء نفسها في قائمة دروس التعليم العالي وأخذ المستعربون ينتفعون من المخطوطات العربية المحفوظة في مكتبة الاسكوريال ومكتبة الامة ومكتبة المجمع العلمي التاريخي ومن المخطوطات العربية المكتوبة بحروف عبرية المحفوظة في كاتدرائية طليطلة . دع مكتبة خزائن كايانكوس وكودرا وريبرا وآسين وغيرهم من رجال المشرقيات .

والعربية اليوم تدرس رسمياً في كلية مجريط وغرناطة وبرشلونة واصلنكة وبلنسية وأشبيلية وغيرها ولكن التدريس فيها مهمل والمدرسون غير كفاة الا في العاصمة وبعض الولايات وقد نشر المستشرقون من الاسبان منذ أواخر القرن التاسع عشر كتباً عربية كثيرة متعلقة بتاريخ الاندلس وتراجم رجاله وبعض العلوم التي اشتغلوا بها ومنها الجيد وأكثره مملوء بالاغلاط والتعريف وهو دون مانشره الهولنديون والجرمانيون والبريطانيون والطلبيان من هذا القبيل من حيث الصحة والاتقان .

وأنت ترى ان الاستشراق العربي كان الدين هو الداعي اليه كما كان في معظم بلاد أوربا ثم امتزج الدين بحب المدنية ثم امتزج كلاهما باسم الاستعمار ولكن المحصول في شبه جزيرة ايبيريا أى في اسبانيا والبرتغال قليل . وفي جامعة لشبونة عاصمة البرتغال درس عربي اليوم ومدرسة الاستاذ لويس الذي نشر بعض الكتب العربية فهو المرجع في البرتغال اليوم كما أن الاستاذ آسين مرجع الاسبان في مجريط وكلاهما عضو في المجمع العلمي العربي .

اسبانيا بعد العرب

١١٠

من القى نظرة بليغة على تاريخ شبه جزيرة اسبانيا يوقن ان الانحطاط دب في اهلها منذ قرون وان تراجع امرها يرجع تعليقه الى امور كثيرة افاض فيها الاجتماعيون والمؤرخون والحكماء ، وانحطاط الاسبان كيف كانت الحال مؤكدا لا يختلفون هم فيه ومنهم من يقول ان منشأه حروبهم مع العرب وفتح امريكا فنفتت قوة الامة في اعمال هي الجنون بعينه . ويقول - القشتاليون ان جلوس ملك غريب على عرش اسبانيا انتج سلسلة من المصائب مازالت حتى اليوم تجرع صاب عذابها . ويزعم بعض مؤرخيهم ان الاصل في انحطاطهم كون البلاد قاحلة والطبيعة لم تساعد على النمو . ويدعي آخرون ان السبب في بقاء اسبانيا منحلة ميل الشعب الى المقاومة والمشاكة وغرامه في الاستقلال بحيث انقلب ذلك الى فوضى وغدت بلادهم مسرحا للفتن الاهلية وشغلت برد غارات المغيرين عليها ويدعي فريق آخر ان هذه الاخلاق في الاسبانيين وتحمسهم في رد غارات العدو وتغنى اهل كل صقع بمزاياهم وركونهم الى العزلة والاستئثار - كل ذلك من امارات الوطنية فيهم وان كانوا في الاكثر اذا شكا عضو من أعضاء البلاد او قطر

من اقطارها لا يشاركه في شكواه جاره ولا اخوه . وعماذ الوطنية عندهم هو الدين الكاثوليكي يسرون سيره ويندفعون بعوامله . ولا شأن في افعالهم والآراء التي تملئها المصلحة وتنبت من عظمة الامة . وينسب بعض الكتاب الذين كتبوا عن اسبانيا عقب انحلال مملكتها الاستعمارية السر في انحطاط امتهم الى تشعبها بدين مملوء بالخرافات ممزوج بالتصرف ويحجب آخرون بان ضعف الوازع الديني في قومهم هو الذي كان به مبدأ انحطاطهم وما قام مجدداً منه قديماً الا بسائق الدين فلما قل المعتقدون كثر المنحطون .

ويقول فوليه : ان اسبانيا مؤلفة من عدة ممالك وفيها الاهوية المختلفة فالشمال منها اوربي والجنوب اشبه بقطر افريقي - فيه الليمون والبورتقال والتمر والرطب وانها في بعض اصقاعها تشبه روسيا حرها مدة ثلاثة اشهر من السنة كحر جهنم وشتاؤها تسعة اشهر وقد فطر الاسباني على شيء من القسوة تشبه لفحات جباله وفيه جفاء كطبيعة تربته ومحرق شمسه وانه ظل افريقياً وان كان يعد في الاوربيين ومزاج الاسباني صفراوي عصبي ومعنى ذلك ان في باطنه حرارة شديدة تحرقه فيعرف كيف يجمع هواه المذيب وان في استطاعته ان ينام على احقاد طويلا حتى اذا عرضت له الفرصة وثب ، وهم قساة على الحيوانات الاهلية قساة على الانسان قساة على انفسهم . وقد جاءتهم القسوة من اعتيادهم النظر الى الانسان يحرق بالنار ايام ديوان التفتيش الديني وما زالت القسوة متسلسلة في دمه يساعدها ايضا اعتياد الاسبان صراع الثيران واذا ادعي بعضهم ان صراع الثيران يورث النشاط - ومتى كانت قسوة القلب تورث نشاطا - فان هذا الصراع هو التوحش بعينه وليس من الضروري اهراق الدماء حتى ينشأ ابطال

الاسبانيون صادقون مخلصون اذا أعطوا عهدا وعندهم شعور بالاحترام والشرف وهم كرام يحبون اقراء الضيفان وربما زاد هذا الخلق فيهم في الجنوب اكثر من الشمال ولكن لا يجزم بانهم يميلون كثيرا الى الانسانية

اما تعصبهم فبه يضرب المثل وكان منه فساد أمرهم . قالوا ان التعصب بالنسبة للدين بمثابة الغيرة بالنسبة للحب واذا كان الاسباني عيورا جداً في حبه فهو

متعصب جداً لدينه ومع هذا فقد رأينا الايطالي غيوراً في حبه ولكنه غير متعصب في الدين . قال فوليه ان أغناس دى لويولا (مؤسس الرهبنة اليسوعية) على ما كان فيه من المضاء والفتوة قد ساعد بدون أرادته على أضعاف بلاده لأن فساد آداب جماعته من الاسبان ومراقبتهم كل ضرب من ضروب الحرية كانا من الاسباب التي قضت على النفوس بالانحطاط . قال ولم ينشأ في اسبانيا فلاسفة لأنه لا يتأتى تحت سلطة ديوان التفتيش أن يتفلسف المرء بل يكون نصفه لاهوتياً والنصف الآخر فيلسوفاً والى اليوم لا يزال الحال كذلك ليس للفلسفة من يمثلها في اسبانيا في الحقيقة وتقس الامر

لا جرم أن الاسباني شأن كل أمة انحطت يحتاج الى دراسة تاريخه دراسة تدبر وهو اليوم متأخر جداً في مضمار العلوم - والتربية . وقد غرس في العنصر الاسباني الصبر والثبات وحب الأقدام . ودعا اختلاف طبيعته الى تخالف السكان في المناخى والمنازع وكان كل جزء من البلاد قبل انشاء الخطوط الحديدية والطرق المعبدة منعزلاً بذاته ضمن حدوده فاضطرت الشركات الى فتح زهاء مئة تقق طويل في انحاء البلاد حتى يتيسر ربط الأجزاء المهمة بعضها ببعض وكذلك الحال في صعوبة المواصلات البحرية فان فرضها وسواحلها على كثرتها وطولها صعوبة المجاز على السفن . ومع هذا رأينا أنما كثيرة غزت شبه جزيرة ايبيريا مثل الايبيريين (الذين سميت الجزيرة باسمهم) والسلتيين والفينقيين واليونانيين والقرطاجنيين والرومانيين والسوافيين والفانداليين والوزيغوطيين والعرب والاسرائيليين والسوريين والبربر والمرابطين والموحدين

ولم تترج تلك الشعوب التي دخلت اسبانيا على توالى القرون في بودقة واحدة وكان السكان على الدوام متخالفين في طبائعهم تخالفهم في بيئاتهم بل لم تتم وحدتهم على ما هنالك من صلات ضعيفة سياسية لان أفراد الامة لم يتعاونوا كلهم على تأليف هذه الوحدة . فانا نرى البغضاء قد تأصلت في قلوب الاسبانيين فليس التنافر على أتمه بين ابن الشمال وابن الجنوب فقط بل بين أهل المدن المتجاورة

شأن الأمم المنحطة . كان الاسبانيون وما زالوا وابن قشتالة منهم ينفرون من ابن الاتدلس ويمتقرونه وأهل برشلونة يبغضون أهل بانسية وأهل طرخونة يكرهون أهل رية وأهل مرسية لا يميلون - الى القرطاجنيين وأهل قادس يمتنون أهل شريش وهكذا يستعدى أهل كل مدينة أهل المدينة الأخرى ولولم يقم منهم ملوك عقلاء يضمون بالقوة شملهم ويدفعون العرب عن بلادهم لما قامت لهم قائمة وقيل لولم ينضو أمراء النصرانية في تلك الحقبة - من الزمن تحت لواء واحد لكان الخطر على النصرانية نفسها وكان الواجب أنه لا يتأخر اتحاد الاسبانيين حتى يقوم الملوك المتأخرون بلم شعنتهم لولم يكن أمراؤهم مختلفين بينهم وكذلك كان يصعب زحزحة العرب عن سلطانهم لولم يكونوا على اختلاف بينهم أيضاً .

ولقد كان أهل قشتالة يرون لسلامة اسبانيا - وهم الذين قاموا بأعمال مهمة في جمع سلطان الاسبان وطردهوا العرب من الاتدلس أن يقطعوا شأفة المخالفين لهم في الدين من العرب النازلين في اسبانيا ولولم تفتح أميركا وتشتغل اسبانيا في حرب فرنسا وانكلترا وتبدد قوتها في الممالك التي ضمت اليها من طريق الارث لم لها ما تريد من فتح مراکش .

لم تستفد اسبانيا من فتوحها لأن ملوكها كانوا يدبرون أمرها على هواهم ويربطون أهلها برباط الدين ولكن هذه الوصلة لم تقو على نزع الفوارق في طبائعهم وعلى كثرة تحمس الفرد للوطنية لا تمتدى حماسه اسوار بلده خلافا للفرنسيين والانكليز والالمان والاطليان وغيرهم من الأمم الكبرى فانها نهضت متحمسة حماسه ناشئة من نصر أحرزته وغلبة تمت لها على حين ترى اسبانيا لم تحرز مثل هذه النتيجة من انتصاراتها في بلادها وفي الخارج وأن فقد الشعور الوطنى هو أهم عامل في انحطاط اسبانيا تضاف اليه أسباب سياسية واقتصادية .

لا مرء في أن النسبة مفقودة بين المشاريع التي قام بها ملوك اسبانيا وبين موارد البلاد الحقيقية من حيث الاقتصاد والجندية . ومن الجنون أن يعتقد أن

التوسع في الفتوح في الخارج ينمى قوى المملكة . ومن أبشع الجنون أن يمتدح ملوكهم أن مناجم الذهب في العالم الجديد أميركالا تنضب أبداً وأن الذهب المجلوب من أميركا يغنى الأمة على وجه الدهر . قال فوليه : وكان في افتتاح الاسبان أميركا باعثاً على تقلقل النفوس وتزعزع المبادئ فأصبح الناس يرقبون الفرص للاغتناء ونسوا أن الثروة بالعمل والاستمرار ولذلك قل فيهم المتشردون اذ رأوا كثيرين منهم اغتنوا بالمصادفات وآخرين افتقروا كذلك . وهكذا ماتت الارادة في هذا الشعب . وما تاريخ استعمار اسبانيا الامثال وأى مثال لشعب ينتحر .

ثم ان ديوان التفتيش قرض بيوتاً وأسرّاً كانت مباءة ذكاء وجرائم فهم وعلم فبقضائه عليها قضى على الصناعات والفنون والآداب . وكانت اسبانيا تستعمل في دعايتها للدين « النار والحديد » قسطوا على الوجدانات المتحمسة وتقضى على الارادات القوية ثم تستكثر من الرهبنات فتكثر من العزب فيزيد العقم ويقل النسل ثم ان حروب شارلكان الجنوبية ولا سيما فتح أميركا حرم البلاد أهل النشاط والاقدام وأضعف طبقة الاشراف بل قرض العالم من القرى فافقرت وأغلقت بيوت برمنها وان طرد اليهود من اسبانيا سنة ١٤٩٢ وجميع سكانها الذين كانوا من أصل عربي بين سنة ١٦٠٩ - ١٦١٠ قد حرمها شعباً عرف بهمته ومضائه فحلت محل العاملين حثالة من الناس كانت أقرب الى الكسل المفروس في سكان الجنوب المعروفة باحتقار الاعمال اليدوية وكثر التسول وحظر رجال الدين الاستحمام لأنه يشبه الوضوء عند المسلمين بزعمهم فكثرت الأمراض الجلدية وتعدر على الأطباء أن يصفوا لمرضاهم النظافة والاغتسال مخافة أن يفشو أمرهم ويقعوا تحت طائلة القصاص .

والظاهر أن الاسبانيين لم يكن لهم في دور من الادوار ذوق في الاشغال اليدوية وكانت بلادهم قليلة السكان قبل نزوح العرب منها فلما بالك بها بعدهم ومدنها قليلة وكذلك العامر من قراها فهي من هذه الوجهة لاتشبه فرنسا ولا ايطاليا بحال من الأحوال . وبعد فاذا كانت الصناعة والتجارة قد بلغت درحة

حسنة في بعض العصور والامصار في اسبانيا فذلك بفضل العرب والغرباء عن البلاد . وما زالت معامل اشبيلية وبرشلونة مشهورة بنسيج صوفها وقطنها وحريرها وأسلحة طليطلة وجلود قرطبة معروفة منذ عهد العرب هناك . فللغريب الى اليوم اليد الطولى على اسبانيا ومعظم المشاريع العمرانية فيها لجماعة من الانكليز والفرنسيين والالمان وغيرهم .

اذا اشتهر عن الاسباني أنه من نسل أمة حربية فلم يعرف عنه أنه من أمة جنديّة . وشستان بين من يحارب منفرداً لحساب نفسه وقائدتها وبين من يقاتل صفوفاً صفوفاً بانتظام لنفع وطنه وخدمة غرض شريف ترمى اليه أمته فقد كانت عدة المحاربين تحت العلم الاسباني من غير الاسبان في حروب ايطاليا والفلاندر تسعة أضعاف المحاربين من أهل العنصر الاسباني وهكذا في كثير من حروبهم في جنوب أميركا وفي جزائر البحر .

كان رائد حروب الفتوح الثاني La Reconquista الفكر الديني في الامة وموردها اموال الرهبان وبركات البابا الرسولية وتنشيط الاشراف فلما اراد الاسبانيون ان يعملوا خارج تخومهم خانتهم القوى وأعوزهم المال والرجال ولقد ذكر العارفون بان ما ساعد على انحطاط اسبانيا اكثر من فقر تربتها وبوار اراضيها وشقاء سكانها واوهام حكامها وفتح امريكا وطرد العرب واليهود منها فخرمت بطردهم موارد كثيرة من الرجال والعقول الذكية المفكرة - ان ما ساعد على انحطاطها في الاكثر كان اعتزالها الديني الذي فصلها عن بقية العالم واهم ذلك رسوخ اقدام قوميات في ارضها ولم يشعر الاسبان في زمان من أزمنة تاريخهم بانهم متضامنون ولذلك كانت الامة تدفع المال لرجال تستأجرهم جنودا حتى اذا ظفروا في القاصية تقيم الاعياد والحفلات تكريما لم وادهش من ذلك ما قال احد المؤرخين : بين اكثر أمم اوربا عقيب النهضة تحاول ان تكسر قيود الرق الديني كانت اسبانيا تقاوم كل فكر اصلاحي يرمى الى التجدد وتقاتل في ارضها وخارج ارضها كل ما يراد منه تحرير العقول من الاستعباد فكانت اسبانيا تساعد الباباوية الايمن في الضرب

على ايدي المجددين والمصلحين الذين كانت تنبعث انوار عقولهم في الغرب بسرعة البرق

وكان من جهاد اسبانيا ان فقدت جميع املاكها ومستعمراتها الخارجية عن حدودها الطبيعية وان خرجت عنها البرتقال وكادت بلاد الكتلانكيين ان تودي معها واقتطعت انكلترا من ارضها جبل طارق وجاءت عليها ادوار قويت فيها الضغائن واشتد فيها الفقر وكثرت الضرائب ولا يستثنى من هذه الا رجال الدين وطبقة الاشراف حتى كادت اسبانيا ان تقسم اجزاء كما قسمت بولونيا قديما وكلما قام المصلحون فيها اذوا وقتلوا حتى كان احد ملوكهم يقول ان الاسبانيين كالاولاد يكون كلما هممتهم وغسلتهم . وما زالت البلاد على الرغم من حكمها الدستوري في نزاع بين القديم والحديث ولا سلطان فيها الا لرجال الدين والجيش وبعبارة ثانية لرجال الدين وحاشية الملك الذين يخدمون على الاغلب مصالحهم الشخصية . اما النواب فيوشكون ان يكونوا اسما بلا مسمى وليس هناك رأى عام ولا جماعة من المنتخبين والنواب قد ينتخبهم الوزراء ويقرهم الناس وتكاد اسبانيا لا تشبه بدارتها الحكومات النيابية الا قليلا وذلك لان كبار الموظفين الذين يختارون اعضاء لمجلس الشيوخ - كالقواد والحكام ورؤساء الاساقفة قداماءوا ان لا ينظروا المسائل التي يبحثون فيها الا من حيث مصالح طبقاتهم الخاصة وهكذا بقية طبقات الاشراف والمنتخبين من الولايات لا يجرون الا على هذا المثال . اما القضاء فيكاد يكون هزوا والدعاوى تكلف تقفات باهظة أكثر من كل ممالك أوروبا والذي يوكل اليه جلب الجناة قد يفسح لهم في الاكثر مجال الهرب مقابل مال قليل لأن الدرك يتقاضى راتباً ضئيلاً فهو شريك المجرمين والجناة والمتهمين والبلاد أبداً غاصة بجمهور منهم وقد قال أحدهم : ان اسبانيا لا يحق لها أن تحسد مراکش على قضائها لان القضاء في الأولى هو كالقضاء في مراکش انى الانحطاط والسقوط . وسوء الاستعمال محسوس الأثر في كل عمل من أعمال الحكومة هناك .

لا يقل عمل العمال في دوائر الحكومات الاوربية كما يقل في حكومة اسبانيا فان من موظفيها من لا يعمل أكثر من ساعتين ومنهم من يأتون خلسة الى دوائريهم ثم يذهبون حالا دون أن يأتوا بعمل . ومتى فوضت الوزارة الى أحدهم وزارته لا تطول أكثر من أشهر - لا يفكر في عمل مفيد بل يحرص على يقين أقاربه والمخلصين له في المناصب . ومن أقبح قواعد الادارة في اسبانيا تأييس اللامركزية الشديدة فترى الولايات لا تستطيع أن تعين شرطياً ولا حارساً بل أن حق التعيين من شأن العاصمة مجرط ولا بسط المسائل ملفات من الاوراق طويلة عريضة لا ينظر فيها شهراً وصاحبها يذوب كمدأ على نجاح عمله . واذا خلت وظيفة التدريس في احدى مدارس الولايات لا يعين الخلف قبل مضي شهرين أو ثلاثة فتغلق المدرسة خلال هذه المدة ويتشرد الأولاد .

وليس للأعمال الصحية أثر في غير المدن أما القرى والدساكر فانها محرومة من كل نظام صحي . وتخف التبعة الملقاة على عاتق الموظفين بنسبة أعمالهم ولا ترى في الحقيقة أحداً يسأل عن عمله والشعب لا يهتم الا لارضاء سادته ورؤسائه وقلما يشور للمطالبة بحق له الا اذا فقد الخبز أي بسائق الجوع ولا يشور دفاعاً عن أفكاره وأمانيه الوطنية . الشعب الاسباني ملكي يتفانى في الحكم الملكي كما هو مغموس في الدين وكان لرجال الكنيسة عندهم في كل دور شأن وأي شأن . وجميع الحروب المدنية التي نشبت في اسبانيا لم توقد جذوتها الا باسم الدين فاذا بدأنا بحرب الاسبان مع العرب لا نقاذ اسبانيا من حكم هؤلاء نجد العامل الاكبر فيها - اختلاف الاديان . وهكذا مقابلة الاسبان للاصلاح الديني وحرب الاستقلال وكانوا يحاربون فيها الفرنسيين لالحادهم أكثر من حربهم لهم لانهم أعداؤهم الذين قهروهم وغلبوهم على أمرهم ولولا حماية الاسطول الانكليزي ما وجدت البرتستانتيّة لها منفذا في بعض مدن الساحل من اسبانيا لأن كانت المرأة في اسبانيا لاشأن لها في الشؤون العامة وتعد ذات مقام منحط بخلاف ممالك اوروبا الراقية فلها شأن في بعض المسائل التي يهتم لها رجال الدين

فيسوقونهم الى التدخل فيما ليس من خصائصهم توصلوا الى مقاصد لهم . ومقاصد الرهبان هنا كثيرة لأن الرهبنات تملك نحو ثلث أراضي المملكة ولها عقارات وشركات منها ما تستثمره علناً ومنها ما تستثمره بالواسطة . وسلطة الرهبان وثروتهم تزيد مع الايام قوة واستحكاماً وفي اسبانيا زهاء سبعين ألف راهب يتقاضون من ميزانية الحكومة أربعين مليون بستانس أي ثمانين مليون فرنك في السنة علاوة على ما لهم من ريع أملاكهم ولقد سألت أحد الاسبانيين ذات يوم عن الصناعات الرائجة في بلادهم فأجابني بين الهزل والجد : عندنا ياسيدي ثلاث صناعات رائجة وهي صناعة الرهبان وصناعة النسوان وصناعة الثيران ^(١)

كانت اسبانيا في اوائل القرن الماضي امة زراعية يحكمها الرهبان والقضاة فاستحالت من سنة ١٨٠٣ الى ١٨١٥ امة حربية وكان للجيش المقام الاول في كل عمل حتى صار ينفق ستون في المئة من ميزانية الدولة على الجيش . وأتي عليها زمن في اواخر حرب كوبا وعندها ٤٩٩ قائداً و ٥٧٨ زعيماً وزهاء ٢٣ ألف ضابط اي نحو خمسة او ستة اضعاف ما يلزمها لجيشها المنظم . فاصبحت القوتان العظيمتان الرهبنات والجيش تستنزفان قوة البلاد المادية والمعنوية يضاف الى ذلك سوء ادارة الحكومة هناك ففقد التناسب في أجزاء البلاد واختل تقويمها وقلت رغبة

(١) كان صراع الثيران الى القرن السادس عشر خاصاً بالفرسان يعمدون اليه للتمرين الحربي أو للاحتفال باعياد وكان فيه خطر على حياة المتصارعين اذ يقضى على الفارس أن ينحراثور برمح وفي اوائل القرن الثامن عشر أصبح صراع الثيران أقل خطراً وجعلته الحكومة للفرجة وانشأت له معاهد وهي تربو على مائتي معهد في اسبانيا لها اوقات معلومة في السنة ويفتخر من كان ثوره عاصياً على الصراع والزال اذ يدل على مبلغ عنايته وتربيته أما اذا صرعه لحدث عن تفاخره ولا حرج . وقد أقامت الحكومة ميادين لصراع الثيران تقسع لالوف من المتفرجين وذلك في أمهات مدنها فيمدان بلنسية يسع ستة عشر ألفاً وميدان أشبيلية اثني عشر ألفاً وميدان غرناطة سبعة عشر ألفاً وهكذا أحدثت اسبانيا ساحات لهذه الفرج في مالقة وسرقسطة وصلمنكة وقادس ومجريط والجزيرة وبرشلونة وغيرها أقل ما يسع منها تسعة آلاف نسمة ومن ذلك تحكم على مبلغ صباغة القوم بصراع الثيران ومكاته من نفوسهم .

السكان في العمل ومنهم من يعدونه شائناً فيدعون الشرف ولا يسمون لادنى عمل ولذلك تركوا في الماضي الاعمال المهمة للمسلمين والعبيد ثم اخذ فكري الاغتناء يسود بسرعة بين القوم حتى اصبح افراد منهم يهيمون على وجوههم في الارض ليفتنوا في برهة قليلة ونشأت من ذلك مخاطر ومهالك ولم يعن العناية التامة باستحصال خيرات البلاد والانتفاع بزراعتها ومعادنها الانتفاع المطلوب . .

ولك بعد هذا ان تتصور كم عدد المتسولين - عددهم مئة ألف - والمتشردين والطفيليين من كل صنف من الاصناف . لا جرم أن عددهم لم يبلغ في مملكة ما بلغة في اسبانيا . وكان من نتائج طرد العرب واليهود من اسبانيا ان انتقلت صناعات هؤلاء وأعمالهم الى الغرباء من غير الاسبانيين ولا تزال الى اليوم . حتى ان بعض الصنائع كالحرير والجلد والصوف والحبال قد بارت بخروج العرب من الاندلس ولا تزال معامل غرناطة واشبيلية وطليلة وغيرها آخذة في الانحطاط سنة عن سنة . ومن أسوأ الأعمال في اسبانيا جباية الخراج وتوزيعه وفساد الطرق في اتفاهه فلوا استعاضت اسبانيا عن الاتفاق على الجيش وعلى عشرات الالوف من الرهبان وعلى جمهور عظيم من الموظفين الذين لا يعملون عملاً بفتح مدارس وتعيد طرق وفتح أقنية وغرس أشجار لكان حقيقاً في ذلك نجاحها الاقتصادي على ما أثبت ذلك المفكرون .

وبينا نجد في فرنسا عشرين مليوناً ونصف مليون من سكانها البالغين زهاء أحد وأربعين مليوناً يعملون في الزراعة نجد خمسة ملايين من الاسبان فقط أى ربع سكانها يعملون في الزراعة . والزراعة مورد حياة البلاد الوحيد . ونجد في اسبانيا ٤٨،٨ في المئة من أرضها بوراً على حين لا ترى في بريطانيا العظمى سوى ٢٨،٤ من أرضها لا يستفاد منه و ٢٣ من أرض هولاندة و ١٩،٣ في ايطاليا و ١٠،٢ في المجر و ٩،٩ في ألمانيا و ٤،٩ في البلجيكي و ٦،٩ في النمسا و ٩ في فرنسا أما الاثنان والخمسون في المئة من أرض اسبانيا فانها لا تزرع الا زراعة ناقصة بحيث أن الكيلومتر المربع لا يقوم باطعام أكثر من أربعين شخصاً وهذا ولا شك منبعث من أنانية الأغنياء وجهل الفقراء

في اسبانيا ١٥ ألف كيلو متر من الخطوط الحديدية و ٥٥ ألف كيلو متر من الطرق المعبدة في حين ترى في فرنسا ومساحة الملكتين واحدة تقريباً ٦٩٨ ألف كيلو متر من الطرق المعبدة و ٥١،٤٣١ كيلو متراً من الخطوط الحديدية وليس في اسبانيا سوى ٢٩٨ كيلو متراً من الخطوط الحديدية في كل عشرة آلاف كيلو متر على أفك تجد في مثل هذه المساحة في ايطاليا ٥٨٠ كيلو متراً وفي النمسا ٧٦٢ وفي فرنسا ٨٧٤ وفي ألمانيا ١٠٠٧ وفي بريطانيا ١١٨٠ وفي البلجيك ١٦٢٣ ولذلك يضطر المسافر في اسبانيا ان يركب القطار من بلدة الى أخرى قريبة ومنها يذهب في تعاريج على غير فائدة لأنها ليست متصلة بجارتها بسكة حديدية مباشرة ومع أن معظم الخطوط الحديدية لشركات أجنبية فقد أصيبت بمرض البلاد نفسها وأغنى سوء الادارة ورداءة الحال .

داء ان قتالان كان على الحكومة هنا ان تقاتلها واعنى بهم اناية الاغنياء وجهل الفقراء . فالعلم متأخر جدا في ارض اسبانيا لان نصف سكانها لا يقرأون ولا يكتبون وفي احصاء اخر ان من سكان اسبانيا ستة ملايين يقرأون وخمسة يكتبون ويقرأون واربعة عشر مليوناً أميون وليس في البلاد اكثر من ٥٢ ألف كتاب ومدرسة للذكور والانات ولكليهما معا وفي فرنسا ٨٢،٢١١ مدرسة ابتدائية و ١٠٥٧ مدرسة وسطى وفي اسبانيا عشر جامعات وهي جامعة مجريط وبرشلونة وغرناطة وافيدو وصلنكة وسانتياغو وسرقسطه واشبيلية وبلنسية وفالادوليدا واذا فرضنا ان الواجب تعليمهم اربعة ملايين من الاولاد لاقتضى ان يكون لهم ٨٠ ألف معلم ومعلمة اذا أردنا ان نسلم خمسين ولدا لكل مرب في حين ليس في البلاد سوى ٢٦ ألفا اما المدارس الخاصة فلا تتجاوز الخمسة آلاف مدرسة وفيها نحو ستة آلاف استاذ دع رداءة التعليم فان التلميذ يصرف اوقاته في التعليم الديني والصلاة والمعلم غير موسع عليه يعمل متثاقلا بل قد يستجدي ويستوكف الا كف أحيانا لان الحكومة قد تقطع عنه راتبه الضئيل لقلة المال وليس هناك أما كن لا ثقة بالتدريس وحقيق بمن كان مثل هؤلاء المعلمين أن يحتاج الى من يعلمه

التعليم في اسبانيا صوري غير عملي وجميع طبقات المدارس محتاجة الى الاصلاح الكثير وفي أمثال الاسبان « المعرفة الكثيرة تقود الى الالحاد » قال أحدهم : وليس على من يدعون أن التعليم لا فائدة منه وليس في العلم من الفضائل التي تنسبونها اليه في ارتقاء الشعوب الا أن ينظروا الى اسبانيا فهناك مثال من الجهل يضاف اليه اعتقاد أعمى .

كانت اسبانيا أيام عزها تملك البورتغال ونابل وميلان وأقليم الفرائش كونته والفلاندر في أربا ومعظم ما يدعى اليوم باسم أميركا الجنوبية وكثيراً من المستعمرات المهمة في أفريقية والهند وما ليزيا ومن بورنيو الى كليفورنيا وما كان المحيط الكبير الا بحيرة اسبانيولية وبعد قرن من موت فيليب الثاني تناقشت وزارات أوربا في الطريقة التي يجب بها تقسيم اسبانيا ولم تنجح هذه الأمة في مستعمراتها لانها لم تحسن حتى الآن ان تستعمر أرضها فقد استولت على جزائر ماريان والكارولين وغيرها من أرخبيل المحيط قروناً بدون أن يخطر لها أن تستعمرها ولا تزال غير محتفلة بأملأها في خليج غينة وجزائر كناريا وقد تخلت عن المكسيك سنة ١٨٣٦ وعن شيلي في سنة ١٨٤٥ وعن الارجننتين في سنة ١٨٥١ وعن بيرو سنة ١٨٦٥ وعن كولومبيا سنة ١٨٨١ وعن كوبا وبورتوريكو وفيلبين سنة ١٨٩٧ وانتهت سطوتها الاستعمارية سنة ١٨٩٨ وكانت أيام حكمها في تلك المستعمرات من أشأم الأيام السوداء فلم تكن اسبانيا ترسل الى أميركا الجنوبية — بل الى سائر مستعمراتها — سوى رهبان وموظفين وهؤلاء أضروا بها أكثر مما تفعلوها . ولطالما أذرت المستعمرات دار الملك بالانسلاخ عنه فكان يهزأ بأقوال أهلها . ولقد أذرت بلدية هافان عاصمة كوبا منذ سنة ١٨١٠ انها اذا لم تبدل قانونها الاقتصادي والجركي تصبح كوبا بلدة غريبة فهزأت اسبانيا بهذا القول لأن اسبانيا ومستعمراتها كانت اذذاك ٣٨ مليوناً من النفوس على حين لم يكن سكان الولايات المتحدة جمعاء يناهز الثمانية ملايين

نسمة بيد ان العبرة بالكيفية لا بالكمية ولم ترح اسبانيا من حكمها الاعوام الطويلة بلاد أميركا الجنوبية الا نشرها لفتحها ولا سيما المكسيك^(١) وعدد السكان الاصليين هناك يقدر بثمانية ملايين ثم دخل فيهم غيرهم من المهاجرين ولا تزال الهجرة متصلة فتفقد اسبانيا كل سنة نحو مئتي ألف اسباني يهاجرون الى أميركا وغيرها ويرتحل نصفهم على أن لا يعودوا اليها ولكنها ترح منهم أموالا فيرسلون اليها كل سنة بنحو مائة وخمسين مليون بستان ومنهم من ينشئ المدارس والكنائس والمباني الخلد المتصلة ليعطوها للحكومة عنوان حبهم بلادهم ومعرفتهم جيلها . وقوام هذا الحب العاطفة القديمة ليس الا . أخذت الشعوب الاسبانية في أميركا تميل بالعلم المجرد عن كل صبغة دينية حتى قال أحد رؤساء الكليات الاسبانية يجب علينا اذا أنصفنا أن نذهب الى أميركا نتعلم في جامعاتها لانهم صبوا الى العلم المحض على حين لم تزل كلياتنا تتأثر بمؤثرات رجال الكهنوت . وكتب أحدهم منذ مدة ليس عندنا معاشر الاسبانيين ديوان تفتيش ديني الآن بل فينا فكر ديوان التفتيش الذي مازال يسرى فينا ويذلنا . ولذلك ترى ألوفاً من أبناء جمهوريات أميركا الجنوبية يرتحلون الى أوروبا ليدرسوا في جامعاتها ولا يغشون اسبانيا التي تجمعهم بها رابطة الدين والجنس واللغة لعلمهم بانحطاطها وهيئات ان يعود الى جامعة صليكة الاسبانية - المشهورة في القرون الوسطى بانها احدى الجامعات الأربع التي كانت تفيض النور على عالم النصرانية - بهاؤها وروتقها القديم والمدارس في جنوبي أميركا تسير على خطة المدارس في فرنسا .

يقول بعض من كتبوا على اسبانيا انها بلاد ديمقراطية والحال انها ارسقراطية

(١) يقدر عدد المتكلمين باللغة الاسبانية أو القشتالية في اسبانيا وأميركا الجنوبية عدا البرازيل وغريانا وأميركا الوسطى والانتيل وفيلبين وفي مستعمرات اسبانية أخرى بزهاء ثمانين مليوناً . ولغة البرازيل البرتغالية وعدد المتكلمين بهذه اللغة في أوروبا وأميركا نحو ثلاثين مليوناً

لأن الثروة والتعليم والتهذيب العقلي والحياة المرفهة السهلة كل ذلك خاص بفئة صغيرة من أهلها وجمهورا لامة يعيش محروماً كل ذلك . والفلاء فاحش في البلاد لا في الكماليات التي تجلب من الخارج بل في الحاجيات وليس للأسبان حياة المجتمعات فان الاجتماعات والضيافات خاصة بالكبراء وقلما يخرج القوم من بيوتهم وقلما يسافرون ولا ذوق لهم في الاستمتاع بالطبيعة لسماع أصوات الطيور في الغابات والتمتع بالهواء الطلق والمناظر الجميلة والطبقة الوسطى قريبة من الدنيا لولا طلاء ظاهري عليها على انك ترى في الشعب السذاجة والاستقامة والكرم صفات أحتفظ بها .

العامة في الأسبان تتكلم كالخاصة لغة واحدة فصيحة لا تفاوت بينها والشعب خاضع صبور يحتمل مصابه . وقل ان ترى في اسبانيا من أبناء الطبقة الوسطى من يحسنون المدخل والمخرج ويعملون عملاً صالحاً اللهم الا في بعض المراكز وقد تألفت منذ نحو ثلاثين سنة منهم طبقة مستنيرة في الجملة ولكنها قليلة ومع هذا بقيت المرأة فيهم على حالتها الأولى . وان القوم لينقصهم كثير من مبادئ الآداب الأولية الشائقة بين الأمم الراقية كالفرنسيين والانكليز والألمان وغيرهم فتراهم يدخلون في كل مكان خاص وعام ويبصقون في القطار والمقهى والنزل والفندق والبيع على صورة تشمئز منها النفس . والطبقة العليا الغنية في الأسبان تعيش عيشاً يقرب من عيش جمهور الناس في انكلترا وفرنسا .

كانت التيوكراسية والبلوتوكراسية والبور وكراسية أي الحكم الألهي والديني والقرطاسي - أو الحكومة التي تدعى بأنها تصدر عن وحى سماوي أو تكون مأخوذة بوازع ديني أو تطيل في أوضاعها ومعاملاتها - من أمراض اسبانيا الاجتماعية فيما مضى ويزيد عليها اليوم مرض آخر وهو حب الجندية La Caciquism وليس في الأسبان عيوب متأصلة في عنصرهم بل عيوب عرضية ناشئة من التربية وغلة المعرفة وفساد النظام والأحكام ومعظم هذه الأمراض طارئة . ثم ان الأسبان من جهلهم بأنفسهم يجهلون غيرهم ويكرهون الغريب وان أظهروا له على رواية

بعضهم كرمًا ولطفًا وقد اقتبسوا هذا الخلق من العرب كما قال فيهم أحد الباحثين .
وانا على ما نرى الآن من عيوبهم في قذارتهم وتشردهم وجهلهم وقلة
عنايتهم بالعمل احتفالهم بالصناعات وميلهم الى الاعتناء السريع لشهد فيهم صفات
صالحة للبقاء وهي الثبات والصبر وحب الاستكثار من البنين والبنات والميل
الى الشعر وهم من كثير من الوجوه يشبهون أهل سورية في هزلهم واستكانتهم
وتبلغهم بميسور العيش أو انبعاث همهم الى أقصى مراميها . والاسباني ولا سيما
في الجنوب يميل الى البطالة والراحة ويتفخل ويتعجرف ويولع بالخيالات وهم
في المدن والقرى يجتمعون أولاداً ونساءً ورجالاً على الابواب وفي منعطفات
الطرق ويتهازلون ويتلاكون حتى لتظنك في قرية كبيرة من قرى الشام تبرز
أهلها فقط أى لبسوا البرانيط أو البراطيل أو القبعات وأحسن ما فيهم كثرة النسل
ومنه مادة نجاحهم في المستقبل وزيادة السكان تساعد على الانتخاب الطبيعي
في المجتمع وتضطر الناس الى العمل وتضمن النجاح الاخير للذكاء

ان الامة الاسبانية التي وجدت قواها فطردت العرب في القرون الوسطى
ثم وجدت قواها في القرن التاسع عشر فطردت الفرنسيين على عهد
نابوليون من أرضها قد اثبتت اذا انصفنا وطنيتها في تينك الوقعتين المهمتين بيد أن
من عيوبها أنها لا تستفيد من الخارج وقد أخذت الآن تفكر في مستقبلها
ورقيت منذ انصرفت عن مستعمراتها لولا أن طادت فحدثتها نفسها بامتلاك الريف
وحرب أهله في مراکش ففشل جيشها وكان مؤلفاً من ثمانية عشر ألفاً أمر مع
قواده وضباطه فعادت اسبانيا وأرسلت على الريفين أو بادية المغرب الاقصى
مئة ألف مقاتل وما تدري أيلتئم انتصارهم على هؤلاء البدو على ما في نفوسهم
من شتم وما فيها من العجب والخيلاء فيقال لهم بعد زمن قد ظفرتم ولكن بمن ؟
واذا غلب الريفيون فليسوا أول شعب ضعيف ذل أمام قوى . واذا استولى
الاسبان على الريف وخضع لسلطانهم من أقصاه الى أقصاه لا يساوى جزءاً من
المال والدم المهرق وأرض اسبانيا الجميلة أحق بالعناية والاستثمار

البورتقال بعد العرب

١١١

ليس بين اسبانيا والبورتقال حدود طبيعية ولما وافى العرب شبه جزيرة ايريا لم تكن مملكة البورتقال قد تأسست ولا لغتهم قد تم تأليفها وتقدم العرب الى بلادهم فاستولوا عليها وكان شأنهم في لشبونة عاصمتها اليوم على المحيط شأنهم في بلنسية على البحر المتوسط فرسخت حضارتهم في لشبونة وشنترين وشنترة ويابره وبطليوس وشلب وولب وباجة وطبيرة وقلمريه وشنت مارية كما رسخت في برشلونة وطرخونة وبلنسية ودانية وقرمونة ووادي آش وغرناطة وجيان واشبيلية وقرطبة . وكان غرب الاندلس أو أكثر بلاد البورتقال من أول ماتخلص من حكم العرب في القرن السادس .

ولم يشتهر البورتقاليون كثيراً في كتب العرب الاندلسيين بل كانوا يطلقون في الغالب اسم الروم على الاسبانيين والبورتقاليين معاً كما كانوا يطلقونه على غيرهم من آجيال الفرنجة واذ كان مقام البورتقاليين في شبه جزيرة ايريا ثانوياً - بالنسبة للاسبانيين كانت تأثيرات اللغة العربية أيضاً في اللغة البورتقالية أقل منها في اللغة الاسبانية وتأصلت فيهم عادات العرب أقل من تأصلها في جيرانهم غزا العرب البورتقاليين في الزمن الذي غزوا فيه الاسبان ففتحت بلادهم أواخر القرن الاول للهجرة على يد موسى بن نصير وطارق بن زياد وجاءها أناس من جزيرة العرب وبلاد البربر فنزلوها وعمرت بهم كما فعل اخوانهم في بلاد اسبانيا حتى أصبحت كأنها مملكة اسلامية من بلاد العرب

ولما انحلت الدولة الاموية في المشرق خضع لسلطان عبد الرحمن الداخل معظم شبه جزيرة ايريا ومن جملتها بلاد البورتقال فأورثها هو وأخلافه عمراً وثروة وبلغت لشبونة (اشبونة) عاصمتها أقصى مراقى العمران في أيامهم ولم

تكن بالبلد الطيب قبل العرب ، وما لبث البورتقاليون أن ألفوا حكومة لهم في بلاد الجلالة أخذت تقوى مع الزمن وتسير على الأغلب مع مملكتي قشتالة واراغون جنباً الى جنب في قتال العرب .

قال مؤرخو الافرنج : خرب العرب بلاد البورتقال يوم خربوا افيلا وصلنكة سنة ٣٩٩ هـ وافتتح الفونس الخامس جزءاً من البورتقال سنة ٤١٨ هـ - ١٠٢٧ سنة ٥٤٣ أخذ ملك البورتقال لشبونة وشنترين^(١) وشنتره وفي سنتي ٥٥٣ و ٥٧٣ توسع البورتقاليون في فتوحهم وفي سنة ٥٨٥ خرب العرب بلاد البورتقال خصوصاً لشبونة ثم عاد البورتقاليون في السنة التالية ٥٨٥ - ١١٩٠ م فاستولوا على عدة حصون ، ويقول مؤرخو العرب ان ابن الرنك وهو من ملوك الفرنج غرب بلاد الأندلس ملك سنة ٥٨٣ مدينة شلب وهي من كبار مدن المسلمين واستولى عليها فسار صاحب الغرب والاندلس بعسكره فقاتلهم حتى ذلوا وسلموا ولما كان في سنة ٥٨٥ قصد بطروا بن الريق (؟) مدينة شلب فنزل عليها بعساكره وأطاعه من البحر الافرنج بالبطس والشواني وكان قد وجه اليهم يستدعيهم الى ان يعينوه على ان يجعل لهم سبي البلد وله هو المدينة خاصة ففعلوا ذلك ونزلوا عليها من البر والبحر فلكوها ثم عاد المسلمون فأخذوها وأخذوا من بلادهم حصناً يقال طرش .

تولى أمر البورتقال تسعة ملوك من الأسرة البورغونية حكموها الى سنة ١٣٨٣ م فقوا قلوب أهلها واشتغل البورتقاليون بدفع العرب عن بلادهم ، وعاونوا اخوانهم الاسبانيين معاونة شديدة للخلاص من العدو المشترك فقد هزم البورتقاليون المرابطين في وقعة شنترين وخلصوا جزءاً مهماً من بلادهم وغلبوا

(١) قال الاصطخرى في كتاب الاقاليم : وشنترين التي على البحر المحيط بها يقع الغرب ولا يعلم ببحر الروم والبحر المحيط موضع غير الابشنترين . . . ويقع بشنترين في وقت من السنة من البحر دابة تحتك بمحجارة على شط البحر فيقع منها وبر في لون الحر لونه لون الذهب لا يثادر منه شيئاً وهو عزيز قليل فيجمع منه ويلسج منه ثياباً فيتلون في اليوم الواثا ويحجز عليها ملوك بني أمية فلا تنقل الاسرا وتزيد قيمة الثوب على الف دينار لمرته وحسنه اه قلنا وشنترين ليست على البحر المحيط ولكنها قرية منه

العرب وعاونوا القشتاليين سنة ١٢١٢ في وقعة العقاب التي أفضت كما قال ابن الأبار إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها ، وكانت السبب الأقوى في تحيف الروم بلادها حتى استولت عليها ، وعاون البورتقاليين سنة ١١٤٧ م ، ٥٤٣ هـ جيش مؤلف من الصليبيين الفرنسيين والانكليز والالمان والفلاماندين للاستيلاء على لشبونة وفتح الفونس الثالث القسم الجنوبي من البورتقال المعروف عند العرب باسم الغرب Algarve ١٢٤٩ - ١٢٥٣ بعد ان ملك العرب هذه الولاية من القرن الثامن الى القرن الثالث عشر ، ومنح ملك البورتقال المغلويين الذين بقوا في لشبونة من العرب بعض الحرية فظلوا فيها ، وقويت بهم التجارة البحرية ، وقد أسعد الحظ بلاد البورتقال فجاءها منذ استقلت ملوك الالنادر منهم على جانب من الدهاء والعقل يحسنون الفارة كما يحسنون الادارة فوسعوا حدود بلادهم وقوا الوطنية البورتقالية وعرفوا أمتهم طعم الاستقلال حتى ان أحدهم جلس على سرير الملك خمسا وستين سنة وقوى ملكه حتى قطع أمل ملوك قشتالة من بلاده وخلصها كما خالصها أخلافه من سطوة النبلاء ورجال الكهنوت فلم ترك البورتقال مجالا لجارتها القوية اسبانيا أن تأخذها .

ولما فتح البورتقاليون اقليم الغرب في اقصى الجنوب الغربي من شبه جزيرة ايبيريا أخذوا يتوسعون في فتوحهم فركبوا البحر وفتحوا بعض مدن الغرب الاقصى ولا سيما طنجة وأرسلوا الى بر العدو من الجند بقدر ما كان أهل بر العدو يرسلون منه نجدة لآخوانهم الاندلسيين العرب ثم شغل البرتقاليون بعد ذلك باكتشافاتهم البحرية ومستعمراتهم الجديدة فعدلوا عن التوغل في الغرب الاقصى بل أزمعوا الرحيل منه .

وعلى ذكر الصليبيين الذين عاونوا البورتقاليين للاستيلاء على لشبونة لا بأس بأن نشير الى ان الاسبانيين والبرتقاليين كثيرا ما كانوا يستنصرون بحيرانهم من ملوك الافرنج فينجدونهم فقد جاء سنة ٤٨١ عدة أمراء فرنسيين لمعاونة اسبانيا على العرب وكذلك شخص كثير من الطليان وكلهم بأمر البابا وفي سنة ٦٠٨ قصد

صاحب الاندلس قلعة عظيمة للارنج تدعى شلب تره ففتحها بعد حصار تضيق عليها شديد فراع فتح هذه القلعة الروم وخامرهم الرغب فخرج الادفنش الى قاصية بلاد الروم مستنفر اعطاء الروم وفرسانهم وذوى النجدة منهم فاجتمعت له جموع عظيمة من الجزيرة نفسها حتى بلغ تفيره الى القسطنطينية ووافقه صاحب ارغون في سنة ١٢١٩ م تحالف جميع ملوك النصرانية على التعاون على المسلمين واستنفر البابا اينوسان الثالث جميع امم أوروبا الى غزو عرب الاندلس فاجتاز جبال البيرينات ستون ألف مسيحي لقتال العرب .

ولما انهزم الفونس ملك الفرنج وكان مقر ملكه طليطلة في سنة ٥٩١ هـ أقبح هزيمة عاد الى بلاده وركب بغلا وأقسم انه لا يركب فرساً حتى تنصره ملوك فرنجة فجمعوا الجموع العظيمة وجرت لهم مع المسلمين وقائع كثيرة الى أن ملكوا أكثر مدن الأندلس .

وهكذا كان ملوك الافرنج ينصرون ملوك قشتالة وارغن وليون خصوصاً من عرف منهم شوكة العرب اذ ذاك أمثال حكومات ايطاليا وفرنسا ، ولكن الفرنج كان ملوكهم من الضعف في تلك الازمان بحيث يعجز كل واحد عن حفظ بلاده دع استخلاص بلاد غيره ، ثم ان الحروب الصليبية التي دامت نحو قرنين أخرت قليلا اخراج العرب من الاندلس ولو سirt عليها بعض القوة التي سirtها الى الأرض المقدسة لما طال حكم العرب على الاندلس الى أواخر القرن التاسع للهجرة .

كانت البرتقال تعتبر شريفاً كل برتقالى أسره العرب ولم يصبأ عن دينه الى الاسلام ، وكذلك كل من حاربوا العرب في وقعة أوريك سنة ١١٣٩ التي كتب فيها النصر للبرتقالين ولا تعد في الاشراف كل من ضربوا امرأة بسيف أو رمح أو كذبوا أو هربوا من معركة وقعت للبرتقال مع العرب .

وما برحت البرتقال تن من سلطة رجال الدين أنين جارتها اسبانيا وهي في يد الباباوات كالحاتم في يد لابسه يقلبه كما يشاء حتى نادت منذ ثلاث عشر سنة

بالجمهورية وتخلصت من سلطة الكهنوت ، وكان أول عمل لها طردها الرهبنة اليسوعية من بلادها واستصفاؤها اديارها والقضاء على الرهبان والراهبات انتقاما منهم (المقتبس م ٥ ص ٤١٠) على سعيهم في قتل فريرا رجل الاسبان الحر وكانوا قتلوه بمساعيهم لدى الحكومة على أبشع صورة عرفت في عصر النور والمدنية فتخلصت البورتقال كما تخلصت أختها برازيل من قبل من الحكم الملكي ولها اليوم ٣٨٥٠٠٠٠ كيلو متر من المستعمرات يبلغ سكانها عشرين مليون نسمة ويبلغ سكان البورتقال ستة ملايين نسمة يزلون في ٩١٩٤٨ كيلو متراً ولا تزال حصون العرب الى اليوم على قمم الجبال في مدينة شنتره ، وبجانب بعضها مسجد باقية آثاره الى الآن وعلى مقربة منه قبر دفن القوم فيه عظاما وجدوها ولم يعلموا أنها للمسلمين أو للنصارى فوضعوا على رجام القبر صورة الصليب وصورة الهلال والقسم الذي كانت تسكنه العرب في لشبونة يعرف عندهم باسم الحمة (لا بتشديد الميم) ويسميه البورتقاليون الآن من باب التحريف الغاما ومنظر هذه المدينة يشبه المدائن الشرقية ومن أمهات مدن البورتقال كويمبرا Coimbra المعروفة في كتب العرب باسم قلورية ، وهي الآن دار العلم ومحط المعارف في بلاد البورتقال ومنها مدينة بورتو واسمها في كتب العرب بورتقال وبها يسمى هذا القطر بورتقال . وفي هذه المدينة دار البورصة بنيت على الطراز العربي ونقشوا أعظم بهو فيها بالطراز العربي وزينوه بالزخارف وكتبوا في ضمن رسومها اشعاراً عربية . وفي متحف لشبونة على ما حدثني به الثقة كثير من الآثار العربية ولا سيما ما أخذه الالمان من الشام قبل الحرب الاخيرة فوقع في أيدي الحلفاء فاعطوا السفينة الالمانية وما حوت للبورتقال لانها أسرت في بحرها وذلك من جملة مكافأتهم لها على محاربتها في صفوفهم وتجنيدها ثمانين ألفاً من كآة رجالها .

برلين

١١٢

كنت أود أن أرى انكلترا وألمانيا بعيني من عرفهما مباشرة لا بالواسطة وان اسمع الانكليزي والالماني يتكلمان بافهما فافهما وأجيب على كلامهما دون أن أعتمد الى اللغة الافرنسية . واذا سهل التخاطب بهذه اللغة مع خاصة الانكليز والالمان وغيرهم من شعوب الغرب فيتعذر التفاهم مع العامة من جمهور تلك الامم الا بواسطة ترجمان والترجمة يصعب أن تؤدي الروح الحقيقية في المخاطب والمخاطب . وأن روح الامة لتتجلى لاسأخ بالاحتكاك بالخاصة والعامة وربما أخذ عن العامة مالا يتيسر له أخذه عن الخاصة ولذلك سأخ لنا أن نقول اننا في البلاد التي ينطق أهلها باللغة الافرنسية كأنا في بيوتنا وفي غيرها غرباء .

عرفنا الالمان بما كتبه عنهم الفرنساويون في الكتب والمجلات والصحف . وفي ذلك الغناء في معنى ادراك مقومات هذه الامة ومشخصاتها . ولكننا نشعر أن هناك أموراً يتعذر إصدار الحكم الصحيح عليها دون الوقوف على أسرار لغتهم والتزول عليهم اشهرأ طويلة والاحتكاك باهل الطبقات المختلفة منهم وقد يهتم الشرقي في الغرب بامور لا يحفل بها الغربي قال مونو المؤرخ الفرنساوي (١٨٤٤ - ١٩١٢) أن المانيا الوطن الثاني لجميع الرجال الذين يدرسون ويفكرون . قضيت أحد وعشرين يوماً في زيارة برلين وليبسيك وهالي ومونيخ أشاهد نموذجات من معاهدها ومشاهدها ومكاتبها ومتاحفها وما أظن هذه الأيام تكفي لاستبطنان عوامل الحياة المنبثة في هذا الشعب الذي جعل العلم رائده وقائده في كل حركة من حركاته . وبتأثيره جدد شبابه بعد الهرم . وجمع شمله وقد أنبت منذ القدم .

أثرت الحرب العامة الاخيرة في الغالب والمغلوب من أمم الغرب على أنهم كلهم

مغلوبون في نظر العقل الصحيح بما صرفوه من الرجال والمال وخربوه من العمران .
ولقد أثرت عوامل الحرب بالمتحارين والمتحايدين . وهل العالم الا سلسلة اذا
اهتز منها جانب تأثرت له سائر الجوانب ، ولذلك ترى الضعف باديا الآن في بعض
أوضاع ألمانيا كسككها الحديدية وترامواياتها وطرقها ، فقد كانت برلين قبل
الحرب تفصل شوارعها كل يوم بالماء والمطهرات وهي الآن قدرة بالنسبة لنظافتها
السابقة لا قياساً لها مع عواصم الممالك الأخرى وكان يريد لها وأسباب مواصلاتها
مثلا سائرا في النظام فلما كثر اعتصاب العملة لسقوط أسعار الورق المالى أصيبت
بالخلل والشلل أحيانا .

كل شئ جديد في عاصمة بروسيا بل عاصمة جرمانيا لانها هي جديدة وقل
أن ترى فيها بناء عمره أكثر من عمر الانسان المعمر .

أدخل الى متحف من متاحفها يشغل نظرك وعقلك في أسلوب البناء أكثر
مما يشغلان بما حوى من التحف والعاديات كأن أبنيتهم الجديدة أنشئت على
غير مثال وكلها نموذج من العلم العملي والنظام الغريب .

شوارع برلين وجاداتها وأسواقها على نمط متوافر متساوق لانها قامت في وقت
واحد على تخطيط جرى التصميم عليه لاول اختطاطها فلم يحيدوا عنه قيد غلوة
والحال ليست كذلك في لوندرا وباريز مثلا فانهما أنشئتا مع الزمن الطويل على
أساليب مختلفة ، وشتان بين ما تجده من القدم الداعى الى التفكير والتأثر وبين
ما تجده من الحداثة وما يتبعها من اللطافة والنضارة ، ولقد شبه أحد أصدقائنا
من علماء الترك برلين وباريز بشخصين أحدهما حديث النعمة بحسن بزته وما يبدو
عليه من الذهب والماس والآخر عريق في المجد لا يبالي أي شئ اكتسى ويبعد
عن الزينة ما أمكن .

قال هوره^(١) لا يعتبر الالمان برلين فقط عاصمتهم بل ان كولون وليبيك
وهمبرغ ودرسله ومونيخ وجميع المدن القديمة لا تعترف لها بالارجحية

عليها أما أنا فاحب عاصمة بروسيا لانها تسر وفيها قد توفرت اسباب الحياة والظرف والقرى وابتهج بمنظرها اللامع الجديد وبشوارعها الحديثة وواجهات أبنيتها البيضاء وشرفاتها المفضضة وزهورها وبيوتها الطريفة التي أخذت بحظ وافر من الجمال والنور والتنويع والتعريش مما يأخذ كله بمجامع قلبي . أما المدن القديمة فانها أيضاً تخلب الالباب كأنها الملكات ويرغب المرء في زيارتها أحياناً للاستراحة من طقولية الشباب المفرطة . وهذا حال باريز فانها حوت المزيتين تقدم لرائريها ما خلا لطائف التاريخ والصناعة ما يفتن الفؤاد ويأخذ بالقلب من أسباب السرور والتجديد . أما في المدن التي فيها ما يعجب ولا سيما قدمها فان الغرباء يصرفون فيها بعض أيام عطلة سريعة ولا يسكنون فيها مختارين دع المرضى والمنهوكه قواهم ممن عساهم ينزلونها اذ يجدون فيها وفيما حوت من العادات الميته أو العتيقة نفعة قد تنجع في مداواة اجسامهم وقواهم . أما برلين فانها على العكس من هذا وذاك لان المدن الحديثة جداً تشبه الفتيات اللاتي في السابعة عشرة من عمرهن فهن على نضارتهن وحدثتهن لم يستوفين شروط الكمال . أن من يدخل برلين من عشاق الفنون يشهد فيها مجموعة قد يأتي على رؤيتها في مدة قصيرة ولكنه مع ذلك يراها مملوءة بأسباب المرغبات في البقاء ويهتم لها كل من يحب الحياة ويعتقد في المستقبل

قال وأن برلين تزيد كل يوم اتساعاً بما ينشأ فيها كل سنة من عشرات من الشوارع الحديثة حتى أن البيت لا يكاد ينجز بناؤه حتى يسكن وحذراً من رطوبة البناء يوقدون فيه مدة ثمانية أيام ناراً كثيرة قوية فيجف البناء ويخلص النازلون فيه من الخطر . وفي برلين شوارع طولها ١٢ كيلومتراً ولا تجد من يفاخر بها . وهذا مما يعجب منه لما فيه من الجرأة والثقة بالنفس والاعتماد على المستقبل والاحتياط وحسن الاسلوب الذي يتطلبه مثل هذا العمل . اذا رأيت هذه الشوارع ظننت نفسك في أميركا تزور مدينة حديثة من مدنها . والبلدان التي كانت تعد ريفاً وضاحية لبرلين مثل شارلوتنبيرغ ويلمرسدروف وبانكوف وريكسدروف

وغيرها أصبحت بما لها من الحداثات والحقول يوتاً ومخازن وأما كن عامة حتى اغتنى من الاراضى من كان بالامس يزرع البطاطا والشوندر فى ارضه فاصبح من اصحاب الملايين بما باعه منها وقد بلغ ثمن المتر الواحد من الأرض فى حى المخازن الكبرى خمسة آلاف فرنك ذهب والمتر الذى كان يباع فى الضواحي بعشرة ماركات اصبح يباع بثلاثمائة فرنك .

يصرف العملة والمستخدون أيام الآحاد فى الضواحي ولذلك تغص البحيرات والغابات والشوارع بالعامة أما الخاصة ممن يحترمون انفسهم فلا يخرجون فى ذاك اليوم ليركوا المجال لغيرهم واجور التنقل فى السكك الحديدية والتراموايات رخيصة للغاية وتجتمع الأسر البعيدة والشبان يتغنون باناشيد عسكرية حماسية والنظافة بادية على الجميع والنظام يتدفق من اطرافهم وكذلك حسن الذوق والادب . ولا يلتفت أحد الى أحد بل كل امرئ مشغول بنفسه واذا رأى الانسان أحد معارفه من بعيد حياه أحسن تحية وربما سلموا على الغريب سلام تعظيم واحترام يفعل ذلك رجالهم ونسائهم واولادهم وبناتهم ويحمل كل واحد مظلمته ورزمة بالقماش المشمع فيها خبز وحلويات وقهوة وسكر ويتعاونون للقهوة من المطعم ماء حارا بفلس أو فاسين فيطبخون فيه قهوتهم ومنهم من يذهب الى حانات الجمعة ومنها ما يسع عشرة آلاف متزه ومن الحداثات فى الضواحي ما تضرب فيه الجوقات الموسيقية .

وفى أي ساعة دخلت المطاعم والحانات والمقاهى فى برلين تجد فيها أناساً وأسرار مع أن الأسرة الالمانية عرفت بحبها لبيوتها وكنها كالأسرة الانكليزية . والحقيقة أن هذه الأسر التى نشاهدها ساكنة فى أماكن بعيدة تضرب لها موعداً فى أحد هذه المحال لتزاور مع من تحب ثم ينصرف كل واحد من أعضائها الى عمله .

وحدثنى الثقة أن الالماني يدعو صاحبه بالحاح الى تناول الجمعة معاً وعند

أداء قيمة ما يشربان يدفع كل منهما عن نفسه ولسان حالهم المثل الا فرنجي :
« كل لنفسه والله للجميع » بمعنى أن الدعوة تكون للعباسطة والمفاكة فقط
لا ليكرم أحدهما الآخر بشيء من المال يغرمه وكأس يشربها بل قد تأصلت
فيهم هذه العادة بعد الحرب الأخيرة فاصبح الشاب والشابة اذا تصاحبا ينفق
كل منهما على نفسه في دقيق النفقة وجليلها وكلاهما يستمتع بصاحبه خلافاً لعادة
الأمم كلها في ان الرجال قوامون على النساء . والرجل ولا سيما في الغرب اذا لقي
المرأة التي يعرفها معرفة بسيطة يتولى اكرامها واطعامها وليس من العادة أن تنفق
هي على طعامها وشرابها اذا صحبت الرجل مهما كانت منزلته منها

الالمان يحبون الزهور للغاية فمنذ شهر ايار ترى الزهور ميسوطة على الابنية
والدور والفنادق غنيها وفقيرها من أول برلين الى آخرها وفي حي العملة يتنزه
الانسان في الصيف بين حائطين مزهرين علوها عشرون مترا وكلها من الزهور
المختلفة والبلدية تكافئ من يحسن زراعة الزهور ويتوفر على خدمتها أكثر من
غيره ولذلك صح أن تسمي المانيا لا برلين وحدها مملكة الزهور العطرة
والورود المعرشة لان الزهور لاتعدم منها إلا عند كلب الشتاء وتجليد المياه .

قالت مدام دي ستايل : ترى الحدائق جميلة في بعض بلاد المانيا كما هي
في انكلترا والعناية البالغة التي تصرف أبدأ في الحدائق تدل على شدة ولوع القوم
بالطبيعة . تجد في انكلترا دوراً بسيطة للغاية قامت وسط الحدائق الأنيقة
وصاحب الحديقة يهمل العناية بمسكنه ويزين حديقته وبستانه . هذا التناقض
وهذه السذاجة إذا اجتمعتا فلا توجدان حقيقة على نسبة واحدة في المانيا
ولكنك ترى في مجموع الفقراء واصحاب الاقطاعات ضرباً من ضروب الحب
للجمال الذي لا يلبث ان يورث الحريص عليه ذوقاً ولطفاً لانه المنبع الحقيقي لها .
هذا بعض ما عرفته وعرفه غيري في برلين من أسباب الراحة والهناء . أما
التي يرى مثلها في كل بلدة أوربية من التمثيل والغناء والرقص فهو نغم في موضوعه

أيضاً فيه الروح العسكرية والنظام الغريب . وكم من دار تمثيل أو مقهى أو مرقص يشبه قصور الملوك . وأسأل الله السلامة اذا وقعت الى مسرح من مسارحهم أو مرقص من مراقصهم فترى جمال الصناعة الى جمال الطبيعة الى جمال الهندام والنظام فيبهرك ما ترى وتسمع وتقدر في تفسك حالة القوم قبيل الحرب قبل أن يفقدوا رجلاً من رجالهم أو درهماً من أموالهم أو شبراً من أرضهم وديارهم .

المانيا الاقتصادية

١١٣

اختلفت بعد الحرب جميع القواعد الاقتصادية في الممالك الاوربية ولحق من ذلك بلاد المانيا قسط وافر لما أخذها ولا يزال يستوفيه منها دول الحلفاء من الغرامات والتعويضات ولذلك يصعب إعطاء حكم سليم على هذه الامة وعلى ثروتها من النقد وغاية ما يحدث به من هذا القبيل شئون لها وقعت قبل الحرب وبه يحكمون عليها . والحاضر مهما انخطتجد فيه شيئاً من روح الغابر .

قالوا ان العمل قوة توجد نجاح الامة وتزيده^(١) ونعني بذلك العمل اليدوى كما نعني العمل العقلى الذى يقوم به العلماء .

الانسان منتج العمل وفي الحكومات هو الشعب . ونتيجة العمل انتاج الثروة ويزيد ربح العمل بقدر تنظيم الأدوات الفنية وزيادة الربح في العمل يتجلى في الامة بارقام محصولاتها وحركتها الاقتصادية وغاية العمل في دائرة الاقتصاد والاستهلاك ويتألف من زيادة ريع المحصول على النفقة اللازمة مقدار دخل أمة وزيادة دخل أمة على استهلاكها يمثل زيادة ثروة الامة وطموح الامة في اقتصادياتها

(١) نجاح المانيا الوطنى من سنة ١٨٨٨ الى ١٩١٣ لهلفريش

Hefferich : La prospérité nationale de l. Allemagne de 1888 à 1913

هو نجاحها بزيادة عملها ثم بزيادة دخلها بحيث تستطيع تحسين حالتها الحيوية وأن تقوم بحاجياتها المادية والعقلية وترفع مستوى نجاحها

ان حركة الشعب في بلاد هو العامل الاول في تقدمه الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والعقلي . ونمو الشعب في مملكة يكون بزيادة قواه العاملة وقوته السياسية وتوسعته مسائله الاجتماعية والعقلية والادبية . ونمو أمة يستلزم زيادة دخل العمل الذي يضمن لها ما يلزم لبقائها كان سكان البلاد التي تدخل اليوم في أراضي جمهورية المانيا سنة ١٨١٦ - نحو خمسة وعشرين مليوناً فأصبحوا سنة ١٨٧١ أحد وأربعين مليوناً وفي سنة ١٨٨٨ ثمانية وأربعين مليوناً وبلغوا في احصاء قبل الحرب ستة وستين مليوناً ومن ذاك العهد بلغت زيادة الواردات نحو ٨٠٠٠٠٠٠ بالنسبة لعدد السكان . وتكثر هذه النسبة في المانيا عن سائر ممالك أوربا ماعدا روسيا . فنشأت قلة هلاك الناس من تحسين التغذية والحالة الصحية وتقليل الاعمال الشاقة .

التفتت المانيا لاول نهضتها الى الزراعة وكانت اذ ذاك بحالة تستطيع معها أن تخرج من صادراتها ولا سيما الحنطة الى البلاد المجاورة كانكلتراو هولاندة وبلاد السكندينا فبها فكثر المال بين أيدي المزارعين ولا سيما في شمالي المانيا وتبسط القوم في القرى فكثر النفوس كثرة هائلة وتوفرت المقايضات والمواصلات وزادت الطرق وكثر سرعة البرد . وقد أنشئ في المانيا سنة ١٨٣٥ أول خط حديد بين نورمبرغ وفورت وبعده عشرين بلغم مامت منها ٢١٣١ كيلومتراً وبعد سنة ١٨٤٨ أي عقيب الازمة الكبرى التي أصيبت بها البلاد استعادت المانيا قوتها وانها لعلها المال وزادت أسعار الاراضي بعد نزولها وظلت المانيا هكذا في ازدياد باعمالها الاقتصادية الى حرب السبعين فأسست في خلال ذلك بعض مصارفها المهمة وعدت مناجها واشتغلت معاملها وأنشئت خطوطها الحديدية وبعد تلك الحرب كثرت فيها الاعمال الاقتصادية وتأسست الشركات . وكانت السنين التالية أعوام رخاء ونماء لم يعهد لها نظير في تاريخ الاقتصاد الالماني

أن القاعدة السكينة في مسألة جمع رؤوس الاموال على الاسلوب الحديث والاستثمار أبداً منها وتنمية مساحة المعامل والمصانع والمعاهد على أنواعها وجمع جيوش متكاثرة من العملة واستخراج كمية أكبر من البضائع قد تحقق في ألمانيا على صورة باهرة فنمت مصارفها في برهة قليلة على نسبة خارقة للعادة وكذلك أسباب المواصلات ومشاريع صلاتها وتجارها على الخطوط الحديدية والطرق النهرية والبحرية ومكاتب بريدها وبرقها وهاتفها وصناعاتها الكبرى من كل نوع وكثرت خطوطها الحديدية حتى بلغت سنة ١٩٠٠ - ٩٦ ألف كيلو متر كان دخلها اذ ذاك نصف مليار مارك ذهباً في السنة وقد صرف عليها ١٤ ملياراً وهكذا نجحت في كل فرع من فروع العمل والانتاج .

قال لشتنبرج : ان القرن العشرين زاد في استيلاء الانسان على الامور زيادة كبرى فعمل ونجح في عمله ما فيه ادخال الحياة تدريجياً في طور العقل ووفر الثروة المادية توفراً كبيراً وحل مشكلة اعاشة ستين مليوناً من البشر في أرض ألمانيا على حين لم يكن في هذه البقعة نفسها أوائل القرن التاسع عشر ما يقوم باعاشة أكثر من خمسة وعشرين مليوناً وعلى صورة كانت أشق مما هي عليه اليوم فاستحوالت مملكة فقيرة زراعية الى معمل كبير مجهز بالعدد الصناعية والتجارية التامة الى التي ما بعدها . وهي تقوم بفضل حذق عملتها ورؤوس أموال أغنيائها وثروتهم المحصلة والالمان يعجبون وحق لهم العجب بما فيهم من صفات الاجتهاد والثبات في العمل والنزاهة في العلم والنظام وحسن التدريب والترتيب خصوصاً وهي صفات مكنتهم من أحراز مقام عال بين الامم الصناعية الحديثة ومن مجاراة الممالك في الجهاد العام اه .

نعم أن ارتقاء الصناعات الألمانية قد جعل ألمانيا المعمل الأكبر للعالم اذا وقعت حركته وقف العالم وقد ظهر ذلك عقب الحرب فلما كانت ألمانيا والممالك الوسطى في أوروبا محصورة كان العالم في ضيق شديد حتى اذا فتحت حدودها وصدرت مصنوطاتها انخرج العالم وأى فرج . خذ لذلك الكتب فان ألمانيا

وحدها تطبع نصف ما يطبع منها في العالم بأسره ونصف هذا النصف اى ربع كتب العالم تطبع في ليبسيك فلم يكن في أوائل القرن الماضى عدد المصنفات الجديدة التى تصدر في المانيا سوى ٣٩٠٠ - فاصبحت سنة ١٩٠٠ - ٢٤٧٩٢ وفى سنة ١٩٠٥ ٢٨ و ٨٨٦ وفى سنة ١٩٢١ - ٣٢ و ٣٢٥ كتاباً على حين طبعت أميركا في هذه السنة ٨ و ٣٢٩ كتاباً وانكلترا ٦٢٦ و ١١ كتاباً . وكان في المانيا سنة ١٩٠٥ - ٧١٥٢ كتيباً يصدر من الى البلاد الخارجية كتباً قيمتها ما ثمان وتسعون مليون مارك . وقد أصدرت المانيا الى انكلترا فقط خلال ثلاثة أشهر عقيب الهدنة ١٨١٨ من الكتب ملايمته خمسمائة مليون مارك وفي المانيا زهاء ثمانية آلاف صحيفة يومية وشهرية وأسبوعية .

ولا عجب فقد قيل أن علم الاقتصاد كان قديماً يستند فقط الى العرف والتجربة وما النجاح الهائل الذى أحرزه العلم الاقتصادى الحديث الا منبعث من انتشار العلوم الطبيعية انتشاراً خارقاً للعادة ولتطبيق النتائج العلمية على العمل الاقتصادى فان العلوم الطبيعية والكيمياء وعلم الكهرباء وهى من متعلقات العلمين السابقين قد تسابقا في هذا المضمار وأثر كل منهما جد التأثير في تبديل الادوات الاقتصادية وكان ذلك بفضل المفكرين والعلماء من الالمان الذين فتحوا في هذه العلوم طرقاً جديدة وجددوا اتساع العلوم الطبيعية بما اكتشفوه من قانون حفظ القوة ولم يكتف الالمان من هذا العلم بنظرياته المجردة بل صار هذا الشعب المشهور بأنه شعب شعر وعلم خلال القرن الاخير أمة عملية موجدة وهذا الاشتراك بين الذكاء والعلم والارادة قاد المانيا الى أرقى درجات النجاح .

كان من نتائج انتشار العلوم الطبيعية وارتقاء العلم في نواميس الحركة منذ القرن الثامن عشر ان يتوسع في استعمال الادوات كأدوات الحياة والصناعات الميكانيكية وآلات الاستخراج والتعدين والمضخات وغيرها وباستخدام القوى الجديدة المحركة من البخار أولاً والكهرباء آخراً ومن استعمال القوى المفجرة عم استعمال الادوات وانصرفت الهم الى اتقانها لاجرم أن آلة البخار اخترعت

في القرن الثامن عشر ولكنهم لم تكمل الا في القرن التاسع كما لاكثر معه استخدامها في الجملة . وبعض الترقى الذي حدث في البخار مثل زيادة احمائه والتوربين ها من مكتشفات العهد الأخير . وساعد المانيا على ارتقاءها غناها بمعادنها فيها الحديد والذهب والفضة والقصدير والكاولين وغيرها من المعادن . ولم تكن المجارى الكهربائية منتفعا بها حق الانتفاع في الابعاد الشاسعة وبدأت الحركة باختراع التلغراف الكهربائي نحو سنة ١٨٣٠ ثم باختراع الهاتف بعد ثلاثين سنة وفي أيامنا اخترع التلغراف والهاتف اللاسلكى . وكان لعلماء الالمان وأهل الصناعات منهم اليد الطولى في هذه الاختراعات وفي اكمال البرق والهاتف واستعمالها استعمالا عمليا وقد راعوا في كل ذلك ولا سيما في انتقال القوة الكهربائية والغازية والحركة الى الابعاد الشاسعة قلة النفقة والاقتصاد من عمل الايدي وبذلك بدأت المستنقعات والبطائح في بلاد المانيا تجفف وتعود صالحة للزراعة

وأن التوفيق الذي وقع في امكان جمع قوة ضخمة وذلك باجتماع القوة البخارية وتوزيع القوة الحادثة منها من محطة مركزية الى عدد كبير من المراكز المختلفة قد فتح لصنع الآلات ميدانا للعمل لا نهاية له فأنشئت أدوات لم تكن تعرف للتعدين والحديد والنسيج والورق والزراعة وما يتبعها وعمل عدة الالكحول والجمعة والسكر والصناعات الكيماوية وساعد ذلك كل المساعدة على ازدياد أسباب النقل بحرا وبراً وعلى سير السيارات والعجلات الكهربائية وعربات الركاب والبضائع وأسباب النقل في الماء في قوارب متحركة بذاتها حتى السفن التجارية والبوارج الحربية الضخمة واختراع المحرك الخفيف ذى الوقود قد مكن من اخراق الهواء في الطيارات والمناطيد وبهذين الاختراعين حققت الآمال التي طالما حامت حولها أفكار بنى الانسان منذ ألوف من السنين .

وانتشار الكيمياء أكمل على أنفع وجه الاختراعات الطبيعية والكهربائية فيما يتعلق بالمسائل الاقتصادية ودرس المادة تأليفها وتبديلها درساً علمياً قد أثر

في الحياة الاقتصادية عندما ظهر علم فسيولوجيا النبات والكيمياء الزراعية وهي الأصل في النظرية الحديثة للسماد وبذلك ارتقت الزراعة الى حد لانهاية له في المانيا. ولئن كان أساس هذه العلوم قد وضع في النصف الاول من القرن التاسع عشر ولكنها لم توضع موضع العمل الحقيقي الا في الثلاثين سنة الاخيرة ولما عرفت مكانة الحامض الفوسفوري والبوتاس والازوت لحفظ القوة المنتجة في التربة وزيادتها وكانت هذه المواد مهمة الى ذلك العهد أصبح لها شأن مهم وقيمة عالية. وفي المانيا معادن مهمة من البوتاس تكاد تكون منقطعة القرين في الارض. وقد شرعت المانيا تحسن الانتفاع مما ضمته افلاذ تربتها من المعادن في الصناعة والزراعة على مقياس سارت فيه سيرا عظيما وان المانيا بما تستخرجه من المواد القطرانية هي في الدرجة الاولى بين الامم لارتقاء أساليبها العلمية وأهم ما تستخرجه من القطران ألوان الانيلين والاليزادين والمستحضرات الصيدلية مثل الاسبيرين والفيناسيتين والسكرارين وسائر أنواع الزيوت القطرانية هذه نبذة في حال المانيا الاقتصادية وجهادها في مضمار الحياة المادية وقد ساعدها على ما هي فيه مزج كل شيء بالعلم وكل علم بالعمل بحيث يتراءى لك ان سماء بلادها وأرضها تعمل عملا متساوقا متقنا.

العلم والعمل

١١٤

قال أحد الالمان لرجل من الفرنسيين اننا من عدة وجوه متأخرون عنكم فقد كانت بلادنا التسعة مدة ثلاثة قرون مساحة حرب أوروبا. أتذكرون أن الفرنسيين كانوا إذا فكروا في مسألة عرش النمسا وغوستاف أدولف إذا أحب أن يصبح رئيس حزب البرتستانت ولويس الرابع عشر إذا نشأت له بعض

صعوبات مع الامبراطور كانوا كلهم ينزلون أرضنا ويقتلون على أديمها فتخرب على الدوام فكنا فقراء بينا كنتم معاشر الفرنسيين آخذين بأسباب النجاح والترقى . قلنا ومعظم تخريبات الحرب الاخيرة لم تكن هذه المرة في أرض المانيا بل في بلاد الحلفاء من الفرنسيين والبلجيك والروس فتغيرت تلك النظرية .

وقد تداركت المانيا ما فيها من نقص وحثت نفسها وبسطت سلطانها بالمدرسة والثكنة . وجعل اليوم المعمل بدل الثكنة ولا يزال الالماني كما كان قبل الحرب الا قليلا يعيش موسعا عليه وياكل كثيرا ويثوى الى مسكن حسن للغاية والعامل فيهم يكتسب أحسن من ثياب صاحب الاملاك في الأمم الاخرى ويستحم على الأقل مرة في الاسبوع . ومن المدن مانعطي لاعضاء بلدياتها رواتب الوزراء . وفي كل محل ترى صناديق الضمانات تعمل عملها مع المرضى والزمنى والشيوخ كما تشاهد ملاجئ للناقمين وعشرات من المعاهد تشبهها . وليس في الطرق شحاذون والفقراء يؤخذ بأيديهم ويعالون بعض الشيء أو يستخدمون . ومن الناس في المانيا من يبتاعون أحيانا بعض رة هيتهم بالدين ولكثير من البيوت أناث حسن لم يؤد أهله ثمنه . وكثير من مدنها كانت تقترض ملايين لتنشئ بها دور تمثيل وتنصب في ساحاتها التماثيل والنصب فالالمانى يستمتع بالحياة وربما تعجل الرفاهية

ولقد وضعت الحكومة يدها في المانيا بعد الحرب على المساكن الفارغة في المدن فصارت لا تكرهها إلا لمن كان له عيال تؤثرهم على غيرهم من العزب فحملت بذلك الناس على الزواج من طرف خفى ثم لما امتلأت الدور في بعض المدن أعلنت أنها لا تتعهد بعد الآن بمسكن لصاحب أسرة يتطلبه منها فأخذ الفتيان في بعض الامارات ولا سيما في بافاريا يتزوجون في الثامنة عشرة من عمرهم حتى يولد لهم ويسدوا نقص الامة ويستعيضوا عن فقدت من أبنائها في الحرب وبذلك أصبحت المانيا تزيد في السنة نحو مليون نسمة وناهيك بهذه الزيادة بعد عشرين أو ثلاثين سنة . وكل من يصلح للعمل في المعمل أو في الحقل ينال رزقه في الحال

ولذلك قل- أن ترى في المانيا عطلا من عمل أو رجلا ضاقت عليه أوجه الحيل لاستحصال معاشه .

كانت الهجرة قبل الحرب كثيرة من ألمانيا الى أميركا وغيرها وزيادة المواليد على الوفيات كانت تسد الخلل وما زال بضعة ملايين من الالمان في شمالي أميركا محتفظين الا قليلا بلغتهم ومشخصاتهم ولهم هناك جرائدهم ومدارسهم . ولا ألمانيا منذ القديم معرفة باستعمار الارض وتكثير النسل حتى أعطى ملوك بروسيا أراضي اربعمائة الف مهاجر فرنساوي وسالشبورغي وسوسنياني ممن كانوا يغادرون أرضهم هرباً من الاضطهاد الديني في بلادهم الاصلية فأسكنوهم في البلاد القليلة السكان في بروسيا الشرقية فأصبحوا الماناً مع الزمن واليوم ترى حكام المانيا يحاولون ارجاع قسم من سكان المدن الى الارياف والارباض ليتوفروا على الزراعة ولا يحملوا المدن فوق طاقتها

من كان ينزل المانيا قبل الحرب الاخيرة لم ير غير جند يتنقل ، وضباطاً تنزل وترحل ، كأن البلاد في حالة حرب فلما ثارت الحرب العامة وغلب ذاك الجيش الالمانى العجيب بتدريبه وقوته على ما شهد له بذلك خصومه أصبحت لا ترى للجندي تلك الروح التي بثتها بروسيا في ست وعشرين أمارة المانية ضمتهما الى صدرها وجعلتها بعد حرب السبعين الفرنسية الا المانية مملكة متحدة الاجزاء قوية الدعائم . بل قد عادت تلك القوة الى الكمون فقد أوقفت المانيا بعد الحرب معاملة السلاح والتدمير والاساطيل البحرية والهوائية وقلبتها معاملة صناعية وارتقاء الصناعة الالمانية كان علة الحرب أو احدى عللها . وكيف تترك انكسرت الاولوية في الصنائع لالمانيا كما كانت لها الاولوية بجيوشها البرية وكاد يكون لها التقدم في البحرية لو طال السلم بضع سنين أخرى ولم تنشب تلك الحرب الضروس . والتربية كما قال ميلتون لاتعد صالحة الا متى جملت المرء كفوّاً لجميع أعمال السلم والحرب

قال غوستاف لوبون : ما من ينكر على الالمان ذوقهم في العمل وثباتهم وفكرهم

في النظام ووضع الخطط اللازمة له ولا سيما في الأحمال المشتركة . وقال بلغ من ارتقاء الألمان في النشوء الصناعي الحديث ان برزوا في قليل من الزمن من مستوى منحط في الجملة الى أول درجات المدنية . وقال أيضاً : استخدمت انكلترا الحرب لتوسع مملكتها الى أقصى ما يتصور من العظمة وتملى على الشعوب الضعيفة ارادتها وتستبدل في أوروبا فضل تصدرها بتصدر الألمان . وقال أيضاً : لا يروق انكلترا أن ترى في قارة أوروبا دولة قوية تهددها فقد كانت سنة ١٨١٥ هذه الدولة دولة فرنسا وعلى رأسها نابليون وفي سنة ١٩١٥ كانت تلك الدولة ألمانيا وعلى رأسها غليوم .

نشأت الروح البروسية من أربعة عوامل أساسية : « الثكنة » و « المدرسة » و « تأثيرات الفلاسفة » و « حكمة المؤرخين » . عوامل رئيسة عملت عملها عدة أجيال فأنت بتأثيرات مهمة يصعب معها نزع فكرة التسليح من نفوس الألمان بعد أن أصبحت عقيدة ثابتة فيهم حتى قال لوبون : ان الألمان لا يعدلون عن هذه العقيدة عقيدة حمل السلاح أو ينزع المسلمون عن الاسلام . وليس في تاريخ العالم شيء من المعتقدات نزع من نفوس معتقديها بقوة السلاح ولا بالبرهان العقلي فان الألمان ينسبون جزءاً من تفوقهم الاقتصادي الى التسليح . يقول « لايبنز » الفيلسوف الألماني : يتأني بالتربية تغيير ذهنية شعب في أقل من قرن . وهذا الحكم لا يصح في الشعوب التي ثبتت تراكيبها وكان لها ماض طويل فان روح عنصر تمثل شيئاً من معنى البقاء والديمومة وفي التربية تتوجه ملكة الأمة الى معنى معين ولكنها لا تتبدل .

بعد حرب الثلاثين سنة نزل سكان ألمانيا الى النصف وبحروب نابليون بهزت الديون عاتق المدن قرناً من الزمن وأفلس ألوف من البيوت الكبيرة وكان العروسان بعد واقعة بينا يجعلان في يديهما خاتمين من حديد بدل الذهب علامة الخطبة وقد نقشا عليه : أعطيت الذهب لأحصل على الحديد .

قلنا ان أول قوة من قوى ألمانيا الحديثة قوة المدرسة فقد كان فيها بحسب احصاء سنة ١٩٠٦ - ١٩٨ ر ٦١ مدرسة ابتدائية فيها ٣٥٨ ر ٧٧٩ ر ٩ تلميذاً ولها الآن احدى وعشرون جامعة لا يقل تلامذتها عن ٦٥ ألفاً هذا عدا المدارس الوسطى والصناعية والزراعية والمدارس الفنية العالية ومدارس العميان والزمي والمعتوهين والصم والبكم والمصابين بالصرع ومدارس الليل للبالغين وغيرها مما يدعو الى تعليم وتربية . وتقسم المدارس في ألمانيا طبقتي مدارس التريية والمدارس الخاصة أو الصناعية ويدخل في الأولى المدارس الابتدائية والوسطى للذكور والأناث وهي ثلاث درجات مدارس القرى (من الصف الأول الى الرابع) ومدارس المدن من سبعة الى ثمانية صفوف والمدارس الوسطى في المدن الكبرى مع تعليم لغة أجنبية (٩ صفوف) . والمدارس الثانوية هي مدارس الذكور ذات تسعة صفوف وأربع لغات أجنبية ومدارس الأناث مع أربع لغات أجنبية ومدارس أخرى ذات تسعة صفوف ومنها ما يدرس ثلاث لغات أجنبية ومنها لغتين والمدارس المنظمة على طريقة فرنكفورت والمدارس الثانوية للبنات مع لغتين أجنبيتين وهي ذات تسعة أو عشرة صفوف هذا ما عدا المدارس الصناعية وما عدا مدارس المعلمين والمعلمات التي تناهز ٣٠٠ مدرسة عالية ووسطى ولا يقل تلامذة المدارس الدنيا والوسطى والعليا على اختلاف فروعها وأسمائها عن عشرة ملايين وناهيك بذلك من قوة لامثيل لها في المغرب اللهم الا في الولايات المتحدة .

بدأت ألمانيا ^(١) في أوائل القرن التاسع عشر بقيام الفيلسوف فيختي وهيجل لاصلاح التعليم وما أنشأه من الأوضاع العلمية التي حملت الحكومة على تولى ادارة التعليم بدل الكنيسة وأخذها على طاقها تنسيقه ومراقبته ونشره على اختلاف درجاته ورأت الامة من واجبها أن تحمي المساكين والضعفاء خاصة وتدفع عنهم عوادي الهلاك وأسواء الفساد الادبي ونمد اليهم أيدي المعونة في الازمات وتقيم مقعداتهم المعجز والزمانة فكان نجاح التعليم العام وتنظيم التضامن الاجتماعي

أول ما بذلت الحكومة الألمانية عنايتها به فبعد أن كانت المدارس اللاتينية والكليات تخرج في القرون السالفة رهباناً ولاهوتيين نزعت عن التعليم صبغته الدينية فأصبحت مجامع علمية لا يتصدر فيها اللاهوتيون ولا الفلاسفة واللغويون كما كانوا أوائل القرن الماضي بل تصدر فيها رجال العلم والأطباء . ثم نزع التعليم من يد الكنيسة بتحريض بستاووزي أحد كبار علماء التربية فيهم (١٧٤٦-١٨٢٦) وأخذت تلقى في نفوس التلاميذ الاعتماد على النفس وحب العمل وتبث فيهم القول بحب الذات أو بالشخصية الحرة المستقلة وأخذت المدارس تشرب طلبتها بحبة الوطن كانه دين ثان وذلك بفضل العناية التي صرفت لتعليم اللغة الألمانية ولا يزال للكنيسة الى اليوم تأثير مهم في ألمانيا ولا سيما في دائرة التعليم الابتدائي والظاهر ان ألمانيا لا تنوي الآن نزع النصرانية من المدرسة حتى ان أرباب الافكار الحرة وهم بعيدون عن كل معتقد لا يرون بان نزع الصبغة الدينية من التعليم في ألمانيا هو من الممكن أو مما يرغب فيه وهم معتقدون بأنه متى أصبحت المدرسة «كافرة» لا دين لها يحول قسم وافر من سكان البلاد ولا سيما الكاثوليك وجوهم عن المدارس العامة وينظمون لابنائهم مدارس خاصة لتعليمهم الدين الذي يرونه ضرورياً لهم .

زالت الحواجز التي كانت تحول دون أصناف التعليم وبطل اعتبار اللغة اللاتينية لغة إجبارية لكل من أراد التهذيب العالي وانتزع من المدرسة المدنية على التدريج ما كان لها سابقا من صبغة مدرسة لاتينية وغدا التعليم على اختلاف درجاته أكثر تشبعاً بالروح الادبية أو الفلسفية وأقل تمسكاً بالنظريات وقامت بجانب المدرسة الادبية مدارس أحدث من مدارس الفلسفة الحقيقية والحسية وزادت العناية بتعليم العلوم واللغات الحية فكانت وافية بحاجات أهل المدن الصناعية أو التجارية ونشأت بالقرب من الكليات في كل مكان مجامع علمية مازالت على ارتقاء ونماء ، وقد جرى بين الناس مجرى المثل قولهم بأن المعلم الألماني كان هو الظاهر الحقيقي في معركتي سادونا وسيدان وأن غلبة ألمانيا

أنتها في الحقيقة من سر تقدمها في مضمار العلم والتهديب . ولئن قالت فئة من العارفين بأن المانيا بالغت واكثرت في نشر العلم فإن أهل الاعتدال منهم مازالوا موقنين على الجملة بأنه لا تحرز المسكنة العليا في إيجاد العالم نحو التفوق والسلطة الا الامم التي تحسن أن تضمن لفتيانها تعليماً متيناً وتهذيباً راسخاً بما تنظمه من المدارس المتقنة وما تكونه من البيوت الناجحة في شئونها الاقتصادية والسالمة من شوائب مفسد الاخلاق

يرى العارفون أن تأويل الارتقاء الذي فازت به المانيا أتى من اسراعها قبل جميع الامم في وضع قانون التعليم الاجباري ومن عنايتها بتخريج أساتذة عارفين ما أمكن في جميع فروع التلميم . وبالتعليم فتحت العقول واستوت (المقتبس م ٢ ص ٤٠٤) لقبول الافكار الحديثة فرق شعور الافراد ومرت قواهم وامتد ذكاؤهم وقويت عقولهم وقل الاختلاف بين الطبقة العالية والطبقات النازلة في المجتمع وذلك في الامور الذهنية فقط فخرج عاميهم من غفلته وتغفله وصقل ذكاؤه ورق احساسه وبدأ يفكر في غير الضروريات المادية في حياته اليومية واتسع أمامه ميدان النظر وامتد أفق الغايات السامية واهتم بالاطلاع على ما يحدث في العالم وقد زادت بارتقاء المانيا في صناعاتها وتحسين زراعتها ورفاهية الامة وحسنت الاخلاق وسعدت الحياة وأصبحت داخلية المدن الى اللطف والذوق يتوفر فيها الزخرف والبهرج والنظافة المفرطة يلبس العملة منهم أجمل الثياب وأنظفها ويسكنون في أبنية جديدة ويعيشون مرفهين بالجملة . وانتشرت الديمقراطية في المدن أسرع من القرى حيث يهتم السكان للزراعة والقيام على الماشية وساكن المدن أكثر علماً وحركة وحضارة . والفلاح في العادة من المحافظين وعامل المدن ديمقراطي

هذه نتف من حال العلم والعمل في المانيا والفضل الاول في تسلسل العلم في أبنائها جيلاً بعد جيل لما منحه امراء البيت المالك في ساكس للآداب من أشرف أنواع المعونة والاستقلال منذ عهد الاصلاح الديني ولا حرج اذا قلنا أن ليس

في بلد في الارض انتشر فيها التعليم كما انتشر في ساكس وشمالى المانيا فهناك نشأ المذهب البرتستانى وحرية البحث والنظر منذ ذاك العهد بشدة . قالت مدام دى ستايل هذا وأوردت أمثلة على انتشار العلم في عهدهما في تلك البلاد يدهش لها سامعها وقالت ان الكتب منتشرة بحيث أن الحجار بل جميع طبقات العملة اذا أحبوا الراحة تجدد كتبهم بأيديهم يطالعونه وان ليس من مدينة مهما صغرت الا ولها خزانة كتب مسجلة على المطالعة وفي كل مكان رجال عظام يرغب في محادثتهم للاستفادة منهم .

وقالت : ليس للآداب الالمانية ما جرت العادة بأن يدعى بالعصر الذهبى أى القرن الذى كانت فيه الآداب مرتبة بارتقائها لحماية زعماء الامة فان ليون العاشر فى ايطاليا ولويس الرابع عشر فى فرنسا وفى القرون القديمة بركليس وأغسطس قد أطلقا اسميهما على عصريهما ولك أن تعد عهد الملكة حنه أزهر عصور الآداب الانكليزية ولكن هذه الامة الالمانية التى تقوم بنفسها ما كانت قط مدينة لملوكها برجالها الاعظم .

مدارس المانيا

١١٥

قال أحد علماء الفرنسيين للعلم العملى عند الالمان شدة وتقوذ لا تجد مثلها فى أمة من الامم فان جميع طبقات المجتمع يشتركون فيه من الوزير الى صاحب الحانة ومن الصيرفى الجهمذ الى غلام المقهى . وقال آخرا ن نجاح المانيا الصناعى من العجائب . وقال أحدهم الالمان كجيش منظم فيه من كل أصناف العاملين فالجندي جندي والضابط ضابط والقائد قائد والطاهى طاه ولا من ينازع الآخر فى عمله أو يتناول الى بلوغ مداه . وقال غيره : لا جدال فى أذ المانيا بلد

تعمل فيه الآلات المطابعة في المطابع العلمية عملاً كثيراً . وذكر أحدهم ^(١) ان السائح الذي يجتاز المانيا يدهش في العادة من أنه لا يرى بيتاً قائماً وحده في الاراضي الزراعية بل ان جميع المساكن في الحقول منضمة بعضها الى بعض بحيث يتألف منها أحياناً مدن وهذا مما يدل على فكر الاشتراك المتأصل في العنصر الجرمانى الذى يستغربه حال شخص يريد الابتعاد عن أخيه . وهناك شيء آخر وهو أن معظم حكومات المانيا تحظر انشاء المساكن بعيدة عن مراكز القرى حتى لا يحرم الاولاد من الاختلاف الى المدرسة في الايام الممطرة العاصفة ويسأل الوالدان عن تأخر ولدهما اذا تخلف عن المدرسة فاذا تخلف أحدهم يجب على اقربائه أن يبينوا معدته والا فيجازون أشد الجزاء . وعلى رؤساء المعامل الذين يستخدمون في الخلاء عملة أو موظفين أن يضمنوا لاولادهم حملهم كل يوم الى مدرسة القرية القريبة واذا كثر العمالة في بقعة بعيدة تؤسس في الحال مدرسة عامة وتكون في العادة باعانة من صاحب المعمل . وكان من أثر هذه العناية أن قل عدد الاميين في المانيا بحيث لا تجد واحداً في الالف على أنهم لم يكتفوا بتعليم المبادئ فقط بل انك لا تدخل قرية ولا معملاً ولا بيتاً الا وتجد الجرائد والكتب في الايدي تتلى ويستفاد منها بين جميع الطبقات .

للتعليم الابتدائى والاولسط في المانيا ميزتان لا نظير لهما في سائر الممالك وهى أنه لا يبعد المتعلم عن العيشة البيتية بين ذويه فيفضلون طريقة المدارس الخارجية على الداخلية أى أن يتعلم التلميذ في المدرسة في النهار ويحجى في الليل يبيت في دار أبيه وهذا التعليم سلم للتعليم الصناعى الذى تختلف درجاته وتراه نظرياً وعملياً في آن واحد . هذا الى ما هناك من دروس الاشياء والمجاميع النفيسة التى تراها في المدارس الالمانية والتعليم بالنظر وبالذهن والعمل والزهات المفيدة وغير ذلك من أنواع التربية . وما من المانى الا ويتعلم شيئاً من التعليم الصناعى ففي هذه البلاد التى يكاد الناس كلهم يعملون قد وقع في النفوس أنه لا يجوز

(١) من مقالة لاحد رجال الفرنسيس في كتاب المانيا العامة عرباها لجملة المقتبس ج ٥ ص ١٥٥

لأحد أن يتعاطى صناعة من الصنائع المقررة قبل أن يتعلمها بالنظر والعمل . وهذا ما أدى الى انشاء كثير من المعاهد الملكية والامبراطورية والبلدية والخصوصية تقصدها الامة فتستقى من مواردها قوتها المنتجة والعقلية .

وأعظم هذه المعاهد وأقدمها وأشهرها جامعاتها وعددها احدى وعشرون جامعة . وكانت كل أمانة من الامارات الالمانية فيما مضى تحاول أن تكون لها جامعة فاقدها جامعة هايدلبرغ أنشئت سنة ١٣٨٦ وأحدثها كلية فرانكفورت أسست سنة ١٩١٣ . وقدم الجامعة عنوان شرف لها . ومن أشهر جامعات المانيا جامعة ليبسيك أنشئت سنة ١٤٠٩ وهي تفاخر بان من جملة أساتذتها الفيلسوف لايبز ومن جملة طلابها كيتي الشاعر وفا كتر الموسيقار . وكل جامعة تنقسم الى شعب أربع وهي الالهيات (على المذهب البرتستانى والكاثوليكي) والحقوق والطب والفلسفة وهذه أربعة فروع (١) الفلسفة المجردة وعلم التربة والمنطق (ب) علم اللغات والآداب (ج) التاريخ والجغرافيا وتاريخ الصنائع والموسيقى (د) السياسات وعلم الاقتصاد (هـ) الرياضيات والطبيعات (وهي الرياضيات وعلم الفلك والحكمة الطبيعية والكيمياء والحيوان والنبات وطبقات الارض) وهاك أسماء هذه الجامعات وتاريخ تأسيسها : برلين ١٨٠٩ مونيخ ١٤٧٢ ليبسيك ١٤٠٩ بون ١٨١٨ هاله ١٥٠٢ برسلاو ١٧٠٢ فرايبورغ ١٤٥٧ غوتنغن ١٧٣٧ مونستر ١٧٧١ هايدلبرغ ١٣٨٦ ماربورغ ١٥٢٧ توبنغن ١٤٧٧ بينا ١٥٥٨ كنغبرغ ١٥٤٤ كيل ١٦٦٥ ورتسبورغ ١٤٠٢ كيش ١٦٠٧ أرلانكن ١٧٤٣ كرابفسوالد ١٤٥٦ رويشتون ١٤١٩ فرانكفورت ١٩١٣

وهذه الكليات ^(١) مستقلة حرة ولكنها منظمة بنظام واحد . والجامعات مهما كانت وجهتها في تعليمها نظرية أو عملية لا تنافس في اعداد مهندسين وصناع والمباحث التي يستفيد منها أمثالهم يرونها في الجامعات الكياوية والعلوم الطبيعية في المدارس الصناعية هي التي يتخرج فيها أرباب الهندسة والصناعات وهذه

(١) الجامعات الالمانية في القرن العشرين لكروشته

المدارس تابعة لكل امانة تخرج كل سنة ثلاثة آلاف مهندس يدرسون فيها أربع سنين هذا عدا من يتخرجون من المدارس الثانوية الصناعية ويحجز لقب « دكتور » تلامذة المدارس الصناعية العالية كما يحجز المتخرجون في الجامعات. ولقب دكتور أشرف الألقاب وأعلاها في ألمانيا . والامان أحرص الأئم على لقب دكتور حتى أنك اذا لم تطلق هذا اللقب الشريف على من ناله عد ذلك منك سخرية وفي ذلك دليل كبير على ميل هذا الشعب للعلم والتلقب بألقابه .

وفي هذه المدارس يتجلى ميل الألمان للأخصاء فيعلمون ما يعلمه غيرهم من الأئم فرداً واحداً خمسة أفراد قائلين ان الدهن لا يتسع لا كثار المواد عليه . والألمان لا يحرصون على تعليم الهندسة لأذكي أذكياهم بل يريدون أن يجعلوها قريبة المنال من كل أحد وهم يستعملون كل الطرق التي يرونها نافعة لئلا يتعبوا الفكر على غير طائل باغراقه مدة ساعات في حل قضية ولذلك ترى الأساتذة يأخذون تلامذتهم الى معامل خاصة ليطلعوهم بالعمل على ما ينبغي لهم الاطلاع عليه من الآلات والأدوات . وكل معامل المدرسة وغرفها وحجر كتبها وصفوفها منارة بالكهرباء أو بالغاز على صورة لا تضر بصحة العيون حتى انه ليقل جداً عدد الحسر في الألمان لشدة العناية بالعيون . وهكذا لا تمر بقرية ولا قصبة ولا مدينة ولا عاصمة في ألمانيا الا وتجد فيها مدارس صناعية كبيرة وصغيرة على تقفة الحكومة أو البلديات تعلم الصناعات المختلفة . ومن هذه المدارس ما هو أشبه بقصور الملوك منه بالمدارس لما حوى من المرافق والردهات والاروقة والساحات والأدوات .

من السكليات نشأت الانقلابات الكبرى في الفلسفة والدين والعلم (المقتبس م ٦ ص ١٣٧) ومنها نشأت الوحدة الألمانية وكان الألمان الى ذاك العهد أمة فكر وشعر يقولون في أنفسهم انهم تركوا البر لجاراتهم فرنسا تتصرف فيه على

ما نشاء والبحر لانكثرا تسرح فيه وتمرح ولم يبق لهم الا الاحتفاظ بالسما
منزل العقل . والوحدة السياسية التي كان يراها بعضهم من الخيال قد تحققت من
طريق العلم والعمل بفضل الجامعات التي كانت مركز الحياة الوطنية . والغاية من
هذه الجامعات أن لا تخرج علماء صرفاً ولا رجال صناعات ممتازين بل ان تهذب
طلابها تهذيباً يتيسر لهم معه أن يستعدوا لدخول المجتمع والتصدر فيه فليست
الغاية اذاً أن تخرج تلك الكليات أساتذة وحكاماً ورجال دين للحكومة ولا أن
تعد محامين وأطباء للأمة بل أن تعلمهم تعليماً عملياً وتلقنهم الخطة التي يجب عليهم
أن يسيروا عليها وتقفهم على أساليب البحث والنقد وتقوى فيهم ملكة أخلاق
العلماء كالعفة وخلو الغرض وسعة الفكر وتلقنهم شيئاً من العلوم المساعدة وأن
يطلقوا رائد الطرف اجمالاً في الميدان الذي يجب عليهم أن يجروا فيه وبالجملة
تؤهلهم الى أن يتموا هم بأنفسهم ما بدأ به أسلافهم .

يتعلم الطالب المتخرج في جامعة المانية ماهو العلم اذا اقترن بعلم خاص . فلا
يكتفى بشهادة ينالها فيحق له بها أن يقضى أو يشفى أو يعلم أو يلحق الدين لمواطنيه
بل ينبغي له أن يتمرن سنة في الفرع الذي يريد الاختصاص فيه ثم يقدم خصماً
بعد أن تكون المدرسة قد أعدته للنظر الاجمالي في الحياة العلمية . ولرجال الدين
والاساتذة والمحامين والقضاة والموظفين والاطباء في المانيا الذين ينشأون من
الجامعات طبقة خاصة ومنزلة سامية بين قومهم لا ينالها الا الضباط ولكن الصيارف
والتجار وأرباب الصناعات والاملاك مها بلغوا من الغنى والذكاء وخدموا
المصلحة العامة هم بمنزلة دون أولئك الذين تخرجوا باساتيد الجامعات . وتناغى
القوم في الاعمال الحرة لقن طبقات الامة الالمانية ان أرباب الصناعات والتجارات
وهم من طلاب المال والغنى لا يعيشون مها بلغوا من الذكاء الا للثروة ولذلك
تكون منزلتهم في الانظار دون منزلة العاملين بأفكارهم وعقولهم

تضمن الجامعة الالمانية للطالب فيها تهذيب العقل من جهة وتربية الارادة
والخلق من جهة أخرى وذلك باطلاقها حرية الطالب فيها فتعامله معاملة رجل حر

عاقِل له حق التصرف بأمواله ولسان حالها يقول : « اعمل ما يروقك واعلم فقط انك ستجنى مازرعت » وفي الاناشيد الالمانية شيء كثير يشير الى أن حرية الطالب آمن شيء وانها من أوصافه الخاصة به . فالغنى لا يحضر دروس الجامعة للحصول على معارف تنفعه لاحتراف حرفة في المستقبل وما هذا الطلب الا ثانوي بل ان الغاية التي يسعى وراءها في سنيه الثلاث في الجامعة هو ان يصبح رجلا وتكون له شخصية . يعينه على ذلك أساتذته وأترابه . ومن هنا نشأت فائدة جمعيات الطلبة لان الطالب يتعلم فيها أمرين مهمين الطاعة واحترام الناس له . والطلبة المتقدمون يطبعون على ذلك الطلبة المتأخرين أو المحدثين بمحافظتهم على قواعد لم يسنونها فينبعث في الطالب شعور الشرف وعزة النفس في الحياة المشتركة وتقوى ارادته على الصدمات فهو اذا خلص من سلطته في منزله بين أبويه يكون لتلك الجمعيات عليه شيء من السلطة الادبية فبالجامعة لا يصبح رجلا عالما ومهذباً فقط بل صاحب أخلاق . قال أحد العارفين أن الجامعات الفرنسية تنقصها الحرية والجامعات الانكليزية ينقصها العلم وفي الجامعات الالمانية لا ينقص هذا ولا ذاك

قالت مدام دي ستايل : ان بلاد المانيا التي ارتقى فيها البحث والنظر ارتقاء بعيداً يسوغ أن تعد وطن الفكر ومن المحال أن لا يكون كتاب الالمان وهم أكثر كتاب اوربا علماً ونظراً مستحقين ساعة من العناية للبحث في آدابهم وفلسفتهم . وذكرت أن العلماء كانوا يشتغلون في عهدا ثلاث عشرة ساعة في بعض بلاد المانيا على أسلوب ونظام وتساءلت عن النتيجة التي يحصلون عليها في بضع سنين . وقالت : امتلاً شمالي المانيا بجامعات هي أكثر كليات اوربا علماً وما من بلد حتى ولا انسكلترا توفرت فيه أساليب التعلم وتهذيب القوى مثلها هناك والجامعات البرتستانقية أرقى من الجامعات الكاثوليكية وجميع المجد الادبي الذي اختصت به المانيا يرجع الى هذه المعاهد . وقال أحد كتاب الفرنسيين أن تربية الجامعات الالمانية تبتدى حيث تنتهى تربية عدة أمم في اوربا

قام مجد المانيا قديماً بمن نبغ فيها من الفلاسفة ثم بمن نبغ فيها من القواد والجند ومجدها اليوم مناط الاقليلابارباب الصناعة والتجارة من أبنائها .
حاجة المدنية الحديثة ماسة للاخصاء في العلوم والتفرد في الصناعات والمانيا لاتجهل أن قوتها في جهاد الامم السلمي بمن لديها من الاخصائيين الكثيرين الذين لانظير لهم عند الامم الاخرى بكثرتهم وتنوعهم . فقد كان كيتي يرى ضرورة الاختصاص الذي به فقط يصبح المرء عضواً نافعاً في المجتمع فان حسن المعرفة واحسان عمل شيء واحد يورث ارتقاء كبيراً أكثر من أن يعمل المرء نصف عمل ويشغل نفسه في مئة مسألة . وان أول واجب على الانسان أن يتعلم صناعة واحدة تعليماً حسناً فالتوسطون بذكائهم يكون منهم أرباب صنائع وأرباب الذكاء الواسع يصبحون رجال التفنن حتى أن النابغة نفسه يرى في الشيء الوحيد الذي يحسن القيام به رمزاً لكل ما يعمل حسناً وإشارة لكل جهاد نافع ومثمر أن ألمانيا تفاخر وحق لها الفخر بأنها موطن كبار الفلاسفة أمثال « كانت » و « ليسنغ » و « ليبز » و « شوبنهاور » و « فيختي » ومن الشعراء « كيتي » و « شيلر » وأن من ربوعها قام الاصلاح الديني فقلب لوتيروس بدعوته الغرب كل مقلب وأنها وطن « ورتمبرغ » مخترع الطباعة أول محسن للمدنية

أفكار و الامانة

١١٦

عرفت من أخلاق الالمان في الحرب الاخيرة كما عرف كثيرون غيري من الاتراك والعرب ييوسة في الطباع لم تعرف في أخلاق النمساويين والمجريين مثلاً وذلك لان معظم من وردوا على بلادنا لذاك العهد كانوا ضباطاً والجند أشداء الشكيمة صعب مراسهم ، وأهل بروسيا من بين الالمان خاصة يشتكى من شدتهم

حتى المتحدون معهم أمثال أهل بافاريا . ولعل لاختلاف المذهب دخلا في هذا
الاشتمال لان بروسيا رنستانتية وبافاريا كاثوليكية أو لان بروسيا هي التي
سيطرت على المانيا ووحدت كلمتها . وكيف كان الحال فالام الاوربية لا يصح
عليها الحكم خارج بلادها بل يحكم عليها بما ترى عليه في أرضها وعقر دارها
قالت مدام دي ستايل : يجب على من أراد أن يعرف بروسيا أن يدرس
سيرة مؤسسها فريدريك الثاني الذي كان يجمع الى خشونة الجندي رقة المدني
ويعمزج روح الجندي بالعدل المدني وكان من القيد في محل الحرية في آخر
بحيث يعجب به كل من يقرأ سيرته ويرى آثاره في أمته . كان فيلسوفا تخرج
بفلسفة القرن الثامن عشر الفرنسية فعدلت فيه الاستبداد الذي فطر عليه
الحاكم المطلق . وكان لا يشق عليه أن يسمع كلمة سوء توجه اليه فيترك الناس
وحريتهم يقولون فيه ما يشتهون . وكان هذا من غرائبه . وقد أعطى الحاكم
حريتها بحيث كانت تحكم على أقرب الناس إليه وكثيراً ما تحكم في مسائل
سياسية تخالف ارادة الملك ومن المتعذر ادخال الظلم الى محاكم المانيا . قالت
ان في الألمان بعض الاستعداد لاختراع أساليب تؤهلهم للتخلي عن السياسة
للاخذ بالعرف ولكن اذا كان يراد إحقاق حق أو ادارة مصلحة لا سبيل لأن
يدخل في عقولهم غير مبادئ العدل فان فكر النظام فيهم دع استقامة قلوبهم يطالب
بالعدل كأنه يدخل النظام في كل شيء .

وقالت أيضاً : الألمان هم بالأجمال مخلصون وصادقون وندران يرجعوا
عن أقوالهم والغش صنعة لا أثر لها عندهم وهي غريبة عنهم واذا حدث ان تسلل
الغش الى المانيا فذلك حسداً من أهلها للاجانب فيقتدون بأخلاقهم لكي يظهروا
مثلهم في الحذق وحتى لا يكونوا أنفسهم مغشوشين ولكن الشعور الحى وطيبة
القلب تؤدي في الحال بالالمان الى أن يشعروا بأن لا قوة الا ما جاء من طبيعة المرء
وان اعتياد الحشمة لا يجعل في الانسان استعداداً للاحتيال ولو أراد . واذا
شوهدت في الأمم اللاتينية سياسة غريبة في الحذق للتملص من جميع الواجبات

فالامة الالمانية ولها الفخر في ذلك ليس لها استعداد لهذه الليونة الجريئة التي تلين كل الحقائق لاجل المصلحة وتعبث بجميع المهود أمام كل النظريات . وما الالمان الا أمة عرفت بالقدرة على العمل وفطرت على حب النظر والفكر وهما خاصيتان ملازمتان لها

وقال جناب شهاب الدين : ما من صنف من الناس يمتدح الصنف الآخر في ألمانيا بل جميع الطبقات متساندة ويحاول الالمان أن ينظروا الى أصحابهم وأعدائهم على نسبة حقيقية ويعرفون أعداؤهم معرفتهم لأصحابهم ولا ينظرون الى أحد بمجهر الشعر والحس كأن يعطوا أصدقاءهم درجة تفوق استحقاقهم ويضعوا أعداءهم الى دركة هي دون مرتبتهم الحقيقية فكما يقيس الالمانى أخاه ويفصله وزنه ويعاينه ويحلله هكذا يعمل مع غير الالمان .

وقال لشتنبرجه : للالمان مرونة في الفكر تسهل عليهم ادراك ما تنتجه قرائح الاجانب وعدم محاباة فطرية تهيئهم لهم بقية الشعوب والحكم عليهم بأسلوب شامل ونظام عام ينظر فيه الى الكفاآت والهبآت . وقال أيضاً : الالمان يعجبون وحق لهم العجب بما اتصفوا به من الجد والثبات والاستقامة في العمل والنظام والترتيب خاصة .

وقالت مدام دي ستايل أيضاً : للالمان في الآداب عناية بالغة بما يأتي عن طريق الاجانب كما لهم عناية بسياستهم وقليل من الأوهام الوطنية . ان من الصفات الحسنة في المرء انكار ذاته واعتبار الآخرين ولكن وطنية الأم يجب أن تكون الى حب الذات والانانية . ان إعجاب الانكليز بأنفسهم قد كان له شأن عظيم في قيام جامعتهم السياسية ولطالما كان حسن ظن الفرنسيين بأنفسهم العامل النافع في نشر نفوذهم في أوربا . والكبر الشريف الذي عرف به الاسبانيون قد جعل منهم فيما مضى ملوكا على جزء من العالم .

ان الحس في الالمان — على ما قاله فوليه — كالحس في الانكليز من نوع البلغمي الحاد النصف دموى وهو بطيء التأثير . فالشعور والإدراك في الالمان

قليل مضاًؤهما ورقتهما . فكما أن التأثيرات تطول انارتها في الجملة تجدها اذا هاجت الى الشدة والدوام فاحساسهم بطيء واضطرابهم شديد وهذا معدل ما يحكم به عليهم . والادراك الجرمانى مزيج من الحقيقة والخيال فتجد فيه ميلاً شديداً الى الماديات مثل حبه لرخاء العيش وامبالا خيالية يكون منها القنوط وجمع الفكر والفناء . ان للطبيعة والمناخ تأثيراً فى ادراك الشعوب يدعوهم الى السرور أو الاتقباض والالمانى متقلب من نفسه يستغرق ساعات فى السرر القليل الغلظة وله ساعات من السويداء وكثيراً ما يكون متشائماً لا متفائلاً وليس فى فطرته اجمالاً ان الطبيعة صالحة والمرء طيب فيحذر ويراقب ويتهم غيره وتفسه ويرى الجهة السوداء فى الاشياء والطبيعة الابليسية فى الانسان

الالمانى متشبع بفكرة الخطيئة الاصلية وبضعفنا الطبيعى عن بلوغ الخلاص والسلامة وهو على شىء من الخشونة فيه استعداد للرحمة ولا يشعر بحاجة الى الاجتماع كما هو الحال فى الافرنسى بل يكتفى بنفسه مخاراً ولا يجد فيه باعثاً جوهرياً على أن يبوح بذات نفسه ويث عاطفته وله غرام تكنه جوانحه لا على طريقة سكان الجنوب الصفر او بين العصبيين بأمزجتهم وهو محصور فى بعض أفكار فى الحب أو البغض وفى دائرة خاصة من الطمع الشخصى . وعلى الجملة فان الالمانى يولع بعمل يعلق عليه بعض الشأن أو بعض المهمات التى تختلف مكانتها أو بعض المبادئ الاخلاقية والفلسفية والدينية والوطنية

الالمانى كالأفرنسى متحمس ولكن بغير طريقة هذا . الفرنساوى حاد يهيج ويطفح . أما الرأس الجرمانى فيحمى ويشتمل فى داخله يبطء ولكن بصورة متصلة فهو كنار لخم أرضى قد ينبعث منه دخان أحياناً لا كنار أغصان تلهب التهاباً شديداً بل كنار تبين أما الا ان كلزى فان الاحساس العملى قد نظم ادراكه تنظيمًا بحيث ترى حماسه فى شعره لا فى سلوكه . الالمانى يكتم حقه فهو حقود منتقم ويظهر مافى نفسه لمن يكرهه فهو يبغض البولونى والروسى واليهودى ويصرح ببغضه لهم اما ببغضه لعدوه الموروث أى الفرنساوى فادهى وامر

ذكاء الألمانى كاحساسه بطيء فى حركته ثابت مستقر وكثيراً ما يكون متناقلاً طارياً عن المرونة والرقّة ولا يهتم للاشكال والفروق بل يبدو متيناً مقاوماً ثابتاً حراً متعلقاً كل التعلق بأهداب الحق . الألمانى يعمل فيما اتجهت همته اليه بنشاط ليس وراءه غاية وبحث طويل فليس هو من أرباب البديهة بل ان فكره يدور ويرجع طويلاً فى أصعب المسائل . قال كيتى : ان الألمان يحبون أن يبينوا ما عملوا . وقال شيلر : ان الألمان لا يكذب بعضهم بعضاً أصلاً فمن العبث أن تقدم اليهم أطعمة جيدة فلكى يتناولوها بشهوة يودون أن يسألوا عن أسمائها . ويظهر انكماش الألمانى وبحثه المتصل البارد من ذوقه فى التوسع فى العلم ودرس اللغات . والألمانى كما قال روبرتسون تاجر بالجملة والمفرق فيما يختص بالعلم . وقال لايبز ان الخلق المتأصل فى الألمانى هو حب العمل وهى صفة ثمينة للعلم والفلسفة . ان حب البحث والاختراع والتركيب والبناء خاصة جوهرية فى العقل الجرمانى . وكمن الألمانى لو ان المولى مسك يمينه الحقيقة وبشماله البحث عنها لكان قال كما ذكر ليسنغ . يارب انى آثرت البحث ومفتاح الحقيقة بيدك وحدك .

ان رأساً منظماً كل التنظيم مضافاً الى مزاج رزق كمية صالحة من التأتى تنشأ منه حركة معتدلة فى مجرى الافكار تقوم منها الممثلات الخارجة والافكار المتتمة أمام الفكر . فالتفكر فى هذه الحالة يصبح طبيعة ثانية . ولقد اشتدت حياة التفكير فى الالمانى حتى انه ليقتنع بها أحياناً . وليس الالمانى بمن يكتفى بالبسائط بل يحب النظر فى القضية وتقيضها فقد كان بسمرك يقسم العالم الى قسمين مختصرين أحباب الامبراطورية الالمانية وأعداؤها . والالمانى أيضاً يحب الترتيب الى طبقات وبحب منها ما كان ملتبساً مشتبكاً . ويجب أن يصف أفكاره طبقات وعلى نظام بحسب المناسبات المجردة لا المعقولة ليتيسر له بعد ذلك أن ينظم أعماله على حسب مبادئه وهو فى العادة ينظر فى مبدئين أو ثلاثة فتراه لا يحب اختصار مساحة النظر بل يحب أن يرى أموراً كثيرة فى وقت واحد ونظره واسع مضطرب ويرتاح الى المتناقضات والمبهمات وأعماله تشعر بعمله وطول مراجعته الكثيرة للكتب فى الخزائن .

وأهم ما في الخلق الألماني الارادة وهي خلق جدير فيه بالاحترام . فان النشاط والدوؤب هما من الصفات الاولى فيه ومنها نشأ الصبر في احتمال المصاعب الملازمة للنجاح والمواظبة والتنظيم والتعلق بالواجب وكان من ذلك منشأ الشخصية التي عرف بها الجرمان والمصدر الاكيد لنشاطه الدائم . الألماني مزيج من قوتين احدها وحشية والثانية بنيت على الفكر والتأمل وفيه الشدة البربرية والتعليم الراقى وفيه حب الشهوات وحب العبادة والتصوف وحب القتال وحب الدين والصلابة المعقولة والشعور العقلي فهو من المولعين بالحقائق وبالخيالات في آن واحد أو كما قال نيتشه الفيلسوف الألماني : « ان للروح الالمانية معابر ومجازات وفيها مغاور ومخابى وخلوات ولها غرام بكل مجهول . الألماني يعرف الطرق السرية التي تؤدي الى الفضاء والخلاء فكما ان شبيه الشيء منجذب اليه هكذا الألماني يحب النعيم وكل ما هو قائم وجديد وفيه إظلام ورطوبة وغشاوة يرى آية في التحقيق ويتعلق بكل ما لم يبت شيء في حقيقته وهو في دور الجنين وعلى أهبة التأليف والنمو . وليس الألماني موجوداً بنفسه بل يوجد ولذلك كان الایجاد هو العمل الحقيقي في الألماني وكما له في الدائرة الكبرى للأفكار الفاسفية . »

الألماني شخصية مفضورة على الطاعة ومن لا يحترف حرفة ولا يعرف بلقب من الالقاب لا يعد فيهم شيئاً وفيه بعض جفاء حتى قال بسمرك يوماً اننا معاشر البروسيين لم نرزق قريحة تحببنا الى الخلق . وهم يحترمون كل الاحترام المعنى الداخلي في الامور وقلما يحفلون بالصور الخارجية وكثيراً ما نرى الألماني جلفاً فلا يصرف وقته في الباس ما يقتنع فيه شكلاً لطيفاً لانه لا يعلق مكانة مهمة على هذا الشكل وكثيراً ما أهمل الحرية السياسية لانه كان موقناً أن حرية فكره لم تمس . قال فوليه الذي لخصنا عنه ما تقدم : لا يعدم الألماني ملجأ على الدوام وأغنى به شخصيته .

سُؤال من مزارع المانيا

١١٧

بلغ من انتشار العلم في المانيا بين عامة الطبقات ان خصت الزراعة باديء بدء
بالعناية الكبرى وهاك ما كتبه هوره الكاتب الفرنسي في وصف مزرعة
أحد أشرف الفلاحين في سيليزيا من بلاد بروسيا ومنه تدرك أن أمة بلغ غرامها
هذا الحد كيف لا تغنى وتسعد قال ما ملخصه : قد يظن ظان أن أشرف الفلاحين
في المانيا هم دون أشرف المدن بمعارفهم ورقة شمائلهم ولطف مآتاهم والحقيقة
أنه لا ينقصهم شيء من ذلك . توفروا على استثمار مزارعهم فكانت زراعة المانيا
بهم وبفلاحها تأتي بمورد لا يقل عن أربعين في المئة من اللازم لعيش المانيا والباقي
تناله من صناعاتها . وثلاثة أرباع سكان المانيا يعيشون في المدن والثلث فقط
يعيش في الحقول وندر أن يكون الفلاح مالكا ولا سيما في المانيا الشمالية حيث
تكثر الاملاك الواسعة بيد شخص . هذا وثلث سكان فرنسا يعيشون في المدن
التي يربو سكانها على أربعة آلاف نسمة والثلثان الآخران يعيشان في الحقول
لان من الفلاحين أصحاب أراض .

وصلت الى المكان الذي واعدني اليه ذاك البارون لازور مزرعته فرأيت
في المحطة خادما ينتظرني وله عربة تساق على خط حديدي فأخذنا تقطع الحقول
والمروج حتى وصلنا الى منزله الذي جمع بين لطافة الحديث وجلال القديم وفي
وسطه برج قامت حواليه أربعة أبراج وسقف القصر من القرميد ومن كل جهة
سرادق ذو طبقتين لها نوافذ تشرف على الحديقة وهي من أجزاء المزرعة
والاشجار الضخمة تغطي بأغصانها وظلالها أبراج القصر وفي داخله ثلاث قاعات
احداها حوت الظرف الجديد الساذج وهناك غرفة المائدة فرشت بالخشب الابيض
ودهايز وأدراج مزينة بعظام الايائل وحر الوحش

انتهيت الى مكتب الشريف الربيعي فرأيت بجانبه آله الكاتبة وأوراقه في أضيائها وآلاته الهاتمة مربوطة مباشرة مع كل قطعة من ملكه وهناك مقويات فيها السندات والوصولات والمكاتبات والاحصاءات . وفي جانبها خزانة كتبه ومعظمها زراعي يبحث في عمران الارض وتربية الماشية واختيار السماد وقد طبع لوحات ذات عهد ليقيد فيها الحاصلات ونحوها وصفتها وأساليب زراعة الارض ووارداتها وغلة كل بيعة من الحبوب والحيوانات . فيكفيه أن يفتح سجلا يعرف بالدرهم ما صرفه على البذار والسماد وتنفقات الحرث والحصاد والدرس والتعشيب وثمان حاصلاته والربح الصافي من أرضه .

وهناك ميزان يزن فيه القمح والجاودار وفي جانبه آلة لقطع حبات الشعير والحكم على نوعها وآلة أخرى تشبه الانبيق يتحقق بها اذا كانت الأرض تحتوي القدر اللازم من الكلس وفي فناء الدار آلة للمطر وأخرى للحرارة يراد منها الوقوف على الجو والمقابلة بين اختلافاته ومعدل نزول الامطار التي سقطت خلال السنة مع الاشارات المشابهة لها في أنحاء أخرى ليري فيما اذا كانت هذه الاحداث الجوية متناسبة مع جودة المحصول . وفي جانبها لوحات كتب عليها يوماً فيوماً تبدل الحالات الجوية في ذاك المكان منذ سنين . واذ كانت المزرعة بعيدة عن المدينة كثيراً أقام البارون صاحبها في أحد أطرافها معملًا لتوليد الغاز لاضاءة قصره بالاسيتلين .

تتألف مزرعته من ٢٠٠٠ هكتار من الارض خاصة بزراعة الحبوب كالحنطة والقرطمان والجاودار والشعير والشوندر و ٨٠٠ هكتار غابات و ٥٠٠ هكتار مروج و ٥٠٠ هكتار بحيرات و ٥٠٠ هكتار بور أي أن مساحتها تربو على أربعة آلاف هكتار من حيث المجموع .

وبعد تناول الطعام والتنزه قليلا في أحد مماشى الحديقة الوارفة الظلال ركبنا عربة مع صاحب القصر فقال لي وهو باسم : ترى الآن اننا لا يلحقنا عار البطالة فان عملي منوع يشبه عمل وزير الدولة وادارة هذا الملك وحدها تحتاج الى عمل

متواصل فان تقارير المزارع المختلفة ترد على كل أسبوع فمنها ما فيه أن كمية كذا من البطاطا قد أرسلت الى معمل النشا ومنها أن كمية كذا من الشوندر تحتوي كذا من السكر ترسل غداً الى المعمل ومنها ان آلة حديثة للزراعة جرت تجربتها في أرضنا فبعثوا يبلغونني نتيجة تجاربها ويجب على النظر في حسابات الاستثمار والبحث في كل شيء فأكون تاجراً وزارعاً وصانعاً معاً لاني استخدم بنفسى بعض الغلات كالبطاطا مثلاً ومع هذا لا أستطيع أن أتولى كل عمل فلنا مفتشون كفاة لكل فرع من فروع الزراعة تعين الحكومة أو الولاية بعضهم وآخرون تدفع لهم تقابات أصحاب الاملاك رواتبهم وتدفع نحن مشاهرات بعضهم . وهكذا نجد غنى يفتشه موظف عهد اليه تفتيش القطعان في المملكة كلها وهو الذي يقدم لأصحاب الاملاك التيوس اللازمة للتناسل وتكون مختلفة بحسب جنس الغنم . ولى مفتش لغابات عينته غرفة الزراعة في الولاية وآخر للالبان التي تجمع من عامة اصطبلاى وحظائرى . وهذا التفتيش نافع للغاية وذلك أن لبن البقرة اذا لم يكن فيه سمن كاف يزداد في علفها وتراح . ومفتش السقى يبحث عن أقنية السقيا وعن المجارى الكبرى وعما اذا كان الزرع جيداً أو خرجت فيه الاعشاب الرديئة القاتلة له . وهناك مفتش يبحث عن الابقار وتناسلها وآخر عن الخيول المطهمة وصلنا الى حقول فيها أحجار من الحجب « كرانيت » فقال لى صاحبنا أنه لا يكتفى خمش الارض في الحرث بل ان السكة البخارية تخرج الى سطح الارض كل ما يتخللها من الاحجار التي تجمعها لنبلط بها الا ما كن اللازمة أما السباد فانه يغير كل سنة ماعدا البوتاس الذى يبقى سنتين وثلاثاً وانى أتفق في السنة من ٥٠ الى ٦٠ الف فرنك ثمن السباد الكيماوى والنشادر الذى نستعمله غال أيضاً وهناك انبسطت أمامنا حقول البقول المنوعة وأراني صاحبي عن بعد مزرعة صغيرة فقال : هذا نموذج المزارع العادية . مزرعة مساحتها السطحية ١٥٠ هكتاراً من جيد التربة زرعت كلها ولها غابة صغيرة على الراية وفي المنحدر يوت بعض الفلاحين وحقول الغلات والبطاطا والشوندر . ويعيش في جوار هذا المالك كما

يعيش في جوار معظم كبار المالكين أناس أحرار من صغار الفلاحين يملكون قطعاً صغيرة من الأرض يعيشون كما يعيش الفطر في ظل بلوطة ولا من ينقص عليهم عيشهم ومن يملك من عشرة الى عشرين هكتاراً من الأرض يشتغل لحسابه الخاص وتعينه أسرته ومن يملك هكتاراً أو اثنين يؤجر نفسه مياومة للسيد المالك العظيم ومن المزارع ما أثقلته الديون بحيث لا يوازي دخلها فائدة ديونها

أما الاشراف فلهم غرام بالأرض ومنهم من يستطيعون أن يستثمروا أموالهم في الصناعة وغيرها بفائدة ٦ أو ٧ في المئة فيؤثرون أن يستثمروها بأنفسهم في أملاكهم ولا تأتيهم بأكثر من اثنين ونصف في المئة فترى الواحد منهم إذا ورث أباه وأخاه يبادر لحضور دروس الزراعة كأحد الطلبة سنتين ثم ينقطع بجماله الى الزراعة والى تربية البهائم ومتى مات الأب يرث البكر من أولاده ملكه . وفي الغالب ان الملك هنا لا يقسم لانه مؤلف من حظائر واهراء ومحطات يستحيل فصل بعضها عن الآخر وعلى البكر أن يقدم لآخوته وأخواته ما يوازي حصتهم تقدماً وإذا لم يكن عنده نقد يرهن ملكه وإذا لم يجد رهناً يضطر الى بيعه ومعظم أرباب الاملاك الواسعة يورثون البكر من أولادهم فيبقى الملك كله له بمعنى ان الوالد اذا لم يكن اقصد مالا في حياته يبقى أولاده بدون فلس بعده وربما بقي أكثر الاولاد فقراء لانهم اذا أخذوا تقدماً فيكون جزئياً لا يكفيهم ليعيشوا ومن هنا ترى معاهد كثيرة في ألمانيا أخذت على نفسها اعاشة البنات الشريفات ممن تقدمن في السن ولم ينلهن من آباءهن ما يستطعن به أن يعشن فلم يلبثن بعد العز والرفاهية أن يعشن عيش القلة والفاقة . وألمانيا الآن في صدد تغيير هذا النظام الجائر .

رأينا في طريقنا راعي الغنم وراعية البط والأوز وقال صاحب المزرعة ان جميع اللبن المستخرج من بقراته يبعث به الى المعمل القريب لاستخراج الزبدة والجبن وجميع ما عنده من البهائم يطعمه بمطعوم الامراض التي يخشى أن تصيبها ولا سيما الشربان والخنزير . وأراني الانبار . ومما قاله ان سعر الحبوب تعينه لجنة

أحدثها الفلاحون وصادقت الحكومة عليها واللجنة تسهر على أن تكون الاسعار التي تذكر في الصحف هي الأرقام الحقيقية وتختار الحكومة لمراقبة السوق أناساً من أرباب الأملاك وآخرين من التجار .

حاذينا حقولاً واسعة مزروعة بطاطا فقال صاحب المزرعة اننى أتفق في الخريف نحو ثلاثة آلاف فرنك علاوة على المقرر في الأجور لقلع البطاطا من مزارعى وأجرة العامل فرنك في النهار وغلى من هذا الصنف خمسة ملايين كيلو وبعد أن آخذ منه بذارى وما يلزم للمزارعين عندي أعمل منه نشا لأن عصارة الذشا سبباً للأرض ولا أعمل منه الكحولاً لأن عصارته غير نافعة وقد كثرت عليه الرسوم . وغلى ٧٠٠ ألف كيلو من الجاودار و ٣٠٠ ألف كيلو من الحنطة والشوفان والشعير . أما الشوندر فأنا مرتبط مع نقابة زراعى الشوندر وأنا من أعضائها ولها معمل سكر من أكبر المعامل فى ألمانيا فنبعث لها به بعد أن يحلل المعمل نموذجات منه يرسل لنا بكشف يبين لنا درجات السكر المستخرج من كل صنف من أصنافه وفيما اذا كنا قصرنا فى تسميده وتربيته لنكون من قابل على بصيرة .

وبالقرب من معمل النشا قامت بيوت جديدة للعملة بنيت من الآجر وكل بيت فيه مخدعان أرضيان وعقد (قبو) للبن والبقول وغرفة فى الطبقة الأولى وأنبار عام لعدة من الاسر يضع فيه كل واحد فى ناحية معينة غسيلة وفى مقابل هذا الحى اصطبل للخنازير والماعز

وعدد من يعملون فى هذه المزرعة من ٢٠٠ الى ٣٠٠ شخص يدخلون فى ١٢٥ أسرة وفى أيام الحصاد يستجلب كثير من العملة زيادة على الموجود ويدفع لكل مزارع مئة مارك (١٢٥ فرنكا) فى السنة نقداً يتناولها على أربعة أقساط ويجب أن يكون الرجل متزوجاً والمرأة تعين زوجها فى الصيف أيام الحصاد وفى الخريف فى استخراج البطاطا وفى الشتاء فى درس القمح واذا لم يكن للعامل زوجة يجب أن يكون له ولد فى سن صالحة ليعمل ومتى حملت المرأة يدفع لها فى اليوم ٧٥ سنتيماً فى الشتاء وفرنك وربع فى الصيف لان النهار يكون أطول . والعامل يأخذ

في السنة ١٢٥٠ كيلو من الحبوب المختلفة كالشعير والحنطة والجاودار و ٣٠٠٠ كيلو من البطاطا وخطباً وخطباً يساوي ٦٠ ماركا ولكل واحد ١٢٥٠ مترا مربعا من الارض يزرع فيها بقولا من مثل المنفوف والشوندر وعلف بهائم وتكون في العادة غنزة وبقرة وأحيانا يقوم صاحب الارض بتغذية غنزين وبقرة لكل مزارع عنده أو يعطيه لبناً يوازي ما تخرجه له بقرتان وغنزة ويعلف كل عامل في زربته خنزيرين يبيع في العادة الواحد ويملح الثاني يستعمله في طعامه . وله الحق أن يربي دجاجاً يجعله في محله وإذا مرض المزارع أو العامل تدفع عنه أجره الطبيب وثمان الدواء وإذا مات أو أحد أسرته يصنع له نجار المزرعة تابوته وخشبه من صاحب المزرعة ولا تدفع أسرته الا أجره القس . والمزارعون ممتنون من عيشهم لان ما يأخذونه من الغلات يكفيهم ولهم غرام بأكل البطاطا والدهن وقلما يتناولون اللحم لان العملة البولونيين وأكثر المزارعين منهم لا يتناولون اللحم وإذا استأجرناهم خصوصاً بعد عودتهم من الخدمة العسكرية يتطلبون اللحم اذا يكونون قد اعتادوا تناوله في الجيش . وإذا شاخ المزارع يستبقيه سيده ويطعمه ويؤويه فيدفع السيد عن كل عامل يستخدمه ١٠ دوانق (بنغ) في الاسبوع وهو يدفع مثلها لصندوق المتقاعدين أي ٥ ماركات في السنة وفي آخر السنة يحول هذا المبلغ لا سمح في صندوق التوفير .

وعلى صاحب المزرعة أن يدفع ضريبة على ريع أملاكه وضريبة لمقاطعته وضريبة لمديريته ورسمًا للمدارس وآخر للكنائس يدفع ثلثها السكان وثلثها صاحب المزرعة وهو عرضة على الدوام للتفتيش والانتقاد يوجه اليه مفتشو العمل وحذراً من وقوع حوادث في المعمل والمزارع والحقول يجب علينا أن نضع السلام على الجدران وأن نجعل درجاتها معقفة وعربات العلف تكون مقطورة على صورة كذا ولا نجد في ذلك غضاضة علينا لانتا نرى في هذه العناية مبدأ حسناً . والقانون قانون تجب الطاعة له

ووصف الكاتب مزرعة بجانب مزرعة مضيئه ابتاعها منذ اثنتي عشرة سنة

وضمها الى مزرعته الاولى وجعلها لصيد الدراج وغيره . وهو يأخذ دخلا وافراً من اسماك بحيراته قال : ولقد أخذت اعلم بعد أن رأيت ما رأيت في مزرعة هذا الشريف أن الزراعة الالمانية ليست من عمل الفلاح أو الشريف العطل بل من أعمال مثل هذا الرجل المولع بالترقى والمتوفر على تربية الماشية والنظر في الهندسة الزراعية والاحداث الجوية وطبقات الارض والعامل والمربي للصيد والاسماك والصيد والتاجر الخبير وعلمت حب البرومي لارضه وما يبذله من الجهاد المجيب الذي جعل من رمال بومرانيا وبطائح براندبورج غابات مذهشة وحقولاً خصيبة وقدرت قدر الذكاء في اختيار الاساليب النافعة والشعور بالرقى والدوق في الابداع وفكر التضامن والجهاد الممزوج بالصبر الطويل الذي أكره الطبيعة الشحيحة في تلك الارض على أن تعطي بعض المواد التي يكنها صدرها وكل شيء يحسن الانتفاع به فالارض غير الصالحة للزراعة تجعل فيها غابات والبحيرات تظم وتردم أو توسع وتحفر بحسب اللزوم وكل سنة يجدد صاحب المزرعة مئات الالوف من الاشجار المثمرة وغيرها ومنها ما ينتفع منه ابنه وكل يوم يعمل عملاً جديداً وابتدع أو يفكر في طريقة يتفنن بها للانتفاع أكثر من أرضه .

قال العالم الفرنساوى وقد دامت زيارتي أرض الشريف الالماني ست ساعات في المركبة ولم نر كثيراً من أنحائها واثني على حسن وقادة الالمان لضيوفهم وقال ان أقراء الضيف عندهم لامثيل له في أوروبا اللهم الا روسيا . ولا عجب في عمل الالماني فقد خلق وفطرته تقول له لا تقف يريد المزيد دائماً . وهو يعمل من البطالة بعد قضاء بضعة أسابيع في الراحة . أما الافرنسي فيريد أن يستمتع بالحياة بأسرع ما يمكن ويبذل لذلك جهده والانكليزي ينتظر ارثه بأن يعمل قليلاً مكثرأ من الالعب الجسمية والرياضات البدنية والامريكي يود لو ينال أكثر من جاره أما الاسبانيولي فهو أشبه بالشرقي يحلم بكأس من الشكولاتا يكرعها وبنفاقة من التبغ يدخنها في كل أيام حياته

هذا ما تلقناه من كتاب برلين وقد طبع قبيل الحرب العامة وما ندري اذا

كانت الحرب قد زادت في هم المزارعين من تلك الامة بعد أن اشتدت ضائقتها على مواد الغذاء يوم حصرت من جهاتها الثلاث وتعذر ارسال الغلات اليها الا من سهول الحجر المشهورة بحبوبها وكانت قلة التغذية عندها من جهة الدواعي في إلقاء السلاح وطلب الصلح من الحلفاء

الصحة في ألمانيا

١١٨

الاهتمام بالنظافة ظاهر الاثر في كل مكان من بلاد ألمانيا والحشمة وجمال الهندام العام هما جماع الشعور اللطيف الذي يحس به الغريب في مدنها . واذ كان هذا النظام تاماً في جميع الأعمال والادارات والدور الخاصة نشأ منه شعور بالرفاهية وحسن اللقاء وجمال الذوق . تنزه في الشوارع اللطيفة التي تزين وتطهر كل يوم بين أناس يكتسبون أجمل الثياب ولا ترى عليهم الا أمارات السعة حتى في احياء العملة وأنت على ثقة اذا ركبت الترام والقطار من ان أحداً لا يبصق وتركب في الدرجة الثانية والثالثة وأنت على يقين من البعد عن القذارة في المركبات أو الاختلاط المضر بالركاب وقد اتخذت جميع أسباب الحيلة حتى لا يقع ما يكدر وقد عينت حقوق كل فرد وواجباته تعييناً صريحاً فاذا حدث اشكال يقتص لذلك النظام العادل

هذه الحالة في النظافة العامة على كثرة حسناتها للفكر والاعصاب قد نشأت من اقتباه الحكم ومن خضوع المحكوم عليهم للأوامر فلك بعد هذا أن تعلق صحيفة على حدود ألمانيا تكتب عليها : « هنا تطبق مفاصل القانون » . ومن أجل هذا أتى تفوق الالمان على غيرهم في هذا المعنى تفوقاً لا ينازعهم فيه منازع في أمور الصحة العامة وتطبيق القوانين لان للبلاد المتمدة قوازين واحدة تقريباً

والاختلاف في التمايز فقط وهذا سببه خضوع الافراد وبفضل معاونة الامة للحكومة في ألمانيا معاونة فائقة سريعة تقدم علم الصحة تقدماً لم يعمد في بلد كما هو فيها . كأنهمو نتسكيو يقول اذا دخلت بلداً لا أسأل عما فيه من الشرائع بل أسأل عما طبق منها .

وبعد فيقال على الجملة ان ليس في المدن الكبرى في ألمانيا غبار أصلاً والرش متواصل في كل ساعة لا يوقف الا لترك المجال للكس وكما ان ليس ثمت غبار فليس هناك وحل . ومتى أمطرت السماء تنصرف مياهها الى المجارى ويمسحها المساحون بالآلات من المطاط وفي برلين وجميع المدن تجدد أناساً في الشوارع واقفين لالتقاط السرقة والقمامات . والسيارات الرشاشة ترش أربعين كيلومتراً في الساعة من الطرق الواسعة وبدورة خفيفة ترش ساحة كبرى مهما عظمت دع التراموايات الرشاشة التي ترش الشوارع الرئيسة والطرق المعبدة لتسهل تنظيفها وكسحها ان كان ثمت قمامات أو ورق . ومن غفل من المارة وهو نادر جداً وألقى ورقة ولو صغيرة على الارض يجد من يرده الى الصواب وينبئه الى التقاط ورقته ولو كانت ورقة الترام ووضعها في الصندوق الخاص بها . وفي الخريف يكنس الكناسون بمكانس ميكانيكية ما يتساقط من أوراق الاشجار في الشوارع والحدائق والمتنزهات والاماكن العامة ويعمد بتنظيف الارصفة في العادة الى أصحاب الاملاك فلا يخالف القانون منهم أحد وصاحب الملك مسؤول عنك اذا مررت برصيفه وترحلت بقشرة برتقالة أو وقعت فاندقت عنقك وتقادياً من الوقوع في مثل هذا الخطأ يعمد صاحب الملك بتنظيف الرصيف أمامه الى شركة تتقاضاه في الشهر ثلاثة ماركات ويضمن نفسه من كل ما يصيب انساناً أمام محله من المضار

لتسهيل النظافة العامة تتفنن البلديات في استجداء طرق جمع القمامات ووضع لوائح متنوعة دقيقة وابتداع أدوات عملية لكسح القمامات على أيسر وجه . ومن أدهش الطرق التي عمدت الى انخاذها بلدية شارلوتنبورغ من احياء برلين انها اضطرت كل مالك أن يكون لديه على الدوام ثلاثة صناديق عالية يضع المستأجرون

في الاول الرماد والغبار وفي الثاني الورق والعلب والمقوّم وفي الثالث جميع فضلات المطبخ من بقايا اللحم والعظام والبقول والخبز وذلك لان هذه البلدية رأت ذات يوم ان من الجنون أن تترك لادارة القمامات مثل هذه الفضلات التي يتيسر الانتفاع بها فابتاعت خنازير وهي تغذى الآن ألوفاً منها بما يفيض من السكان من هذه الفضلات * والبلدية تتولى رفع هذه القمامات على حساب المستأجرين بأجرة زهيدة بواسطة عربات تطرح من صناديقها ولا يحدث منها غبار ولا غيره أما القمامات فانهم يحجرون عليها تجارب ليفصلوا البوتاس عن حامض الفوسفور والنشادر لتباع من المزارعين سماداً كيمياوياً .

وان مدينة برلين لتنفق مالاً طائلاً على كنس المدينة ويتولى الامر عشرون ألف كناس وجنائتي ويقبض الواحد ثلاثة ماركات ونصف مارك في اليوم (وهذا قبل الحرب) وتزيد مياومته ربع مارك كل ثلاث سنين وان مدينة متوسطة الشأن مثل ميانس التي يبلغ سكانها مئة ألف نسمة لتصرف كل سنة ٧٠٠ ألف فرنك على تنظيف الشوارع . وهكذا تجد كل ادارة عامة من مثل السكك الحديدية والفنادق تنفق مبالغ على تنظيف زجاجها ومقاعدھا وأثاثها ورياشها والبلديات تهتم بصحة السكان حتى انها كثيراً ما تقضى بالهدم على بناء قديم مراعاة للصحة وتنسى مكانته التاريخية أو تتناساها . وكل دار يراد بناؤها في بروسيا يقدم مصورها الى الشرطة أولاً والناس يشكون والمهندسون يتذمرون من شدة هذه المطالب

ولذلك ترى صاحب الملك اذا اراد بناء شيء أن يرسل مصوره قبل سنة من الشروع في بنائه واذا صادف أن المصور المقدم ليس فيها لغرفة الخادم القدر اللازم من الهواء لا يرخص ببناء البيت فيجب ان يكون لكل طبقة علو متوسط وأن يكون لصحن الدار مساحة تحسب على قدر علو الأبنية تضمن دخول الهواء وتهود النور وبعض الأراضى تبقى بلا بيع لانها ليست من الفساحة لبنى بها بحسب قانون الشرطة والشرطة تتعصب اليوم بالسكنى في الطابق السفلى تحت سطح

الأرض وكان ذلك مألوفاً من قبل وإذا سمح به فلا يكون إلا إذا ثبت أن هناك كمية من الهواء وللسقف بعض العلو وبعض النوافذ . وتقضى أوامر البلديات أن تكون ميضآت المعامل ظاهرة كافية وإذا لم تكن كذلك تجبر الحكومة صاحب المعمل أن تكون كلها مستوفاة من كل وجه .

لاحظ الناظرون أن المرء كلما تقدم نحو الشمال يجد الاهتمام بالنظافة بالفاحشه وأن شعوب الجنوب قذرة وأن للفلامنديين ولوطاً بالغسل والمسح يكاد يكون كالمرض المستحكم ، ومع هذا فقد قضت الحال في ألمانيا أن تستعمل الشدة في القانون لتطبيق قواعد الصحة وإذا كان استعمال الحمامات آخذاً بالانتشار سنة عن سنة فذلك بفضل ما تبذله جمعية أخذت على نفسها الدعوة إلى النظافة وهذه الجمعية برئاسة طبيب مشهور في برلين وله تأثير في جميع ألمانيا فتدعو جمعيتها إلى عقد المؤتمرات وتنشر المنشورات وتبث دعواتها تحمل من مدينة إلى أخرى دعوتها وتعطى المديرية ما يلزمها لآلة العقول مجاناً وتمد إليها المعاونة بلا مقابل ويشترك في هذه الجمعية وزراء وأمرء وعلماء ، ويهتم بها كبار الحكام اهتماماً زائداً وهي عبارة عن ١٤٠٠ عضو يدفعون تقاسيط ، وقد نجحت هذه الجمعية بأن قضت على جميع المدن الألمانية تقريباً أن تجعل لها حمامات بلدية وكثير من القرى لا تحرم من هذه الحمامات وقد أخذت الجمعية تصرف اهتمامها إلى القرى ولا تنشأ مدرسة بدون قاعات للاستحمام وقد لاحظ الأطباء أنه منذ أخذ الطلبة بالاستحمام أصبح آبائهم أكثر نظافة من قبل وأنشأوا يختلفون إلى الحمامات عن رضى وشعار هذه الجمعية : « حمام في الأسبوع لكل ألماني » وبفضل هذا العمل الذي أسس منذ بضع سنين أنشأ كل جندي وكل نوتي يستحم مرة في الأسبوع . وانك لترى شركات السكك الحديدية وإدارات المعامل وجميع أرباب المشاريع الضخمة تبادر إلى تسهيل أمر الاستحمام على العملة كل أسبوع وتعطى أنواطاً من الفضة إلى كل مجموع أو فرد يستحقون المكافأة مقابل تنظيفهم وقد جروا على مثل هذه الطريقة في الولايات المتحدة وفي أسوج فأخذت الحركة نحو النظافة في ازدياد .

وكثير من مدن ألمانيا تحتوى اليوم على محال لاستحمام الفوغاء أحدثتها البلديات وجعلت فيها أحواضاً من الماء الجارى ومنها ما يتغير مرتين فى اليوم ومقاصير للاغتسال بالماء الحار أو البارد ومستحمات وغير ذلك .

وأما كن الاستحمام فى برلين وهامبورغ وهانوفر ومونيخ قصور حقيقية . ومن المدن الصغرى مثل غوتنغن وسكانها ٣٥ ألفاً ماله حمامات أكثر استعداداً وحسناً من حمامات العواصم ويكلف الانفاس فى ماء الأحواض عشرة بنن (أى جزءاً من عشرة أجزاء من المارك) وهى أبدأ فى حالة معجبة من النظافة ويبدو ماؤها الاخضر الازرق صافياً كياه البحيرات ويقضى على من يسبحون فيه أن يعركوا أبدانهم كلها بالصابون وأن يرسلوا الماء عليها قبل نزولهم اليها والمقاصير نظيفة صحية مزينة بالستور الوردية وهناك معلمون يلقنون من يريد دروساً فى السباحة ويختلف عمق الحوض فى العادة من ٧٥ سنتيمترا الى ٣ أمتار و ٢٥ سنتيمترا مما يتيسر معه الانفاس فى الماء كما يريد السابح وطول الحوض من ٤٠ الى ٦٠ متراً .

وتكون الحمامات الحارة فى مقاصير من القيشانى لها مستحمات جميلة مستحدثة والحمام يكلف ٦٠ بنن فى الدرجة الاولى و ٢٥ فى الثانية ويتولى شؤون الحمام أناس لهم مهارة فى أيديهم ورشاقة فى حركتهم ، ولا يجرد الداخل فى الدهاليز والادراج المصنوعة من الحجر والمرمر ذرة من الغبار ، وان حماماً واحداً فى برلين ليستحم فيه فى اليوم ثلاثة آلاف انسان دع المضخات (الدوش) ويبلغ فيها عدد المستحمين ليلة بعض الاعياد الكبرى سبعة آلاف وبعض الحمامات يستحم فيها كل السنة مليون شخص ويتناول أولاد المدارس فى برلين والمدن الصغرى بطاقات مجانية أو ذات أسعار طائفة تخولهم دخول الحمامات .

وقد أوصى المسير مولر فى مونيخ بملبوني فرنك لانشاء مكان للاستحمام العام فأضافت البلدية الى ذلك ٥٠٠٠٠٠ فرنك فتم العمل وقام البناء على شاطئ الايزر فى آخر ممشى فيه أشجار ضخمة فاذا دخلت الى هذا الحمام صرت الى مكان

فرش بالرخام وبني بالقيشاني اللامع وفيه وفي أحواضه من التأنق واللفظ شيء كثير كما أن فيه من الطهارة والنظافة ما تقر به عيون المستحمين . وأقامت بلدية مونيخ حماماً مجانياً في الصيف استقت ماءه من اليزر وهو يتغير مرتين في اليوم ومنها حمامات شمسية مجانية .

نظافة الطعام كنظافة الاجسام معتنى بها كل العناية في بلاد المانيا فلها ادارة اسمها ادارة صحة الماء كل ترأقب اللحوم وتفحصها بالمجهر فاذا وجدت بها مريضة أو مضره تغرم بائعها وذابحها وكذلك السكر فانك اذا أخذت قطعة منه واشتبهت في كونها من الجنس العاقل تأخذها الى معمل مكتب الصحة وفي الحال يحللها ويحكم على بائعها بالعقوبات الشديدة . ولا يشرب أحد في برلين الا من الآبار الارتوازية التي قد تنفق على الواحد منها ثمانية ملايين فرنك . ولا تسلم عن مراقبة الصحة للالبان فكل يوم ينبث كثير من المفتشين يستوقفون مركبات الحليب في الشوارع ويوزن فاذا رأوه مطابقاً لما قضت به الصحة فيها والا فيكفتونه في الشارع ويعاقبون حامله بأشد العقوبة ولذلك ترى الغش قليلاً جداً في هذه الاصناف . وفي برلين معامل كثيرة للالبان منها معمل كبير يصله كل يوم من الضواحي على بعد مئة كيلو متر ١٤٠ ألف لتر من اللبن فيعقمه في معمل كبير فيه ألفا عامل وكل هذا اللبن يوزع على المنازل في ٢٥٠ مركبة .

لم تكتف الحكومة والمجالس البلدية في المانيا بتحسين أسباب الصحة العامة والسهر على نظافة المساكن وجودة المواد الغذائية بل تراها تحمي الصحة العامة بواسطة ادارات المراقبة الطبية التي تعمل على الدوام بكل ما فيها من قوة بفضل ذمة الموظفين الذين عهد اليهم التوفر على العمل فاذا حدثت مثلاً اصابة بالجذري أو الخناق أو التيفوئيد أو الطاعون أو الكوليرا لا تلبث أن يبلغ أمرها مكتب الصحة ففي الحال يعطى الامر بالتطهير ويخف الطبيب الرسمي الى الدار الملوثة يتولى جميع أساليب التطهير في أسرع من لمح البصر . وفي المدارس ادارة البحث

الطبي تعمل على الدوام فتفحص جميع الاولاد في كل وقت واذا لاحظت أقل مرض أو انحراف طراً على ولد تعزله عن رفاقه وتطبه في الحال والذين تأصل فيهم المرض تبعث بهم الى البحر في الغابات أو الى المصاح . وقد انشأت جمعية الصليب الاحمر ستين مصحاً من مثل هذه وتساعد عدة جمعيات في الاتفاق عليها ويمدها كثير من المدن بالمال .

والعناية بالغة في الحذر من مرض السل فتراقب المدارس جداً المراقبة بواسطة أطباء مفتشين لهم اختصاص بهذا المرض مشهود لهم به وهم في خدمة هذا الديوان لا يسوغ لهم أن يطبوا أحداً غير أبناء المدارس يبحثون في صحة التلامذة بصورة منتظمة ويعطى كل تلميذ ورقة كل مدة تنبئ بأنه سالم من هذا المرض حتى يبلغ سن الرشد ويدخل في الخدمة العسكرية وهكذا يقضى التلميذ مدة دراسته وهو يتقلب بين أيدي الاطباء يبحثون في صدره وقامته ووزنه وغدده وأسرته وما كان فيها من الامراض الى غير ذلك مما يقضي التنبه له بالقضاء على المرض من أساسه .

ويعزل المصابون بالسل وفقر الدم والخنزير وعلة القلب والصرع والهستريا كل واحد عن الآخر ويعلم في مدرسة الهواء الطلق وسط غابة في ضاحية برلين وهذه المدرسة تفتح أبوابها في نيسان وتغلقها في كانون الثاني وهي على غاية من السذاجة في بنائها ومرافقها ويكثر في ارجائها النور والهواء ولهم نوافذ متحركة ذات مقاعد من خشب جعلت بقدر قد الولد . والمدرسة عبارة عن أكواخ منظمة يريدون منها أن يعيش الطفل في سذاجة ويرجع الى الفطرة الاولى في حالته ويعتنون في المدرسة بتنظيف الجسم من وراء الغاية وفي هذه المدرسة يدخل الذكور والاثاث على حد سواء

في المانيا ٢٥ مجماً علمياً لصنع مطعوم الجدري ولذلك لا يموت أحد فيها بهذا المرض ولها مجامع علمية تنظر في ارتقاء الدروس العلمية وانتشار علم الصحة دع مجامع كوخ ومجامع الصحة في المملكة التي تبحث بمن فيها من العلماء في الابحاث

البكتريولوجية المنوعة مثل فحص الشاي والقهوة ومنافعها ومضارها ومثل البحث في المرض الزهري الذي كانت الحكومة السبب في اكتشاف دوائه ومنها جمعيات تبحث في مياه الأنهار التي تلوثها المعامل والمستشفيات في برلين من أنظف ما رأى الراؤون وأكثرها استعداداً خذ لذلك مستشفى فيركوف العالم الكبير فانه بديء بإنشائه سنة ١٨٩٩ ونجز في سبع سنين وكلف ٢٥ مليون فرنك على أرض مساحتها السطحية ٢٧ هكتاراً وهو على طريقة جعلت سرادق سرادق ففيه ٦٢ بناية ويسع النى مريض وحجمه كحجم مستشفى همبورغ وهما أعظم مستشفيات المانيا وفيه ٩٥ طبيباً و ٣٧٥ ممرضة وممرضاً وعدد الخدمة ٣١٢ وفيه جميع أنواع الراحة وفيه تتولد القوى الكهربائية للإنارة والدفء وغير ذلك

تاريخ المشرقيات في المانيا^(١)

١١٩

كان نهوض الدروس العربية في المانيا خلال القرن التاسع عشر وان كانت اللغة العربية قد درست في المدارس الالمانية في القرون السابقة ولكن تدريسها لم يكن على أسلوبنا هذا بل كانت الغاية منه تفسير الكتب العبرانية . وكان بعض المدرسين من الالمان في القرن الثامن عشر قد ابتدأ ابتداء حسناً في العلوم العربية ومن مشهورهم يوحنا يعقوب ريسكه المتوفى سنة ١٧٩٧ في ليبسيك الذي نشر تاريخ أبي الفداء ونقله الى اللاتينية وغير ذلك من الكتب العربية ومنهم أولاف غوستاف تيكنسن المدرس في الجامعة الروسية ومؤلف كتاب جليل في النقود العربية . ولم يشتهر الالمان في هذا العهد كبير اشتهار

(١) كتب لنا هذا الفصل بالعربية صديقنا العلامة الاستاذ بروكلمان صاحب تاريخ آداب اللغة العربية المشهور فله منا الشكر الجزيل

في امور الشرق غير أن النمساويين كانوا في تجارات وصلات سياسية مع الدولة السنية العثمانية وعلى هذا نهضت في فينا الدروس التركية التي جددتها العلامة فون هامر المتوفى سنة ١٨٥٦ وكان هو أيضاً محباً للآداب العربية ونشر كتاباً جسيماً في تاريخها لكنه لم يبلغ الغاية فيه لنقص تعمقه في أسرار العربية .

كان في ابتداء القرن التاسع عشر العلامة المشهور سلفستري دي سامي يدرس العلوم العربية في المدرسة الشرقية في باريز وهو مجدد الدروس العربية في أوروبا خصوصاً على الصرف والنحو فقصد باريز بعض الطلبة الالمان ليأخذوا عنه العربية منهم مالمينوخ لبرخت فليسر (١٨٠١ - ١٨٨٨) ومالينوخ ايفلد (١٨٠٣ - ١٨٧٥) فكانا هما مؤسسي الدروس العربية الجديدة في المانيا فقد أصبح الاول مدرساً للغات الشرقية في مدينة ليبسيك والثاني شغل مثل هذه المهمة في غوطنغن . فخر ايفلد الكتب الجليلة في الصرف والنحو والعروض العربي ونشر فليشر الكتب العربية مصححة غاية التصحيح منها تفسير القرآن للبيضاوي . وتقد أيضاً العلوم العربية خصوصاً كتاب النحو لشيخه دي سامي نقداً مفيداً وألف فيه كثيراً من الرسائل الجليلة ثم أسس الجمعية الشرقية الالمانية التي نشرت مجلتها المشهورة وكثيراً من الكتب العربية المشهورة لاسيما كتاب الكامل للمبرد لمصححه ريت الانكليزي ومعجم البلدان لياقوت تصحيح وستنفيلد وشرح المفصل لابن يعيش تصحيح يان وكتاب الآثار الباقية للبيروني تصحيح سخاو .

قصد طلبة الالسة الشرقية مدينتي غوطنغن وليبسيك فكان من مشاهير تلامذة ايفلد تيودروس فولدكه المولود سنة ١٨٣٦ الذي كان مدرساً في مدينة ستراسبورغ منذ سنة ١٨٧١ الى أن فتحها الفرنسية سنة ١٩١٨ قال فولدكه تاريخ القرآن الذي جده في الطبع الثاني فريدريك شوالى وصحح دواوين بعض شعراء الجاهلية وترجم من تاريخ الطبري الجزء المتعلق بالدولة الساسانية وحرر غير ذلك من الكتب الجليلة في اللغات السامية خصوصاً السريانية . ومن

تلامذة فولدكه ادوارد سخاو مؤسس المدرسة الشرقية في مدينة برلين وبروكلمان مؤرخ الآداب العربية وناشر كتاب عيون الاخبار لابن قتيبة خليفة سخاو في المدرسة البرلينية وغيرها من المستشرقين المشهورين في المانيا وغيرها .

ومن أشهر تلامذة ايفلد يوليوس ولومسن (١٨٤٤ — ١٩١٨) خليفته الثاني في مدرسة غوطنغن وله من الكتب المشهورة تاريخ اليهود وتاريخ الدولة الاموية وكتاب جليل في دين العرب في الجاهلية وطبع الجزء الثاني من ديوان هذيل الذي كان نشر الجزء الاول منه كوسفرتن المتوفى سنة (١٨٨٠) فكانت مهمة تلامذة ايفلد مهمة تلامذة تلاميذه في نقد تاريخ العرب ودينها وآدابها لكن فليشر وتلامذته كانوا متخصصين أكثر منهم في النحو العربي ونقد اللغة . ومن مشاهير تلامذة فليشر العلامة توربكة (١٨٣٧ — ١٨٩٠) الذي نشر كتاب درة الفواص للحريزي والقسم الاول من المفضليات ، ومنهم أوغست مولر (١٨٢٨ — ١٨٩٥) مؤرخ الدول الاسلامية وغيرهم كثير من المستشرقين المشهورين

ومن تلامذة ديسامى في المانيا ماعد ايفلد وفليستر كثير منهم غوستاف فلوغل (١٨٠٣ — ١٨٧٠) الذي نشر كتاب كشف الظنون لحاجي خليفة وكتاب الفهرست لابن النديم وألف رسائل كثيرة في تاريخ الآداب العربية وويلهلم آلورد (١٨٣٨ — ١٩٠٢) الذي صحح دواوين الشعراء الستة والاصمعيات ودواوين الرجاز العجاج ورؤية الزفیان وصنف فهرست المخطوطات العربية في دار الكتب البرلينية في عشرة أجزاء جسيمة فانتشرت العلوم العربية في جميع المدارس الالمانية ونهضت نهضة جليلة فنشر منذ ١٢ سنة غير مجلة الجمعية المشرقية الالمانية المجلة المخصوصية في تاريخ الاسلام التي أنشأها كارل ماينوخ بكر المولود سنة ١٨٧٦ وهو الآن من النظار في وزارة المعارف في برلين

الممالك الجديدة

١٢٠

قالوا ان القومية هي أن يقوم أهل عناصر من أصل واحد لهم تقاليد ولغة مشتركة فيؤلفون مملكة واحدة سياسية . وهذا المبدأ قد قلب العالم الاوربي رأساً على عقب مدة تربو على ألف سنة فتحاربت شعوبها كلها حتى تؤسس ممالك كبيرة من القوميات الصغيرة . أما السادة الجدد في العالم فينزعون اليوم الى غاية تخالف تلك وهي أن يحرروا الممالك الصغيرة من سلطة الممالك الكبيرة التي خضعت لسلطانها . يريدون اليوم أن ينفضوا أيديهم من سلطان الغريب ليحكموا أنفسهم بأنفسهم

وحدث ان الشعوب المحكوم عليها اذا كانت مؤلفة من عناصر مختلفة أن يضطهد القوي منها الضعيف . وحوادث كثيرة تبين درجات هذا الاضطهاد فقد رأينا آخر امبراطرة النمسا لما عفا عن المجرمين السياسيين يوم جلوسه خرج من المطابق ثمانية عشر ألف سجين اعتقلهم الحكام الذين كانوا من العنصر السائد ليس في أوربا عنصر خالص من الدخلاء بل فيها مجموعة عناصر تكونت بالهجرة أو بالمحيط الواحد أو بالمصاحبة المشتركة أو بالدين المتحد فتمازجت مع الزمن وألفت عنصراً بعينه . وأكثر هذه العناصر اختلاطاً العنصر الانكليزي الذي تألف من أجناس وأجيال مختلفة وكاذ هو ولغته المفتحة الصدر لكل جديد أول الشعوب الاوربية التي ألفت أمة منظمة تعرف نفسها ^(١) وقد ساعد الانكليز على ذلك أمران موقعهم الجغرافي والنظام الشديد الذي أخضعهم اليه

(١) فلسفة العهد الحديث للدكتور غوستاف لوبون Gustave Le Bon : Psychologie des temps modernes والقومية وتقيضها لرامساي موير Ramsay Muir : Nationalisme et internationalisme والمقابلة بين القوميات لارنولد فان كنيب Arnold van Gennep : Craite comparatif des nationalites

الفائحون الاجانب من أهل الدول المنظمة من القرن الحادى عشر الى القرن الثانى عشر . ثم جاءت فرنسا وكونت قوميتها

بيد ان مبدأ القوميات لم يقل أحد الساسة به الا بعد الثورة الافرنسية الكبرى أواخر المئة الثانية عشرة للميلاد وفكرة القومية حديثة و الجملة والفضل للفرنسيس فى أول من دعا اليها ثم لما رينى (١٨٧٢) الايطالى أول بامل فى الدعوة الى الوحدة الايطالية وسرت دعوته الى الأمم المشتتة والقوميات المبعثرة فاستفادوا منها ثم للحركات القومية التى لفتت أنظار أوربا من سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٧٠

فلا بدع اذا قلنا ان الانكليز والايكوسيين والفرنسيس كانوا فى مقدمة شعوب أوربا بل العالم الذين تشبعوا بروح القومية وانتهوا بتنظيم ممالك وتوطيد أركان جامعات وكلهم من عناصر مختلفة وأجيال من الناس كثيرة . ثم تألفت اسبانيا والبورتيقال وهما أيضاً من عناصر متباينة جداً وقد أخذتا درساً فى قوميتيها من حربهما الطويلة مع العرب وفيهما معنى الوحدة بزعامة رؤساء مستبدين ملؤوا صدورهم كبرياء حتى حملوهم على أن يفتحوا الفتوح فى الخارج

لا جرم ان العوامل فى تأليف القوميات كثيرة منها الوحدة الجغرافية ووحدة العنصر واللغة والدين والاشتراك فى المصالح الاقتصادية وكل أمة تتحد لا بد لها من أحد هذه العناصر لقيام أمرها وليس وجود أحد منها بعينه ضربة لازب . وقد تألفت فى القرن الماضى سبع دول ثنتان منها كيرتان وهما ألمانيا وايطاليا فنادى كل منهما بوحدة وقد قامت الاولى بصنع أهلها أنفسهم وقامت لثانية بمعاونة دعاة القومية فى الامم وبهمة رجالها أما الدول الخمس الصغيرة فهى ليونان وبلجيكا وصربيا ورومانيا وبلغاريا

ولنا أن نقسم تاريخ أوربا السياسى الى دورين . عمر الدور الأول ألف سنة تألفت خلالها الممالك الكبيرة من القوميات الضعيفة والثاني وهو حديث تداءت فيه أركان الممالك التى أسست ببطء كروسيا والنمسا والعثمانية وانقسمت الى ممالك يتجزأت أجزاء من القوميات ولقد كان اندماج الممالك الصغيرة فى ممالك قوية

على ما يظهر من النواميس الثابتة في التاريخ فان فرنسا وانكلترا وألمانيا وإيطاليا التي كانت فيما مضى مؤلفة من ولايات منفصلة هي نموذج من هذا التمازج ولم يكن عاماً على إطلاقه اذ وجدنا قرب تلك الممالك الكبيرة ممالك صغيرة كهولاندا واسوج والدانيمرك وسويسرا قد نجحت بالاحتفاظ باستقلالها ، وتزعم انها ستحتفظ به أبداً الدهر .

وان الدول الثلاث روسيا والعثمانية والنمسا المستبدة التي طالما قتلت مبادئ القومية قد قتلت بها فتمزقت كلمتها بعد ان كانت تحكم مائتين وخمسين مليوناً من أجيال الناس في أوروبا وآسيا ومن كان يظن ان الحرب العامة التي نشب أوارها سنة ١٩١٤ ووضعت أوزارها سنة ١٩١٨ تنشأ منها ممالك جديدة ، وتتألف قوميات فقد انسلخ من جسم ألمانيا والنمسا وروسيا مملكة كبرى وهي جمهورية بولونيا التي كانت تلك الدول الثلاث تقاسمتها بينها في القرن الثامن عشر وسكانها ثمانية وعشرون مليوناً ونشأت أربع جمهوريات في شمالي روسيا وهي جمهورية فنلندا واستونيا وليفونيا وليتوانيا ونشأت جمهورية أوكرانيا في الجنوب الغربي على شواطئ البحر الاسود ، وكذلك جمهوريتا أذربايجان والكرج جنوبي قافقاسيا .

وانبت من جسم الدولة العثمانية سورية وفلسطين والعراق والحجاز واليمن ومن النمسا انفصلت المجر مؤلفة من مئة ألف كيلومتر مربع ونحو ثمانية ملايين من المجرين وكذلك جمهورية التشيكوسلوفاكيا المأهولة على الأكثر من الصقالبة كالتشك في بوهيميا والمورافيين والسلوفاكيين وهي ١٤٥٥٠٠ كيلومتر مربع ونحو ١٤ مليوناً من السكان ، ومملكة اليوغوسلافيا ، وهي مؤلفة من الصربيين والخرواثيين والسلوفين . وهي مملكة الصرب القديمة أضيفت اليها مملكة الجبل الاسود والبلاد السلافية في الجنوب من النمسا القديمة مثل البوسنة والهرسك ومساحتها ٨٠ ألفاً وسكانها ١٠ ملايين ومملكة رومانيا التي اتسع حجمها من بلاد المجر والروس التي غالب سكانها رومان ومساحتها ٣٠٠ ألف

كيلومتر وسكانها ١٣ مليوناً . وأصبحت النمسا القديمة جمهورية صغيرة ينزلها
العنصر النمساوي أو الألمانى ومساحتها ٨٢ ألف كيلومتر وسكانها ٦٢٠٠٠٠٠ وهذا
أفزع أنواع البتر فى الممالك .

وأخذت إيطاليا اقليمى التراتن وفريول وجزءاً من اقليم ايستريا وتوسعت
اليونان من الأراضى البلغارى والعثمانية وأضيفت الى البلجيك أراضى أو بين
وماليدى وأخذت الدانيمرك من ألمانيا جزءاً من شلشويق هولستين بلادها
القديمة واسترجعت فرنسا ولايتى الألزاس واللورين فققدت ألمانيا عشر ممالكها
قبل الحرب . وانقلبت جمهورية بعد ان كانت ملكية مقيدة وفقدت تركيا سبعة
ملايين من السكان وانفصل عنها جميع البلاد العربية وانقلبت روسيا الى جمهورية
اشتراكية مؤلفة من العنصر السلافى فقط ويخرج منها بضع جمهوريات كبرى ،
وانقرض آل رومانوف قياصرة روسيا وطرد آل هوهنزولرن امبراطرة ألمانيا
وآل هابسبورغ امبراطرة النمسا وفصلت الدولة العثمانية الدين عن السياسة فأصبح
خليفة فروع ولا سلطان له على الامور الزمنية وسلطته روحية صرفة .

كان القطار قبل هذه الحرب يجتاز بنا فى الرحلتين السالفتين زهاء عشرين
ساعة فى أرض امبراطورية النمسا والمجر فقطعنا المسافة من حدود بافاريا الى حدود
ايطاليا هذه المرة مجتازين بأراضى النمسا فى ساعات قليلة وفقدت النمسا بلادها
الصناعية وبلادها الزراعية وأصبحت فىنا الجميلة عاصمة لا ربض لها الا قليلا
تجوع وتعزى وكانت عاصمة خمسة وخمسين مليوناً انفصلوا عنها باسم القومية
وكانت تعاملهم بالشدة كما رفع دعاتهم رؤوسهم للمطالبة بحقوقهم الطبيعية فلما
أمكنتهم الفرص قلبوا لها ظهر المجن .

آثار العرب في إيطاليا

١٢١

رسخت أقدام العرب في جنوبي إيطاليا ولا سيما في جزيرتي صقلية وسردانية أيام كان المسلمون كما قال ابن خلدون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر (يعني بحر الروم) من جميع جوانبه وعظمت صولاتهم وسلطانهم فيه فلم يكن للام النصرانية قبل بأساطيلهم بشيء من جوانبه وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم فكانت لهم المقامات المعلومات من الفتح والغنائم وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنرقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وإقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم وكان أبو القاسم الشيعي وأبناؤه يغزون أساطيلهم من المهديّة على جزيرة جنوة مرات فتقلب بالظفر والغنيمة ... والمسلمون خلال ذلك قد تغلبوا على الأكثر من لجة هذا البحر وسارت أساطيلهم فيه جائية ذاهبة والعساكر الإسلامية تجيز البحر في أساطيلهم من صقلية إلى البر الكبير المقابل لها من العدوّة الشماليّة فتوقع بملوك الفرنج وتثخن في ممالكهم كما وقع في أيام بني أبي الحسين ملوك صقلية القائمين بدولة العبيدين وانحازت أمّ النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالي الشرقي منه من سواحل الأفرنجية والصقلية وجزائر الرمانية لا يعدونها وأساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الأسد بفريسته اهـ

ولقد أبقت العرب في البلاد التي حكمت فيها زمناً مصانع كثيرة من قصور منيعة ومنازل شائخة شريفة كما قال الإدريسي وكثيراً من المساجد والفتاح والمحامات وحوانيت التجار الكبار والجامع الأعظم في بلم عاصمة صقلية الذي كان بيعة في الزمن الأقدم وأعيد على حالته في سالف الأزمان وصفته الآن (في عهد الإدريسي) تغرب عن الأذهان لبديع ما فيه من الصنعة والفرائب

المقتلة والمنتخبة والمخترة من أصناف التصاوير وأجناس التزاويق والكتابات وذكر ابن حوقل أن في بلرم ثلثمائة مسجد ونيفاً وقد كثرت الجوامع في أكثر المدن مثل قطانية ولم يبق الآن ^(١) من تلك الابنية الفاخرة التي شيدها العرب شيء غير أن في بلرم أوفى غيرها من مدن صقلية مباني وقصوراً اقتنى مهندسوها مثال المباني الفاخرة التي شيدها الامم الممدنة المعاصرة للعرب ومن تلك المباني قطران جليلان اسم أحدهما قبة وامم الآخر زيزا ولعل أصله في العربية عزيزة (أو زيزاء) فكانت مباني العرب هذه مثالا لمن خلفهم من سائر الامم فحذا الخلف في أبنيتهم حذوها

وفي متاحف ايطاليا وخزائنها سيوف وآلات نقلت من الشرق ولا تزال محفوظة فيها . وأهم ما في ايطاليا من آثار العرب كتبهم المحفوظة في خزائن ميلانو ورومية وغيرها من العواصم الايطالية ولم تبرح شواهد بعض القبور المكتوبة بالكوفي أو بالقلم النسخي ماثلة في تينك الجزيرتين . نورد مثالا منها لما نشره المستشرق اماري الايطالي ^(٢) ومنه يستدل على ارتقاء الادب العربي على ذاك العهد : من ذلك ما كتب على شاهدة قبر في بلرم :

لله العزة والبقاء وعلى خلقه كتب الفناء ولكم في رسول الله أسوة حسنة .
هذا قبر ميمونة بنت حسان بن علي الهذلي عرف بابن السومى توفيت رحمة الله عليها يوم الخميس السادس عشر من شهر شعبان الكائن من سنة تسع وستين وخمسمائة وهي تشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له .

انظر بعينك هل في الأرض من باقى أودافع الموت أول الموت من راقى
الموت أخرجنى قسراً فيا أسفى لم ينجنى منه أبوابى واغلاقى
وصرت رهناً بما قدمت من عمل محصى على وما خلفته باقى
يا من رأى القبر إني قد بليت به والترب غبر أجفانى وآماقى .

(١) محاضرات أديبات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب باعتبار علاقتها بأوروبا وخصوصا بايطاليا للعلامة اغناطيوس جويدي

(٢) العتبات العربية في صقلية Amari : Le epigrafi arabiche di Sicilia

في مضجعي ومقامي في البلى عبر وفي نشوري اذا ماجئت خلقي
وفي كتابة أخرى : بسم الله الرحمن الرحيم لله العزة والبقاء وله ما ذراً وبرا
وعلى خلقه كتب الفناء وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة وعزاء...

وكتب على شاهدة قبر في نابلي

وكيف يلك العيش من هو سائر الى جدث يبلى الشتات منازل
ويذهب رسم الوجه من بعد ضوئه سريعاً ويبلى جسمه ومفاصله
وكتب على قبر رجل اسمه يسين بن علي بن يعيش توفي عام أربع وسبعين
وسمائه :

بعدت فما في العيش بعدك طيب وغبت عن الدنيا فليست تؤوب
مقيم الى أن يبعث الله خلقه لقاءك لا يرجى وأنت قريب
ووجهك يبلى كل يوم وليلة وودك لا ينسى وأنت حبيب
عليك سلام الله ما ذر شارق وما اهتز في دوح الاراك قضيب
وكتب على شاهدة في بلرم : هذا قبر ابراهيم بن خلف الديباجي توفي سنة
أربع وستين وأربعمئة وهو يشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وان محمداً
عبده ورسوله وان الجنة حق وان النار حق وان الصراط حق وان الساعة آتية
لا ريب فيها وان الله يبعث من في القبور . على ذلك حيي وعليه توفي وعليه يبعث
ان شاء الله رحم الله من دعا له بالرحمة والمغفرة آمين رب العالمين

ومن القبريات المسيحية ما كتب بالعربية أيضاً

توفيت أنه أم القسيس اكريزنت قسيس الحضرة المالكة الملكية العالية
العلية المعظمة السنية القريسية البهية المعترزة بالله المزوزة بقدرته المنصورة بقوته
مالكة ينطاليه وانكبردة وقلورية وصقلية وافريقية معزة أمام رومية الناصرة
للملة النصرانية صرمد الله مملكته يوم الجمعة العشر العشرين من اوسنة سنة ثلاث
وأربعين وخمسمئة ودفنت بالجامع الأعظم ثم نقلها ولدها بالمستنجد الى هذه

الكنيسة حنت مخايله يوم الجمعة أول ساعة العشا . العشرين مائة سنة أربع وأربعين وخمسمائة وبنى على قبرها هذه الكنيسة وسمى الكنيسة حنت أنه على اسم أم مريم ودعا لها بالرحمة آمين آمين آمين وفي أول الكلام اشارة الصليب .

الحضارة الغربية

١٢٣

يجدر بنا وقد انتهى بنا نفس الكلام على ممالك أوروبا العشر التي زرتها وخبرناها بما رأيناها وسمعناها وقرأناه عنها منذ وعينا على أنفسنا ما فصلناه للقاري فنأتيه بنبذة تدلنا على ما قامت به في الجملة كل أمة من هذه الامم من العمل النافع لهذه الحضارة الغربية الحديثة التي بهرنا خبرها ومخبرها وأن نبين منشأها والسرف في وصولها الى هذا الحد فنقول : يمكن ارجاع الامم الرئيسية في أوروبا الى ثلاث عناصر مختلفة . العنصر اللاتيني والعنصر الجرمانى والعنصر الاسكلافوني فالعنصر اللاتيني هم الطليان والفرنسيين والاسبانيون والبولون والبرتغاليون وقدورثوا من الرومان مدينتهم ولسانهم . والالمان والسويسريون والانكليز والاسوجيون والدانيمركيون والهولنديون هم من الشعوب التوتونية والروس والبولونيون هم من الشعوب الاسكلافونية . قالت مدام دي ستايل أن الامم التي كان تهذيبها العقلي من أصل لاتيني هي أعرق في المدنية من غيرها ورثت الاقليلا من ذكاء الرومان ومهارتهم في ادارة أعمال هذا العالم وقبل أن تتأصل فيهم النصرانية قاموا بانشاء معاهد اجتماعية بنيت على أساس الوثنية ولما جاءت أم الشمال تفتح بلادهم قبلت هذه الامم أخلاق البلاد التي افتتحتها . وهذه الملاحظات تختلف ولاشك باختلاف الاهوية والحكومات والحوادث التاريخية فقد أثرت سلطة الكنيسة مثلاً في ايطاليا آثاراً لا تمحى وكان من نتائج الحروب الطويلة مع العرب أن قويت العادات العسكرية وفكرة الاقدام على العظام في الاسبانيين . ويقال

بالاجمال أن هذا الجزء من أوروبا الذي اشتقت ألسنته من اللسان اللاتيني وامتزج منذ الزمن الاطول بسياسة رومية تقرأ في صفحاته آثار مدنية قديمة كانت فيما غير من الزمن وثنية . ولما كانت الامم الجرمانية قد قاومت ساطة الرومان لم تتشبع بالمدنية الا مؤخرأدخلتها من طريق انتشار الديانة المسيحية . فلم تلبث في الحال أن انقلبت من نوع من البربرية الى مجتمع مسيحي . أما مدنية الاسكلافونيين فهي أحدث المدنيات وأسرعها من سائر حضارات الشعوب ولذلك لا تزال ترى فيها حتى اليوم آثار النقل والاحتذاء وتققد فيها صفات الابداع والاختراع

لا جرم ان الحضارة عمل الأمم^(١) بأسرها ومصادرها متنوعة وذلك ان للأمم التي رأيناها في هذه القارة والتي لم نرها فيها وفي غيرها تمدناً تاماً نشأ من المدنية القديمة وانتقل الى جميع الممالك النصرانية وكلها تعمل على تحسينه . ولهذه الممالك بأسرها نفس الأدوات للعمل وعين الطرق في الصناعة ومثلها في باب وسائل النقل ، ولهم كلهم معامل وآلات بخارية وسكك حديدية وأسلاك برقية وكلهم يستثمرون معادنها وأرضهم ، وجميع البلاد الممدنة مرتبطة بشبكات من السكك الحديدية وبطرق بحرية يمحّر البخار عبابها وبأسلاك البرق والهاتف وأسلاك بحرية واتحاد بريدي عام في البر والبحر وبريد جوى في الطيارات ، ويتقايضون حاصلاتهم ورءوس أموالهم وهم على اتصال بينهم أبداً ، والصحف تنقل حوادث العالم أجمع يوماً بيوم وساعة بساعة .

وقد كاد طرق الحياة أن يكون واحداً في الأقطار الممدنة ففي كل مكان نجد مدناً كبرى ذات شوارع مخططة وساحات عامة وأسواقاً مبلطة حفت بأرصفة وتشهد العجلات والحافلات والسيارات وأضواء الغاز والكهرباء ومجارى المياه القذرة والمياه الجيدة المجلوبة من الأماكن البعيدة ، ولئن كان بعض الفلاحين

(١) تاريخ المدنية الحديثة لسيديوبوس Ch. Seignobos : Histoire de la Civilisation Contemporaine وكتاب السياسة لبلونشلي Bluntschli : La Politique وكتاب الحياة الاجتماعية وتقلبها البرويسل Ernest van Brnyssel : La vie sociale et ses evolutions.

في تلك الامم ولا سيما في أوروبا الشرقية قد احتفظوا بعاداتهم فان مصطلح أهل الطبقة الوسطى من الناس متحد في اللباس والزي والتمثيل والصحافة والاندية والبورصة . والأفكار تنتقل من بلد الى آخر على أسرع وجه والعلماء في كل صقع يعملون بأسلوب واحد ويشتركون في خدمة العلم ويعقدون مؤتمرات علمية دولية . والتصوير والنقش والهندسة والموسيقى عامة تتناولها الشعوب كلها . ولم تبق غير الآثار الأدبية مقصورة على كل أمة برأسها لتخالف اللغات ولكن بالترجمة ينقل في الحال ما فاضت به قريحة نابغة فامتازت به أمة على غيرها وتقتبس الأمم المتحضرة بعضها من بعض أسلوبها السياسي فقد أدخلت الامم أسلوب الحكم الدستوري مستعيرة له من حكومة انكلترا وقوانين الثورة الفرنسية .

وقد جعل في حكم المشاع كل ما تتألف منه حياة الشعوب المتهذبة من صناعة وتجارة وحياة صمليّة وعلم وفنون وأخلاق سياسية . ومع هذا لم تخرج تلك الامم وظلت على تنافسها مدفوعة بعوامل قديمة من الاحقاد والحفاظ يتجاذبها عاملان متناقضان المدنية العامة المشتركة التي تدفع الشعوب الى أن يشعروا بالتضامن والتقارب والمنافسات والاحقاد التي تستدعيها الوطنية فتنبذ بها الى العزلة . والى معاملة الغير معاملة الاعداء . ومصير العالم مناط القوة التي يرزقها أحد هذين التيارين .

تعيش الطبقة الوسطى في الغرب بما بلغت من الغنى وأسباب الهناء والرفاهية عيشاً لم يحلم به أهل الطبقة العليا في الأعصار السالفة فتتمتع بألوف من طرق الراحة من مثل سرعة المواصلات وجودة الطرق واستجادة الفنادق والحمامات البحرية والرحلات للنزهة والصحف والمجلات ودور التمثيل والغناء والمتاحف والطرق المبلطة المنارة المكنوسة . وروح هذه المدنية « العلم » الذي كان في القديم أداة من أدوات الظرف للخواص ومنذ وضعت أساليبه وتحققت نتائجه دخل في طور عملي وأصبح قائد الصناعة والتجارة وبقواعده أخذت السياسة تنظم

وتدور وأصبح لجميع طبقات الشعب اداة تربية العقل والخلق وغدت المدارس ودور الكتب من المعاهد العامة. والحكومات تتولى انشاء المدارس الابتدائية ولم يبق من أصول الانظمة القديمة الا نظام الأسرة والتملك وسقطت العادات التي كان يستمتع بها بعض الافراد ، فلم يبق لطبقة على طبقة امتياز والعالم سواء في الاستمتاع بالحق والخضوع للواجبات وأصبح اعتبار العملة والزراع كاعتبار المالكين . وقد جعلت طامة هذه التبدلات الحياة متنوعة سهلة حرة . وما قط جمعت المدنية حولها عالماً أكثر من اليوم يتناولون أسباب الهناء على السواء فتبدل كل شيء في الحياة المادية والعقلية والاجتماعية وأصبحت جميع الامم تحكم نفسها وعليها تبعة عملها بعد ان كان معظمها تحت سلطان حاكم يدعى انه ظل الله في الارض يستمد بزعمه من قوة سماوية تحكم عليه فيحكم بها على الناس .

فمن أين استمدت المدنية الغربية وما هي العوامل التي أثرت فيها فبلغت هذا النظام الذي لم يسبق له مثال في المدنيات القديمة ؟ فالجواب على ذلك بحسب رأى بلونشلي الالماني أن المدنية الحديثة التي تنشرها اليوم أوروبا وابنتها أميركافى أنحاء العالم قد اشتقت من مصادر ثلاثة وهي أولاً : المدنية القديمة اليونانية الرومانية وأثر اليونان باد في الفلسفة والشعر والهندسة والنقش . وأثر المدنية الرومانية ظاهر في الحقوق الخاصة والسياسة والتاريخ والهندسة. والعامل الثاني النصرانية التي قوت محبة القريب وسنت الشفقة على البائسين أيا كانوا وانشأت كثيراً من ملاجئ الاحسان وكان لتأسيس الكنيسة وانتشار سلطتها تأثير بالواسطة . واذا كان الناس في الغرب اليوم أقل تديناً وتعلقاً بالمعتقدات من أهل القرون الوسطى فان الاحسان وحب الخير عند المسيحيين أصبح أكثر شمولاً وأوفر عائداً مما كانا في سالف الاعصار .

ثالثاً ان الجرمانيين رفعوا مستوى المصدرين السالفين وبدلوا فيهما ولا سيما ما كان له علاقة بحب الحرية وحسن الاخلاق واحترام البشر . وليست هذه المصادر الثلاثة على اتساعها هي المعول عليها وحدها في المدنية الحديثة فان كل

امة من الامم المعاصرة قامت نحو الحضارة تبسط من العمل والنجاح ومنهم
الطليان الذين ورتوا المدنية القديمة مباشرة وأوجدوا قبل غيرهم لساناً وبياناً
وطنياً مجدداً وبلغوا غاية التأنيق في تزيين المدن ونشروا تجارتهم وألفوا أول
قانون تجارى . ونهضة الفنون زينت ايطاليا بمصانع مخلدة من آثار الهندسة
والتصوير والنقش وتغلبت على ظلمات القرون الوسطى

والمدنية مدينة بأقل من ذلك للاسبانيين والبورقاليين فانهم اذا طردوا
المسلمين خارج أوربا فذلك بثورة التعصب وبالقضاء على مدنية العرب الزاهرة .
وأهم ما قاموا به من الاعمال الصالحة اكتشافاتهم ماوراء البحار ونجاحهم
في الشؤون البحرية وكان لأدبهم شأن عظيم ، بيد أن استبداد الامراء ورجال
الكهنوت قد قضيا للحال على هذا الترقى الباهر وكان لتينك المملكتين شأن
الى أواخر القرن السادس عشر ولم تلبثا أن هاجتها طغمة اليسوعية المشؤومة -
على قوله - فحولوا القوى التى اقتبسوها من المدنية ليحاربوها بها

قال وكان للفرنسيين من بين الشعوب الرومانية السكيب المعلى فى خدمة
المدنية فان هذا الشعب العظيم يشعر من نفسه أكثر من غيره لان يعمل
فى الخارج مدفوعاً بعامل فكر المدنية فقد كان لهم مما بلغوه من الرشد وعرفوا
به من البديهة وحب التجدد فى الافكار وحقهم فى بسطها للناس وسلامة ذوقهم
ولطف مآثهم وسلاسة لغتهم وغناها ما أهلهم لان يكونوا مدة قرون فى رأس
المجتمع الاوربى . وقد زادت فى تفوذهم وحدة دولة وطنية قوية ذات عاصمة
بديعة من بين العواصم . فالمجتمع الفرنساوى كان كالمشرف الملقن لعامة المجتمع
المهذب وكان لفرنسا من آداب عصر لويز الرابع عشر والقرن الثامن عشر ومن
أفكار الثورة ونبوغ نابوليون ضمانة فى هذا الشأن طال معه تفردا بالاولية
فى أوربا وتتخذ على الفرنسيين عدة عيوب مهمة وهى النظر الى الاشياء نظراً
سطحياً والمعجب والمزاج الذى يحملهم على الغلو وتجنهم فى الابداع والتغيير .
وهذه النقائص قد عبثت بتركزهم العالى ، ولكن ما انتجته قرائنهم يستحق
شكر العالم

أما الشعب الانكليزي الممزوج من عناصر جرمانية ورومانية كالشعب
الافرنسي ولكن على صورة معكوسة وكذلك أخته الفتاة أميركا فقد اشتهرا
في ميدان السياسة وكانت لها اليد الطولى في تأليف الحكومة الدستورية فسميا
لترقية المبدأ في الحكومة الملكية المقيدة وتأليف المجالس النيابية وقيام الجمهورية
لا جرم انهما كانا يهتمان خاصة بحريتهما الوطنية ومصالحهما العامة ولكنهما كانا
ولا جدال المثالين الاولين في عالم السياسة الحديث ، والى هذين الشعبين يرجع
الفضل على الحرية وما جهزت به من الأسلحة المشروعة والضمانات الحقوقية .

وكان لأمركا عمل عظيم في باب حرية الوجدان والفصل بين الدين والسياسة
والانكليز أرقى من الفرنسيين من حيث الشعور بالتقاليد واحترامها فقد بنوا
بناءهم السياسي على أسس تاريخية مضمونة على حين قلما سلم الفرنسي الا في قلب
كل ما كان لهم ليقيموا البناء من جديد ، ولا نكلترا وأميركا الفضل الأعظم
في ترقية الفنون العلمية والصناعات والبحرية والتجارة في العالم . وما من شعب
يشبهها من حيث البحث عن الطرق العملية حتى كادت تنقلب هذه الصفة فيهم
أحيانا الى أنانية باردة في التقدير والسرد . والعلم مدين للانكليز والأميركيين
بشيء كثير من النجاح الذي بلغه . ولئن كان استعداد انكلترا للفنون الجميلة
أقل من استعداد غيرها فانها انبغت أعظم شاعر في العالم .

قال وامتاز الشعب الألماني خاصة بالخدمات التي خدم بها الحرية السياسية
والدينية والعقلية فقضى أولا على سلطة رومية المستبدة ، وهيا للقوميات مجالا
متسعا لتتألف جامعتها ويقوم أمرها وحال في القرون الوسطى دون استرسال
الباباوات في تسلطهم تسلطا عاما . ونادى في القرن السادس عشر بحرية الوجدان
وأثار العقول ببيعه وتربيته الحديثة ، ثم ان جهاده الدائم في البحث عن الحق
وغيره المتناهية في العلم وعقله المستقل الفعال والميول الأدبية التي فطرت عليها
نفسه وتحمسه بالجميل والجيد — كل هذا نشأت منه سلسلة من الأعمال العلمية
والادبية والصناعية والفنية التي ثقت الانسانية .

وقد جاء زمن ظن فيه الناس ان الشعب الألماني الآخذ نفسه بهذه الأعمال قد نسي أن يجعل له مقاما في الحركة السياسية الجديدة . وذلك ان مملكة ألمانيا الرومانية قد تداعت أركانها وظهر أن تخالف العناصر والدول والاديان يحول دون توحيدها وترك الأولية للغريب . وما كانت ألمانيا تظهر بأنها مثيلة لجاراتها الا في ساحة الافكار والعقل وكانت حكومتها السياسية أحط منها بكثير ، فحال دون اجتماع القوى المتفرقة وربطها برباط محكم ما فطر عليه الألماني من الجفاء في العشرة والتصلب في الرأي والشدة في الشكيمة واخلاص عدة من القبائل لامرائهم الى التي ما بعدها . وقد عرفت بروسيا الاستعداد السياسي والحربي في الأمة الألمانية فقامت الامبراطورية الألمانية مملوءة قوة ونشاطا بين أم أوروبا وحاولت تحرير الأمم وان تنقذ العقول من تربية اليسوعيين البليدة ومن وثنية البابا المعصوم .

هذا ما قاله بلونشلي الألماني في الامم التي رأيناها وكان لها شأن في الحضارة وقال ولز الانكليزي (مجلة العرفان م ٨ ج ٢) أن نور العلم والمدنية أتانا من طريق العرب لامن طريق اللاتين . نعم أن العرب حملت للامم الاوربية كثيرا من أساليب الحضارة أبانوابها كما في دائرة المعارف الافرنسية الكبرى أنهم حذاق في صناعة الحرب وحذاق في صناعة السلم . نقلوها الى جنوبي ايطاليا وفرنسا واسبانيا ومنها انتقلت الى سائر الامم الغربية ونقل الصليبيون عن المسلمين طائفة صالحة من هذه الطرق مدة حروبهم معهم نحو قرنين في الشام ومصر

أخذ الغرب عن العرب ما وسعه أخذه والباقي اقتبسه كما قال بلونشلي من المدينتين الرومانية واليونانية واذا أنصفنا لأنجد مدينة الغرب الاتمة المدينيات القديمة بما فيها من وثنية أقرت النصرانية بعضها ولا تزال الى اليوم ظاهرة الأثر فيها كما أقر الاسلام بعض طادات الجاهلية . وقد وصل الفرييون بالمدينة الى هذه الدرجة من الرقي بالعمل والثبات وحسن التنظيم ، وأهم ما أنجح مقاصدهم اضعافهم من سلطة الملوك ووضع الحكومات في نظام معين ارتقى بالزمن وتسلسل

التفكر في أعمالهم وأنظمتهم الاجتماعية ، ثم ان لهواء بلادهم دخلا كبيرا في رقيهم
دعاهم الى العمل والانكماش والحرس والاقدام على العظام أكثر مما كان من
ابن آسيا وأفريقية .

وقد حملت كل أمة في الغرب بحسب موقعها وتقاليدها والاحوال التي طرأت
عليها . هذا في الامم الكبرى أما الامم الصغرى فقد أحسنت الى الحضارة على
قلة أسبابها فأنعمت لها اجماداً ربما كانت أعرق فيها من الامم العظيمة . وربما
كانت المدنية أرسخ قديماً وأشد مرونة في الدائم كواسوج وزوج وسويسرا
وهولاندة والبلجيك أكثر من الامم القديمة العظيمة التي شغلت بالحروب وكاد
جها يمتزج بأجزاء روحها ، وأصبحت حياتها وحياة أبنائها معلقة على تحديد
سلاحها وتقنيتها في سياستها لاستتصاف بلاد غيرها وتكبير رقعة سلطانها واغفال
المعنويات في الاحياء والنظر الى الماديات فقط (١)

(١) قال درابر الاميركي بعد أن وسع العرب ملكهم وأيدوا كلمتهم حولوا أفكارهم نحو
للعارف والعلوم فامتازوا فيها وبرزوا على معاصريهم اذ كان من مبدإهم أن يرقبوا ويمتحنوا
وقد حسبوا الهندسة والعلوم الرياضية وسائط لقياس ومما تجدر ملاحظته انهم لم يعتمدوا فيها
كتبهم في الميكانيكيات والساعات والبصريات على مجرد النظر بل على المراقبة والامتحان بواسطة
الآلات وذلك ما صيرهم مبتدعي الكيمياء وقادهم لاختراع ادوات التصفية والتنجير ورفع الاثقال
ودعاهم الى استعمال الرمح والاصطرلاب في علم الهيئة واستخدام الموازن في الكيمياء مما خصوا
به دون سواهم والى صنع جداول الجاذبية النوعية وعلم الهيئة كالتى اصطنعت في بغداد والاندلس
وسمرقند وذلك جعلهم أيضاً يوجدون تحسينات عظيمة في قضايا الهندسة وحساب المثلثات واخترع
الجبر واستعمال الارقام العديدة في الحساب وكان هذا كله من نتائج استعمالهم طريقة الاستدلال
والامتحان . ولم يقرروا في علم الهيئة لوانح فقط بل رسموا خرائط النجوم المنظورة في فللكهم
أيضاً مطلقين على ذوات القدر الأعظم اسماء عربية لازال ترد على كراتنا الفلكية وقد عرفوا
حجم الأرض بقياس درجة سطحها وحينوا الكسوف والخسوف ووضعوا الشمس والقمر جداول
مصححة وقرروا طول السنة وادركوا الاعتدالين ولا حظوا أشياء بعثت نوراً بهراً على نظام
العالم واختص علماء الفلك من العرب باختراع الآلات الفلكية لقياس الوقت بالساعات المتنوعة
وكانوا السابقين في استعمال الساعة الرقاصة فللك وهم انشأوا في العلوم العملية علم الكيمياء
وكشفوا بعض أجزائها المهمة كحامض الكبريتيك وحامض النتريك والكحول وهم الذين استخدموا
ذلك العلم في المهالجات الطبية اذ كانوا أول من نشر الفرمكوبيا والمستحضرات المدنية وهم قرروا
في الميكانيكيات نواويس سقوط الاجسام وكان لهم رأي جلي من جهة طبيعة الجاذبية ورأي

أما الأمم التي استقلت في العهد الأخير كالليونان ورومانيا وبلغاريا ويوغوسلافيا وتشكوسلوفاكيا وبولونيا وفنلندا وغيرها فأكثرها ذات مدنيات قديمة عرض لها مامزق شملها زمناً لسلطان جائر قبض بمخالبه على أعناقها واستعادت بعد الحرب حالتها السياسية في الجملة فأصبحت كل واحدة تحيا باسم القومية كما حيت الممالك الكبرى من قبل وكلها تحتذى مثال الدول المنظمة القديمة وتأخذ عنها أحدث الأساليب حتى أصبح بعضها موضوع إعجاب المنصفين من الباحثين مثل يونان ورومانيا وبلغاريا بأنها نهضت في مدة قليلة ما كان منه مثال للشرق في أمة تريد أن تحيا وقد رأينا مصر والامستانة أخذتا بحظ وافر من الحضارة الحديثة وتوشك أن تأخذ سائر البلاد المستعمدة في هذا الشرق القريب — ولا سيما بلاد العرب والفرس — حظها من مدنية تعبت أوربا قروناً طويلة في نسج خيوطها وقادت بألوف الألوف من البشر لقيام نهضتها وقتات عشرات الملايين من الجنس الأصفر والاحمر والاسود بل والايض لتقيم محلهم المستعمرين من أهلها . وعسى أن يكون شأن العرب والفرس من ذلك شأن يابان أخذت عن الغرب مامت اليه حاجتها ومزجته بمدنيتها القديمة فهي خير مثال يحتذى والسلام

انتهت الرحلة الثالثة وبها انتهت الرحلات الثلاث

سديد بالقوات الميكانيكية واصطنعوا في الهيدروستاتيك الجداول الأولى للجاذبية النووية وكتبوا مقالات على عوم الاجسام وغرقها في الماء واصلحوا في علم البصريات خطأ اليونان بحكون اشعاع يصدر من العين ويمس المرئي فيظهره . أما هم فقالوا ان الشعاع يمر من المرئي للعين وفهموا مسوس انعكاس النور وانكساره واكتشفوا طريق الشعاع المنعني في الهواء وبرهنوا على انا نرى الشمس والقمر قبل الشروق وبعد الغروب قال والذي يدهش كثيراً ان تصور أشياء تقتصر أنهما من مواليد وقتنا ثم لا نلبث ان نراهم سبقونا اليها فتعليمنا الحاضر على الشوء والارتقاء كان يدرس في مدارسهم وحنأ اتم وصلوا به الى الاشياء الآلية وغير الآلية فكان المبدأ الرئيسي في الكيمياء عندهم المظهر الطبيعي للاجسام المعدنية (اتمنى مريباً من مفالة في مجلة النعمة بقلم الاستاذ عبده كميل)

فهرس غرائب الغرب

الجزء الثاني

الرحلة الثالثة

صفحة	صفحة
العربية والافرنسية	٧٠ ٢
مواطن اللغة الافرنسية	٧١ ٥
علائق العرب بالفرنسيس	٧٢ ٩
الامراء العلماء	٧٣ ١٢
احتفال الفرنسيس بالادب	٧٤ ١٤
والعلم	
صفحة من تاريخ فرنسا	٧٥ ١٨
قصر فونتنبلو	٧٦ ٢٨
الموسيقى الغربية	٧٧ ٣١
لغة عامة	٧٨ ٣٤
البلجيك	٧٩ ٣٨
عمران هولاندة	٨٠ ٤٣
هولاندة والاسلام	٨١ ٤٨
هولاندة والعرب	٨٢ ٥٢
معاهد انكلترا - المتحف	٨٣ ٥٨
البريطاني جامعة اكسفورد	
جامعة كبريج	
المجتمع الانكليزي -	٨٤ ٦٤
السياحة والانكلز -	
توريث البكر - الجمعيات	
والمنتديات - اشرافهم	
ونبلاؤهم	
النفس الانكليزية	٨٥ ٧٣
أخلاق الانكليز وعاداتهم	٨٦ ٨٧
انكلترا والاستعمار	٨٧ ٩٤
الاندلس - صدر الكلام	٨٨ ١١٠
ومصادره	
تحية الاندلس	٨٩ ١١٤
تقويم الاندلس	٩٠ ١١٦
فتح الاندلس	٩١ ١١٩
عمران الاندلس	٩٢ ١٢٥
أهل الاندلس	٩٣ ١٢٩
تسامح العرب	٩٤ ١٣٣
العرب في الاسبان	٩٥ ١٣٨
العلم في الاندلس	٩٦ ١٤٢
تقن عرب الاندلس	٩٧ ١٦٠
مدينة مجريط	٩٨ ١٧١
در الاسكودريال	٩٩ ١٧٣

صفحة	صفحة
١٧٥	١٠٠ قرطبة والزهراء
١٨٠	١٠١ مدينة اشبيلية
١٨٢	١٠٢ مدينة غرناطة
١٨٥	١٠٣ قصر الحمراء
١٩٣	١٠٤ كتابات الحمراء
١٩٧	١٠٥ ذكرى مؤلة
٢٠٠	١٠٦ جلاء المسلمين وتنصيرهم
٢٠٦	١٠٧ سقوط الاندلس
٢١١	١٠٨ جبل طارق
٢١٣	١٠٩ علم المشرقيات في اسبانيا
٢١٧	١١٠ اسبانيا بعد العرب
٢٣٢	١١١ البورتقال بعد العرب
٢٣٧	١١٢ برلين
٢٤٢	١١٣ المانيا الاقتصادية
٢٤٧	١١٤ العلم والعمل
٢٥٤	١١٥ مدارس المانيا
٢٦٠	١١٦ أخلاق الألمان
٢٦٦	١١٧ مثال من مزارع المانيا
٢٧٣	١١٨ الصحة في ألمانيا
٢٨٠	١١٩ تاريخ المشرقيات في المانيا
٢٨٣	١٢٠ الممالك الجديدة
٢٨٧	١٢١ آثار العرب في ايطاليا
٢٩٠	١٢٢ الحضارة الغربية



حذّر الخطأ والصواب

«وقعت بعض أغلاط مطبعية في الجزء الأول والثاني من غرائب الغرب
وهنا نحن أولاء نصحيحها ونترك بعض أشياء يهتدى القارىء اللبيب من نفسه الى
وجه الصواب فيها»

«الجزء الأول»

صفحة ٧ سطر ١٢ خطأ — لحدودها — صواب لحدوها ص ٢٥ س ١٣
أى — آيا ص ٣٧ س ١٨ رأو — رأوا ص ٣٩ س ٥ تسعة أعشار — أحد أعشار
ص ٦٨ س ١٣ Thiers — Chiers ص ٦٩ س ١٤ امانتهم — أمانتهم ص ٧٤ س ١٢
الصلاة — الصلات ص ١٠٢ س ٦ أو نقلت — لو نقلت ص ١١٦ س ٨ لوز الرابع —
لوز الرابع عشر ص ١٣١ س ٢٥ La pulicité — La publicité ص ١٣٩ س ٩
ستاسبورغ — ستراسبورغ ص ١٥٥ س ١٢ الا وأخذ — الا وأؤخذ ص ١٦٢
ص ٢٤ بها ان — بها ابن ص ١٩٦ س ٢٤ بألا يفكرون — بأنهم لا يفكرون
ص ١٩٥ س ٥ تحتاج حسن — تحتاج في حسن ص ١٩٩ س ٢٤ مقدماً — مقدساً
ص ٢٠١ س ٣٠ و٣١ والتقبن — وانتقبن . والتخصب — والتخصب ص ٢٠٧
س ١٢ شاهدة — شاهد ص ٢١٧ س ٧ التثبت — التثبت ص ٢١٦ س ١
دينياً — وبيننا ص ٢١٩ س ٧ مقعد — معتقد ص ٢٢٤ س ٣٠ قانون — قانوناً
ص ٢٢٩ س ٢٤ ليعملا — ليعملوا ص ٢٣٢ س ١٠ مازوتى — مازونى ص ٢٣٣
ص ٢١ و٢ الميتر — المنبر . عد مثلها — عن مثلها ص ٢٣٤ س ٦ و١٤ امانات المدارس —
امانات المدارس . يتمخضون — يتمخضون ص ٢٤٧ س ١٣ ازدهاء — ازدهار
ص ٢٤٨ س ١٦ ويزاء — ويزا ص ٢٤٩ س ٦ الاسلامى — الاسلام ص ٢٦٠
س ٤٦ يعالجها — يعاجلها ص ٢٦١ س ١٦ ليتمثل — يتمثل ص ٢٨٨ س ١
أصمادها — اعتمادها ص ٢٨٩ س ٨ قصدوا — فصدوا ص ٢٩٢ س ١٥ طادة —
طادات ص ٢٩٧ س ١ الآخريان — الأخريان ص ٣٠٩ س ٨ برنال — برنار

٣١٠ و ٣١١ (الصفحة ٣١٠ والاربعة الاسطر الاولى من صفحة ٣١١ تابعة للحاشية الواردة في صفحة ٣٠٩ بالحرف الدقيق) ص ٣١٤ س ٢٢ المجرد - المجر ص ٣٢٠ ص ١٩ بقضاء - بقضاء ص ٣٢٣ س ١١ الوالدين الذين - الوالدين الذين ص ٣٢٦ س ١٨ الوجود - الوجوه ص ٣٢٨ س ٢٢ ووجدنا - ووجدنا ص ٣٢٩ س ١٥ الغلامنديين - الغلامنديين ص ٣٣٣ س ٢٥ Artin la Grèce nouvelle - Martin : La Grèce nouvelle ص ٣٣٤ س ٢٥ تعدنيه - تعدينه ص ٣٣٥ س ٣ الا باستخدام - الا باستخدام ص ٣٣٦ س ١٦ لا أنسى - لا أنس .

« الجزء الثاني »

ص ٦ س ١٨ والكوانلوب - والكوانلوب ص ١١ س ٢٤ dérivés - dérivés ص ١٥ س ١٢ بارتز - بارتو ص ١٧ س ٢٢ بل مقلدين أو مجتهدين - بل مقلدين ومجتهدين ص ١٨ س ٢٠ و ٢١ Seignobses, Rambaud - Ram Band Seignobos ص ١٩ س ١٣ وكانت - وطافت ص ٢١ س ٢٥ فيسبومي الملاح القلودنسى - نيسبوس الملاح القلودنسى ص ٢٢ س ١٥ باستعمال - باستعمال ص ٢٣ س ١٥ رفعتها - رفعتها ص ٢٥ س ١٨ برناروس - برناردس ص ٢٧ س ٥٥ و ١٥ قحمة - نفمة . بضائع - بضائع ص ٢٨ س ٢١ تبهجتك - تبهجتك ص ٢٩ س ٩ ما اشتهر بنفها - ما اشتهر في بنفها ص ٣٠ س ١٨ و ١٩ وساحتها - ومساحتها . و ٤٠٠٠ هكتاراً و ٤٠٠٠ هكتار ص ٣٢ س ١٧ و ٢٢ غير نكير - من غير نكير . وان لم يفهما - فهو وان لم يفهما ص ٣٤ س ١ سازه ساين - سان ساين ص ٣٩ س ١٤ مقولا - مقولا ص ٤١ س ٤ لا فرقاً - لا فرق ص ٤٤ س ١٠ و ١١ مع الحياة - مع المياه وهذا - هذا ص ٤٦ س ٧ على هنيته - على هنيته ص ٤٨ س ٢٢ L' Encyclopédie - L. Encyclopédie ص ٥٢ س ١٧ أن يرسل - أن يرسل ص ٥٥ س ٤ علماً لمعاجم - على المعاجم ص ٥٦ س ١١ و ١٨ جوها لا بريل - جوهان بريل . والسنكريتية . . . الآرتية - السنسكريتية . . . الآرية ص ٥٧ س ١٤ عينة - عبيد ص ٥٨ س ٢١ بلندرا

أكثر - بلندرا كثر ص ٦١ س ١٠ غير القسيس - غير القسيسين ص ٦٣
 من ١٦ و ٦ تعريف - وتصريف . وبكريج - كبريج ص ٧٠ س ١٦ الناس
 أربعة - الفلنس أربعة ص ٧١ س ٨ بنظر غريب - بنظر غريب ص ٧٣ س ١٨
 ١٩ و ٢٠ و ٢٢ Essou'd, nue - Èssaid'une -- Taine - Caine
 peuple ang'ais au X I X siècle -- peuple anglais au X L X e siècle
 Européens - Européenne ص ٧٩ س ١٢ وجدت - وجوت ص ٨٠ س ٢
 شادوا - ساووا ص ٨٧ س ٢٠ والمباهات - والمباهاة ص ٨٩ س ٢٠
 والزماندين ص ٩٠ س ٨ كأنه - كأن ص ٩٧ س ١٤ العربية -
 الغربية ص ٩٨ س ١٦ و ٢٤ تدفعها - يدفعها . Blene -- Bleue ص ١٠١ س ٣
 تقي أشخاص - تقي الأشخاص ص ١٠٥ س ٦ صرحت - حرصت ص ١١٢
 من ١٨ Lavisce - Lauisse ص ١٢١ س ٧ فشتيلية - فشتيلية ص ١٢٥
 من ١٣ و ١٦ وان يعدل - وأين يعدل . أنارها - أنهارها ص ١٢٩ س ٨
 شاهدها - شادها ص ١٣٩ س ١٦ مائة - مائة ص ١٤١ س ٢١ Justituto -
 Instituto ص ١٦٨ س ٧ و ٢٣ و ٢٤ طليعة - طليطة . المتوخت - المتوخاة .
 ويوئه - ويوئه ص ١٧٤ س ٤ فن - فن شقائه ص ٢٠٥ س ٢٣ Caluica -
 Catholica ص ٢١٨ س ٦ و ٥ بالتصرف - بالتصوف . الامنة - الامة ص ٢٢٢
 من ٢٤ تساعد - ساعد ص ٢٢٣ س ٤ الكتلانكيين - الكتلانين ص ٢٢٤
 من ٣ و ٤ وزارته - ووزارته . يقين - تعيين ص ٢٢٩ س ٢٢ غريانا - غويانا
 ص ٢٣٠ س ١٤ الشائقة - الشائعة ص ٢٣١ س ٣ و ١٥ و ٢٠ الاعتناء - الاغتناء .
 وطنيتها - وطنيتها . وما تدرى أيلتم - وما ندرى أيم ص ٢٣٨ س ١٤ و ٢٣
 و ٢٤ متوافر - متواز . درسه - درس . Jules -- Gules ص ٢٤٣ س ٩
 و ٢٢ الواردات - الولادات . اشتغلت - استغلت ص ٢٤٦ س ١ القرن
 التاسع - القرن التاسع عشر ص ٢٤٧ س ١٢ و ١٩ والفيناسيتين - الفيناسيتين .
 مساحة - مساحة ص ٢٥٠ س ٩ البروسية - البروسية ص ٢٥٢ س ٢٤ سادوثا -
 سادوثا ص ٢٥٦ س ١٨ و ١٩ و ٢٤ كنغبرغ - كنغبرغ . كيش - كيل .

کرایفسوالد — کرایفسوالد . روشتون — روشتون . لکروشته — لکروشته
ص ۲۵۹ س ۳ ظلفی — ظلفی ص ۲۸۱ س ۲۸۰ و ۲۱ فلیسز — فلیشر . فولدکه —
فولدکه . فولدکه — فولدکه ص ۲۸۲ س ۱۴ و ۱۸ فلیسز — فلیشر . المعجاج —
والمعجاج ص ۲۸۳ س ۲۲ و ۲۳ internationalisme — ninternationalisme
Traité — Craite ص ۲۸۴ س ۴ الثانية عشرة — الثامنة عشرة ص ۲۸۷ س ۱۶
ضربت — ضربت ص ۲۸۸ س ۶ قطران — قصران ص ۲۹۰ س ۱ حنت —
سنت ص ۲۹۱ س ۲۴ و ۲۵ — evolutions — Bruyssel — Brnyssel
e'volutions ص ۲۹۴ س ۱ تبسط — قسط

